

لوكاز هيرزويز
ألمانيا الهتلرية
والمشرق العربي

ترجمة

أحمد عبد الرحيم مصطفى

تقديم

عبد الخالق محمد لاشين

ميراث الترجمة

يوضح هذا الكتاب بالتفصيل علاقات ألمانيا الهتلرية بالعالم العربي، مستنداً إلى المادة الوثائقية التي لم تستغل من قبل على هذا المدى الشاسع. وهو يبين الخطأ الرئيسي الذي تردى فيه هتلر حين اتبع إستراتيجية عسكرية قصيرة النظر، بتركيزه كل جهوده على خطة "برباروسا" الخاصة بالهجوم على الاتحاد السوفيتي، وتجاهله إمكانيات الثورة في العالم العربي ضد الاستعمار الغربي. كما أن هذا الكتاب - من ناحية أخرى - يوضح موقف القادة العرب والرأى العام العربي من المشروعات والدعاية النازية، ويقدم للقارئ العربي عرضاً ممتعاً لموضوع كان في الماضي القريب موضعاً لكثير من التساؤلات.

ألمانيا الهتلرية والمشرق العربي

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2133
- ألمانيا النازية والمشرق العربي
- لوكاز هيرزويش
- أحمد عبد الرحيم مصطفى
- عبد الخالق محمد لاشين
- اللغة: الإنجليزية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
The Third Reich & the Arab East
By: Lukasz Hirszwicz
Copyright © 1966 by University of Toronto Press
Original edition published by University of Toronto Press,
Toronto, Canada
Arabic Translation © 2015, National Center for Translation
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

ألمانيا الهتلرية والمشرق العربي

تأليف: لوكاز هيرزويـــــــــــــــــز

ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى

تقديم: عبد الخالق محمد لاشين



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هيرزويز، لوكانز
ألمانيا الهنترية والمشرق العربي / تأليف: لوكانز هيرزويز، ترجمة:
أحمد عبد الرحيم مصطفى، تقديم: عبد الخالق محمد لاشين.
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٥٢ ص، ٢٤ سم
١ - ألمانيا - تاريخ - الحروب النابليونية (١٧٩٠ - ١٨١٥)
(أ) مصطفى، أحمد عبد الرحيم (مترجم)
(ب) لاشين، عبد الخالق محمد (تقديم)
(ج) العنوان
٩٤٣،٠٧

رقم الإيداع: ٢٠١٤/ ٢١٦٤٥
الترقيم الدولي: 8 - 937 - 718 - 977 - 978 - I.S.B.N
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربي وتعرفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم
ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم

عبد الخالق محمد لاشين

الكتاب الذي نقدمه اليوم: للمؤلف البولندي لوكاز هيرزويز، تحت عنوان "الرايخ الثالث - ألمانيا تحت حكم النازية - والعالم العربي. أعدها المؤلف كدراسة علمية نشرت أولاً باللغة البولندية بوارسو عام ١٩٦٣. ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ونشرت في لندن عام ١٩٦٦، بعد أن زودها المؤلف بمادة علمية جديدة مستقاة من مصادر جديدة من دور الحفظ والأرشيف البريطاني وغيره.

تقع الدراسة - بالإنجليزية - في أربعة عشر فصلاً بالإضافة إلى تقديم وخاتمة ومصادر. وقد تُرجمت في نصها الإنجليزي إلى اللغة العربية لأول مرة في لغة عربية مُبينة قام بها المؤرخ المصري البارز والعالم الأكاديمي المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى، ونشرتها دار المعارف بمصر عام ١٩٧١ ضمن سلسلة "مكتبة التاريخ العربي الحديث". تلك السلسلة التي أنشأها العالم الاقتصادي المرموق المرحوم الأستاذ الدكتور إسماعيل صبري عبدالله - وزير التخطيط الأسبق - عندما تولى الإشراف على دار المعارف في مرحلة من تاريخها، نشرت خلالها مجموعة من الدراسات والمؤلفات والترجمات التاريخية العلمية الهامة والقيمة، تناولت جوانب عديدة من تاريخ مصر والعالم العربي الحديث والمعاصر، بفضل تعاون منشئ هذه السلسلة مع نفر من الأكاديميين

والمثقفين المصريين والعرب بحثًا وتأليفًا وترجمةً ونشرًا، بغرض كشف النقاب عن جوانب هامة وجديدة في التاريخ العربي، وك محاولة لتأصيل الكتابة التاريخية العلمية، وتذكير العرب بتاريخهم وتنمية وعيهم بذاتهم، باعتبار أن التاريخ هو علم الوعي، للنهوض في سبيل تحرير إرادتهم وصنع حاضرهم، بعد أن خطت المنطقة على درب الاستقلال والتحرر من التبعية والوقوع تحت ربة الاستعمار الغربي فترة ليست بالقليلة.

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب وأهمية الموضوع الذي طرقه المؤلف وتناوله بالدراسة، وربما كانت كذلك السبب من وراء ترجمته ونشره ضمن هذه السلسلة المذكورة. والكتاب الذي نحن بصدد حديثه في موضوعه، فريد في بابيه من حيث تناوله علاقة ألمانيا بالمنطقة العربية من خلال الوثائق الألمانية وغيرها؛ منذ قيام الدولة الألمانية الموحدة خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٧١) ومدى اهتمامها بالدولة العثمانية - صاحبة السيادة على معظم دول المنطقة - وبدايات نمو المصالح الألمانية فيها والسياسات التي انتهجتها تجاه بلدان وولايات العالم العربي منذ ذلك التاريخ وما تلاه حتى نهاية الحرب العالمية الثانية؛ عندما انهار الرايخ الألماني الثالث بانتهاء الحكم النازي ووقعت ألمانيا ذاتها تحت وطأة احتلال القوى الكبرى والدول المنتصرة في الصراع العالمي؛ وقسمت أراضيها إلى دولتين: عربية وعاصمتها بون؛ ووضعت تحت الاحتلال والسيادة للدول الغربية، وأخرى شرقية وعاصمتها برلين وخضعت للسيطرة السوفيتية. بل وكان قد تم تقسيم برلين، عاصمتها التاريخية، إلى قسمين شرقي وغربي فصل بينهما جدار سميك عرف بجدار برلين ظل قائمًا حتى عامي ١٩٨٩/١٩٩٠ عندما انهار المعسكر الشرقي وسقط النظام السوفيتي، وأعيد توحيد الألمانيتين في دولة واحدة.

والكتاب يتناول بالدراسة الفترة التي خضعت فيه ألمانيا للحكم النازي بقيادة أدولف هتلر منذ عام ١٩٣٣ وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ وسقوط هتلر والنازية. وإن كان المؤلف قد قدم لذلك باستعراض عام للفترة السابقة ومنذ توحيد ألمانيا عام ١٨٧١. ونظرًا لأن ألمانيا الموحدة وإلى حد كبير لم تكن أبدًا قوة احتلال في العالم العربي منذ ظهورها كدولة موحدة - لأسباب عدة - فضلًا عن أنها لعبت دورًا مناوئًا ومنافسًا للقوى الاستعمارية الغربية في بلدان العالم العربي حين تقاسمت فيما بينها احتلال معظم دوله؛ فقد وقر في ذهن المواطن العربي عمومًا أن ألمانيا دولة غير استعمارية، بدأت تنثر أعجاب الكثيرين من العرب وخاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وكذلك بفضل ما أحرزته من تقدم علمي وتكنولوجي إلى غير ذلك. وما اشتهر عن الألمان من دقة وانضباط واحترام شديد للعمل... كما قد يرجع ذلك الإعجاب في بعض جوانبه إلى قدرة الألمان ونجاحهم في إعادة بناء قوتهم بشكل مثير ومُبهر خلال فترات وجيزة بعد الهزيمة والانهيار الذي منيت به ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى وما نجم عنه من تمزيق لأراضيها وفرض تعويضات باهظة على الألمان وكذلك فرض قيود ثقيلة ومجحفة على صناعاتهم مدنية كانت أم عسكرية. ربما أن كل ذلك عُدَّ - في رأي الكثير من المؤرخين - مسنولاً عن ظهور ونمو النازية في ألمانيا والتي نجحت في ارتقاء السلطة وسدة الحكم عام ١٩٣٣. ولربما قد يتكرر ذلك المشهد مرة أخرى بعد الانهيار الثاني لألمانيا بنهاية الحرب العالمية الثانية وما حلَّ بها من دمار وخراب ، ومن هنا سيستمر هذا الإعجاب بالألمان لدى قطاعات من أبناء العالم العربي وغيرهم لفترات متكررة وحقبه ليست بالقليلة.

وربما أن مثل ذلك الأعجاب من جانب العرب سيحظى به شعب آخر ودولة أخرى خلال النصف الأول من القرن العشرين وأعلى به الشعب الأمريكي والولايات المتحدة الأمريكية، ذلك البلد الذي نال استقلاله وأقام نظامه ودولته الفدرالية بنهاية القرن الثامن عشر وظل لفترة ليست بالقليلة بعيداً عن ممارسة أى دور احتلالى أو استعماري تقليدي في منطقتنا العربية^(*)؛ على النحو الذى تعرض له من بلدان ودول أوروبا الغربية؛ إنجلترا وفرنسا بخاصة. ولقد تبدل الحال إلى عكس ذلك - تقريباً - بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية وبروزها كقوة عظمى سعت إلى ورائثة الاستعمار الغربى الأوروبى؛ وإن بأساليب جديدة تتناسب وروح العصر الجديد وسيادة مرحلة الاستقلال والتحرر الوطنى بحصول الكثير من بلدان إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية على استقلالها وتحررها من ربة الاستعمار الغربى القديم وبروز قوة الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى دعمت هذه الروح التحررية التى برزت وتدعمت خلال هذه المرحلة من التاريخ الإنسانى. ومنذ ذلك فصاعداً تبدلت صورة الإعجاب بالولايات المتحدة الأمريكية إلى نقيضها تماماً، للدور والأساليب التى مارستها مع شعوب وبلدان عالمنا العربى في سعيها إلى دعم استقلالها وتحررها. فضلاً عن الموقف الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية تجاه أهم المشكلات التى واجهت شعوبنا العربية بقيام الدولة العبرية واستلاب فلسطين وما حظيت به تلك الدولة الغاصبة من دعم

(*) إلا في ضربها للأساطيل البحرية للأسرة القرمانية في ليبيا في البحر المتوسط خلال الحقبة الأولى من القرن التاسع عشر بحجة ما سمته "القرصنة البحرية". نعمة عتيقة أطلقها الاستعمار مساوية لنعمة "الإرهاب" المعاصرة.

مطلق وكامل سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا من جانب الولايات المتحدة الأمريكية بحيث جعلت منها قوة عصبية على العرب، وراحت تلهب بها ظهور العرب دولاً وشعوباً وأنظمة؛ فتبدلت صورة ذلك الأعجاب القديم للولايات المتحدة إلى صورة نقیضة تماماً جسدت به وجه "الرجل القبيح" وسياسة "العصا الغليظة" لدول وشعوب الأمة العربية بأسرها.

وإذا كان ذلك قد حدث مع الولايات المتحدة الأمريكية في منطقتنا؛ فإن صورة الاعجاب القديمة للألمان شعباً ودولة - ظل إلى حد كبير قائماً حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين تقريباً بشكل أو بآخر. وذلك برغم ما ساهمت به ألمانيا - سواء بشكل مباشر أو غير مباشر - في تعقيد المشكلة - بل المأساة الفلسطينية - سواء في توسيع حجم الهجرة اليهودية من ألمانيا إلى فلسطين بسبب الاضطهاد الألماني لليهود مرتين في فترتين مختلفتين؛ الأولى في أعقاب قيام الدولة الألمانية الاتحادية عام ١٨٧١ في ظل سياسة بسمارك تجاه اليهود وما عرف آنذاك "بحركة الكفاح الثقافي" لفرض الثقافة الجرمانية على اليهود ومقاومتهم لها، والثانية تجسدت في ظل سيطرة السلطات النازية منذ عام ١٩٣٣ وما تلاها وخاصة خلال الحرب العالمية الثانية والسياسات التي انتهجها النازيون تجاه اليهود مما دفع الكثيرين منهم إلى الفرار خارج ألمانيا وتعرض الباقين أو الكثيرين منها إلى التتكيل شأن غيرهم من أقليات أخرى غير جرمانية. والأمر الأكثر إثارة أن ألمانيا ساهمت للمرة الثالثة لاحقاً في تعقيد المشكلة الفلسطينية وتعاضم حجم وقوة الدولة العبرية لاحقاً منذ قيامها عام ١٩٤٨ بل وحتى وقت قريب جداً - بل وربما

حتى الآن - لخضوع الألمان للابتزاز اليهودي بفضل مبدأ التعويضات الهائل الذي أجبرت ألمانيا على تحمله والوفاء به لليهود وللدولة العبرية بشكل أو بآخر مدفوعة وملاحقة بما قيل عنه مركب الذنب الذي تسببت فيه "المحرقة النازية" لليهود خلال سنى الحرب العالمية الثانية، وتحملت عبء دفعه ألمانيا والشعب الألماني - وربما لازالت حتى الآن، سواء في شكل أموال ونقود سائلة، أو في شكل عتاد ومعدات وتجهيزات - مدنية وغير مدنية - فضلاً عن الخبرات والتعاون العلمي الواسع والتكنولوجي مع الدولة العبرية.

والكتاب الذي تحت أيدينا الآن يتناول بالدراسة علاقة ألمانيا والألمان بالعالم العربي خلال الفترة التي سادها تيار الإعجاب العربي بالألمان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. والذي تبدي في صور وأشكال عديدة لأفراد وتنظيمات وقادة وساسة في كثير من أرجاء العالم العربي.

وقد تناول المؤلف دراسته بروح علمية أكاديمية رصينة. اعتمد فيها على أوثق المصادر الأصلية المتاحة وأهمها الوثائق الألمانية الرسمية في الأرشيفات الألمانية أو في تلك التي استولى عليها الحلفاء والمنتصرون، وكذلك على الوثائق البولندية والبريطانية وغيرها من الوثائق الهامة والرسمية وثيقة الصلة بموضوع الدراسة سواء وثائق إيطالية أو فرنسية أو أمريكية أو غيرها. هذا بالإضافة إلى ما تيسر له من مؤلفات ومذكرات وكتابات عربية لبعض الشخصيات العربية التي كانت لها صلات أو علاقات وثيقة بالساسة والسياسة الألمانية خلال فترة الدراسة. ولهذا جاءت الدراسة أكاديمية من الطراز الأول؛ تميزت إلى حد ليس بقليل بالدقة والموضوعية.

ومن بين أبرز الموضوعات التي تناولها المؤلف بالدراسة في فصوله الأربعة عشر: ألمانيا والدولة العثمانية. ألمانيا وفلسطين والمسألة الفلسطينية، ألمانيا والدولة السعودية، ألمانيا والبلدان العربية: سوريا ولبنان وفلسطين ومصر والعراق والسعودية عند اندلاع الحرب العالمية الثانية. ألمانيا والعراق والثورة العراقية ورشيد الكيلاني. ألمانيا ومعارك الحرب في سوريا. ألمانيا وقيادة الثورة الفلسطينية والحاج أمين الحسيني. ألمانيا والحرب في مصر والوجود البريطاني والنظام المصري القائم. ألمانيا ومعارك الشمال الأفريقي وخاصة في تونس والحركة الوطنية بها والحبیب بورقيبة. وغير ذلك الكثير من الموضوعات والقضايا الهامة؛ تمثل رؤية هامة وجديدة من خلال الوثائق الألمانية بخاصة.

ويمكن القول أنه على الرغم من مرور فترة ليست بالقليلة على إعداد هذه الدراسة ونشرها في لغتها الإنجليزية فإن ما ورد بها من حقائق وتحليلات حافظت إلى حد كبير على رصانتها وبقائها، ولم يطرأ عليها - في الكثير من جوانبها - ما قد يعيد النظر جذرياً فيما تناولته من وقائع وتحليلات؛ خاصة وأنه لم يكتب على حد علمي إلى الآن دراسة جديدة تناولت موضوع مؤلفنا هذا على شموله واتساعه للعلاقات الألمانية مع الكثير من البلدان والشعوب العربية؛ الذي تناوله هذا الكتاب. اللهم إلا بعض الدراسات هنا وهناك التي تناولت دراسة علاقات محددة بين ألمانيا ودول عربية بعينها؛ أو فترات مغايرة لبلد أو آخر مع ألمانيا والشعب الألماني^(٥).

(٥) ومنها دراسة د. وجيه عتيق؛ السياسة الدولية وخفايا العلاقات المصرية الألمانية ١٩٥٢ - ١٩٦٥، دار النهضة العربية، ١٩٩١. وهي دراسة لفترة لاحقة حول علاقات مصر الثورة بألمانيا الاتحادية (خلال فترة تقسيم ألمانيا).

وأنى لأرجو أن يثير إعادة نشر هذا الكتاب من جديد الفضول والاهتمام لدى الباحثين والأكاديميين العرب للقيام بدراسة العديد من الجوانب والقضايا الكثيرة والمتشابكة التى أثارها هذه الكتاب؛ وليفتح شهية الباحثين في اقتحام موضوعات مُماثلة أزاح الكتاب عنها بعض غموضها... كما أمل أن يسد فراغاً هاماً وهائلاً لدى القارئ العام وغيره في تأصيل فهم الدور الألماني والعلاقات الألمانية مع بلداننا العربية: أحزاباً ومؤسسات ونظم وشركات وغيرها. خاصة بعد أن أصبحت ألمانيا تشكل إحدى القوى الكبرى الفاعلة في التجمع الأوربي المعاصر، وعلى صعيد القوى العالمية المعاصرة.

والله من وراء القصد،،،

تصدير

بتناول الكتاب الذى نقدمه إلى قراء العربية موضوعاً هاماً من موضوعات التاريخ العربى المعاصر ، لم تتسن حتى الآن دراسته بصورة شاملة . فأسرار سياسة الريح الثالث إزاء العالم العربى لم يسبق لها أن كشفت بمثل هذا التفصيل الذى يستقى أسانيده من المادة الوثائقية التى أنفق المؤلف جهداً كبيراً فى الإفادة منها بحيث أجاب على كثير من التساؤلات التى أحياناً ما كانت تجول بخاطرنا إزاء نقاط مثل : حركة رشيد على الكيلانى فى العراق بالريح الثالث ؛ علاقة ألمانيا هتلرية ببعض الشخصيات المصرية — إلى غير ذلك . والترجمة التى نقدمها إلى قراء العربية مترجمة بدورها عن الأصل البولندى . وأرجو أن يؤدى نشر هذا الكتاب باللغة العربية إلى تحقيق الهدف المتوخى منه .

والله ولى التوفيق

حدائق شبرا فى أغسطس ١٩٦٨

أحمد عبد الرحيم مصطفى

المختصرات

A.A.	Auswärtiges Amt. =	وزارة الخارجية الألمانية
A.P.A.	Aussenpolitik Amt. =	مكتب السياسة الخارجية بالحزب النازي
D.F.C.A.A.	La délégation française auprès de la Commission allemande d'armistice =	الوفد الفرنسي لدى لجنة الهدنة الألمانية
D.G.F.P.	Documents on German Foreign Policy, Series D, London and Washington.	
D.Z.A.	Deutsches Zentralarchiv Potsdam = German Central Archives in Potsdam; German Democratic Republic.	
FRUS	Papers relating to the Foreign Relations of the United States, Government Printing Office, Washington.	
I D D I	I Documenti diplomatici Italiani, Rome.	
I M T	International Military Tribunal, Trial of the Major War Criminals before the International Military Tribunal, Nuremberg; 1945 — 1946. 42 Volumes, Nuremberg, 1947—9.	
O K W	Oberkommando der Wehrmacht =	القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية
N S D A P		الاسم الألماني الكامل للحزب النازي
Pol. VII.		
	القسم السابع بإدارة الشؤون السياسية بوزارة الخارجية الألمانية واختصاصه شؤون الشرق الأوسط	
R A M	Reichsaussenminister =	وزير الخارجية الألمانية
R M V P	Reichsministerium für Volksaufklärung und Propaganda	
	وزارة الريخ لشؤون التعليم والإرشاد القومي	
M/N		
	الوثائق التي استولى عليها الحلفاء الغربيون ، وهي الآن في قبضة حكومة ألمانيا الاتحادية .	

المقدمة

لم يتسن بحث موضوع هذا الكتاب حتى الآن بحثاً شاملاً . فقد كانت بعض الجوانب ، أى اتصالات ألمانيا النازية بالزعماء العرب ، موضوعاً للنشر والدعاية فيما بين عامى ١٩٤٥ - ٨ ، وقد أشارت إليها الصحافة العربية فى بعض المناسبات فى السنوات الأخيرة . والعلاقات الألمانية - العراقية فى عامى ١٩٤٠ - ١ ، التى أشار إليها مجيد خضورى بصفة جزئية فى كتابه : Independent Iraq : 1932-58 إنما هى استثناء بهذا الصدد :

والكتاب الذى نقدمه إلى القراء يعتمد على الوثائق الألمانية، وخصوصاً الملفات والقرارات التى أصدرتها وزارة الخارجية الألمانية والوثائق التى استولى عليها الحلفاء الغربيون والوثائق التى أعادها الاتحاد السوفيتى إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، وسجلات محاكمات نورمبرج وانجموعات المنشورة من الوثائق الأمريكية والبريطانية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، كما يقوم على المذكرات الأوروبية والعربية . هذا إلى أننى قد أفدت من المادة المكتوبة الموجودة والمنشورات الرسمية التى تتصل بمراحل مختلفة من العمليات الحربية والعلاقات الدولية والمواقف الداخلية فى البلدان التى تناولها فى هذا البحث .

ولأننى إذ أقدم هذا الكتاب إلى القراء أود أن أعبر عن شكرى لكل من ساهوا بمهمة بحثى وساعدوني على إعداد الكتاب ونشره . .

فأولا وقبل كل شيء أجد من واجبي أن أشكر معهد الدراسات التاريخية بالأكاديمية البولندية للعلوم وبرجه خاص مديره بروفيسور ناديبوز مانوفيل Tadeus Manteuffel الذى ساعدنى على كتابة بحثى ووفر لى الظروف المناسبة لانتهاء منه . ولأننى أدين بالكثير لكلية سانت أنتونى بأكسفورد ولديرها مستر ديكن Deakin للمساعدة المادية والتنظيمية فيما يتعلق بالاطلاع على الوثائق الألمانية التى استولى عليها الحلفاء وتقديم التسهيلات العظيمة التى توفرها المكتبات البريطانية ، وبخاصة

مكتبة بودليان بأكسفورد ومكتبة المعهد الملكي للشئون الدولية . كما أدين بوجه خاص للبروفسور ألبرت حوراني بأكسفورد والبروفسور م. لاشز Lachs بوارسو والبروفسور باجوسكى Pajewski ببوزنان والبروفسور بيوارسكى K. Piwarski بكراكاو لمساعدتهم ونصائحهم وتشجيعهم . كما أشكر س. ه. فون C.H. Fone مدير مكتبة وزارة الخارجية البريطانية وقسم الأبحاث بها ومعاونيه وموظفي دار وثائق Public Record Office لندن الذين سهلوا لي الاطلاع على الوثائق الألمانية التي تم الاستيلاء عليها. كما أشكر من صميم قلبي البروفسور لوتزكه Lotzke مدير الأرشيف المركزي الألماني Deutsches Zentral Archiv ببونستاد ومعاونيه الذين ساعدوني على الاطلاع على المادة الخاصة بالمعهد الهنلي التي أمكن الحصول عليها . وأقدم وافر شكرى لموظفي مكتبة المعهد البولندي للشئون الدولية، ومكتبة اللجنة المركزية للتحقيق في الجرائم الهنارية : والمكتبة العسكرية المركزية ، ومكتبة معهد الدراسات التاريخية التابع لأكاديمية العلوم البولندية ومكتبة وزارة الخارجية البولندية . كما أشكر السيدة شارزينسكا K. Skarzynska التي أعانني على نقل الأسماء العربية .

وتختلف الطبعة الإنجليزية بعض الشيء عن النص البولندي ؛ إذ قد توافرت لي وثائق جديدة كثيرة . وبخاصة فيما يتعلق بالخطط العسكرية الألمانية . وإلى جانب ما سبق أن سجلته من شكر يسعدني أن أعبر عن امتناني لمستر إلي كدوري Elie Kedourie الذي اقترح ترجمة الكتاب ونشره باللغة الإنجليزية، كما أشكر مستر ولتر لا كير Walter Z. Laqueur الذي أعانني بآرائه القيمة .

ل . ه .

الفصل الأول

الدول الكبرى والمشرق العربي

تستند أصول الأحداث التي يعرض لها هذا الكتاب إلى عاملين لم يحل اختلافهما دون تلاقيهما وتشابهكما في كثير من الأحيان : وهذان العاملان هما المنافسة التي نشبت بين الدول الكبرى وأوقعت الإنسانية في حربين عالميتين ، ورغبة الشعوب المستعبدة في رفع نير السيطرة الأجنبية .

وفي الفترة التي يتناولها هذا البحث اتضحت المنافسة بين الدول الكبرى التي خرجت صفر اليدين من التسابق الاستعماري - أي ألمانيا وإيطاليا واليابان - لإعادة تقسيم العالم . وكانت النتيجة المعروفة لهذا الاتجاه هي احتلال اليابان لمنشوريا والتدخل الدولي في شئون إسبانيا والاعتداء الإيطالي على الحبشة وانخضاء على استقلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا . وغزو بولنדה وكارثة الحرب العالمية الثانية .

وهذا الكتاب يمرض سياسة أهم الدول التي خرجت صفر اليدين من المنافسة الاستعمارية - أي ألمانيا النازية - إزاء العالم العربي .

توسع الدول الكبرى في الإمبراطورية العثمانية

كانت بلدان العالم العربي لفترة طويلة هدفاً للتغلغل الأوربي الذي بدا في أشكال مختلفة . وفي القرن التاسع عشر . أي في الفترة التي كانت الدول الأوروبية خلالها تسيطر على العالم بأسره تقريباً ، كان العالم العربي داخلاً في نطاق الإمبراطورية العثمانية . على الأقل من الناحية الرسمية ، في الوقت الذي كانت فيه الدول الكبرى تؤثر تأثيراً حاسماً في اقتصاديات هذه البلدان وحياتها السياسية والثقافية . فما انتهى القرن التاسع عشر حتى كانت بريطانيا تسيطر تماماً على مصر ، وفي الشاطئ العربي للخليج كان نفوذ حكومة الهند البريطانية لا يقل عن نفوذ سلطان تركيا . وفي عام ١٩١٢ احتلت إيطاليا ليبيا على أثر حربها مع تركيا . وبحلول بداية القرن العشرين

كانت مصالح كل دول أوروبا تقريباً قد تعارضت في بقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية . كما انضمت الإمبراطورية الألمانية إلى الدول التقليدية التي كانت قد دخلت حلبة المنافسة على الإمبراطورية العثمانية : أى إنجلترا وفرنسا وروسيا .

وقد اتخذ التغلغل الغربى في الإمبراطورية العثمانية أشكالاً مختلفة ، فإلى جانب الحقوق المستمدة من الامتيازات الأجنبية والقروض المقدمة للإمبراطورية التركية ، وامتيازات مد واستغلال السكك الحديدية ، والاستثمارات المالية في المشروعات المحلية ، وإدارة البنوك الأجنبية - إلى جانب كل ذلك كانت البعثات التبشيرية والمدارس والمستشفيات المسيحية على جانب كبير من الأهمية . هذا إلى « حماية » الدول الكبرى لقطاعات مختلفة من السكان المحليين . فقد كانت فرنسا تتخلم حمايتها على الموارد في لبنان ، وكانت روسيا ترعى العقيدة اليونانية الأرثوذكسية كما كانت بريطانيا ترعى الدروز واليهود . وفي سوريا ولبنان كانت فرنسا تفرض سيطرتها على المناطق التي كانت موضعاً للاستثمارات المالية ولمد السكك الحديدية والتعليم والثقافة . ولكن دولاً أخرى كانت تتمتع أيضاً بنفوذ قوى : فنلندا لا يمكننا أن نتجاهل البعثات التبشيرية الأمريكية والجامعة الأمريكية في بيروت ، وهي الجامعة التي أنشأتها البعثة البرسيبتيرية الأمريكية في عام ١٨٨٦ .

وفي بداية القرن العشرين طرأ تغير على العلاقات الدولية نتيجة للتوسع الألماني غطى على المنافسة التقليدية التي بدأت في القرن السابع عشر بين فرنسا وإنجلترا وروسيا بسبب اتجاه كل منها إلى فرض نفوذها وسيطرتها على الإمبراطورية العثمانية . فنذ أواخر القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١٢ نما تصدير رأس المال الألماني إلى الإمبراطورية العثمانية حتى بلغ ما يقرب من ٥٠٠ مليون مارك - وبالإضافة إلى الدين الألماني الضخم ، أصبح مجموع الممتلكات الألمانية حوالي ١٠٠٠ مليون مارك . وكان الألمان يبدون نشاطاً واسعاً في مد السكك الحديدية ، وفي ٢٥ نوفمبر ١٨٩٩ حصلوا على امتياز مبدئى من السلطان لما سعى بسكة حديد بغداد ، التي كان من المتوخى أن تربط هامبورج وبرلين ، وفيينا ببغداد والخليج العربى عبر الآسنة . وكان من أهداف مد هذا الخط الحديدى استغلال المواد الخام وأهمها القطن وبتروى شمالى العراق . ولما كانت البنوك الألمانية الكبرى

ومصانع الأسلحة قد ازداد اهتمامها بتركيا ، فقد كان من المستحيل اتباع السياسة البزماركية الخاصة بعدم الاهتمام بشئون الشرق الأدنى . ولهذا واصل الألمان دعم نفوذهم السياسى فى الآستانة . أما السلطان عبد الحميد فقد رحب بازدياد النفوذ الألمانى فى إمبراطوريته على أمل أن يستغل الخلافات الناشئة بين الدول الأوروبية . وفى عام ١٨٩٨ أدى القيصر الألمانى وليم الثانى فريضة الحج فى فلسطين ثم زار دمشق حيث أعلن أن بإمكان مسلمى العالم البالغ عددهم ٣٠٠ مليون نسمة أن يركزوا إلى صداقته .

وفى البداية رأت بريطانيا أن التغلغل الألمانى فى الإمبراطورية العثمانية ومشروع سكة حديد بغداد يوازنان النفوذ الروسى والفرنسى . هذا إلى أن فكرت تحالف ألمانيا وإنجلترا ضد فرنسا وروسيا كانت حينئذ موضع ترحيب شديد لدى الدوائر الحاكمة فى إنجلترا ؛ على أن المنافسة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا قد خفت حدتها على أثر عقد الوفاق الودى فى عام ١٩٠٤ والاتفاق الإنجليزى- الروسى فى عام ١٩٠٧ ؛ على حين أن خطط ألمانيا الخاصة بمد سكة حديد بغداد وفرض نفوذها على الشرقين الأدنى والأوسط كانت مثارا للنزاع مع بريطانيا حتى قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى. حقيقة أن بريطانيا وألمانيا وتركيا قد توصلت إلى عقد عدد من الاتفاقيات فى عامى ١٩١٣ و ١٩١٤ تتناول مشكلات المواصلات والحدود ، إلا أن نشوب الحرب قد حال دون تنفيذ هذه الاتفاقيات . ومنذ ذلك الوقت أصبح تقرير مستقبل الإمبراطورية العثمانية وممتلكاتها العربية مرتبطاً بالنزاع المسلح بين الدول لا بالمفاوضات .

خطط تقسيم الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى

ارتبط مصير البلدان العربية طيلة ربع قرن بنتيجة الصراع المسلح الذى نشب خلال الحرب العالمية الأولى والمساومات الدبلوماسية والوعود والاتفاقيات السياسية المتصلة بها . وظلت هذه الأحداث تسيطر على العلاقات السياسية ، كما أثرت فى أفكار معظم الزعماء العرب خلال هذه الفترة .

ومن المعروف أن تركيا كانت حليفة لدول الوسط أثناء الحرب العالمية الأولى . لهذا فإذا ما كانت علاقة الصداقة التقليدية مع الباب العالي قد أملت على إنجلترا أن تتوخى الحرص في علاقاتها مع الزعماء القوميين العرب ، فإن سياسة التحالف معهم لم تلبث أن أصبحت من الملامح الرئيسية للدبلوماسية البريطانية .

وقد بدا هذا قبل كل شيء في إقامة علاقات بين ممثلي إنجلترا وبين حاكم مكة الشريف حسين بن علي المنتمي إلى الفرع الهاشمي . وفي البداية كان الساسة البريطانيون شديدي التخوف من أن يلقي إعلان سلطان تركيا للجهاد استجابة واسعة المدى لدى الرعايا المسلمين التابعين لدول الوفاق . ومن المحتمل أن الإنجليز كانوا يهتمون بأن يجتذبوا إلى صفهم بعض الزعماء المسلمين الذين كان يمكنهم - إلى حد ما - أن يقللوا من أثر الدعوة إلى الجهاد . وبعد ذلك أصبح الهدف الرئيسي للسياسة البريطانية هو دفع العرب إلى إعلان الثورة ضد تركيا - وقد نجحوا في تحقيق هذا الهدف . وفي أواسط عام ١٩١٦ حاربت قوات عربية يقودها الأمير فيصل ، أحد أبناء الحسين ، القوات التركية في شبه الجزيرة العربية ثم في الشمال . وفي عام ١٩١٨ استولت قوات فيصل على دمشق .

وترجع أصول علاقات إنجلترا مع الحسين إلى الوعود السياسية الغامضة نسبياً التي قطعها سير هنري مكماهون ، المندوب السامي البريطاني في مصر ، في رسائله إلى حاكم مكة . حقيقة أن إنجلترا قد وعدت العرب في هذه الخطابات بالاستقلال ، إلا أن مدى سيادة الدولة العربية المتوخى إنشاؤها ومساحتها كانتا موضعاً لكثير من التحفظات . وبمعنى أكثر تحديداً نجد أن مكماهون قد وضع في عين الاعتبار المصالح الفرنسية على شواطئ البحر المتوسط والمصالح البريطانية في جنوبي العراق وبعدين ، ولهذا استبعد هذه المناطق من الوعود البريطانية . وقد بدأ تبادل الخطابات بين الشريف حسين ومكماهون في ١٤ يولية ١٩١٥ .

وفي ربيع عام ١٩١٦ تم الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا وروسيا حول مستقبل الإمبراطورية العثمانية . فكان من نصيب روسيا أراض شاسعة على مضيق البحر الأسود وفي شرق الأناضول . وطبقاً لما عرف باتفاقية سايكس - بيكو تقرر تقسيم أملاك السلطان في البلاد العربية على الوجه التالي : توضع المنطقة الحمراء

تحت السيطرة البريطانية المباشرة ، والزرقاء تحت الحكم الفرنسي المباشر . والبقية التي تتضمن ساحل فلسطين حتى نهر الأردن ، تحت إشراف دول ، وفي الأراضي الباقية تقرر تشكيل دولة أو دول عربية تقسم إلى مناطق نفوذ (ب) بريطانية و (أ) فرنسية (طبقاً لتلوين وتحديد الأراضي المعنية على خريطة ملحقة) .

وقد أمكن التوصل إلى هذه الاتفاقية بعد مساومات حادة جرت بين دول الوفاق . ورغم ذلك فقد وجدت قوى في داخل بريطانيا وبين الإنجليز العاملين في الشرق الأدنى حاولت إلغاء هذه الاتفاقية وتوسيع النفوذ البريطاني على حساب فرنسا .

وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧ وجه وزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور خطاباً إلى لورد روتشيلد عرف باسم وعد (أو تصريح) بلفور . وقد نتج هذا التصريح عن مفاوضات جرت بعض الوقت بين المنظمة الصهيونية وبين الحكومة البريطانية . وعلى حين أن الحكومة البريطانية قد وعدت بمساندة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، فإنها تحفظت بقولها إنها لن تتخذ في فلسطين أى خطوات قد تمس الحقوق المدنية والدينية للسكان غير اليهود أو حقوق السكان اليهود في البلدان الأخرى أو وضعهم السياسى . وحين أقرت الحكومة البريطانية وعد بلفور كانت تأمل أن تحصل على مساندة اليهود الروس والأمريكان للوفاق ، وأن تجد في نفس الوقت حجة لفرض سيطرتها الاستراتيجية على المنطقة الهامة التي نص اتفاق سايكس بيكو على أن تكون من نصيب فرنسا أو على أن توضع تحت إشراف دول .

وهكذا كانت الحكومة البريطانية باتباعها سياسة ذات عدة أوجه ومتناقضة ظاهرياً ، تمهد لسيطرتها على المشرق العربي في المستقبل . وبطبيعة الحال كان من المقيض لمصر . بما فيها منطقة قناة السويس ، أن تكون حجرة انزاوية لهذه السيطرة . وبعد دخول تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر وبذلك أقرت الوضع الذي كان قائماً منذ عام ١٨٨٢ .

ولما كان الألمان قد تحالفوا مع تركيا في ذلك الوقت ، فقد كانت تعوزهم فرص النشاط السياسى المستقل والمنفصل في العالم العربي ، بالرغم من سعيهم خلال الحرب إلى إثارة العرب ضد دول الوفاق . وكان من أهداف تحالفهم مع تركيا (٢ أغسطس ١٩١٤) إثارة حركة الجامعة الإسلامية التي كانت تتمشى مع هدف السلطان حين أعلن الجهاد . وكان الألمان يسعون إلى استغلال حركة

الجامعة الإسلامية في توجيه "ضربة" إلى نقط الارتكاز البريطانية في مصر والهند ؛ ولكن لم تنجح المحاولات التي بذلت لدفع المصريين إلى الثورة ضد بريطانيا ، ولهذا فشل الهجوم التركي - الألماني على قناة السويس . وبالإضافة إلى ذلك كانت لبريطانيا قوات عسكرية كبيرة في مصر ، ولما كانت تخشى ميل قطاعات واسعة من السكان إلى تركيا ، فلما قامت بنقل الجيش المصري إلى السودان . وفي شبه الجزيرة العربية حاول الألمان أن يستميلوا إلى صفهم ابن سعود والشريف حسين . وقد أحرزوا بعض النجاح مع ابن سعود في البداية ، بعد أن توصلوا إلى عقد هدنة بينه وبين ابن الرشيد أمير شمر الموالي للأتراك . ولكن جرى الاجتماع في أواخر عام ١٩١٥ بين ابن سعود وسير پيرسي كوكس ، ترتب عليه التوصل إلى اتفاق بين الطرفين ، وحصول الحاكم الوهابي على معونة بريطانية واستئنافه نشاطه الحربي . كما أن دول الوسط لم تنجح في المحاولات التي بذلتها للحصول على مساعدة الحسين والحيولة دون تحالفه مع بريطانيا ٥

ومن العوامل التي أدت إلى فشل ألمانيا أن حكومة القيصر التي تحالفت مع رجال "جمعية تركيا الفتاة" الحاكمين في الآستانة لم يكن باستطاعتها أن تنافس إنجلترا حين وصل الأمر إلى بذل الوعود للقادة العرب . ولم يقيض للعلاقات بين القوميين العرب وزعماء جمعية تركيا الفتاة أن تسير في طريق الانسجام . فباستثناء فترة قصيرة في عام ١٩٠٨ أدت الثورة في خلالها إلى أن عمت الحماسة الإمبراطورية العثمانية بأسرها ، اتخذ رجال جمعية تركيا الفتاة موقفاً معادياً من مطالب القوميين العرب الخاصة بالاستقلال الذاتي واللامركزية . وفي الواقع أن هذه المطالب كانت تخفى أحياناً الرغبة في الانفصال عن أوتوقراطية رجال تركيا الفتاة والانجاء إلى الدول الأوروبية الغربية . ورغم وجود بعض القوات الألمانية في البلدان العربية ، ورغم أن الضباط العرب كانوا يكونون احتراماً للجيش الألماني والعسكرية الألمانية ، فإن التحالف بين تركيا وألمانيا قد حال دون تلاقى القوميين العرب مع ألمانيا ٥

ولكن لم يكن ممكناً أن تمثل التشكيلات القومية في ذلك الوقت المجتمع العربي بأسره ، إذ لم تقبل الفكرة القومية التي نادى بها التنظيمات السرية العربية

واعتنقها الشريف حسين وأبناءؤه سوى أقلية صغيرة من السكان العرب في بلدان الهلال الخصيب ، لعب فيها العرب المسيحيون دوراً هاماً . وبقي عدد كبير من العرب المسلمين مخلصين للسلطان وللدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية .

ولما كان الألمان حلفاء للإمبراطورية الإسلامية ، فلم يكن باستطاعتهم أن يستجيبوا لفكرة استقلال العرب ، كما لم يكن باستطاعتهم أن يساندوا آمال الزعماء العرب في قيام دولة عربية مستقلة . ورأى الشريف حسين وأبناءؤه في التحالف مع إنجلترا الاحتمال الوحيد لتحقيق خططهم الطموحة . لهذا فإن الحسين لم يقطع علاقاته بإنجلترا حين وصلته أخبار المعاهدات السرية المهادنة إلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية بين دول الوفاق ، وهو ما لم يعد سرّاً في أواخر عام ١٩١٧ حين نشر البلشفيك معاهدات القيصرة السرية بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية . كما أن وعد بلفور لم يؤثر في ميل حكّام مكة إلى بريطانيا .

تقسيم الأراضي العربية بعد الحرب العالمية الأولى

انتهت الحرب العالمية الأولى ، كما هو معروف بانتصار بريطانيا وفرنسا . وكان من نتيجتها انهيار الإمبراطورية العثمانية وسيطرة القوات البريطانية والفرنسية والعربية المتحالفة على كل المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط والخليج العربي ، وهي المنطقة التي تقطنها شعوب تتكلم اللغة العربية . حيثئذ لم تعد ألمانيا تشكل إحدى القوى ذات الأثر في الشرقين الأدنى والأوسط - فقد أرغم الألمان ، طبقاً لمعاهدة فرساي (١٩١٩) ، على التخلي عن ممتلكاتهم فيما وراء البحار وعن كل حقوقهم وامتيازاتهم الخاصة في البلدان التابعة للدول الأوروبية ومنها مصر ، كما فقدت ألمانيا كل امتيازاتها وممتلكاتها في الإمبراطورية العثمانية وفي بلغاريا . وبعد الهزيمة لم يبق لألمانيا سوى قسط قليل من نشاطها الاقتصادي الواسع ونفوذها السياسي في الشرقين الأدنى والأوسط .

وتأثر وضع فرنسا في شرق البحر المتوسط تأثراً قوياً بحاجتها إلى الحصول على مساندة بريطانيا لسياستها إزاء ألمانيا بوقوع الأراضي العربية قد وقعت بالفعل في أيدي القوات العسكرية البريطانية . ولم ينته النضال بين الحليفتين

حول تقسيم الأملاك العثمانية إلا بمؤتمر سان ريمو (٩-٢٦ أبريل ١٩٢٠) . ووافقت حكومة باريس على احتفاظ البريطانيين بالموصل التي وعدت بها فرنسا طبقاً لاتفاقية سايبكس - بيكو . وفي مقابل هذا التراجع احتفظت فرنسا بقسط من بترول هذه المنطقة ، وحصلت على المساندة فيما يتعلق بالمسائل الألمانية . كما كان على فرنسا أن توافق على السيطرة البريطانية على فلسطين التي كان من المتوخى أن تصبح منطقة دولية بمقتضى اتفاقية سايبكس - بيكو .

وكان العرب هم الذين دفعوا ثمن الاتفاق الإنجليزي - الفرنسي الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من نظام العلاقات الدولية في أعقاب الحرب . وكانت الإجراءات الجديدة تختلف عن اتفاقية سايبكس - بيكو من حيث إنها لم تميز بين المناطق التي ظلت تحت الحكم البريطاني والفرنسي المباشر وبين مناطق النفوذ التي كان من المتوخى أن تقوم فيها منظمات الدولة العربية . وكانت الحكومة العربية التي أقامها فيصل بن الحسين في دمشق هي أكبر ضحايا هذا النظام - وقد قضى الفرنسيون على هذه الحكومة في يولية ١٩٢٠ ، واحتلت قوات الجنرال جورو كل المنطقة التي تشغلها سوريا ولبنان الحاليتان .

وقبيل نهاية الحرب وفي أعقابها ظهرت قوى جديدة على مسرح التاريخ. فرضت على الدول الاستعمارية القديمة أن تغير أساليب حكمها . فحين استولى البلشفيك على السلطة في نوفمبر ١٩١٧ اطرحت الحكومة الجديدة السياسات الاستعمارية القديمة التي سار عليها النظام القيصري ، كما تخلت عن كل المزاي التي تمتعت بها في البلدان الآسيوية المجاورة . وعلى العكس من ذلك نجدها تساعد شعوبها في نضالها ضد السيطرة الأجنبية - وعلى سبيل المثال لعبت دوراً هاماً جداً في انتصار الحركة الكمالية وظهور تركيا الجديدة . كما رفعت حكومة موسكو شعار « السلام دون ضم أراض أو تعويضات » وبطلت بحق الأمم في تقرير المصير . كما وجد هذا الشعار مساندة من جانب وودرو ولسون الذي كان حينئذ رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية .

وفي ظل هذه الظروف ظهر نوع جديد من السيطرة الأجنبية على شكل انتدابات

توزعها عصبة الأمم . فطبقاً لاتفاقية سان ريمو أصبحت سوريا ولبنان خاضعتين للانتداب الفرنسي على حين انتدبت بريطانيا على فلسطين وشرق الأردن والعراق . وقد نصت المادة ٢٢ (فقرة ٤) من ميثاق عصبة الأمم على أن تقدم الدولة المنتدبة المساعدة والنصيحة للبلدان الواقعة تحت الانتداب إلى أن تصبح جديرة بالاستقلال .

وقد شغلت فلسطين وضعاً خاصاً في نظام الانتداب . فانتداب بريطانيا كان يلزمها بتطبيق وعد بلفور ، أى « بإقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين » . وقد توصل زعيم المنظمة الصهيونية - وايزمان - إلى اتفاق حول هذه المسألة مع فيصل الذى وافق في ٣ يناير ١٩١٩ على وعد بلفور بشرط أن تتحقق مطالب الحسين بن علي الخاصة باستقلال العرب - ولهذا فإن إسقاط حكومة فيصل في دمشق كان يعنى إلغاء توقيعه على تلك الاتفاقية . ومنذ البداية تمت معارضة العرب الفلسطينيين لمبادئ نظام الانتداب ، وثبت عدم إمكان التوفيق بين أهداف الصهيونية اليهودية وبين أهداف القومية العربية . ولهذا بقى نظام الحكم البريطاني المباشر في فلسطين منذ أن تم احتلال البلاد في عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ إلى أن انسحبت بريطانيا منها في عام ١٩٤٨ .

أما شرق الأردن الذى اقتطعت من فلسطين في مؤتمر القاهرة الذى انعقد في مارس ١٩٢١ بناء على نصيحة ونستون تشرشل - الذى كان حينئذ وزيراً للمستعمرات - فقد تحولت إلى إمارة يحكمها عبد الله بن الحسين . وبمعاونة الأمير أقامت بريطانيا نظاماً يقوم على الحكم غير المباشر في هذه البلاد التى كانت مساحتها كبيرة نسبياً (٩٠ ألف كيلومتر مربع) وإن كان سكانها - ومعظمهم من البدو - قليلين وغير متركزين في مناطق أهلة بالسكان . وكان الحكم البريطاني في شرق الأردن يركز على أمير مطواع يتلقى إعانة سنوية من الخزانة البريطانية ويتم بريطانيا في عمان كان لبعض الوقت تابعا للمندوب السامي في القدس ، وجيش صغير وإن يكن يتميز بالكفاءة ، يقوده ضباط من الإنجليز . ولم تطرأ تغييرات هامة على هذا الوضع إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقع جزء كبير من العراق تحت الحكم

البريطاني ، وفي عام ١٩٢٠ نشبت فيه ثورة وطنية كبرى . وقد تمخض مؤتمر القاهرة الذي سبقت الإشارة إليه عن إقامة البريطانيين لنظام حكم غير مباشر في العراق الذي توج عليه الأمير فيصل ملكاً . وفي عام ١٩٢٥ أقيم برلمان يتكون من مجلسين وجعلت الحكومة مشولة أمامه . ولكن البرلمان لم يمثل سوى الطبقات العليا الضيقة من المجتمع العراقي ، وإن لم يمثلها بقدر كبير من الأمانة ، في الوقت الذي ضمت كل الوزارات مستشارين بريطانيين . وما حل عام ١٩٣٢ حتى كان الانتداب البريطاني قد انتهى وأصبح العراق أول بلد عربي يسمح له بدخول عصبة الأمم ، وإن تكن بريطانيا قد ظلت تباشر نفوذها . وقد نصت معاهدة عام ١٩٣٠ على قيام تحالف وثيق بين الطرفين وتبادل المساعدة في حالة نشوب الحرب ومنح عدد من الامتيازات لبريطانيا - ومن ذلك قاعدتان جويتان في الحبانية على بعد بضعة كيلو مترات إلى الغرب من بغداد ، وفي الشعبية بالقرب من البصرة التي هي الميناء الوحيد للعراق ، وحق استخدام المواني والمطارات والسكك الحديدية - إلى غير ذلك . كما تمتعت بريطانيا بنفوذ ضخم في مجال الاقتصاد . وفي ظل هذه الظروف لعب السفير البريطاني دوراً استثنائياً في نظام البلاد السياسي . على أن الطبقة الحاكمة في العراق قد تمتعت بعد عام ١٩٣٢ بحرية تفوق ما تمتعت به شقيقاتها في أي بلد عربي ، ربما باستثناء العربية السعودية واليمن . وهكذا أصبح العراق المتخلف معقلاً للقومية العربية قبل عام من اندلاع الحرب العالمية الثانية . وبالإضافة إلى البلدان التي أصبحت بريطانيا منتدبة عليها ، فإنها سيطرت على مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية .

وقد أدى النضال المصري في سبيل الاستقلال ، وهو النضال الذي وصل ذروته في ثورة ١٩١٩ ، إلى أن أصدرت بريطانيا تصريحاً من طرف واحد في ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وفي هذه الوثيقة أعلنت بريطانيا نهاية الحماية التي كانت قد استمرت من الناحية الرسمية منذ عام ١٩١٤ ومنحت مصر وضع الدولة المستقلة ذات السيادة ، وإن تكن قد احتفظت لنفسها بالإشراف الكامل فيما يتعلق بالمحافظة على سلامة المواصلات الإمبراطورية والدفاع عن مصر ضد أي اعتداء أو تداخل بالذات أو بالواسطة ، والمحافظة على مصالح الرعايا الأجانب وحقوق الأقليات في مصر وكذلك فيما يتعلق بشئون السودان . وفي الواقع أن سيادة مصر

كانت محدودة جداً ، لأن القوات البريطانية ظلت معسكرة في البلاد ، في الوقت الذى شغل فيه الموظفون البريطانيون الوظائف الهامة . وقد لعب رأس المال البريطانى دوراً رئيسياً في الحياة الاقتصادية المصرية ، وإن يكن الرأسماليون من رعايا الدول الأخرى ، وبخاصة فرنسا ، قد قاموا بنشاط ضخم . على أن فترة ما بين الحربين قد شهدت نمواً منتظماً في رأس المال المحلى ، كما شهدت نمو هيئة محلية من الموظفين المسلمين المصريين وطبقة مهنية ، وهيئة ضباط في الجيش - إلى غير ذلك .

وبعد محاولات كثيرة غير ناجحة وقعت في النهاية معاهدة مصرية إنجليزية في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ . فنذ أواخر عام ١٩٣٥ ، حين تقدم الساسة المصريون إلى المندوب السامى البريطانى بالتماس لاستئناف المفاوضات ، حدث تطور في الموقف السياسى نتيجة للعدوان الإيطالى على الحبشة . وعمت مصر موجة من القلاقل السياسية . وقد أدى التوسع الإيطالى من ناحية إلى ميل الحكومة البريطانية إلى التساهل ، ومن ناحية أخرى إلى جعل المفاوضين المصريين أكثر استعداداً للدوافقة على المطالب البريطانية . وبرغم أن المعاهدة قد تضمنت بعض التنازلات الرسمية التى زادت في مكانة مصر ، إلا أنها نصت على بقاء الحمايات البريطانية . يضاف إلى ذلك أن مصر قد التزمت ، في حالة نشوب الحرب أو خطر الحرب الداهم ، بمساعدة بريطانيا بمنحها حق استخدام المطارات والموانئ ووسائل المواصلات واتخاذ الإجراءات القانونية والإدارية اللازمة للدفاع عن المصالح البريطانية . ولم يقيض لوضع بريطانيا في مصر أن يتغير تغيراً جذرياً إلا في أعقاب الحرب العالمية الثانية^١.

وفي شبه الجزيرة العربية بدأ وضع بريطانيا على الوجه التالى : فقد كان ملك إنجلترا ، وإمبراطور الهند ، يعتبر صاحب الحماية على الأراضى الواقعة على طول الخليج العربى والمحيط الهندى - أى الكويت وقطر ، وعمان المتصالحة ، وسلطنتى مسقط وعمان والمناطق القزبية من مستعمرة التاج البريطانى في عدن . وكان نائب الملك في البحرين يمثل السلطة العليا التى تشرف على مجموعة كاملة من المقيمين البريطانيين والوزراء والمستشارين الذين كانوا يوجهون سياسة المشايخ والسلاطين الخارجية ويباشرون نفوذاً قوياً في حياة هذه البلدان . وبرغم أن بريطانيا وألمانيا والولايات

المتحدة لم تعترف بوضع بريطانيا في بعض هذه البقاع إلا أن ذلك لم تكن له قيمة كبيرة من الناحية العملية . وكان الأسطول البريطاني والقوات الجوية البريطانية يسيطران تماماً على الموقف وكان كل رئيس محلي يفكر في التردد ، لا يتوقع إلا أن يصطدم بالقوات المسلحة البريطانية .

وكانت العربية السعودية هي أكبر دولة في شبه الجزيرة ، وكانت قد تمخضت عن الحروب التي شنها عبد العزيز بن سعود الذي بدأ حياته باللجوء إلى أمير الكويت ، وفي أوائل القرن العشرين نجح في استرداد موطنه الأصلي في نجد ، وفي عام ١٩١٣ استولى على الحسا ، وبعد سنوات قليلة من القتال سيطر على كل شبه الجزيرة باستثناء اليمن والمناطق البحرية التي سبقت الإشارة إليها . وكان انتصار ابن سعود على الشريف حسين في عامي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ ذا أهمية خاصة : إذ أنه مكّنه من السيطرة على البقاع الإسلامية المقدسة في مكة والمدينة .

وكان ابن سعود قبل الحرب العالمية الأولى قد أجرى اتصالات مع بريطانيا . وفي عام ١٩٢٧ وقع معاهدة مع الحكومة البريطانية ، ورغم أن بريطانيا لم تحفظ بأي قواعد عسكرية في أملاك ابن سعود ، أو تتمتع بأي امتيازات سياسية ، إلا أن نفوذها كان قوياً - فقد كانت بريطانيا تفوق أي دولة أخرى في المجال الاقتصادي في العربية السعودية ، وكان تأثيرها قوياً في المحيطين بالملك مباشرة . وكانت السيطرة البريطانية على البحر الأحمر والخليج العربي حاسمة : فقد كانت تعنى التحكم في المواد الغذائية اللازمة للعربية السعودية ، واعتماد ابن سعود على المعونة المالية البريطانية وتفوق بريطانيا في الأراضي العربية المجاورة . ولم يتضح ضعف مركز بريطانيا في العربية السعودية إلا قبيل الحرب ، حين اكتشفت الشركات الأمريكية البترول هناك .

وكان اليمن هو البلد الوحيد في شبه الجزيرة العربية الذي لم يدخل في نطاق القالب العام للسيطرة البريطانية . ففي خلال الحرب العالمية الأولى ساند إمام اليمن تركيا ، ثم أثار نزاعاً مع بريطانيا لمدة سنوات حول المناطق الداخلية في عدن الواقعة تحت الحماية البريطانية . وفي عام ١٩٢٦ عقد الإمام معاهدة صداقة مع إيطاليا جددت في عام ١٩٣٧ ، وفي عام ١٩٢٨ أقام علاقات سياسية مع الاتحاد

السوفييتي . على أنه قد ثبت عجز قواته المسلحة أمام الطائرات البريطانية ، كما حلت بها الهزيمة في حرب عام ١٩٣٤ مع ابن سعود . حقيقة إن النفوذ الإيطالي قد اشتد في اليمن ، كما يتضح من ، معاهدة ١٥ أكتوبر ١٩٣٧ ، ولكن لم تكن لذلك أهمية كبيرة . وفي ١٦ إبريل ١٩٣٨ أجرت بريطانيا وإيطاليا اتفاقية تعهدتا بمقتضاها بالألا تحصلا على مراكز ممتازة ذات طابع سياسي ، في العربية السعودية واليمن . وأياً كان تطبيق هذه الاتفاقية في أماكن أخرى وبخصوص مسائل أخرى فقد ثبت أن مركز إيطاليا في اليمن والعربية السعودية شديد القلق .

وكانت المنطقة التي تسيطر عليها فرنسا في الشرق العربي أضيق بكثير من المنطقة التي كانت تسيطر عليها بريطانيا . وقد سبق أن رأينا أنها كانت تشمل سوريا ولبنان اللتين كانت السيطرة الفرنسية عليهما تستند إلى الانتداب الذي أعطته لها عصبة الأمم . وكان هذا الانتداب يشبه الانتداب البريطاني على فلسطين وشرق الأردن والعراق من حيث إنه كان يلزم الدولة صاحبة الانتداب بإعداد البلد المتدبة عليه للاستقلال . ولهذا فإن الانتداب من هذا النوع كان يتضمن منح بعض الامتيازات للقوى الوطنية المحلية . على أن كثيراً من الساسة الفرنسيين كانوا يعارضون في منح بعض التنازلات المحدودة إذ كانوا يخشون رده فعل مثل هذه السياسة في الأملاك الفرنسية في شمالي إفريقيا . وأحياناً ما كان المندوب السامي الذي رأس الحكومة في سوريا ولبنان رجلاً عسكرياً ، وكان في قبضته مجلس الوزراء الذي كان يضم موظفين فرنسيين يشغلون مراكز رئيسية في إدارات الأمن العام والتعليم والآثار والأشغال العامة والإشراف على البدو . كما كان يشرف على الجمارك والبريد والطرق والمواصلات ، فضلاً عن الحماية التي كانت تضم قوات من المستعمرات وقوات فرنسية والقوات المحلية التي أطلق عليها اسم القوات الخاصة (وإن كانت هذه الأخيرة تختفي حين يكون المندوب السامي مدنيّاً) . وكانت السلطات المحلية التي أقامها الفرنسيون لا تعدو أن تكون دمي . وقد ساندت حكومة باريس الاتجاهات الانفصالية بارتكانها على الأقليات ومحوها الطابع القومي لسوريا ولبنان - كما كان هذا هو الهدف من تقسيم البالدن إداريّاً إلى عدد من الدويلات : كـلبنان واللاذقية وحلب ودمشق وجبل الدروز ، بالإضافة إلى سنجق الإسكندرونة

الذى وضع له نظام خاص . وفى عام ١٩٣٦ اقترحت حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا عقد معاهدة مع سوريا ولبنان على نمط المعاهدة الإنجليزية العراقية والمعاهدة الإنجليزية - المصرية . ولكن الحكومة اليسارية فى فرنسا لم تسترطويلا فى الحكم ، فلم تتحقق هذه الفكرة . ولم تضعف قبضة فرنسا على سوريا ولبنان إلا فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وهكذا نكون قد قدمنا صورة تقريبية لحدود وحكومات بلدان المشرق العربى فى فترة ما بين الحربين . وكانت هذه الأوضاع امتداداً للنظام الذى قام على أساس معاهدة فرساي فى أوروبا . كما كانت تتضمن جزءاً من النمط العام للسيطرة الإنجليزية الفرنسية . وفى نطاق هذا الإطار لم تكن توجد بالفعل أى بلدان مستقلة فى نصف الكرة الأرضية الشرقى خارج حدود أوروبا - إذ لم يوجد بلد لم يكن تابعاً بصورة أو أخرى لدول الوفاق المنتصرة وعلى رأسها فرنسا وإنجلترا ودول أوروبا الغربية الصغرى المتصلة بهما .

كما امتدت السيطرة البريطانية والفرنسية على المشرق العربى إلى المجال الاقتصادى . ومن المعروف أن المسألة الرئيسية فى هذا المضمار كانت تتصل باستخراج البترول ، وكانت تكمن وراء القرارات السياسية الأساسية فى الشرقين الأدنى والأوسط . ولكن كان على رأس المال البريطانى والفرنسى والهولندى أن يوافق على اشتراك الولايات المتحدة فى التنقيب عن البترول . وقد نصت اتفاقية « الخط الأحمر » الموقعة فى عام ١٩٢٨ على عدم إمكان المساهمين الحصول إلا على امتيازات مشتركة على أساس النسبة المئوية من الحصص المنصوص عليها . وقد حددت المنطقة التى تضمنتها هذه الاتفاقية فى الخريطة المرفقة بخط أحمر يضم تركيا والبلاد العربية فى آسيا ، باستثناء الكويت وقسم صغير من تركيا على حدود جمهورية الآجار السوفيتية المتمتعة بالاستقلال الذاتى . وكانت الحصص المنصوص عليها هى : ٢٣,٧٥ ٪ لشركة البترول الأنجلو - إيرانية - ٢٣,٧٥ ٪ لشركة شل الملكية الهولندية - ٢٣,٧٥ ٪ للشركة الفرنسية للبترول - ٢٣,٧٥ ٪ لموسستى روكفلر (ستاندرد أويل أوف نيوجيرسى وسوكوفى فاكوم) - ٥ ٪ لشركة جلبنكيان . وقد نظمت هذه الاتفاقية بشكل ما المسائل الناتجة عن انتصار دول

الوفاق لأنها كانت في الوقت الذي وقعت فيه تتعلق ببترول العراق في المحل الأول - وكان من المفروض أن ربحه تابع لرأس المال الألماني طبقاً لاتفاق تم توقيعه قبل نشوب الحرب مباشرة . وبعد الحرب وضعت فرنسا يدها على نصيب ألمانيا المهزومة ، ولكن أرغمت الشركة الأنجلو - إيرانية ، تحت ضغط حكومة الولايات المتحدة ، على تحويل نصف نصيبها إلى ترستات ووكفلر . ورغم أن اتفاقية الخط الأحمر قدمت تنازلات لرأس المال الأمريكي الكبير ، فإنها دعمت هيمنة بريطانيا البترولية في البلدان العربية . ولم يعكر هذه الهيمنة شيء خلال فترة ما بين الحربين ، رغم أن الامتياز الذي حصلت عليه شركة كالتكس الأمريكية في العربية السعودية قد حجب التغيرات التي طرأت بعد الحرب العالمية الثانية . وقد أدى تفوق النفوذ السياسي البريطاني إلى تحديد فرص الدول الأخرى في مجالات المعاملات المصرفية والتأمين والاستثمارات الأجنبية والتجارة . وقد أثر معظم هذا في الولايات المتحدة التي بلغ نصيبها من الواردات المصرية في عام ١٩٣٧ ما مقداره ٦,٥ ٪ ومن الواردات الفلسطينية ٦,٩ ٪ . لما كانت الفرص قليلة أمام التغلغل الاقتصادي الألماني والإيطالي .

وقد انعكس قالب العلاقات الدولية السياسية والاقتصادية هذا في وجهات نظر الدوائر الحاكمة العربية في مختلف البلدان وفي ألوان تقاربها السياسي . وكانت آمال الصفوة في الأحزاب الوطنية الكبرى قد تدنت إلى الرغبة في الحصول على أحسن المراكز في نطاق النظام الذي أوجدته الدول الحاكمة . ومن الواضح أن سياسة فرنسا قد أثارت من المعارضة أكثر مما أثارته السياسة البريطانية ، وذلك بحكم أن فرنسا كانت أقل استعداداً لتقديم تنازلات . كما أن كثيراً من الوطنيين السوريين كانوا يعلقون آمالهم على مساندة بريطانيا .

ولم تلعب المسائل الاقتصادية دوراً صغيراً في العلاقات بين الطبقات المالكة في سوريا وبين فرنسا . وهكذا على سبيل المثال ، كانت سوريا مرتبطة بالفرنك الفرنسي غير المستقر ، مما جعل مركزها في السوق العالمي غير مرض . وكان أنصار الوحدة العربية بالضرورة خصوماً - عن اقتناع - للأوضاع القائمة في الشرق الأدنى ولكن قطاعات هامة من الحركة الداعية إلى تحقيق الوحدة كانت لوقت طويل

تتوقع من بريطانيا على الأقل أن تساعدنا مساعدة جزئية في تحقيق أهدافها .
 وفي ذلك الوقت انطبعت الأحزاب الوطنية الكبرى—كالوفد في مصر والكتلة
 الوطنية في سوريا — بطابع عام يقوم على مصالح الغرب والتكيف لوجوده . وكان
 يشارك في هذا الاتجاه كبار الساسة العراقيين من الجيل القديم : كنورى السعيد
 وجليل المدفعي وغيرهما . وكان فيصل ملك العراق الذى حظى بكثير من احترام
 الوطنيين— ممثلاً قوياً لهذا الاتجاه السياسى الذى كان نابعاً عن تقدير واقعى للدوقف .
 وكان ثمة مجموعات مختلفة من الأقليات تمثل اتجاهاً أكثر ميلاً إلى الغرب بعكس
 الأحزاب الوطنية الكبرى .

إيطاليا وألمانيا في المشرق العربى

وما حلت أواسط الثلاثينات حتى كان الموقف السياسى قد بدأ يتغير في بعض
 البلدان العربية . وكان هذا التغير راجعاً إلى عدة أسباب ، في مقدمتها التغيرات
 التى طرأت على مجال العلاقات الدولية بين القوى السياسية العالمية وضعف نفوذ
 بريطانيا وفرنسا نتيجة لمهادنتهما المتكررة للدول المعتدية . وبدأ ينمو لدى بعض
 التشكيلات الوطنية انجاء يقوم على التقارب إزاء هذه الدول ، على حين أن بعض
 اتجاهات روما وبرلين الفكرية بدأت تجتذب كثيراً من الأنصار حتى من بين
 الساسة الذين كانت عقولهم تميل إلى المصالحة . وفي العراق بوجه خاص اتخذ
 الوطنيون ، وبخاصة أنصار الوحدة العربية ، مواقف متطرفة تنسم بمعاداة بريطانيا
 بشكل أكثر وضوحاً . وفي فلسطين ربط الحاج أمين الحسينى ، زعيم حزب
 الحسينى ذى النفوذ ، مصيره بإيطاليا . وفي الوقت ذاته بدأت تظهر مجموعات
 بنت وجهات نظرها على أفكار نازية — فاشية : فقامت في مصر جماعة مصر الفتاة
 الفاشية التى أطلق عليها اسم حزب القمصان الخضراء الذى كان يتزعمه أحمد حسين ،
 وأنشئ حزب الفتوة في العراق ، وظهر في لبنان وسوريا الحزب القومى السوري
 الذى كان يتزعمه أنطون سعادة . وكان ظهور هذه الجماعات يمثل ظاهرة أوسع
 نطاقاً ، هى السخط المتزايد على سياسات الدول الغربية ومثل الديمقراطية البرلمانية

التي كانت تؤمن بها هذه الدول . كما نمت ضد هذه الاتجاهات جماعات تقليدية محافظة - منها جماعة الإخوان المسلمين - لها أفكارها الخاصة ، التي لعبت دوراً هاماً في ثورة فلسطين التي نشبت فيما بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ .

وكانت إيطاليا لفترة طويلة قد لعبت دوراً هاماً في شئون البلدان العربية . ففي العصور الوسطى نشطت بعض المدن الإيطالية في الاتجار مع بلدان شرق البحر المتوسط . وكانت توجد في مدن كثيرة جاليات إيطالية كبيرة ومدارس ومستشفيات وكنائس وأديرة وإرساليات دينية . وفي عام ١٩١٢ ، في أعقاب الحرب الإيطالية التركية ، أصبحت ليبيا مستعمرة إيطالية ، مما جعل إيطاليا جارة مباشرة لمصر التي كانت أهم بلدان الشرق الأدنى الواقعة تحت السيطرة البريطانية ، لذا أصبحت تجاور المستلكات الفرنسية في شمال إفريقيا . وحين وضعت إيطاليا يدها على جزر الدود يكانيز نتيجة لنفس الحرب ، أصبحت تتمتع بوضع استراتيجي هام على شواطئ آسيا الصغرى . وبالإضافة إلى ذلك فإن المستعمرات الإفريقية التي حصلت عليها في أواخر القرن التاسع عشر جعلتها جارة لبلدان شبه الجزيرة العربية وبخاصة اليمن .

وحين دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوفاق كانت تتوقع توسيع أملاكها إلى حد كبير في الشرق الأدنى - فقد نص ميثاق لندن الذي وقعته بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا في ٢٦ بريل ١٩١٥ على أن تضع إيطاليا يدها بعد كسب الحرب على جنوبي غربي الأناضول ، مع حقها في إدارة واحتلال الأراضي الواقعة شمال منطقة نفوذها . وفي عام ١٩١٧ وقع رؤساء وزراء إنجلترا وفرنسا وإيطاليا اتفاق سان جان دي موريين St. Jean-de-Maurienne الذي جعل نصوص ميثاق لندن أكثر تحديداً ونحصر لإيطاليا مقاطعات إزمير وأنطاكية وقونية ، بالإضافة إلى جنوب غربي الأناضول . وإلى جانب ذلك فقد حصلت إيطاليا بمقتضى معاهدة سيفر الموقعة في ٢٠ أغسطس ١٩٢٠ والاتفاقية الإنجليزية الفرنسية - الإيطالية الموقعة في الوقت ذاته ، تقريباً على نفس الأراضي التي وعدتها بها ميثاق لندن واتفاقية سان جان دي موريين . لكن لما هو معروف نجحت حركة التحرير الوطني التركية التي تزعمها مصطفى كمال باشا في إلغاء القرارات

التي نصت عليها معاهدة سيفر . ولهذا فإن الحرب العالمية الأولى لم تتمخض عن زيادة في أملاك إيطاليا في الشرق الأدنى . لما كانت مكاسب إيطاليا في إفريقيا قليلة ، تقتصر على توسيع لا قيمة له لحدود ليبيا والصومال الإيطالي . وحين نقارن مكاسب إيطاليا بالمناطق الشاسعة التي حصلت عليها بريطانيا وفرنسا في الشرق الأدنى وإفريقيا ، نجد أنها ضئيلة ومن هنا شعرت إيطاليا بأنها قد خدعت ولحق بها الإهانة ؛ فكان ذلك من الأسباب التي دفعت إيطاليا وهي دولة خرجت صفر اليدين من مجال الاستعمار - إلى محاولة تغيير الأوضاع القائمة في البحر المتوسط .

على أن الفرص ظلت قليلة لفترة طويلة أمام التغلغل الإيطالي في البلدان العربية . ذلك أن تنكيل إيطاليا بالسكان العرب في ليبيا قد نفر شعوب البلدان العربية من الإيطاليين ، على حين أن العدوان الإيطالي على الحبشة قد أثار المخاوف في الشرقيين الأدنى والأوسط . وكان الزعماء العرب على علم بخطورة التغلغل والاستعمار الإيطاليين . وحين أثارت الحكومة التركية مسألة العدوان الإيطالي في عصبة الأمم قابل العرب موقفها باستجابة واسعة النطاق . ولكن كان للموقف الدولي منطقته الداخلي الخاص - فقد كانت لظهور إيطاليا ، بوصفها دولة كبرى انعكاسات في البلدان العربية ، من حيث شراء الأسلحة والاستعانة بالمدرين ، الحوئين الإيطاليين ، وبعض الاتصالات الشخصية التي كان يجريها الزعماء السياسيون والدينيون مع الدوائر الإيطالية . وقد سبق أن أشرنا إلى ازدياد النفوذ الإيطالي في اليمن . ولما كانت حكومتا العراق والعربية السعودية تميلان إلى تخفيف اعتمادهما على بريطانيا ، فإنهما اتجهتا إلى تقوية علاقتهما بإيطاليا ، وبخاصة فيما يتعلق بالحصول على الأسلحة - إذ أن القدرة على الحصول على الأسلحة كانت شرطاً ضرورياً في العراق والعربية السعودية للمحافظة على الاستقرار الداخلي بل على تمامية أراضي الدولة ، بحكم أن القبائل كانت لديها كيانات كبيرة من الأسلحة ، وبالتالي كانت تستطيع أن تنظم أعمال التمرد . وفي نفس الوقت أدى التوسع الألماني والإيطالي إلى ازدياد ضعف قدرة بريطانيا على تزويد البلدان العربية بالأسلحة (وبخاصة الأسلحة الحديثة : كالمطائرات والدبابات والمدافع المضادة للطائرات والدبابات ، بالإضافة إلى آخر أنواع الأسلحة التقليدية) إذ أن حكومة لندن كانت تبدي قلقاً إزاء سد مطالبها الخاصة . وفي ظل هذه الظروف أخذت

العربية السعودية والعراق تبحثان عن الأسلحة في الخارج ، وكان الإيطاليون أكثر من غيرهم استعداداً لتزويدهما بالأسلحة ، كما كانوا يتقدمون بأحسن الشروط — إذ أنهم كانوا يودون توسيع نفوذهم السياسى والاقتصادى عن طريق بيع الأسلحة وتدريب الضباط العرب . وكانت إيطاليا مصدراً هاماً لتزويد العرب بالطائرات ، ثم جاءت تشيكوسلوفاكيا التى أخذت تزودهم بالبنادق الصغيرة والمدفعية الثقيلة والذخيرة .

وكانت علاقات إيطاليا الاقتصادية بالبلدان العربية وبعثاتها التعليمية ونشاطها الدعائى واسع النطاق — ومعظمه كان يعتمد على محطة إذاعة بارى — مصدر قلق شديد للبريطانيين والفرنسيين .

• • •

طرد الألمان من الشرق الأدنى في عام ١٩١٨ بعد أن حلت بهم الهزيمة . وفى عهد جمهورية فيمار كاد النشاط السياسى الألمانى فى البلدان العربية أن يكون معدوماً . حقيقة كان يوجد بعض الألمان الذين استقروا فى بعض البلدان ، إلا أنهم لم يتم استغلالهم من الناحية السياسية فى أثناء تلك الفترة . وفى عام ١٩٢٦ أصبحت ألمانيا عضواً فى عصبة الأمم ، وبإمكانها — رسمياً — أن يكون لها صوت مسدوع فى المسائل المتصلة بسوريا ولبنان والعراق وفلسطين وشرق الأردن ، باعتبارها بلداناً خاضعة لنظام الانتداب . ولكن جمهورية فيمار لم تفد من هذه الإمكانيات المحدودة نسبياً ، إذ كان أهم مايعنيها أن تستعيد وضع ألمانيا فى أوروبا وأن تلغى القيود التى فرضتها عليها معاهدة فرساي . لهذا كان من الطبيعى أن تتجنب القيام بنشاط سياسى فى البلدان الخاضعة للسيطرة البريطانية والفرنسية . كما سارت ألمانيا فى نفس هذا الاتجاه لبعض الوقت بعد سقوط جمهورية فيمار .

وبالإضافة إلى ذلك لم تكن لدى جمهورية فيمار الوسائل المادية اللازمة للحصول على نفوذ سياسى فى بلدان الشرق — فقد اختفى الأسطول الألمانى الذى لعب دوراً كبيراً خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، وصفت الاستثمارات الألمانية فى البلدان الخاضعة للإمبراطورية العثمانية ، وتضاءل الاهتمام بالتوسع الاقتصادى فى العالم العربى . وقد اشترت مصر ، التى كانت من أهم

العملاء التجاريين لألمانيا فيما بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٠ ، بضائع ألمانية بمعدل سنوى قيمته من ٦٠ إلى ٨٠ مليون مارك ، فى الوقت الذى بلغت فيه واردات ألمانيا من مصر ما يقرب من نفس الرقم . وفى خلال الأزمة الاقتصادية العالمية هبطت صادرات ألمانيا إلى مصر بشكل مخيف يفوق بكثير نسبة هبوط الواردات . وفى أواخر سنوات ما قبل الحرب كانت قيمة صادرات ألمانيا إلى مصر أقل بكثير منها فيما بين عامي ١٩٢٤ - ١٩٢٨ ، إذ بلغت حوالى ٤٠ مليون مارك سنوياً . وكانت واردات ألمانيا من مصر على نفس المستوى . ولما كانت لألمانيا تجارة واسعة فيما وراء البحار ، فإنها أفادت كثيراً من قناة السويس (فى عام ١٩٢٩ بلغت حمولة سفنها التجارية ١٦,٥ ٪ من مجموع الحمولات المارة بالقناة ، وفى عام ١٩٣٦ بلغت ٨,٩ ٪) . كما كان الألمان مهتمين بالقطن المصرى .

وكانت كمية تعامل ألمانيا التجارى مع بلدان المشرق العربى الأخرى قليلة . فقد وصلت الصادرات الألمانية إلى سوريا ولبنان قبل الحرب العالمية الثانية إلى ما مقداره ٥ إلى ٦ ملايين مارك سنوياً ، على حين تراوحت قيمة الواردات ما بين مليون ومليون مارك . وقد صدر الألمان إلى العراق فى عام ١٩٣٧ ما بلغت قيمته من ٦ إلى ٧ ملايين مارك ، ووصل هذا الرقم فى عام ١٩٣٨ إلى ما بين ٨ و ٩ ملايين مارك . وبلغت الواردات من العراق فى عام ١٩٣٧ ما مقداره ١,٩ مليون مارك و ٤,٢ ملايين مارك فى عام ١٩٣٨ . وقبل عام ١٩٣٧ كانت كمية التعامل التجارى الألمانى مع العراق من الضآلة بحيث لم تسجل فى الإحصائيات الرسمية . وباستثناء سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية كان الميزان التجارى بين ألمانيا والبلدان العربية لصالح ألمانيا .

وفى أثناء الثلاثينات كانت ألمانيا تحتل المكان الثانى فى تجارة مصر الخارجية ، ولكن النسبة المثوية لتعاملها التجارى كانت أقل بكثير من نسبة تعامل بريطانيا . وكان الموقف مشابهاً فيما يتعلق بتجارة ألمانيا مع فلسطين ، ولكنهما كانت نسبياً فى أسفل قائمة التجارة الخارجية مع سوريا ولبنان والعراق . وحين نقارن تجارة ألمانيا مع تركيا وإيران - حيث كان نصيبها آخذاً فى الزيادة السريعة خلال الثلاثينات (حوالى ٥٠ ٪ من كمية تجارة تركيا الخارجية) - بتجارتهما مع البلدان

العربية ، نجد هذه البلدان لاتلعب دوراً هاماً في الاقتصاد الألماني سواء في عهد جمهورية فايمار أو في العهد النازي . ولم تكن فرصها لتوسيع تجارتها مع هذه البلدان تدعو إلى التفاؤل .

ونحن نكرس اهتماماً خاصاً لمسألة التجارة الخارجية لأن ألمانيا كانت تبحث في البلدان العربية أولاً وقبل كل شيء عن أسواق لبضائعها . وبما له أهمية خاصة ما كان من نشاط الشركة البريطانية للتنقيب عن البترول التي حصلت في عام ١٩٣٠ على امتيازات خاصة بالتنقيب عن البترول واستخراجه في العراق في المناطق التي لم تكن داخلة بالفعل في نطاق امتياز شركة بترول العراق . وبإمكاننا أن نستنتج من الوثائق المتعلقة بنصيب الشركات الألمانية في هذا المضمار أن ألمانيا لم تكن تهتم كثيراً بالبترول أو بالاستثمارات الخارجية باعتبارها مصادر للربح المالي أو للأرباح التجارية . وحين اشتركت في هذه الشركة كانت تركز آمالها على الحصول على طلبات جديدة للتجهيزات ، وأن نحصل بوجه عام على أسواق إضافية كبيرة الأهمية بالنسبة إلى الشركات الألمانية . ولما كان الألمان عاجزين عن التغلب على مصاعب التمويل ، فإنهم تخلوا في عام ١٩٣٦ عن نصيبهم في الشركة البريطانية للتنقيب عن البترول . واقتدى بالألمان الإيطاليون الذين كانوا أكثر نفوذاً ، فوَقعت الشركة في يد شركة بترول العراق .

كما كان البحث عن الأسواق والسعي اندائب وراء الحصول على العملة الأجنبية من الأسباب التي أدت إلى محاولة أخرى للقيام بنشاط اقتصادي في العراق — أي مفاوضات ١٩٣٧ الخاصة بتزويد العراق بالأسلحة — وعلى أثر انقلاب ٢٩ أكتوبر ١٩٣٦ قامت حكومة في العراق كانت أكثر تصميماً على إحراز نصيب أوفر من الاستقلال عن بريطانيا وبناء جيشها بصورة أسرع . ولهذا فقد يبدو أن الظروف كانت في صالح التغلغل الألماني سياسياً واقتصادياً . ولكن على الرغم من أن إيطاليا كانت تحاول استغلال الظرف لعرض الأسلحة على العراق بمقتضى قرض يسلم على آجال قصيرة ، والقيام بتدريب الضباط الجويين العراقيين دون مقابل ، فإن السلطات الألمانية خفت من حداسة شركائها وكبحت جذبا مبعوثها في بغداد دكتور فرتز جروببا Fritz Grobba . وقد أوضح كبار المسؤولين أن الأرباح الاقتصادية الكبرى وحدها — كالدفع نقداً بالعملة الأجنبية — هي التي ستفتح

الحكومة الألمانية بالموافقة على تصدير الأسلحة إلى العراق . ولكن الحكومة العراقية لم تكن على الإطلاق في وضع يمكنها من أن تقوم بإجراء صفقات كبيرة مع ألمانيا ، وذلك بسبب المعارضة البريطانية .

ورغم ذلك لا ينبغي ظل الظروف الصعبة التي كانت تواجهها السوق العالمية ، نجد أن الفرص الصغيرة في البلدان العربية قد لعبت دوراً ما في خطط بعض المؤسسات الألمانية . وفيما يتعلق بالترسبات الكبرى - كأوتو وولف وريندتال بورسيج Rheinmetall-Borsing وفروستال Ferrostaal وبنك درسدن وكروب وغيرها ، نجد أن اهتمامها بالأسواق العربية يبدو . من المحاولتين اللتين سبقتهما الإشارة إليهما فيما يتعلق بالعراق . كما أن مؤسسات ألمانية صغرى أخذت تبحث عن أسواق في الشرق الأدنى - وكان هذا الاهتمام منصباً على صغار منتجي الأسلحة الذين استطاعوا أحياناً أن يعقدوا صفقات صغيرة^(١) .

وقد سبق أن لاحظنا أن التغلغل الاقتصادي الألماني في الشرق الأدنى قد اصطدم بمعارضة الدول المسيطرة على هذه المنطقة . فقد أكد الوزير الألماني المفوض في القاهرة ، كما أكد مدير فرع بنك درسدن في العاصمة المصرية أكثر من مرة ، أي أن صفقات على مدى واسع لا يمكن التوصل إليها إلا بموافقة إنجلترا . وقد جرى تقدير مشابه للموقف في العراق - فقد رأى أن الموقف سيكون مخالفاً فيما لو كانت البضائع الألمانية من نوع أحسن من البضائع الإنجليزية ، أو لو قامت المؤسسات الألمانية بدور المنفذ للعقود التي تجريها المؤسسات البريطانية الكبرى . ورغم عدم تشجيع المسئولين الحكوميين ، فقد أصرت المؤسسات الألمانية على إجراء الصفقات . وفي عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨ بدلت المؤسسات الألمانية جهوداً لإجراء عقود مع مصر لتزويدها بالعتاد الحربي ومنحها امتياز استخراج خام الحديد في أسوان والقيام ببناء مصانع حربية ومصانع للسجاد وإنشاء مؤسسات كهربائية . وقد نشأت هذه المحاولات بوجه عام . ولعبت البضائع الألمانية التي كانت رائجة في الأسواق التركية

(١) انظر مجموعة Handel mit Kriegsgerät Yemen. DZA Potsdam, A. A.

وهناك بضع وثائق في هذه المجموعة تتعلق بمحاولات الحكومة اليمنية أن تشتري أسلحة بولندية استول عليها الألمان في سبتمبر ١٩٣٩ .

والإيرانية دوراً أقل أهمية في البلدان العربية . وبهذا الصدد نجد أن موقفاً استثنائياً قد ظهر في فلسطين ، ولكن لأسباب أخرى سنتناولها فيما بعد .

وكان من المتوقع في ظل هذه الظروف أن تتخذ ألمانيا بعض الإجراءات السياسية إما إزاء الدول ذات النفوذ أو إزاء الدوائر المحلية ، وأنها ستحاول توسيع علاقاتها الاقتصادية . ومن المعروف أن حكومة هتلر ألحت بإصرار متزايد في التقدم بمطالبها لدى الدول صاحبة المستعمرات لكي تحملها على تقدير مصالح ألمانيا على أساس إعادة تقسيم الأسواق ومناطق النفوذ . ولكن ليس ثمة ما يدل على أن هذه المطالب كانت تتصل بالبلدان العربية ^(١) . وكان ممثلو ألمانيا في البلدان العربية ، وبخاصة في العراق وبدرجة أقل في مصر ، يكرسون معظم اهتمامهم إلى حد كبير لوجهات نظر الشخصيات السياسية الحاكمة ، وكانوا يعتقدون أن الزعماء العرب الذين يميلون إلى ألمانيا سيكونون أميل إلى المؤسسات والبضائع الألمانية . ولكن إمكانيات ألمانيا فيما يتعلق بالتدخل السياسي والتأثير على مجرى الأحداث لم تكن كبيرة جداً . وكانت لدى الإيطاليين فرص أحسن للتجاوب مع التطورات السياسية في المشرق العربي . ورغم ذلك فإن أسس السيطرة البريطانية والفرنسية لم تواجه أى أخطار جديدة :

على أنه يجدر القول بأن عدم وجود أى احتمالات حقيقية للحصول على النفوذ السياسى في البلدان العربية أو للاهتمام الجدى بالتعاون الاقتصادى معها لم يكن يعنى أن الإمبريالية الألمانية كانت غير مهتمة تماماً بهذه البلدان . فبعد وصول هتلر إلى الحكم ، وبخاصة في خلال السنوات الثلاث التى سبقت الحرب ، كان بالإمكان أن نلمس ازدياد اهتمام ألمانيا بصورة واضحة بالشئون العربية والإسلامية . وقد وجد ذلك صدهاء في ظهور عديد من المنشورات الخاصة بهذه المسائل . كما اتضح الاهتمام بأهمية الشرق الأدنى من الناحية الاستراتيجية . فقد نشطت الجمعيات التى كانت تهتم بالشرق ، وأخذت الحكومة تهتم بتنظيم الطلبة

(١) توجد في مجموعة Handel mit Kriegsgerät Agypten, DZA Potsdam, No. 68425

عدة وثائق تدل على أن محادثات جرت في ربيع عام ١٩٣٧ بين ممثل المؤسسات الألمانية وبعض موظفي الحكومة البريطانية - وهذه الوثائق تتصل ببيع الأسلحة إلى مصر . وقد استمرت المفاوضات خلال ربيع عام ١٩٣٨ ، ولكنها لم تتمخض عن أى نتائج .

العرب الذين كانوا يدرسون في ألمانيا . وأصبحت البلدان العربية مسرحاً للدعاية الألمانية . ولم يكن من قبيل الصدفة أن يتوجه زعيم الشباب الألماني - بلدور فون شيراش Baldur von Schirach في عام ١٩٣٧ إلى الشرق الأدنى بصحبة خمسة عشر من رفاقه الذين زاروا معه دمشق وبغداد وطهران ، وأعدت زيارة يقوم بها جوبلز إلى مصر في أوائل عام ١٩٣٨ - ولكنها لم تتم إلا في فبراير ١٩٣٩ . ووجدت الدعاية الألمانية ، وبخاصة زيارة فون شيراش ، صدى قوياً في البلدان العربية ، حيث كان النمط الألماني للتنظيمات شبه العسكرية والشبابية ، وبعض الشعارات النازية وبخاصة نظرية الزعيم ، موضع شعبية واسعة النطاق . وبطبيعة الحال كان ثمة بون شاسع بين غرس الشعارات الاشتراكية الوطنية والتأثير على السياسة القائمة ، ولكن الألمان استطاعوا أن يلاحظوا بعض الإنجازات التي قاموا بها وصمموا على استغلالها في الوقت المناسب : كإنشاء جماعات وخلايا تميل إلى الفاشية بصورة واضحة ^(١) ، وإجراء اتصالات مع الزعماء العرب والساسة وأعضاء الصفوة الحاكمة ، وحضور ساسة عرب إلى مهرجانات الحزب النازي التي أقيمت في نورمبرج - إلى غير ذلك . وقد أدى كل ذلك إلى قلق الدول المهيمنة على الشرق الأدنى بصورة لا مبرر لها .

وكانت بعض الدوائر السياسية والاقتصادية الألمانية تطالب بتوسيع النشاط الألماني في البلدان العربية^[١]، ومن بين من عبروا عن وجهات النظر هذه ألفرد روزنبرج ومكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي ، وهو المكتب الذي كان روزنبرج رئيساً له . ويمكن أيضاً القول بأن نشاط البنوك الألمانية ومثل المؤسسات الصناعية الكبرى لم يتمش مع حجم التجارة في ذلك الوقت . ففي العراق - على سبيل المثال - كان حجم التبادل التجاري صغيراً، وإن يكن يتضمن تشكيلات واسعة تدخل فيها كثير من المؤسسات الألمانية . وقبل الحرب كان الألمان ينظرون إلى العراق باعتباره ذا إمكانيات لا حصر لها . وبما أكد هذه النظرة نمو صناعة البترول وأهمية العراق في مضمار المواصلات العالمية .

(١) على أن الألمان لم يعتبروا هذه الجماعات ركيزة لم .

وكان على حكومة الريخ الثالث أن توجه اهتمامها إلى الشرقيين الأدنى والأوسط وذلك بسبب توسعها المتزايد في أوروبا وازدياد أهميتها العالمية وازدياد توتر العلاقات بين الدول الكبرى . وقد تزايد اتجاه الحكومة الألمانية إلى اتخاذ موقف سياسى من الشؤون العربية على أثر التطورات التى مرت بها فلسطين .

الفصل الثاني ألمانيا للنازية وتقرير لجنة هيل

نشوب الثورة العربية في فلسطين

كانت فلسطين تشغل وضعاً استثنائياً في المشرق العربي : فقد وضعت في أعقاب الحرب العالمية الأولى تحت انتداب بريطانيا العظمى الذي كان الهدف الرسمي منه هو إقامة وطن قومي لليهود في تلك البلاد . وكانت هجرة اليهود إلى فلسطين وشرائهم الأراضي يشكلان عنصراً سياسياً كان بمثابة جزء لا يتجزأ من الانتداب . وفي خلال العشرينات وفد إلى فلسطين حوالي ٨٠,٠٠٠ يهودي بقصد الإقامة الدائمة فيها وبلغ عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين ١١,٣٠٠ في عام ١٨٣٢ آخر سنوات جمهورية فيمار - وحينئذ كان عدد اليهود يبلغ ثلاثة أمثال ما كان عليه في عام ١٩١٨ ، فقد وصل هذا العدد إلى ٢٠٠,٠٠٠ كانوا يشكلون ٢٠ ٪ من السكان وارتفعت نسبة ملكية اليهود للأراضي في نفس الفترة إلى الضعف ولكنها لم تشكل سوى ما يقرب من ٤ ٪ من مجموع مساحة الأرض .

وكانت كل البلدان العربية الأخرى مشغولة بمشاكلها الداخلية الخاصة وبسياسات الدول الإمبريالية في منطقة البحر المتوسط على حين أن الموقف الأوروبي ، وبخاصة في وسط أوروبا ، كان له أثر قوي جداً في أحوال فلسطين . فقد اندفع اليهود إلى الهجرة نتيجة لصعوبة الوضع الاقتصادي والسياسات القومية التي كانت تتبعها البلدان التي تضم أعداداً كبيرة من اليهود كدولندة ورومانيا . وقبل الحرب العالمية الأولى كان الاتجاه الرئيسي للهجرة اليهودية صوب الولايات المتحدة ، وبعد الحرب ضعفت إمكانيات مثل هذه الهجرة إلى حد كبير .

وقد أصبحت الصلة بين وضع فلسطين والأحوال السائدة في وسط أوروبا قوية بوجه خاص بعد أن وصل النازيون إلى الحكم في ألمانيا واتبعوا سياسة شديدة العداء لليهود . وفي بلدان أخرى أخذت العناصر الفاشية المحلية والعناصر المعادية للسامية ترى في ألمانيا نموذجاً للدولة التي وضعت حلاً للمسألة اليهودية ؛ فسعت إلى تدعيم سياسات حكوماتها المعادية لليهود .

وكان هدف السياسة النازية في بداية الأمر هو إرغام اليهود على مغادرة ألمانيا . حينئذ كانت فلسطين تستوعب قسماً كبيراً من الهجرة اليهودية : ففيما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٦ هاجر إلى فلسطين ١٧٥,٠٠٠ يهودي كان ربعهم فقط من اليهود الألمان ^(١) . وكان مرجع ضعف الهجرة إلى فلسطين قبل الأزمة العالمية هو طابعها الارتياضي في ذلك الوقت لا العراقيل التي كان يضعها الإنجليز . ولكن الموقف تغير تماماً خلال الثلاثينات حين اعتبر زعماء الوكالة اليهودية الحصص البريطانية غير كافية .

وقد حكمت بريطانيا فلسطين بنفس الطريقة التي حكمت بها مستعمرات التاج التابعة لها . وكانت إدارتها تستند إلى المبدأ الخاص بالالتزامات المتساوية والمتكافئة طبقاً للانتداب إزاء اليهود (إقامة وطن قومي لليهود) وإزاء العرب (الدفاع عن حقوق العرب الفلسطينيين) ^(٢) . وكان هذا المبدأ قد تبلور استجابة لاحتجاجات العرب الفلسطينيين على الاستعمار اليهودي والسيطرة البريطانية . على أن الموقف العام في البلدان العربية قد جعل استدامة السيطرة المباشرة على فلسطين أمراً صعباً - فقد أقام البريطانيون في البلدان الأخرى حكماً غير مباشر يقوم على الاتفاق مع الطبقات الحاكمة المحلية . وبعد انتصار الجبهة الشعبية في فرنسا كثر الكلام عن قرب إجراء تغييرات في سوريا ولبنان ، الهدف منها توسيع صلاحيات السلطات المحلية .

وكان مرجع ازدياد الهجرة اليهودية هو نمو الحركة اللامسية في أوروبا ، الأمر الذي أثار معارضة متزايدة من جانب العرب . وقد أدت السيطرة اليهودية في كثير من المجالات الاقتصادية (مع قدرة العرب على الشراء التي قدرت بما يتراوح بين ٢٠ و ٢٥٪ من مجموع قدرة البلاد) إلى خشية العرب أن تتفوق أعداد اليهود في النهاية ، إذ أن الهجرة اليهودية قد زادت على نسبة المواليد العرب في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٦ :

(١) فيما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٧ اتجه ثلث اليهود الذين هاجروا من ألمانيا إلى فلسطين ، واتجه ثلث آخر إلى ما وراء البحار ، والثالث إلى بلدان أوربية أخرى .

(٢) انظر الكتاب الأبيض الذي أصدره لورد باسفيلد Passfield في عام ١٩٣٠ . وكان لمبدأ الالتزامات المتساوية إزاء اليهود والعرب في فلسطين أثر كبير على السياسة البريطانية منذ بداية نظام الانتداب .

J. Marlowe : The Seat of Pilate. An Account of the Palestine Mandate, 1960, pp. 87-109.

وحين انتهى عام ١٩٣٥ كان التوتر في فلسطين قد تزايد على أثر اقتراح إنشاء مجلس تشريعي حسب رغبة الحكومة البريطانية التي ما لبثت أن تخلت عن هذه الفكرة لإزاء الضغط اليهودي . وقد ترتبت على غزو إيطاليا للحبيشة ، الذي أدى إلى ضعفة هيبة بريطانيا بوجه عام ، ردود فعل اقتصادية خطيرة في فلسطين . فقد اشتدت طلبات سحب العملة من البنوك وحدث تدهور عام في النشاط الاقتصادي واستفحلت البطالة . وتزايدت عنف الدعاية المعادية لبريطانيا التي كان مصدرها محطة الإذاعة الإيطالية في باري . ونشب كثير من المظاهرات والإضرابات الوطنية في البلدان المجاورة . وفي مارس ١٩٣٦ أصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية تأكيدات بأنهما ستنفذان معاهدتين مع مصر وسوريا تعترفان فيهما باستقلالهما . وهكذا انضمت عملية إجراء تعديل على النظام الذي قام بعد الحرب العالمية الأولى في كل من مصر وسوريا ولبنان والمجاورتين لفلسطين .

وهكذا نكون قد عرضنا للأساس الداخلي والدولي للثورة العربية التي نشبت في أبريل ١٩٣٦ . وكانت هذه الثورة أخطر من الاحتجاجات السابقة التي قام بها العرب الفلسطينيون ضد السيطرة البريطانية والاستعمار اليهودي لأنها كانت تحظى بمساندة أوسع وأنشط من جانب السكان العرب ولأنها استمرت فترة أطول من الثورات العربية السابقة ولم تنته إلا بعد ثلاث سنوات . وقد اتخذت هذه الثورة في البداية شكل إضراب عربي استمر فترة طويلة . وصاحبه في كثير من الأحيان هجمات على اليهود . وقامت « اللجنة العربية العليا » بتنظيم الثورة ، وكانت تستند إلى تحالف بين الأحزاب العربية وبين جماعات يتزعمها مفتي القدس الحاج محمد أمين الحسيني . وقد طالبت اللجنة بوقف الهجرة اليهودية وتحريم شراء اليهود للأراضي واستبدال حكومة الانتداب بحكومة وطنية مشيوية . وكما حدث في عامي ١٩٢١ و ١٩٢٩ حين قام العرب بالثورة ، أرسلت الحكومة البريطانية لجنة خاصة إلى فلسطين ، كانت هذه المرة على شكل لجنة ملكية أوضح تشكيلها أن السلطات البريطانية تهتم اهتماماً كبيراً بقضية فلسطين . وقد صرح أنتوني إيدن - الذي كان حينئذ وزيراً للخارجية - لربينتروب فيما بعد بأن قضية فلسطين كانت من أصعب المشاكل التي واجهتها الإمبراطورية .

تقرير اللجنة الملكية

وقد وصلت اللجنة ^(١) إلى فلسطين في ١١ نوفمبر ١٩٣٦ ، واستمعت إلى مندوبي الحكومة وإلى اليهود بالإضافة إلى العرب الذين قرروا في النهاية أن ينهوا مقاطعتهم لها . وفي ٧ يولية ١٩٣٧ انتهت من وضع تقريرها الذي جاء على شكل وثيقة أساسية تميزت بالوضوح وبموضوعية تحليلها للموقف في فلسطين . وقد اقترحت اللجنة إنهاء الانتداب وتقسيم فلسطين إلى قسمين : دولة يهودية تشغل حوالي خمس فلسطين ، ودولة عربية تضم بقية فلسطين وإمارة شرق الأردن ، على أن تبقى منطقة صغيرة ، وإن تكن على جانب كبير من الأهمية ، تحت الانتداب البريطاني الدائم . وقد تسربت إلى الجماهير بعض الأنباء الخاصة باللجنة الملكية التي أصبحت لعدة أسابيع موضعاً للشائعات السياسية . قبل أن يصبح التقرير رسمياً .

وكان لاثورة العربية في فلسطين وتقرير اللجنة الملكية أثر هام في البلاد وفي كل المشرق العربي ، إذ أنها أكدت تضامن البلدان العربية . وقد صرح مصدر عربي بمبايلي ^(٢) : « في خلال هذه الثورة اتضح العطف التام من جانب العالم العربي بأسره على عرب فلسطين للمرة الأولى . فقد تشكلت في المدن الكبرى في العالم العربي لجان للدفاع عن فلسطين ، وجمعت الأموال وتقدم المتطوعون بأسمائهم للانضمام إلى النضال المسلح . وفي أواخر النضال كان يتم توجيه الثورة في الواقع من سوريا ولبنان والعراق ، وكانت بمثابة بؤرة لكل الحيوية السياسية

(١) تكونت من : إيرل بيل ، وهو سياسي محافظ شهير كان قبل ذلك سكرتيراً للشئون الهندية (رئيساً) ، وسير هوراس هوبلد ، وهو دبلوماسي وسفير سابق في برلين وسير لورانس هاموند الذي كان في الماضي حاكماً لإحدى مناطق الهند ، وسير موريس كارتير القاضي السابق بمحكمة كينيا العليا ، وسير هارولد موريس الذي كان من قبل كبيراً للقضاة في محكمة المنازعات الصناعية ، ورفسور سير رجنالد كوبلاند المؤرخ والخبير بشئون إدارة المستعمرات . « وكانت هذه اللجنة قوية بشكل غير عادي ، إذ تألفت من شخصيات هامة على خبرة عظيمة »

John Marlowe : Rebellion in Palestine, London, 1946, p. 173.

The Arab Office, The Future of Palestine, Geneva, 1947, pp. 43-44.

للعالم العربي وفاق تشجيعها لحركة الوحدة أى عامل آخر». وأهم المؤتمرات العربية التي انعقدت خلال تلك الفترة ، مؤتمرا بلودان (يولية ١٩٣٧) والقاهرة (نوفبر ١٩٣٨) اللذان كانا يسميان إلى تحقيق الهدف الواضح الخاص باتخاذ إجراءات لمواجهة الخطر الصهيوني .

وقد أدى تقرير اللجنة الملكية إلى ازدياد النشاط السياسي في العالم العربي— فقد عارضت معظم الحكومات والأحزاب العربية خطة التقسيم . ورغم أن معظم القادة لم يستقروا على قرار ، فإن الرأي العام الذي كانت تسيطر عليه الاتجاهات القومية لم يترك لهم سوى مجال ضيق للمناورة^(١) . ويبدو أن التقسيم وجد قبولا في البداية من جانب قطاع هام من الحكومات العربية ومن المعتدلين من عرب فلسطين . وحين طلبت اللجنة العربية العليا من الحكومات العربية أن تعارض خطة التقسيم لم تصادف رد فعل إيجابى إلا في سوريا والعراق . وقد رفض رئيس الوزراء المصري ، مصطفى النحاس ، الإدلاء بأى تصريح ، على حين تهرب عبد الله أمير شرق الأردن وابن سعود ملك العربية السعودية ويحيى إمام اليمن . ورغم ذلك فلم يجرؤ على تأييد اقتراح التقسيم سوى الأمير عبدالله . وفي عام ١٩٣٩ وجهت الدعوة الرسمية لعقد مؤتمر في لندن هدفه مناقشة قضية فلسطين .

وفي خلال تلك الفترة جرت تغيرات هامة مست السكان اليهود في فلسطين . فقبيل الثورة كان يعيش في فلسطين ٤٠٠,٠٠٠ يهودى كانوا يتمتعون باستقلال ذاتى واسع النطاق : إذ كانت لهم إداراتهم المركزية والمحلية المتعلقة بشئون حكمهم ، كما كانت لهم مدارسهم وخدماتهم الاجتماعية . وكانت احتكاكاتهم بالمجتمع العربى حينئذ محدودة ، ورغم كونها ضرورية من الناحية الاقتصادية^(٢) . وبما زاد

(١) أدلى وزير خارجية الأفغان إلى وزير إيطاليا المفوض في كابول بالتصريح التالى . ورغم أن التصريح جاء في مناسبة أخرى هي تنازل فرنسا لتركيا عن لواء الإسكندرونة ، فإنه يستحق الالتفات . فقد صرح الوزير الأفغانى بما يلي : « لاشك أن جماهير البلدان العربية قومية الطابع . أما الطبقات الحاكمة فإنها تميل إلى إنجلترا من حيث المبدأ لأنها تأمل بمساعدتها أن تحافظ على مزاياها التي تصعب المحافظة عليها بنير ذلك . ولا يمكن أن نتوقع من هذه الطبقات سوى كلمات كثيرة وقليل من النشاط المحدود » .

(IDD, Series 8, vol. XII, Rome, 1952, no. 446).

(٢) كان السكان اليهود يعتمدون بوجه خاص على ما يزودهم به السكان العرب من المنتجات=

في عرقلة هذه الاحتكاكات الإضراب العربي والثورة والنضال الذي اتخذ شكل حرب عصابات . ولكن المجتمع اليهودي أمكنه أن يني بمطالبه ، إذ أن هذه الأحداث جعلته أكثر استقلالاً واكتفاء ذاتياً . وكانت اللجنة الملكية ، كما سبق أن رأينا ، هي التي اقترحت إنشاء دولة يهودية . وقد قدم اقتراح اللجنة في الوقت الذي تزايدت فيه إجراءات اضطهاد اليهود في أوروبا ، ونشأت فيه القومية اليهودية في فلسطين . لهذا كان لابد أن يؤدي إلى رد فعل سياسى قوى من جانب اليهود سواء داخل أو خارج فلسطين . وقد عبرت أغلبية الحركة الصهيونية عن استعدادها لقبول اقتراح التقسيم ، ولم تصر إلا على إجراء بعض التعديلات الإقليمية . على أن بعض الدوائر الصهيونية وغير الصهيونية ذات النفوذ عبرت عن معارضتها القوية لخطة تقسيم البلاد وخلق دولة يهودية . وقد لعبت هذه المعارضة دوراً كبيراً في شل جهود اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية التي كانت تميل إلى التقسيم .

ووجدت الحكومة البريطانية نفسها ، فيما يتعلق بفلسطين ، في موقف صعب ملئ بالتناقضات والأخطار . حقيقة أن المصالح الإمبراطورية البريطانية قد أملت عليها ضرورة مواصلة إقامة علاقات حسنة مع العرب ، إلا أنه طالما لم تهاجم أى من الدول الكبرى الأوضاع القائمة في شرق البحر المتوسط ، لم يكن من الممكن أن يكون ضغط الساسة العرب على الحكومة البريطانية فعالاً . وكان من الممكن موازنة هذا الضغط بضمان الدول استقرار اليهود في فلسطين وبالنفوذ الذي أحرزته الوكالة اليهودية في عدة بلدان . وقد ظل هذا العامل كما هو عليه حين بدأت دولتنا الحور توسعهما . ولكن كان من الطبيعي أن تكون الحكومة البريطانية أكثر عطفاً على المطالب العربية ، وبخاصة ما لم يهدد منها السيطرة البريطانية على فلسطين . ومن ناحية أخرى فإن تأزم الموقف الدولى لم يكن ليترك مجالاً لتخلى إنجلترا عن حكمها لفلسطين . وما يجدر ذكره أن سيطرة بريطانيا على الأراضي المتاخمة لقناة السويس من جهة الشمال كانت تحتل مكاناً هاماً في خططها الخاصة بشق ووطن قوى لليهود

= الزراعة . وكان العمال الموصيون العرب العاملون في مزارع الخمفيات يلعبون دوراً هاماً . وكان هناك ميناءان ، هما ميناء يافا العربي وميناء حيفا الذي كان يضم خليطاً من الجنسين وكان على جانب كبير من الأهمية .

في فلسطين . وقد قوى ازدياد الملاحة والمواصلات الجوية من شأن الاعتبارات التي سبقت الإشارة إليها . وفي نفس الوقت ازداد النقد العلني لمنح تنازلات على حساب اليهود ، خاصة وأن مشكلة الهجرة اليهودية قد ازدادت حدة . وتمثلت نتيجة هذه الرغبات والالتزامات المتناقضة أولاً في تقرير اللجنة الملكية ، ثم في كثرة تذبذب السياسة البريطانية : من قبول اقتراح تقسيم فلسطين إلى رفضه من أساسه .

مصالح ألمانيا في فلسطين

وبما لاشك فيه أن الدور الذي لعبته ألمانيا النازية ونشاطها في المجال الدولي قد أوجدا مناخاً مناسباً للثورة العربية في فلسطين . كما أن اتجاهها اللاسامي العنيف قد قوى مركز اليهود في تلك البلاد بالشكل الذي تعارض مع أهداف النازيين . وقد أدخل النازيون في بداية حكمهم عدداً من الإجراءات التي سهلت هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين . وقد جرى اتفاق بين الوكالة اليهودية وبين سلطات الريخ نصت على السماح لليهود الألمان بأن يتقلوا معهم جزءاً من أملاكهم على شكل بضائع تم إنتاجها في ألمانيا^(١). وقد أنشئت لهذا الغرض منظمة اسمها هافارا (بمعنى النقل) منحت احتكاراً فعلياً لاستيراد البضائع الألمانية إلى فلسطين . ونتيجة للاتفاقية ازدادت الصادرات الألمانية إلى فلسطين من ١١,٤ مليون مارك في عام ١٩٣٢ إلى ١٦,٧ مليون عام ١٩٣٣ ، ثم إلى ٣٢,٤ مليوناً في عام ١٩٣٧ . وحين نضع ذلك في نسب مئوية نجد أن الصادرات قد ازدادت من ١٠٪ خلال السنوات السابقة لوصول النازيين إلى الحكم إلى ١٦٪^(٢) . وفي خلال نفس الفترة

(١) وجهت كثير من الدوائر اليهودية نقداً شديداً إلى هذه الاتفاقية ، إذ أن المنظمات اليهودية أعلنت مقاطعتها للبضائع الألمانية في عام ١٩٣٣ .

(٢) طبقاً للمادة التي نستقيها من مكتب الريخ للإشراف على تبادل العملة الأجنبية ، بلغ نقل رأس المال اليهودي من ألمانيا إلى فلسطين فيما بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٧ ما مقداره ٧٠ مليون مارك ، كان ٢٣ مليوناً منها من منطقة السار . وطبقاً للمعلومات التي نستقيها من الوكالة اليهودية بلغ تصدير رأس المال اليهودي من ألمانيا إلى فلسطين فيما بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ما مقداره ٤ ملايين جنيه استرليني ، =

استمر هبوط الصادرات من فلسطين إلى ألمانيا ^(١) . وقد هاجمت الدوائر الحكومية الألمانية الانفاية التي أجريت مع هيئة هافارا ، فقد اتهمتها بأنها كانت تعنى تصدير البضائع الألمانية دون مقابل من العملة الصعبة . ولكن رؤى في نهاية الأمر أن الاتفاقية ضرورية للتجديد بالمهجرة اليهودية إلى خارج ألمانيا . وفي الواقع أن نقل الأملاك اليهودية عن طريق هيئة هافارا قد أدى إلى وقوع معظم أملاك اليهود في يد الريع الثالث. ومن المحتمل أن « الخسارة في العملة الأجنبية » ، التي كان يقال إن الاقتصاد الألماني يتحملها ، كانت قليلة جداً - إذ أن اتفاقية هافارا حرمت تصدير البضائع التي يقوم إنتاجها على مواد خام أجنبية ، أو التي كانت تستدعي مزيداً من إنفاق العملة الأجنبية »

وليس من المعروف ما إذا كانت الحكومة النازية قد توقعت أن تؤدي سياسهم المعادية لليهود وازدياد المهجرة إلى فلسطين إلى نشوب الثورة العربية . ولم يقيم الألمان بتنظيم الثورة ، كما أنه ليس ثمة دليل على أنهم مدوا لها يد المساعدة في البداية . على أن الإيطاليين أبدوا اهتماماً بالبلدان العربية لبعض الوقت ، ومن المحتمل أنهم أقاموا علاقة مع الرجل الذي كان بسبيل البروز باعتباره زعيم عرب فلسطين دون منازع : الحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس ^(٢) . ولكن مما لاشك فيه أن الألمان هم الآخرون - شأنهم في ذلك شأن الإيطاليين - كانوا يرغبون في الإفادة من الموقف في فلسطين لكي يوجهوا ضربة إلى هيبة إنجلترا العالمية . وبدأ أن قضية

= وبلغ رقم رأس المال المصدر من بولندا إلى فلسطين ٦٥٧ ملايين . وما يثير الالتفات أن الحكومة البولندية هي الأخرى قد بحثت احتمال إدخال إجراءات شبيهة بتلك التي نصت عليها اتفاقية هافارا .

(١) كانت نسبة تبادل المارك الألماني إلى الجنيه الفلسطيني (= جنياً استرالياً) هي : في عام ١٩٣٢ / ١٤٥٧٥ ماركاً ، في عام ١٩٣٣ / ١٣٥٩ ماركاً ، في عام ١٩٣٧ / ١٢٣٥ ماركاً .

(٢) اشتد انزعاج إنجلترا من نشاط الصلاه الإيطاليين في البلدان العربية . وفي ١٦ أبريل ١٩٣٨ أمكن الوصول إلى اتفاقية بين بريطانيا وإيطاليا ، تعهد تشامبرلين بمقتضاها بالاعتراف بضم إيطاليا للحبشة في مقابل انسحاب القوات الإيطالية من إسبانيا وليبيا ووقف الدعاية المعادية لبريطانيا في الإذاعات الموجهة إلى البلدان العربية . قد ظهرت النبذة التالية في مذكرة بريطانية خاصة بتنفيذ هذه الاتفاقية : « لوشطت إيطاليا بالصورة التي نشطت بها قبل توقيع الاتفاقية الإنجليزية - الإيطالية ، فأغلب الظن أن الموقف في فلسطين كان سيزداد خطورة »

فلسطين تتمشى مع حاجيات وأهداف الدعاية النازية . فن ناحية أدى اضطهاد اليهود في ألمانيا وبلدان أخرى ، حيث ازداد نشاط اللساميين من السكان الوطنيين تحت تأثير الأحداث التي جرت في ألمانيا ، إلى إجبار اليهود على طلب تأشيرات دخول إلى فلسطين وازدياد جهود الصهيونيين للحصول على حصص أكبر للهجرة . ون ناحية أخرى نجد أن الدعاية النازية المعادية لليهود قد جرت في نفس الوقت الذي ظهرت فيه نظرية القوميين العرب المرتبطة بالزعم القائل بسيطرة اليهودية العالمية على اقتصاد العالم وسياسته ، وبالمؤامرة البريطانية - اليهودية لانتزاع فلسطين من سكانها .

حقيقة أن الألمان حتى ربيع عام ١٩٣٩ لم يستغلوا الإذاعات اللاسلكية التي هي أنجح وسائل الدعاية في المشرق العربي ، إلا أنهم لجئوا إلى طرق أخرى متنوعة : كتزويد الصحافة العربية بنشرات إخبارية ، ودفع أجور الإعلانات الخاصة بالاتصالات الشخصية وتشجيع الرحلات إلى ألمانيا والدراسة فيها . ويكفي أن نلقي نظرة إلى الصحافة العربية في ذلك الوقت لكي نتبين زوايا وأسس الدعاية التي أخذتها عن النازيين . فمثلاً نجد في مايو ١٩٣٧ ، بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي أن الأعلام الألمانية والإيطالية قد علقت ، كما علقت صورنا هتلر وموسوليني ، هذا برغم أن العرب قد تظاهروا في عدة أماكن في عام ١٩٣٥ احتجاجاً على العدوان الإيطالي على الحبشة .

وهكذا كان بالإمكان أن نلمس في فلسطين النفوذ المتزايد للدولتي المحور قبل صدور تقرير لجنة بيل . ولوحظ أيضاً أن الألمان والإيطاليين قد قاموا بمحاولات معينة للإفادة من الصعاب التي كانت تواجهها إنجلترا في فلسطين . وقد أدى تقرير بيل إلى تحسين فرص السياسة الألمانية وسهل عمل الطابور الخامس في فلسطين وفي بلدان أخرى في المشرق العربي . فقبل هذا التقرير توقع العرب أن أحداث فلسطين وأثرها في العالم العربي والإسلامي بأسره مما سيرغم بريطانيا على تقديم تنازلات بعيدة المدى لمطالب العرب . وقد أدت مقترحات لجنة بيل إلى تعديل الموقف ، فقد أخذ الساسة العرب حينئذ يبحثون عن طرق جديدة للحد من ضعف مركز العرب في فلسطين . حينئذ كان يكفي اتخاذ موقف واضح ضد

التقسيم والقيام بحملة دعائية . على أن مما يجب الاعتراف به أن هذه الظروف الموانية لم تؤثر تأثيراً كبيراً في وجهة نظر الحكومة الألمانية .

وكانت للألمان مصالح في فلسطين ، أهمها المستعمرات والجلاليات القائمة هناك . وفي عام ١٩٣٧ كان يقيم في فلسطين بصفة دائمة حوالي ٢,٠٠٠ من ألمان الريخ (الآريين)^(١) - وكان معظمهم يقيمون فيما سمي بالمستعمرات الألمانية في القدس ويافا وحيفا ، وكذلك في المستعمرات الريفية : سارونا وثلهملماوفاالدهاميم وبيت لحم . وكان معظمهم أعضاء في « جمعية المعبد » Tempel Geseellschaft التي تأسست في ورتنبورج في عام ١٨٦١ . وكانت بضع مئات من الألمان من اللاوثرين ، على حين كان عدد الكاثوليك قليلاً جداً ، ومعظمهم من الرهبان الذين كانت لهم كنائسهم ومدارسهم الخاصة التي جرت العادة على أن يستعملها أيضاً السكان المحليون ، وأغلبهم من العرب . وفي عام ١٩٣٧ كان الألمان الفلسطينيون واقفين تماماً تحت سيطرة منظمات الحزب النازي المحلية التي كانت تعتبر المستعمرات الألمانية مواقع أمامية للريخ الثالث . وقد جرى تثبيت العودة الدائمة إلى ألمانيا ، وحرم بيع الأراضي وبخاصة لليهود . وبلغت مساحة الأراضي التي كان يمتلكها الألمان في فلسطين ٤٣ كيلو متراً مربعاً كانت تقوم على ٢٦ كيلو متراً مربعاً منها مستعمرات ريفية ، بالإضافة إلى كيلومتر مربع ونصف في المدن الثلاث المشار إليها و ١٢,٥ كيلو متراً مربعاً موزعة على ١٣ قرية عربية .

وكانت العلاقات بين المستعمرين الألمان وبين اليهود الفلسطينيين حسنة قبل وصول هتلر إلى الحكم ، ثم ازداد سوءها بمضي الزمن . وقد تأثرت المستعمرات

(١) يرد في تقارير القنصل العام الألماني دول Dohle (القدس ٢٢ مارس ١٩٣٧) أنه كان يقطن فلسطين ٢٥٠٠ ألماني . وطبقاً لمعلومات الوكالة اليهودية كان يوجد ٢٥٠٠ ألماني . ولكن هذا الرقم لا ينطبق إلا على الفترة التي سبقت نشوب الحرب مباشرة ، حين بارح كثير من الشبان الألمان فلسطين للانخراط في الخدمة العسكرية ، وقد عمل كثيرون منهم أثناء الحرب في القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية في فرقة المهمة الخاصة المسماة براندنبورج . ويذكر شست أنه كان يوجد ١٨٠٠ ألماني في فلسطين .

(H.D. Schmidt: The Nazi Party in Palestine and the Levant. International Affairs, 1952, pp. 460-9).

على أن هذا الرقم ينطبق على العشرينات .

والمشروعات الألمانية كثيراً بالمقاطعة اليهودية ، وبوجه عام نجدها ترحب بالثورة العربية ترحيباً مشوباً بالعطف : فقد اقتنع الألمان بأن ازدياد نمو الجالية اليهودية في فلسطين سيجعل حياتهم أصعب ، وأن حلاً لقضية فلسطين في صالح اليهود سيرغمهم على مبارحة البلاد . وقد فكر بعضهم بالفعل في الرحيل ، واشتروا أراضي في البلدان العربية المجاورة وفي قبرص . وقد كتب قنصل الريخ العام في القدس مايلي : « يجب أن يكون من الواضح أن حل مسألة فلسطين لصالح اليهود وحدهم سيرغم المستعمرين الألمان على الهجرة وسيجعل المؤسسات الألمانية تغلق أبوابها » . وبعد تقرير بيل خشي المستعمرون الألمان أن تقع مستعمراتهم القائمة على المنطقة الساحلية المنخفضة وفي الجليل ، داخل حدود الدولة اليهودية .

ولما كان النازيون قد اتبعوا سياسة تقوم على طرد اليهود ، فإنهم لم يهتموا لفترة طويلة بمصالح المستعمرين الألمان في فلسطين . وأهم من هذا أن الاتفاق على أن ينقل إلى فلسطين جزء من أملاك اليهود الألمان قد وضع في يد شركة هافارا احتكار استيراد البضائع الألمانية . ومن الواضح أن هافارا كانت تسعى إلى إفادة الهيئات والمشروعات اليهودية لا المستعمرين الألمان . وبالإضافة إلى ذلك فإن العرب الذين كانوا يشنون بضائع ألمانية كانوا في وضع مشابه لوضع المستعمرين الألمان .

نذر التحول في سياسة ألمانيا

حتى أواسط عام ١٩٣٧ لم يحمل شيء الزعماء الألمان على الاهتمام بشئون فلسطين : سواء في ذلك أهدافهم السياسية أو نجاحاتهم الدعائية المحتملة في البلدان العربية أو مصالح المستعمرين الألمان في فلسطين . ولم تنشأ الرغبة في تقدير الموقف تقديراً جيداً إلا بعد انتشار أخبار التقسيم وخلق دولة يهودية . ذلك أن خطط لجنة بيل أوضحت أن اللاسامية الأوروبية ، وبوجه خاص اللاسامية الألمانية ، كان عليها أن تواجه نتائج غير متوقعة تماماً . وكان قيام دولة يهودية بالذات من هذه النتائج غير المتوقعة . وبممكننا أن نستدل من الوثائق التي في متناول أيدينا على أن هذا الوضع هو الذي دفع السلطات الألمانية إلى اتخاذ قرارات سياسية جديدة .

وفي أول يونيو ١٩٣٧ بحث فون نيوراث - وزير الخارجية الألمانية - بتعليمات خاصة إلى السفارة الألمانية في لندن وإلى القنصلية الألمانية العامة في القدس وإلى البعثة الدبلوماسية الألمانية في بغداد . وفي الثاني والعشرين من نفس الشهر أرسلت وزارة الخارجية الألمانية رسالة دورية إلى ممثلي ألمانيا في الخارج . وكانت كل من الوثيقتين تتناول قضية فلسطين . وقد جرى إرسال هاتين الرسالتين قبل وضع تقرير بيل-ورغم ذلك فقد علقنا بالفعل على فكرته الأساسية : أى تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية .

وقد أعلنت الوثيقتان أن علاقة ألمانيا بشؤون فلسطين كانت حتى ذلك الوقت تتصل باعتبارات السياسة الداخلية . وهكذا جاء في أولى الوثيقتين السابق ذكرهما مايل : « حتى ذلك الوقت كان الهدف الأول من سياسة ألمانيا اليهودية هو تشجيع هجرة اليهود من ألمانيا بالقدر المستطاع . ولنا في سبيل تحقيق هذا الهدف نقوم ببذل تضحيات حتى في سياسة تداول النقل الخارجى » - وتمضى الوثيقة قائلة : « إن إنشاء دولة يهودية أو كيان سياسى يسيطر عليه اليهود في ظل الانتداب البريطانى ليس في مصلحة ألمانيا ، لأن الدولة الفلسطينية لن تستوعب يهود العالم ، ولكنها ستقيم مركز قوة جديد لليهودية العالمية في ظل القانون الدولى ، بشكل يشبه دولة الفاتيكان بالنسبة إلى الكاثوليكية السياسية أو موسكو بالنسبة إلى الكومنترون » .

وهناك إيضاح آخر للسبب الذى دعا ألمانيا النازية إلى اتخاذ موقف سلبي من الخطوة القاضية بإنشاء دولة يهودية في الرسالة الدورية التى وجهتها وزارة الخارجية الألمانية وجاء فيها : « وفي الحقيقة .. إن مصلحة ألمانيا تقتضى جعل اليهود متفرقين - إذ حين لا يوجد على الأرض الألمانية أى فرد من الجنس اليهودى ، لن تكون المسألة اليهودية قد حلت بالنسبة إلى ألمانيا . ولكن تطورات السنوات الأخيرة أوضحت أن اليهودية العالمية ستكون دائماً بالضرورة العدو الأيديولوجى ، وبالتالي العدر السياسى ، لألمانيا الوطنية الاشتراكية . ولهذا فإن المسألة اليهودية هى في نفس الوقت إحدى المشكلات شديدة الأهمية بالنسبة إلى سياسة ألمانيا الخارجية » .

وتمضى تعليمات فون نيوراث فتقول : « ولهذا فإن لألمانيا مصلحة في تقوية العالم العربى ، وذلك لموازنة احتمال ازدياد سطوة اليهودية العالمية » .

ويرتبط بهذا أن وزارة الخارجية الألمانية أصدرت تعليماتها إلى السفارة الألمانية في لندن (وحينئذ كان فون ريبنتروب سفيراً) لكي تنقل إلى الحكومة البريطانية مصلحة ألمانيا في المسألة الفلسطينية وموقفها السلبي من إنشاء دولة يهودية في فلسطين : « ونحن لا نعتقد أن إقامة دولة يهودية في فلسطين سيساند الجهد المبذول لهدنة الموقف الدولي » .

وقد تلقى مبعوث ألمانيا إلى بغداد - فرزجروبا - تعليمات تقتضى « وجوب التعبير بشكل أوضح من ذى قبل عن تفهم ألمانيا لأمانى العرب القومية ، ولكن دون الإدلاء بأى وعدو محددة » . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان على كل البعثات الدبلوماسية الألمانية أن تقدم تقارير تحتوى على ملحوظاتها الخاصة بأى نشاط فى صالح إقامة دولة يهودية .

وقد احتوت كل من تعليمات فون نيوراث والرسالة الدورية التى بعثت بها وزارة الخارجية الألمانية على التحفظ الهام الآتى : « لا يجب أن يكون من المتوقع أن يؤثر التدخل الألمانى المباشر بالضرورة فى تطور القضية الفلسطينية » . كما يمكننا أن نبين من وثائق أخرى أن وزارة الخارجية الألمانية لم تكن تؤمن بقدرة ألمانيا على الحيلولة دون تنفيذ المخططات البريطانية فى فلسطين . وكانت مسألة تقسيم فلسطين قد اعتبرت فى البداية وكأنها قد حسمت ، وفى مناقشة جرت بين فون نيوراث والقائم البريطانى بالأعمال فى ٢٦ أكتوبر ١٩٣٧ ، ذهب وزير الخارجية الألمانية إلى حد إثارة مسألة الضمانات اللازمة للمستعمرات الألمانية فى فلسطين فى حالة تنفيذ التقسيم .

وكان يجب أن تكون النتيجة المنطقية لاتجاه ألمانيا السلبي إزاء إنشاء دولة يهودية هى تغيير سياستها إزاء الهجرة اليهودية إلى فلسطين وتحويل رأس المال اليهودى من ألمانيا . وتبين التعليمات التى وجهها فون نيوراث فى أول يونيو أنه كان من المتوخى اتخاذ قرارات بشأن هذه المسائل فيما بعد . وعلى الأكثر نجد أنه بحلول بداية عام ١٩٣٧ كان قد بدأ تبادل الرأى فى وزارة الخارجية الألمانية ووزارة الشؤون الداخلية ومركز الريخ للتخطيط الاقتصادى وبنك الريخ ووزارة الشؤون الاقتصادية وإدارات الحزب الوطنى الاشتراكى (ومعظمها فى مكتب نائب القوهرر

ومكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي وفي منظمة الشؤون الخارجية) حول مسألة مصير الهجرة اليهودية في المستقبل . وقد طالب دول Dohل القنصل العام في القدس ، بإجراء تعديل جذري في سياسة ألمانيا ، ووضع تقريراً مفصلاً أوردته الخطوط الرئيسية للأسباب التي يراها ، ثم قدم هذا التقرير إلى الهيئات الدبلوماسية الألمانية وإلى الإدارات المركزية . وحين بدأ عام ١٩٣٨ كان دول لا يزال يشكو من أنه لم تتخذ أى خطوات سياسية أو اقتصادية بصدد المسائل المتعلقة بالهجرة اليهودية وتحويل رأس المال اليهودي إلى فلسطين . كما أنه أشار إلى احتمال اتخاذ العرب موقفاً سلبياً من ألمانيا نتيجة للسياسة المتبعة . وبالإضافة إلى ذلك فإن عدداً من موظفي منظمة الشؤون الخارجية بالحزب النازي قد عبروا عن معارضتهم للسياسة المتبعة .

وفي خلال شهرى يولية وأغسطس ١٩٣٧ عقدت عدة مؤتمرات حضرها ممثلون عن الهيئات المختصة . وفي المؤتمر قدم طلب بإيقاف الهجرة اليهودية ونقل رأس المال اليهودي إلى فلسطين ، واقتبست تعليمات فون نيوراث الصادرة في أول يونية وأوضح أن العمل على استمرار حالة تشتت اليهود يفوق في أهميته العمل على طردهم من ألمانيا . وقد ذهب أنصار هذا الرأي إلى أن ثمة بوادر لقيام دولة يهودية نتيجة لهجرة اليهود إلى فلسطين بمساعدة المال الألماني ومعارف اليهود ومهارتهم التي حصلوا عليها في ألمانيا . وأشار إلى زعم الإضرار بالاقتصاد الألماني الناتج عن تحويل رأس المال الألماني ، وأبرزت بقوة النتائج الاقتصادية والسياسية لهذه الأوضاع ، وذهب بعض المعادين للهجرة إلى أن من الممكن التوصل إلى ازدياد هجرة اليهود الألمان لا بالمساندة الرسمية وجعل تحويل رأس المال في حيز الإمكان ، بل «بتنمية الحافز الموجود لدى اليهود بخصوص الهجرة» أى بالإيمان في اضطهادهم والافتيات على حقوقهم .

ولكن المعارضة الموجهة إلى تحريم الهجرة وتحويل العملة كانت لا تقل عن ذلك قوة . وقد أثارت هذه الناحية هي الأخرى مناقشات حادة من وجهة النظر النازية بطبيعة الحال . وقبل أولاً وقبل كل شيء إنه إذا لم يكن باستطاعة اليهود أن يهاجروا إلى فلسطين ، فإن أمر هتلر الخاص بفرض أقصى درجات الهجرة لن ينفذ .

فقد ذهب أنصار هذا الرأي إلى أن فلسطين كانت آخذة في استيعاب اليهود من المتيسرين والفقراء والشباب ، على حين وجد اليهود الأغنياء ملجأ في المدن الكبرى : نيويورك ولندن وأستردام وجوهانسبرج وغيرها . وإلى جانب ذلك فإن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لم تكلف الألمان كثيراً — فقد كان تحويل الأملاك اليهودية إلى فلسطين لا يضر بالاقتصاد الألماني بصورة خاصة ، إذ أن هذا التحويل كان على أى حال يتناقص باستمرار — بل إن تصدير البضائع الألمانية عن طريق مؤسسة هافارا قد وفر العمل للعمال الألمان . وقد عبر البعض — ومعظمهم من رجال وزارة اقتصاد الريخ — عن مخاوفهم من أن يقوى إلغاء « هافارا » المقاطعة اليهودية للبضائع الألمانية — فقد أكد معارضو تحريم الهجرة اليهودية إلى فلسطين أنها أقل إضراراً بألمانيا . وكتب أحد موظفي وزارة الخارجية الألمانية : « إننى أعلم من خبرتى الخاصة مقدار عدم ترحيبنا بتدفق المثقفين اليهود » ، وأشار إلى أن هجرة اليهود إلى الولايات المتحدة وتركيا وإيران قد أثر في الحياة الثقافية بالشكل الذى قوى الشعور المعادى لألمانيا ، وأن المهاجرين اليهود إلى أمريكا اللاتينية قد جروا على ألمانيا كثيراً من الأضرار الاقتصادية والدعائية والسياسية . ولكن هذا الموظف ذهب إلى أن اليهود في فلسطين منطوون على أنفسهم ، وليس بإمكانهم أن يلحقوا الضرر بالريخ الثالث . وبالإضافة إلى ذلك فإن معارضى منع الهجرة ذهبوا إلى أن الهجرة اليهودية لا تؤدى بالضرورة إلى قيام دولة يهودية في فلسطين ، وأن إيقاف الهجرة من ألمانيا لا يمكن أن يعرقل قيامها بأى حال من الأحوال ، بحكم أنه سيؤدى إلى تزايد الهجرة من بولندة ورومانيا . وكان من رأى فون هنتيج Von Hentig الذى كان حينئذ رئيساً للشعبة السياسية السابعة (التى كانت تختص بشئون الشرقيين الأدنى والأوسط) ، وكان بعد الحرب سفيراً لجمهورية ألمانيا الاتحادية في جاكارتا — أن يهود هذه البلدان كانوا أكثر استعداداً لاتخاذ موقف عدائى من ألمانيا ، ولم يكونوا يكثرثون بالاعتبارات التى حالت دون مصارحة اليهود الألمان للريخ الثالث بالعداء . كما ظهرت وجهة نظر تذهب إلى أن تحريم سلطات الريخ للهجرة ومواصلة لها في نفس الوقت سياسة ألمانيا المعادية لليهود كانت لا تعرف بوجه عام ما يجب عليها عمله إزاء اليهود الذين كانت تنزل بهم إلى مستوى الفقر

وتجعل منهم عبئاً على حكومة الريخ .

وفى النهاية توجد إشارة إلى قرار هتلر الخاص بتوجيه الهجرة اليهودية إلى فلسطين حيث يمكن إحصاء اليهود بصورة أنجح ، ومن المحتمل أنه لم يوجد مثل هذا القرار الرسمى والنهائى^(١) - إذ أن مسائل الهجرة وتحويل رأس المال كانت بحلول عام ١٩٣٨ لا تزال موضعاً للنقاش . ولكن ما حل ذلك الوقت حتى كانت مناقشة هذه المسائل قد أصبحت لا معنى لها إلى حد كبير ، بحكم أن السلطات البريطانية كانت قد تخلصت عن فكرة التقسيم وحددت هجرة اليهود إلى فلسطين إلى حد كبير . ورغم ذلك فإن الحكومة الألمانية تنازلت فى حالات خاصة ، فسمحت بالهجرة القانونية وغير القانونية إلى هذه البلاد حتى السنوات الأولى من الحرب . وبدأ اتجاهان للإسامية الألمانية فى المناقشة التى سبقت الإشارة إليها ، كما اتضح فى السياسة العامة للنظام النازى قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . وكان أحد هذين الاتجاهين هو طرد اليهود من ألمانيا ، أما الاتجاه الثانى فكان يسعى إلى استغلال المسألة اليهودية فى سياسة ألمانيا الداخلية وفى المجال الدولى . وفى هذه المناقشة كان يوجد أساس ما حدث فى المستقبل من ظهور « الحل النهائى » للمشكلة اليهودية .

محاولة للعرب ضمان مساندة ألمانيا

وبإمكاننا أن نستنتج بسهولة أن معارضة ألمانيا لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين بعد تقسيمها لم تكن تتصل بقضايا الشرق الأوسط ، بعكس ما كان عليه الحال بالنسبة إلى الدول الأوروبية العظمى الأخرى : ويتضح مما سبق أن ذكرناه أن الألمان ، فى نظرهم إلى الموقف فى فلسطين فى عام ١٩٣٧ ، ولدرجة كبيرة فى عام ١٩٣٨ ، لم يعبروا التفاتاً كبيراً لآمال العرب . ويبدو فى ذلك الوقت أن الألمان ، على الأقل من الوجهة الرسمية ، لم تكن لديهم فكرة سياسية عما يجب عليهم عمله فى البلدان العربية . حقيقة أن مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازى حاول

(١) انظر مذكرات كلوديو (برلين ٢٧ يناير ١٩٣٨) ، حيث يوجد تعليق بخط اليد كتبه فايز ساكر Weizsacker : « يجب أن يكون هذا لدينا كتابة . إن أى مناقشة لن يكون لها أى مغزى » .

إقامة علاقات مع البلدان العربية ، إلا أن الخطوة التي اتخذها لم تساندها الأجهزة الحكومية في ذلك الوقت . وما له دلالة أن ممثلي مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي ناصروا إيقاف الهجرة أثناء المناقشة الخاصة بتحريم الهجرة اليهودية إلى فلسطين . وبعد أزمة ميونخ أثبتت مسألة السياسة الخاصة بالبلدان العربية بصورة مخالفة تماماً ، ولكن لعبت الشؤون العربية دوراً ثانوياً حين كانت مقترحات بيل قيد البحث بصورة نهائية .

على أن هذه الفترة كانت شديدة الأهمية بالنسبة إلى تطور سياسة ألمانيا في المشرق العربي - فقد وفرت خطة تقسيم فلسطين للنازيين فرصاً أخرى للنشاط وإن تكن على مدى متواضع في البداية ، فخطة التقسيم وموقف ألمانيا منها ، مما أوجد مجالاً معيناً للاتصالات .

وفي ١٥ يولية ١٩٣٧ . قابل دكتور جروبا ، المبعوث الألماني في بغداد ، حكمت سليمان رئيس وزراء العراق في ذلك الوقت ، الذي عبر عن أمله في أن يبدل الألمان كل ما في وسعهم للعمل على فشل خطط اللجنة الملكية . وربما كانت هذه الخطوة التي اتخذها زعيم هوجم لبروده إزاء الوحدة العربية تعني التمهيد لمفاوضات أكثر تحديداً - إذ في اليوم التالي زار جروبا عضوان في اللجنة العربية العليا الخاصة بفلسطين هما عوفى بك عبد الهادي ومعين المهدي . وقد طالبا بشدة بأن تهتم حكومة الريخ بقضية فلسطين وتساند عرب فلسطين على حين عبر عبد الهادي عن رغبته في زيارة برلين في أقرب وقت ممكن (١) .

وكان رئيس وزراء العراق يود من الألمان أن يساندوا الحملة التي شنت ضد التقسيم وذلك على شكل تصريح مناسب يدلي به أحد زعماء الريخ . كما أشار إلى أنه كان مقيضاً للعراق أن يشن حملة ناجحة ضد إنشاء دولة يهودية لو لم يكن خاضعاً للضغط الاقتصادي البريطاني ، وأن حصول العراق على قرض من جهة أخرى غير بريطانيا سيساعده كثيراً . فحكومة حكمت سليمان ، التي قامت نتيجة للانقلاب العسكري الذي قادته بكر صدق في عام ١٩٣٦ ، كانت

(١) زار عوفى بك عبد الهادي ألمانيا في عام ١٩٣٩ بعد انعقاد مؤتمر لندن الخاص بفلسطين . وأغلب الظن أنه نزل ضيفاً على إدارة الشؤون الخارجية بالحزب النازي .

تمثل انجهاً معادياً لبريطانيا ، على عكس معظم حكومات العراق . ولكن هذه الحكومة لم تستمر طويلاً .

وفي ١٦ يولية زار الحاج أمين الحسيني ، مفتي القدس ورئيس اللجنة العربية العليا ، ودول قنصل ألمانيا العام . ومن المحتمل أن هذا الاتصال كان يمثل الاحتكاك الرسمي الأول بين المفتي وأحد ممثلي الريخ الثالث . وقد قيض لهذا الشخص فيما بعد أن يلعب دوراً رئيسياً في تنفيذ الخطط الألمانية . وأكد المفتي عطفه على « ألمانيا الجديدة » ، وعبر عن أمله في أن تساند العرب باتخاذ موقف في الصحافة أو إبداء المعارضة بشكل آخر للأمال الصهيونية في فلسطين . كما رجا الألمان أن يقيموا اتصالات مع مندوبه الموثوق به الذي كان عليه أن يتوجه إلى برلين . وفي مرة أخرى طالب المفتي بالتدخل الألماني لدى الحكومة البولندية لكي تتخذ موقفاً أكثر تمسحاً مع آمال عرب فلسطين^(١) - إذ أن الحكومة البولندية قد اتخذت موقفاً إيجابياً لإزاء تقرير بيل على أمل أن تضاعف الهجرة اليهودية . وكانت خطة اللجنة الملكية موضوعاً لمحادثات مع دول أخرى منها الولايات المتحدة^(٢) .

وفي سبتمبر توجه الوطنيون السوريون إلى القنصل الألماني في بيروت - سيلر Seiler ورجوه أن يقدم أسلحة وذخيرة للثورة العربية في فلسطين ، التي قيض لها بعد بضعة أشهر أن تنشب بقوة متجددة للحيلولة دون تقسيم البلاد^(٣) . وتوقع سيلر

(١) تقرير نائب القنصل الألماني دتمان Dittmann (القدس في ١٠ أغسطس ١٩٣٧) . وقد بلغ المفتي دتمان بوجهة نظر اللجنة العليا وفحواها أن عرب فلسطين يواجهون تهديداً شديداً من ناحية بولندية . وذكر أن الدكتور وابزيمان ، رئيس الوكالة اليهودية ، كان يزعم التوجه إلى وارسو ليضمن مساندة الحكومة البولندية لخلق دولة يهودية في فلسطين . وقد وجه الحاج أمين رسالة إلى الحكومة البولندية جاء فيها أن قدرة استيعاب الدولة اليهودية ستكون ضئيلة وإن تكون عاملاً في حل المشكلة اليهودية في بولندية . وأشار إلى نضال بولندية القوي ضد التقسيم ، وعبر عن أمله في أن يبدي البولنديون فهماً لنضال العرب ضد اقتراع أجزاء من بلدهم . وقد حاول الصهيونيون أن يحصلوا على مساندة بولندية الدبلوماسية .

(٢) في ذلك الوقت كانت حكومة الولايات المتحدة واقعة تحت ضغط المؤسسات البترولية التي طالبتها بعدم مساندة الأهداف الصهيونية في فلسطين .

(٣) سيلر إلى هنتج (بيروت في ٢٣ سبتمبر ١٩٣٧) . ويشير سيلر في هذا الخطاب إلى « لجنة الوطنيين السوريين الخاصة بفلسطين » . ومن الواضح أنه كان يعنى اللجنة السورية للدفاع عن فلسطين التي كان رئيسها نبيه العظمة .

طلبات كثيرة مماثلة من جهات متعددة ، نظراً للقرارات التي اتخذها مؤتمر جميع العرب الذي انعقد في بلودان واشتركت فيه « لجان الدفاع عن فلسطين » .
وقبل ذلك ، أي بعد نشر تقرير بيل ، رجحت بغداد برلين أن يحظى ممثل العراق في عصبة الأمم بمساندة ونصيحة القنصل الألماني في جنيف أثناء مناقشة العصبة لخطة تقسيم فلسطين . وقد انشغل هذا القنصل بشئون عصبة الأمم في نطاق مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي .

وفي ٥ نوفمبر ١٩٣٧ جرت مناقشة في بغداد بين المبعوث الألماني جروبا والمسكرتير الشخصي للملك آل سعود ، الشيخ يوسف آل ياسين ، الذي أوضح أن الملك ابن سعود يتوقع من ألمانيا أن تقوم بخطوات للحيلولة دون قيام دولة يهودية في فلسطين .

وفي نوفمبر وديسمبر ١٩٣٧ زار برلين الدكتور سعيد عبد الفتاح إمام العضو بالنادي العربي بدمشق وكان يمثل مفتي فلسطين وكثيراً من المنظمات الوطنية السورية . واقترح الدكتور إمام على السلطات الألمانية اتفاقاً خاصاً تقدم ألمانيا بمقتضاه تعضيداً « الأيديولوجي » لمثليه (بإبداء العطف) ومساعدتها المادية (عتاد لحركة التحرير العربية يدفع ثمنه فيما بعد) والدعاية أيضاً .
وفي مقابل ذلك يتعهد رؤساء الدكتور إمام بالترويج للتجارة الألمانية في العالم العربي — الإسلامي وبحث الناس على صداقة ألمانيا (وهو ما يعتبر مجدياً في حالة نشوب الحرب) . وبنشر الأيديولوجية الاشتراكية الوطنية بين العرب والمسلمين بوجه عام ، وبمقاومة الشيوعية ومقاطعة البضائع اليهودية ومواصلة النشاط الإرهابي في الممتلكات الفرنسية ، وشن هجوم على مشروع إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، ونشر التعليم والثقافة الألمانين ، واستعمال رأس المال والمساعدة الفنية الألمانين دون غيرهما . وسيتضح من عرضنا أن هذا الاتفاق كان من المتوخى أن ينطبق على فلسطين وسوريا ولبنان .

وهكذا توقع الزعماء العرب في فلسطين وسوريا ولبنان والعراق والعربية السعودية أن تتخذ ألمانيا موقفاً نشطاً إزاء قضية فلسطين . كانوا يطالبون ، أولاً وقبل كل شيء ، بالمساندة السياسية إما على شكل تصريح يدلى به أحد كبار المسؤولين أو بمعارضة

عامة لقيام الدولة اليهودية . ولا تفصح وثائق قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي عن مطالب مشابهة من جانب مصر (١).

ولكن الحكومة الألمانية لم تكن على استعداد لاتباع الخطة التي طالب بها الزعماء العرب وفضلت العمل بطرق سرية . وحين طالب رئيس وزراء العراق بأن يدلى أحد كبار المسؤولين بالحكومة الألمانية بتصريح يتصل بهذا الموضوع ، كان رد مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي سلبياً، مبرراً ذلك بعدم وجود موقف عربي موحد لإزاء تقرير بيل . ولكنه وافق على أن يمد قنصل الريخ في جنيف يد المساعدة إلى المبعوثين العراقيين لدى عصبة الأمم حين تناقش قضية فلسطين ، وإن تحفظ بقوله : إن التعاون يجب أن يبقى في طي الكتمان .

دوافع ألمانيا السياسية

كيف يمكن تفسير الموقف الرسمي الذي اتخذته الريخ الثالث في عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ؟ يبدو أن كلا من الرغبة في التوسع في الأراضي التي كان من المتوخى أن تكون من نصيب الغرب وسياسة النازي الخاصة بمعاذاة اليهود كان من الواجب أن تدفعاً ألمانيا إلى استغلال الفرص التي سنحت لها بفضل الموقف في فلسطين على وجه أحسن .

ومن المحتمل ، أولاً وقبل كل شيء ، أن النظام النازي لم يكن يشعر بالقوة الكافية التي تمكنه من مواجهة بريطانيا وفرنسا بصدد ادعاءاتهما الاستعمارية والمجال الحيوي في أوروبا ، وكذلك بصدد أسواق البحر المتوسط ومناطق النفوذ الواقعة على شواطئه - إلى غير ذلك . ذلك أن أهداف ألمانيا الرئيسية كانت مقصورة على أوروبا . وكان من رأى هتلر أن « من الأفضل البحث عن مواد خام في أوروبا لدى جيران الريخ المباشرين لا فيما وراء البحار » وأن أكبر خصوم الإمبراطورية (البريطانية) هم منافسوها لا البلدان المحتلة . وتتضح وجهة النظر هذه من موقف

(١) من المحتمل أن المسؤولين في الحكومة المصرية لم يتجهوا إلى مثل الريخ الثالث بصدد هذه المسألة ، عل حين نستشف أن المعارضة المتطرفة - كصر الفتاة - قد اتصلت بقسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي لا بالممثلين الدبلوماسيين .

النازي من القومية العربية . فلم يوجد في قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي سوى عدد قليل ممن كانوا شديدي التقدير لإمكانات حركة القومية العربية . وقد وردت التقارير من السفارات والمفوضيات والقنصليات الألمانية في شتى أرجاء العالم بأن اهتمام الحكومات العربية بالإبقاء على علاقات حسنة مع بريطانيا قد أدى إلى حد كبير إلى شل مقاومتها لخطط تقسيم فلسطين . وقد أشارت هذه التقارير إلى عدم اكتراث الناس في لبنان ومصر بقضية فلسطين . كما كانت الدوائر الحاكمة في ألمانيا على علم بموقف عبد الله أمير شرق الأردن الذي صرح علناً لمراسل ألماني (شفارتز فون بيرك Schwartz von Berk) بأنه في صف التقسيم . وقد أدت الصراعات الداخلية التي كانت تعصف بالعالم العربي إلى أن بعض الزعماء العرب قد نشروا ما مفاده أن ملك العربية السعودية قد باع نفسه للبريطانيين بصورة نهائية وأنه على استعداد لقبول بكل ما يقترحونه . لذا لم يقتصر قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي على مجرد التهرب من تقديم رد واضح حين اصطنع حجة عدم وجود موقف عربي موحد لإزاء تقرير بيل ، فبإمكاننا أن نستنتج أنه قد سيطرت عليه فكرة أن المعارضة العربية لا يجب أن تؤخذ مأخذاً جدياً ، وأن الزعماء العرب — باستثناء مفتي القدس ورئيس وزراء العراق حكمت سليمان — لم يستقروا على موقف بصدد خطة التقسيم . وكان من رأى رجاله أن الدوائر السياسية ذات الرأى الحاسم في البلدان العربية كانت ترغب في تجنب الدخول في صراع جلدى مع بريطانيا ورغم انتشار المعارضة في العالم العربي لقيام دولة يهودية . لهذا ذهب فون هنتج إلى أن العرب « متنبهون تماماً إلى أن إنجلترا تعتقد أن المسألة من الأهمية بحيث يجب عليها أن تفرض وجهة نظرها بقوة السلاح دون أى عوائق » . وتغلّبت وجهة النظر هذه ، على الأقل في الفترة التالية مباشرة لنشر تقرير بيل . وحين أصبحت معارضة الزعماء العرب أكثر وضوحاً لم يخف كثير من المسئولين الألمان دهشهم .

ورغم أنه كان من الواضح في البداية أن الحكومات العربية مستعدة للموافقة على الخطة البريطانية ، فإنها أخذت تغير موقفها الذي لم تعلنه رسمياً على أى حال خوفاً من الرأى العام . وربما كان موقف هذه الحكومات متأثراً تأثراً قريباً بصلابة موقف الحاج أمين الذي لم يكن يشارك كثيراً من الزعماء العرب — الذين كانوا مترددين

في معارضة بريطانيا - شكوكهم . وكانت تقف وراء الحاج أمين هيئات غير حكومية قامت في معظم البلدان العربية لمساندة عرب فلسطين .

كما رأى بعض الدبلوماسيين والساسة الألمان أن من الضروري فيما يتعلق بآسيا وإفريقيا ، أن يعمل حساب لسلامة المواطنين الأجانب ، وأنه قد يسهل تحول القومية الصاعدة في البلدان العربية إلى كراهية وعنف ضد الأجانب بوجه عام ، رغم أنها كانت موجّهة ضد الدول المتصارعة . كما كانوا يخشون أن يكون للقلق السياسية التي يثيرها الوطنيون أثر سلبي على التجارة الألمانية .

وأياً كان الأمر ؛ فعلياً أن نبحت عن تعليل آخر لتحفظ ألمانيا . وبما لاشك فيه أن السياسة الألمانية إزاء تقسيم فلسطين كانت تحددها العلاقات الإنجليزية - الألمانية في المحل الأول .

وبإمكاننا أن نفرد وجهات نظر عامة لتدعيم وجهة النظر هذه . فقد كان هتلر يرغب في الحصول على « مجال حيوي » في أوروبا ، كما كان مهتماً بأن يحمل بريطانيا على أن تسمح له بحرية العمل في وسط وشرق أوروبا - وقد طالب بهذا في أكثر من مناسبة في محادثاته مع ممثلي الحكومة البريطانية . كما لا بد أنه كان على علم بمدى حساسية الدوائر السياسية البريطانية إزاء كل محاولة للمساس بالأوضاع القائمة في البحر المتوسط - فقد أكد الساسة البريطانيون في تصريحاتهم الرسمية الأهمية الكبرى التي كانوا يعلقونها على هذه المنطقة . ففي ٥ نوفمبر ١٩٣٦ ، صرح أنتوني إيدن - الذي كان حينئذ وزيراً للخارجية - بأن « حرية المواصلات في هذه المياه - البحر المتوسط - من المصالح الحيوية بكل معنى الكلمة بالنسبة إلى الكومنولث والأمم البريطانية » - وكثيراً ما نجده يشير إلى هذا التصريح في المستقبل . ورغم أن الحكومة البريطانية كانت لا تهتم بمصير النظام الجمهوري في إسبانيا ، فلها كانت شديدة الاهتمام بكل ما يتعلق بشواطئ هذه الدولة وحدودها البرية وبطرق التجارة الواقعة على طول سواحل شبه جزيرة أيبيريا .

وفي نوفمبر ١٩٣٧ أكد هتلر لهاليفاكس أن الخلاف الوحيد بين لندن والنظام النازي يرتبط بمسألة المستعمرات الألمانية السابقة . ولكنه حين أثار مسألة الحصول

على مقابل لهذه المستعمرات في المستقبل ، وجد لزاماً عليه أن يصرح بمايلي :
 « وعلى أى حال فإن ألمانيا لن تقنع بالحصول على مستعمرات سواء في الصحراء
 - الكبرى - أو على سواحل البحر المتوسط » . وفي المحادثة التي جرت بين هتلر
 وهندرسون في ٣ مارس ١٩٣٨ أكد مستشار الريخ من جديد أن ألمانيا لم تتدخل
 في شئون الإمبراطورية البريطانية . بل إن رودلف هيس قد ذهب في اتصالاته
 بممثلي الحكومة البريطانية في عام ١٩٤١ إلى أن هتلر كان على استعداد لعقد
 صلح مع بريطانيا بشرط أن تطلق يده في أوروبا ، وعرض * مقابل ذلك عدم
 تعرض ألمانيا بأي شكل لمناطق النفوذ البريطانية ^(١) . وكانت تكتيكات هتلر
 تقوم على تحذير خصومه المحتملين ، لهذا كان يتوخى الحذر في خطته السياسية
 في منطقة البحر المتوسط خوفاً من رد فعل بريطانيا . كما أن مما له مغزاه أن ألمانيا
 النازية قد اعترفت بالبحر المتوسط باعتباره مجالاً للمصالح الإيطالية وذلك منذ
 بداية تقاربها مع روما . ولما كان هتلر يرى أن « أكبر أعداء الإمبراطورية
 البريطانية هم خصومها لا البلدان المحتلة » ، فقد كان عليه أن يضع في عين الاعتبار
 بصورة متزايدة وجهة نظر إيطاليا باعتبارها دواة اصطدمت ببريطانيا في البحر
 المتوسط .

وقد يبدو أن التدخل الألماني في الحرب الأهلية الإسبانية في عام ١٩٣٦
 يناقض النتيجة التي توصلنا إليها سلفاً . ولكن يجب أن نذكر كيف فهم هتلر
 المغزى السياسي للتدخل الألماني في إسبانيا بحلول نهاية عام ١٩٣٧ . وفي المؤتمر
 الذي انعقد في ٤ نوفمبر ١٩٣٧ (الذي يمكن أن نعيد تشكيل محاضره على أساس
 بروتوكول هوزباخ الشهير) اتضح أن هتلر لم يكن مهتماً بأي شكل بانتصار
 فرانكو انتصاراً تاماً - فقد كان يعول على أن يطول أمد الحرب الإسبانية ، وأن
 تتحول إلى نضال مسلح بين إنجلترا وفرنسا من جهة وبين إيطاليا من جهة أخرى .
 فمثل هذا الصراع كان من الممكن أن يعود بالفائدة على الألمان ، بأن يسمح لهم

(١) في ذلك الوقت لم يتقدم هيس إلا بتحفظ واحد يصدد المراق حيث وقع انقلاب يميل إلى الفاشية
 في ربيع عام ١٩٤١ . انظر مايل : الفصلان السادس والثامن .

بحل مشكلتي النمسا وتشيكوسلوفاكيا بطريقتهم الخاصة، على حين لم يكن بالاستطاعة أن تؤدي المساعدة الفعالة لعرب فلسطين إلى نتائج مشابهة .

كما أن العوامل الأخرى التي دفعت ألمانيا النازية إلى التدخل في إسبانيا لم يكن لها ما يماثلها في الموقف القائم في المشرق العربي . فمن المعروف أن الريخ الثالث قد برر تدخله في إسبانيا رسمياً بالحاجة إلى « الدفاع عن أوروبا ضد البلشفية » . ولكن كان من الصعب تفسير الوضع في فلسطين بصورة مشابهة .

كما أن فرص إحراز السيطرة على المواد الخام لم تكن في المشرق العربي شبيهة بما كانت عليه في إسبانيا . وفيما يتعلق بالمسألة الاستراتيجية لم تنبه ألمانيا إلى الأهمية الاستراتيجية الكبرى للقواعد الجوية الإسبانية في حالة نشوب الحرب مع فرنسا إلا أثناء أزمة تشيكوسلوفاكيا . وتنبه الألمان من جديد لهذه المشكلة أثناء استعدادهم لغزو بولندا . وفي ذلك الوقت أيضاً تنبه الزعماء النازيون للأهمية الاستراتيجية لبحيران تركيا الجنوبيين .

اتجاه ألمانيا

لهذا فإن ألمانيا كانت ترى أن المساعدة الفعالة للترميمين العرب — وبخاصة في فلسطين — لن تؤدي إلا إلى ازدياد توتر العلاقات مع بريطانيا ، ومن ثم اتخاذاها موقفاً معتدلاً إزاء هذه المسألة . كانت مساعدتها شديدة التواضع ، في الوقت الذي طلبت فيه من شركائها أن يحيطوا هذه المساعدة بالسرية خوفاً من أن تتسرب أخبارها إلى إنجلترا . كما أن مثل هذه السرية كانت في صالح كل من ألمانيا وشركائها العرب .

وقد سبق أن ذكرنا أنه كان من المتوخى أن يبقى التعاون بين مندوبي العراق في عصبة الأمم وبين القنصل الألماني في جنيف أثناء مناقشة قضية فلسطين سرّاً مكنوناً . وفي الواقع أن تعليقات فون نيوراث الخاصة بمساندة القوميين العرب كانت مناوراً لا جدوى منها بحكم أن الحكومة الألمانية لم ترسل أى أسلحة إلى الثوار الفلسطينيين . وحين اتخذ قرار في ٨ أغسطس ١٩٣٣ بصدد استئناف ألمانيا تصدير

الأسلحة ، امتنع قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي عن مساندة تصدير الأسلحة إلى الثوار الفلسطينيين حتى ولو دفعوا ثمنها نقداً . ولكن تبلورت بالتدريج وجهة النظر الخاصة بأن هذا القرار مؤقت . ومن المعلومات المتعددة التي بإمكاننا الرجوع إليها ، نجد أن الطابور الخامس الألماني لم يعرقل نشاطها ، بل إنه دعمه . ولكن إذا كانت السلطات الألمانية تضع العلاقات الإنجليزية - الألمانية في موضع الاعتبار فإنها لم توافق على التوسع في تصدير الأسلحة ، ورفضت بشكل قاطع أن ترسل الأسلحة إلى بلدان عبر بلدان أخرى ، لأنه لم يكن ممكناً في هذه الحالة التأكد من السرية المطلقة . وأرسلت تعليمات بهذا الصدد إلى لندن والقدس وبغداد تطلب من العملاء أن يتجنبوا كل اتصالات خاصة بإرسال الأسلحة إلى الثوار الفلسطينيين في حالة عدم ضمان السرية التامة . كما حرم على المستعمرين الألمان في فلسطين أن يقدموا مساعدة أكبر للثورة ، ورغم استمرارهم في تقديم الأموال ومساعدتهم الفنية للثوار .

وبالإضافة إلى ذلك فإن التخوف من إثارة نزاع مع بريطانيا في البلدان العربية كان واضحاً في مجالات أخرى غير المسألة الفلسطينية . فحين أثبتت مسألة تقديم الأسلحة إلى العراق أعرب قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي عن بعض التحفظات حول مثل هذه الصفقة ، ومن أسباب ذلك عدم الرغبة في تسوية العلاقات الإنجليزية - الألمانية^(١) . وحين أثبتت مسألة تقديم البنوك الألمانية قرضاً إلى العراق ، لم يبد بنك درسدن - الذي كان يعتبر في المقدمة - رغبة في الاشتراك بسبب معارضة بنك إخوان بيرنج البريطاني الذي كان يقوم بالتفاوض حول هذه المسألة . وقد ساند قسم العلاقات الخارجية بالحزب النازي وجهة نظر البنك الألماني ، على اعتبار أنه كان يرى أن الاصطدام بإنجلترا بسبب القرض المقترح ، أو بسبب عقد اتفاقيات أخرى مع العراق ، أمر غير مرغوب فيه لأسباب سياسية . وقد وقف الرأسماليون الألمان والحكومة موقفاً مشابهاً بصدد صفقات معينة كان من المتوخى إجراؤها مع مصر . وكان من رأى قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي أن ضرب إنجلترا بإيطاليا أهم من تغلغل ألمانيا في العراق . وقد نصحت

(١) سجت هذه الاعتراضات ولكنها ما لبثت أن بدت من جديد .

مذكرة مايو ١٩٣٧ بموجب قيام إيطاليا ببيع الأسلحة إلى العراق بدلا من ألمانيا ، وذلك بسبب ما قد تؤديه مثل هذه الصفقة من تعكير للعلاقات الألمانية - البريطانية .

وقد أكدت مذكرة أخرى بتاريخ آخر يولية ١٩٣٧ أن ألمانيا تستطيع بهذا الشكل أن تحقق نفس النتائج السياسية دون أن تتعرض لأى خطر . وما يجب أن نذكره أنه كان مقيضاً لمتلر بعد عدة شهور - أى فى ٥ نوفمبر ١٩٣٧ - أن يحدد بصورة مماثلة هدف ألمانيا الرئيسى فى إسبانيا : أى الرغبة فى ضرب دول أوربية أخرى بعضها ببعض بالشكل الذى يدفع بها إلى الدخول فى الحرب .

ورغم ذلك فإن قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازى رأى احتمال القيام بعمل مشترك مع إيطاليا لمساندة آمال العرب . فإيطاليا هى الأخرى عارضت خطة تقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية - ولم تكن مدفوعة إلى ذلك باعتبارات لا سامية ، بل بخوفها من أن يؤدي التقسيم إلى تقوية مركز بريطانيا . فقد توقع الفاشيون فى إيطاليا أن تصبح الدولة اليهودية ركيزة قوية لإنجلترا فى البحر المتوسط الذى كان الإيطاليون يرغبون فى تحويله إلى منطقة نفوذ لهم وحدهم .

وكان ثمة اعتراضان على التعاون مع إيطاليا اعتبرهما قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازى حاسمين . فقد رأى أولاً أن العمل المشترك من شأنه أن يفيد مصالح إيطاليا وحدها ، لأنه سيقوى مركزها فى البحر المتوسط ولا يعود على ألمانيا بأى فائدة . كما رأى أنه سيغضب بريطانيا التى كانت شديدة القلق لزعيم إيطاليا فى هذه المنطقة . ورأى مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازى أن بإمكان قضية فلسطين أن تلعب دوراً معيناً فى مفاوضات ثلاثية ألمانية - بريطانية - إيطالية؛ تتمشى مع مصالح ألمانيا . ولكن المحادثات لم تجر على الإطلاق . ومن المعروف أن إنجلترا وإيطاليا حاولتا فى عام ١٩٣٨ أن تنهيا خلافتهما الخاصة بالبحرين المتوسط والأحمر . ولكن هذه المحاولات كانت ثنائية .

وكان بإمكان ألمانيا أن تؤثر على بولندا ورومانيا بالطرق الدبلوماسية لكى تعدلا عن مساندة خطط اللجنة الملكية فى عصبة الأمم . كما كان من الممكن

عرقلة الجهود اليهودية لدى الدول الأجنبية . ولكن هذا الاقتراح ووجه أيضاً بالمعارضة .

وبقيت مسألة الدعاية الإذاعية الألمانية الموجهة إلى المشرق العربى . وقد أثار الدكتور إمام هذه المسألة بالذات فى برلين . وكان من رأى السفارات والمفوضيات والقنصليات الألمانية أن هذا النوع من الدعاية أمر مرغوب فيه . ولكن منذ البداية انتصر رأى القائل بإيقاف الإذاعات العربية الموجهة من ألمانيا ، وذلك بسبب الخلافات الإيطالية - البريطانية التى لعبت فيها الإذاعات الموجهة من محطة بارى دوراً هاماً . ورغم أن المكتب السياسى السامع كان يجذب توجيه هذه الإذاعات ، إلا أن رئاسة إدارة الشؤون الخارجية بالحزب النازى رفضت هذا الرأى^(١) . وفى هذه المسألة أيضاً عرقلت الاعتبارات الخاصة بالعلاقات الإنجليزية - الألمانية نشاط ألمانيا - ولم تبدأ برلين إذاعاتها اللاسلكية إلا فى عام ١٩٣٩ ، حين قل اهتمام النازيين تدريجياً بالشكليات بعد ميونخ ، واندفعوا صوب الحرب بشكل أكثر وضوحاً .

وملخص القول أن العوامل التالية لعبت دوراً حاسماً فى سياسة الريخ الثالث إزاء المسألة الفلسطينية فى عامى ١٩٣٧ - ١٩٣٨ . فمن ناحية كانت توجد اللاسامية ، ومن ناحية أخرى كانت ثمة اعتبارات ترتبط بالعلاقات الألمانية - البريطانية . وكانت الشؤون العربية ذات أهمية ثانوية بالنسبة إلى النازيين ، رغم أنهم كانوا يرغبون فى نفس الوقت فى التعاون مع العرب لمصاحبة كلا الطرفين ، على أن يكون هذا التعاون فى طى السرية المطلقة . وبوجه عام لم تتعد مطالب العرب من ألمانيا مسألة تقسيم فلسطين . ولهذا فإن الساسة العرب كان من النادر أن يثيروا مسألة الهجرة اليهودية من ألمانيا^(٢) . وقد ابتعدت جريدة الجمعية الإسلامية عن هذا النمط حين كتبت فى ٩ يناير ١٩٣٨ - متأثرة بنوع من عدم الرضى عن تحديد تصدير الحمضيات الفلسطينية إلى ألمانيا وانخفاض الأسعار - أن كثيراً من العرب يعتبرون

(١) ولكن وزارة الدعاية اتخذت خطوات مبدئية فى نفس الوقت لبدء الإذاعات العربية .

(٢) كتب قنصل ألمانيا العام دول - فى تقريره المؤرخ ١٤ يناير ١٩٣٨ - أن علاقة السكان العرب بالريخ الثالث ستعرض لتغيير جذوى فيما لو أثار الزعماء العرب مسألة الهجرة اليهودية من ألمانيا .

ألمانيا صديقة للعرب ، وأن هذه الصداقة قد تكون ناتجة عن كره الألمان لليهود ، وأن سياسة ألمانيا المعادية لليهود قد تسببت في شدة تدفق المهاجرين من اليهود الألمان على فلسطين ، وأن هذا هو الخير الذي قدمته ألمانيا للعرب .

وبعد انعقاد مؤتمر ميونخ بوقت قليل ، حين تبينت الدوائر الحاكمة في البلدان العربية خطورة الصراع الإنجليزي - الألماني ، صرح وزير خارجية العراق - توفيق السويدي - للمبعوث الألماني جروبا بأن الإجراءات التي اتخذتها ألمانيا ضد اليهود كان لها أثر سيء على عرب فلسطين^(١) .

وفي عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ لم يلتفت حكام ألمانيا إلى مزايا التعاون مع القوميين العرب . ولم تكن الدوائر العربية ذات النفوذ - ربما باستثناء حزب الحسيني الفلسطيني - تميل إلى ربط أنفسها بخصوم بريطانيا بصورة وثيقة ، إذ أن هذه الدوائر كانت تعتبر إنجلترا أقوى دولة في العالم . على أن الاتصالات التي جرت في عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ نتيجة لاحتمال تقسيم فلسطين كانت بداية طيبة للنشاط الألماني على مدى أوسع .

(١) تقرير جروبا (بغداد في ١٦ نوفمبر ١٩٣٨) . وكان توفيق السويدي يضع نصب عينيه أحداث خريف عام ١٩٣٨ ، حين نظم النازيون مذابح منظمة ضد اليهود ، وأحرقوا البيع وسرقوا ونهبوا مخازن اليهود (وهو ما سمي باسم ليلة الكريستال Kristallnacht) وارتكبوا أعمالا إرهابية أخرى ، منها طرد اليهود البولنديين القاطنين في ألمانيا بالجملة .

الفصل الثالث

نتائج أزمة تشيكوسلوفاكيا

والاتفاق مع تركيا

ازدياد توتر العلاقات الدولية

والموقف في المشرق العربي

حين ازداد توتر الموقف الدولي ضعفت - أو اختفت - العوامل التي حملت زعماء الرينخ الثالث على اتباع سياسة متحفظة إزاء البلدان العربية . وبحلول صيف عام ١٩٣٨ كان الألمان قد أعدوا شحنات أسلحة لإرسالها إلى فلسطين عن طريق العراق والعربية السعودية بالاتفاق مع حكومتيهما^(١) . كما يبدو أنهم أخذوا يعملون الدوار الفلسطينيين . وفي نفس الوقت أدت مسألة تزويد مصر بالأسلحة إلى تقوية الصلات بين الألمان وبين الدوائر العسكرية المعادية لإنجلترا ودوائر القصر^(٢) . وبعد ميونخ طرأ تغير نهائي على مسلك الجاليات الألمانية في فلسطين : منظمة الحزب النازي التي ركزت جهودها في القيام بنشاط غير شرعي وساعدت بالفعل الجماعات العربية التي اشتركت في الحرب الأهلية .

وفي نفس الوقت كان الحلفاء الغربيون - الذين أملت بهم هزيمة كبرى في

(١) مذكرات فون هنتيج (برلين في ٢٨ فبراير ١٩٣٩) . انظر أيضاً

E. Dekel: SHAI, The Exploits of the Hungarian Intelligence, N.Y., 1959, pp. 231-6.

وقد نشر ديكسل عدداً من الوثائق المستقاة من ملفات البوليس الفلسطيني بخصوص تهريب الأسلحة من ألمانيا . وأولى هذه الوثائق مؤرخة ١٧ سبتمبر ١٩٣٨ .

Handel mit Kriegsgerät Agypten, DZA, AA. 68425

(٢) انظر مجموعة

في أغسطس ١٩٣٨ زار ألمانيا عباس حلمي وعزيز على المصري - مفتش عام القوات المسلحة المصرية (التي تطلق عليه الوثائق الألمانية لقب المهندس المعاري) - الذي طار إلى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى - وأجرى مفاوضات في عهد وزارة حسن صبري باشا .

أوروبا - مصممين على تدعيم مركزهم في المشرق العربي . فقد صممت بريطانيا على سحق الثورة العربية في فلسطين ، في الوقت الذي كانت فيه على استعداد لتقديم تنازلات كبيرة للعرب . وبرغم أنها أبدت في عام ١٩٣٦ بعض الاستعداد لتعديل وضع سوريا ولبنان بحيث تصبحان دولتين مستقلتين مرتبطتين بمعاهدات مع فرنسا ، إلا أن حكومة باريس تخلت عن هذا الاتجاه في ذلك الوقت . وفي البداية أجلت فرنسا إبرام المعاهدات الجديدة وأرغمت الحكومة السورية في نوفمبر ١٩٣٨ على الموافقة على بعض التعديلات التي كانت في صالح دولة الانتداب . على أن حكومة باريس تقدمت في مايو ١٩٢٩ باقتراحات جديدة يتبين منها أن فرنسا لم تكن راغبة على الأقل في ذلك الوقت - في التخلي عن سيطرتها على سوريا ولبنان منذ البداية . وكانت ثمة معارضة قوية في فرنسا ، وبخاصة من جانب جماعات يمينية ، لتوقيع معاهدات مع سوريا ولبنان . وبما يوضح قدرة هذه الجماعات على أن تجتذب إلى صفها كثيراً ممن ساندوا المعاهدات في الماضي ما كان من سوء الموقف الدولي وما ترتب عليه من ازدياد تردد الحكومة والرأي العام في قبول أى تغييرات قد تؤدي إلى إضعاف سلطة فرنسا في البلدان التابعة لها .

وكانت قضية سنجق الإسكندرونة ترتبط بمسألة المعاهدات . وكان السنجق يشكل جزءاً من الأراضي التي انتدبت عليها فرنسا ، وإن تمتع بوضع شبيه بالاستقلال الذاتي بسبب ارتفاع نسبة الأتراك . وحين أثارت مسألة عقد معاهدات مع سوريا ولبنان في عام ١٩٣٦ ، كانت الحكومة التركية ترغب في الحصول على ضمانات إضافية للأتراك القاطنين في السنجق مدعية أنهم يشكلون أغلبية . وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧ أقيم نظام جديد في السنجق أبقى على ارتباطه بسوريا في مجالات الجمارك والعملة والشؤون الخارجية زحدها . ودخلت القوات التركية إلى السنجق في ٥ بولية ١٩٣٨ بالاتفاق مع فرنسا . وحينئذ أجرى استفتاء وتم ضم السنجق إلى تركيا في العام التالي .

ووافقت فرنسا وإنجلترا على التخلي لتركيا عن السنجق . برغم أن ذلك كان ضد روح الانتداب وحرفه - إذ أنهما اعتبرتا مساعدة تركيا أمراً لا غنى لهما عنه . ألمانيا المتطرفة

وفي ٤ يولية ١٩٣٨ - عشية يوم دخول القوات التركية إلى السنجق - تم في أنقرة توقيع معاهدة صداقة بين فرنسا وتركيا بالأحرف الأولى . وحينئذ تم في باريس توقيع تصريح بتبادل المساعدة (في ٢٣ يونية ١٩٣٩) يشبه التصريح الإنجليزي - التركي الصادر في ١٢ مايو ١٩٣٩ . وكانت الموافقة على ضم السنجق هي شرط توقيع التصريح . ووجه التخلي عن السنجق ، كما كان متوقعا ، باحتجاجات شديدة من جانب الوطنيين السوريين وحكومات العراق ومصر والعربية السعودية . كما احتجت إيطاليا وألمانيا اللتان كان هذا الإجراء موجهاً ضدّهما . ولكن لم يمكن شئ من هذا كله أن يحول دون ضم هاتين ، وهو الاسم الذي أطلقته تركيا على السنجق .

وقد دفع تدهور الموقف الدولي إنجلترا وفرنسا إلى زيادة قواتهما العسكرية في الشرقين الأدنى والأوسط إلى حد كبير . وبخاصة في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان ، وبذلك قللتا من احتمال القيام بأعمال معادية لبريطانيا . وإذا ما كان الهجوم السياسي الذي شنه المحور قد أدى إلى تقديم تنازلات لعرب فلسطين ، فقد ترتبت عليه نتائج سياسية في بلدان أخرى .

كما لم يكن باستطاعة ألمانيا أن تحصل على ترضية كبيرة من تطور المواقف السياسية الداخلية في البلدان العربية . وقد جرى تعديل وزارى في مصر عام ١٩٣٩ - إذ تولى وزارة الحربية حسين سرى باشا بدلا من حسن صبرى باشا . وعلى حين أن حسن صبرى كان يميل إلى أن يطلب من ألمانيا أسلحة تفي بحاجات مصر العسكرية ، فإن حسين سرى كان ضد التغلغل الاقتصادي الألماني . وكلما ازداد الخوف من نشوب الحرب ازداد النفوذ البريطاني . وكان هذا بوجه خاص هو الوضع بالنسبة إلى مصر ، حيث اشتد إحساس المصريين بالخطر الإيطالي^(١) منذ الهجوم على الحبشة .

وفي فلسطين ازداد وضوح ملل الناس من الثورة التي استمرت وقتاً طويلاً ، وكان على حزب الحسيني أن يضاعف لجوئه إلى العنف ضد خصومه العرب .

(١) رسالة أوف - فاشندورف (القاهرة في ١٨ فبراير ١٩٣٩) كتب أوف فاشندورف في نوفمبر ١٩٣٧ مايلي : « يبدى المصريون كثيراً من الرضى بالتحالف مع إنجلترا » .

وقد أمكن تجنب خطر تقسيم فلسطين لأن الحكومة البريطانية تخالت عن توصيات لجنة بيل في عام ١٩٣٨ . وقبلت الحكومة البريطانية ما قرره لجنة وودهيد من حيث إن خطط لجنة بيل كانت غير عملية من الوجهة الفنية (١١ سبتمبر ١٩٣٨) وأعلنت أنه قد تقرر عقد مؤتمر مائدة مستديرة ثلاثي : بريطاني - عربي - يهودي في لندن . وقد أدى هذا إلى تشجيع حزب النشاشيبي - خصم حزب الحسيني في فلسطين - الذي كان يميل إلى التعاون مع بريطانيا . وحين ثبت فشل مؤتمر لندن (٢ فبراير - ١٧ مارس ١٩٣٩) أصدرت بريطانيا كتاباً أبيض في ١٧ مايو ١٩٣٩ وعد بإيقاف الهجرة اليهودية بعد خمس سنوات ، وتحديد شراء اليهود للأراضي وإقامة دولة فلسطينية في غضون عشر سنوات .

وفي سوريا ولبنان تصدت الصحافة المسيحية لألمانيا خلال أزمة سبتمبر ١٩٣٨ . والتزمت الصحافة الإسلامية الصمت ، وإن يكن ضم منطقة السودان قد أثار مخاوف بعض الدوائر العربية التي اعتقدت أنه إذا كان باستطاعة إرادة أقلية تستند إلى حماية دولة قوية أن تفرض وجودها في أوروبا فإن من الممكن أن يتكرر ذلك في العالم العربي . ولم يكن المشرق العربي يفتقر إلى مشكلات الأقليات : فهناك اليهود في فلسطين والأكراد في سوريا والعراق والأتراك في الإسكندرونة - إلى غير ذلك . وقد شكوا ممثلو ألمانيا من أن « السلم الجنسي الذي وضعه هتلر » ، والذي كان يخصص للعرب إحدى الدرجات الدنيا ، كان له أثر سيء في المشرق الأدنى . ووصل الأمر بهتلر إلى حذف نظريته عن السلم الجنسي من ترجمة كتاب كفاحي التي كان من المتوقع صدورها .

كما كان من الممكن تبين تغير في الاتجاه في العراق ، حيث أقام مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي اتصالات قوية مع عدد من الشخصيات الكبرى وحيث نشطت جماعات قومية عربية ذات أيديولوجية فاشية . وفي أكتوبر ١٩٣٨ توجه توفيق السويدي - وزير خارجية العراق - إلى لندن ، وقد لعبت زيارته دوراً هاماً في التمهيد لمؤتمر المائدة المستديرة الذي انعقد في لندن لبحث القضية الفلسطينية . وقبل أن يبارح السويدي لندن أدلى بمحديث لمجلة « بريطانيا العظمى والشرق » "Great Britain and the East" أشار فيه إلى شدة اهتمام العراق بمشكلة

فلسطين وأكد أن العراق حليف لبريطانيا وأنه على استعداد لمساعدتها حين تدعو الحاجة ، وصرح بقوله: « وفي الواقع أننا منذ وقت قريب كنا على استعداد تام - فيما لو دعت الحاجة - لأن نلعب دورنا وننفذ كلمتنا » .

وكان هذا التصريح يناقض التأكيد الذي أدلى به رئيس الوزراء العراقي جميل المدفعي للمبعوث الألماني جروبا في ٢٨ سبتمبر ١٩٣٨ - أي في الوقت الذي كان فيه التوتر في أوروبا قد بلغ ذروته . فقد أعلن رئيس الوزراء العراقي في ذلك الوقت أن من المحتمل أن يلزم العراق الحياد في حالة نشوب الحرب بين ألمانيا وإنجلترا ، وأنه بسبب تعاطفه مع ألمانيا سينتظر كل فرصة توفرها المعاهدة المعقودة بينه وبين بريطانيا لتأجيل اتخاذ أي إجراءات ضد الريخ .

ومن المحتمل أن دكتور جروبا قد صدق هذا التأكيد ، ولكن من المشكوك فيه أن يكون قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي قد اتبع نفس الخطوة . فالعراق كانت تربطه ببريطانيا معاهدة صداقة وتبادل مساعدة كانت تلزم حكومته بأن تقدم لحليفها أي مساعدة ترغب فيها . وكانت بريطانيا تضح يدها على القواعد الجوية في الحباثة والشعبية ، وكان باستطاعتها أن تؤثر في السياسة العراقية بطريقة غير مباشرة خلال بعض الأشخاص الموالين لها . ففي أواخر عام ١٩٣٨ كان من غير المحتمل أن تجرؤ الحكومة العراقية على معارضة إنجلترا علناً في حالة نشوب الحرب ، ومن المحتمل أن كل ما كان باستطاعتها عمله هو أن تحاول تخفيف أعباء تعهداتها .

وبرغم ذلك فإن جروبا طالب بإيضاح على أثر نشر تصريح توفيق السويدي . وقبل أن يعود الوزير كان أعضاء في الوزارة لا يودون أن يصرحوا بشيء محدد . وبعد أن عاد السويدي أوضح المسألة لجروبا على الوجه التالي تقريباً : يقدر العراق تقديراً كبيراً التعاون مع ألمانيا بصدد مشكلة فلسطين ، ولكن كان من الطبيعي وجوب تحديد مثل هذا التعاون حين ترى إنجلترا أنه يضر بمصالحها . ولما كان العراق حليفاً لإنجلترا فقد كان عليه في حالة الحرب أن ينفذ بالفعل ما ينصح به الإنجليز . ولكن السويدي كان يرى أن من المحتمل جداً أن تقضى

النصيحة بالمحافظة على الحياد . ومن المحتمل أنه حين أشار إلى الحياد كان يريد تخفيف الوقع الذي كان ينتظر أن يحدثه هذا التصريح في مسلك المبعوث الألماني . ولكن من المحتمل أنه كان يأمل أن توافق إنجلترا على حياد العراق . وبرغم ذلك لم يساور السويدي أى شك في أن البريطانيين سيصرون ، إذا ما نشبت الحرب ، على أن يقطع العراق . علاقاته الدبلوماسية مع أعداء إنجلترا منعاً للتغلغل السياسي والجاسوسي في المنطقة التي كانت تمر بها القوات البريطانية في طريقها من الهند إلى فلسطين ومصر .

أما ألمانيا فلها من ناحيتها كانت مهتمة بحياد البلدان المرتبطة بإنجلترا والواقعة في أعماق مؤخرة جبهات المستقبل . وكان من شأن هذه البلدان أن تلعب دوراً هاماً من حيث الهيبة السياسية إلى جانب صلاحيتها في المستقبل كقاعدة مساعدة للقيام بأعمال الجاسوسية والنشاط التخريبي في مؤخرة العدو . والمراكز الألمانية في لشبونة وكابول وبانكوك أثناء الحرب العالمية الثانية توفر أمثلة طيبة لهذه المشروعات .

ألمانيا والعربية السعودية

حدث قبيل مؤتمر ميونخ ، حين بحث الاحتمال الخاص بإقامة مركز ما لمساندة الجهد الحربي في المشرق العربي ، أن انضج في برلين أن المراكز الدبلوماسية القائمة في القاهرة وبغداد لا تنفي بالغرض المطلوب ، بغض النظر عن القنصليتين العامتين في القدس وبيروت اللتين لم تكونا آمنتين . وكانت العربية السعودية هي الدولة الوحيدة المستقلة رسمياً وغير المرتبطة بمعاهدة مع إنجلترا . حقيقة أن اليمن كان لا يرتبط هو الآخر بمعاهدة مع بريطانيا ، إلا أن إيطاليا كانت مهتمة بذلك القطر ، وكان الإمام غير متحمس لإقامة علاقات مع ألمانيا^(١) . ولم تكن توجد أى قواعد بريطانية في العربية السعودية . وبالإضافة إلى ذلك فبسبب وجود الحرمين الشريفين مكة والمدينة في العربية السعودية .

(١) لم تتطور العلاقات بين الشركات الألمانية لصناعة الأسلحة وبين عملائها اليمنيين بشكل يبعث على الرضى .

كان من الممكن أن نتوقع اعتبار الملك ابن سعود سياسة الحياد أنسب شئ إلى بلده في حالة نشوب الحرب ، وأن بإمكانه أن يجعل وجهة النظر هذه تسود . ولكن يحتمل أن الموقف تأثر تأثراً حاسماً جداً بنجاح الاتصالات التي أجراها ممثلو ابن سعود مع ألمانيا في عام ١٩٣٧ بمصاد قضية فلسطين . ولما كان الحاكم السعودي غير راض عن كمية ونوع الأسلحة التي كانت تقدمها له بريطانيا ، فإنه أصبح يميل إلى شراء الأسلحة من ألمانيا . ولهذا عبر عن استعداده لإقامة علاقات دبلوماسية معها .

وخلال إقامة الشيخ يوسف آل ياسين - السكرتير الخاص للملك - وممثلين آخرين موثوق بهم في بغداد (نوفبر ١٩٣٧) نجدهم يستفسرون مندوبي شركة أوتو وولف عما إذا كانوا على استعداد لتزويد الملك بخمسة عشر ألف بندقية يدفع ثمنها على آجال أو نقداً . وفي نفس العام اتصل - باسم الملك - ممثل آخر لابن سعود ، وهو طبيبه الخاص الشيخ مدحت العارض (وهو سوري من دمشق) بمكتب الشؤون الخارجية التابع للحزب النازي . ولكن الألمان نظروا إلى هذه الاتصالات بمزيد من الحذر .

وفي ألمانيا أشارت بعض الدوائر ، ومنها مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي ، الذي كان ينادى بمزيد من الاهتمام بالشئون العربية ، إلى أن ألمانيا لا تستطيع أن تفصح عن إعجابها بالملك رغم كونها لا ترغب في تنمية علاقاتها الاقتصادية مع العربية السعودية ، وأنها على استعداد للترحيب بممثلي ابن سعود في مهرجان الحزب المزمع عقده في نورمبرج . ومن المؤكد أن هذا الحذر ربما أملاه على قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي موقف المعارضة الذي اتخذته وزارة الخارجية إزاء مختلف صفقات الأسلحة الخاصة بالشرق الأدنى ، وهي الصفقات التي اقترحتها مكتب رزنبرج .

كما يحتمل أن الألمان كانوا يرغبون في تجنب اتخاذ أى خطوات من شأنها أن تقوى هيبة ابن سعود الذي أحياناً ما كان يسعى إلى الظهور بمظهر زعيم العالم العربي بمصاد قضية فلسطين . فقد كان من المحتمل أن تعنى مساندة ابن سعود لإقحام ألمانيا نفسها على الصراعات العربية الداخلية ، بحكم أن الزعماء

السياسيين في البلدان العربية الأخرى - وبخاصة العراق - كانوا قد حذروا الألمان من ابن سعود وأتهموه بالخضوع لبريطانيا والاستعداد لتنفيذ كل أوامرها . بل لقد ذهبوا إلى أن معارضة الملك السعودي لقيام دولة يهودية في فلسطين لم تكن محلصة . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحكومة الألمانية كانت متحفظة في علاقاتها مع ممثلي ابن سعود وتمشياً مع سياستها العامة إزاء البلدان العربية . ومن المحتمل أنها لم تكن ترغب في أن تصبح علاقاتها بذلك البلد القصي الواقع في شبه الجزيرة العربية من العوامل الإضافية المؤدية إلى تسريع علاقات ألمانيا ببريطانيا وإثارة شكوك إيطاليا .

وفي أوائل عام ١٩٣٨ زار ألمانيا خالد القرقيني مستشار الملك (وهو ينتمي في الأصل إلى طرابلس الغرب) . ولم تكن هذه الزيارة هي الأولى التي يقوم بها بإسهم ملكه لشراء الأسلحة - إذ أنه كان قد زار وارسو في أوائل الثلاثينات لتحقيق نفس الهدف .

وفي برلين أجرى خالد القرقيني مفاوضات عامة مع الشركات الألمانية لعب فيها مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي دور الوسيط . وقد اقترح شراء بنادق والتقدم بعروض لبناء مصنع طلقات نارية وآخر للسيارات . وعبر عن رغبة مليكه في توظيف مهندسين وأخصائيين ألمان في إنشاء الطرق . وقد حصل القرقيني على بعض الوعود بتزويد السعودية بالأسلحة ، وهي وعود لم تكن قد نفذت بعد في صيف عام ١٩٣٨ حين وفد إلى برلين ممثل جديد لابن سعود هو فؤاد بك حمزة (وهو في الأصل درزي لبناني) الذي كان حينئذ يشغل منصب وكيل وزارة الخارجية السعودية . وقد أقام فؤاد حمزة في برلين حوالي شهر (٢٣ يولية - ٢٧ أغسطس ١٩٣٨) أثار خلاله كثيراً من التساؤلات . واعتقد الألمان أن ملك العربيه السعوديه كان مهتماً بإقامة علاقات دبلوماسية مع ألمانيا وأنه يرغب في أن يوجد في بلاده تمثيل رسمي ألماني . وثبت أن هذا الاعتقاد كان صحيحاً .

وقد قدم فؤاد بك حمزة للألمان صورة صادقة إلى حد كبير عن موقف

بلاده . وقد أكد أن سيده لم يكن يتمتع إلا بحرية محدودة في العمل ، وبخاصة فيما يتعلق بإنجلترا . وذهب إلى أن مليكه لم يكن يستطيع أن ينساق وراء صراع مع بريطانيا ، وأن العربية السعودية ستعتمد على التعاون مع بريطانيا في ظروف معينة . كما أوضح مسألة العلاقات الإيطالية - السعودية : فلم يمكن بعد التغلب على انعدام الثقة بذلك البلد ، ورغم بعض التحسن الذي طرأ على العلاقات بين البلدين وتعليق الملك آماله على تلقي أسلحة من إيطاليا . وأوضح فؤاد بك الآمال التي كان يعلقها مليكه على ألمانيا باعتبارها دولة ليست لها أية مصالح استعمارية في العالم العربي .

كما ناقش مع الألمان عدداً من المسائل العملية . وأمكن الوصول إلى اتفاق مع القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة حول تزويد العربية السعودية بالأسلحة ، وإرسالها - عن طريق السعودية - إلى الثوار الفلسطينيين الذين قدم بعض المال لحسابهم . ولكن يبدو أن هذا المال لم يصل وجهته على الإطلاق .

وخلال زيارة فؤاد حمزة لم تتخذ ألمانيا قراراً حول بيع الأسلحة أو اعتماد تمثيل سيامي في جدة^(١) . ولكن كان لا يزال من غير المؤكد ما إذا كانت العربية السعودية ستلتزم الحياد بالفعل في حالة نشوب الحرب . ومالم يحدث ذلك فلاشك أن ألمانيا كانت ستعتبر تقديم الأسلحة على أساس قروض طويلة الأجل أمراً لا يوجد ما يبرره . وقد رأت القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية أن تزويد ابن سعود بالأسلحة لم يكن كفيلاً بتقوية مركز ألمانيا . بل إنه على العكس من ذلك سيكون في غير صالحها . كما لم يكن من المتوقع أن تصبح الصفقة رابحة من وجهة النظر التجارية . ومن ناحية أخرى كان يخشى في برلين أن يكون ابن سعود يود إقامة علاقات أوثق مع ألمانيا لكي يخدم هدفه الخاص بضرب البريطانيين والإيطاليين بعضهم ببعض .

(١) كان المسئولون الدبلوماسيون في العربية السعودية يعيشون في جدة وليس في العاصمة الرياض حيث كان وجود غير المسلمين أمراً غير مرغوب فيه .

على أن مساعي ابن سعود أرغمت الحكومة الألمانية على الوصول إلى قرار ، إذ كانت تخشى أن يؤدي تجاهله إلى ارتداء العربية السعودية في معسكر أعداء ألمانيا . وقد واصل موظفو الحزب ، وبخاصة قسم الشؤون الخارجية ، ضغطهم في سبيل القيام بنشاط في الشؤون العربية . وحين أوصل النازيون العالم إلى حافة الحرب في سبتمبر ١٩٣٨ بإصرارهم على مطالبهم الخاصة بتشيكوسلوفاكيا ، ألح قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي بشدة في طلب صدور قرار خاص بعلاقات ألمانيا بالعربية السعودية^(١) . حينئذ تقرر عدم عقد أى اتفاق حول تقديم الأسلحة بقروض طويلة الأجل ، بل تقرر إقامة علاقات دبلوماسية مع العربية السعودية ، حتى إذا ما نشبت الحرب « يستطيع مبعوثنا إلى بغداد أن ينسحب إلى بلد محايد » . وفي سبتمبر ١٩٣٨ بلغ قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي الوزيرين المفوضين المصري والعراقي بأن حكومة الريخ لن تتخذ إجراء انتقامياً حتى لو اضطرت حكومتاهما - إزاء الضغط البريطاني - إلى قطع علاقاتهما الدبلوماسية مع ألمانيا واتخاذ إجراءات ضد الرعايا الألمان .

ومن المحتمل أن القرار الخاص بإقامة علاقات دبلوماسية مع العربية السعودية لم يتم اتخاذه إلا لأن قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي لم ير أى احتمال آخر لإقامة قاعدة قانونية تركز عليها ألمانيا في حالة نشوب الحرب . ولم تكن لهذا القرار سوى أهمية قليلة في البداية ، لأن ثمة ما يدل على أن الألمان كانوا لا يزالون قليلي الثقة في ابن سعود . فمثلاً وصلتهم أخبار مفادها أن فؤاد بك حمزة عميل بريطاني مأجور^(٢) . وبهذا الصدد تم اعتراض شحنتي أسلحة كان قد جرى إعدادهما لكي ترسلا إلى الثوار الفلسطينيين - وكان من المتوخى أن تنقل إحدى

(١) كتب فورمان إلى مالتكه Malletke (٢٩ سبتمبر ١٩٣٨) ما يل : « أشكرك من كل

قلبي على اقتراحك الودى المؤرخ ٢٩ سبتمبر الذى جعلنا بالفعل ننظر إلى المسألة العربية السعودية نظرة أكثر شمولاً ، حتى في خلال هذه الأيام الأخيرة من الأزمة » - فهل يمكن أن يكون هذا تهكماً ؟

(٢) يفترض وات D.C. Watt أن المنافسة بين ياسين والقرقيني وحمزة كانت من وراء هذا الاتهام .

هاتين الشحنتين عبر العربية السعودية وأن تنقل الأخرى بالاتفاق مع الحكومة العراقية . والذي حدث هو أن البريطانيين استطاعوا بشكل ما أن يحبطوا علماً بأمر هاتين الشحنتين ، مما جعل السلطات الألمانية لا تنق في الملك ومبعوثيه^(١) .

رحلة جروبا إلى جدة :

في يناير ١٩٣٩ سعت الحكومة الألمانية إلى تنفيذ القرار الخاص بإقامة علاقات دبلوماسية مع العربية السعودية . وفي ١٧ يناير طار جروبا إلى جدة عن طريق القاهرة . ومنذ ذلك الوقت كان عليه أن يقوم - بالإضافة إلى مهامه - بدور وزير ألمانيا المفوض في جدة^(٢).

وكانت مسألة العلاقات مع ألمانيا على جانب من الأهمية بالنسبة إلى السعوديين . ولم يكن ثمة كثير من الممثلين الدبلوماسيين المعتمدين لدى العربية السعودية - إذ لم يوجد سوى ٣ دبلوماسيين يعملون في جدة بصفة دائمة ، هم الوزير البريطاني المفوض (وهو في ذلك الوقت سير ريدربولارد الذي أصبح فيما بعد سفيراً لبريطانيا في طهران) ووزير فرنسا المفوض ووزير إيطاليا المفوض سيلتي Silitti . وكان يمثل هولندا وتركيا والعراق في السعودية قائم بالأعمال بصفة مستمرة . وكان وزير مصر المفوض في جدة معتمداً أيضاً لدى بغداد كما كان وزير الأفغان المفوض معتمداً لدى القاهرة ، وكان كثير من نشاط هؤلاء الممثلين الدبلوماسيين يتعلق بشئون الحجاج المسلمين أثناء ترحالهم إلى مكة والمدينة - فقد كان هؤلاء الوزراء المفوضون والقائمون بالأعمال يمثلون إما دولا إسلامية أو إمبراطوريات تضم رعايا مسلمين . وكان ممثل بريطانيا يلعب دوراً سياسياً رئيسياً ، ورغم أن بريطانيا كانت لديها وسائل أخرى مباشرة للتأثير على بلاط ابن سعود ، ولما كان النفوذ الإيطالي

(١) سأل سفير بريطانيا في بغداد رئيس الوزراء - المدعى - عن هاتين الشحنتين . وفي مذكرة بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٣٩ كتب فون هنتج مايل :

« » تربت أنباء الشحنتين - وليس من المؤكد حتى الآن ما إذا كان مرجع ذلك هو ابن سعود . ومن واجبنا أن ننخل عنهما . »

قد ازداد في البحر الأحمر فقد أصبحت لمثل إيطاليا أهمية سياسية أيضاً . وقد نستنتج أن إنجلترا . التي كانت قد استطاعت بالفعل في القرن التاسع عشر أن تفرض على الدويلات الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية لشبه الجزيرة معاهدات تحرم عليها أن تكون لها علاقات سياسية خاصة ، كانت مهمة أيضاً بتحديد اتصالات ابن سعود بالعالم الخارجي . وكانت ألمانيا أولى الدول التي ليست لها مصلحة في الحج إلى الأماكن المقدسة بحيث لم تكثر بتعيين ممثل لدى ملك العربية السعودية .

وفيما يتعلق بازدياد نشاط الشركات البترولية الامريكيه جاءت العلاقات الدبلوماسية بين العربية السعودية والولايات المتحدة في المقدمة ، وهذا ما أبرقته المؤسسات البترولية التي كانت لها امتيازات هناك . ولكن وزارة الخارجية الأمريكية لم تساند الاقتراح . وفي أواسط عام ١٩٣٩ قررت حكومة الولايات المتحدة أن ترسل مبعوثاً إلى العربية السعودية . وفي نفس الوقت حصلت شركة كالتكس المعنية بالموضوع على امتياز نهائي باستخراج البترول في السعودية وازداد عدد الأمريكان بنسبة كبيرة . وبدأت كثير من البلدان تبدي اهتماماً كبيراً بالبترول السعودي . وتوقع ابن سعود أن تمكنه العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا والولايات المتحدة من موازنة النفوذ البريطاني إلى حد ما . ولما كان الملك قد بدأ يلعب دوراً هاماً بالنسبة إلى قضية فلسطين ، فإنه حاول التوسط في علاقاته الدولية بصورة واضحة .

وفي جدة أجرى دكتور جروبا محادثات مع أعضاء الهيئة الدبلوماسية ، بادئاً بالمبعوث الإيطالي سيلتي . وقابل الملك مرتين ، كما قابل الشيخ يوسف آل ياسين ثلاث مرات في الفترة ما بين ١٢ و ١٨ فبراير .

ونتيجة لهذه المحادثات توقع العربية السعودية من ألمانيا أن تقدم لها التعضيد الأدبي والفني والمادي ، على أن يكون معظمه على شكل دفعات من الأسلحة . كما رأى ابن سعود ضرورة مساندة الألمان للعرب بصدد قضية فلسطين . واقترح عقد معاهدة صداقة دائمة مع ألمانيا واتفاق تجاري لفترة محددة . كما طالب بتعضيد ألمانيا الدبلوماسية لادعاءات السعودية (العقبة ونجران) إزاء دول عربية أخرى .

وقد انصب كثير من الاهتمام أثناء المحادثات على السياسة الإيطالية . ولم ينكر الجانب السعودي عدم ثقته في إيطاليا وعدم رضاه عن الاتفاقية الإنجليزيتة الإيطالية الخاصة بالمناطق الواقعة على سواحل البحر الأحمر إلى غير ذلك . ومن الواضح أن ابن سعود رأى أن الاتفاقية تحدد فرص تحركاته السياسية . وما يجدر ذكره أن الملك السعودي قد احتج بشدة على عقد هذه الاتفاقية وأنه أصدر تصريحاً يتحدث فيه فعاليتها بعد إبرائها . ومن المحتمل أن الأمر قد وصل به إلى الخوف من التقسيم المباشر للبلدان الواقعة على البحر الأحمر ، ومن ثم اتجاهه إلى الخدعة الخاصة بإقامة علاقات مع ألمانيا . وقد أوضح الساسة السعوديون لجروبوا أن العرب سيفضلون بريطانيا إذا ما وجهوا بضرورة الاختيار بينها وبين إيطاليا . وكان مقيضاً للزعماء العرب أن يعيدوا تأكيد ذلك مرات كثيرة خلال اتصالاتهم بألمانيا في المستقبل .

وفي مقابل تعضيد ألمانيا السيامي والمادى تعهد الملك واستشاروه بالوقوف على الحياد في حالة نشوب الحرب . ولقد أشاروا إلى سياسة العربية السعودية أثناء الحرب الحبشية : فبالرغم من الضغط الذي باشرته بريطانيا لم يطبق الملك الجزاءات ضد إيطاليا ، بل باع لها الطعام والأغنام والجمال : وكان ابن سعود من أول من اعترفوا بضم إيطاليا للحبشة^(١) . وفي مقابل ذلك باع الإيطاليون الأسلحة إلى ابن سعود بشروط مرضية ، وقدموا له هدايا على شكل عدد من الطائرات ودربوا بعض الطيارين السعوديين على نفقتهم الخاصة وقدموا للعربية السعودية بعثة من مدربي الطيران مجاناً . وما تجدر الإشارة إليه أن هذه البعثة قد سحبت في فبراير ١٩٣٩ بناء على رغبة الملك . وبالإضافة إلى ذلك أكد الملك واستشاروه في محادثاتهم مع جروبوا الحاجة إلى توخي السرية فيما يتعلق ببريطانيا .

وقد كان لزيارة جروبوا للجنة أثر حسن عليه . وقد اقتنع بأن ابن سعود لا يمكن أن يكون صديقاً لبريطانيا أو أداة مطواعة في يدها . وكان من رأيه أن الملك يكره الإنجليز وإن يكن يرى لزماً عليه أن يتظاهر بصداقتهم : فلما كان جروبوا قد

(١) في مارس ١٩٣٧ قابل ابن سعود الوزير المفوض الإيطالي الجديد باعتباره مثلاً لملك إيطاليا وإمبراطور الحبشة ، ولكنه اعترف بالضم بشكل ضمني في مذكرته المؤرخة ٢٢ نوفمبر ١٩٣٨ .

أكد من قبل أهمية البلدان العربية والقومية العربية بالنسبة إلى سياسة ألمانيا . فإنه ضاعف جهوده في ذلك الوقت لكي تقوم ألمانيا بنشاط فيما يتعلق بالشئون العربية . وقد اقتنع جزوا من مناقشاته مع ابن سعود وغيره من القادة العرب بأن لدى الألمان في العربية السعودية وبلادان عربية أخرى فرصاً تفرق فرص إيطاليا التي اعتبرها العرب أضعف من إنجلترا . هذا إلى أن العرب كانوا ينجشون المحاولات الاستعمارية التي كانت تقوم بها إيطاليا . وقد أشار جروبا في تقريره إلى ما رآه المبعوث الإيطالي سيلتي من أن لدى الألمان في العربية السعودية فرصاً تفرق فرص إيطاليا .

كما استطاع جروبا في العراق أن يتعرف على علاقات الساسة العرب بإيطاليا : وبخاصة في الفترة التالية لميونخ . وفي نوفمبر ١٩٣٨ قدم حكمت سليمان - رئيس وزراء العراق السابق - لجروبا خطة القيام بانقلاب موال لألمانيا وتركيا في العراق^(١) ورأى هذا السياسي الذي نشأ على كره الإنجليز وحب تركيا أن مثل هذا الانقلاب لم يكن ممكناً إلا إذا منحت تركيا ضمانات ضد التوسع الإيطالي - إذ أن الخوف من مثل هذا التوسع قد جعل تركيا تميل إلى الإبقاء على علاقات ودية مع فرنسا وبريطانيا . ولذا كان من رأى حكمت سليمان أنه إذا كانت ألمانيا تريد أن تجرى تغييراً في سياسة إيطاليا : فاستطاعتها أن تعمل على أن تكون لها آثار ناجحة في العراق أيضاً . وفي فبراير ١٩٣٩ نقد وزير خارجية العراق بالوكالة رستم حيدر - وهو شيعي من أصل سوري - في محادثة له مع جروبا ، الاتجاه الذي اتخذته الصحافة الألمانية لإزاء إيطاليا وسياستها . وقد أكد حيدر أن العرب يشعرون بأن ألمانيا تسند سياسة إيطاليا في البحر المتوسط ولا تعبر التفاتاً للأمانى العربية . وذهب إلى أن الحكومة العراقية غير مهتمة بمصائر تونس أو المستعمرات الإيطالية في شمالي أفريقيا - ولكنها تهتم بمصير سوريا وفلسطين .

وجاءت دلائل مشابهة من مصر . ففي نوفمبر ١٩٣٨ أشار وزير ألمانيا المفوض

(١) ليس من المؤكد إذاً أن اتهام نوري السعيد الذي وجهه في ٦ مارس ١٩٣٩ - ومفاده أن حكمت سليمان وغيره كانوا يدبرون مؤامرة ضد الحكومة العراقية - كان لا يستند إلى أساس ، وهو ما يذهب إليه مجيد خضوري : (Independent Iraq, London, 1960, 137-40). انظر أيضاً صلاح الدين الصباغ : فرسان العروبة في العراق (دمشق ١٩٥٦) ص ٧٤ وما بعدها .

في القاهرة إلى أن من الممكن دعم اتجاهات مصر الحيادية بالتأثير الملائم على الرأي العام الذي كان من الواضح أن السياسة الإيطالية تقلقه .
ونستنتج من هذا كله أنه كان على الألمان أن يتحملوا نتائج اتجاه العرب السلبي إزاء إيطاليا وأن إمكانيات الألمان في العالم العربي كانت تستند بطريق غير مباشر إلى موقف الإيطاليين . وسنرى أن موقف إيطاليا كان له أثر مباشر على السياسة الألمانية .

ولم يشارك القسم الديبلوماسي السابع ورؤساء قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي آراء جروبوا الخاصة بتدعيم العلاقات مع ابن سعود . وقد بلغ قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي جروبوا أن ألمانيا لم تكن مهتمة بتوثيق علاقاتها مع ابن سعود بسبب علاقته الغامضة بإنجلترا . وأهم من هذا أن الرسميين في برلين كانوا يرجحون أن ألمانيا لا تستطيع أن تتعهد بتزويد العربية السعودية بالأسلحة لأن بلدان شبه الجزيرة العربية كانت تدخل في دائرة المصالح الإيطالية . وكان للاتجاه الخاص بمراعاة موقف إيطاليا تأثير أقوى من ذلك فيما يتعلق بعلاقات إيطاليا باليمن . فقد قابلت إيطاليا محاولات ألمانيا التغلغل الاقتصادي في اليمن بكثير من عدم الرضى . ومن هنا فما حل أبريل ١٩٣٩ حتى ساد الرأي في قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي بألا مجال لأي تغيير في السياسة إزاء العربية السعودية (١) .

المفاوضات حول تزويد العربية

السعودية بالأسلحة

وبرغم ذلك فقد تغير الموقف بعد وقت قصير لدرجة أن ألمانيا وضعت حداً لتردها إزاء التدخل في شؤون البلدان العربية ، وبخاصة فيما يتعلق بالعربية السعودية . وفي مارس ١٩٣٩ خرق هتلر قرارات مؤتمر ميونخ : ففضى على دولة تشيكوسلوفاكيا الممزقة وتقدم إلى بولندا بمطالب متشددة . وقد أدى هذا إلى تقديم بريطانيا ضمانات لبولندا ، وازدياد تدهور العلاقات الإنجليزية - الألمانية .

(١) وبرغم بعض التردد فإن الحكومة الألمانية قررت في النهاية ألا تباع الأسلحة لليمن .

وفي أبريل غزا الإيطاليون ألبانيا . ووجه الرئيس روزفلت رسالة طلب فيها أن تضمن ألمانيا عدم تعرض ٣٠ دولة معينة للعدوان . وفي ٢٨ أبريل ألقى هتلر خطبة عنيفة في الرايخشتاج اشتمل فيها في مهاجمة السياسة البريطانية إزاء فلسطين وتناول سياسات الدول الغربية في البلدان العربية . حينئذ سارعت إنجلترا وفرنسا إلى التوصل إلى اتفاق مع تركيا . وفي ١٢ مايو صدر تصريح إنجليزي - تركي ، وبعد ستة أسابيع صدر تصريح فرنسي - تركي .

وفي أبريل ١٩٣٩ توجه أوتو فون هنتج - مدير القسم السياسي السابع - إلى فلسطين والعراق^(١) . بعد زيارة أطول إلى مصر . وقد أدت هذه الرحلة إلى إجراء بعض التغيير في وجهات نظر الحكومة الألمانية إزاء تدعيم العلاقات مع العربية السعودية^(٢) .

ومن الواضح أن فرتز جروبا أثار من جديد - في رسالة بعث بها في ٢ مايو إلى قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي - مسألة مطالب ابن سعود ، وذلك بعد أن شعر - على أثر محادثاته مع فون هنتج - بأن ثمة احتمالا لتغيير اتجاه ألمانيا إزاء العربية السعودية . وقد أشار من جديد إلى اعتقاده بعداء الملك لإنجلترا من حيث المبدأ ، وأكد احتمال استعمال الأراضي السعودية ذات الأهمية الاستراتيجية في الحرب القادمة . وفي هذه المرة سمح فورمان لنفسه بأن يقتنع وقد ورد ذلك في تعقيب بخط يده على هامش رسالة جروبا .

ولهذا فما حل ربيع ١٩٣٩ حتى كان المسئولون بوزارة الخارجية الألمانية قد وافقوا على الأقل للدرجة ما - على وجهات نظر مكتب الشؤون الخارجية بالحزب النازي التابع لروزنبرج ، وبإمكاننا أن نستنتج أسباب هذا التغيير من مذكرة هنتج المؤرخة ٢٢ مايو . ففي مذكراته الرسمية حدد فون هنتج الموقف في الشرقي الأدنى والأوسط على الوجه التالي : (١) لا توجد احتمالات للنشاط الألماني في مصر والعراق وفلسطين وسوريا . فصر والعراق كانتا في صف إنجلترا ، وكانت

(١) لا يشير فون هنتج في مذكراته Mein Leben, eine Dienstreise (حياتي - رحلة خدمة) ،

ص ٣٢٩ ، إلا إلى رحلته إلى فلسطين .

(٢) ادعى جروبا أنه أقنع فون هنتج .

الحركة الوطنية في فلسطين مشلولة ، على حين أن العرب السوريين كانوا عاجزين عن اتباع سياسة مستقلة (ب) لن يكون باستطاعة ألمانيا أن تستعمل الأراضي التركية لمهاجمة المواصلات البريطانية صوب الهند عبر العراق وفلسطين ، وذلك بسبب اتفاق حكومة أنقرة مع الدول الغربية (ج) لم يعد الملك ابن سعود يعتمد على المعونة البريطانية ، إذ أصبح له دخل ثابت يقوم على حصته من شركة كالتكس . نظير استغلالها للبترو في منطقة الخليج . (د) ليست لدى إيطاليا فرصة طيبة للقيام بنشاط في العربية السعودية بعد أن رحلت عنها بعثة الطيران الإيطالية .

وفي خلال الحرب العالمية الأولى كان من نتيجة تحالف ألمانيا مع الباب العالي أن توفرت لها فرض النشاط العسكري والسياسي ضد دول الوفاق في الشرق . ولكن حين اتضح - قبيل الحرب العالمية الثانية - أن تركيا على الأقل ستكون محايدة كان من الواجب البحث عن إمكانيات أخرى لضرب المواصلات البريطانية مع الهند من الجنوب . وكان يبدو أن مثل هذا الاحتمال متوفر في شبه الجزيرة العربية . فثلا كان بإمكان الألمان أن يفكروا في أن يقيموا هناك قواعد تموين للغواصات القادرة على مهاجمة السفن البريطانية في المحيط الهندي والخليج . وإذا كان فورمان قد استجاب لإقناع جروبا له بأهمية العلاقات مع ابن سعود لأسباب سياسية وعسكرية ، وبالحاجة إلى تجنب الانجبال أثناء الحرب ، بل «أن يوطد الآن في هدوء وسلام» مركز ألمانيا هناك ، فمن المحتمل جداً إذاً أنه كان يضع نصب عينيّه هذه الفرص .

ولايد أن عقد اتفاق بين الدول الغربية وتركيا قد أيد وجهة نظره هذه ، ويبدو هذا في مذكرات موظفي قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي باعتباره السبب الرئيسي في تعديل السياسة الخاصة بالعربية السعودية . فقد اضطرت ألمانيا إلى اتخاذ هذا الموقف بسبب الوضع غير الملائم الذي واجهه الريخ في شرق البحر المتوسط وفي البحر الأحمر ، وتؤكد هذا تقارير السفير الألماني في أنقرة - فون بابن - والسفير البريطاني سير هيو ناتشبل هوجسن Hugh Knatchbull-Hugessen .

وقد ذكر أتوليكو Attolico - سفير إيطاليا في برلين - في تقاريره التي أرسلها إلى شيانوا أنه بدغم أن ألمانيا كانت في وضع يمكنها من الضغط على تركيا ، فمن

المحتمل أن تكون النتائج موضع شك . كان بإمكان ألمانيا أن تستغل إرسال جزء كبير من الصادرات التركية إليها وأن عدداً كبيراً من الأساتذة والخبراء والمدرسين الألمان - بما في ذلك بعثة عسكرية - كانوا يلعبون مثل هذا الدور الكبير في شئون تركيا المدنية والعسكرية . ورغم ذلك فقد كان بإمكان إنجلترا أن تحل محل ألمانيا في المجال الاقتصادي وأن تحل فرنسا محلها في المجال العسكري . وفي ظل هذا الوضع ، حددت الحكومة النازية موقفها . إذ أن بريطانيا كانت تجرى وراء « ربط تركيا بسياسة تطويق ألمانيا^(١) » ورغم ضعف احتمال القيام بعمل فعال ضد بريطانيا من المنطقة الواقعة جنوب تركيا ، فقد قررت ألمانيا انتهاز الفرصة .

وأصبح بالإمكان إدراك تغير اتجاه الحكومة الألمانية من العربية السعودية حين قام خالد القرقيني برحلة أخرى إلى برلين في مايو ١٩٣٩ . وفي هذه المرة أجرى مستشار ابن سعود محادثات ليس فقط مع ممثلي وزارة الدفاع الألمانية ومكتب الشئون الخارجية بالحزب النازي والشركات الألمانية ، بل ، إنه قابل كذلك كبار قادة الرينخ .

وقابل ريبتروب القرقيني في ٨ يونيو . وإلى جانب تبادلها الآراء برجه عام . ناقشا شحنات البنادق والمدافع المضادة للطائرات والعربات المصفحة ، بالإضافة إلى بناء مصنع للذخيرة في العربية السعودية . وقد أكد مبعوث ابن سعود أن تحقيق هذه الرغبات التي عبر عنها الملك من شأنه أن يخفف اعتمادها على إنجلترا . وعبر ريبتروب عن عطف ألمانيا على العرب وفوض ، فون هنتيج^(٢) القيام بمزيد من المفاوضات حول تزويد السعودية بالأسلحة .

وفي ١٧ يونيو استقبل هتلر القرقيني في أوبرسالزبورج . واستفاض التهور في تعبيره عن عطفه على العرب ، وقال إن هذا العطف قد بدأ لديه أثناء طفولته ،

(١) كان من رأى الكلوفل رود Rohde - الملحق العسكري الألماني بأنقرة - أنه لا يجب فقط اعتبار حلف تركيا مع الدول الغربية ضاراً بألمانيا ، بل يجب أيضاً اعتباره ضاراً بحياة تركيا .

DGFP, VI, p. 406

(٢) أجلت مقابلة القرقيني مع ريبتروب إلى ٨ يونيو بسبب زيارة شيانوالأمير بول الوصي على عرش يوغسلافيا إلى برلين .

وأعلن استعداداه لأن يقدم « المساعدة الفعالة » للسعوديين . وقدم القرقيني هاتلو رسالة شخصية من ابن سعود .

وبحلول ذلك الوقت لم يعد واضعو السياسة الألمانية يكثرئون كثيراً بتسوية علاقة ألمانيا ببريطانيا بشكل لا تدعو إليه الحاجة ، ولكن كان عليهم أن يضاعفوا مراعاتهم لوجهة النظر الإيطالية . وكانت قد جرت بالفعل محادثات مع إيطاليا حول مسألة تزويد اليمن بالأسلحة ، وهو ما كانت الشركات الألمانية تزعم القيام به . وفي هذه المحادثات أكد الإيطاليون أن اليمن يقع في منطقة نفوذهم ، وقطعت المفاوضات بين ألمانيا واليمن ورغم التحفظ الألماني الخاص بأنه لم يكن باستطاعة ألمانيا أن تتخلى عن نشاطها في اليمن . على أنه لم تترتب على هذا التحفظ أية خطوات محددة من الناحية العملية . وفيما يتعلق بالسعودية اعتبر الألمان توسعهم في هذا القطر مسألة مفتوحة على الأقل ، ورغم اقتناعهم بأن عليهم أن يتصلوا بالحكومة الإيطالية قبل أن يتعاونوا مع ابن سعود بالفعل ، ولم يساورهم الشك في أن إيطاليا لن تبلغ بسرعة بأى صفقة تعقد في المستقبل مع الملك السعودي .

وبخلال الزيارة التي قام بها الكونت شيانو إلى برلين بمناسبة توقيع « ميثاق الصلب » في ٢١ - ٢٣ مايو ، بلغ فورمان السفير بوتي Btut بأن العربية السعودية قد قامت بكثير من المحاولات لشراء الأسلحة في ألمانيا ، وأشار إلى مزايا إقامة علاقات ودية مع ابن سعود في حالة نشوب الحرب . وحين سئل السفير الإيطالي صراحة عن موقف إيطاليا من هذه المسألة أجاب بأن القرارات الخاصة بمثل هذه المسائل كان يتخذها وزير الخارجية شخصياً ، ولكنه أنصح عن رأيه الخاص بوجوب تعهد الشركات الإيطالية بتزويد العربية السعودية بالأسلحة . كما اعتبر بوتي التسابق على كسب ود الملك السعودي أمراً غير مرغوب فيه . وحينئذ وعد فورمان بأن تناقش ألمانيا هذه المسألة مع الإيطاليين بالطرق الدبلوماسية .

وفي ١٠ يونية ، أى مباشرة بعد المقابلة التي تمت بين القرقيني وريينروب ، وجه فورمان رسالة إلى سفير ألمانيا في روما أشار فيها إلى المحادثة التي تمت بينه وبين بوتي وفصل رغبات ابن سعود وأوضح السبب الذي دعا الإيطاليين إلى التخلي عن صفقة الأسلحة المزمع إجرائها مع السعودية لصالح شركائهم الألمان . وذكر

فورمان بإنهاء البعثة الجوية الإيطالية في العربية السعودية وأشار إلى المحادثة التي جرت بين جروبا وسيلتي في جدة وهي المحادثة التي ادعى فيها الأخير أن ألمانيا كانت لديها فرص في تلك البلاد تفوق فرص إيطاليا . وهكذا اقترح وجوب إعلان إبطاله ألا دخل لها بالصنعة المزمع عقدها بين ألمانيا والسعودية .

على أن الإيطاليين لم يتحمسوا لاتخاذ موقف نهائي . ومن المحتمل أنهم كانوا غير راغبين سواء في الموافقة أو في الرفض لأن الصفقة المعنية كانت صغيرة نسبياً . وبعد إنهاء البعثة الجوية لم تتحسن العلاقات الإيطالية - السعودية بصورة ناجحة . ثم إن اختيار القرقيني مبعوثاً إلى ألمانيا في الوقت الذي انضج فيه توثيق العلاقات بين دولتي المحور ، كان من الممكن تفسيره على أنه يعبر عن اتخاذ الحاكم السعودي موقفاً معادياً من إيطاليا . فالقرقيني كان طرابلسياً اشترك في محاربة الإيطاليين ولم يخف عداؤه لإيطاليا أثناء محادثاته مع الألمان .

وخرجت محادثات روما على مستوى أدنى . ولم يستطع جوارنا سلى Guarnachelli نائب السفير بوتي - أن يقدم لمستشار السفارة الألمانية - فون بليسن Von Pressen إجابة واضحة . وبرغم أن جوارنا سلى أبدى تحفظاً فحواه أنه لا يبدى آراء شخصية ، فإنه تكلم عن اهتمام إيطاليا الخاص بالعربية السعودية وللنجزات الإيطالية الكبرى في ذلك القطر ، وانتهى بتوضيحه أن إيطاليا ذاتها كانت تتفاوض في أمر بيع الأسلحة . وقد التقت آراؤه مع الآراء التي عبر عنها بوتي خلال محادثاته مع فورمان هـ

وفي غضون ذلك قابل هتلر القرقيني . وألحت برلين على سفيرها في روما لكي يحصل على قرار ، ولكن الإيطاليين أجلوا إجابتهم انتظاراً لوصول سيلتي الذي كان عليه أن يقدم تقريراً عن هذه المسألة . ولم يكن ثمة جدوى لمزيد من الإلحاح . ولم يصل رد إيطاليا حتى ١٤ يولية حين انتهت المفاوضات مع القرقيني من حيث المبدأ ولكن لم يسدل عليها الستار . حينئذ ساد الاعتقاد لدى الرسميين الألمان الذين كان يعينهم الأمر بوجوب إنهاء هذه الصفقة مع القرقيني دون اعتبار الموقف إيطاليا .

وقدم ماجستراتي لفورمان رد إيطاليا . ولم تكن لدى الحكومة الإيطالية اعتراضات

على الصفقة الألمانية - السعودية المقترحة ، ولكنها لم تكن ترغب إلا في الإشارة إلى ضرر التنافس بين البلدين في العربية السعودية . وقد أوضحت الألمان أن شركة سنا SANA الألمانية كانت نشطة في جدة ، واقترحت أن تفيد ألمانيا من خدمات هذه الشركة في علاقاتها مع البلدان العربية الواقعة على البحر الأحمر . وبهذا نحت بوضوح إلى أن هذه البلدان تقع في منطقة النفوذ الإيطالي من الناحيتين السياسية والاقتصادية . وقد يكون من المناسب بهذا الصدد أن نلمح إلى تصريح هتلر خلال زيارة شيانو لبرلين - فقد صرح بأنه يعترف بسيطرة إيطاليا على منطقة البحر المتوسط .

وقد رفض فورمان توسط شركة سنا قبل أن يجري مناقشة أساسية لادعاءات إيطاليا .

كما عبر الكونت ماجستراني عن اعتراض حكومته على شخصية مبعوث ابن سعود - خالد القرقيبي - الذي أبدى عداءه لإيطاليا حين كان لا يزال في ليبيا . وقد هدأ فورمان محدثه بالإشارة إلى اتجاه القرقيبي المعادي لبريطانيا ، وأكد له أن السعوديين لن يستعملوا السلاح إلا ضد البريطانيين .

لهذا لم يكن لموقف إيطاليا أي أثر جذري على مجرى الأحداث خلال المفاوضات التي جرت مع القرقيبي . ولم يؤد إلا إلى بعض التأخير في الوصول إلى اتفاق نهائي . ولكن لا يجب أن نقلل من أهمية هذا الموقف حتى وإن يكن قد اتخذ هذا الشكل : فالمفاوضات قد جرت قبل اندلاع الحرب بوقت قصير ، ولهذا وضعت العراقيل أمام الصفقة . وقد وجه النازيون بإختيار أحد طريقين صعبين فيما يتعلق بسياساتهم العربية التي سببت لهم قلقاً شديداً منذ ذلك الوقت . فمن ناحية كان يواجههم كره العرب العميق لإيطاليا الفاشية وهي أوثق حلفائهم ، ومن ناحية أخرى كانوا يواجهون عدم ترحيب إيطاليا بالعمل الألماني المستقل ، في تلك المنطقة التي اعتبرتها منطقة نفوذ خاصة بها .

وقد أبدى الألمان استعدادهم لإرضاء ابن سعود أثناء محادثاتهم مع القرقيبي . وفي النهاية عرضت ألمانيا قروضاً مقدارها مليون ونصف مليون مارك (١٢٥,٠٠٠ جنيهه) لشراء ٨,٠٠٠ بندقية و ٨ ملايين طلقة ولبناء مصنع صغير للمخراطيش .

وطالب السعوديون بقرض قدره ٦ ملايين مارك ، كما طالبوا بأن تخصص لهم أسعار خاصة . وبرغم رفض طلب العراق الخاص بشراء أسلحة على أن يتم دفع ثمنها على آجال طويلة ، فإن القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة عرضت في ذلك الوقت على ابن سعود أن تهديه عدداً من البنادق . ولما كان بعض المسؤولين الألمان قد أوضحوا الصعاب التي تعترض إجراء الصفقة ، فقد ساند كانارييس الاقتراح بشدة باسم القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية .

وقد تمت الصفقة في ١٧ يولية على شكل خطاب وجه إلى القريفي مكتوباً على ورقة عادية غفل من الإمضاء . وقد اشتملت على ثلاث نقاط هي :

١ - أبدت حكومة الريخ استعدادها للتعبير عن عطفها على العربية السعودية بتزويدها بالبضائع .

٢ - تعهدت حكومة الريخ بأن تقدم لابن سعود هدية قدرها ٤,٠٠٠ بندقية من آخر طراز نصفها من النوع ذى الخزان بالإضافة إلى ٢,٠٠٠ خرطوشة الكل قطعة .

٣ - الموافقة على أن يطلب الملاك الأدوات الحربية ، على الحساب ، من المؤسسات الألمانية بما قيمته ٦ ملايين مارك ؛ وتقرر أن يتم الدفع على سبعة أقساط سنوية ، والتزم ابن سعود بأن يدفع القسط الأول عقب تسلمه الشحنة الأولى . وبهذه المناسبة تخلت ألمانيا أيضاً عما اعتادته فترة طويلة من حيث تلقي قسط كبير من الثمن قبل قبول الصفقة . وقد ألحقت بالرسالة قائمة طويلة من المواد الحربية . ومن المحتمل جداً أن جزءاً كبيراً من الأسلحة المهداة كان مخصصاً لفلسطين حيث كانت الثورة قد خمدت .

وكان من الممكن ألا تجرى هذه الصفقة ، إذ نشبت الحرب بعد حوالى ستة أسابيع ، وأصبح تصدير الأسلحة إلى موانئ البحر الأحمر من الصعوبة بمكان . هذا بالإضافة إلى التغيرات الأخرى التي طرأت على هذه المسألة نتيجة للحرب .

علاقة ابن سعود بإنجلترا

قد يبدو أن ملك العربية السعودية - بعكس حكومتى مصر والعراق - كان قليل الاهتمام بموقف إنجلترا من اتصالاته بألمانيا . وبما لاشك فيه أن ابن سعود كان يرغب فى استغلال اطراد سوء العلاقات بين إنجلترا وألمانيا . وبرغم ذلك فحين أرسل مستشاره إلى برلين كان يرغب فى ألا تشير هذه الرحلة سوى قليل من الانتباه وأن يحاط ما تقوم به بالسرية . وقد لفت القرينى نظر الألمان إلى هذا وكرر جروباً ذلك فى رسائله التى بعث بها من بغداد .

ولكن كان من الصعب فى ظروف الموقف الدولى القائم توقع ألا يلاحظ أحد رحلة القرينى وبخاصة استقبال هتلر له . وقد خصصت وكالة رويتر لهذه الزيارة برقية بتاريخ ١٩ يونية كما أذاعت محطة إذاعة بارى تعليقاً عليه . وذهب الكتاب فى هذه المحطة الإيطالية إلى أن البلدان العربية تعتقد أن هتلر والقرينى قد ناقشا شؤون فلسطين وأن البريطانيين يعلقون أهمية كبرى على المحادثة . وقد نشرت جريدة الديلى إكسبريس اللندنية ما اعتقده مراسلها فى القاهرة من أن القرينى قد أجرى مفاوضات بصدد امتيازات البترول . وقد نقلت جريدة « المقطم » القاهرة الهامة والمعتدلة وصحيفة « البلاد » البغدادية أخباراً مشابهة . وخشيت الدوائر الحكومية العربية ، وبخاصة فى العراق ، أن تزداد هيبة ابن سعود وأن يقوى مركزه فى العالم العربى .

وفى ٣٠ يونية ساندت جريدة « المراسل الدبلوماسية الألمانى Deutsche diplomatische Korrespondenz » المطالب القومية العربية بصيغة عامة خلال تعليقها على محادثة هتلر - القرينى

وكان من الطبيعى أن ينشر القرينى نقياً لما سبق ذكره - إذ ذهب إلى أنه زار ألمانيا لأسباب تتعلق بصحته . ولكن لم تنته المسألة بنشر هذا النى من جانب وكالة رويتر ومكتب الاستعلامات الألمانى . واحتج ابن سعود عن طريق مبعوثه فى بغداد على قيام الإذاعة الألمانية بإفشاء خبر زيارة القرينى ، وأكد الملك أنه يرغب فى المحافظة على صداقة الجميع وأنه لا يود أن يستعمل الألمان . العربية

السعودية ضد إنجلترا . وقد اعتبر هذه الحادثة من الأهمية بحيث فكر (أو على الأقل أخبر الألمان أنه فكر) في احتمال إلغاء صفقة الأسلحة المعقودة مع ألمانيا . وإن انتقال اعتراضات القرقينى على الدعاية التى قامت بها الإذاعة الألمانية إلى بلدان المشرق العربى لما يأتى ضوءاً كذلك على اتجاه الملك .

ونتيجة لهذه الاحتجاجات رجا الألمان الحكومة الإيطالية أن تتناول صحافتها المسألة بمزيد من التحفظ . كما تجنبت الصحافة الألمانية أى مناقشة مستفيضة لزيارة القرقينى .

ونستنتج مما سبق أن ابن سعود — شأنه فى ذلك شأن الساسة العرب فى بلدان أخرى — كان يتجنب اتخاذ أى اتجاه يؤدي إلى سوء العلاقات بينه وبين إنجلترا ، ولكنه استباح لنفسه أن يعقد صفقة أسلحة سرية مستغلاً بعد بلده وضعف شبكة المعلومات البريطانية فيها . وكان ابن سعود بحاجة مستمرة إلى الأسلحة — إذ كان باستمرار يواجه المشكلة القائمة والخطيرة المتعلقة بالمحافظة على النظام وإرغام السكان على الطاعة . وكان يكتفى أن تشعر قبيلة أو أخرى بضعف قوات الملك حتى تتمحيز للتدرد .

وما لاشك فيه أن الاستياء من بريطانيا كان يزداد فى البلدان العربية . فبالإضافة إلى قضية فلسطين كانت توجد الرغبة المتزايدة فى الاستقلال عن الدول الغربية . كما لا نستطيع أن ننكر أن ازدياد ضغط المحور على المجال الدولى قد قوى الاتجاهات المعادية لبريطانيا وفرنسا . ولكن البلدان العربية أبدت حذراً شديداً فيما يتعلق بقوة علاقاتها بأعداء إنجلترا وفرنسا . ولم ينطبق هذا فقط على اتصالات العرب بإيطاليا التى كانت البلدان العربية تعلم أنها أضعف من إنجلترا وفرنسا ، التى أثارت العداء والشك بسبب مشروعاتها الاستعمارية . بل أيضاً على ألمانيا ، ورغم أن قوة ألمانيا النازية كانت قد أثارت إعجاب العرب وكذلك الحال بالنسبة إلى هتلر الذى أرغم الإمبراطورية البريطانية، التى كانت مهيبة الجانب حتى ذلك الوقت ، على تقديم بعض التنازلات . ولكن ألمانيا كانت بعيدة عن العالم العربى حيث كان بالإمكان الإحساس عن كثب بقوة إنجلترا وفرنسا .

وبرغم هذه الظروف غير المواتية فقد استطاع الإيطاليون أن يسجلوا فى البلدان

العربية بعض النجاحات التي كانت ثمرة جهود متواصلة - فقد استطاعت إيطاليا أن تعقد صلات وثيقة مع مفتي القدس والبلاط الملكي المصري^(١).

وقد سبق أن رأينا أن حكومة الريخ قد تجنببت لفترة طويلة القيام بمزيد من النشاط في البلدان العربية خشية أن يؤدي ذلك إلى إساءة علاقاتها ببريطانيا . ولكن هذا الاتجاه أخذ يتغير حين نشبت أزمة تشيكوسلوفاكيا ، وإن تكن السياسة الجديدة قد تشكلت ببطء ولم تتكشف بكاملها قبل اندلاع الحرب . وكانت الانفاقية الخاصة بتقديم الأسلحة إلى العربية السعودية من الثمار القليلة الأولى والمتواضعة لهذا الاتجاه الجديد . حقيقة إنها في ذلك الوقت لم تتعد محاولات القيام بمناورات ، إلا أن ألمانيا ووجهت تماماً بمشكلة جديدة - إذ كان يجب أن تنسجم كل خطوة جريئة بصدد العالم العربي مع وضع إيطاليا .

(١) لاحظ الكونت شيانوفى مذكراته (٢٤ فبراير ١٩٣٩) أن البلاط المصري قد طلب تعضيد

المحور له ضد بريطانيا .

الفصل التاسع

اندلاع الحرب

الحلفاء والبلدان العربية

في أول سبتمبر ١٩٣٩ غزت ألمانيا بولندا ، وفي ٣ سبتمبر أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا . وهكذا بدأت الحرب العالمية الثانية التي كان مقيضاً للمعارك التي نشبت أثناءها أن تواجه بريطانيا بمشاكل عسكرية وسياسية خطيرة في الشرقين الأدنى والأوسط . ولكن لم تبد سوى قليل من الصعاب خلال الشهور الأولى من الحرب . وشأن كل البلدان الواقعة تحت الحكم البريطاني أو الفرنسي المباشر، أصبحت سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن بصورة آلية طرفاً في القرارات الدولية التي اتخذتها هاتان الدولتان . فالعراق ومصر كانت تربطهما بإنجلترا معاهدتان تنصان على إمكان استعمال أراضيها حين يتطلب الموقف . حقيقة إن العربية السعودية لم ترتبط بمعاهدة مشابهة ، إلا أنها لم تكن تستطيع أن تواجه إنجلترا بالمعارضة الصريحة ، بحكم أن الأسطول البريطاني كان يسيطر على البحر الأحمر والخليج العربي ، وأن بريطانيا كانت لها قواعد جوية في العراق ومصر وعدن .

ولكن الدوائر السياسية العربية لم تبد كثيراً من الحماسة لقضية الحلفاء . وقد أحس العالم العربي بالارتياح لأن إيطاليا ظلت على الحياد ولأن خطر العمليات الحربية كان بعيداً عن الشرقين الأدنى والأوسط . حقيقة لقد صدرت تأكيدات رسمية بأن العرب يناصرون قضية الديمقراطية وأنهم كانوا يرتبطون بالتحالف المعادي لهتلر ارتباطاً يقوم على الأهداف والمثل المشتركة ، وأن المكان الطبيعي للبلدان العربية يجب أن يكون إلى جانب بريطانيا - إلى غير ذلك . ولكن كان يكمن وراء هذه التأكيدات الحماسية الاعتقاد بأن من الخطأ في ظل الظروف القائمة أن يتصدى أحد لإثارة غضب بريطانيا أو فرنسا .

وبرغم أن مسرح الحرب كان بعيداً عن شرق البحر المتوسط ، فإن موقف الحكومات المحلية ونشاط الجماعات السياسية في المشرق العربي كانا موضع اهتمام إنجلترا وفرنسا . ففرنسا كانت قد حشدت جيشاً كبيراً في سوريا ولبنان ، تحت قيادة الجنرال فييجان ، ولما كانت مصر تشكل القاعدة الرئيسية لكل نظام بريطانيا العسكرية في الشرق الأوسط ، فقد كانت لموقفها أهمية خاصة . وكما هو الحال بالنسبة إلى فلسطين نجد إنجلترا تحتفظ في مصر بقوات وافرة العدد ، كما نجدها تهتم إلى حد ما بضممان تعاون القوات المحلية . وكانت أهمية العراق بالنسبة إلى بريطانيا تكمن في موارده البترولية الكبيرة وموقعه الاستراتيجي قرب آبار البترول الإيرانية مباشرة وعلى الطريق البري الممتد من رأس الخليج العربي إلى فلسطين . وفي ظل ظروف الحرب كان بإمكان هذا الطريق أن يصبح خط المواصلات الرئيسي بين الهند ومصر وتركيا . وبالإضافة إلى ذلك يجب علينا أن نذكر أن بريطانيا وفرنسا وقعتا في أكتوبر ١٩٣٩ معاهدة تحالف مع حكومة أنقرة نصت على وقوف تركيا إلى جانبهما في حالة نشوب الحرب في البحر المتوسط . وكان خط أنابيب بترول العراق يصب في حيفا بفلسطين وفي طرابلس بسوريا ، وكان يوجد في حيفا معمل تكرير جديد . وعلى حين كانت توجد خلافات في الرأي لدى الدوائر الحكومية والعسكرية البريطانية حول ضرورة إرسال حملة عسكرية إلى فرنسا ، فقد كان ثمة إجماع على الحاجة إلى قوات عسكرية كبيرة نسبياً في الشرق الأوسط . وفي الواقع لقد وضعت خطة لتدعيم الحاميات البريطانية في تلك المنطقة قبل نشوب الحرب . وعين الجنرال سير أرشيبالد ويثل قائداً عاماً للقوات المسلحة المعسكرة في المنطقة . وكان الدافع وراء كل هذا هو الخوف من زحف إيطاليا من ليبيا ونشوب القلاقل في البلدان العربية .

ولما تبين رؤساء أركان الحرب البريطانيون أن انتصار ألمانيا على بولندا أمر مؤكد ، فإنهم توقعوا هجوماً ألمانياً في البلقان . ولهذا ازدادت أهمية الشرقين الأدنى والأوسط بالنسبة إلى استراتيجية الحلفاء . وكانت للمسألة أهمية أكبر بالنسبة إلى فرنسا ، لأن الجنرال جاملان رأى من الضروري خلق جبهات جديدة لتحويل أنظار القوات الألمانية عن الجبهة الغربية ، على حين أن الجنرال فييجان — القائد العام

للقوات الفرنسية في سوريا ولبنان — أدرك الفائدة الكبرى المترتبة على القيام بعمل عسكري في البلقان . وكان من المتوخى أن تخدم معاهدة التحالف المعقودة مع تركيا نفس الغرض ، وحين انشغل الحلفاء بمشاكل السياسة البلقانية المترتبة على الحرب السوفيتية — الفنلندية ، رأوا من جديد ضرورة تقوية قواتهم المساحة في الشرقين الأدنى والأوسط .

أما فيما يتعلق بالحرب السوفيتية — الفنلندية والعلاقات بين دول أوروبا جميعاً في ذلك الوقت ، فقد وضعت إنجلترا وفرنسا الخطط للقيام بأعمال عدوانية ضد الاتحاد السوفيتي من قواعد تركية . حيثئذ ، أي منذ اندلاع الحرب بوجه عام . وفي أثناء الشهور القليلة الأولى من عام ١٩٤٠ بوجه خاص : كان « الخطر السوفيتي الآتي من الشمال » هو الموضوع الرئيسي للدعاية الحلفاء في الشرقين الأدنى والأوسط . وما لاشك فيه أن الحلفاء حاولوا إنعاش المعاهدة الموقعة في سعد آباد في عام ١٩٣٧ بين تركيا وإيران وأفغانستان والعراق — إذ أنهم كانوا يحاولون استغلال « الخطر السوفيتي » لتقوية نفوذهم لدى الدوائر الحاكمة في الشرقين الأدنى والأوسط . وبحلول أواسط عام ١٩٤٠ كانت قوات يبلغ تعدادها حوالي ١٨٠,٠٠٠ جندي تعسكر في هذه المناطق ، وكان حوالي ١٠٠,٠٠٠ منها قوات إمبراطورية فرنسية : على أن هذه القوات ظلت عاطلة ، لأن الدوائر العليا للحلفاء رفضت بصورة منتظمة كل الخطط القاضية بالقيام بعمل في البلقان . والآن لنا أن نتساءل ، ما هو الموقف في البلدان العربية وفي فلسطين في ذلك الوقت ؟

الموقف في سوريا ولبنان

في سوريا ولبنان استغل الفرنسيون الموقف لتدعيم سيطرتهم السياسية . فقد أوقف المندوب السامي بيو Puaux الدستور السوري حتى قبل نشوب الحرب ، وكرر ذلك بالنسبة إلى الدستور اللبناني في ٢١ سبتمبر ، حين ركز سلطة مجلس الوزراء اللبناني في يد الوزير عبد الله بيهم ومستشاريه الفرنسيين ، وأعلن أن الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري الموالي للفاشية خارجان على القانون . وفي دمشق أغلق

النأى العربى القوى الذى كانت تنفق عليه ألمانيا . وحكم على القأة الشىوعىىن والقومىىن بالسجن لفترات طويلة . على أن الحكم الفرنسىىن اقتصرأ على تمأىد نشاط الأحزاب الوطنىة الكبرى : الكتلة الوطنىة وجماعة الدكتور شهىندر . وأعلن معظم الزعماء ولاءهم لفرنسا ، معربىن عن تعلقهم بالدمقراطية . ولكن جماهير الشعب كان يتملكها الخوف ، إذ كان الناس لا يزالون يذكرأون التجربة القاسىة التى مروا بها خلال الحرب العالمىة السأبة . حين تفشى الجوع والأوبئة والفزع . وسأد البلاد شك عام فى إنجلترا وفرنسا اللتى لم تحققا وعودهما . وكان يغذى سخط العرب ما كان من خىبة آمالهم فىما بىن عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ والتخلى لتركىا عز . الإسكندرونه . وكان للثورة الفلسطىنىة فى سوريا ولبنان رد فعل أقوى منه فى البلدان العربىة الأخرى . وغلب على الناس عدم الاكترأ ، ولم بكن بوجد إلا القلبل من النشاط السىاسى العلنى .

الموقف فى فلسطىن

كان موقف عرب فلسطىن مشابهاً . فالخرب الذى تسببت فىه الثورة وما فرضته قىادة الثورة على الناس من ضرائب وإجراءات تجنىد ، وهجرة كثر من الأغنىاء ، ومقاطعة العرب واليهأد بعضهم بعضاً ، والانعزال عن الأسواق الأجنبىة - كل هذا مما جعل الموقف صعباً بالنسبة إلى كل من العرب واليهأد . وكان مرجع شلل الحركة الوطنىة العربىة هو الانهيار الداخلى ، بالإضافة إلى الهزىمة التى لحقت بالثورة . وحين نشبت الحرب أعلن حزب الدفاع الوطنى (حزب النشاشىبى) وقوفه إلى جانب برىطانيا . وكان الأعضاء البارزون فى حزب الحسىنى بالخارج فى ذلك الوقت ، وكان مفتى القدس السأبق - الحاج أمىن الحسىنى الذى بارح البلاد فى أكتأبر ١٩٣٧ بقم فى بىروت مع عدد من أنصاره من أعضاء اللجنة العربىة العلىا . وفى أكتأبر ١٩٣٩ انتقل إلى بغداد الحاج أمىن وجمال الحسىنى وأمىن التسمى ، بالإضافة إلى القأة العسكرىىن للثوار : فوزى القاوقجى وعارف عبد الرزاق والشىخ حسن سلامة . ولم تحصل برىطانيا حتى على مساعدتهم الشفوىة خلال الحرب . ولكنها

لم تسع للحصول على مساعدة حزب النشاشيبي ، ربما بسبب جريها وراء السراب الخاص بالوصول إلى تفاهم مع المفتي .

أما بالنسبة إلى الشعب اليهودي فلم يكن ثمة مجال للاختيار فيما يتعلق بالفريقين المتصارعين . فبرغم مواصلة الحكومة البريطانية السياسة التي جاء بها الكتاب الأبيض ، فقد وافق كل اليهود - باستثناء أعداد قليلة في أقصى اليمين وأقصى اليسار - على تعضيد إنجلترا . وجمعت اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية والمجلس الوطني متطوعين للخدمة العسكرية تحت إشراف المنظمات اليهودية أو القيادة العسكرية البريطانية . وقد تجاوب حوالي ٢٥٪ من السكان اليهود . وكان كثير من يهود فلسطين مواطنين بولنديين سجلوا أنفسهم في القنصليات البولندية خلال الأيام الأولى من الحرب ، مطالبين بالانخراط في الجيش البولندي . وما لاشك فيه أن « التبعثة » التي أعلنتها المنظمات اليهودية كانت لها أيضاً أهداف سياسية غير مباشرة . ولقد كانت ثمة أيضاً أسباب سياسية مفهومة من وراء رفض الإنجليز للعروض اليهودية . ولم يسمح سوى لمجموعات صغيرة بالانضمام إلى الوحدات النظامية البريطانية : وحدتان مشتركتان من العرب واليهود ، وكتيبة كلها من الرواد اليهود - وقد بلغ عدد كل هؤلاء ١٠٧٠٠ يهودي و ٤٠٠ عربي . وإلى جانب ذلك كانت توجد اتفاقية بين إدارة الأمن البريطانية وبين القيادة العسكرية - التي كانت تشتمل على منظمات عسكرية يهودية غير شرعية - بخصوص الأعمال المحددة المرتبطة بطابع التمويه لدى الاستخبارات سواء في فلسطين أو في الخارج . وفي عام ١٩٤٢ لم يتعد التعاون البريطاني - اليهودي هذه الحدود . وظلت العلاقات بين الطرفين قلقة نسبياً لأن الحكومة البريطانية واصلت السياسة التي جاء بها الكتاب الأبيض ، وحين صدرت في فبراير ١٩٤٠ قوانين تنص على التشديد في تحديد شراء اليهود للأراضي ، جرت مظاهرات كبرى واصطدامات بالبوليس .

موقف مصر

كان الموقف الداخلى فى مصر ، الذى كان المركز الرئيسى للقوات المحتشدة وللقواعد العسكرية ، مصدر صعوبات مستمرة . وكان مرجع ذلك تداخل ثلاث قوى رئيسية هى السفارة البريطانية والقصر الملكى والوفد (الحزب السياسى الوطنى الشعبى) . وبعد نشوب الحرب واصل الملك سياسة إنبقاء الوفد خارج الحكم بالاتفاق مع السفارة البريطانية . وحين استقال محمد محمود تولى على ماهر رئاسة الوزراء ، وشكل وزارة ذات طابع وطنى وقفت منها بريطانيا موقف المعارضة . فقد تولى صالح حرب باشا وزارة الدفاع ، وتولى رئاسة أركان الحرب القومى المعروف عزيز على المصرى باشا . وطبقاً لما ذكرته المصادر البريطانية فيما بعد ، أخذ صالح حرب يقيم العراقيل فى وجه التعاون العسكرى بين مصر وبريطانيا . ووفقاً لما ذكره الجنرال ولسون - قائد القوات البرية البريطانية فى مصر - أشاد عزيز على المصرى بالعسكرية الألمانية أمام الضباط المصريين وقلل من شأن القوات البريطانية . فقد كان عزيز المصرى عدواً لبريطانيا ، وكانت له اتصالات بضباط يحكيون مؤامرة ضد إنجلترا . وكان الرأى العام المصرى بوجه عام ضد الاشتراك فى الحرب . - وقد ذهب البعض إلى أن مصر كان بإمكانها أن تحافظ على حيادها التام لولا تبعيتها لبريطانيا ، إذ أنهم رأوا أن مصر ليست لها مصلحة فى دخول الحرب . وكان كثير من كبار الزعماء قد عارضوا عقد معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وإنجلترا على اعتبار أنها تربط مصر بإنجلترا بصورة مطلقة حتى قبل اندلاع الحرب ^(١) . حقيقة إن بعض الدوائر كانت تصب جل اهتمامها على مهاجمة الحكومة المصرية ، إلا أن آخرين كانوا خصوماً ألداء لإنجلترا ، وكان أغلبية الوزراء ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء نفسه ، يعارضون اشتراك مصر فى

(١) عبر إسماعيل صدق باشا الذى كان على جانب كبير من الأهمية والنفوذ ، وأحد أقطاب الصناعة ،

عن هذا المعنى خلال مناقشات برلمانية جرت فى ٢٠ ديسمبر ١٩٣٨ .

الحرب^(١). ولم يقف في صف إعلان الحرب على ألمانيا في ذلك الوقت سوى أحمد ماهر شقيق رئيس الوزراء .

وفي ٣ سبتمبر قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا واعتقلت الرعايا الألمان . وأعلنت إيطاليا ومصر أنهما دولتان غير محاربتين .

وبرغم أن ثمة أدلة على أن بريطانيا كانت تهدف إلى ما هو أبعد من ذلك ، فإن هذا الموقف لم يكن ضد مصالحها الإمبراطورية . وقد بلغ تعداد الجيش المصري في سبتمبر ١٩٣٩ أربعين ألف مقاتل ، ومن المحتمل أنه لم يحتل سوى دور تافه في الخطط البريطانية . وبرغم ذلك فقد كان تعاون مصر العام أمراً هاماً بالنسبة إلى مجهود إنجلترا الحربي - وهذا هو السبب الذي من أجله رأى البريطانيون قبل كل شيء أن يقووا قبضتهم على الإدارة المصرية . ولم تتوقف الإجراءات التي اتخذتها مصر ضد الريخ عند قطع العلاقات الدبلوماسية ورحيل الهيئة القنصلية الألمانية (حتى ٢٠٠ شخص يتبعون بالحصانة الدبلوماسية) . واستمر اعتقال الألمان والاستيلاء على بنوكهم ومؤسساتهم بقدر طيب من الكفاءة ، لأن حاكمدار العاصمة رسل باشا كان إنجليزياً . ولكن التعاون بين البعثة العسكرية البريطانية وبين القيادة المصرية لم يستمر بصورة مرضية . ونشبت مصادمات كثيرة . وفي أوائل عام ١٩٤٠ أرغم رئيس الوزراء - تحت ضغط السفارة البريطانية - على إقالة عزيز على المصري من منصبه . ولم يوقف الوطنيون نشاطهم الهادف إلى الإفادة من الموقف الحربي لانتزاع وعد من البريطانيين بصدد المطالب المصرية . ومن هنا وجه رئيس المعارضة الوفدية - النحاس باشا - مذكرة إلى الحكومة البريطانية في أول أبريل سنة ١٩٤٠ طالب فيها بجلاء القوات البريطانية بعد الحرب ، وبدء المفاوضات حول مسألة السودان ، وأن تعد إنجلترا بتمثيل مصر في مؤتمر الصلح .

(١) يمبر نثر (S.N. Fisher: The Middle East, p. 481) عن رأى مخالف بصدد رئيس الوزراء المصري في ذلك الوقت . وفي أوائل عام ١٩٤١ أخبر الملك فاروق الوزير المفوض للولايات المتحدة في القاهرة فيش Fish بأن على ماهر كان قد وعد إنجلترا في مناسبات ثلاث بإعلان الحرب على ألمانيا ، ولكنه (فاروق) منعه من القيام بذلك . ولكن على ماهر كان له تأثير حاسم على الملك الذي كان يعتمد على آرائه اعتماداً يكاد يكون تاماً .

موقف العراق

ومن المحتمل أن مسألة إعلان الحرب على ألمانيا قد أثارت جدلاً أشد في العراق — فقد اعتقد المواليون لبريطانيا أن من المستحسن دخول الحرب بمجرد اشتراك تركيا التي كانت متحالفة مع العراق بمقتضى اتفاق سعد آباد . ولكن صغار الضباط — الذين كانوا بوجه عام معادين لإنجلترا — كانوا يخشون أن يرسلوا إلى جبهات القتال . وكان بعض الساسة ، وبخاصة رشيد عالي الكيلاني ، يودون الحصول على تنازلات حول فلسطين وسوريا كتمن لدخول العراق الحرب . ولكن حين قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا لم يعد باستطاعة العراق أن يتردد — وفي ٥ سبتمبر حذا حذو مصر . وبارح وزير ألمانيا المفوض ، دكتور جروبا ، البلاد — واعتقل الرعايا الألمان وسلموا للبريطانيين الذين أرسلوهم إلى الهند . وقد هاجم بعض القادة ، من أمثال رئيس الوزراء السابق جميل المدفعي ، تسليم الألمان للبريطانيين ، وأصدر العراق هو الآخر بياناً أعلن فيه أنه دولة غير محاربة .

وصدرت في مصر والعراق لوائح ومراسيم القصد منها وجوب تأكيد سلامة القوات والمواصلات البريطانية . وكان من المتوخى أن تطبق هذه اللوائح والمراسيم ضد عملاء ألمانيا .

وحين نشبت الحرب أبدى نوري السعيد ، الذي كان حينئذ رئيساً لوزراء العراق ، استعداداه لتنفيذ رغبات بريطانيا^(١) . ولكن مجلس الوزراء عارضه حين اقترح إعلان الحرب على ألمانيا (سبتمبر ١٩٣٩ وفبراير ١٩٤٠) . وقد أنعش وصول المفتي إلى بغداد الاهتمام بقضية فلسطين . وكانت الحكومة العراقية تمول نشاط الحاج أمين الحسيني . وقد اشتركت مع مجلس الوزراء المصري في الاتصال بالحكومة البريطانية حين وصلت مصر والعراق إلى اتفاق مع حزب الحسيني . وقد أدى وجود الفلسطينيين بوجه عام إلى تقوية العناصر المعادية

(١) قيل إن السفير البريطاني طالب بأن تسلّم قيادة الجيش العراقي إلى ضباط إنجليز ، كما قيل إنه طالب بفرض التعبئة العامة وإرسال القوات العراقية إلى فلسطين ومصر .

لبريطانيا في العراق ، وهي العناصر التي كانت الفئات التي كانت تتولى الحكم منها عرضة للتمزق بسبب نشوب صراعات حادة . وقد احتلت المسائل الدولية دوراً هاماً في هذه الصراعات ، ولكن كانت تغلب على الجميع المصالح الشخصية والشكليات ، على حين أن رجالاً اختلفت آراؤهم حول الحرب عملوا معاً في بعض الأوقات . وهكذا فحين أعاد نوري السعيد تشكيل وزارته في أواسط فبراير ١٩٤٠ ضم إليها الجنرال طه الهاشمي المعادي لبريطانيا وأشباهه في الاتجاه الصاعات الأربعة (الذين عرفوا باسم المربع الذهبي) ممن كانوا على اتصال بثلاثة ضباط عظام آخرين كانوا يعارضون سياسة نوري السعيد الموالية لبريطانيا . وبرغم قوة أثر الدعاية النازية ، لم تكن وجهات نظر الجماعات المعادية لبريطانيا قد تبلورت بعد ، وكانوا في بداية الحرب لا يعرفون شيئاً عن المفاهيم المتطرفة ، وقد اعتبروا الحرب « الفرصة الوحيدة » لتحقيق أمنهم بخصوص الوحدة العربية ، باعتبارها فرصة « يعلم الله وحده متى تتكرر » ، ولم يستبعدوا عقد اتفاق مع بريطانيا على أن يتم بشروطهم بطبيعة الحال . على أن الحاج أمين الحسيني أبدى وجهات نظر أكثر تطرفاً : فقد اعتبر انتصار بريطانيا ضد مصلحة العرب ، واعترف بضرورة تجنب الاشتراك في الحرب ضد بريطانيا . ولكنه ذهب إلى أن على العرب أن يقتدوا بالاتحاد السوفيتي واليابان وإيطاليا فيما لو عضدت هذه الدول الألمان ، وأن يقوموا بثورة عامة ضد الحلفاء .

وبرغم ذلك فلم يكن لدى بريطانيا من الأسباب ما يدفعها إلى أن تخشى الموقف في العراق طالما استمرت الحرب الوهمية .

موقف الملك ابن سعود

لم تقطع العربية السعودية علاقاتها الدبلوماسية مع الريع ، ولكنها لم تسمح بوجود وزير ألماني مفوض في جدة . وحاول ابن سعود ، الذي كان قد توصل منذ وقت قريب إلى عقد اتفاق سرى مع ألمانيا بخصوص تزويده بالأسلحة ، أن يبرر موقفه لبرلين . وفي ١٥ نوفمبر وجه خالد القرقيني خطاباً إلى فورمان رئيس ألمانيا المنترية

القسم السياسى بوزارة الخارجية الألمانية جاء فيه أن ابن سعود تلقى بالامتنان والرضى تقريره الخاص بصداقة القوهرر للعرب واحترامه لهم ، وأرفق به إعلان العربية السعودية موقفها الحيادى وأضاف أن الحكومة السعودية كانت تفكر فى أن تفتح قنصلية فى برلين حين تسنح الفرصة المناسبة^(١) .

يضاف إلى هذا أنه حين أرسلت الحكومة العراقية بعثة إلى اليمن فى فبراير ١٩٤٠ وفكر نورى السعيد فى القيام برحلة إلى الرياض فى مارس ، أكدت الحكومة السعودية لوزير إيطاليا المفوض أنها لا تود أن تعدل سياستها لصالح إنجلترا ، وطالبت بأن يذيع راديو بارى أو برلين أن العربية السعودية ترغب فى المحافظة على حيادها التام .

ولم يتمخض ما أملته حكومة الريخ من إقامة بعثة دبلوماسية فى العربية السعودية عن شىء ، فقد فشلت المحاولة الخاصة بذلك فى نهاية عام ١٩٣٩ وبداية عام ١٩٤٠^(٢) . وكان ابن سعود يرغب مخلصاً فى التأكد من حسن نية ألمانيا ، ولكنه حاول كذلك أن يتجنب القيام بشىء قد يغضب إنجلترا .

وفى فبراير ١٩٤٠ قدم فش - وزير الولايات المتحدة المفوض - فى القاهرة أوراق اعتماده فى جدة منفذاً بذلك قراراً صدر فى عام ١٩٣٩ بخصوص إقامة علاقات دبلوماسية بين العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية .

وحين بدأت الحرب العالمية الثانية حاولت البلدان العربية أن تحافظ على حيادها ، على أن يكون هذا الحياد من نوع خاص بسبب وجود القوات البريطانية فى مصر والعراق . لهذا لم تف البلدان العربية بكل مطالب الحلفاء ، وإن يكن البريطانيون لم يلحوا كثيراً لأن الحاجة لم تكن تدعو إلى ذلك .

وكان من المشكوك فيه أن يؤدى إعلان الحكومات العربية الحرب على ألمانيا إلى مساعدة إنجلترا كثيراً - إذ لا يجب أن ننسى أن اتخاذ مثل هذه الخطوة لم يكن يجد ترحيباً لدى قطاع كبير من سكان هذه البلدان .

(١) رسالة القريقين إلى سفير ألمانيا فى أنقرة - الرياض فى ١٥ نوفمبر ١٩٣٩ . طلب القريقين أن يرسل إلى فورمان رسالة مرفقة بهذا الخطاب .

(٢) قابل وزير الاقتصاد السعودى - باسم الملك - وزير إيطاليا المفوض ، وقدم له رجاء حكومته الخاص بأنها ستوضح لبرلين أن من المستحسن فى ذلك الوقت أن تتخل عن فكرة إرسال مبعوث إلى جدة .

وأدت انتصارات المحور إلى ضعفة هبة إنجلترا وفرنسا لدى العرب بشكل منتظم : ورغم ما كان يبدو من أن معظم الزعماء العرب كانوا مقتنعين في سبتمبر ١٩٣٩ بانتصار الحلفاء في النهاية . ورغم ذلك فإن عدم إمكان البلدان العربية الاعتماد على أى مساعدة خارجية بسبب بعدها عن ميادين القتال مما حتم عليها الاهتمام بعدم إغضاب بريطانيا - وقد لعب ذلك دوراً حاسماً . ومن هنا كان موقف البلدان العربية أسوأ مما كان عليه قبل نشوب الحرب .

ألمانيا والبلدان العربية

أما فيما يتعلق بألمانيا فن المعروف أن النظام النازى كان يستعد لأن يثنى على غزو بولندا بالهجوم في الغرب لسحق فرنسا وإرغام بريطانيا على التفاوض للصلح طبقاً لشروط هتلر . فحين جازف هتلر بشن الحرب على إنجلترا وفرنسا كان يعتقد أن ضخامة إمبراطوريتين ستكون مصدراً للضعف إلى حد ما . وفي مؤتمر القيادة العسكرية الذى انعقد في ٢٢ أغسطس في أوبر سالزبورج عبر الفوهرر عن وجهة نظره الخاصة بأن إنجلترا كانت مكتوفة الأيدي بسبب اضطراب علاقاتها مع إيطاليا في البحر المتوسط ومع اليابان في شرق آسيا ومع الشعوب الإسلامية في الشرق الأوسط . ولكن لا يبدو أن زعماء الريخ كانوا يعتقدون حينئذ أن استغلال إمكانات الشرق العربى كان يتطلب أن تتخذ ألمانيا إجراءات معينة .

وحين طال أمد الحرب ولم يستطع الألمان القيام بهجوم مباشر على الجبهات الغربية بعد انتصار سبتمبر ، رأوا أنهم مضطرون إلى الاهتمام بحشد الحلفاء لقبائهم في الشرق الأوسط . وفي ٢٣ نوفمبر أصدر هتلر أوامره إلى جنرالاته بأن يعدوا خططاً مختلفة للعمليات المحتملة القيام بها : ضد بلدان إسكنديناو والبلقان والشرق الأوسط . وتبين لنا يوميات الحرب التى سجلها الجنرال هالدر أن هيئة الأركان العامة بدأت القيام بدراسة العمليات اللازمة ، بما في ذلك حشد الإخصائيين في شؤون الشرقيين الأدنى والأوسط .

ويبدو أن ثمة ارتباطاً بين العمليات الحربية المتوقعة وبين الحصول على بعض

المواد شديدة الأهمية بالنسبة إلى آلة الحرب الألمانية : خام الحديد من السويد والبترول من رومانيا . وقد رأى الفوهرر في حشد قوات الحلفاء في الشرق الأدنى تهديداً للبلقان وبالتالي لتكوين الجيش الذي يلزمه الوقود السائل في الأحوال العادية . ويتضح لنا من الوثائق بوجه عام أن هدوء الموقف في البلقان كان من أهداف السياسة الألمانية ، وأن الخوف من تعكير السلام في هذه المنطقة كان مبعثه ليس فقط توقع هجوم الحلفاء بل موقف دول أوربية أخرى لم تكن مشتبكة حينئذ في حرب مع ألمانيا هي الاتحاد السوفييتي وإيطاليا . ومن المعروف الآن أن الحلفاء رفضوا خططاً كانت تقضى بإنزال قواتهم في البلقان ، بل لقد رفضوا الجهود الرامية إلى القيام بعمليات تخريبية في رومانيا — والسبب الرئيسي في ذلك هو الخوف من أثر مثل هذه العمليات في موقف إيطاليا . وبرغم ذلك فقد كان على برلين أن تعمل حساباً لاحتمال القيام بمثل هذه العمليات نتيجة لحشد قوات الحلفاء في الشرق الأوسط .

وقد حاول الألمان أن يمنعوا هذا الخطر ، ليس فقط بالقيام بإجراءات نشطة في البلدان العربية ، وهو ما لم يكن في إمكانهم في ذلك الوقت ، بل بإيجاد تهديد في أقصى مؤخرة حشد قوات الحلفاء . لهذا حاول الألمان أن يقنعوا الاتحاد السوفييتي باتخاذ إجراءات مضادة ضد حشد القوات البريطانية والفرنسية والتركية في الشرق الأوسط ، كما حاولوا أن يستغلوا في دعايتهم تزايد القوات السوفييتية فيما وراء القوقاز ، كما سعوا إلى إيجاد خطر على حدود الهند البريطانية ، باستخدام أفغانستان كقاعدة (١) . وكان الألمان يرغبون في ضمان مساعدة الاتحاد السوفييتي لهم في مناوئتهم الأفغانية . وقد أخبر براوشتنش — القائد العام للقوات البرية الألمانية — هالدر في أول يناير ١٩٤٠ أن الريخ كان مهتماً بتوجيه التوسع السوفييتي صوب البسفور وأفغانستان والهند ، مما يؤكد السلام في البلقان التي كانت ضرورية جداً بالنسبة إلى الألمان . وفي ٦ يناير أعد يودل مذكرة بعنوان « السياسة والمجهود الحربي في الشرق » وقدم كايثل ، القائد العام للقوات المسلحة

(١) نشبت الخلافات حول هذه الناحية بين قسم الشؤون الخارجية بالحزب النازي الذي كانت له علاقات بالحكومة القائمة وبين وزارة الخارجية التي كانت تحبذ تدبير انقلاب ينتهي بأن يتول العرش الأنفاي أمان الله الذي كان قد أرغم على التنازل عن العرش في عام ١٩٢٩ .

الألمانية ، هذه المذكرة إلى كبار المسؤولين في الريخ .

وتوضح هذه الوثيقة أن يودل كان يرى أن المحافظة على حيطة البلقان في صالح المجهود الحربى الألمانى : وذلك منعاً لشغل القوات الألمانية هناك - وكان من رأيه أن من المستحسن لإرغام الحلفاء على الاحتفاظ بجيش كبير في سوريا بإثارة أكبر قدر من المتاعب البريطانيين في الهند والبلدان العربية دون استعمال قوات ألمانية كبيرة . وقد استشف يودل أن الغرض الرئيسى من جيش الحلفاء في الشرق الأوسط هو غرض دفاعى ، بالإضافة إلى المحافظة على الأمن الداخلى . ولكنه اعترف في نفس الوقت بخطور فتح البريطانيين لجهة بلقانية جديدة حين تسنح الفرصة المناسبة . كما رأى أن من الأفضل جداً أن تتحول القوات السوفيتية في اتجاه جنوبى ، ولكنه كان يشك فيما إذا كان ذلك إجراء عملياً . وبرغم ذلك فإن يوميات هالدنر تبين أن أوامر أخرى قد صدرت متضمنة بياناً بخطط العمليات الحربية في البلقان والقوقاز ومعلومات أدق عن التحركات البريطانية في الشرق الأوسط .

وعلى ضوء معلوماتنا الحالية عن سياسة ألمانيا وخططها في فترة ما سعى بالحرب الوهمية ، يتضح لنا أنه لم يكن يوجد أساس للمخاوف البريطانية في ذلك الوقت بخصوص الهجوم على البلقان وتهديد الشرق الأوسط من الشمال . فالألمان حينئذ لم يكونوا ينوون أن يخلقوا متاعب في البلقان ، وقد قدروا هم أنفسهم أن موقف السوفييت لا يمكنهم من « خلق متاعب » في الشرق الأوسط . ولم يخن وقت خطط الحرب النازية في البحر المتوسط وقناة السويس وبلدان الشرق الأوسط إلا على أثر المواجهة التي جرت بين هتلر وموسوليني في ممر برنر في ١٨ مارس ١٩٤٠ حين اتضح احتمال دخول إيطاليا الحرب . وورد ذلك في تعليمات هتلر الصادرة بتاريخ ٤ أبريل ١٩٤٠ . وهذه التعليمات كانت تقتضى لإيطاليا في حالة دخولها الحرب : أن تشغل القوات البريطانية والفرنسية في المتوسط وأن تقطع المواصلات هناك بين الشرق والغرب وأن تضع حداً للتفوق البحرى البريطانى في شرق هذا البحر ، وبوجه خاص أن تغلق قناة السويس . كما كان على إيطاليا أن تنشط من قواعدها في شرق إفريقيا في القيام بأعمال ضد عمليات نقل الحلفاء في البحر الأحمر والمحيط الهندى .

وكان لايزال ثمة بعض احتمال إثارة القلاقل الداخلية في البلدان العربية .
وما لا شك فيه أن يودل كان يضع هذا في عين الاعتبار حين كتب مذكرته
المؤرخة ٦ يناير . ولكن حين نشبت الحرب ضعفت إلى حد كبير فرص ألمانيا في
القيام بنشاط سياسى وتخريبى وتجسسى . وكان الموقف مختلفاً بالنسبة إلى إيطاليا
التي لم تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا في عام ١٩٣٩ .

وآثرت مشكلة بخصوص موقف حكومة الريخ من الدول العربية التي كانت
قد قطعت علاقاتها السياسية بألمانيا وكانت من حيث المبدأ حليفة لبريطانيا .
وكان يجب بوجه خاص اتخاذ قرار بصدد نوع معاملة رعايا هذه البلدان الذين كانوا
يعيشون في ألمانيا أو في الدول التي كانت تحتلها .

وقد سبق أن ذكرنا أن وزارة الخارجية الألمانية بلغت وزيرى العراق ومصر
المفوضين أن الحكومة الألمانية لن تقوم بإجراء انتقامى إذا ما أرغمت حكومتاهما
على اتخاذ إجراءات معينة ضد الألمان في حالة نشوب الحرب . ففي هذه الحالة
كان يحب معاملة الدول العربية باعتبارها رهائن في يد إنجلترا . وبعد عام تقدم
الألمان بتأكيد مماثل - بل إن وزير مصر المفوض تسلم هذا التأكيد كتابة .
وقد وعد حكام ألمانيا بأنه سيكون بإمكان رعايا مصر - في حالة نشوب الحرب -
أن يبقوا في ألمانيا وأن يقوموا بأعمالهم العادية دون رقابة من البوليس إلا في نطاق
الحدود التي تنطبق على الرعايا الأجانب .

وكانت وراء كل ذلك أسباب مختلفة . فموقف الحكومة الألمانية العام
تجاه العالم العربى قد لعب دوراً بهذا الخصوص ، وذلك بسبب العداء الواضح
الذى أبداه العرب لكل من إنجلترا واليهود . ولا يجب أيضاً أن ننسى أن عدداً
معيناً من الرعايا الألمان كان يقطن البلدان العربية وفلسطين . وفي مصر كان
يوجد في الأصل حوالى ٢,٠٠٠ ألمان استطاع حوالى ١,٦٠٠ منهم أن يهاجروا
إلى بلاد قبل أو بعد نشوب الحرب بوقت قصير . كما أن عدداً كبيراً من الألمان
المقيمين في فلسطين استطاعوا الخروج تاركين زوجاتهم وأطفالهم والراهبيات
وأعضاء في الهيئات الدينية وما يزيد قليلاً على ١٠٠ من الرجال اللاتنيين للخدمة
العسكرية . وقد تم القبض على هؤلاء ورحل بعضهم بعد ذلك ، ولم يعد منهم

أحد . وليست لدينا معلومات عن عدد الألمان الذين كانوا يقيمون في العراق . ولكن لم يبق منهم سوى عدد قليل جداً بعد نشوب الحرب . وربما توقع النازيون أنه سيكون بإمكان الرعايا الألمان في مصر والعراق أن يقوموا بعد وقت قصير بتنفيذ بعض المهام الموكولة إليهم .

وقد نقض الألمان الوعد الذى قطعه بعدم القيام بإجراءات انتقامية .

فى مصر تم القبض على حوالى ١٢٠ من الرعايا الألمان فى أوائل سبتمبر ولكن سرعان ما أفرج عن معظمهم وسجن لمدة شهر ما لا يزيد على ١٩ منهم . وكان من بين هؤلاء عدد كبير من مسئولى الحزب النازى الذين كانوا يعملون بصفهم موظفين فعليين أو تحت ستار القنصليات الألمانية أو كمبعوثين خلال الفترة التى بلغ فيها التوتر الدولى أقصاه قبل اندلاع الحرب . وردت ألمانيا على إجراءات القبض هذه بأن حرمت على الرعايا المصريين مباحرة البلاد واحتجزت أعضاء هيئة البعثة الدبلوماسية المصرية ، الذين طلب منهم بعد ذلك أن يسجلوا أسماءهم فى دوائر البوليس وحددت أماكن إقامتهم شأنهم فى ذلك شأن رعايا البلدان التى دخلت الحرب ضد ألمانيا . ولم يسفر تدخل السفارة الإيطالية عن أى نتائج . وحين لم تؤد هذه الإجراءات إلى الإفراج عن النازيين فى مصر شددت الحكومة الألمانية ضغطها على الرعايا المصريين . وتقدمت وزارة الخارجية الألمانية إلى هملر - بصفته قائد قوات العاصفة التابعة للريخ ومدير البوليس - باقتراح يتضمن القيام بعمل انتقامى عند اعتقال الألمان أو القبض عليهم فى مصر وفلسطين واتحاد جنوب شرقى إفريقيا . وذلك بالقبض على عشرة رعايا لكل من هذه الدول . وذكرت وزارة الخارجية الألمانية بوجه خاص اسمى مواطنين مصريين هامين هما الدكتور حلمى - وكان طبيباً . والدكتور كوتا Cotta رئيس الغرفة التجارية الألمانية - المصرية فى قائمة أسماء من يجب اعتقالهم (برغم أن الدكتور كوتا قد أبدى خضوعاً واضحاً للحكومة الألمانية) . وقد قلت فاعلية هذه الطلبات فيما بعد .

حينئذ بدأ تبادل وجهات النظر بين ألمانيا ومصر عن طريق المفوضية السويدية فى القاهرة (التى كانت ترمى مصالح ألمانيا هناك) والمفوضية الأفغانية فى برلين (التى وافقت على أن تقوم برعاية المصالح المصرية فى ألمانيا) والصليب الأحمر

الدولى فى جنيف. كذلك تدخلت السفارة الإيطالية- التى كانت تهدف إلى تأكيد علاقاتها الودية بالبلاط الملكى المصرى - لدى وزارة الخارجية الألمانية . كما تدخل وزير إيران المفوض فى برلين . وفى ١٢ مايو قرر رييتروب فى النهاية أن يطلق سراح المصريين المعتقلين^(١) .

(١) يبدو أن إطلاق سراح الرعايا المصريين قد تأخر بسبب طيران رودلف هيس إلى إنجلترا .
 وكان هيس مهتماً بمسألة هؤلاء الرعايا .

الفصل الخامس

سقوط فرنسا

وتصريحاً ٢٣ أكتوبر و٥ ديسمبر ١٩٤٠

فى ١٠ يونية ١٩٤٠ أعلنت إيطاليا الحرب على إنجلترا وفرنسا ، وبهذا أصبحت البلدان العربية مناطق لخطوط القتال . ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر المتوسط والشمال الإفريقى مراكز هامة للعمليات الحربية التى استمرت طيلة ثلاث سنوات . وكانت مصر مجاورة للمستعمرة الإيطالية فى برقة وطرابلس ، على حين أن الأملاك الإيطالية على البحر الأحمر — أى الحبشة والصومال — كانت تشكل خطراً ما على شبه الجزيرة العربية والسودان وكذلك على المواصلات البريطانية على طول البحر الأحمر .

وحين دخلت إيطاليا الحرب كانت العلاقات الإنجليزية — العربية تواجه تغييرات هامة . فقد كان للهزائم الأولى التى حلت بقوات الحلفاء : ثم لسقوط فرنسا ، أثر ضخم فى البلدان العربية . واعتبر كثير من العرب النصر المحورى أمراً مؤكداً بعد وقت قصير .

سقوط وزارة على ماهر باشا

حدث تغيير واضح جداً فى إتجاه الدوائر الحاكمة المصرية إزاء بريطانيا فى الوقت الذى تعرضت فيه مصر لخطر الغزو الإيطالى المباشر ، وقوبل طلب بريطانيا الخاص بأن تعلن مصر الحرب على إيطاليا بعدم الاكتراث . ولم توافق حكومة على ماهر باشا ، الذى كان حينئذ زعيماً لأتباع القصر ، إلا على قطع العلاقات الدبلوماسية . ولكن وزير إيطاليا المفوض — ما تزولينى — نباطاً فى الرحيل عن مصر . كما اعترضت اعتقال الإيطاليين المشبوهين بعض الصعاب — وكان يوجد بالبلاد حوالى ٦٠,٠٠٠ إيطالى كان عددهم يزيد كثيراً على عدد الألمان ،

وكانوا أوثق صلة بسكان البلاد . وحدث أحياناً أن أطلق الوزراء سراح المعتقلين . وماطلت السلطات بوجه عام فى اتخاذ إجراءات ضد الإيطاليين . وحتى قبل دخول إيطاليا الحرب صرح على ماهر (باشا) ، فى رده على استفسار رسمى من لندن ، بأن حكومته ستنفذ كل الالتزامات التى نصت عليها المعاهدة ، وذلك فى حالة إعلان إنجلترا الحرب على إيطاليا ، ولكنها لن تعلن الحرب على إيطاليا إلا إذا شنت هجوماً على مصر . وفى أواسط مايو بعث على ماهر برسالة مماثلة إلى وزير إيطاليا المفوض مازولينى . ولما كانت القاهرة تود أن تحول دون قيام إيطاليا بأعمال حربية داخل الأراضى المصرية ، فقد كررت هذا التأكيد عدة مرات ، واستغل على ماهر كل الفرص المواتية للتعبير عن كرهه لإنجلترا . ومن الواضح أن الحكومة المصرية كانت تود تجنب أى إجراءات قد تمس حيدة مصر . وحين دخلت إيطاليا الحرب بالفعل أصدرت الحكومة المصرية تصريحاً غير محدد جاء فيه أنها كانت تدرس الموقف من زاوية مصالح مصر وطلبت من الشعب أن يلتزم الهدوء ويحافظ على النظام . وفى ١٢ يونية قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا ، ولكن رئيس الوزراء أدلى فى نفس اليوم بتصريح فى جلسة مقفلة للبرلمان جاء فيه :

١ — أن مصر ستبقى مخلصه لمعاهدتها مع إنجلترا وستقدم كل المساعدات اللازمة ولكن داخل حدود البلاد فقط .

٢ — لن تشترك مصر فى الأعمال الحربية إلا

(أ) إذا اعتدت القوات الإيطالية على الأراضى المصرية .

(ب) إذا قذفت المدن المصرية بالقنابل .

(ح) إذا هوجمت المنشآت الحربية من الجو . وقد تكرر تأكيد هذا الإعلان

فى مذكرة بعثت بها الحكومة المصرية إلى روما جاء فيها أن الهجوم الجوى على المنشآت الحربية البريطانية لن يعتبر عملاً عدائياً موجهاً ضد مصر . وحين أغار الإيطاليون على السلوم ومرسى مطروح ، وسقط بعض الضحايا من المصريين ، أعلن على ماهر فى ١٧ يونية أن هذه المصادمات ستعتبر حوادث حدود من الممكن تسويتها بالطرق الدبلوماسية .

ومن المحتمل أن هذا التصريح قد صدر بالاتفاق مع إيطاليا . وفى الواقع

إن قطاعات واسعة من السكان لم تحبذ إعلان الحرب على دول مجرد كونها أعداء لبريطانيا . فلو أن مصر أقامت حيثئذ أى اتصال مع ألمانيا ، فمن المفهوم أنه كان سيقتصر على وزارة الدفاع الألمانية وليس على مستوى سياسى .

وقد توصل البريطانيون إلى الرأى الخاص بأن الملك ووزارة على ماهر سيتبعون فى أحسن الأحوال سياسة القصد منها طمأننة إيطاليا . وكان لابد لفاروق وأنصاره فى الحكومة أن يدركوا قلة أعداد القوات البريطانية المرابطة فى الشرق الأوسط . وفى ظل هذه الظروف لجأ مجلس وزراء الحرب البريطانى إلى الضغط الدبلوماسى على فاروق . وأجرى السفير البريطانى سير مايلز لامبسون (لورد كيلرن فيما بعد) عدة مقابلات مع المسئولين المصريين وقايل الملك . واستقال على ماهر بعد ذلك بقليل (٢٣ يونية) . وفى ٢٧ يونية عهد الملك إلى حسن صبرى بتشكيل وزارة لم تكن أحسن وزارة ممكنة من وجهة النظر البريطانية . وسحبت الحكومة البريطانية بدورها طلبها السابق الخاص بضرورة إعلان مصر الحرب على إيطاليا . وبإمكاننا أن نستشف الكثير على الأقل من التصريح البريطانى الذى صدر فى ٢١ يونية ١٩٤٠ ، وأنكر أى نية فى إرغام مصر على إعلان الحرب إلا إذا تعرضت مصر للهجوم من جانب العدو المشترك . وطبقاً لهذا التصريح لم تكن إنجلترا ترغب إلا فى تنفيذ معاهدة ١٩٣٦ . لهذا طلبت من الحكومة المصرية أن تتخذ إجراءات ضد أى نشاط من شأنه أن يضر بالمجهود الحربى البريطانى (١)

وكررت الحكومة الجديدة تأكيدها بأنها ستعلن الحرب إذا ما هاجمت إيطاليا مصر . وفى ١٣ سبتمبر ١٩٤٠ عبرت قوات إيطالية الحدود المصرية وتقدمت حوالى ٨٠ كيلومتراً صوب سينى برانى . ولكن المصريين لم يقوموا بما يزيد على إعلان حالة الطوارئ . واستقال أحمد ماهر ، ممثل السعديين فى الوزارة وزعيم الحزب . احتجاجاً على عدم إعلان الحكومة الحرب — وما يجدر ذكره أنه كان منذ البداية ينادى بدخول مصر الحرب إلى جانب بريطانيا . وكان أحمد ماهر مؤمناً بانتصار بريطانيا . وقد أوضح فى خطبة أدلى بها فى ١٩ سبتمبر ١٩٤٠

(١) صرح سير مايلز لامبسون لوزير الولايات المتحدة المفوض فى أغسطس ١٩٤٠ بأنه لا يصر على أن تعلن مصر الحرب على المحور .

بأن مصر لن تكون جديرة بالاستقلال إذا لم يشترك المصريون في الدفاع عن أنفسهم . ولكن أغلبية الساسة المصريين وعلى رأسهم الملك (الذى كان محبوباً في ذلك الوقت ولعب دوراً رئيسياً في تشكيل السياسة) لم يوافقوا على وجهة النظر هذه . ونهربت الحكومة باستمرار من إعلان الحرب على المحور ، مصطنعة حجة جديدة في كل مرة ، وأبدت عدم حماسها لقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول الدائرة في فلك المحور الذى كان يمثلوه في مصر يشكلون مصدراً هاماً للمعلومات بالنسبة إلى برلين وروما . ولكن بريطانيا كانت لاتزال قانعة بالموقف المبني تتجنب اجمال نشوب أزمة أخطر — فقد كان من شأن هذه الأزمة أن تؤدى إلى شل قوات كبيرة لفترة غير محدودة . وبرغم ذلك فإن تحركات خصوم بريطانيا في مصر كانت محدودة جداً بسبب حشد القوات البريطانية في البلاد .

قيام وزارة جديدة في العراق

وكان الموقف مخالفاً في العراق الذى كان بعيداً جداً عن مسرح العمليات الحربية . كانت تعسكر في العراق قوات بريطانية قليلة نسبياً ، معظمها من القوات الجوية . وخلافاً لما كان عليه الحال في مصر ، كانت القوات البريطانية في العراق متمركزة في موضعين فقط : الحبانية والشعبية . وكان الجيش العراقي أقوى من الناحية العددية (حوالى ٦٠ ألف مقاتل) كما كان مزوداً ببعض الطائرات . وكان النفوذ البريطاني المباشر في الدوائر الحكومية أضعف منه في مصر ، بحكم أن العراقيين أمكنهم أن يحرزوا من النجاح قدراً أكبر مما أحرزه المصريون فيما يتعلق بالتخلص من نفوذ المستشارين وكبار الموظفين الإنجليز .

وبدت الأزمات السياسية المتكررة في البلاد منذ عام ١٩٣٦ في تدخل الجيش في الحياة السياسية إلى جانب نواح أخرى . وكان السبب المباشر للأزمة التي نشبت في أوائل عام ١٩٤٠ هو مقتل وزير المالية حيدروستم الذى كان من أبرز أعضاء الوزارة . وظل ضباط الجيش من مختلف المشارب يتآمرون حيناً مع أحد الساسة وحيناً مع آخر . وفي أوائل عام ١٩٤٠ كانت هذه المؤامرات تتصل في المحل الأول بالمشكلات

الداخلية ، ولم تكن تتصل كثيراً بالسياسة العالمية .

وفي ٣١ مارس استقال نوري السعيد وتألقت وزارة جديدة يرأسها رشيد عالي الكيلاني . وفي هذه الوزارة تولى نوري السعيد وزارة الخارجية وتولى طه الهاشمي وزارة الدفاع ، وناجي شوكت العبدلية وناجي السويدي المالية وعمر نظمي الشؤون الاجتماعية . وقد حكمت هذه الوزارة العراق في الوقت الذي سقطت فيه فرنسا ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب هتلر .

وبعد أن تولى رشيد عالي رئاسة الوزارة ، وكان من أقدم معارضي المعاهدة العراقية - البريطانية ، لم يعلن صراحة مناصرته لإجراء تعديل في السياسة الخارجية . وقد احتوى البيان الذي قدمه للبرلمان في ٦ أبريل على بعض التصريحات الغامضة بشأن السياسة الخارجية . وبما جعله يتبع هذا التكتيك أن الرأي العام : وبخاصة الأندية الوطنية المتطرفة المساندة للحكومة ، كانت قد غدت أكثر ميلاً إلى المشاعر المعادية لبريطانيا . وقد نما هذا الاتجاه في الشهور التالية حين كانت دول المحور تبرز نصراً بعد آخر . أما الجماعات المناهضة بالوحدة العربية ، وكانت قوية في العراق ، فقد اشتد ميلها الصريح إلى المحور الذي كان يشبهها في عدم إقراره للأوضاع القائمة . وفي ظل هذه الظروف كان رشيد عالي قد غدا الناطق بلسان الاتجاه المعادي لبريطانيا .

وبما يبين مدى قوة تأثير هزائم الحلفاء في الساسة العراقيين أن نوري السعيد ذاته الموالى لبريطانيا أخذ يسعى إلى إقامة اتصالات في ذلك الوقت مع المحور^(١) . وبرغم ذلك فإن نوري السعيد وأمين زكي كانا من حيث المبدأ يميلان إلى مساندة بريطانيا . على حين كان طه الهاشمي وناجي شوكت أميل إلى النازيين . هذا إلى أن مفتي القدس السابق الحاج أمين الحسيني كان عاملاً سياسياً هاماً في البلاد . وقد كتب وزير الولايات المتحدة المفوض في بغداد مايلي : « أما فيما يتعلق بالمفتي فإن تحرياتي تقنعني بأنه أكثر الناس احتراماً ونفوذاً في العراق الآن ، سواء

(١) حداد : حركة رشيد عالي الكيلاني : صيدا ١٩٥٠ ص ١٦ - باين إلى ريبنتروب ، ٢ أكتوبر ١٩٤٠ . وناقش مجيد خضوري هذه المسألة باستفاضة في مجته التال :

في الدوائر الدينية أو السياسية .. لقد أحرز أنصاراً كثيرين في سوريا وفلسطين ، وهو الآن يحرز نفوذاً مشابهاً في العراق . ومن ثم فإنه في سبيله إلى أن يصبح قوة يجب أن يعمل لها حساب في العالم العربي » . وفي بغداد أقام الحاج أمين علاقات مع الفئة العسكرية . وكان يؤثر تأثيراً قوياً في الأحداث السياسية .

وهكذا انزلت الفئة الموالية لبريطانيا في الحكومة . وحين أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا ، رفضت الحكومة العراقية أن تقطع علاقاتها السياسية مع روما ، برغم الجهود التي بذلها السفير البريطاني سير باسل نيوتن (وكان قبل ذلك سفيراً في براغ) . وقد أفرج بعد قليل عن الإيطاليين المعتقلين الذين لم يكونوا كثيرين وأصبح لهم حق الرجوع إلى بلادهم . واستقال أمين زكي احتجاجاً على ذلك .

وهكذا بقي وزير إيطاليا المفوض جابرييلي في بغداد ، وبذلك حافظت الحكومة العراقية على احتمال الاتصال بالبحر . وكان لذلك أهمية كبرى ، لأن مناقشة حادة جرت في مجلس الوزراء على أثر سقوط فرنسا حول الموقف الواجب اتخاذه إزاء إنجلترا . فقد ساد الاعتقاد بأن هزيمة إنجلترا رهن بالمستقبل القريب . ورأى مفتى القدس والفئة المهيمنة المتكونة من ضباط الجيش وأغلبية الوزراء أن من الضروري الالتزام بموقف الحياد التام إزاء الحرب وتنفيذ الحد الأدنى من الالتزامات التي كانت تنص عليها المعاهدة الإنجليزية العراقية . وقد شجع سقوط فرنسا اللاجئين السوريين في بغداد وأصدقاءهم العراقيين المناصرين للوحدة العربية . وكانت فكرة القيام بثورات في سوريا ضد الفرنسيين تجد ترحيباً واسع النطاق في هذه الدوائر . كما كان المفتى شديد الاهتمام بإشعال جذور الثورة في فلسطين ، ولهذا أرسل مبعوثيه إليها في مايو ويونيه لتنويه روح أتباعه المعنوية وسبر غوراحتمالات الثورة . وفيما يتعلق بكلتا المسألتين : الموقف الواجب اتخاذه إزاء الحرب ، وإشعال الثورة في سوريا ، كان ضباط الجيش والزعماء المدنيون يريدون أن يجرؤوا مشاورات مع تركيا بصفتها حليفاً للعراق وبريطانيا وباعتبارها دولة مجاورة لسوريا .

زيارة ناجي شوكت لتركيا

وفي ١٩ يونية أعلنت الحكومة العراقية رسمياً أنها سترسل وفداً إلى تركيا التي اشتركت مع العراق في توقيع ميثاق سعد آباد - لمناقشة بعض المشاكل السياسية العاجلة . وكان الوفد يضم نوري السعيد وناجي شوكت اللذين كانا يمثلان الاتجاهين المتطرفين المتعارضين في الحكومة واللذين وصلا إلى أنقرة في ٢٤ يونية حيث استقبلهما وزير الخارجية التركية سراج أوغلو .

وحيث ادخلت إيطاليا الحرب ، لم تنفذ تركيا التزامها طبقاً لمعاهدة أكتوبر ١٩٣٩ . وبدلاً من ذلك نجدها تعلن أنها لن تشارك في الحرب ، محاولة تبرير موقفها بأنها قد وقعت معاهدة مع كل من إنجلترا وفرنسا ، على حين أن إنجلترا وحدها كانت حينئذ في حرب مع المحور . ولكن من المعروف أن تركيا كانت تبدي قلقها من التوسع الإيطالي في شرق البحر المتوسط ومن ازدياد قوة ألمانيا من الناحية العسكرية . ولم يبد أن باستطاعة الأتراك أن يقدموا للعراقيين نصيحة واضحة خلال هذه الظروف . وإذا ما جاز لنا أن نصدق نوري السعيد نجد أن سراج أوغلو ينصح بضرورة تصريح العراق بأنه لن يشارك في الحرب ، شأنه في ذلك شأن تركيا . وبعد أسبوع من المشاورات رجع نوري السعيد وواصل ناجي شوكت تنقله ، فتوجه إلى الآستانة تحت ستار العلاج وقابل وفون بابن الذي اتصل به عن طريق وزير الخرج المفوض زلتان دي مارياسى Zoltan de Mayiassy . وكان شوكت يحمل خطاب توصية من مفتي القدس السابق باسم اللجنة العربية العليا ، وفي هذه الرسالة هنا الحاج أمين هتلر على انتصاراته ورجاه أن يناقش زعماء الرينخ مع ناجي شوكت المسألة العربية ومستقبل فلسطين والتعاون بين ألمانيا والعرب بوجه عام . كما عبر عن أمله في أن يؤدي انتصار ألمانيا في النهاية إلى أن يتوصل العرب إلى « الاستقلال والتحرير التامين وأن يحققوا وحدتهم » . وعرض عقد معاهدة صداقة وتعاون مع الرينخ .

وجرت محادثة بين ناجي شوكت وفون بابن في ٥ يولية ١٩٤٠ بحضور

سايلر Seiler الذي كان حينئذ قنصلاً عاماً لألمانيا في تركيا . وقد اعتذر شوكت لقطع العراق علاقاته بألمانيا ، وأشار إلى سياسة حكومته في ذلك الوقت بصدد مواصلة العلاقات مع إيطاليا ، وأكد الاتجاه الوطني لمجلس الوزراء العراقي ورغبته في تحرير العراق من السيطرة البريطانية . ورداً على ملحوظة أدلى بها باين ، وعد المبعوث العراقي بحذر بأن يحارب جيش العراق إلى جانب ألمانيا في الوقت المناسب . وصرح شوكت بأن بإمكان الألمان أن يبادروا إلى تعضيد قيام حكومة وطنية في سوريا ، وحذر من احتمال احتلال البريطانيين لسوريا ، وأكد لفون باين أن ثورة عربية ستشب في فلسطين .

وقد تمشى فون باين مع وجهات النظر السائدة في ألمانيا في ذلك الوقت ، فصرح بأن تطور الموقف في الشرق الأدنى من اختصاص إيطاليا في المحل الأول ، وأن الريخ سينقل رغبات العرب إلى روما . ولم ينكر ناجي شوكت خوف العرب من الاستعمار الإيطالي ، وأوضح أن ألمانيا ستستغل نفوذها في روما للتوصل إلى حلول تمشي مع مصالح الحركة القومية العربية . كما قدم مندوب العراق اقتراحاً بمواصلة المحادثات في أنقرة بين وزير العراق المفوض كامل الكيلاني (شقيق رئيس الوزراء) وبين دكتور جروبا . وكان من المتوخى أن يكون الموضوع الرئيسي هو مسألة إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين . كما أثارت الحكومة العراقية هذه المسألة لدى وزير إيطاليا المفوض في بغداد .

النشاط الدبلوماسي في بغداد

قامت حكومة بغداد بنشاط دبلوماسي مستمر أثناء إقامة ناجي شوكت في تركيا . وقد اتفق رشيد عالي مع المفتي ومع الصاعحات الأربعة الذين كانوا يشكلون المربع الذهبي . ورجا الجميع وزير إيطاليا المفوض لويجي جابرييلي أن يحمل حكومته على إصدار تصريح تؤكد فيه عطفها على أمان العرب القومية . وبعد أن وضع جابرييلي نصب عينيه الصراع بين الكتلتين الممثلتين في الحكومة العراقية أدلى بالتصريح الكتابي التالي :

« كلفني سمو الكونت شيانو، وزير الخارجية الإيطالية، بأن أبلغ سموكم بأن إيطاليا، نمشياً مع السياسة التي اتبعتها حتى الوقت الحاضر، تهدف إلى ضمان استقلال سوريا ولبنان التام وتماجية أراضيها، وكذلك الحال بالنسبة إلى العراق والبلدان الواقعة تحت الانتداب البريطاني. ولهذا فإن إيطاليا ستقف ضد أي ادعاءات المستقبل من جانب بريطانيا أو تركيا للتوسع الإقليمي سواء في سوريا أو لبنان أو العراق ».

وفي نفس الوقت اتخذ أغلبية الوزراء العراقيين موقفاً متشدداً إزاء تنفيذ الالتزامات التي نصت عليها معاهدة ١٩٣٠ المعقودة مع إنجلترا، وحاولوا أن يجعلوا منها أداة للمساومة حول مطالب الوحدة العربية. وكانت بريطانيا من ناحيتها ترغب في كسب جانب العراق لكي تقنعه بالاشتراك في الحرب بصورة أكثر فاعلية، وبوجه خاص لكي يوافق على إرسال بعض قواته إلى مصر.

وفي ٢١ يونيو طلب سير باسل نيوتن من بغداد أن توافق على نزول قوات بريطانية في ميناء البصرة، كان من المتوخى أن تنقل منها عبر الأراضي العراقية إلى حيفا في فلسطين. ولما كانت الحكومة العراقية لاتود الموافقة، فإنها قررت تطبيق المعاهدة الإنجليزية - العراقية بشكل أكثر صرامة^(١). وفي أول يولية وجه العراق مذكرة إلى السفارة البريطانية وافق فيها على نزول القوات البريطانية إلى البصرة، ولكنه تحفظ حين طلب تحديد عدد هذه القوات والوقت الذي تبقى خلاله على الأراضي العراقية - إلى غير ذلك. وأخيراً تمت الموافقة على إمكان نزول القوات البريطانية إلى أرض العراق، على ألا يكون لها حق البقاء هناك، وعلى ألا يكون بإمكانها بأي حال من الأحوال أن تحتشد في تشكيلات كبيرة.

كما نشط الساسة العراقيون الموالون لبريطانيا والإنجليز المناصرون لاتباع سياسة أميل إلى العرب في مساومة الحكومة البريطانية بصدد المطالب العربية،

(١) لما كانت الحكومة البريطانية واثقة في قوتها وفروضاها، فإنها لم تحارل وضع صيغ محددة لمعاهداتها مع البلدان العربية. فقد كانت ترى أن باستطاعتها تفسير النقاط الغامضة بما يتشئ مع رغباتها. وكان هذا أيضاً هو الموقف فيما يتعلق بمسألة تخطيط الحدود الجنوبية للعربية السعودية حيث تقع واحة البوريحي التي هي الآن موضع نزاع. انظر:

وقد أوضح الجانب العراقي أنه على استعداد للتمشي مع رغبات بريطانيا ولكن بشرط أن تستقل سوريا وينفذ الكتاب الأبيض الخاص بفلسطين ويزود العراق بالأسلحة الكافية . وقد انتشرت أشكال عدة لهذه المطالب حين زار العراق الكولونل نيوكومب S.F. Newcombe وهو من موظفي وزارة الدعاية البريطانية ، وكان قد لعب دوراً في الثورة العربية التي نشبت إبان الحرب العالمية الأولى . وربما كانت هذه المحاولة هي آخر المحاولات التي قامت بها الحكومة البريطانية لإقناع المفتي السابق وغيره من الزعماء الفلسطينيين المقيمين في العراق بقبول الكتاب الأبيض الصادر في ١٧ مايو ١٩٣٩ . وفي المحادثة التي جرت بين نيوكومب وجمال الحسيني (ابن عم الحاج أمين) ونوري السعيد وضعت خطة لإقامة حكومة وطنية في فلسطين . وفي مقابل ذلك كان على حزب الحسيني أن يتعهد بمساندة بريطانيا في الحرب ، وكان على العراق أن يعلن الحرب على المحور وأن يعد كتيبتين للاشتراك في القتال الدائر في الصحراء الغربية .

وجرت مقترحات عدة حول مسألة سوريا التي انتشرت الإشاعات حول احتمال احتلال الجيش العراقي لها . كما بحث احتمال مطالبة حكومة فيشي بإعادة الأحوال كما كانت قبل يولية ١٩٣٩ حين عطل الدستور السوري . واحتلت قضية فلسطين مركز الصدارة في محادثات بغداد . فقد رأى الساسة العرب الموالون لبريطانيا والشخصيات البريطانية الموالية للعرب أن قضية فلسطين هي أساس كل المصائب التي تزعزع العلاقات الإنجليزية - العراقية وتضعفها . ولكن الحكومة البريطانية لم تكن على استعداد لتقديم أي تنازلات أخرى بصدد فلسطين . فقد سقطت وزارة تشامبرلن التي أصدرت الكتاب الأبيض ، وكان قد سبق لونستون تشرشل ، الذي أصبح رئيساً للوزارة الائتلافية ، أن وجه النقد الشديد إلى هذه الوثيقة . وربما كان العامل الرئيسي الذي أثر في موقف الحكومة البريطانية هو شدة معارضة سكان فلسطين من اليهود للإصلاح الدستوري الذي نص عليه الكتاب الأبيض . وكان عدم تطبيق هذا الإصلاح هو الذي جعل الصهيونيين لا يقومون بثورة علنية . وفي ٢٩ أغسطس رفضت الحكومة البريطانية مقترحات بغداد^(١) .

= G. Kirk, : The Middle East in the War, London, 1954, p. 64.

ولا نعرف ما إذا كان عدم الموافقة على مقترحات بغداد هو السبب الحاسم الذي جعل العراقيين من أنصار الوحدة العربية يبقون على علاقتهم بالمحور ، لأن قضايا أشمل من قضية فلسطين كانت قيد البحث بالضرورة - إذ أن المسألة كانت مرتبطة بوضع بريطانيا في كل البلدان العربية وليس في العراق وحده . ففي خلال هذه الفترة الخطيرة التي شهدت انتصارات ألمانية مستمرة وتهديداً مباشراً للجزر البريطانية ولوضع بريطانيا في الشرق الأوسط أدى ميل الساسة العرب إلى أن يلعبوا على كل من الطرفين إلى مساندتهم لأعداء بريطانيا ولوبصورة جزئية على الأقل . ورأى الساسة العرب أن من المحتمل . في ظل الموقف الدولي الجديد ، أن يتم تحرير العراق والبلدان العربية الأخرى وأن تتخذ خطوات صوب الوحدة العربية ، بالتوصل إلى اتفاق مع دولتي المحور . وأيضاً كان الأمر فإن مفتي القدس لم يعتمد على مفاوضات بغداد ولم يشترك فيها^(١) . وفي الواقع أن عثمان كمال حداد - سكرتير المفتي الشخصي - زار فون بابن (يجواز سفر صادر باسم توفيق على الشاكر) قبل حوالي ثلاثة أسابيع من صدور الرد البريطاني على مقترحات بغداد . وزار ناجي شوكت أنقرة مرة أخرى في أوائل سبتمبر بحجة إجراء فحوص طبية .

مفاوضات حداد مع الألمان

تحدث السكرتير الخاص للحاج أمين إلى فون بابن بصورة أكثر تحديداً من حديث ناجي شوكت في يولية. وقد أخبر سفير الريخ أن إيطاليا كانت بالفعل قد قدمت للحكومة العراقية تأكيداً مكتوباً يساند استقلال كل البلدان العربية الواقعة تحت الانتداب أو المفروضة عليها الحماية . وأوضح أن العراق يرغب في صدور تصريح مماثل من جانب ألمانيا حتى يستطيع بذلك أن ينعش العلاقات الدبلوماسية مع برلين.

= يعزوكبرك رحلة شوكت الثانية إلى أنقرة إلى رفض الحكومة البريطانية لمقترحات بغداد .

(١) بإمكاننا أن نستشف من الوثائق الألمانية ومن محادثة جرت بين المفتي السابق وبين مجيد خضوري في ٨ مايو ١٩٥٨ أن الحاج أمين كان يعارض إجراء محادثات مع نيوكومب . (Middle East Journal, 1962, p. 331) كما يمكننا أن نستشف من الوثائق الألمانية أن المفتي أعرب عن شكوكه إزاء موسى العلمي الذي اشترك في هذه المفاوضات .

وقد وعد حداد باسم حكومته بأن يتم إبعاد نوري السعيد عن الوزارة ، وأوضح أن بالإمكان إشعال ثورة في فلسطين يتم الإعداد لها في الأراضي السورية ، الأمر الذي من شأنه أن يقدم مساعدة أكيدة للمحور في نضاله ضد بريطانيا . كما أكد أن الجيش يسيطر بالفعل على العراق ، وأن ثمة اتفاقاً مع ابن سعود بشأن مسائل استقلال فلسطين وتنحية الأمير عبد الله وضم شرق الأردن إلى فلسطين . وكانت قوة الجيش العراقي ومسألة الوحدة العربية موضعاً لمزيد من المحادثات بين حداد وفون بابن^(١) . وقد كتب حداد أن العلاقات الإنجليزية العراقية قد تفاقمت لأن العراق رفض السماح للقوات البريطانية بالمرور عبر البلاد في طريقها إلى الهند . وبما كنا أن نتبين أن حداد لم يلتزم الصديق على طول الخط . وبعد أن حصل على إذن ألمانيا توجه إلى برلين عن طريق بودابست بجواز سفر صادر باسم ماكس مولر ، وبقي في برلين في بنسيون خاص (٦ شارع ونترفلد) .

وفي أغسطس وأوائل سبتمبر أجرى السكرتير الخاص للحاج أمين في برلين عدداً من المحادثات مع جروبا وملشرز Melchers وفايزساكر Weizsäcker . وقد قدم نفسه في المحادثات باعتباره ممثلاً للعالم العربي أو على الأقل للمشرق العربي . لهذا نجده يخبر الألمان بوجود لجنة تنسيق لكل البلدان العربية في العراق تحت قيادة المفتي . ووفقاً لما يذكره حداد كانت هذه اللجنة تتكون من رشيد عالي وناجي السويدي وناجي شوكت وكبار قادة الجيش والنائب يوسف السباعي - عن العراق ، وشكري القوتلي وزكي الخطيب وآخرين عن سوريا ، والسكرتير الخاص للملك ابن سعود ، ويوسف آل ياسين ، ومستشار الملك خالد القرقيبي عن السعودية ، والمفتي الذي كان يمثل فلسطين . ويذهب حداد إلى أن هذه اللجنة حاولت بعض الوقت أن تتصل بألمانيا ولكن دون طائل . وفي أواسط يونيو حاولت اللجنة أن تتصل بالألمان عن طريق الهيئات الدبلوماسية الإيطالية والأمير شكيب أرسلان المقيم في جنيف وكان على أرسلان أن يخبر الحكومتين الألمانية والإيطالية برغبة العراقيين في التعاون مع المحور^(٢) .

(١) عثان كمال حداد : حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ ، صيدا ، ١٩٥٠ ، ص ٢٥ -

٢٦ . كان مفهوم الوحدة العربية عند حداد ينصب على تنسيق السياسة الخارجية والدفاع والوحدة البحرية - إلى غير ذلك .

(٢) لم تلتق الحكومة الألمانية أياً رسالة بهذا الصدد .

وجرت محاولة أخرى عن طريق بعثة ناجي شوكت إلى أنقرة .

وقد قدم حداد صورة مشوهة إلى حد كبير للعلاقات القائمة في داخل اللجنة العربية ، ولا يحتمل أنه قام بذلك بمحض اختياره . والواقع أن مفتي القدس كان يقوم بنشاط واسع في بغداد ، حيث أقام اتصالات مع شخصيات سياسية هامة وحاول استمالة أنصار الوحدة العربية من العراقيين المعادين لبريطانيا والملايين السياسيين السوريين . وكان يحتل المكانة الأولى في قائمة معاونيه أنصاره الفلسطينيون الذين كانوا يشكلون هيئة أركانه التي تستحوذ على أكبر قدر من ثقته . عل أن « حداد » هون من شأن الدور الذي كان يلعبه الفلسطينيون — إذ أنه كان يرغب في أن يؤكد نفوذ المفتي في العالم العربي كله . ولنفس السبب ضم إلى اللجنة العربية بسهولة مندوبين عن العربية السعودية ، ربما بدون علمهما . ولم يكن رشيد عالي عضواً في تلك اللجنة أيضاً (١) .

وقد عبر السكرتير الخاص للمفتي عن شدة رغبة رؤسائه في صدور وثيقتين متشابهتين أو تضمهما مذكرة مشتركة . وقد أرفق بهما مسودة مثل هذا التصريح الذي كان يتضمن خمس نقاط :

١ — الاعتراف بالاستقلال . التام للبلدان العربية وبخاصة البلدان الواقعة تحت الانتداب أو الحماية الفرنسية أو البريطانية ، والتزام دولي المحور بعدم لجزءهما إلى وسائل قانونية أو وسائل أخرى للحد من استقلال هذه البلدان .

٢ — الاعتراف بحق البلدان العربية في الوحدة .

٣ — الاعتراف بحق البلدان العربية في حل مشكلة اليهود اقاطنين في فلسطين أو في البلدان العربية الأخرى « بصورة تتماشى مع مصالح العرب القومية والجنسية ومع كل المشكلة اليهودية في البلدان الخاضعة لألمانيا وإيطاليا » .

٤ — تصريح يفهم منه أن ألمانيا وإيطاليا ليست لهما أطماع استعمارية في مصر والسودان .

هـ - التعبير عن العطف على البلدان العربية والرغبة في التعاون الاقتصادي معها^(١).

وفي مقابل مثل هذا التصريح وعد حداد باسم حكومته بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا ، وعقد اتفاق مع كل من دولتي المحرر بخصوص استغلالهما لموارد العراق الطبيعية ، وبخاصة النفط ، وأن تقوم بدور الوساطة بين دولتي المحرر والدول العربية الأخرى للوصول إلى اتفاقات مماثلة . وكان من المتوخى أن يخرج نوري السعيد من الوزارة وأن يحل محله ناجي شوكت على أثر إصدار دولتي المحرر للتصريح والحصول على موافقتهما على مقترحات العراق . وكان من المتوخى بعد ذلك أن يتم الوصول إلى اتفاق حول تفاصيل التعاون المشترك على أن تجري المفاوضات في أنقرة . وكان من المتوخى بعد إعلان المحرر لاستقلال سوريا وفلسطين وشرقي الأردن أن تعلن هذه الدول حيادها وأن تنشب الثورات في فلسطين وشرقي الأردن . ووفقاً لاقتراح حداد كان من المتوخى أن يعد للثورة في سوريا ، وأن تستعمل بخصوصها الأسلحة المأخوذة من مخازن الجيش الفرنسي التي كانت تشرف عليها لجنة وقف إطلاق النار . وتقرر أن تدفع اللجنة العربية العليا ثلث نفقات الثورات ، المقدرة بثلاثين ألف جنيه استرليني شهرياً على أن يقسم الباقي بالتساوي بين ألمانيا وإيطاليا . وذهب حداد إلى أن الثوار سيشلون نشاط ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ جندي بريطاني في فلسطين . وكانت الخطة بوجه عام بسيطة : فقد كان من المتوخى أن تشغل ثورة فلسطين عدداً كبيراً من القوات البريطانية ، على حين يعطل العراق نقل القوات من الهند بحيث يتعدل الموقف في الصحراء الغربية لصالح إيطاليا . وكشرط أساسي لتنظيم الثورة في فلسطين كان لا بد أن يتم قبل ذلك إعلان استقلال سوريا وإقامة حكومة وطنية فيها . ومن المعلومات التي توصلنا إليها نجد أن خطط حداد كانت تستند إلى الاقتناع بأن هزيمة فرنسا توفر لدولتي المحرر تأثيراً حاسماً على الموقف في سوريا . وكان

(١) يشير حداد في مذكراته إلى مسودة الإعلان بصورة مخالفة إلى حد ما (المراجع السابق ، ص ٢٩ - ٣١) . ونجده يورد بوجه خاص صيغة مخالفة للبدء المتصل بالوطن القوي لليهود : تعتبر ألمانيا الوطن القوي لليهود مخلوقاً غير شرعي ، وتعتزف بحق العرب في حل هذه المسألة بشكل مرض وفقاً لأمان العرب القومية .

استغلال الفرصة لصالح العرب هو الهدف الرئيسي لأنصار الوحدة العربية .
وفي أثناء المحادثات التي جرت بين ناجي شوكت وبين فرن بابين في طرابلس
نجدته يطالب أيضاً بتصريح يوضح أهداف دولتي المحور ، في الشرق العربي وعرض
تنازلات مشابهة في مقابل ذلك^(١).

وبما لاشك فيه أن الساسة النازيين لم يخفوا رضاهم عن المواقف المعادية
لإنجلترا التي اتخذها مغازلوهم من العرب . وتشير الشواهد الوثائقية إلى أن وزارة
الخارجية الألمانية ، على الأقل ، كانت تعلق أهمية حقيقية على العمليات الحربية
في البحر المتوسط ، ولهذا اعتبرت موقف السكان العرب واحتمال محاربتهم لبريطانيا
أمراً قابلاً للأهمية . ولكن البحر المتوسط كان في عام ١٩٤٠ يقع خارج النطاق
العملي لاهتمام الزعماء السياسيين والعسكريين النازيين . وبعد سقوط فرنسا كان
هتلر يأمل أن ينهي الحرب بسرعة بإرغام بريطانيا على التسليم . وكانت فكرة
القيام بهجوم على الاتحاد السوفيتي قد أصبحت سائدة^(٢) . وفي الواقع لقد كانت
توجد آراء أخرى . وكان يودل يعتقد بوجوب تطبيق استراتيجية تقوم على هجوم غير
مباشر على بريطانيا بدلاً من القيام بهجوم مباشر . وكان من رأيه أن أشد ضربة
توجه ضد إنجلترا هي إغلاق البحر المتوسط عند قناة السويس وجبل طارق واقترح
أن توجه وزارة الدفاع اهتمامها إلى البلدان العربية . ولكن لم يقيض لوجهات النظر
هذه - التي عبر عنها بعض القادة العسكريين - أن تخرج إلى حيز التنفيذ . وفي
الرسالة التي وجهها هتلر إلى موسوليني في ١٣ يولية أشار ببرود شديد إلى خطط
إيطاليا الخاصة بالقيام بهجوم على مصر وقناة السويس . ولكن حدث في المؤتمر
- الذي لم يلبث أن أصبح شهيراً - المنعقد في ٣١ يولية في برجهوف حيث عرض هتلر

(١) هناك معلومات وفيرة عن توقيت الهجوم على الاتحاد السوفيتي . ومن أهم المصادر المعروفة جيداً
ملحوظات هالدر (بتاريخ ٣١ يولية ١٩٤٠) في يومياته الخاصة بالحرب . وينسب إنزون رنتان Enno von Rintelen في كتابه (موسوليني حليفاً Mussolini als Bundesgenosse) (توينجن وشوتنجارت .
١٩٥١ ، ص ٥١) أن مساعد هتلر - الجنرال شموندت Schmundt - أخبره في عام ١٩٤٢ بأن هتلر أمره
في يولية ١٩٤٠ بأن يجد مكاناً مناسباً لمركز قيادته (Wolfchanze) الذي كان يود أن يدير منه العمليات
الحربية ضد الاتحاد السوفيتي . انظر أيضاً الدراسة الممتازة :

رغبته في شن هجوم على الاتحاد السوفيتي في ربيع عام ١٩٤١ ، أن اقترحت القيادة العليا للجيش الألماني إرسال قوة مدرعة إلى ليبيا . وقد عقدت هيئات الأركان الألمانية مؤتمرات في أغسطس وسبتمبر لمناقشة هذه المسألة . ولكن براوشتش كان يعتقد في ذلك الوقت أن الفوهرر لم يكن يعرف ما يريد القيام به في شمال إفريقيا ، وكان هدف هتلر المباشر هو الجزر البريطانية ، ولم يشغل البحر المتوسط ، باعتباره مجالا للعمليات الحربية النشطة ، مكاناً كبيراً في خطته . بل إن الألمان كانوا يعتبرون الصحراء الغربية جبهة حربية قليلة الأهمية حتى بعد أن اشتركوا فيها فيما بعد .

وهكذا لم يستطع القادة النازيون أن يقطعوا وعداً واسعة المدى للعرب وذلك بسبب خططهم الحربية . وكان يبدو أن المزايا المباشرة الكامنة في تصريح ساند مطالب العرب إنما هي مزايا محدودة . ولكن الريخ كان مهتماً بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع العراق ، مع المحافظة على حياده الكامل والحيولة دون تنفيذه لالتزاماته إزاء إنجلترا طبقاً لمعاهدة ١٩٣٠ . ولو أن الحكومة العراقية اتبعت مثل هذه السياسة لأصبحت لها أصدقاء في بلدان عربية أخرى ولأثرت في موقف تركيا التي كان من الممكن أن تشعر بأنها مضطرة لإعادة النظر في علاقاتها مع بريطانيا نتيجة لتغير الموقف في العراق المجاور . ولكن الألمان توصلوا من محادثاتهم مع حلفاء إلى أن العراقيين كانوا يفضلون تأجيل مثل هذه الإجراءات خشية رد الفعل في لندن إلى وقت يصبح فيه العراق في وضع يمكنه من المقاومة بمساعدة جيش ألماني . كما أبدى الألمان اهتماماً بالثورة الفلسطينية التي أكد حلفاء أنه لا يمكن تنظيمها إلا من سوريا . ولكن السلطة الحقيقية في سوريا كانت في أيدي الفرنسيين ورغم وجود اللجنة الإيطالية لوقف إطلاق النار فيها . وكان الألمان يخشون أن ينضم الفرنسيون إلى بريطانيا أو إلى ديجول . ومن الواضح أن برلين كانت لا تشعر بضعف إنجلترا الشديد في البلدان العربية على أثر سقوط فرنسا وساندة القوات الفرنسية في هذه المنطقة لفيشي على مدى واسع .

لهذا فإذا كان الألمان بالرغم من ذلك يميلون إلى النظر بعين الاعتبار بشكل جزئي على الأقل إلى المطالب العربية ، فإن مرجع ذلك لم يكن فقط هو الانجاء

العام إلى مساندة كل الحركات الموجهة ضد بريطانيا ، بل إنها كانت تعكس أيضاً خططاً معينة للمدى البعيد بخصوص العراق . ولم يخف الألمان في مناقشتهم مع حداد اهتمامهم بموارد العراق الطبيعية وبخاصة البترول . فثلاً أكد فون بابن أن المسألة العربية على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى ألمانيا من زاوية العلاقات بين الدول بعد الحرب . وقد كتب في ٢٣ أكتوبر مايلي :

« يتضح من السيطرة الإيطالية في البحر المتوسط بمعنى السيطرة الكاملة على الطريق البحري المار بقناة السويس صوب أملاكنا في وسط أفريقيا ، وهي الأملاك الواجب استعادتها ، بالإضافة إلى حاصلات النفط في الشرق الأدنى - مدى حيوية ضمان الريخ على الأقل لطريق برى واحد صوب الخليج مستقلاً عن هذا الطريق البحري » .

كما أشار فون بابن إلى اهتمام ألمانيا بتركيا ، وأكد أن تركيا لا بد أن تضطر إلى الانتماء في أحضان الاتحاد السوفييتي فيما لو أحاطت إيطاليا بأراضيها من كل جانب . وأشار إلى ضرورة القيام بمحاولات لضمان طرق برية عبر البلقان وتركيا صوب الخليج العربي وإقامة علاقات صداقة مع البلدان العربية .

وجهة النظر الإيطالية

وتصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠

وفي كل هذه الاعتبارات كان على الألمان أن يضعوا نصب أعينهم خطط إيطاليا الواسعة النطاق للتوسع في البحر المتوسط .

حين قابل موسوليني وشيانونهتلر وريبنتروب في ميونيخ في ١٩ يونيو ١٩٤٠ طالباً بنيس وكورسيكا والصووال الفرنسي وتوسيع حدود تونس على حساب الجزائر ، كما طالباً بمالطة ونزع سلاح كل القواعد البريطانية . كما طالب الحكام الفاشست بأن تكون لهم في مصر والسودان نفس الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها البريطانيون ، وأن يكون لهم ميناء في مراكش على المحيط الأطلسي . وأن تضع إسبانيا يدها على جبل طارق . وقبل الألمان هذه المطالب دون أن يلتزموا

بشيء محدد ، ولم يعترضوا إلا على المطالب الخاصة بالجزائر ومراكش . وفي أثناء الزيارة التي قام بها شيانو لبرلين في ٧ يولية لم يثر مسألة الجزائر ومراكش ، ولكنه أضاف إلى قائمة المطالب الإيطالية مايلي: قواعد استراتيجية في سوريا وفلسطين وشرق الأردن ، والاستيلاء على الصومال البريطاني وإفريقيا الاستوائية حتى بحيرة تشاد ، وبريم وسقطرى بالإضافة إلى جزيرة كورفو اليونانية وشمالى لإببروس مع تعويض اليونان بإعادة قبرص إليها. وهكذا كانت مطالب إيطاليا تعنى حكم روما دون منازع للشرق الأدنى بأسره وشرق البحر المتوسط والبحر الأحمر . ولم يشأ هتلر أن يقحم نفسه في مناقشة بخصوص أطماع إيطاليا ، واقتصر على التصريح المحدد الذى جاء فيه أن البحر المتوسط والبحر الإديريانى كانا منذ أقدم العصور يدخلان في نطاق منطقة النفوذ التاريخية التابعة لشبه جزيرة الأبنين . كما وافقت الحكومة الألمانية دون مناقشة على ادعاءات إيطاليا في منطقة البحر الأحمر. وما تجدر الإشارة إليه أن إيطاليا بعد مضي وقت قصير حاولت أيضاً الحصول على موافقة الاتحاد السوفييتى على ادعاءاتها في البحر المتوسط والمناطق المجاورة .

وفي عام ١٩٤٠ كان لدى هتلر من الأسباب الخاصة ما يدعو إلى اتباع سياسة حملته على تجنب الالتزام بأى وعود محددة إزاء إيطاليا . فقد كان يهدف إلى التفاوض مع إنجلترا حول عقد الصلح ، وكان يريد أن يحافظ على حرية حركته . على أن وثائق وزارة الخارجية الألمانية توضح أن ألمانيا قررت احترام وجهات نظر حليفها ، وأنها لم تفكر على أى حال في أن تقف ضدها بصورة علنية .

وفي عام ١٩٤٠ كانت في يد إيطاليا أوراق كثيرة رابحة فيما يتعلق بعلاقتها بألمانيا. فأولا كانت توجد قوات مسلحة إيطالية كبيرة في شمالى إفريقيا لم تكن حاقت بها أى هزيمة كبرى حتى ذلك الوقت . ولما كانت كل من الحليفتين

(١) في أوائل عام ١٩٤٠ كانت توجد عشر فرق إيطالية في ليبيا ، وكان من المتوخى أن تضاف إليها خمس فرق أخرى . وفي أوائل يولية ١٩٤٠ قدرت قوات إيطاليا البرية في ليبيا بتسع فرق نظامية (قوام بكل منها حوالى ١٣ر٠٠٠ جندي) ، وثلاث فرق من « القمصان السوداء » وفرقتين من الليبيين (قوام كل منها ٨٠٠٠ ر جندي) ، هذا بالإضافة إلى وحدات وطنية أخرى وتشيكالات حرس الحدود . ووصلت القوة الجوية في ليبيا وجزر الدوديكانيز إلى ٣١٢ طائرة وفي شرق إفريقيا إلى ٣٢٥ طائرة .

تكره الاشتراك في إدارة الحرب ، فلم يكن ثمة في عام ١٩٤٠ سوى احتمال قليل للتعاون العسكري بينهما^(١) . وقد رفض هتلر اقتراح موسوليني الخاص بضرورة اشتراك القوات الإيطالية في الهجوم على إنجلترا ، وفي نفس الوقت اقترح أن تساعد ألمانيا إيطاليا في الهجوم جواً على قناة السويس . ولم يحظ هذا الاقتراح بدوره بموافقة إيطاليا . وللعوامل السابق ذكرها اقترحت القيادة العليا للقوات البرية على هتلر إرسال فيلق مدرع إلى إفريقيا . فوافق على إرسال قوة صغيرة ولواء مدرع ، ولكن إيطاليا عارضت بوجه عام وجود القوات الألمانية في ليبيا . وطلبت من ألمانيا بدلا من ذلك أن تزودها بالدبابات . وفي خلال مقابلتها في ممر برنر في ٤ أكتوبر وافق موسوليني في النهاية على اشتراك القوات الألمانية المدرعة والجوية في القتال في الصحراء الغربية : ولكن القيادة الإيطالية غيرت رأيها بهذا الصدد في نوفمبر .

وقد عبرت ألمانيا بالفعل عن موقفها من المطالب الإيطالية في الإجراءات التنظيمية التي اشتملت عليها اتفاقية الهدنة مع فرنسا . فقد كانت لجان الإشراف التي تشكلت في سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش والصومال الفرنسي تتكون من أشخاص إيطاليين ، وجعلت تابعة للجنة هدنة تورين ، على حين أن المسائل المتصلة بفرنسا ذاتها كانت من اختصاص لجنة الهدنة الألمانية في فيسبادن .

ومن الممكن اعتبار هذا إشارة إلى مناطق النفوذ في المستقبل . ولكن هذا التقسيم كان مبدئياً وغير دقيق ، وبخاصة فيما يتعلق بإفريقيا . وقد تم الاتفاق كتابة على أن تخطيط مناطق الرقابة كان لا يعني بأي شكل تحديد مناطق النفوذ السياسية أو الاقتصادية . والذي حدث بالفعل أن لجان الإشراف الإيطالية لم تحظ بنفوذ كبير ، على حين اضمحل النفوذ القليل الذي كانت تتمتع به نتيجة

صوبلج مجموع القوات الإيطالية ٢٢٠,٠٠٠ جندي بالإضافة إلى ٨٠,٠٠٠ جندي من الوطنيين في ليبيا و ٢٠٠,٠٠٠ في شرق إفريقيا . وكان من رأى وزير أمريكا المفوض «فش» أن إيطاليا متفوقة على إنجلترا براً وجواً في الرجال والعتاد . وكانت القوات البريطانية في مصر والسودان لا تزيد على ٩٠,٠٠٠ . على أن بعض الضباط الألمان كانوا يعتقدون أن الإيطاليين أقوى عددياً من القوات البريطانية ، وأنهم أقل مستوى في القتال . Halder, Kriegstagebuch II, Stuttgart, 1963, p. 38. (يوميات حرب) .

(١) شكافون رنتلن Enno von Rintelen - مثل ألمانيا في القيادة العليا الإيطالية - أحياناً في مذكراته من أن كلا من دولي المحور كانت تقوم بحرب منفصلة .

لتطورات الحرب . وقد حسمت المسائل الأكثر أهمية المتعلقة بشمال إفريقيا وسوريا ولبنان مع وفد فيشي في فيسبادن ، ثم أحييت إلى تورين للحصول على موافقة إيطاليا . وبدأ المندوبون الألمان يظهرون في شمال إفريقيا في ربيع عام ١٩٤١ .

وتمشياً مع وجهة النظر الألمانية العامة صرح فون بابن لناجي شوكت في يولية ١٩٤٠ بأن المزيد من تحريك الوضع السياسى فى الشرق الأدنى كان فى المحل الأول من اختصاص الحكومة الإيطالية . وقد كتب فورمان ، مدير القسم السياسى بوزارة الخارجية الألمانية ، فى مذكرته المؤرخة ٢١ يولية ١٩٤٠ أن إيطاليا يجب أن تكون لها الأولوية المطلقة فى تنظيم المنطقة العربية وهذا بالتالى يقضى على أى ادعاء ألماني بصدد قيادة المنطقة العربية أو تقسيم هذا الادعاء مع إيطاليا . فيما يتعلق باتجاه العرب المعادى لإيطاليا نجده ينصح بعدم إنعاش أى آمال من الممكن أن نجد تعضيداً من جانب ألمانيا . وكان من رأيه أن البلدان العربية ذات أهمية بالنسبة إلى ألمانيا ، من وجهة النظر الاقتصادية فى المحل الأول ، وخاصة فيما يتعلق بالبرترول العراق والخطوط الجوية العراقية . وبهذا الصدد نجد فورمان يقترح إعادة العلاقات الدبلوماسية مع العراق ، ولكنه لم يكن يتوقع النجاح . وقد نصح بتنظيم الدعاية الشديدة المعادية لبريطانيا والمعتدلة ضد فرنسا . وتؤكد هذا الموقف رسالة دورية وجهتها وزارة الخارجية الألمانية فى ٢٠ أغسطس .

وكان من شأن تصريح سياسى له من المدى الواسع ما طالب به الساسة العرب أن يتعارض مع وجهات النظر التى سبقت الإشارة إليها . وقد عبر فون فايزساكر عن ذلك فى تعليقه المكتوب بخط يده على مذكرة فورمان كمايلي : « طالما أننا لا نزال نخوض الحرب يجب علينا ألا نخبر العرب إلا بالطرف الذى نحاربه ، أى إنجلترا ، وألا نتحدث إلا عن تحرير العالم العربى دون إشارة مفصلة إلى أى أهداف تتعلق بالمستقبل » وهكذا نجد أن مبعوث رييتروب كان يرى الإبقاء على العلاقات مع الزعماء العرب : ولكن دون الارتباط بأى شىء . ولا يجب أن ننسى أن الألمان كانوا فى ذلك الوقت يعولون على إنهاء الحرب بسرعة فى الغرب ، وبالتالي كان يبدو أنهم يرون أن الارتباطات بعيدة المدى مع العرب من شأنها أن تقل أيدىهم ، ليس فقط فيما يتعلق بحليفهم إيطاليا ، بل أيضاً بالنسبة إلى فرنسا وبريطانيا .

ولكن المفقى ورشيد على وأنصارهما واصلوا جهودهم . وبعد المحادثة التي جرت بين فون بابن وناجي شوكت نجد بابن يطلب من برلين أن تتخذ موقفاً لزاماً مسألة التصريح . وسين ازدادت الغارات الجوية على إنجلترا في بداية سبتمبر ، كان من الممكن توقع اشتعال معركة ايبيا في أى وقت . وفي ٧ سبتمبر أصدر مسؤولي أواخر بشن الهجوم دون انتظار لنزول الألمان إلى الجزر البريطانية . وفي ١٣ سبتمبر وصل الإيطاليون إلى سيدى برانى على بعد مسافة قليلة من حدود مصر الغربية . ولكن الإيطاليين لم يستطيعوا الإفادة من ضعف إنجلترا في الشرق الأدنى في ذلك الوقت . وبعد قليل أجل هتلر عملية « سبع البحر » إلى عام ١٩٤٠ ، وبلغ الكونت شيانو بهذا القرار في ٢٧ سبتمبر . وقام كايتل بنقله إلى القيادة الإيطالية العليا في بداية أكتوبر ، وكان من الواضح أن الحرب ستستغرق وقتاً طويلاً .

وقد سبق أن بذكرنا أن السكرتير الخاص للحاج أمين وصل إلى برلين في أغسطس . وكان الألمان يميلون إلى زيادة نشاطهم في البلدان العربية نظراً لقرب العمليات على الجبهة الليبية التي رأت الدوائر العسكرية ضرورة اشتراك القوات الألمانية فيها . ولهذا نقل فايز ساكر إلى روما الأخبار الخاصة بأن حكومة الريخ توافق على مقترحات حداد . وقد كتب أنها « ستكون في ظروف معينة على استعداد لمساعدة (العرب) بأسلحة تم الاستيلاء عليها وبتمود ، ولكنها لن تعمل إلا بالاتفاق مع إيطاليا » . واستطرد قائلاً إن على السفير فون ماكزنز بالتالي أن يوضح كيفية حكم الكونت شيانو على التعاون مع العرب برجه عام واحتمالات تنفيذ مقترحات حداد برجه خاص . وكان من الواجب إحاطة الموضوع كله بسرية تامة بالنسبة إلى المفوضية العراقية في روما المتصلة بنورى السعيد الميال إلى بريطانيا .

وفي ١٠ سبتمبر قدم فون ماكزنز مقترحات فايز ساكر إلى الكونت شيانو الذى قابلها ببرود شديد . وقد صرح وزير الخارجية الإيطالية بأنه كان لعدة سنوات على اتصال مستمر بالمفقى ، وأن بإمكان المبالغ السرية أن تحكى قصة هذا الاتصال . وشكا من أن هذه « الهدية التى قوامها عدة ملايين » لم يكن لها « سوى مقابل تاغه اقتصر على بعض الأعمال التخريبية فى خط أنابيب البترول الممتد من العراق إلى موانئ البحر المتوسط » وأنه كان من السهل إصلاح أعمال

التخريب التي تقوم بها العصابات العربية بين وقت وآخر . وبرغم ذلك فقد وعد شيانو بدراسة المقترحات .

وفي ١١ سبتمبر وضع قصر شيجي مسودة مذكرة فحوها أنه ليس من المرغوب فيه أن يصدر تصريح عام يؤيد الاستقلال التام غير المحدود للبلدان العربية وحققها في الوحدة - فقد ذكرت أن الدول العربية لن تكون في وضع يمكنها من الدفاع عن استقلالها ، وأن من المؤكد أنها ستقع تحت سيطرة دول أخرى . كما لم يكن من المتوقع أن تكون للتعاون مع العرب أى مزايا هامة يحكم أن العراق لم يكن في وضع يمكنه من إعداد ثورة خطيرة في البلدان العربية أو الدفاع عن حياته . ولهذا لم يكن من الضروري القيام بما هو أكثر من إصدار تصريح شفهي ومد المفتي بالمساعدة المالية .

وبعد ظهر ١٤ سبتمبر جرت محادثة أخرى بين سفير الريخ وبين الكونت شيانوا اشترك فيها دينو ألفييري Dino Alfieri . وكان فون ماكزنز قد أحيط علماً بالفعل بمحادثة فون بابن مع ناجي شوكت الذي جعل اشترك ألمانيا في التصريح الإيطالي المكتوب بخصوص استقلال العراق وشرق الأردن وفلسطين وسوريا شرطاً لإخراج نوري السعيد من الوزارة وإعداد الثورة في فلسطين .

ولكن شيانو أنكر أن إيطاليا قدمت مثل هذا التصريح كتابة ، وادعى أن إيطاليا كانت مهتمة بشيء يختلف عن هذا تماماً . وفي يونيو ويولية أكد وزير إيطاليا المفوض في بغداد ما أذاعه راديو بارى عدة مرات من حيث اهتمام إيطاليا بأن تحافظ البلدان العربية على استقلالها أو أن تحصل عليه ، وألا يمس البريطانيون تمامية أراضيها . وأكد شيانو أن المسألة لا تتعلق بأى تصريحات ملزمة ، ناهيك بالتصريحات المكتوبة .

ولكنه ذهب إلى أن إيطاليا كانت على استعداد لتلبية مطالب ألمانيا بخصوص هذه المسألة . وكان من رأيه أن من المفيد التمشي مع بعض المطالب العربية على ألا تتحقق كل رغبات العرب . وشكا من أن إيطاليا كانت قد أنفقت عدة ملايين على المفتي دون الوصول إلى أى نتائج ملحوظة يمكن أن تكون موضع كلام ، ولم يعترف المسؤولون الإيطاليون بأن جابربيلي قد أصدر تصريحاً مكتوباً

بصدد السياسة الإيطالية في البلدان العربية إلا في أكتوبر ، ولكنهم ذهبوا إلى أنه قام بذلك دون أن تكون لديه تعليقات^(١).

وملخص القول أن شبانو لم يتوقع قدراً كبيراً من التعاون مع ساسة بغداد ، ولكنه كان على استعداد لأن يسانداهم بصورة معينة ، ولأن تحتوى دعاية المحور على تقدير عام - بل لقد أشار إلى تصريح غامض ما . وكانت لهجته ثم عن عدم ارتياحه الشديد لاهتمام ألمانيا بالشئون العربية وللخطوات التي اتخذتها . وكان الإيطاليون بوجه عام يميلون إلى أن يفضوا من قيمة أى تصريح^(٢) . وفي النهاية تمت الموافقة على التصريح الشفهي التالي حول موقفهم من مطالب العرب :

« لقد نظرت ألمانيا (إيطاليا) التي كانت تكن مشاعر الصداقة للعرب ، وتحذوها الرغبة في أن يتمتعوا بالرخاء والسعادة ويحتلوا بين شعوب الأرض المكانة التي تتناسب مع أهميتهم التاريخية والطبيعية باهتمام مستمر إلى نضال البلدان العربية في سبيل الحصول على استقلالها . وبإمكان البلدان العربية أن تركز في الجهود التي تبذلها لتحقيق هذا الهدف على عطف ألمانيا (إيطاليا) التام في المستقبل أيضاً . وفي إزاء ألمانيا (إيطاليا) بهذا التصريح ، تجد نفسها على اتفاق تام مع حليفها إيطاليا (ألمانيا) » .

وقد جاء في مقدمة هذا التصريح الذي أذيع بالراديو أيضاً أنه قد صدر الرد على الدعاية البريطانية التي أساءت تصوير دولي المحور اللتين اعتبرهما العرب محررتين لهم . وما تجدر ملاحظته أن هذا التصريح لم يزد على كونه تعبيراً عن العطف . وأن كل ما جاء في مقدمته قد أضيف « لجعل التصريح متمشياً مع العقلية الشرقية » - وفقاً لـ بيير فايز ساكر .

كما لم يكن مقبوضاً لموقف إيطاليا من المطالب العربية أن يظل خافياً لفترة

(١) ماكنزن إلى وزارة الخارجية (روما في ٢ ديسمبر ١٩٤٠) . حداد : المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٤٤ . ويضيف حداد أن الألمان أخبروه في ٢٦ أكتوبر بأن الإيطاليين عثروا في الملفات على تصريح جابريل المكتوب المؤرخ ٧ يولية سنة ١٩٤٠ .

(٢) حداد : المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٨ . وتوضح رسالة ماكنزن إلى وزارة الخارجية بتاريخ ٢ أكتوبر أن الحكومتين الألمانية والإيطالية كانتا تريدان في البداية أن يذيع حداد تصريحهما المشترك باللغة العربية .

طويلة . فقد كان حداد على اتصال بناجي شوكت - الذى كان حينئذ فى تركيا وبكامل الكيلافى . وما زاد فى إضعاف ثقة العرب بالإيطاليين إنكار وزير الخارجية الإيطالية وجود تصريح جابر بيللى المكتوب فقد أوضحت تحفظات إيطاليا على التصريح الذى بلغت أجزاء منه إلى حداد ، ومنها مثلاً ما يتعلق بحماية دولة كاثوليكية - أى إيطاليا - للموارنة اللبنانيين من جديد ، أهدافها الاستعمارية ليس فقط فى شمال إفريقيا ، بل أيضاً فى المشرق العربى - كما كان من الصعب إخفاء المفاوضات الجارية بين ألمانيا وإيطاليا واليابان حول تقسيم مناطق النفوذ ، وهى المفاوضات التى تمخضت عن « الميثاق الثلاثى » الموقع فى ٢٧ سبتمبر ١٩٤٠ . وقد وضع حداد فى الاعتبار أن الزعماء الألمان قد اعترفوا بهيمنة إيطاليا على البلدان العربية . وفى أواخر سبتمبر بلغ جروباً بأن من المحتمل أن يفكر العرب فى التقرب من الاتحاد السوفيتى - إذ من المفهوم أن تشكيلهم لجمهورية سوفيتية سيمنحهم من الاستقلال قدراً أوفر مما يحصلون عليه نتيجة لخضوعهم لإيطاليا . ومن المحتمل جداً أن الألمان طمأنوا حداد بصفة غير رسمية ، حين أكدوا له أن الاتفاق الألمانى - الإيطالى حول هيمنة إيطاليا على البحر المتوسط كان مؤقتاً ، وأن الموقف سيتغير حين تنتهى الحرب ، وأن ألمانيا لم تكن تود أن تتخلى عن مشروعاتها وأهدافها فى البلدان العربية . وقد ذكر حداد فى مذكراته أن الألمان استغلوا كل الفرص ليقدموا له هذا التفسير ، وأشاروا إلى عدم ارتياح إيطاليا لخطط الريخ وأوجه نشاطه فى الشرق .

التحفظات العربية

فى ١٨ أكتوبر سلم فايز ساكر نص التصريح إلى السكرتير الخاص للمفتى ، وكلف ثون بابن بتقديم نسخة إلى وزير العدلية العراقى ، الذى عاد إلى بغداد فى ٢٨ أكتوبر . وأذاعت محطات روما وبرلين التصريح باللغة العربية فى ٢٣ أكتوبر ولكنه لم يظهر مطبوعاً . ولم ينشر فى الصحف الإيطالية والألمانية مع التعليقات المناسبة إلا فى بداية ديسمبر ، حين أدى الموقف العام إلى ازدياد اهتمام دولى

المحور باتخاذ خطوات معينة في البلدان العربية . وقد حدث هذا بعد مزيد من تبادل الآراء بين الحكومتين الألمانية والإيطالية . وبدا مرة أخرى أن الألمان كانوا أقل تردداً من الإيطاليين بصدد اتخاذ إجراءات خاصة بالشئون العربية . وفي ٢ يناير ١٩٤١ قبل الألمان رجاء الحكومة العراقية الذي عبر عنه كامل الكيلاني في محادثاته مع فون هنتج ، وسجلوا على الورق تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ .

ورأت وزارة الخارجية الألمانية أن من المناسب في ذلك الوقت أن تؤكد للملك ابن سعود اهتمامها بالمسائل العربية . وفي ٣٠ نوفمبر وجه فورمان رسالة إلى خالد القرقيني - مستشار الملك - أشير فيها مرة أخرى إلى أن الريخ يود أن يرسل مبعوثاً إلى جدة^(١) . وقد صرح فورمان بأن ألمانيا لا ترغب في حكم البلدان العربية أو اضطهادها ، بعكس إنجلترا ، وأنها « لا ترغب في أن تطبق على العرب مقياساً يختلف عن ذلك الذي تطبقه على الشعوب الأخرى » . وفي النهاية لفت فورمان النظر إلى تصريح المحور المشترك وإلى التصريح الذي أدلى به وزير إيطاليا المفوض في جدة .

ولم يخف السكرتير الخاص للمفدى امتعاضه من نص التصريح حين نعى إلى علمه . وصرح في محادثة له مع فون فايزساكر بأن العرب كانوا يتوقعون ما هو أكثر من ذلك - أى الاعتراف باستقلالهم ، وتساءل : لماذا لم تدل ألمانيا صراحة برغبتها في تحقيق استقلال العرب ، إذا ما كانت ترغب حقيقة في ذلك ؟ وأوضح أن بإمكان الدعاية البريطانية أن تتم التصريح بأنه غامض ولىء بالتخفظات . وقد رد حداد على إيضاح فايزساكر بأن ذكره بتجربة العرب مع الوعود البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى ، مشيراً بوجه خاص إلى اتفاق سايبكس بيكو . وعبر عن خوفه من أن يكون من المحتمل وجود اتفاق سري مشابه بين ألمانيا وإيطاليا في ذلك الوقت . وحين أنكر فايزساكر وجود مثل هذا الاتفاق ، صرح حداد بأنه يود أن يكون التصريح خطرة أولى في التعاون المشترك ، وأن ازدياد تطور العلاقات قد يكون موضعاً لمفاوضات تجرى في المستقبل بين وزيرى ألمانيا وإيطاليا المفوضين

(١) أرسل هذا الخطاب عن طريق المدعوقاسم مجيد ، ومن المحتمل أنه عربي سعودي كان يقيم في برلين .

في بغداد وبين الحكومة العراقية . وقبل فايز ساكر هذا التفسير ووافق على أن من واجب فون بابن أن يبلغ ذلك إلى ناجي شوكت في أنقرة .

كما وجد خالد القرقي ثغرات في التصريح ، وكانت له تحفظات بصدد تأكيد ألمانيا أنها لا ترغب في حكم العرب ، وأشار في رده على رسالة فورمان إلى أنه يريد أيضاً أن يتأكد من أن حلفاء ألمانيا لا يريدون ، تحت أى ستار ، أن يخضعوا البلدان العربية لحكمهم . وليس من الصعب أن نستنتج أن الطرابلسي كان يعنى إيطاليا .

وبإمكاننا أن نتبين مدى التحفظات التي ووجه بها تصريح ٢٣ أكتوبر من جانب الساسة العرب العالمين ببواطن الأمور من رسالة بحث بها بعض القوميين المقيمين في بيروت إلى الحكومة الألمانية (بناير ١٩٤١) ^(١) . وقد أكدت الفئة التي أطلقت على نفسها اسم « اللجنة القومية العربية في بيروت » أن أهم ما يطالب به العرب هو إقامة دولة عربية موحدة في آسيا ، تليها وحدة أخرى تضم مصر وبرجها خاص ، وأن العرب كانوا يتوقعون من ألمانيا أن تساند أهلافهم . أما فيما يتعلق بالتصريح فقد وضعت مجموعة بيروت السؤال الآتي : ما الذي تفهمه حكومة الريخ من كلمة « استقلال » ؟ هل كانت تعنى استقلال كل بلد عربي على حدة ، وهو ما اعترف به الحلفاء ، أو هل تعنى الاستقلال المشترك لكل العرب في دولة ثابتة ؟ وتساءلوا : هل يمكن فهم اصطلاح « استقلال » بنفس مفهوم استقلال ألمانيا ، أو هل هو متعلق بالاستقلال الرسمي الذي يشبه الاستقلال الذي منحه إنجلترا للعرب في أعقاب الحرب العالمية الأولى ؟ وفي إشارتها إلى العرب ، هل كانت حكومة الريخ لا تقصد إلا عرب غربي آسيا ؟ وهل كانت تقصد أيضاً عرب شمالي إفريقيا ؟ كانوا يريدون أيضاً أن يعلموا ما إذا كانت حكومة الريخ على استعداد للاعتراف بدولة عربية تضم غربي آسيا ، على حين تعترف بالحق في حكم مستقبل البلدان الأخرى ، وبوجه خاص مصر . وفي النهاية تساءلوا عما إذا كانت ألمانيا تعترف بوحدة السكان في كل بلد على حدة على اعتبار أن ذلك يعنى القومية

(١) رسالة وقمها أسد حازم وأنيس الصغير وأحمد الداعوق وعلي نصر الدين ومحمد علي بهيم وقسطنطين بجي . انظر مذكرة جروبا ، برلين في ١٥ فبراير ١٩٤١ - ٦٤٧ / ٢٥٥٠٥٨ / ٩ .

العربية ، أو ما إذا كانت تقبل نظرية الدول الغربية الخاصة بكون التمييز الجنسي والديني يشكل عاملاً حاسماً .

وبما لا شك فيه أن برلين لم يكن باستطاعتها سوى تقديم إجابات غامضة ، إن لم تكن كلية ضد أماني العرب القومية . ولكن الألمان لم يجيبوا على الإطلاق على الأسئلة السابقة . فلم يشعروا في ذلك الوقت سواء بالحاجة أو بالرغبة في أن يجعلوا موقفهم أكثر تحديداً . أما إيطاليا فن الواضح أنها كانت تطمح في التوسع السياسي والاقتصادي وفي أن تفرض استعمارها على منطقة البحر المتوسط — ولا شك أن هذا الاتجاه قد حدد موقفها فيما يتعلق بالمطالب العربية .

وبعد أن حصل حداد على التصريح أنهى بعثته إلى برلين ، وتوجه إلى روما حيث أثار في البداية مسألة تقديم المساعدة المالية والأسلحة للقوميين العرب في فلسطين . وكان من المتوقع في البداية أن ينتظر إجابة المسؤولين الإيطاليين ، ولكنه عاد مسرعاً إلى بغداد حين نشبت الحرب الإيطالية اليونانية (٢٨ أكتوبر ١٩٤٠) . ولملخص ما ذكرناه أن تصريح ٢٣ أكتوبر لم يكن يستند إلى أية خطط سياسية أو عسكرية محددة أو فعالية من جانب دولتي المحور بشأن الدول العربية . فحين أصدرت ألمانيا وإيطاليا التصريح كانتا مدفوعتين في الحقل الأول بما كانت تتطلبه الدعاية الموجهة ضد بريطانيا بوجه عام . وكان من الواضح أن الحرب إن انتهت بسرعة وأن مداها سيطول — وكان شأى إفريقيا قد أصبح مسرحاً للعمليات الحربية . لهذا فإن دولتي المحور لم تجدا من الصواب أن تغضبا أنصارهما العرب . وبالإضافة إلى ذلك فإن المسألة كانت تتعلق بتسهيل عمل المخابرات الألمانية والعملاء القائمين بتشتيت انتباه الحلفاء في العالم العربي^(١) .

(١) كان على حداد أن يتلقى من رينروب رسالة موجهة إلى المفتي ، مضافاً إليها تحذير بأنه لا يجب على اللجنة العربية في بغداد أن تتخذ أي خطوات سابقة لأوانها . كما أنها كانت تتضمن وعداً بأن تبذل حكومة الريخ كل ما يمكنها لمساعدة العراق في حالة نشوب الثورة ضد إنجلترا في العراق (خضوري ، ص ١٨٨) . على أننا لم نعثر على هذه الرسالة التي لا تؤكد مذكرات حداد .

الفصل السادس

العراق على شفا الثورة

صدر تصريح ٢٣ أكتوبر ، ثم تأكد في ٥ ديسمبر في الوقت الذي شهد تطورات هامة على مسرح العمليات الحربية في البحر المتوسط .

خطط ألمانيا في البحر المتوسط

في أواخر أكتوبر ، حين كان هتلر قد تخلى عن فكرة غزو الجزر البريطانية في الوقت الذي كان فيه عاجزاً عن بدء الحرب ضد الاتحاد السوفيتي في وقت متأخر من السنة ، نجده يفكر في احتمال القيام بعمليات حربية في البحر المتوسط . وطالما كان هتلر يتوقع الانتصار على إنجلترا ، فإنه لم يعر كبير التفات إلى المنطقة التي كان آمن بالمفروض أنها مسرح نشاط إيطاليا . وحين بدا لألمانيا أن احتمال القيام بغزو مباشر لإنجلترا والقضاء عليها قد بدأ يضمحل ، أخذت تضع خططاً لمهاجمة المواقع البريطانية في البحر المتوسط . وفي أواسط أكتوبر رأت القيادة البحرية الألمانية أن القيام بهجوم على الإسكندرية وقناة السويس وتحريك الموقف في البحر المتوسط بوجه عام قد يقرر مصير الحرب . وفوق ذلك أكدت القيادة البحرية أن السيطرة على الجزء الغربي من البحر لا تكفي ، بل إن الاعتبار الاستراتيجي والاقتصادي تمل أيضاً ضرورة السيطرة على شواطئه الشرقية . وقيل إن رايدر كان قد أخبر هتلر في ٢٦ سبتمبر بضرورة الاستيلاء على قناة السويس ، على أن تشترك القوات الألمانية اشتراكاً فعالاً في تحقيق هذا الهدف . وساد نفس الرأي في القيادة العليا للقوات البرية . وكان من رأي هويسنجر Heusinger وباولوس وجيلين Gehlen ضرورة تنسيق اشتراك ألمانيا في العمليات الحربية في ليبيا مع الاستيلاء على كريت والقيام بعمليات حربية في اتجاه بلغاريا وتركيا وسوريا ، أي بالهجوم على قناة السويس من الشمال . وفي ٢ نوفمبر ١٩٤٠ وضع الجنرال هالدر مذكرة بعث بها إلى هتلر زكى فيها هذه الخطط .

وكانت هذه العملية تحتاج إلى لوائين ميكانيكيين ، وكانت في رأى هالدر تحتاج إلى ستة أشهر ، على حين رأى باولوس أنها تحتاج إلى ثلاثة أشهر . وكان من الواجب أن تستخدم في ليبيا فرقتان مصفحتان وكتيبة ميكانيكية [١] ، بالإضافة إلى عدد كبير من القوات المتخصصة ؛

وبرغم أن هذه الآراء لم تجد قبولا لدى هتلر ، إلا أنه يبدو أنه تأثر بها للدرجة ما . ولا يبدو أن الخطة الاستراتيجية التي سبقت الإشارة إليها كانت تؤخذ مأخذاً جدياً في الفترة الممتدة ما بين « معركة بريطانيا » التي لم تكسبها ألمانيا وبين الهجوم على الاتحاد السوفيتي .

وكان لوجهات النظر السابق ذكرها أثرها في القرار الخاص بمساعدة إيطاليا في شرق البحر المتوسط . ولهذا أصدر هتلر أمره في ١٤ سبتمبر ببذل جهود كبيرة لإرسال لواء إلى ليبيا . ولكننا سبق أن أوضحنا أن موسوليني لم يكن يميل في ذلك الوقت إلى قبول المساعدة الألمانية - إذ كان من رأيه أن من الأفضل في البداية أن يتم الاستيلاء على مرسى مطروح ، وهو ما كان يعتقد أن من الممكن تحقيقه في المستقبل القريب . وقبل وقت قصير من غزو إيطاليا لليونان ، كتب الجنرال توما تقريراً عن الموقف في ليبيا لم يكن مشجعاً . كما أكد توما أن إيطاليا لم تكن ترغب في المساعدة الألمانية . هذا إلى أن الشكوك كانت تساور الألمان حول إمكانهم تقديم مساعدة عاجلة لإيطاليا .

وفي ٢٤ أكتوبر عبر توما وباولوس وهويسنجر عن رأيهم الخاص بأن على الإيطاليين ، فيما لو قبلوا المساعدة الألمانية ، أن ينتظروا وصول القوات الألمانية قبل أن يستولوا على مرسى مطروح . وكان هذا الرأي مشابهاً أيضاً لرأى هالدر الذي عبر عنه في المذكرة التي وضعها بتاريخ ٢ نوفمبر . وفي ٤ نوفمبر صرح هتلر بأن القيادة الإيطالية ترغب في استخدام الألمان باعتبارهم « ضريبة دم » .

وهكذا أدت أسباب عدة إلى أن ينتصر في القيادة الألمانية أبى القائل بأن ليس ثمة معنى لنقل القوات الألمانية إلى ليبيا بالسفن قبل الاستيلاء على مرسى مطروح على أية حال . حينئذ بدأ هتلر يفكر في القيام بعمليات حربية في غربي البحر المتوسط - فيبدأ بجبل طارق باعتباره الهدف الرئيسي ، ثم يثنى

باحتلال الجزء الغربى من ساحل شالى إفريقيا. وفي حالة نجاح هذه الخطة ان يصبح البحر المتوسط شرياناً للمواصلات البريطانية ، وسيكون من السهل تدمير كل القواعد البريطانية فى البحر المتوسط .

وقد ناقش هتلر تنفيذ هذه الخطط مع فرانكو فى هندايه (٢٣ أكتوبر ١٩٤٠) ومع بيتان ولافال فى منتوار (٢٤ أكتوبر ١٩٤٠) وأنشأ مكتباً خاصاً لاقتصاديات جيش إفريقيا . وفى ١٢ نوفمبر أصدر هتلر تعليماته رقم ١٨ بصدد التعاون الوثيق بين ألمانيا وبين حكومة فيشى الفرنسية ضد إنجلترا ، وبخاصة فى أملاك فرنسا فى شالى إفريقيا ، وبصدد تنفيذ العملية المشتركة فليث Felix مع إسبانيا للاستيلاء على جبل طارق وطرد القوات البريطانية من غربى البحر المتوسط . كما دعت هذه التعليمات إلى مديد المساعدة إلى إيطاليا فى مستقبل غير محدد ولكنه قريب نسبياً . وهكذا كان على ألمانيا أن تبذل نشاطاً فى البحر المتوسط وفقاً لما عبر عنه العسكريون ، ولكن على أن يكون محور العملية فى شتاء وربيع عام ١٩٤٠ هو الجزء الغربى من هذه المنطقة .

على أن المفاوضات التى جرت فى هندايه ومنتوار لم تتمخض عن أية نتائج محددة ، وتبخرت فى ديسمبر كل الآمال التى داعبت أحلام القيادة النازية. فى أكتوبر . وفى أوائل ديسمبر لم يقتصر الدكتاتور الإسبانى على رفض الاشتراك ، بل إنه أيضاً رفض الموافقة على القيام بهجوم ألماني على جبل طارق . وفى ١٣ ديسمبر كانت قد بدأت إحدى الفترات الدرامية فى تاريخ فرنسا المحتلة ، حين أخرج بيتان لافال من الوزارة . وفسرت برلين هذا الحادث تفسيراً صحيحاً إلى حد ما على أنه ضربة موجهة إلى سياسة التعاون على نطاق واسع - وهى السياسة التى وضعت أسسها فى منتوار ، وعلى أنه موجه بالتالى ضد استعمال شالى إفريقيا الفرنسى فى خطط هتلر الحربية .

ولاشك أن النشاط الألمانى فى غربى البحر المتوسط كان مقيضاً له أن يكون أمراً صعباً جداً فيما لو لم تتعاون حكومتا فيشى وفرانكو .

وقد أملت العراقيل الموضوعة فى غربى المتوسط احتمال إغلاق هذا الشريان البحرى من جهة الشرق - أى من اتجاه قناة السويس . كما أن التطورات التى حدثت

شرقي البحر المتوسط جعلت النشاط السياسي والعسكري النازي ينتقل إلى هناك .
وفي ٢٨ أكتوبر ١٩٤٠ غزا الميوسوليني اليونان ، ولكن مجرى القتال تطور بصورة غير مرضية بالنسبة إلى إيطاليا . فقد منيت القوات الإيطالية بخسائر فادحة ، ولم يقتصر اليونانيون على صد الغزاة ، بل إنهم اخترقوا حدود ألبانيا . وفي ليلة ١١-١٢ نوفمبر هاجمت الطائرات البريطانية التي كانت تحملها حاملة الطائرات إلستريوس القاعدة البحرية الإيطالية في تارانتو وأغرقت بالطوربيد عدداً من السفن الحربية - وقد عدل هذا الهجوم علاقات القوى البحرية في البحر المتوسط لصالح بريطانيا .

ويبدو من الرسالة الشخصية التي بعث بها هتلر إلى موسوليني في ٢٠ نوفمبر أنه شعر بالأسف الشديد للكارثة التي حلت بحليفه : فقد اعتبرها ضربة موجّهة إلى هيبة المحور ، وعبر عن مخاوفه من أن تمكن الحرب اليونانية إنجلترا من الحصول على قواعد جوية في اليونان تمكنها من مهاجمة آبار البترول الرومانية وموانئ ألبانيا وجنوبي إيطاليا . ولتجنب هذا الخطر اقترح الفوهرر أن يتم الاستيلاء على جبل طارق (وهو ما أصبح مهمة مستحيلة بعد وقت قصير) وعلى مرسى مطروح وإنشاء قاعدة جوية فيها تصلح لضرب الإسكندرية وبث الألغام في قناة السويس . وكان من المقيض لإغلاق قناة السويس في وجه النقل أن يصبح أهم إجراء عسكري ، على حين يؤجل غزو مصر إلى خريف العام التالي . وكتب هتلر أن من الممكن حل مشكلة البحر المتوسط في ذلك الشتاء باستخدام قوات ألمانية ، على أن تعود هذه القوات في موعد غايته أول مايو ١٩٤١ .

ثم قرر هتلر في ربيع عام ١٩٤١ لإرسال قوات ألمانية إلى اليونان . ولكنه لم يعدل خطته لكي يقوم بعمليات حربية في داخل مصر تقتصر على الاستيلاء على مرسى مطروح على أن يتلوه القيام بنشاط جوي . وفي ٥ ديسمبر صرح هتلر لبراوشتش وهالد وبراند بأن ليبيا لم تعد لها أية أهمية عسكرية بالنسبة إلى ألمانيا^(١).

Halder: Kriegstagebuch, II, Stuttgart, 1963, p. 309.

(١)

ولكن يجب أيضاً أن نستشف أن هتلر كان لا يزال يمول حينئذ على تنفيذ عملية « فليش » بمساعدة فرانكو في موعد أقصاه ١٠ يناير ١٩٤١.

ونحن نرجح ، بناءً على رسالة هتلر إلى موسوليني ، أن القوهر كان يفكر في شن هجوم في البحر المتوسط وغزو الاتحاد السوفيتي باعتبارها مرحلتين من الحرب تتلو إحداهما الأخرى وتكملها . إذ كيف يمكننا تفسير التاريخين اللذين أشار إليهما هتلر في ذلك الخطاب : أول مايو ١٩٤١ وخريف ١٩٤١ ؟ وقد نصت التعليمات الصادرة بعد ذلك بصدد عملية (برباروسا) على أن تبدأ عملية شن الهجوم على الاتحاد السوفيتي في مايو ١٩٤١ . ومن المعروف أيضاً أن الخطط النازية كانت تنص على انتهاء هذه العملية في خريف العام نفسه . وهكذا يبدو أن هتلر كان يتوقع في أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر ١٩٤٠ أن تحتل قوات المحور البلقان بحلول ربيع ١٩٤١ ، وأن تصيب قناة السويس بالشلل ، وتستولى على جبل طارق بمساعدة إسبانيا ، ثم تقوم بعد ذلك بغزو الاتحاد السوفيتي . وحين تنهى عملية برباروسا يصبح بحيز الإمكان حسم مسألة البحر المتوسط بصورة نهائية ، وذلك بغزو مصر واحتلال الأراضي التي تسيطر عليها بريطانيا .

هزائم إيطاليا والتعليمات رقم ٢٢

انهارت خطط هتلر خلال المرحلة الأولى لتنفيذها . فبرغم ضعف إنجلترا لم يسفر الهجوم الإيطالي الذي بدأ في ١٣ سبتمبر ١٩٤٠ عن أية نتائج . وفي ٥ سبتمبر ١٩٤٠ بلغ تشرشل مجاس العموم بالقرار الخاص بإرسال تعزيزات قوية إلى الشرق الأوسط من إنجلترا التي كانت تواجه حينئذ تهديداً خطيراً من احتمال تعرضها لغزو النازيين . وفي ٩ ديسمبر ١٩٤٠ هاجم الجنرال أرشيبالد ويقل - قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط - الجيش الإيطالي على حدود مصر . وفي غضون أسبوع تم طرد القوات الإيطالية من الأراضي المصرية وأجلبت عن السالم والبردية . وما حل شهر فبراير حتى كان قد قضى على قوات المرشال إيراتسياني (: فقد تم تسليم ١٩ جنرالاً و ١٣٠,٠٠٠ جندي ، ولم ينج من هذا المصير سوى ٧,٠٠٠ جندي . ووقعت بركة في أيدي البريطانيين . وهكذا تم الاحتفاظ بالمواقع الإنجليزية في البحر المتوسط ، وهي المواقع التي كان هتلر يهدف إلى القضاء

عليها خلال شتاء ١٩٤٠-١٩٤١ . وظهر رأى قوى فى إيطاليا ، يسانده جراتسيانى ، كان يتوقع فقدان إيطاليا لكل أملاكها فى شمالى إفريقيا .

وقد صدم هتلر للهزيمة المرة التى حاقت بالبحر فى شمالى إفريقيا ، وهى الهزيمة التى أدت إلى حد كبير إلى التراجع عن الخطط التى أفصح عنها فى رسالته المؤرخة ٢٠ نوفمبر - إذ أن المسألة لم تعد تتعلق باشتراك ألمانيا فى هجوم يتكلى بالنصر ، بل بتلافى آثار الكارثة . وفى ديسمبر طالبت إيطاليا ألمانيا بأن تساعدنا ضد اليونان ، كما طالبت بالأسلحة والمواد الخام ، بما فى ذلك مزيد من شحنات الفحم . ومنذ ذلك الوقت اتضحت العلاقة غير المتكافئة بين دولتى المحور بصورة متزايدة . ووافق الريخ على مطالب إيطاليا . ولكنه طالب بتزويد الصناعة الألمانية بالعمال الإيطاليين وبالإشراف على كيفية استخدام مساعدته . ومنذ ذلك الوقت بدأ الخبراء الاقتصاديون الألمان ومندوبو الجستابو والمخابرات العسكرية يحتلون مراكز قيادية فى إيطاليا .

كما جرى تعديل فى العلاقات بين دولتى المحور فى شمالى إفريقيا ذاته - وصرح يودل فيما بعد بقوله : « نظراً لظهور علامات ضعف القوات الإيطالية وبوادر فشلها ، أصبح شمالى إفريقيا أكثر من أى وقت مضى ميدان حرب ألماني » . وكانت نقطة البدء فى هذا الاعتقاد هى أحداث شتاء ١٩٤٠ - ١٩٤١ .

وفى ١٥ نوفمبر ، خلال المواجهة التى جرت بين كايبل وبادوليو ، تقرر تأجيل اشتراك القوات الألمانية فى العمليات الحربية فى إفريقيا بصورة متزايدة حتى يتم الاستيلاء على مرسى مطروح . وفى البداية لم تؤدِّ هزيمة جراتسيانى فى أوائل ديسمبر إلى أى تغيير فى هذا القرار . ولم تطالب القيادة الإيطالية العليا بمساعدة مباشرة فى ليبيا (١٩ ديسمبر) إلا بعد أن استقال بادوليو وتولى رئاسة الأركان العامة الكونت أوجو كافاليرو Ugo Cavallero نصير أكبر قدر ممكن من التحالف مع ألمانيا . وفى الوقت نفسه كان الإيطاليون بحاجة إلى أسلحة وعتاد لعشر كتائب ، وإلى مواد خام لصناعاتهم الحربية . وكان على ألمانيا أن ترسل كتيبة مصفحة إلى شمالى إفريقيا على وجه السرعة . فبرغم أن الجيش البريطانى المعسكر فى مصر كان أضعف بكثير من القوات الإيطالية من الناحية العددية ، إلا أنه كان ممكناً ويتكون من

قوات مدرعة قوية . وفي أوائل يناير طالب الإيطاليون من جديد بإرسال وحدة ألمانية مدرعة إلى ليبيا :

٥

وفي رسالة بعث بها هتلر إلى موسوليني في ٣١ ديسمبر أكد أن إيطاليا ستحصل من ألمانيا على المساعدة التامة . وفي مؤتمر عقده هتلر للتشاور مع قادته العسكريين في ٨ و ٩ يناير ١٩٤١ ، أشار إلى ضرورة القيام بكل ما يمكن القيام به لتجنب سقوط المواقع الإيطالية ، وأشار إلى أنه سيرسل قوات ألمانية قوية إلى شمالي أفريقيا واليونان لتحقيق هذا الغرض . وقد نصت التعليمات رقم ٢٢ الصادرة في ١١ يناير على أن من واجب ألمانيا أن تساعد إيطاليا لاعتبارات إستراتيجية وسياسية ونفسية . وكان الهدف الأول من وراء هذه المساعدة هو الاحتفاظ بطرابلس الغرب . وقد نصت هذه التعليمات على إرسال وحدة ألمانية (رابطة الحرية) إلى أفريقيا حوالي ٢٠ فبراير لمساعدة الإيطاليين على التصدي للقوات المدرعة البريطانية . وكانت المهمة الرئيسية لقوة الطيران (التي كان من المفروض نقلها من الترويج إلى صقلية طبقاً للتعليمات رقم ٢٢) هي التصدي للقوات البحرية البريطانية وقطع الاتصالات بين غربي البحر المتوسط وشرقيه . وكان على القوات الجوية الألمانية أن تهاجم من قواعدها في طرابلس الموانئ وموانئ التفريغ الواقعة على سواحل مصر وبرقة^(١) . وقد اعتبرت هذه العملية مجرد عملية دفاعية . وكان الألمان يرغبون في استخدام قوات صغيرة . وتأكدت هذه القرارات في مقابلة جرت بين هتلر وموسوليني في ١٩ - ٢٠ يناير في أوبر سالزبورج . وكانت القيادة الألمانية مقتنعة بأن الإيطاليين لن يحافظوا على برقة ، وأن لا خوف على طرابلس الغرب ، لأن كل العمليات الحربية هناك قد أوقفت في مايو بسبب الحرارة الشديدة . وما لبثت أن وردت التقارير من شمالي إفريقيا بأن القوات الألمانية المخصصة لهذا الغرض كانت غير كافية في ظل الموقف الجديد .

(١) يورد هوباتش نص الأمر في كتابه (أوامر هتلر الخاصة بإدارة الحرب ١٩٣٩ - ٤٥)

W. Hubatsch, Hitlers Weisungen für die Kriegsführung (1939-1945), pp. 93-5.

وفي ٢١ يناير قررت القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة تقديم تاريخ نقل القوات الألمانية إلى شمالي إفريقيا من ٢٠ فبراير إلى ١٥ (نفس المرجع ، ص ٩٦ - ٧) .

وكان من رأى هتلر وجنرالاته أن من المهم جداً المحافظة على الجبهة الأفريقية ، إذ أنهم كانوا يخشون أن يؤدي انهيار إيطاليا نهائياً إلى تمكين البريطانيين من استخدام قواتهم في ميادين أخرى للقتال .

وفي ٢٢ يناير سقطت طبرق قلعة إيطاليا الساحلية فيما وراء البحار ، وكان الإيطاليون يأملون أن تقاوم حاميتها وتحول دون زحف البريطانيين على بنغازي وأجدابية . وفي مؤتمر عقده هتلر في ٣ فبراير مع القيادة العليا رأى ضرورة تعديل آرائه السابقة ، وأشار إلى ضرورة إرسال لواء مدرع إلى إفريقيا بدلاً من وحدة تعويق . وكان عليه أن يشجب وجهة نظر براوشتش الخاصة بأن إرسال قوات ألمانية إضافية إلى ليبيا أمر مرغوب فيه . وفي ٢٧ يناير صرح القائد العام للقوات البرية المتهترة بأنه « لا يمكن المساس ببرباروسا أكثر من ذلك » . وصرح في مؤتمر انعقد في ٣ فبراير بمبالي : « ونحن نعمل حساباً ختامياً نجد أن برباروسا سوف تفتقد لها - أي القوات المدرعة التي كان من المتوخى أن ترسل إلى ليبيا - » .

وبالإضافة إلى اللواء رقم ٥ - مدرعات خفيفة - الذي خصص من قبل ، كان من المتوخى أن يشكل اللواء رقم ١٥ فيلق ألمانيا الإفريقي Deutsches Afrika-Korps .

وتم تبليغ موسوليني بهذا القرار في ٥ فبراير . وصدر الأمر في اليوم التالي بتنفيذ العملية زهرة الشمس (Sonnenblume) ، وهو الاسم الذي أطلق على عملية نقل القوات الألمانية بحراً إلى شمال إفريقيا ، وعين هتلر الجنرال إروين روميل قائداً عاماً لفيلق أفريقيا. وفي محادثة جرت في ٧ فبراير بين روميل وهتلر ، كلف القوهرر قائده بمهمة محددة جداً ، وإن تكن على جانب كبير من الأهمية من الوجهة السياسية . فقد كان عليه أن يحول دون ضياع مستعمرات إيطاليا في شمال إفريقيا ؛ لأن ذلك من شأنه أن يشكل كارثة بالنسبة إلى روح حليفه المعنوية . وكان من الضروري جداً أن يحال بين القوات البريطانية وبين الاقتراب من سواحل الأملاك الفرنسية التي كان يشرف عليها الجنرال فيجان الذي كان هتلر يشبهه في كونه على اتصال ببريطانيا . وفي هذه الحالة كان من الضروري شن هجوم مضاد . وكان على روميل أن يقود قوات ألمانيا وإيطاليا الميكانيكية تحت إمرة القيادة الإيطالية العليا لجبهة شمال إفريقيا . ولكن كان من المتوخى أن تكون القوات الجوية كلها

خاضعة للقيادة الألمانية التي كان يرأسها الجنرال فرولش Fröhlich بصفته قائداً لطيران إفريقيا . وكان لهذه المعارك هدف آخر هو السماح للقوات الجوية الألمانية بمجال أوسع للعمليات في شمال إفريقيا .

وحين رست الناقلات الألمانية الأولى في طرابلس الغرب كان موقف القوات الإيطالية ميئوساً منه في شمال إفريقيا وصعباً في بلاد اليونان . ولم يحدث تغيير في الموقف إلا في الربيع حين بدأ روميل هجموه في الصحراء وحين شن الألمان عملية ماريتا Marita في البلقان .

الموقف في البلدان العربية

وحين قرر الألمان الاشتراك في العمليات الحربية في شرق البحر المتوسط كان عليهم بالضرورة أن يبدوا اهتماماً أكبر بالبلدان العربية . وقد منحت للربيع الثالث فرصة طيبة لتقرير مصائر هذه البلدان .

وفي مصر كان يبدو أن الأحوال هادئة ، ولكن لم تنته الصراعات الناشئة في داخل الطبقة الحاكمة في مصر حول موقف مصر من الحرب . وفي ذلك الوقت خرجت إلى حيز الوجود مؤامرة عسكرية واضحة العداء لبريطانيا ، وأصبحت أساساً لحركة الضباط الأحرار التي استولت على الحكم في عام ١٩٥٢ - وكان يرعى هذه المؤامرة عزيز على المصري ، وهو شخص يكاد يكون أسطورياً في تاريخ الحركة القومية العربية . وبعد أحداث يونيو ١٩٤٠ كانت البلاد هادئة نسبياً برغم أن المتآمرين دبوا ثورة معادية لبريطانيا في نوفمبر . وتجمد الموقف في شتاء ١٩٤٠ - ١٩٤١ بسبب الانتصارات البريطانية وضعف إيطاليا ، وضمن تدفق القوات من شتى أرجاء الإمبراطورية البريطانية الأمن والاستقرار .

كما ساد الاستقرار العربية السعودية . فلم يكن لتطورات الحرب سوى صدى ضعيف هناك ، وأبدت الدوائر الحاكمة تحفظاً تاماً إزاء الحرب . ذلك أن اشتداد الهجوم البريطاني في شرق إفريقيا في بداية عام ١٩٤١ ، وتصفية إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية في ربيع العام نفسه وسيطرة الأسطول البريطاني

على البحر الأحمر — كل ذلك حال دون تخلي السعوديين عن موقفهم القائم على الترقب والانتظار .

وفي فلسطين كان الموقف هادئاً على الأقل من الناحية الظاهرية . ففي ذلك الوقت كانت الحركة القومية العربية بدون قيادة على حين أن وجود عدد كبير من القوات الإمبراطورية قد منع حدوث أى مصادمات عنيفة . حقيقة لقد نما شعور المقاومة في ذلك الوقت بسبب ارتفاع الأسعار والبطالة ، إلا أن هذه الصعاب الاقتصادية كان لها أثر آخر : فقد شغلت السكان باهتمامهم اليومية . ولما كان السكان العرب نهياً لعدم الاكتراث ، فإنهم لم يستجيبوا للتهيج الذى كان الهدف منه إنعاش الثورة التى كان يقوم بها مبعوثو المفتى على حين أن حزب الناشيبي واليساريين عارضوا صراحة مواصلة النضال المسلح . وقد تعاون السكان اليهود مع إنجلترا في كل ما يتصل بالحرب ، وحاولوا الإبقاء على نوع ما من الهدنة فيما يتعلق بالشئون الداخلية . ولكن هذه السياسة كانت أحياناً عرضة للسخط والاحتجاجات على عمل أو آخر تقوم به الحكومة .

وساد سوريا اتجاه يقوم على مبدأ « انتظر لترى » ولكن كان بالإمكان أن نستشف خطر القلاقل . وفي نهاية أغسطس وصلت إلى بيروت لجنة إيطالية للإشراف على تنفيذ اتفاقية الهدنة . وتم نقل المندوب السامى الفرنسى بيو Puauz في نهاية نوفمبر — والسبب الواضح لذلك أنه كان غير راض عن السياسة التى كانت تتبعها حكومة فيشى . وحل محله الرجعى المعروف شياب Chiappe الذى كان متعاوناً مع الألمان — وكان قبل ذلك حاكماً لبلوليس باريس . ولكن قتله الإيطاليون بالرصاص خطأ أثناء هروبه إلى سوريا . حيث أصبح هنرى دنتز Dentz مندوباً سامياً ، وقد وصل إلى سوريا في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٠ . ولم يكن بيو — الذى انضم إلى فرنسا الحرة فيما بعد — أو دنتز من أنصار ديغول ، واعترفت الإدارة الفرنسية بسلطة حكومة فيشى .

ولم يترتب على انهيار فرنسا أى تغيير في وضع الشعب السورى أو اللبناني . فلم يجر كلام حتى عن الإصلاح الدستورى ، على حين لم تكن لدى هيئة الإشراف الإيطالية نية مساندة المطالب السياسية العربية .

وقد قيل بوجه عام إن أعضاء اللجنة الإيطالية في سوريا كانوا يتصرفون تصرفاً سليماً تجاه الحكومة، ولم تكن للدعاية الإيطالية سوى أهمية قليلة . وقد اتبع الإيطاليون سياسة تقوم على عدم إضعاف القوات الفرنسية في سوريا ، إذ أنهم اعتقدوا أن من دواعي العقل أن يسمح للحكومة الفرنسية بتحمل مسئولية الموقف الصعب . وحين حاول بعض أعضاء الحزب القوي السوري الماليء للفاشية ضمان مساندة إيطاليا لنشاطهم ، قوبلوا بالرفض الذي كان مرجعه أن روما كانت تريد أن تستعمر بلدان الشرق الأوسط وبالتالي لم تكن ترغب في أن تقوم بعمل من شأنه أن يؤدي إلى نمو الحركة الاستقلالية العربية . وقد سجل عملاء ألمانيا ومراقبوها نفشى الاستياء لدى العرب وخوفهم من أن تترك ألمانيا سوريا ولبنان لإيطاليا . لهذا ازداد النفوذ البريطاني في سوريا ولبنان بصورة ملحوظة ، إذ أن بريطانيا كانت ، فوق كل شيء ، تحظى لدى العرب باحترام يفوق ما تحظى به إيطاليا ، كما أن المشاعر المعادية لإيطاليا كانت أقوى من الشك في نيات بريطانيا . وبعد سقوط فرنسا تم فصل سوريا عن منطقة الشرق الأوسط التي تسيطر عليها بريطانيا . وقد أدى هذا في وقت الحرب إلى خلق مصاعب ، وبخاصة فيما يتعلق بمؤن الطعام .

وكان من الطبيعي أن يرغب القوميون العرب في استغلال ضعف فرنسا لتحقيق أغراضهم . وكان الظرف يبدو مناسباً لذلك بسبب تسجيل ألمانيا نصراً بعد آخر في أوروبا وتشجيع دعاية برلين للنشاط القومي . وفي نفس الوقت كانت تكاليف الحياة آخذة في الارتفاع ، وكان ثمة نقص في المواد الأساسية كالكبروسين والخبز والسكر . وكان هذا من وراء المظاهرات الجماهيرية ضد الحكومة التي تحولت إلى اضطرابات في بداية عام ١٩٤١ . ولم تحل أعمال القمع التي قامت بها السلطات الفرنسية دون نشوب قلاقل جديدة في أواخر فبراير حين أدت أعمال القمع التي قام بها البوليس إلى نشوب إضراب عام . وفي أوائل مارس ارتفعت أسعار الخبز بنسبة ٥٠٪ مما أدى بطبيعة الحال إلى ازدياد عوامل السخط . وتزعمت الكتلة الوطنية التي كان يرأسها شكرى القوتلى الحركة المعادية للحكومة . كما اكتسحت القلاقل مدن لبنان ، وكان على الجنرال دنتر أن يقدم بعض التنازلات ، وأجبرت الوزارتان اللتان تولتا الحكم على أثر وقف دستوري سوريا ولبنان على الاستقالة وشكلت وزارتان جديدتان .

في أوائل أبريل وأصبح خالد العظم رئيساً للوزارة السورية وألفريد نقاش رئيساً للوزارة اللبنانية .

ولكن التنازلات كانت شكلية ، لأن السلطة الحقيقية بقيت في أيدي الفرنسيين . فقد أبعد زعماء الكتلة الوطنية وغيرهم من الساسة الوطنيين البارزين عن الحكومة . وبإمكاننا أن نستنتج بسهولة أن المظاهرات المعادية للفرنسيين قد أفادت بريطانيا بشكل غير مقصود ، ولكنها لم تكن تتمشى مع مصالح المحور ، رغم أن الدعايات الإذاعية الألمانية والإيطالية قد وجدت أرضاً خصبة في هذا المجال ، كما هو الحال في بلدان عربية أخرى . وفي محادثات أجراها ممثلو ألمانيا مع الزعماء العرب أوضحوا بشدة عدم رغبتهم في نشوب أي اضطرابات في سوريا .

ومن وجهة النظر البريطانية كانت سوريا ولبنان تشكلان خطراً محتملاً بالنسبة إلى مراكز بريطانيا في الشرق الأوسط — إذ في حالة قيام تعاون وثيق بين المحور وحكومة فيشي ، كان بإمكان هتلر أن يهاجم قناة السويس من الشمال عبر سوريا وفلسطين . وقد وضعت لندن هذا الخطر نصب عينها ، وأصبح موضوع اهتمام كبير من جانب الضباط الذين كانوا يقودون القوات الإمبراطورية في الشرق الأوسط . وحين خرجت حكومة فيشي من عصبة الأمم في ربيع عام ١٩٤١ كثرت الإشاعات حول تخصيص قسم من سوريا ولبنان لألمانيا . وكانت تتنازع الألمان مخاوفهم الخاصة بالنسبة إلى سوريا : فقد قلقت وزارة الخارجية الألمانية لانتشار إشاعات كثيرة عن قرب غزو بريطانيا لسوريا ، وشاركها هتلر مخاوفها .

الصراع السياسي في العراق

واجهت بريطانيا صعوبات خطيرة في العراق — فقد رفضت حكومة رشيد عالي الكيلاني السماح بحشد القوات البريطانية في البلاد أو قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا . وبالإضافة إلى ذلك راجت إشاعات فجواها أن الحكومة العراقية كانت تفكر في استئناف علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا . وفي أكتوبر ١٩٤٠ دخلت القوات الألمانية رومانيا وهاجمت إيطاليا اليونان وأصدرت كل من دولتي

المحور تصريحاً أكدت فيه عطفها على العرب ومساندتها لآمالهم . وكانت لهجة الصحافة العراقية لإزاء إنجلترا قد أصبحت أكثر عداء .

وحتى ذلك الوقت كانت بريطانيا تعدل في العراق عن طريق ساسة عراقيين مخلصين . ولكن طبقاً للمقترحات التي تقدم بها الجنرال ويقل ورؤساء أركان الحرب قرر مجلس وزراء الحرب في ٧ نوفمبر ١٩٤٠ اللجوء إلى الضغط المالي والاقتصادي المباشر . وتقرر في الوقت نفسه إرسال بعثة إلى العراق برئاسة شخصية معروفة جيداً وتحظى بقسط وافر من الاحترام هناك . وطبقاً للتعليمات التي أصدرتها لندن حذر السفير البريطاني سير باسل نيوتن الحكومة العراقية من أن بريطانيا سترغم على مراجعة موقفها لو استأنف العراق علاقاته بألمانيا . وحين أنكرت الحكومة أنها بيتت مثل هذه النوايا أعلن السفير البريطاني أن لندن لا تكن أى ثقة في رشيد عالي وأن على العراق أن يختار بينه وبين صداقة بريطانيا^(١) . وفي ٢٩ نوفمبر ساندت وزارة الخارجية البريطانية الموقف الذي اتخذته السفير الذي أجرى محادثات مع وزير الخارجية نوري السعيد والوصي على العرش الأمير عبد الإله ، في محاولة لتنظيم مقاومة فعالة لرئيس الوزراء . وشكا السفير من أن الحكومة البريطانية لم تحصل على التعاون الذي تعطيها المعاهدة الحق في ممارسته ، وطالبت بإسقاط رشيد عالي^(٢) .

وقد اتهم سير باسل نيوتن رشيد عالي باستئناف الاتصالات التلغرافية مع ألمانيا وإيطاليا ، وحمله مسؤولية عدم قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا وعدم إيقاف الدعاية الصحفية الممالة لألمانيا والمعادية لبريطانيا ومصادره النقد الموجه إلى تصريح المحور الصادر في ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ وعدم إنكاره الإشاعات المتعلقة بإزماعه إعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا . وشكا السفير البريطاني فوق كل ذلك من أن رشيد عالي كان يتبع سياسة حيادية بدلاً من السياسة القائمة على صداقة بريطانيا ، بل إنه تجنب الاعتراف علناً بتحالف العراق مع إنجلترا . وكان من رأى

(١) مذكرة فورمان ، برلين في ١٢ ديسمبر ١٩٤٠ . نعى إلى علم فورمان عن طريق كيس - الموظف بالسفارة اليابانية - أن العراق رفض طلب بريطانيا الخاص بإبعاد رشيد عالي (انظر خضوري ، ص ١٩٤) .

(٢) مذكرة فورمان ، برلين في ١١ ديسمبر ١٩٤٠ ، زود كوسمالي Cosmelli - الموظف بالسفارة الإيطالية في برلين - بمعلومات عن العراق . (انظر خضوري : نفس الصفحة السابقة) .

البريطانيين أن تصريح أكتوبر قد صدر بناء على طلب رشيد عالي، وأن الاتصالات التلغرافية قد أعيدت بناء على طلب فون بابن الذي نقله ناجي شوكت إلى بغداد .

وفي ٥ نوفمبر تحدث بول نابيشو Knabeshue - وزير أمريكا المفوض في بغداد - مع رئيس الوزراء العراقي ووزير الخارجية باسم كوردل هل وزير خارجية الولايات المتحدة . وقد حذر نابيشو العراق من إضعاف تعاونه مع بريطانيا ، وتكلم عن روح المقامرة لدى الحكومة العراقية ، وأكد أن الولايات المتحدة تقدم لإنجلترا كل مساعدة ممكنة دون دخول الحرب ، وأنها ستواصل ذلك . كما حاولت تركيا أن تقنع العراق بتنفيذ الالتزامات التي كانت تفرضها عليه المعاهدة إزاء بريطانيا . ثم رجا رئيس وزراء مصر رشيد عالي ألا يقيم علاقات مع ألمانيا^(١) . ولكي يضغط البريطانيون على العراق قطعوا عنه العتاد والأسلحة وأوقفوا حصته من دولارات كتلة الاسرلي التي كانت تشرف عليها إنجلترا - وقد أدى كل هذا دون شك إلى ازدياد الشعور المعادي لبريطانيا لدى الضباط .

ثم طلب مجلس الوزراء البريطاني من الولايات المتحدة أن توقف وتعرض على كل تصدير للأسلحة إلى العراق ، ووافقت الحكومة الأمريكية . ورد رشيد عالي على كل الوساطات بأنه لا يكن أي نيات عدائية لإنجلترا واحتج على كل تدخل في شؤون العراق الداخلية .

وقد صاغ أشد الساسة العراقيين مناصرة لبريطانيا - الجنرال نوري السعيد - بالاشتراك مع رئيس الوزراء مذكرة^(٢) أشار فيها إلى أن الإمبراطورية البريطانية لم تكن على الأقل تواجه الانهيار كما كان مفهوماً بعد سقوط فرنسا ، وأنها قادرة تماماً على محاربة المحور . وأوضح المساعدة التي تقدمها أمريكا لإنجلترا ، وحذر من العواقب - وبخاصة من جانب الولايات المتحدة - المترتبة على رفض العراق للتعاون مع إنجلترا . كما أشار نوري باشا إلى أن التعاون مع بريطانيا ومصادقة الولايات المتحدة كانا يتضمنان الوعد الخاص بتحقيق أمانى العرب القومية ، وآمال الفلسطينيين بوجه

(١) أخبر رشيد عالي سكرتير المفوضية الإيطالية بذلك في ٢٠ يناير ١٩٤١ - مذكرة فورمان ، برلين في ٧ فبراير ١٩٤١ .

(٢) نشرت في جريدة Iraq Times بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٤١ .

خاص . وكان من رأيه أن الميثاق الروسي - الألماني كان غير طبعي ومؤقتاً وأن الاتحاد السوفيتي سيحارب في نهاية الأمر إلى جانب بريطانيا ضد ألمانيا . وطالب بإعلان الحرب على ألمانيا وإرسال فرقتين عراقيتين إلى ليبيا وإيفاد مفتي القدس إلى الولايات المتحدة لتوجيه الدعاية الخاصة بالمطالب العربية . وفي محاولته استمالة قادة الجيش العراقي حاول نوري أن يقنعهم بأنهم سيكونون أول ضباط في جيش عربي نظاى يشتركون في حرب حديثة ، وأنهم سيمحظون باحترام العرب وحبه الكيبريين . وخلص إلى وصف براق لزحف القوات العراقية المنتصرة عبر سوريا .

وقد يبدو الآن أن من المحتمل أن آراء نوري السعيد قد تضمنت بعض دواعي الإقناع ، ولكن أهم العوامل بالنسبة إلى أنصار الوحدة العربية في ذلك الوقت هي أن الحكومة البريطانية لم تبد أى استعداد لتقديم أى تنازلات أساسية وأنها ظلت تأمل في الواقع أن تؤجل حل كل المشكلات التي أثارت الجدل إلى نهاية الحرب . ولا شك أنه لم يكن من شأن مثل هذا الموقف أن يقنعهم بالتعاون مع بريطانيا . وكان من رأي صلاح الدين الصباغ ، أحد كبار أعضاء « المربع الذهبي » ، أن إنجلترا معزولة وأنها على شفا الخراب . وساد الاعتقاد لدى الوطنيين العراقيين بأن أى خطوة حاسمة يجب أن تؤجل حتى يتضح رأى الاتحاد السوفيتي^(١) - إذ يبدو أن الأغلبية كانت تتوقع من الاتحاد السوفيتي أن يقف إلى جانب أعداء بريطانيا^(٢) .

ورفضت أغلبية الوزارة وجهة نظر نوري السعيد التي لم يوافق عليها أيضاً أغلبية كبار الضباط . لهذا فكر نوري في الاستقالة من الوزارة ، وتغيب بشكل مثير للالتفات عن مناقشة السياسة الخارجية . ومن المحتمل أنه انسحب من أعمال مجلس الوزراء^(٣) .

(١) الصباغ : فرسان العروبة في العراق ، ص ١٥٣ - حداد ، ص ٨١ . يلعب حداد إلى أن عدة اجتماعات للرعاة الوطنيين قد جرت في نهاية عام ١٩٤٠ حين أخذ بوجهة النظر هذه .

(٢) الصباغ ، ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٩ . ولكن « حداد » يؤكد في مذكراته أن الزعماء العرب كانوا على بينة من أن العلاقات بين السوفيت والبريطانيين كانت آخذة في التدهور . (حداد : ٨١ - ٨٢ ، ٩٠) .

(٣) من الممكن استنتاج ذلك من رسالة باين (أنقرة ، ٤ يناير ١٩٤١) . وفي هذه الرسالة بلغ فون باين برلين بالمناقشة التي جرت بينه وبين وزير العراق المقوض في أنقرة : كامل الكيلاني .

وفى البرلمان - الذى لم يعوزه أنصار إنجليترا - علت بعض الأصوات المحبذة للتعاون مع إنجليترا ، وذلك بعد أن وقعت الهزيمة بالإيطاليين فى الصحراء الغربية . ورغم ذلك فإن رئيس الوزراء ، تمسباً مع سياسته ذات الوجهين أعلن أن العراق من حيث المبدأ يرغب فى أن يكون بعيداً عن الحرب وفى أن يواصل النضال لتحقيق الأمانى العربية . وقد وضع الإخلاص للالتزامات المعاهدة بعد كل المسائل الأخرى . وجرت خطوة أخرى فى معركة لإخراج رئيس الوزراء حين عبر الوصى عن رغبته فى استقالة رشيد على^(١) . وكان وضع رشيد على آخذاً فى التدهور^(٢) . وقد حاول وزير الدفاع ، الجنرال طه الهاشمي ، أن يضع حداً للأزمة ، فاقترح أن يستقيل من الوزارة زعيما الفريقين المتناصران أى نوري السعيد وناجي شوكت . وفى ٢١ يناير استقال نوري ، وبعد يومين استقال ناجي شوكت - ومن الواضح أن استقالته كانت راجعة إلى مزيد من الضغط الذى عجل بمحدث أزمة جديدة . وكانت النتيجة أن اعتبر كل الوزراء فى الواقع بمثابة مستعيلين . وإزاء ضغط الصاغات الأربعة عين الوصى وزيرين جديدين فى ٢٨ يناير هما يونس السبعوى وعلى محمود الشيخ ، وكانت النتيجة هى استمرار وزارة الكيلاني فى الحكم . ولكن حين ووجهت بالمعارضة فى البرلمان طلب رئيس الوزراء من الوصى أن يحل البرلمان ، وهرب الوصى من المدينة بعد أن طلب مهلة حتى المساء . ولما كان رشيد على قد عجز عن حل البرلمان ، فقد كان عليه أن يستقيل ، وتولى طه الهاشمي رئاسة الوزارة بناء على طلب الصاغات الأربعة . وكانت الوزارة الجديدة أكثر حذراً ، ولكنها لم تستمر طويلاً . وتدخل الجيش من جديد فى أول إبريل ١٩٤١ ، فسقطت هذه الوزارة وأصبح رشيد على من جديد رئيساً للوزراء .

وهكذا لم يحقق التدخل البريطاني - الذى جعل الوصى وغيره من الساسة المواليين بريطانيا يميلون إلى معارضة رئيس الوزراء خلال الانتصارات التى أحرزها البريطانيون فى ليبيا - النتائج المرجوة . وما لا شك فيه أن هذا التدخل لم يؤد إلا إلى ازدياد

(١) لم يمنح الملك حق إقالة رئيس الوزراء إلا طبقاً للتعديل الذى أجرى على الدستور العراقى ، وهو التعديل الذى تقرر فى ٢٧ مايو ١٩٤٣ (انظر خضوري ، ص ٢٨٩ - ٩٧) .

(٢) كان رئيس الوزراء فى موقف صعب جداً من أسبابه أن دولي المحور لم تستجيب له حين طلب منها المساعدة . ومنفصل ذلك فيما بعد .

توتر العلاقات الإنجليزية - العراقية ، وقد أدى فشله فيما بعد إلى إثارة النقد ، وبخاصة من جانب سير باسل نيوتن . وقد ذكر مؤرخ هذه الفترة - مجيد خضوري « أن الأزمة بين إنجلترا والعراق قد انزلت ، بصورتها النهائية ، إلى مستوى مجرد إزاحة رشيد عالي من رئاسة الوزارة » ، وأن « من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى انضمامه إلى المتطرفين » . ووفقاً لما يذكره خضوري لم يكن رشيد عالي بالضرورة يرغب في إثارة نزاع مع بريطانيا ، ولكن ممثلها في العراق أمعنوا في تعقيد الموقف بتزويد لندن بمعلومات خاطئة . وبرغم أن مجيد خضوري يقر في الطبعة الثانية لكتابه أن رشيد عالي كان من أنصار المحور ، فإنه يكرر وجهة النظر السابقة . وتتهم فرايا ستارك Freya Stark التي كانت في القاهرة أثناء الأحداث المشار إليها ثم أتت إلى بغداد في أوائل مايو - السفير البريطاني ، ولو بصورة جزئية على الأقل ، بأنه مسئول عن تطور الأحداث في العراق ، وتصفه بعدم الكفاءة وبالجهل بالشرق^(١) ويشارك مؤلفون بريطانيون آخرون وجهة النظر هذه .

ولا شك أن بإمكاننا القول بأن بريطانيا كانت في ذلك الوقت تنجي ثمار سياستها العراقية في فترة ما بين الحربين ، وأن تدخلها في شئون البلاد الداخلية قد أساء إلى الشعور الوطني . حقيقة أن باسل نيوتن لم يكن على علم بالشرق ، ولم يصف كونه وزيراً مفوضاً في براغ أثناء مؤتمر ميونخ شيئاً جديداً إلى سمعته . وبرغم ذلك فن الواجب أن نقيم الخطوات التي اتخذتها الحكومة البريطانية في نوفمبر والشهور التالية على ضوء ما هو معروف عن اتصالات رشيد عالي بالمحور والإجراءات الأخرى التي اتخذها والتي سببها أنها لم تكن بخافية على مجلس الوزراء البريطاني .

ولا يمكننا أن نعول على آراء رشيد عالي الشخصية ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يستند إلى خضوع حكومته للمربع الذهبي وبوجه عام للجيش الذي كان في أيدي الصاعغات الأربعة . أما فيما يتعلق بموقف الضباط المعادي لبريطانيا ، فلم يكن باستطاعة الكيلاني أو غيره من أعضاء الوزارة أن يشكوا في ذلك بأي حال . أما العامل الذي عقد الموقف فهو نشاط المفتح الذي كان يفكر بالفعل في أواخر عام ١٩٤٠ وأوائل عام ١٩٤١ في التصدي لبريطانيا بقوة السلاح .

مطالب رشيد على رحلة حداد الثانية

وبحلول أواسط ديسمبر على أقصى تقدير كانت الحكومة الألمانية قد أصبحت متنبهة إلى رغبة العراق في المساعدة الاقتصادية والعسكرية وتنسيق النشاط الدعائي . وقد قدمت رغبات العراق إلى وزير إيطاليا المفوض في بغداد^(١) ووصلت برلين بطريق غير مباشر بعد أن تأخرت كثيراً . وجرت المفاوضات حول تسليم الأسلحة والذخيرة في ديسمبر . كما قدم رشيد على إلى القائم الياباني بالأعمال في بغداد وإلى الملحق العسكري الياباني في طهران التماسات بطلب التنازل الحربي على أساس تجاري . وكان ما يحتاجه العراق - وفقاً لما كتبه المفوضية الإيطالية كالآتي : ٤٠٠ مدفع ميكانيكي خفيف مع الذخيرة اللازمة لها ، ٥٠ عربة مصفحة خفيفة و ١٠ بطاريات مضادة للطائرات مع الذخيرة والتجهيز ، ومفرقات وصواريخ مضادة للمدرعات وألغام و ١٠٠,٠٠٠ قنار واق من الغازات ، وأعلن أحد المسؤولين أن الجيش العراقي يفضل الأسلحة والذخائر البريطانية التي تم الاستيلاء عليها لأن تجهيزه كان في الأصل إنجليزياً . ولكنه لم يرفض الأسلحة الألمانية أو الإيطالية^(٢) . ثم تلقت الحكومة الإيطالية طلباً بتجهيز فرقة عراقية كاملة^(٣) ، ولكن ردها كان مشوباً بكثير من التحفظ .

وحين ازداد التوتر الموقف السياسي في بغداد وتفاقم موقف رشيد على سعى الوطنيون إلى أن يوضح المحور موقفه من برنامجهم ومن الحصول على الأسلحة . وبعد مشاورات

(١) مذكرة فورمان ، برلين في ٧ يناير ١٩٤١ ، يشير فورمان في مذكراته إلى تقرير وزير إيطاليا المفوض الخاص بمحاثة له مع أحد صاغات المربع الذهبي الأربعة ، وهو قائد الكتيبة الميكانيكية الثالثة صلاح الدين الصباغ . وقد كتب الصباغ ذاته (المرجع السابق ، ص ١٤٠) أنه كان قد أعد لوزيرين المفوضين الإيطالي والياباني قائمة محددة بالأسلحة اللازمة لأربع فرق .

(٢) مذكرة فورمان بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٤١ . وقد أخبر حداد فورمان بذلك . على أن الحكومة الإيطالية أنكرت أنها تلقت مثل هذا الطلب (مذكرات فورمان ، برلين في ٦ مارس ١٩٤١) .

عدة قرروا الحصول على أسلحة ألمانية عن طريق الاتحاد السوفيتي وإيران وإقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي وحمله على الاعتراف باستقلال البلدان العربية . كما نوقشت مسألة تنظيم حزب سياسي يسعى إلى تحقيق الوحدة العربية ولكن لم يتسن الوصول إلى قرار نهائي حول هذه المسألة . وقد أدى بطء الاستجابة لمطالب العراقيين أنصار الوحدة العربية إلى سعيهم إلى إقامة اتصالات مباشرة مع برلين وروما . فقد بدأت تنضب الأموال التي قدمت للمفتي خلال زيارة حداد إلى أوروبا (أغسطس أكتوبر ١٩٤٠) لهذا اقترحت بغداد على ألمانيا في ديسمبر ١٩٤٠ أن يقوم السكرتير الخاص للمفتي برحلة أخرى إلى روما وبرلين . وكان على حداد أن يتوقف في طريقه في تركيا وسويسرة حيث كان يقيم عدد من أنصار الوحدة العربية المتطرفين . وفي ٢٢ فبراير سنة ١٩٤١ بارح عثمان كمال حداد بغداد مزوداً برسالة من الحاج أمين الحسيني (بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٤١) موجهة إلى « فخامة فوهرر ألمانيا العظمى ، أدولف هتلر ، برلين » .

أما فيما يتعلق بإقامة علاقات مع الاتحاد السوفيتي فقد أرسل رشيد عالي تلعبات رسمية إلى أخيه كامل الكيلاني الوزير المفوض في أنقرة .

وفي الرسالة التي بعث بها مفتي القدس إلى هتلر أعاد عرض المطالب القومية والشكاوى من إنجلترا وفرنسا . وأشار إلى أن كراهية العرب لإنجلترا كانت « جذورها العميقة مرجعها المصلحة الأساسية والمشاكل الحيوية لا المسائل التي لا جدوى منها والتي لها نتائج سطحية ومؤقتة » . وأكد أن العرب يكتنون عطفاً عميقاً على دولتي المحور وأنهم على استعداد للثورة ضد العدو المشترك بمجرد « تخلصهم من بعض العقبات المادية » حتى يصبح بإمكانهم أن يسهموا قدر طاقتهم في « الهزيمة التي يستحقها التحالف الإنجليزي - اليهودي عن جدارة » . وشكر الحسيني هتلر لتدخله في المسألة الفلسطينية ، وكتب في النهاية أنه على وشك إرسال سكرتيه الخاص إلى برلين للتفاوض مع الحكومة الألمانية « باسم أقوى وأكبر تنظيم في العالم العربي » وباسمه هو أي باعتباره « مفتي فلسطين الأكبر » . وذكر أن العرب على استعداد لحمل السلاح ولكن بشرط أن « تتحقق بعض المصالح ذات الطابع المادي والمعنوي » وأضاف أن العرب كانوا في ذلك الوقت في وضع يؤهلهم

لأن يلعبوا دوراً هاماً بشكل استثنائي لأن « الصدفية الجغرافية وضعتهم على مفارق الطرق البرية والبحرية، وعند النقطة التي تلتقي فيها مواصلات بريطانيا الإمبراطورية ». وكان العرب في وضع يمكنهم من تهديد طرق المواصلات البريطانية ، بل وقطع الاتصالات بين الهند والبحر المتوسط وتركيا عن طريق الخليج العربي ، ومن أن يجعلوا استغلال بريطانيا لبرول الشرق الأوسط أمراً مستحيلاً .

وهكذا قدم المفتي عرضه باسم « أقوى وأكبر تنظيم عربي » ، وهو الاسم الذي أطلقه على مجموعة من السياسيين العرب المعادين لبريطانيا . ولقد طالب بوعود محددة بصدد المساعدة المادية ومستقبل البلدان العربية . وكان سكرتيره الخاص ، الذي وصل إلى برلين في ١٢ فبراير عن طريق أنقرة وروما ، يحمل مسودة تصريح خاص بهذه القضايا مكتوبة باللغة الفرنسية مثل رسالة الحاج أمين . ووفقاً لما جاء بالمسودة كان من المتوخى أن يشتمل التصريح على ثمانية نقاط هي :

١ - الاعتراف « بالاستقلال التام » للبلدان العربية المستقلة بالفعل : العراق ومصر والسودان (هكذا) والعربية السعودية واليمن .

٢ - الاعتراف باستقلال البلدان العربية الواقعة تحت الانتداب البريطاني (فلسطين وشرق الأردن) والبلدان التي تشكل مستعمرات أو محميات بريطانية (وقد ورد في المسودة اسم الكويت ودبي وعمان وحضرموت) .

٣ - تصريح بأن ألمانيا وإيطاليا لن تعترضاً على حصول سوريا على الاستقلال التام .

٤ - إلغاء التحفظات على الاستقلال التام لمصر والسودان ، وهو الاستقلال الذي تضمنته المعاهدات المعقودة مع بريطانيا ، مع تحفظ إيطاليا فقط على الحق في ضمان خطوط مواصلاتها الإمبراطورية عبر السودان بالانفاق مع مصر .

٥ - تصريح بأن ألمانيا وإيطاليا لن تستغلا أية وسيلة - كنظام الانتداب - من شأنها أن تضعف استقلال البلدان العربية التام .

٦ - الاعتراف بحق البلدان العربية في الوحدة والالتزام بعدم إيجاد أى عبة في طريق البرنامج القوي بهذا الصدد :

٧- التنديد بالوطن القوي لليهود في فلسطين باعتباره كياناً غير قانوني ، والاعتراف بحق العرب في حل المشكلة اليهودية وفقاً للأمانى القومية العربية وبنفس الطريقة التى تجرى في بلدان المحور ، وتحريم كل هجرة يهودية إلى البلدان العربية .

٨- لا ترغب إيطاليا وألمانيا إلا في أن تتمتع الأمة العربية كلها بالرخاء التام وأن تتبوأ مكانها التاريخي والطبيعى في مجال حياتها المناسب لها في نطاق النظام العالمى الجديد وفي تعاون اقتصادى مع دولتى المحور على أساس تبادل المنافع . ومن المرغوب فيه أن تعترف البلدان العربية من جانبها بالحالة القائمة في كل ما يتعلق بالأملاك والكنائس والبعثات المسيحية ، وحق مختلف الطوائف الدينية المسيحية في العبادة ، وبالنشاط ذى الطابع الإنسانى (المستشفيات وملاجئ الأيتام ومؤسسات المكفولين) .

وكانت هذه الوثيقة تختلف بعض الشيء عن المسودة التى اقترحها حداد منذ عدة أشهر . ففيها انقسمت البلاد العربية إلى ثلاثة أنواع : مستقلة ، وواقعة تحت السيطرة البريطانية ، وواقعة تحت الحكم الفرنسى . وفيما يتعلق بالنوع الثالث نصت المسودة إلى أقل التزامات ممكنة من جانب المحور . ومن ناحية أخرى كانت صيغة المسودة غير محددة بشأن الدور الذى تلعبه البلدان العربية في « النظام الجديد » . ومن الناحية الثالثة كانت المسودة أكثر تفصيلاً في بعض النواحي وتضمنت بعض النقاط قيوداً أكثر تحديداً على سلطة دولتى المحور في الأراضي العربية في المستقبل . وكانت هذه القيود تتعلق بالمسائل المرتبطة بالمسيحية في فلسطين وبالمواصلات الإمبراطورية الإيطالية عبر السودان الذى كانت المسودة واضحة في الإشارة إليه باعتباره بلداً متحداً مع مصر . ولكن الطريق البحرى المار بقناة السويس والبحر الأحمر ومضيق باب المندب كان يشكل أهم طريق للمواصلات يربط إيطاليا بمستعمراتها في شرق إفريقيا ، فإذا ما وضع جنود إيطاليون في نقاط تسيطر على هذه الشرايين ، حصلت إيطاليا في مصر والسودان وعلى شواطئ شبه جزيرة العرب الغربية على المواقع نفسها الواقعة في أيدي البريطانيين .

ووقعت رغبة العرب في الحصول على الأسلحة والمساعدة المادية ، كما وقعت مطالبهم السياسية ، على أرض خصبة في برلين في أوائل عام ١٩٤١ . وقبل ذلك

بشهور قليلة لم تكن ألمانيا أو إيطاليا تميل إلى القيام بهذه المهام، ولهذا قررنا الاقتصار على تصريح ٢٣ أكتوبر . ولكن طريقة تطور الموقف بحلول شتاء ١٩٤٠ - ١٩٤١ واشترك قوات ألمانيا في القتال في جبهة شمال إفريقيا، مما جعل الألمان ينشغلون بالشئون العربية بصورة أكثر جدية برغم أن هذا ، كما سنرى ، كان يتضمن صعباً سياسية وفنية لم تكن بالقليلة .

الفصل السابع الألمان والثورة العراقية

بعثة فون هنتج إلى سوريا

كان الألمان قد استعدوا للتصدى لشئون الشرقين الأدنى والأوسط قبل وصول حداد إلى برلين ببعض الوقت . وبالإضافة إلى ذلك كانت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية قد نشطت في هذا الجزء من العالم على الأقل منذ أغسطس ١٩٤٠ وذلك بالاتفاق مع وزارة الخارجية الألمانية . وقد ازداد هذا النشاط دون أن تعترضه عوائق في سوريا ، حيث كانت الظروف مناسبة جداً منذ سقوط فرنسا . ففي بداية خريف عام ١٩٤٠ توجه ألفرد روزر Alfred Roser من موظفي وزارة الدفاع الألمانية إلى سوريا باسم القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية . ومن هناك أرسل إلى برلين تقييمه للموقف ولفرص النشاط في « المناطق العربية » وفي سوريا بوجه خاص (١) . ولكن هذا لم يكن كافياً لمواجهة الموقف الجديد الذي نشأ بحلول أواخر عام ١٩٤٠ ، ولهذا بدأت وزارة الخارجية الألمانية تخطط سياسة ألمانيا إزاء البلدان العربية . وما حل ذلك الوقت حتى كان بالإمكان ملاحظة تغييرات في وجهة نظر الموظفين الألمان بمقارنتها بوجهة النظر التي كانت قائمة في سبتمبر - أكتوبر ١٩٤٠ في الوقت الذي كان يعد فيه التصريح الألماني - الإيطالي الذي أعلن في تلك السنة . وفي المذكرات التي أعدها قلهم ملشرز Melchers - رئيس القسم السابع للتقارير السياسية والذي كان في عام ١٩٦٢ سفيراً لجمهورية ألمانيا الاتحادية في نيودلهي - لمؤتمر ٩ ديسمبر ١٩٤٠ الذي عقد في مكتب الوزير ، قام بتحليل الموقف القائم في البلدان العربية . وقد أشار إلى التوتر السائد في سوريا والعراق ، كما أشار إلى كره الشعوب العربية الواضح للإيطاليين وإلى النشاط المتزايد الذي كان يقوم به

(١) مذكرات ملشرز ، برلين في ٢٧ نوفمبر ١٩٤٠ - بالمر إلى وزير الخارجية ، بيروت في ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ (FRUS) ، كتب « أمضى روزر هنا ثلاثة أسابيع ، ولكن تصرفاته لا غبار عليها » .

البريطانيون والديجوليدون . وعبر ملشرز عن مخاوفه من أن يؤدي ضيق العرب بالسلبية الألمانية إلى حملهم على الوقوف في صف البريطانيين ، وأن ذلك قد يكون له أثر حاسم على نتيجة الحرب في شرق البحر المتوسط مما يؤدي بدوره إلى خلق موقف شديد الخطورة في شمالي إفريقيا . واقترح ألا تكون سيطرة إيطاليا الأساسية على البلدان العربية موضعاً للتساؤل ، وأن على الألمان أن يتعهدوا من جديد بإعداد تصريح مكتوب يتضمن اعترافاً بحقوق العرب والمصريين في الحرية السياسية وتقرير المصير . وكان من المتوخى أن يشمل التصريح على وعد بحل المشكلة اليهودية واقتراح بإقامة سوريا كبرى مستقلة . وكان من رأى ملشرز أن من الواجب أن تنجّه إلى سوريا بعثة لجنة الهدنة الألمانية . وبرغم تحفظ ملشرز الخاص بأنه « لا يجب المبالغة في تقدير قوى بناء الدولة بالنسبة إلى العرب من النواحي القومية والحرية والثقافية » ، فإنه كان يأمل أن يثير تحقيق بعض المطالب العربية ولو بصفة جزئية كل العالم العربي وربما شمالي إفريقيا كذلك .

وبحلول أواخر ديسمبر كان فون رينتروب قد قرر إرسال مبعوث مسئول وذى خبرة — هو أوتو فون هنتج — إلى الشرق الأوسط فيما كان يعتقد أنها بعثة استعلامات . وطبقاً للتعليمات التي زود بها فون هنتج كان عليه أن يبحث تقريراً عن الموقف السياسى والعسكرى فى سوريا وفى البلدان المجاورة إذا ما كان ذلك ممكناً . وكان عليه أن يتحرى عما إذا كانت القوات البريطانية بالضرورة تهدد سوريا ولبنان ، وعما إذا كانت لدى سوريا وسائل كافية للدفاع عن نفسها ضد أى غزو محتمل . وكان يتوقع منه أيضاً أن يقرر مدى الحركة الديجولية ونموها فى سوريا ووسائل الدعاية البريطانية وأساليبها ونتائجها . وبوجه عام كان من المتوخى أن تزود بعثة فون هنتج زعماء ألمانيا بالمعلومات اللازمة لتشكيل سياستهم إزاء البلدان العربية . وكان لها هدف آخر هو إحاطة حكومة ألمانيا بإمكانات العلاقات الاقتصادية ووضع المؤسسات الثقافية الألمانية فى سوريا . وكانت التعليمات تشمل أمراً محدداً من رينتروب بتجنب كل ما يمكن أن يفسر على أنه اعتراف بأى اتجاهات موجهة ضد الحكومة الفرنسية أو مساندة لمثل هذه الاتجاهات ، ولكن كان من المستحيل أن يتحقق ذلك من الوجهة العملية . وكان مجرد ظهور

مبعوث ألماني في وقت كان فيه العرب ينتظرون على أحر من الجمر نوعاً من التغيير ، كافياً لإثارة الأمل في حل المشكلات السورية ضد مصلحة فرنسا . يضاف إلى هذا أن فون هنتج لم يحط لإقامته في سوريا بالسرية ، كما أنه لم يتجنب مقابلة الزعماء العرب ، وكان ما توصل إليه فون هنتج مشابهاً لما توصل إليه روزر . فقد رأى كلاهما أن الإيطاليين لا يحظون بأى شعبية لدى العرب ، في الوقت الذي تتوفر فيه فرص كثيرة بالنسبة إلى الألمان . وكان المراقبون المستقلون الموجودون في المنطقة يشاركون هذا الاعتقاد . وفي التقرير الذي بحته قنصل الولايات المتحدة في بيروت عن عجز اللجنة الإيطالية للإشراف على الهدنة في سوريا ولبنان ، ذكر أن الموقف سيشهد تغييراً جذرياً فيما لو ظهرت هناك لجنة ألمانية . وفي ظل هذه الظروف فرضت فكرة تمثيل الألمان في لجنة الإشراف الإيطالية نفسها . وكان من رأى هنتج أن من شأن وجود الممثلين الألمان في اللجنة أن يحمي المصالح الألمانية وأصدقاء ألمانيا السياسيين وعملاءها التجاريين ، في الوقت الذي يشرفون هم فيه على التجارة مع بريطانيا ويوقفونها في المستقبل ، وبخاصة فيما يتعلق بالطعام والمواد الحربية ، ويجمعون وينقلون المعلومات السياسية والحربية ، ويوجهون النشاط المعادي لبريطانيا لدى العرب . ولما كان من الممكن ملاحظة نشاط الديبوليين في أوساط الموظفين في سوريا في أشكال مختلفة ، فقد كان من المنطقي إبعاد أنصار « فرنسا الحرة » عن المراكز الإدارية في سوريا ولبنان .

وقد أدت التطورات التي حدثت في العراق إلى أن أصبحت للمسألة أهمية متزايدة باستمرار بالنسبة إلى السياسة الألمانية . وما حلت نهاية عام ١٩٤٠ حتى كانت الحكومة الألمانية قد قامت بعمل تمهيدى فيما يتعلق بالعراق .

مسألة تزويد العراق بالأسلحة

بدأ الألمان تحرياتهم حول الاحتمالات الفنية لتزويد العراق بالأسلحة . واستمرت هذه الجهود بعد سقوط وزارة الكيلاني في ٣١ يناير ١٩٤١ . ولم يتوقف اتصال العراق بدولتي المحور في عهد وزارة الهاشمي . وأهم من هذا أن ممثلي

العراق ، وبخاصة في أنقرة أكدوا الألمان أن حكومة الهاشمي تسير على خطى رشيد عالي^(١). وكان من رأى جروبا ، الذي كان وزيراً مفوضاً في بغداد لعدة سنوات وكان خبير ألمانيا في الشؤون العربية ، أن حكومة الهاشمي تسير في نفس الاتجاهات الأساسية التي سارت عليها سابقتها ، وإن تكن قد اتبعت أساليب تتميز بمزيد من الحرص . ومن المحتمل أن وزارة الخارجية الألمانية كانت تسلم بوجهات النظر هذه . إنهما قيم خبراء السياسة البريطانية الموقف تقييماً مشابهاً . فاعتبروا رئيس الوزراء العراقي الجديد - بصفته من أنصار الوحدة العربية المتطرفين - متعاوناً مع رشيد عالي ، وأن الحكومة لا تعني أى تحسن في الموقف من زاوية علاقاتها مع المحور^(٢).

ولم تكن مسألة شحن الأسلحة إلى العراق بالمسألة الهينة . فالعراق بعيد عن البلدان التي تحتلها قوات المحرر ، في الوقت الذي ارتبطت فيه الإمكانيات الفنية لتسليم الأسلحة بالمشكلات السياسية الأساسية .

أما فيما يتعلق باستلام الأسلحة من ألمانيا فقد كان الطريق البري عبر الاتحاد السوفييتي وإيران يتضمن أقل الصعاب الممكنة . وقد اقترح صلاح الدين الصباغ - أحد أركان المربع الذهبي - هذا الطريق ، لما كان يتضمنه من قلة فرص استعراء انتباه العدلاء البريطانيين . وكانت هذه المسألة هامة بالنسبة إلى كل من ألمانيا والعراق لأسباب واضحة . وفي محادثة جرت بين وزير إيطاليا المفوض ورشيد عالي في ٢٠ يناير اقترح هذا الأخير شحن الأسلحة من ألمانيا إلى العراق عن طريق رومانيا والبحر الأسود والاتحاد السوفييتي وإيران .

وحين قدم الاقتراح إلى فون ريبنتروب في أوائل فبراير رأى استبعاد هذا الطريق . ولم يكن السبب الرئيسي لهذا القرار هو خطة مهاجمة الاتحاد السوفييتي في المستقبل القريب أو عدم الاستعداد لجعل السياسة الألمانية في « المنطقة العربية » متوافقة على موافقة السوفييت - إذ الواقع أن ممثلي السوفييت صرحوا لشنور Schnurre

(١) رسالتا فون بابن من أنقرة بتاريخ ٤ و ١٣ فبراير ١٩٤١ . ولكن ليس من المعروف ما إذا كانت الاتصالات بين العراق وألمانيا قد جرت على مستوى حكومي في ذلك الوقت .

(٢) انظر Playfair, op. cit., II, p. 178. ولا يبدو لنا أن هذا التقييم صحيح تماماً ، لأن لدينا عدة أدلة على أن الهاشمي كان متردداً - فلم يكن يرغب في أن يدخل في صراع مع بريطانيا ، وكان عطياً نسبياً للباطل . انظر صلاح الدين الصباغ : فرسان العروبة في العراق ، ص ١٥٦ .

فى نهاية عام ١٩٤٠ بأن نقل المخائر لا يدخل فى نطاق اتفاقية النقل التى تضمنها تبادل الرسائل بين ريبنتروب ومولوتوف فى ٢٩ سبتمبر ١٩٣٩ . لهذا كان بإمكان الألمان أن يستنتجوا أن الاتحاد السوفيتى سيعترض على نقل الأسلحة إلى العراق - إذ كان ضد مصالحه أن يزداد النفوذ الألمانى فى بلد يقع قريباً جداً من الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتى (فى الحرب العالمية الأولى عبرت قوات روسية الحدود إلى شمالى العراق) . ولما كان الألمان يودون تحويل انتباه السوفييت إلى حدودهم الجنوبية بسلامتهم عن تحديد مناطق نفوذهم فى اتجاه الخليج العربى ، فى نفس الوقت الذى كانوا يعدون فيه لغزو الاتحاد السوفيتى - فلم يكن باستطاعتهم بطبيعة الحال أن يفشوا للحكومة السوفيتية خططهم فى العراق .

وفى المحادثة التى جرت بين فورمان وريبنتروب ، وهى المحادثة التى تم فيها رفض الاقتراح الخاص بشحن الأسلحة عبر الاتحاد السوفيتى ، أصدر ريبنتروب أمره ببذل كل جهد ممكن للقيام بذلك عن طريق اليابان . وحتى ذلك الوقت كان أكبر أنصار هذه الخطة ودعائها فى طوكيو هم الإيطاليين ، على حين صدرت التعليمات إلى ممثلى الريخ بتفضيل ذلك الطريق . واستمرت المفاوضات بين العراق واليابان حول هذه المسألة من أكتوبر ١٩٤٠ إلى يناير ١٩٤١ حين توقفت . وبعد أن تم التعديل الوزارى فى بغداد رأت وزارة الحرب اليابانية أن مسألة مواصلة المفاوضات غير ذات موضوع ، وذلك برغم استعدادها السابق لتزويد العراق بأسلحة قديمة^(١) .

وقد تدخل الألمان لدى السفارة اليابانية فى برلين بخصوص هذه المسألة . وذهبوا إلى أن الحكومة العراقية قد أخبرت دولتى المحور بشتى الطرق برغبتها فى الاشتراك فى النضال المسلح ضد بريطانيا ، وأن الحكومة الألمانية قررت مساندة هذه الخطوة فى المستقبل القريب . وحينئذ بدأت السفارتان الألمانية والإيطالية فى طوكيو الضغط على الحكومة اليابانية لتسير فى الاتجاه نفسه ، ولكن سرعان ما أضاعت الحكومة اليابانية فرصة تغيير موقفها السلبي حتى بعد رجوع رشيد

(١) رسالة بولتز من طوكيو فى ١٩ مارس ١٩٤١ ، وكان من رأى حداد أن الحكومة البريطانية وافقت - للمطال العراقية على شراء أسلحة من اليابان (مأكرة فورمان ، برلين فى ٢٦ فبراير ١٩٤١) .

على إلى رئاسة الوزارة - إذ أن القوات البريطانية كانت قد قامت في نفس الوقت بسد مدخل ميناء البصرة التي احتلوها فيما بعد .

ثم أثبت مسألة شحن الأسلحة إلى العراق عبر الحبر وتركيا تحت ستار أنها شحنة من الحبر لحساب ملشرز وشركاه في برمن . ورأى فون باهن استحالة تنفيذ ذلك المشروع - وكان رأيه هذا واقعياً في ذلك الوقت ، أى خلال شتاء عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ . فبرغم أن أنقرة كانت تخشى ألمانيا وبالتالي كانت تتجنب توثيق علاقاتها بأعداء الرينخ ، فإنها في الوقت نفسه كانت تتوقع غزو ألمانيا للبلقان وتزايد الخطر على تركيا - وبالتالي لم تكن ترغب في تسهيل خطط الهتلريين .

وسرعان ما ظهر شكل جديد لخطة تموين العراق عبر تركيا . فقد تم إرسال الشحنات من ألمانيا إلى إيران وأفغانستان عبر تركيا . وقد وعدت السلطات التركية حكومتى هذين البلدين بعدم خلق أى عقبات في وجه مرور البضاعة المخصصة لهما . وفي الوقت نفسه كان لدى إيران ضمان من بريطانيا بأنها لن تضع العراقيل في وجه تلقيها البضاعة ثم شحنها عبر العراق . وكانت العلاقات التجارية بين إيران وألمانيا نشطة جداً في ذلك الوقت . وفي ظل هذه الظروف اقترح الأميرال كاناريس خطة لتهرب الأسلحة إلى العراق في شحنات أجهزة معدنية وجهتها لإيران . ولكن فون ريبنتروب رفض هذا الاقتراح .

وبعد ذلك قدم اقتراح بإرسال شحنات الأسلحة المخصصة لإيران أو أفغانستان عبر العراق ، لأن الجيش العراقي كان بإمكانه حينئذ أن يعترض هذه الشحنات ويستولى عليها ، وكان يرجع هذه الخطة أن وزير الاقتصاد القومي في أفغانستان - عبد المجيد - الذي زار برلين في بداية مارس ، أوضح أنه على استعداد لمساعدة العراق . وقد بحثت هذه الفكرة مرة أخرى فيما بعد حين كانت ثورة العراق ضد البريطانيين قد بلغت ذروتها . حينئذ تمت خطوات أخرى لتنفيذ الخطة التي سبقت الإشارة إليها .

وقد أبدت كل من وزارة الخارجية والدفاع الألمانيتين اهتماماً كبيراً بمسألة تزويد العراق بالأسلحة وتحريك الموقف فيه . وأقامت القيادة العليا للقوات المسلحة

الألمانية ووزارة الخارجية اتصالاً مستمراً بصدد هذه المسألة (١) وطبقاً لما ذكره الجنرال كاناريس أبدت القيادة العليا للقوات البرية اهتماماً كبيراً بالنشاط الألماني في العراق وفي المنطقة العربية بوجه عام . وقد عبرت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية عدة مرات - شفهيّاً - عن رغبتها في تدعيم النشاط الألماني في البلدان العربية وأرسلت مذكرة خاصة بهذه المسألة في ٥ فبراير (٢) . وليس من قبيل الصدفة أن مثل هذه المؤتمرات المتواصلة الخاصة بمسألة تزويد العراق بالأسلحة والسياسة العربية بوجه عام ، كما سنرى ، قد تمت قبل نشوب الحرب في البلقان مباشرة . فعلى حين كان الألمان يضعون الخطط المتصلة بنشاطهم في البلدان العربية كان البريطانيون يعدون لاتخاذ خطوات هامة في البلقان . ومن الممكن أن نستنتج أنه كما كان واضحاً لبريطانيا أن الألمان سيهاجمون اليونان في المستقبل ، فلا بد أن الألمان كانوا موقنين من أن بريطانيا ستوسع نشاطها الحربي في البلقان . وعلى أى حال فإن حدوث تحول في البلدان العربية كان لابد أن يؤدي على الأقل إلى زيادة صعوبة إرسال بريطانيا لقوات مسلحة إلى البلقان .

١٤ موقف إيطاليا من تنشيط العمل

في العراق

وكان لا بد أن تهتم السياسة الألمانية بمسألة موقف إيطاليا ، فيما يتعلق بخططها الخاصة بإشعال الثورة ضد البريطانيين في العراق وتزويده بالأسلحة . وقد سبق أن أشرنا إلى تردد إيطاليا في إثارة الشعوب العربية ضد فرنسا ، وهو التردد النابع أولاً وقبل كل شيء عن البرنامج الاستعماري الذي وضعته إيطاليا الفاشية (٣) .

(١) اقترحت قيادة وزارة الدفاع الألمانية إقامة اتصال دائم بوزارة الخارجية بصدد المسائل العربية . مذكرة جروبا ، ٩ فبراير ١٩٤١ .
(٢) على أن القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية كانت تنظر إلى المشكلات العربية على ضوء المنافسة الهاشمية السعودية ، واقترحت أولاً وقبل كل شيء إقامة اتصالات مع ابن سعود وشحن الأسلحة إليه بالسفن .

(٣) اتخذت الحكومة البريطانية موقفاً مشابهاً في الهند أثناء الحرب العالمية الأولى إزاء الثورة العربية ضد تركيا . انظر : Ireland, Iraq - A study in Political Development, pp. 100-1.

وأهم من هذا أن الإيطاليين لم يكونوا محمسين بأى حال من الأحوال للتدخل الألماني في شؤون شرق البحر المتوسط . والذي أجبر موسوليني على الموافقة على اشتراك القوات الألمانية المسلحة في القتال الناشب في شمال إفريقيا هو تكرار فشله ، وهذا هو السبب أيضاً في أن الألمان اضطلوا بالدور الأكبر في المعارك التي نشبت في البلقان . وكان موقف الإيطاليين في العراق أحسن من موقف الألمان — إذ كانت لإيطاليا مفوضية في بغداد ، ومن ثم كانت لديها معلومات أحسن وأكثر جدة عن التطورات الحارية . وبما لاشك فيه أن الحكومة الإيطالية زودت الألمان بمعلومات معينة ، ولكنهم لم تنم بذلك إلا في وقت متأخر جداً . وأهم من هذا أن الإيطاليين لم يقوموا بأى مبادرة في النشاط السياسي المشترك ولم يمكنهم اقتراح الاشتراك في تمويل الشخصيات العربية وثيقة الصلة بالمحور .

وعلى حين واصلت الحكومة العراقية طلب المساعدة وشكت من أنها لم تقدم لها^(١) ، فإن الحكومة الإيطالية وضعت مسودة وثيقة باسم حكومتى المحور معاً لإرسالها إلى الزعماء العرب في بغداد . وتكشف هذه الوثيقة بصورة أكيدة عن أن الإيطاليين أبدوا تردداً بصدد الاتجاهات المعادية لبريطانيا في العراق . وقد نصح واضعو الوثيقة العرب قبل كل شيء بأن يتوخوا الحرص وأكدوا أن دولتى المحور لم تكونا تريان من العراق ، لو توقع أن ترسل إليه المساعدة الخيرية في المستقبل ، أن يتخذ موقفاً من شأنه أن يشجع البريطانيين على احتلال البلاد . ومن ناحية أخرى نجد ، أن صيغة المساعدة في الوثيقة قد وضعت بشكل غامض أبعد ما يكون عن التحديد ، إذ ذكرت الوثيقة أن الألمان والإيطاليين لا يرغبون في الاضطلاع بالمشولية إلا بعد نحرىات توضح كل العواهل التى تدخل فى الموضوع ووفقاً لأسلوب ومبادئ سياساتهم التى يمكن الاعتماد عليها . وقد اقترح الإيطاليون أن يحيطوا السياسة العرب علماً بأن حكومتى المحور ستبدآن المشاورات لبحث إمكانيات إرسال كمية محدودة من الأسلحة إلى العراق وبدء العلاقات التجارية . ومن ناحية ثالثة نجد أن الوثيقة رفضت دون موارد كل الشروط السياسية التى وضعها الزعماء

(١) في محادثة جرت في ٢٠ يناير ١٩٤١ بين رشيد على وسكرتير المفوضية الإيطالية شكرا رشيد على من عدم رد حكومتى المحور على هذا الطلب ، وأن ذلك كان من المصادر العامة لصعوباته الداخلية (مذكرات فورمان — برلين في ٧ فبراير ١٩٤١) .

العرب : فقد أوضحت أنها ضد إقامة حكومة وطنية في سوريا وأعلنت العزوف عن منح العراق ضماناً بحيدة تركيا وإيران^(١) . ووصل الأمر بقصر شيكجى إلى عدم اعتبار تكرار الصيغة العامة التي احتواها تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ أمراً مناسباً ، أما الناحية الإيجابية في الوثيقة الإيطالية فقد اقتصر على التصريح بأن انتصار المحور وحده هو الذى سيحرر بلدان الشرق الأوسط من السيطرة البريطانية . وبالإضافة إلى ذلك فإن المسودة الإيطالية عبرت عن الأمل الخاص باستمرار حكومة رشيد على في الحكم ، وأن يكون باستطاعتها أن تحول دون تحول العراق إلى قاعدة للعمليات الحربية الموجهة ضد دولتي المحور .

ولم يكن بالإمكان اعتبار محتوى هذه الوثيقة بأى شكل مشجعاً للعراقيين من أنصار المحور . وقد نصح واضعوها الزعماء العرب بالفعل بمواصلة مساواة البريطانيين وانتظار يوم النصر النهائى « للنظام الجديد » . وأوضح الإيطاليون للألمان أنهم لا يرغبون في الضغط الشديد على رشيد على لكي يثور ضد بريطانيا ، فقد كان دخول العراق أسهل بالنسبة إلى الجيش البريطانى منه بالنسبة إلى المحور . ولهذا كان من المحتمل أن يؤدي تحدى العراق الصريح إلى تعزيز هيبة بريطانيا . وبرغم أن هزائم الإيطاليين في شمالي إفريقيا جعلتهم يخشون أن تحمل بهم هزائم أخرى في البلدان العربية ، فلا يبدو أن ثمة سبباً آخر للصيغة المفرطة في السلبية التي وضعوا بها وثيقتهم سوى الإيضاح الذى قدموه للألمان . وقد أدت المعارضة الألمانية إلى عدم إرسال هذه الوثيقة .

ووجدت أحداث العراق أصداً متنوعة في برلين . وبن المؤكد أن الألمان كانوا يودون استغلال الفرص التي أتاحت لهم في العالم العربى ، دون أن يتبنوا طريقة استغلالها والوقت المناسب له . وبعد تكرار فشل الإيطاليين في البلقان وشمالي إفريقيا ، لم يعد لدى الألمان أى اتجاه لتجنب النشاط السياسى من جانبهم في « المناطق العربية » . فبدأت تظهر تأكيدات في الوثائق الألمانية بأنه لا يجب أن يكرس اهتمام كبير بوجهات النظر الإيطالية كما كان الحال في الماضى ، وأن

(١) قدم رشيد على والصباغ هذه المطالب في محادثات أجراها مع وزير إيطاليا المفوض . وليس من الصعب التحقق من أنه كان لا يجب أن يحمى أى رد ، حتى ولو كان سلبياً ، بهذه الصياغة الشديدة التي وضعت بها مسودة التعليمات الإيطالية إلى جابريل .

يستدر الاعتراف الرسمي بأولويتها ، ولكن على أن يتم حسم مسائل معينة بدون الإيطاليين أو حتى بشكل سرى . وطالب العسكريون بإعادة النظر في القرار الألماني الخاص بالسماح لإيطاليا بحرية العمل في البلدان العربية وأن تشتد ألمانيا في توجيه النشاط السياسى فى الشرق الأوسط فى المستقبل .

وكان من رأى ريبنتروب وجوب إخطار إيطاليا والاعتراف رسمياً بأولوية مصالحها ، كما رأى فى نفس الوقت أن من واجب الألمان أن يتولوا زمام المبادرة طالما أن الإيطاليين قد فشلوا فى القيام بأى نشاط فى البلدان العربية . واقترح وجوب بحث الشؤون العربية بالاشتراك مع القيادة العليا للقوات لمساحة ، ووجوب تزويد مفتى التماس بالأموال دون اتفاق سابق مع إيطاليا^(١) . وفيما يتعلق بتزويد العراق بالأسلحة ، كان موقف ألمانيا يقوم على إبعاد إيطاليا عن الصفقة كلية ، على الأقل فى البداية^(٢) . حين تتخذ التمرات السياسية بشأن المسألة .

وقد فهم حداد خلال رحلته الثانية إلى برلين أن العرب سيفيدون من هزائم إيطاليا . ودون فى مذكراته أن الألمان طلبوا منه أن تقدم السلطات العراقية أجوبة غامضة على أى تساؤلات يتقدم بها الإيطاليون فى المستقبل بصدد علاقاتهم بألمانيا ، وأن يؤكدوا لهم أنه لم يمكن التوصل إلى أى نتائج محددة .

وهكذا أخذ الألمان بمسكون بزمام المبادرة فى العالم العربى دون اكتراث بشركائهم . وفى حالة انتصار المحور كان بإمكان هذه المبادرة وهذا النشاط أن يعيد تقسيم مناطق النفوذ بين الحليفين لصالح ألمانيا ، خاصة وأن هذه المسألة لم تحسم نهائياً فيما بينهما . وهذا بالضبط هو ما كان يخشاه الإيطاليون . وكانت هذه المخاوف وخطط إيطاليا الاستعمارية من وراء السلبية والحرص غير العادى اللذين أبدتهما الحكومة الإيطالية بصدد الشؤون العربية ، لا « إمكان الاعتماد السياسى عليهم » وهو ما فاخروا به .

(١) قبل ذلك جعل ريبنتروب دفع المال للدفق متوقفاً على موافقة الحكومة الإيطالية ، ولكن قصر شيجى لم يستجب للاستفسارات التى قدمتها ألمانيا بصدد المسألة .

(٢) فى ١٥ فبراير طلب فورمان من القائم الإيطالى بالأعمال فى برلين - باسم ريبنتروب - أن يتجنب وزير إيطاليا المفوض فى بغداد اتخاذ خطوات جديدة بصدد تقديم الأسلحة حتى تبحث الحكومة الألمانية احتمالات تصديرها . وحينئذ فقط كان يجب أن تثار هذه المسألة فى بغداد لا باعتبارها مسألة تتعلق بألمانيا وحدها ، بل باعتبارها مسألة تتعلق بالمحور - أى بالاشتراك مع الإيطاليين . وفى ٢١ فبراير ١٩٤١ كرر فورمان طلبه الخاص بعدم تكرار جهود ألمانيا بهذا الخصوص .

ومن هنا فلن قيام حكام ألمانيا باتخاذ المبادرة في البلدان العربية كان يفرض عليهم أن يوجهوا اهتمامهم إلى عدد من المشكلات ، وعلى رأسها ردود الفعل المحتملة لمثل هذه المبادرة بالنسبة إلى العلاقات الألمانية - الإيطالية . ذللى أى مدى كان يجب على الحكومة الألمانية أن تعمل حساباً لمصالح إيطاليا ونوابها ولا لزاماتها هي؟ وإلى أى مدى كان بإمكان الألمان أن يقوموا بنشاط منفرد؟ وما تأثير مثل هذا النشاط على موقف إيطاليا؟ كانت هذه الأسئلة ملحة بوجه خاص ، لأنها كانت تتضمن العلاقات مع القوميين العرب والنشاط الدعائى الذى كان يقوم به المحور .

وبعد الاتصالات التى أجراها الزعماء العرب مع دولتى المحور نجدهم يصرون أولاً وقبل كل شىء على صدور تصريح يساند مطالبهم بالاستقلال وارتباط الدول العربية باتحاد فدرالى . ولكن خطط الحكومة الإيطالية الاستعمارية جعلتها تتجنب إعطاء ضمانة محددة بالاستقلال العربى وترفض مساندة المطالبة بالوحدة العربية . ولم يطرأ تغيير على وجهة النظر الإيطالية بهذا الصدد منذ صدور تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ . وفى أوائل مارس أكد السفير برنى Buti لقون ماكنزن - المبعوث الألمانى إلى وزارة الخارجية الإيطالية - أن تصريح وزير إيطاليا المفوض جابرييلى - الذى أدلى به لرشيد على فى بغداد فى يولية ١٩٤٠ ، والذى أشار إليه مبعوثو المفتى وأنصار الوحدة العربية من العراقيين ، كان تصريحاً خاصاً . وكان من رأيه أنه لم يتم التعبير عن الموقف الرسمى إلا بمقتضى تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠^(١) . وقد قيل هذا فى الوقت الذى كان فيه السكرتير الشخصى للحاج أمين الحسينى يبذل جهوداً فى برلين للحصول على مساندة ألمانيا لأمانى العرب . وكان معنى إيضاح برنى أن الحكومة الإيطالية لا تؤيد أن تتعدى هذا التصريح .

مذكرة فورمان المؤرخة ٧ مارس ١٩٤١

وبعكس الموقف الذى تم اتخاذه قبل عدة أشهر ، تقرر فى برلين فى أوائل عام ١٩٤١ عدم ترك المبادرة الوحيدة فى الشئون العربية فى أيدي الإيطاليين . فإذا إذن كان موقف ألمانيا الجديد إزاء مطالب العرب السياسية ؟

(١) فى أثناء المفاوضات الخاصة بمسألة التصريح فى يولية وأغسطس ١٩٤٠ ، حين أشار حداد وناجى شوكت إلى تصريح جابرييل ، لم ينكره قصر شيكى بهذا الشكل .

في محادثة جرت بين فورمان والسكرتير الخاص للدفتي في ٢٦ فبراير انحاز فورمان بصورة جزئية إلى وجهة النظر الإيطالية، وذكر أن من الصعب في ظل الظروف القائمة قبول مسودة التصريح الذي اقترحه الحاج أمين الحسيني . وحين طلب من فورمان أن يعين في تحديد طبيعة الصعوبات ، أشار إلى المطالب العربية الخاصة بمسألة سوريا : وذهب إلى أن الإدارة الفرنسية في سوريا ستتحاز إلى ديمبول فيما لو وجدت مساندة من جانب حكومة الريخ .

ولكن المسألة لم تقف عند هذا الحد . فبحلول نهاية فبراير كانت وزارة الخارجية الإيطالية قد بدأت تنشط في بحث المشاكل المتصلة بحكومة الريخ في العالم العربي . وقد أصدر ريبنتروب أوامره إلى فورمان - وكيل وزارة الخارجية ورئيس القسم السياسي بها - بوضع الخطط المتعلقة بالخطوات التي ستتخذها ألمانيا بعد ذلك في البلدان العربية وأن يهتم اهتماماً خاصاً بمشكلة « كيف نعالج هذه المشكلة فيما يتعلق بهدفنا الخاص بإنزال الهزيمة بإنجلترا ؟ » وفي ٧ مارس وضع فورمان تقريراً مفصلاً يحرى على اثني عشر ملحقاً^(١) . وبعد أن أقر كبار المسؤولين بوزارة الخارجية مذكرة فورمان ، نجدها تحدد المقترحات السياسية التي لم يتم التعبير عنها من قبل إلا في مذكرات غير محدودة وضعها موظفو ومديرو وزارة الخارجية والقيادة العامة للقوات المسلحة . ووفقاً لأوامر ريبنتروب المباشرة كانت دعاية الريخ وأوجه نشاطه الإعلاني في المشرق العربي توجهها اعتبارات متعلقة بوجهة النظر الإيطالية ؛ أما الآن فقد أشار فورمان إلى أن على الألمان أن يوسعوا مجال نشاطهم بهذا الشأن في نفس الوقت الذي كانوا يحاولون فيه التغلب على تردد الحكومة الإيطالية وتحفظها .

(١) مذكرة فورمان الصادرة في برلين بتاريخ ٧ مارس ١٩٤١ . وكانت ملاحق المذكرة كالآتي :
 ١ - خريطة للبلدان العربية ، ٢ - مادة إحصائية عن أربعة عشر بلداً عربياً من الخليج العربي إلى المحيط الأطلنطي ، متضمنة فيما تضمنته عدد السكان بوجه عام والسكان العرب بوجه خاص ٣ - بيانات عن معاهدات الشرق الأدنى والأوسط ٤ - مذكرات جروبا بتاريخ ٥ مارس ١٩٤١ حول أهمية البرول المراق بالنسبة إلى إدارة الحرب في الشرق الأوسط ٥ - مذكرات عن مفتي القدس ٦ - مذكرات عن الدعاية الألمانية في البلدان العربية ٧ - نص تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ ٨ - نص مسودة التصريح التي قدمها حداد وترجمتها الألمانية ٩ - مسودة التعليمات الإيطالية الموجهة إلى جنيريل الوزير المفوض في بغداد ١٠ - رسالة آتيز المرسله من باريس بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٤١ وبها ملخص لوجهة نظره بصدد التصريح ١١ - مسودة الرد على رسالة المفتي إلى هتلر ١٢ - مذكرات ريبكن المؤرخة ٦ مارس ١٩٤١ بصدد تزويد العراق بالأسلحة . وقد أشرنا فيما سبق إلى الملاحق ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢ .

ولكن بقيت مشكلة ما إذا كان من الممكن إصدار « تصريح سياسى حول بلاد العرب الكبرى » . وكان من رأى فورمان أنه لا يوجد أى اعتراض على هذا التصريح السياسى من زاوية المصالح الألمانية وحدها . « وإذا ما وضعنا نصب أعيننا كره العرب للإنجليز والإيطاليين ، سيكون من السهل بالنسبة إلينا بالتأكيد أن نحصل على مركز قوة فى إمبراطورية عربية كبرى » . وفيما يتعلق بوجهات النظر الإيطالية ضد المطالب العربية ، كان من رأيه أن بعض الناس قد يساورهم الشك فيما إذا كان العرب قد انضموا إلى الدرجة التى تمكنهم من إقامة واستدامة مثل هذه الدولة ، خاصة وقد كان ثمة إجماع على أنها ستكون ضعيفة من وجهة النظر العسكرية . وخلص فورمان إلى أن كل هذا لا يجب أن يعترض إعطاءهم مثل ذلك التصريح فى ذلك الوقت .

وكانت ثمة مذكرة أخرى ترجع إلى هذه الفترة كانت تحبذ الاعتراف باستقلال البلدان العربية وحققها فى الوحدة على شكل اتحاد فدرالى . وكان من رأى واضعها أنه لن يكون باستطاعة ألمانيا أن تحشد العرب ضد بريطانيا بدون هذا التصريح ، وأن على الألمان بوجه عام أن يجابهوا الإمبريالية البريطانية بفكرة القومية وسياسة « المجال الحيوى » .

وكان من رأى القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية ، وهو ما بدا فى المذكرة التى وضعها بتاريخ ٥ فبراير ١٩٤١ ، أن من الضرورى الاعتراف « باستقلال البلدان العربية باعتباره من أهداف المحور المتصلة بالحرب » . وأكدت أن الوضع مناسب لألمانيا فيما يتعلق بالعرب — أى أنها تستطيع « بضمير سليم » أن تعد بكل ما يريدونه « يصدد حل المسألة اليهودية فى فلسطين » . على أن القيادة العليا للقوات المسلحة رأت أن من الواضح من وجهة نظرنا أن مسألة إقامة إمبراطورية عربية كبرى تمتد من الخليج عبر ساحل البحر المتوسط إلى البحر الأحمر (ربما تحت حكم ابن سعود) لم تنضج بعد لاتخاذ قرار^(١) .

(١) مذكرة القيادة العليا للقوات المسلحة بتاريخ ٥ فبراير ١٩٤١ . وكان من رأى القيادة العليا للقوات المسلحة أن الأحوال لم تنضج بعد حيث تسمح بقيام الوحدة العربية ، وأن المنافسات الداخلية بين العرب كانت قوية جداً .

وكان من رأى فورمان أن مصدر الصعوبات هو أن الألمان كان عليهم أن يعملوا حساباً لوجهات نظر ومصالح دول أخرى أولها إيطاليا التي كانت كما رأينا تعترض باستمرار على إصدار تصريح واضح بصدد استقلال العرب واتحادهم الفدرالى . وقد أشار فورمان إلى أن الحكومة الإيطالية ، التي كانت حتى ذلك الوقت غير مستعدة لمناقشة الشؤون العربية مع ألمانيا ، لم تبدأ فى تعديل موقفها بشكل معين إلا منذ وقت قصير . فقد بدأت تزود ألمانيا بمعلومات أسرع وأدق من ذى قبل . وكان من المعتقد أن قصر شيجى قد أرسل حداد إلى برلين بوحى لإرادته الخاصة . وكان من رأى فورمان أن من الضرورى ، من حيث المبدأ ، مناقشة المسألة مع الإيطاليين وتحقيق أهدافهم فى البلدان العربية ، ولكن الوقت المناسب لتبادل وجهات النظر هذه لم يكن قد حان بعد .

وكان هذا تصريحاً سياسياً بعيد المدى . فحتى ذلك الوقت كانت حكومة الريخ على علم بإدعاءات إيطاليا وحقوقها ، فامتنعت عن النشاط فى المناطق التي كانت تعتبر من اختصاص إيطاليا ، برغم أنها لم تلتزم نفسها نهائياً بتحديد مناطق النفوذ الخاص بكل منهما . واقتصر الألمان على قبول مطالب إيطاليا بوجه عام . وكان الموقف بهذا الشكل فى يولية ١٩٤٠ . وكان تقسيم مناطق النفوذ ، بالشكل الذى حدده الميثاق الثلاثى ، ذا طابع عام — فلم يمس تحديد مناطق النفوذ الألمانية والإيطالية ، ولم ينص إلا على اعتراف اليابان بزعامة ألمانيا فيما يتعلق بإقامة « النظام الجديد » فى أوربا واعتراف الألمان والإيطاليين بأولوية اليابان فى شرق آسيا . وقد يبدو للوهلة الأولى أن وجهة النظر الألمانية ، كما عبرت عنها مذكرة فورمان ، لم تقدم شيئاً جديداً بمقارنتها بموقف ألمانيا فى عام ١٩٤٠ ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . ففى عام ١٩٤٠ امتنع الألمان عن التيام بأى نشاط فى البلدان العربية وأعطوا الإيطاليين مطلق التصرف هناك . ولكن بدأ الألمان ينشطون فى أوائل عام ١٩٤١ دون أن يتفاهموا مع الإيطاليين بصورة خاصة . وكان من رأيهم أن مناقشة إيطاليا حول هذه المسائل سابقة لأوانها ، لأن ألمانيا كانت تتوقع تغييرات أساسية لصالحها فى توازن القوى . ولم يكن من الممكن لاتفاقية عقدت

أثناء الحرب أن تضع في عين الاعتبار مثل هذه التغييرات ، وكان على الألمان أن يتقروا الادعاءات الإيطالية بدرجة تفوق ما كان يسمح به توازن القوى القائم .

وقد اعترف الألمان بأن توازن القوى في معسكر المحور كان يتغير بسرعة في صالحهم ، ولهذا لم تكن لديهم أى رغبة في إجراء أى تحديد نهائى لمناطق النفوذ في المستقبل . وكان من رأيهم أن كل المناقشات الدائرة في ذلك الوقت حول مستقبل « المناطق العربية » سيكون لها أثر سلبي على التحالف الإيطالي - الألماني . ولهذا فبرغم قرار الألمان الخاص بأن يلعبوا دوراً أكثر فاعلية في الشؤون العربية ، لم يكن باستطاعتهم إصدار التصريح بعيد المدى المرغوب فيه .

ووفقاً لتقديرات رئيس القسم السياسي كان يجب أيضاً النظر بعين الاعتبار إلى مصالح دولة أخرى هي فرنسا . وقد عبر سفير الريح في باريس آبتز - في رسالته المؤرخة ٢٨ فبراير - عن الشعور الخاص بأن الوعد الألماني العاني بخصوص مسألة الدولة العربية الكبرى سيؤدى إلى النمو السريع للحركة الديجولية في سوريا . وكان من المتوقع أن يعتبر بأن مثل هذا الوعد مخالفاً لشروط اتفاقية إطلاق النار التي كانت تلزم حكومة فيشي بالمحافظة على النظام في الممتلكات الفرنسية والبلدان الواقعة تحت انذاب فرنسا^(١) . كما كان فورمان يخشى انتشار الديجولية وإضعاف سياسة التعاون داخل فرنسا وفي إمبراطوريتها الإفريقية .

وقد أشار إلى أنه طالما يضم التصريح الخاص ببلاد العرب الكبرى سوريا أيضاً ، فإنه سيناقض ما كانت تنادى به السياسة الألمانية بصدد عدم كون الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية موضعاً للمساومة في ذلك الوقت . ويجب أن نعترف ، من وجهة النظر الألمانية ، بأن سياسة عدم الافتيات على الإمبراطورية

(١) عرض آبتز في رسالته وجهات نظر الخبراء الفرنسيين في الشؤون الإفريقية ، الذين عبروا عن مخاوفهم من أن ظهور دولة عربية كبرى قد يؤدى إلى ردود فعل لدى السكان الزنوج ، ويشير صراعات اجتماعية وجنسية صعبة في أفريقيا التي تعتمد عليها أوروبا اقتصادياً . وحين أشار آبتز إلى وجهة النظر هذه كان يود إبراز الآثار السلبية - من وجهة نظر أنصار « الفكرة الأوربية » - حركة توحيد البلدان العربية ، خاصة وأن ألمانيا كانت قد فكرت بالفعل في عام ١٩٤٠ في إقامة إمبراطورية استعمارية ألمانية في وسط إفريقيا .

الاستعمارية الفرنسية كان لها ما يبررها تماماً . وكان من الصعب جداً أن يتم الاستيلاء على الأملاك الفرنسية فيما وراء البحار ضد رغبة السلطات الفرنسية ، إن لم تثبت استحالتها ، وذلك بسبب ضعف الأسطول الألماني : فعلى سبيل المثال نجد أن الألمان طالبوا فرنسا في يولية ١٩٤٠ بغدة تنازلات في شمالي إفريقيا رفضها بتان . والحق أن استمرار سيطرة فيشي على الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية - دون شك إلى أن يعاد توزيع المستعمرات فيما بعد الحرب - كان حجر الزاوية في العلاقات الفرنسية - الألمانية .. وأعدة أسباب كان من المستحسن عدم إثارة هذه المسألة البتة ، لأنها لم تكن تقتصر فقط على العلاقات مع حكومة فيشي . وكانت إثارة المنازعات حول أملاك فرنسا فيما وراء البحار تنذر بهبوب عاصفة لا يمكن تجنبها ، وذلك بسبب ادعاءات إيطاليا في شمالي إفريقيا الفرنسية . لهذا خلص فورمان إلى أن الوقت لم يحن بعد لأن تدخل العلاقات الفرنسية في التصريح الخاص ببلاد العرب الكبرى .

حقيقة لقد تم المساس بمبدأ المحافظة على الأوضاع القائمة فيما يتعلق بالإمبراطورية فرنسا الاستعمارية - إذ أن اليابانيين كانوا يباشرون نفوذاً وسيطرة متزايدة في الهند الصينية . إلا أن الألمان لم تكن لديهم وسائل القيام بعمل مضاد لهذا التطور ، في الوقت الذي لم يكونوا يرغبون في إغضاب حليفهم في الشرق الأقصى .

كما دخلت العلاقات مع تركيا في مسألة التصريح . ولهذا أفهم جريد Gercede - سفير تركيا في برلين - ألمانيا أن حكومته مهتمة بمستقبل البلدان العربية ، وأنها تطالب « بالتعاون » بصدد هذه المسألة . وقد نصح فون باين حكومته بمناقشة المسائل العربية مع الحكومة التركية التي كانت لها ادعاءات في سوريا ، وأوضح أن من الممكن أن ترضى تركيا برعد بحلب والمناطق المجاورة لها في مقابل خدمات معينة تقدمها للدحور . هذا إلى أن المنطقة التي يوجد بها البترول في منطقة الموصل كانت موضعاً للنزاع بين إنجلترا وتركيا خلال العشرينات . وكان السياسة العرب على علم بمطامع تركيا ، وكان بعضهم يخشون التعاون بين ألمانيا وتركيا . لهذا لم يكن بإمكان دولي المحور أن تعدا بالتخلي لتركيا عن الأراضي التي كان يعتبرها العرب ملكاً لهم ، دون أن يجازفوا بفلقان نفوذهم في العالم العربي . ومن ثم لم يستطع

الألمان أن يناقشوا الشؤون العربية مع تركيا - في هذه الحالة كان عليهم أن يحددوا موقفهم من ادعاءات أنقرة .

وفي النهاية انتقل المسئول الهتلري فورمان إلى مسألة العلاقات مع الاتحاد السوفييتي .

الشرق الأوسط وعملية بربروسا

كان يكيف العلاقات السوفييتية - الألمانية في ذلك الوقت قرار هتلر الخاص بمهاجمة الاتحاد السوفييتي . في ديسمبر ١٩٤٠ أصدر تعليماته رقم ٢١ ، المعروفة بأسم عملية بربروسا التي كانت ملخصاً للخطط الحربية التي سبق له وضعها . وفي يناير ١٩٤١ أعدت الأوامر لتشكيلات حربية كبيرة بالقيام بالهجوم المرسوم . وفي خلال شهرى فبراير ومارس وضع الأركان الألمان مسودة أوامر موجهة إلى مختلف جيوش الميدان ، وضعت التفاصيل لاشتراك فنلندة ورومانيا في الحرب ضد الاتحاد السوفييتي . وقد انعقد مؤتمر في ٥ ديسمبر ١٩٤٠ حدد منتصف مايو ١٩٤١ للهجوم على الاتحاد السوفييتي ، على أن يسبقه احتلال بلغاريا والهجوم على اليونان . وبعد أن كانت خطة شن الحرب على الاتحاد السوفييتي قد اكتملت منذ يولية ١٩٤٠ فإنها بذلك دخلت مرحلة الاستعدادات المحددة .

وعلى أساس هذه الخطة الأساسية ، اتخذ الألمان الخطوات السياسية والعسكرية في البلدان المجاورة للاتحاد السوفييتي : ١ - الاتفاق الألماني الفنلندي في ٢٢ سبتمبر ١٩٤٠ بخصوص نقل القوات الألمانية والعتاد الحربي ٢ - ضمان عسكري لرومانيا ووضع قوات ألمانية على أراضيها في أول أكتوبر ١٩٤٠ ٣ - خطة اختراق القوات الألمانية حدود بلغاريا (وقد نمت هذه الخطة إلى علم ستالين في يناير ١٩٤١) . وقد أثارت هذه الخطوات معارضة واحتجاجات قوية من جانب الحكومة السوفييتية . وجعل هتلر قرار وأمر الهجوم على الاتحاد السوفييتي سرّاً دفيناً - بل إن كبار موظفي وزارة الخارجية لم يحاطوا بهما علماً بصفة رسمية ، بل إن بعضهم أخذوا المقترحات التي قدمت أثناء محادثات مولوتوف في براين مأخذ الجحد . وفي هذه المحادثات اقترح

هتلر وريبنتروب على مولوتوف تقسيم مناطق النفوذ بحيث كان على الاتحاد السوفيتي أن يوجه اهتمامه إلى البلدان الواقعة على حدوده الجنوبية في مناطق المحيط الهندي والخليج العربي . وما تجدر ملاحظته أن هتلر أصدر أمره في التعليمات رقم ١٨ الصادرة في ١١ نوفمبر ١٩٤٠ - قبل يوم من وصول مولوتوف إلى برلين - بوجوب فعالية كل التعليمات الشفهية الخاصة بالاستعدادات للحرب في الجهة الشرقية ، بغض النظر عن نتائج المحادثات التي ستجرى مع رئيس الوزراء السوفيتي . وفي الواقع أنه لم يكن يمكن لهذه النتائج أن تعتبر مرضية بالنسبة إلى الحكومة النازية ، لأن مولوتوف أصر على أن يقدم هتلر وريبنتروب توضيحات وأن يتعهدا بالتزامات من شأنها أن تطمئن الاتحاد السوفيتي بصدد مسألة رومانيا وفنلندا وبلغاريا وبوغازي البحر الأسود .

وما لاشك فيه أن ألمانيا كانت تهدف إلى تحويل انتباه الاتحاد السوفيتي عن الاستعدادات الألمانية الجارية على حدوده المباشرة ، والإيقاع بين الحكومة السوفيتية وبريطانيا التي كانت حينئذ الدولة المسيطرة على مناطق المحيط الهندي والخليج العربي . وتوضح هذه الاستراتيجية في الوثيقة التي عنوانها « الحاجة إلى العمل في الجنوب الشرقي العربي وفي إيران » . وقد صممت هذه الوثيقة خطة لإثارة الثورة في إيران على أيدي المتطرفين من أنصار المحور الذين كانوا على اتصال ببولي العهد - شاه إيران الحالي . وكان من المتوخى أن تؤدي هذه الثورة إلى دخول القوات السوفيتية إيران من الشمال ودخول قوات بريطانية من الجنوب ، ووقوع الاصطدام بين الاتحاد السوفيتي وبريطانيا - وهو ما كان الألمان يعملون عليه كثيراً . على أن فورمان كان يرى غير ذلك . فقد اعتبر الشرق الأوسط - على العكس - مسرحاً للاتفاق بين بريطانيا والاتحاد السوفيتي . وبالإضافة إلى ذلك فإن رأى فورمان كان وثيق الارتباط بخطة مهاجمة الاتحاد السوفيتي . ولكنه رأى من الضروري اعتبار العراق دولة من دول الخليج ، وذلك لكي يواصل الألمان جهودهم الخاصة بتوجيه انتباه السوفيت صوب الجنوب .

وفي ملحوظات فايز ساكر على مذكرة فورمان نجده يدلل بالرأى التالي حول علاقة السياسة العربية بالعلاقات الألمانية - السوفيتية (وبالإضافة إلى ذلك كانت هذه المسألة هي الوحيدة التي أثارها مع ريبنتروب) - فقد كتب مايلي : « لأنني

أجد المذكرة واضحة جداً وقيمة . وبالإضافة إلى ذلك فإننى أود أن أقدم التعليقات العامة الآتية فيما يتعلق بها : حيث تتوقف كيفية استغلال الحركة العربية على أحسن وجه ضد إنجلترا على مشكلة ألمانيا الكبرى - روسيا .

« (١) إذا لم تكن بحاجة إلى إبداء اهتمامنا بروسيا ، فإن الخطوة التى وضع تفاصيلها هرفورمان هى الخطوة الصحيحة . ومن الواجب كبح جماح سياسة إيطاليا بالصدد العرب ، وهى سياسة ضيقة الأفق . فى رأى أن إجراء مباحثات مع الأتراك ، وفق ما يقترحه هرفون باين ، سيعضب العرب . لهذا . يبقى تقديم بعض الأساحة وإنفاق بعض الأموال وبذل بعض الكلمات المعسولة - ولا يجب أن نبالغ فى أثر ذلك على البلدان العربية .

(ب) فى المنطقة العربية لا يهدد إنجلترا سوى دخول دولة عظمى معادية - بمعنى عدم تقييد حركة روسيا فى هذا الاتجاه ، بالتمشى ببعض الشيء مع الاقتراح السوفييتى المقدم فى نوفمبر من العام الماضى .

« - توجد عوامل طيبة أخرى فى صف هذا الاتجاه . على أنه يجب تنفيذه بتفصيل أكبر بهذا الصدد ، إذا لم تكن قد اتخذت بالفعل قرارات عسكرية من نوع مخالف تماماً » .

والحق فايزساكر بهذه الملاحظات الرسالة التى يبعث بها الكونت فون در شولنبرج Von der Schulenberg - سفير ألمانيا فى موسكو - بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٤٠ التى تناولت باختصار أمانى السوفيت فى منطقة الخليج العربى .

ومما لا شك فيه أن فايزساكر كان مصيباً فى إشارته إلى أن سياسة ألمانيا فى البلدان العربية - شأن سياستها فى البحر المتوسط - كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة العلاقات الألمانية السوفيتية . فقد علم بصفة غير رسمية أنه قد تم اتخاذ قرارات عسكرية من نوع مخالف تماماً . كما لابد أنه قد نعى إلى علمه أن الرسالة الصادرة من موسكو بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٩٤٠ كانت تعنى أن الحكومة السوفيتية لم تسحب اعتراضاتها على سياسة هتلر الخاصة بالبلقان وفنلندا ، وأن الألمان لم يستطيعوا قبول المقترحات التى تضمنتها الرسالة . يضاف إلى ذلك أنه لا بد كان على بيئة من أن حكومة الريخ لم تجب على المقترحات الواردة فيها .

وربما كان فايزساكر يرغب فى أن يوضح أن من شأن الهجوم على الاتحاد

السوفييتي أن يقضى على احتمال قيام الإمبريالية الألمانية الفاشية بهجوم مباغت على البلدان العربية^(١).

قرار ريبنتروب - رسالة فايزر ساكر إلى مفتي القدس السابق

وبعد أن وزن فورمان كل المائل التي كان على الحكومة الألمانية أن تبجحها ،
خلص في مذكرته إلى أنه « يبدو من الصعب على أي حال إصدار تصريح
يساند إقامة اتحاد فدرالى على مستوى العالم العربى كله ، وهو الاتحاد القائم على
اتفاق مع إيطاليا ويخرج في جوهره عن تصريحنا السابق » .

ومن المحتمل أن من بين الأسباب التي دعت فورمان إلى اتخاذ هذا الموقف .
أنه لم يقدر فرص العمل ضد بريطانيا في البلدان العربية تقديراً كبيراً . وكان
يتفق مع فون فايزر ساكر بهذا الصدد ، وكان من رأيه أن البلدان العربية في آسيا
بعيدة عن متناول المحور طالما بقيت تركيا على الحياد ، فلم يكن بإمكان الألمان
إلا أن يلجئوا إلى الغارات الجوية ، التي كان من الممكن أن تكون مهمة صعبة
في أحسن الأحوال ، على حين أن عملاً آخر غير عسكري ضد بريطانيا كان من
شأنه أن يكون قليل الأهمية . وفيما يتعلق بالعراق كان موقف فورمان يتبدى مع
تقدير إيطاليا ، فقد كان من رأيه أن أثر ثورة عراقية علنية سيكون قصير
المدى وقد يؤدي إلى تقوية هيبة بريطانيا . على أن الموقف كان مقيضاً له أن يتغير
بوجود التروات الألمانية « على الجسر الأرضي للعرب » أو بانهايار المقاومة البريطانية .
وفي هذه الحالة كان من الممكن أن يشكل الوطنيون العراقيون عاملاً كبيراً
بالنسبة إلى الألمان ، وذلك بتقيامهم بتدمير المطارات البريطانية ومهاجمة خطوط
المواصلات البريطانية والوحدات البريطانية المعزولة وشرقي الأردن وفلسطين .
وخلص فورمان إلى مايلي : « وفي ظل هذه الظروف يجب أن تكون سياستنا قائمة

(١) يقتبس فايزر ساكر جزءاً من الوثيقة المعنية بمثابة إيضاح لمارضته للدوان على الاتحاد السوفييتي .

على الإبقاء على قوة ثقة العراق .. لكي يوجه العراق ضربته حين يجعل الموقف العسكري والسياسي بأسره مثل هذا العمل أمراً مرغوباً فيه .

وهناك تفسير مختصر آخر لهذه النظرية كالاتى : لا يجب أن تنشب ثورة العراق العلنية ضد إنجلترا حتى تمنح الفرصة المواتية للنجاح . وحتى يتم ذلك يجب أن تبقى الرغبة في النضال حية . وبإمكاننا أن نشك في أن الفرصة ستكون مواتية بعد الانتصار على الاتحاد السوفييتي .

ولكن من المحتمل أن ثمة تفسيراً مخالفاً تماماً لذلك . فقد كان حكام ألمانيا يرغبون في أن يبرروا الحرب ضد الاتحاد السوفييتي قبل أن تتم هزيمة بريطانيا . على أنه يبدو من المؤتمر الذي انعقد في ٣ فبراير ١٩٤١ أنه كان بإمكان الألمان في هذه الحالة أن لا يستطيعوا سوى أن يخصصوا لجهة شمالي إفريقيا قوات وعناداً بكميات غير كافية — ومن ثم استغلال القوى المعادية لبريطانيا في البلدان العربية سواء أثناء أو بعد أن أصبحت الحرب البلقان أهمية تفوق ما كان لها حتى ذلك الوقت . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان بإمكان الألمان في الشرقي الأدنى والأوسط أن يحتلوا آبار البترول ومعامل تكريره التي كان من الممكن أن يشبث أنها على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى قدرتهم على إدارة الحرب وإلى قوة الريخ الهتلري في المستقبل . ويحتمل جداً أن يكون هذا رأى فون ريبنتروب الذي لم يبن قراره على حرص موظفي وزارة الخارجية الألمانية على تقدير الموقف تقديراً مشوباً بالحرص وقد أمر بما يلي : « يجب أن نسعى إلى تحديد تاريخ مبكر (للثورة في العراق) بالتشاور مع الإيطاليين » . وترتب على هذا أن الألمان كانوا يميلون إلى أن تنشب الثورة في العراق في المستقبل القريب ، وأنه كان عليهم أن يوجندوا الطرق والوسائل لمساندتها . وعلى هذا الشكل فهمت وزارة الخارجية صيغة ريبنتروب .

ووفقاً لمذكرة فورمان كان من الضروري بذل وعد سياسي ما للعرب ، على حين أن ريبنتروب — الذي كان شديد الاهتمام بالحاجة إلى القيام بنشاط في البلدان العربية — لم يضع خططاً لتقديم أى مقترحات بصدد هذه المسألة . ولما كان التصريح قد تمت صياغته بعد وضع كل الاعتبارات السابقة موضع الاعتبار ، فإنه كان إلى حد ما خيراً من التصريح الإيطالي الألماني الصادر في خريف عام

١٩٤٠ ، ولكن لم يصل به الأمر إلى الاقتراب مما كان يطلبه العرب . وكان من المفروض أيضاً أن يبقى في طي الكتمان . وقد قرر الألمان أن يصدروه على شكل رسالة من الوزير فايز ساكر إلى مفتى القدس السابق :

« إن ألمانيا ، التي لم يسبق لها أن امتلكت أرضاً عربية ، ليست لها أطماع في المنطقة العربية . وهي ترى أن العرب ، وهم شعب له حضارة قديمة ، وقد أيدوا كفافة في النشاط الإداري وأثبتوا ماله من فضائل عسكرية ، قادرون تماماً على أن يحكموا أنفسهم . لهذا فإن ألمانيا تعترف باستقلال الدول العربية التام ، أو بالمطالبة بالحصول عليه حيثما لم يتحقق هذا » .

وبعد أن أكد فايز ساكر أن العرب والألمان يواجهون نفس الأعداء — أى الإنجليز واليهود — أعلن في رسالته إلى مفتى القدس السابق أن الحكومة الألمانية على استعداد للتعاون مع العرب ولأن تمددهم بالمساعدة العسكرية والمالية حين يضطرون إلى محاربة البريطانيين تحميلاً لأهدافهم القومية . وأشار فايز ساكر في الوقت نفسه إلى أن الإيطاليين قد أحيطوا علناً بفحوى الرسالة وأنهم يوافقون عليه .

وهكذا اختلعت لهجة رسالة الحاج أمين الحسيني عن التعاليمات الصادرة إلى الوزير المفوض جابريلي . وقد بذل جهداً خاصاً لصياغة الرسالة في أشد لهجة . ولكنها لم تكن مشجعة للعرب بوجه خاص . وفيما يتعلق بمسألة من الأهمية بمكان بالنسبة إلى العراق — كرده بالأسلحة — تضمنت الرسالة مجرد وعد بأن هذا سيتم بمجرد العثور على الطريقة المناسبة . وفي محادثة جرت بين حداد وفورمان أثار حداد مسألة المساعدة المالية في حالة نشوب الحرب مع إنجلترا ، وطالب — باسم الحكومة العراقية — بمبلغ مليوني جنيه شهرياً لتغطية الفراغ الناتج عن ضياع المورد الذي تدفعه بريطانيا للعراق . ولكن فورمان لم يقدم وعداً محدداً ، حقيقة أنه اتخذ موقفاً إيجابياً في المذكرة حول زيادة المبلغ بحيث يغطي شراء الأسلحة ، إلا أنه رأى عدم ضرورة الالتزام بدفع ١٠,٠٠٠ جنيه شهرياً بانتظام لمفتى القدس . وكان قد طلب من كل من الحكومتين الألمانية والإيطالية أن تدفعا له هذا المبلغ . على أن فورمان اقترح مبلغاً إجمالياً قدره ١٠٠,٠٠٠ مارك ألماني — ووافق ريبنتروب على هذه التسوية .

قرارات أخرى الدعاية ، وزارة الدفاع ، سوريا

وقد أقرت وزارة الخارجية الألمانية المقترحات العملية الأخرى التالية :

فيما يتعلق بالمسائل العربية العامة يركز الألمان معظم جهودهم على الاتصال بالحاج أمين الحسيني . وكان من المتوخى التوسع في العلاقات مع ابن سعود والحكومة العراقية والزعماء الوطنيين السوريين . وقد قام فون هنتج بكثير من الاتصالات أثناء زيارته لسوريا ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن اليقين بصدد استطاعة القوميين القيام بأي إجراء ناجح ، وذلك بسبب المنافسات الشخصية والانقسامات وعدم وجود زعامة موحدة . وكان موظفو وزارة الخارجية الألمانية متنبهين إلى الحاجة إلى تجنب الصراعات مع مفتي القدس ، وهي الصراعات التي كان من الممكن أن تترتب على تعاونهم مع النازية السوريين^(١) .

وقد تقرر توسيع نطاق الدعاية الألمانية في البلدان العربية . وحتى ذلك الوقت كانت برلين تقدم ثلاث إذاعات يومية باللغة العربية الفصحى لمدة ٩٥ دقيقة باستثناء البرامج الموجهة إلى المغرب^(٢) ، بالإضافة إلى إرسال تائم وبطاقات

(١) كان للحاج أمين الحسيني أنصار ومنافسون في سوريا ، ووجه خاص من بين الوطنيين الفلسطينيين المقيمين في المهجر في سوريا ولبنان . وهكذا أصّر المفتي - على سبيل المثال - على ألا يقيم الألمان أي علاقات مع موسى العلي (الذي ترمز إليه تقارير وزارة الدفاع الألمانية باسم جورج) وعلى أن ينظموا كل المسائل المتعلقة بسوريا مع شكري القوقل .

(٢) وجهت محطتا إذاعة برلين وباريس إذاعات باللغة العربية المنبرية ولغة القبايل . وكانت إذاعة باريس تهدف إلى خلق الشعور بأن الإذاعات يقوم بها فرنسيون . كما عكست الإذاعة الموجهة إلى بلدان المغرب التناقض الداخل الكامن في السياسة الألمانية : فقد كان على حكومة هتلر باستمرار أن تحسب حساب وجهة النظر الفرنسية ، ولكن كان عليها في نفس الوقت أن تسمح لقومية المغرب بأن تعبر عن نفسها . وكان المسلمون التعاونيون مع جهاز الدعاية الألمانية يودون أن تشتهد لهجة الدعاية الموجهة إلى بلدان المغرب . وفي سجلات إدارة الدعاية توجد رسالة من باريس بتاريخ ١٧ إبريل ١٩٤١ جاء فيها : « طبقاً للقرارات التي اتخذت أخيراً على أعلى المستويات ، من الضروري أن يعمل حساب للمصالح الفرنسية بوجه خاص . وتأتي الصعوبات المرتبطة بذلك من أن الوطنيين في شمال إفريقيا يحاولون باستمرار أن يضمنوا دعايتنا اتجاهات مهادنة للفرنسيين » . وما يثير الانتباه ما نلاحظه من أن الألمان وضعوا في أوائل عام ١٩٤٠ خطة لتوجيه الدعاية إلى الجنود المراكشيين في سوريا من محطة إذاعة لودز (بولنده) . ولكن سرعان ما تخلوا عن هذه الفكرة لأن السلطات في سوريا كانت تحرم استعمال أجهزة الراديو ذات الموجة القصيرة .

بريدية وكتيبات . وقبل أن تدخل إيطاليا الحرب استخدم الألمان الطرق الإيطالية وأرسلوا شحنات عن طريق ليبيا وإيران . ولكن لم يكن مفتوحاً أمامهم في بداية عام ١٩٤١ سوى الطريق الأخير . وكانت تصدر طبعة عربية من جريدة « الإشارة » الخاصة بالقوات المسلحة الألمانية ، وكانت تحمل المجلة القومية التي كانت تظهر في جنيف تحت عنوان « الأمة العربية La Nation Arabe » ، وكان يصدرها الأمير شكيب أرسلان باللغة الفرنسية^(١) . وكانت الصحف العربية في إسبانيا ومراكش الأسبانية وأمريكا الجنوبية تزود بالمعلومات والمقالات . كما أرسلت المادة الدعائية إلى المؤتمر القوي العربي في بوينس آيريس . وكانت محطة إذاعة الريخ تنشر مجلة « بريد الشرق » التي كانت تصدر كل أسبوعين ، وكانت مساهمة وزارة الخارجية الألمانية في هذا العمل مقصورة على توفير المادة وتنظيم التوزيع . - وكانت الصحافة العربية تتلقى المقالات ، على حين كان لوكالتي Transocean وDNB مندوبون في بيروت . وكانت الصحف ترسل بالبريد من ألمانيا إلى إسبانيا ومراكش الإسبانية ومراكش .

ولا بد أن موظفي هتلر اعتبروا الإذاعات اللاسلكية أهم نوع فعال من الدعاية بالنسبة إلى البلدان العربية - فقد قرروا أن يقدموا خمسة برامج يومياً وأن يزيدوا وقت الإرسال إلى ٢٠٥ دقيقة . وبالإضافة إلى القرار الخاص بتوسيع نطاق النشاط الألماني تقرر تقوية النفوذ الألماني في مجال الصحافة العربية في سوريا بإيفاد مراسلين إلى هناك وتزويد جريدة النهار البيروتية بإدارة للأخبار وتجهيزات هامة . كما تقرر تزويد عدد كبير من الصحف السورية بصور فوتوغرافية ونشرات أخبار ، بالإضافة إلى إقامة اتصال تلغرافي بين أنقرة وبيروت مرتين في الأسبوع . وكان من المتوخى أن تتلقى دور السينما في بيروت ودمشق وحلب أفلاماً ونشرات أخبار ألمانية .

وتقرر توسيع نشاط الحاسوسية والحاسوسية التخريبية التابعة لوزارة الدفاع الألمانية . ولكن كان من المتوخى أن تقتصر هذه الأخيرة على فلسطين وشرق الأردن ومصر . أما فيما يتعلق بالعراق فقد تم الاعتراف باحتمال تخريب المنشآت

(١) لعبت هذه المجلة - شأنها في ذلك شأن صاحبها وناشرها - دوراً هاماً في حركات الحركة

البريطانية هناك . وقد سبق أن رأينا أن نشاط وزارة الدفاع الألمانية لم يكن واسعاً من قبل في هذه البلدان ، وذلك وفقاً للأوامر المباشرة التي أصدرها ريبنتروب . ولكن الأدميرال كاناريس رجا ريبنتروب أن يزوده بتصريح عام مكتوب لكي يقوم بنشاط هناك . ورفض ريبنتروب هذا الطلب ، وطلب أن يحاط علماً بخطط النشاط ، وقرر أن تبقى تفاصيل نشاط وزارة الدفاع الألمانية خافية على الإيطاليين .

وعلى أثر المحادثات التي تمت بين فورمان والأدميرال كاناريس والصاغات لاهوزن Lahoesen وبككنبروك Piekenbroek وستولز Stolze وضعت الأيرالية وثيقة بعنوان : « خطط نشاط إدارة الشؤون الخارجية لوزارة الدفاع الألمانية في الشرق الأدنى » ، وكانت تتناول المهام الثلاث الآتية الخاصة بوزارة الدفاع الألمانية في إدارة المعلومات السرية وأعمال التخريب والقلاقل :

(أولاً) وضع كاناريس خطة لإقامة جهاز للمخابرات السرية في الشرق الأوسط كله ، مع الاهتمام بالأهمية الخاصة للمعلومات الواردة من تركيا وسوريا ومصر والعراق (ونحن نعلم من مصادر أخرى أن الأدميرال بدأ في ذلك الوقت يرسل عملاء إلى العراق) .

(ثانياً) اقترح القيام بأعمال تخريبية معظمها في فلسطين ، ومن المحتمل أنه كان يعول على تعاون المفتي . وفي التقرير الذي أعده وزير الدفاع ليقدمه لريبنتروب ، وضع خططاً لتخريب محطات توليد الطاقة ومحطات المياه وخط أنابيب كيركوك - حيفا (١) ومصانع ومنشآت عامة كمستودعات المياه ومحطات توليد الكهرباء - إلى غير ذلك . ووضع كاناريس خططاً لتدمير خطوط تموين القوات البريطانية في حالة اتخاذ بريطانيا إجراءات ضد العراق .

(ثالثاً) اقترح إثارة قلاقل ضد البريطانيين في فلسطين وشرق الأردن . وقد اعتقدت قيادة وزارة الدفاع أن مثل هذه القلاقل ستتشب بطريقة آلية بمجرد توافر الأسلحة . واعتقد كاناريس أن مثل هذه الشحنات من الأسلحة ستكون ممكنة

(١) لم يكن تخريب خط أنابيب البترول ذا فاعلية كبيرة - إذ كانت تجري فيه إصلاحات سريعة بصورة غير عادية . وكانت لخط أنابيب كيركوك - حيفا خمس محطات للفسخ : اثنتان منها في شرق الأردن وثلاث في العراق . ولم تكن الشعبة الأخرى من خط الأنابيب التي تنتهي عند طرابلس تعمل في الفترة الممتدة من سقوط فرنسا إلى احتلال القوات البريطانية والديجوية لسوريا ولبنان .

حين يتم احتلال القوات الألمانية لتراقيا وثغر سالونيك - ومن هناك سيكون من الممكن إرسال شحنات من الأسلحة إلى فلسطين عبر المياه الإقليمية التركية . ولكنه لم يتبين أى احتمال مباشر لتقديم المساعدة للثائرين على إنجلترا في العراق ، وكان متشككاً بصدد إرسال قائد القوات الجوية فلمي Felmy إلى هناك سرّاً . وقد وعد كاناريس بسند جهود وزارة الخارجية الألمانية بتزويد العراق بالأسلحة عبر اليابان إذ كان لوزارة الدفاع الألمانية عملاء من بين شخصيات تحتل مناصب هامة في اليابان وفي السفارة اليابانية في برلين . ولكن الألمان لم يقتصروا على اليابان - إذ أنهم واصلوا جهودهم كذلك لشحن الأسلحة إلى العراق عبر تركيا ، تحت ستار بضائع مرسلة إلى إيران وأفغانستان .

وقد جرت اتصالات مستمرة بين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الألمانية بخصوص شئون الشرق الأوسط . وفي الإدارة السياسية لوزارة الخارجية الألمانية عهدت هذه المسائل إلى مالمشرز ، بشرط أن ينضم إليه جروبا أيضاً إذا مست الحاجة . وفيما يلي القرارات الخاصة بسوريا :

(أولاً) يقوم التمثيل الألماني فيها على شكل هيئة اتصال مع اللجنة الإيطالية للإشراف على وقف إطلاق النار في سوريا ولبنان . وقد أمر ريبنتروب بزخمي العناية في إرسال رجال هدفهم جس النبض وتوطيداً لمركز إيطاليا فيما يتعلق بالنواحي السابق ذكرها ، دون أن يفشى اسم المرشح الألماني لتولى رئاسة هيئة الاتصال . وكان المرشح هوفون هنتج .

(ثانياً) تقرر الاشتراك مع الإيطاليين في طلب إبعاد حكومة فيشي لستة أشخاص في الإدارة السورية اعترض عليهم الألمان . وكان هؤلاء الأشخاص هم : كونتي Conti مدير القسم السياسي للجنة الفرنسية العليا وروجية شمبار Rugar Chambard رئيس قسم الصحافة والرقابة وسبيرو رئيس مكتب التوين (وكان هؤلاء الثلاثة يشغلون مناصب وزارية) وكابتن ماير Meyer ضابط الاتصال المسئول عن شئون القبائل البدوية ، وفوكونو Fouqueneauld مدير بوليس منطقة دمشق وكابتن بلوندل Blondel رئيس الخدمات الخاصة في منطقة العلويين (أى اللاذقية في شمال غربي سوريا) - وكان هؤلاء جميعاً مكلفين بإقامة علاقات مع بريطانيا والاتصال بالقادة البريطانيين .

وهكذا تقرر أن أسس السياسة الخاصة بالبلدان العربية ، واتخذت خطوات هامة بصدد المسائل التفصيلية . وإذا مارئي أن الألمان حتى ذلك الوقت لم يقوموا بالفعل بأي نشاط في البلدان العربية بسبب احتمال حدوث رد فعل عدائي من جانب الإيطاليين ، فيجب الاعتراف بأن الموقف أصبح مختلفاً اختلافاً جذرياً . ولكن من الواضح أنه لم يكن بإمكان القرارات الألمانية أن تسير التطور السريع الذي طرأ على الموقف في البلدان العربية ، وبخاصة في العراق .

الفصل الثامن

نشوب الثورة في العراق

انقلاب بغداد

في أواخر شهر مارس نشبت أزمة سياسية في العراق ، لم يمكن تسويتها هي الأخرى بالطرق الدستورية ، مما أدى إلى حدوث انقلاب عسكري آخر . وقد سبق أن أشرنا إلى أن نفس الصاغات الأربعة — أعضاء المربع الذهبي الذين ساندوا ترشيح الجنرال طه الهاشمي منذ شهرين — عادوا فأطاحوا بوزارته في أول إبريل وتولى رشيد عالي رئاسة الوزارة من جديد .

ومن الناحية الداخلية نجد أن الأزمة قد نجمت عن استمرار ضعف الثقة وتوتر العلاقات بين الوصي والصاغات الأربعة ، وكان الوصي شديد الرغبة في تحطيم قبضة الصاغات على الجيش .

وكان مقيضاً للتناقضات الكامنة في وضع طه الهاشمي أن تبرز للعيان أثناء رياسته للوزارة — فقد كان أخاً لياسين الهاشمي ، رئيس وزراء العراق في عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ — وقد أطاح به الانقلاب العسكري الذي قام به الجنرال بكر صدقي . وقد تبني ياسين آراء الوحدة العربية ، وخلق عليه نشاطه السياسي لقب « بسمارك العرب » . وكان رشيد عالي الكيلاني وزيراً للشؤون الداخلية في وزارته ، وكان طه الهاشمي يشارك أخاه وجهات نظره الخاصة بالسعي إلى تحقيق الوحدة العربية ، كما كان يبدي عاطفاً شديداً باستمرار على الصاغات الأربعة الذين اعتبرهم تلامذة له . هذا إلى أنه كان شديد الإعجاب بألمانيا وجيشها . وربما كان هذا هو السبب الذي دعا كلا من ألمانيا وبريطانيا إلى اعتبار وزارة طه الهاشمي استمراراً لوزارة رشيد عالي ، وإن تكن أكثر منها حرصاً بقليل .

وفي الوقت نفسه كان طه الهاشمي على علاقات قوية بنوري السعيد أكبر ممثلي المعسكر الممالي لبريطانيا والذي أحياناً ما ساند رئيس الوزراء في السياسة

التي اتبعها . لهذا كانت تبدو التناقضات أحياناً بين آرائه وأعماله السياسية . وكان من رأى موريس بيترسن Petersen - الذى كان سفيراً لبريطانيا فى العراق قبل سير باسل نيوتن - أن طه الهاشمى محدود الذكاء . على أنه يبدو أن مركز الهاشمى لم تحدده فقط اتجاهاته الشخصية ، بل أيضاً - بدرجة غير قليلة - الاتجاهات السياسية فى العراق ، وهى اتجاهات لم تكن ناضجة بحكم أنها لم تكن قد تشكلت بعد .

وإزاء ضغط الوصى ، قام طه الهاشمى بعد توليه الحكم بمحاولات يشوبها الخوف لإغراء بعض أعضاء المربع الذهبى بالانتقال من بغداد إلى حاميات فى الأقاليم . ثم استشف الصاغات الأربعة ، فى اجتماع لكبار ضباط الجيش انعقد فى منزل طه الهاشمى فى أواخر فبراير ، أن رئيس الوزراء كان يضع خطة لقطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا . وبحلول نهاية شهر مارس كانت العلاقة بين الهاشمى والضباط الأربعة قد تغيرت تماماً - إذ أن الوصى كان قد أغراه بنقل كامل شبيب ، أقل الضباط الأربعة أهمية ، إلى منصب آخر (٢٦ مارس ١٩٤١) . وأجبر الصاغات الأربعة رئيس الوزراء على إلغاء الأمر ، وحينئذ عرفوا أن الوصى هو أكبر خصومهم وأنهم لا يستطيعون الاعتماد على الهاشمى .

وكان على الوصى ، إذا أراد أن يصبح الحاكم الفعلى للبلاد ، أن يحطم المربع الذهبى . ولكننا سنرى أن زمام المبادرة لم يكن فى يده تماماً بخصوص هذه المسألة . ولما كان الصاغات الأربعة متنبهين للموقف فإنهم عدوه مؤامرة ضد الحكومة بالتحالف مع المتطرفين من الساسة المدنيين ^(١) .

وفى ٢٨ فبراير تقابل صلاح الدين الصباغ وفهمى السعيد ومحمود سلمان (من أعضاء المربع الذهبى) ورشيد على الكيلانى ويونس السبعارى وناجى شوكت والحاج أمين فى مقر الأخير (شارع الزهاوى فى بغداد) . وقد أقسم كل الحاضرين على القرآن واتخذ كل منهم اسم جده باعتباره اسماً تآمرياً مستعاراً ^(٢) . واختير الحسينى رئيساً للجماعة لأنه كان وثيق الصلة جداً بالمربع

(١) انظر S.H. Longrigg: Iraq, 1900 to 1950, p. 287. وكان رشيد على وأتباعه

يريدون أن يظهرُوا علناً تحت اسم « حزب الشعب » .

(٢) وفقاً لتقرير شوكت الذى احتوته رسالة بعث بها إلى الحاج أمين فى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٢ =

الذهبي ، كما كان واسطة الاتصال بين رشيد عالي وجماعة العسكريين . وقرر المتآمرون عدم السماح بأى تنازلات جديدة لبريطانيا أو بقطع العلاقات مع إيطاليا . وصمموا على أن يطردوا من البلاد أبرز الساسة الموالين لبريطانيا ، وأن يسهطوا طه الهاشمي إذا رفض الموافقة على النقاط السابق ذكرها ، وتشكيل وزارة جديدة برياسة الكيلاني . وهكذا تشكلت لجنة سرية كانت تجتمع بكثرة ، وأعدت للقيام بانقلاب . وبعد أن نجح الانقلاب كانت هذه اللجنة تناقش كل المسائل الهامة الخاصة بسياسة الحكومة .

وقد قرر المتآمرون أن يقوموا بالانقلاب في يوم ٣١ مارس وهو يوم انتهاء الدورة البرلمانية . وفي مساء يوم أول إبريل وضع الجيش في حالة طوارئ ، وسلم إنذار إلى رئيس الوزراء وحوصر قصر الوصي . ولم يكن في نية طه الهاشمي أن يتعاون مع رشيد عالي وهرب الوصي من بغداد بمساعدة وزير أمريكا المفوض . وفي البداية توجه إلى البصرة ، وحين صدر أمر رشيد عالي بالقبض عليه ، اختبأ في سفينة بريطانية راسية في شط العرب ، ثم توجه إلى عمان حيث انضم إلى عمه عبد الله أمير شرق الأردن . كما لجأ إليها عدد كبير من الساسة العراقيين الموالين لبريطانيا : نوري السعيد وجميل المدفعي وعلى جودت وآخرون . وفي ظل هذا الموقف لم يكن ثمة أى احتمال رسمي لإقامة حكومة دستورية في العراق . وكان على رشيد وأصحابه أن يقيموا حكومة للدفاع الوطني وأن يطبقوا عدداً من الإجراءات غير الدستورية .

=ويناقش صلاح الدين الصباغ (فرسان العروبة في العراق، دمشق، ١٩٥٦، ج ٣ ، الفصل الثاني عشر ص ٢١٨ - ٢٠) الاجتماع الذي انعقد في ٢٨ فبراير ١٩٤١ . على أن الصباغ لا يعطينا أسماء المشتركين في الاجتماع ، بل مجرد الأسماء المستعارة : مصطفى (المفتي) ، عبد العزيز (رشيد عالي) ، أحمد (ناجي شوكت) ، رضوان (الصباغ) ، فرهود (يونس السباعي) ، جاسم (فهي السيد) ، فارس (محمد سلمان) . ووفق ما يذكره المفتي وما ورد في رسائل شوكت كان الاسم المستعار لفهي السيد هو «نجم» . وفي رأينا أن هذا الاجتماع كان أول اجتماع تلتق فيه هذه المجموعة من المتآمرين .

الأسباب الدولية للانقلاب

لا يمكن أن يكون تفسير أحداث العراق أنها لا ترجع إلا إلى تعقد السياسة الداخلية العادية بشكل أو آخر في دولة حديثة نعوزها تقاليد الحكومة الدستورية . وفي الواقع أن الانقلاب قد تم في فترة شهدت تطورات هامة جداً بالنسبة إلى الحرب كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسياسات دولتي المحور وخصومهما .

فقد شهد شهر مارس ١٩٤١ نشاطاً سياسياً وحزبياً كبيراً للألمان البلقان . فالقوات الألمانية كانت قد دخلت رومانيا منذ أكتوبر ١٩٤٠ . وفي أول مارس تم احتلال بلغاريا التي انضمت إلى الميثاق الثلاثي . وأدى الضغط على يوغوسلافيا إلى سقوط حكومتها وانضمامها كذلك إلى الميثاق الثلاثي في ٢٤ مارس . ولكن خصوم المحور أستقطروا حكومة كفتكوفتش Cvetovic بعد ثلاثة أيام . وفي ٦ إبريل هاجم هتلر يوغوسلافيا واليونان . وفي شمال إفريقيا شهدت هذه الفترة قيام السلاح الجوي الألماني بنشاط متزايد ، كما شهدت نجاح أول هجوم مضاد قام به (٣١ مارس) . أما فيما يتعلق بمعسكر خصوم المحور فقد زار وزير الخارجية البريطانية ، أنتوني إيدن ، البلقان والشرق الأوسط فيما بين ١٩ فبراير ونهاية مارس . وكان من مهامه تسوية مسائل العراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية . وفي ٦ مارس ١٩٤١ قامل توفيق السويدي - وزير الخارجية في حكومة الهاشمي - إيدن في القاهرة . ويمكن أن نستنتج من تقارير مختلفة أن المحادثات لعبت دوراً كبيراً في وقوع الانقلاب المعادي لبريطانيا في العراق .

وقد أبلغ كامل الكيلاني - وزير العراق المفوض في أنقرة وأخو رشيد عالي - فون بابن في أوائل إبريل بأن الصاغات الأربعة قد دبروا انقلاباً بسبب سخطهم على الامتيازات التي منحها توفيق السويدي لإنجلترا . ووردت أخبار مماثلة في رسالة بفت بها السكرتير الخاص للمفتي إلى وزير الخارجية الإيطالية في ٣ إبريل بصدد التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقية تم الوصول إليها بين إيدن ووزير خارجية العراق .

كما بلغت مصادر سرية وزارة الخارجية الألمانية بمعلومات تتعلق بفحوى المحادثة التي جرت بين السويدي وإيدن . وقيل إن الوزيرين ناقشا المسائل الآتية : قطع العلاقات الدبلوماسية بين العراق وإيطاليا - احتلال القوات البريطانية لبعض المناطق في العراق - نشاط الوكالات السياسية البريطانية ومراكز تجسسها ودعايتها - ضم الوزارة لثلاثة أو أربعة وزراء من أنصار بريطانيا . وقد ذكر وزير اليابان المفوض في بغداد أن الإنجليز يطالبون باستقالة وزارة طه الهاشمي وتأليف وزارة موالية لبريطانيا . وقد بلغ القائم المجري بالأعمال في القاهرة حكومته بأن إيدن طالب أيضاً باعتزال عدد كبير من كبار الضباط العراقيين ، وأن هذا الطلب كان السبب المباشر للانقلاب . وأهرق وزير إيطاليا المفوض في بغداد في ٤ إبريل أن إيدن اقترح قيام الجيشين البريطاني والعراقي بعمل مشترك ضد سوريا ولتحرير إخوة السوريين ! ووفقاً لما يذكره جابر ييلي ، وافق السويدي والوصي على هذا الاقتراح برغم توفيره حجة لدخول القوات البريطانية إلى العراق .

كما قدم ممثلاً أمريكياً في القاهرة وبغداد تقارير عن محادثات إيدن - السويدي وذكر أن السويدي توجه إلى القاهرة بدعوة من إيدن - وقيل إن محادثتهما تناولت التعاون ، أو بالأحرى عدم وجود تعاون ، بين العراق وبريطانيا وتدخل العسكريين في السياسة و قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا . ولا تؤكد التقارير الأمريكية بصورة مباشرة أن إيدن طالب بإجراء تعديل وزارى وبفصل عدد من الضباط . وتذهب هذه التقارير إلى أن توفيق السويدي اعترف بالصعاب التي كان يتضمنها قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا ، وأنه رفض أن يحدد موعداً لقيامه بتنفيذ هذا الإجراء ، إذ كان من رأيه أن التغلب على معارضة قادة الجيش العراقي كان يتلزم بعض الوقت . وكان من رأى وزير الخارجية البريطانية أن من الأسهل بالنسبة إلى الجماهير أن تقبل تقديم تنازلات لبريطانيا فيما لو طبقت نصوصاً معينة إضافية من الكتاب الأبيض ، ولو سمحت للقادة الفلسطينيين بالعودة .

ونحن نجد تأكيداً لهذه الروايات في مذكرات صلاح الدين الصباغ (أحد الصاغات الأربعة) التي نشرت في عام ١٩٥٦ بعد وفاته بعنوان « فرسان العروبة »

في العراق . وهو يذكر أن طه الهاشمي صرح أثناء مناقشة جرت بينه وبين كبار ضباط الجيش (ومحادثتنا هذه كانت ناتجة عن اجتماع عقد بين توفيق السويدي وزير خارجية العراق ومستر إيدن وزير الخارجية البريطانية) بأن على العراق أن يبدي الطاعة لما تريده إنجلترا ، وأن هذا هو ما طلبه إيدن . ويذكر الصباغ أن إيدن أصر على قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا وعلى السماح بحشد الجيوش البريطانية في العراق . ويقال أيضاً إنه عبر عن عدم رضى حكومته بوجهات نظر قادة الجيش . ويبدو لنا كذلك مما ذكره الصباغ أن توفيق السويدي أبدى كثيراً من التشدد خلال المناقشات التي جرت في إبريل بين المتأمرين وحكومة طه الهاشمي ، على عكس رئيس الوزراء .

ونحن نستنتج من هذه الروايات ، التي لم يؤكد لها أى مصدر بريطاني معروف ، أن مرجع الانقلاب هو الاتفاق بين أنتوني إيدن وتوفيق السويدي . وقد خشي أعضاء المربع الذهبي وحلفاؤهم المدنيون أن تؤدي هذه الاتفاقية إلى النزول بهم إلى الدرك الأسفل في أحسن الأحوال ، وإلى اشتراك العراق في الحرب إلى جانب بريطانيا التي كانوا يعتبرونها عدوة لهم ، ويعتقدون أنها في الجانب الخاسر . وعلى أى حال فإن المحاولة التي جرت في ٢٦ مارس للإطاحة بـ بكامل شبيب (وكان السويدي قد عاد إلى بغداد في ١٧ مارس) قد أكدت مخاوف المربع الذهبي .

ويشير السكرتير الخاص للحاج أمين في الرسالة التي وجهها إلى وزير الخارجية الإيطالية إلى سبب آخر للانقلاب : « إزاء الأخبار المواتية عن محادثات برلين التي كان باستطاعتى أن أنقلها ، قرر الجيش العراقي أن يستولى على الحكم ويعهد إلى الكيلاني بتشكيل وزارة جديدة » .

ومن الطبيعي أن يشير حداد إلى محادثاته في برلين على اعتبار أنها من أسباب الانقلاب . وما لاشك فيه أنه كان يود من الطرف الآخر أن يدين له أكبرياً ، فيدفعه بذلك إلى بذل مزيد من الجهود لمساعدة العراق . على أن من المحتمل أن تصرّحه لا يخلو من أساس — فقد كان على المربع الذهبي ورشيد عالي أن يركنوا إلى جهة ما في تدبيرهم الانقلاب الثاني . وكان الكيلاني من ناحيته يعلم جيداً رأى الإنجليز فيه والطريقة التي سيقابلون بها الأخبار الخاصة بأنه طرد الوصي —

ركيزة النفوذ البريطاني - خارج البلاد وأنه أصبح مرة أخرى رئيساً للوزراء .
ويحتمل أنه كان يعمل على المساومة الدبلوماسية ، ولكننا نستشف أيضاً أنه كان
يروده الأمل في أن يستطيع العراق مقاومة البريطانيين وأن المحور لن يرفض تقديم
المساعدة له . وقد أدت الأخبار التي بعث بها حداد من برلين إلى تقوية اعتقاد
رشيد عالي وحلفائه بأن لدى المحور قوة ضخمة ، وأن انتصار دوله أمر مؤكد .
ولكن حتى لو أمكننا أن نستشف أن لرشيد عالي وجهات نظر أكثر حذراً بصدد
التطورات المباشرة للأحداث في العراق ، فما لا شك فيه أن شركاء رشيد عالي
العسكريين كانوا كبيرى الثقة في قوة ألمانيا ، على حين أن تطورات الحرب في إبريل
١٩٤١ كانت تعزز تقديرهم للموقف ^(١) .

وأرادت الحكومة الجديدة أن تخلع على الأوضاع الناتجة عن الانقلاب صبغة
قانونية . وفي ١٠ إبريل انعقد البرلمان ، وحضر الجلسة ٩٤ من الأعضاء البالغ
عددهم ١١٨ - وحينئذ كانت تعوز خصوم المربع الذهبي القوة والشجاعة اللازمتان
لظهورهم . وكان من الواضح أن أعداء الانقلاب تم عزلهم وأدى القبض على عدد
من كبار الموظفين ، بما فيهم متصرف البصرة ، إلى تخويف أنصار بريطانيا .
ووفقاً لاقتراح تقدم به الكيلاني خلع البرلمان الأمير عبد الإله وحل محله في منصب
الوصي الشريف شرف أحد أعضاء الأسرة المالكة . وكان الشريف شرف قد اشترك
في الثورة العربية الأولى التي نشبت خلال الحرب العالمية الأولى ، وكان شخصية
محبة ولكن لم يكن على جانب كبير من الأهمية .

(١) يؤكد حداد أكثر من مرة في مذكراته أن رشيد عالي والساسة المتعلقين به كانوا يرون أن الموقف
في أوروبا غامض ، وبخاصة على أثر تدهور العلاقات الألمانية - السوفيتية ، وأن من المفترض لهذا السبب
أنهم كانوا يهتمون سياسة أكثر حذراً إزاء إنجلترا . ولكن صلاح الدين الصباغ يورد في مذكراته وجهة نظر
مخالفة : فهو يذهب إلى أنه هو والعلماء العسكريين الآخرين كانوا على يقين من هزيمة إنجلترا . ونحن أميل
إلى قبول ما يذكره الصباغ ، وإن كنا لا نستبعد تماماً وجود اختلافات معينة بين اتجاهات رشيد عالي
واتجاهات المربع الذهبي أو بعض أعضائه . وتبعث مذكرات الصباغ على قدر أكبر من الثقة ويبدو أنها صريحة
وأنها كتبت في أواخر الحرب على أقصى تقدير (إذ أن الصباغ شق في بغداد في أكتوبر ١٩٤٥) .
وبالإضافة إلى ذلك فإن اعترافنا بأن حدود كان يتبنى وجهات نظر رشيد عالي وساسة بغداد الآخرين بإخلاص
كما يجعلنا نستخلص أنهم من ناحية كانت لديهم معلومات تفوق ما كان لدى معظم الساسة في ذلك الوقت عن
العلاقات الدولية السائدة كما أنهم كانوا يفرقون مثل هؤلاء الساسة في الفهم ، وأنهم - من ناحية أخرى -
كانوا مشبعين بنوع من حب الوطن والمسئولية عن مصير البلاد .

وقد أقر الوصي الجديد استقالة طه الهاشمي وكلف رشيد عالي بتشكيل وزارة جديدة . وتولى رشيد عالي رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية ، وتولى ناجي السويدي (أخو توفيق) وزارة المالية وناجي شوكت وزارة الدفاع وموسى شهبندر (أحد كبار موظفي وزارة الخارجية وأحد أنصار رشيد عالي) وزارة الخارجية وعلى محمود الشيخ علي (وكان محامياً معروفاً ومن المعجبين بهتلر ، كما كان وزيراً سابقاً في وزارة حكمت سليمان - أي الوزارة التي تشكلت نتيجة للانقلاب الأول) وزارة العدل ، ومحمود علي محمود (وزير سابق في نفس الوزارة) وزارة المواصلات ويونس السبعawy (أحد زعماء الانقلاب ، وكان محامياً وطنياً معروفاً ترجم كتاب كفاحي) وزارة الاقتصاد ، وتولى رؤوف البحراي - صديق رشيد عالي - وزارة الشؤون الاجتماعية (١) .

وضمنت الوزارة الجديدة مساندة الأندية الوطنية وكثير من زعماء القبائل . كما عبرت الدوائر القومية خارج العراق عن مساندتها لحكومة الكيلاني . وكان هذا ينطبق أولاً وقبل كل شيء على سوريا ولبنان حيث كان بإمكان القوميين العرب أن يبدوا وجهات نظرهم بقصد المسألة . وكذلك كان الحال بالنسبة إلى بعض الزعماء المضربين - وبحلول منتصف مايو حاول عزيز علي المصري أن يهرب من البلاد ، ربما إلى العراق .

على أن زمام الموقف لم يكن في يد العراق أو أي بلد عربي آخر - بل إنه كان في أيدي الدول الكبرى .

السياسة البريطانية في العراق (إبريل ١٩٤١)

تم انقلاب العراق في وقت شهد انتصارات محورية متتالية وتضعف مركز بريطانيا الحربي . ففي ٦ إبريل قامت القوات الألمانية بمساعدة القوات الإيطالية والحجرية بشن عمليات حربية في البلقان . وفي ١٧ إبريل سلم الجيش اليوغوسلافي ،

(١) M. Khadduri: op. cit., p. 216. - رسالة إيمل من طهران بتاريخ ١٤ إبريل ١٩٤١ ،

مذكرات جروبوا ، برلين في ١٤ أبريل ١٩٤١ . قبل ذلك كانت تموز برلين المعلومات الصحيحة عن تشكيل الوزارة العراقية .

وفي ٢٤ إبريل سلم الجيش اليوناني في إبيروس. وفي ٢٨ إبريل احتل الألمان أثينا. وانتهت كل عمليات القتال في البلقان في أول مايو ، ووصلت القوات النازية إلى البحر الذي تقع البلدان العربية على شاطئه الآخر .

وكان من رأى الدوائر البريطانية والأمريكية أن قصر الوقت الفاصل بين الانقلاب الذي تم في العراق وبين الهجوم الألماني على يوغوسلافيا واليونان لم يكن من قبيل الصدفة — بل إن هذه الدوائر اعتقدت أن رشيد عالي قام بتنسيق خطواته مع يزلين . ولكن كثيراً من كبار الساسة والقادة العسكريين لم يشاركوا هذا الرأى .

وشنت القيادة الألمانية الجديدة في شمالي إفريقيا هجوماً على المواقع البريطانية في العجيلة في ٣١ مارس وفي ٤ إبريل سقطت بنغازي وفي ١٠ إبريل ظهرت الدبابات الألمانية في السلوم الواقعة قرب الحدود المصرية . وفي غضون اثني عشر يوماً كان روميل قد استرجع الأراضي التي استلزم الاستيلاء عليها خمسين يوماً من ويقل . أما طبرق وحدها — التي اشتدت في الدفاع عنها القوات الاسترالية وكتيبة الجنرال كوبانسكى Kopanski البولندية ووحدات الحرس البريطانى وقوات من جنوب إفريقيا — فقد ظلت تشكل عقبة في وجه الهجوم الألماني. ولقد تكبدت بريطانيا في اليونان وفي الصحراء الكبرى خسائر فادحة في الرجال والعتاد . وكان الموقف شديد الصعوبة ، وتوقع الرئيس روزفلت انسحاب بريطانيا من الشرق الأوسط . ولكن لم تكن لدى تشرشل النية في تسليم منطقة كبيرة الأهمية بالنسبة إلى الإمبراطورية — فحشد قوات إضافية هناك ، وطلب من الولايات المتحدة أن تقدم لبريطانيا مساعدات متزايدة .

وفي ظل هذا الموقف أصبح العراق أكثر أهمية من ذي قبل بالنسبة إلى البريطانيين . فوارد العراق البترولية كانت تدعم احتياطات الوقود الإيراني . هذا إلى أنه كان طريقاً هاماً للمرور بالنسبة إلى نقل القوات من إسترايا ونيوزيلندة والهند وشمالي إفريقيا . حقيقة أن تشرشل توقع أن تتحول كل قوة ألمانيا في القريب إلى اتجاه آخر — أى صوب الاتحاد السوفيتي . إلا أنه كانت توجد عدة دلالات على أن الشرق الأوسط قد يصبح الهدف التالي للهجوم النازي الرئيسي .

ومنذ أواخر مايو أصبحت للبصرة أهمية خاصة بالنسبة إلى الخطط البريطانية باعتبارها الميناء الذي ترد عن طريقه المئون الأمريكية ، وبخاصة الطائرات .

وبرغم الانتصارات التي حققها المحور ، فإن الجيوش الألمانية كانت لا تزال بعيدة عن العراق الذي كانت القوات البريطانية قريبة منه . لهذا حاول رشيد عالي أن يجد وسيلة للتفاهم مع السلطات البريطانية ، كما حاول - رغم كل شيء - أن يؤجل الصراع المقبل . وكان يعتمد على أن الحكومة البريطانية لن تتجه إلى إغضاب القوميين العرب خوفاً من أن يثير الاصطدام بالعراق رد فعل سيئ ليس فقط في العالم العربي ، بل بين المسلمين بوجه عام ^(١) . ومن المعروف الآن أنه كانت توجد خلافات في الرأي بين الزعماء البريطانيين حول السياسة الواجب اتباعها لإزاء العراق في ذلك الوقت . فعلى حين أن البعض - بما فيهم رئيس الوزراء - كانوا من أنصار التدخل العسكري ، فإن البعض الآخر - ومن بينهم الجنرال ويفل الذي كان حينئذ قائداً عاماً للقوات البريطانية في الشرق الأوسط - كانوا يرون أن لابد من السعي إلى الاتفاق مع الحكومة العراقية ، لأنه كان من المفضل في ذلك الوقت أن يتم فتح جبهة عربية جديدة .

وقد حدث الانقلاب في الوقت الذي شهد وصول سفير بريطاني جديدهو سير كيناهان كورنوليس الذي كان قد عمل في وزارة الداخلية في بغداد منذ قيام العراق الحديث حتى عام ١٩٣٥ حين أبعده رشيد عالي - بصفته وزيراً للداخلية في وزارة حزب الإخاء الوطني - عن منصب مستشار الداخلية . ولهذا كان يوجد عدااء شخصي بينهما في عام ١٩٤١ . وقد اعتقد كورنوليس أن رشيد عالي والمربع الذهبي كانوا يحاولون كسب الوقت بالتفاوض مع بريطانيا طالما لم يكن باستطاعة المحور أن يتدخل مباشرة ^(٢) . لهذا فإنه أولاً وقبل كل شيء لم يقدم أوراق اعتماده ، مبيناً بذلك أن بريطانيا لا تعترف بالنظام الذي كانت

(١) تقرير وزير إيطاليا المفوض في بغداد بتاريخ ٤ إبريل ١٩٤١ . وتقع المزارات الشيعية المقدسة في العراق .

(٢) انظر Freya Stark: op. cit., p. 141 . صرح وزير العراق المفوض في أنقرة لكرول Kroll بأن على حكومته ألا ترتبط بشيء إلى أن يؤدي تطور العمليات في مصر إلى اتخاذ موقف أكثر تحديداً إزاء إنجلترا . .

شرعيته على الأقل موضع شك^(١). وفي الواقع أن لندن كان لها أنصارها العراقيون المتجمعون في عمان لتحدى رشيد عالي ، والاستعداد لتشكيل حكومة جديدة معلنين أنهم أنصار الشرعية الدستورية . لهذا اضطر رشيد عالي إلى الإلحاح في طلب الاعتراف ، مما خفض ميله إلى الدخول في نضال سافر مع بريطانيا . وكان الإنجليز من ناحيتهم يهتمون في المحل الأول بأن يتجنبوا بقدر الإمكان نشوب المعارضة لإنزال قواتهم في البصرة ، وبأن يحافظوا على قاعدتهم الجويتين في الحبانية والشعيبة وبالحيلولة دون عرقلة وصول البترول عبر أنابيب حيفا .

وكانت القوات البريطانية في الماضي قد نزلت مرات عدة في العراق في طريقها إلى فلسطين ومصر . أما وقد قام المحور بهجومه في شمالي إفريقيا فقد كانت الحاجة حينئذ أمس من أى وقت مضى لتعزيز القوات البريطانية في فلسطين ومصر ، بعد أن كان إرسال قوة إلى اليونان قد أنضب مواردها ، خاصة وأن الألمان كانوا قد أسروا عدداً كبيراً منها . وبالإضافة إلى ذلك فقد اهتمت القيادة البريطانية بمحشد قوات في العراق ، ليس فقط بسبب ظهور اتجاه غير ودى بشكل ملحوظ هناك ، بل لأن التفوق البحري الألماني في بحر إيجه كان يعنى أن خط المواصلات إلى تركيا عبر العراق على جانب كبير من الأهمية .

وكانت الحكومة العراقية منذ البداية تخشى احتلال القوات البريطانية للبلاد أثناء عبورها فيها ، ولم يستطع رشيد عالي بتصريحه علناً في ٣ أبريل بأنه سيحترم كل التزامات العراق الدولية^(٢) أن يمنع نزول القوات البريطانية بطريقة

(١) كان من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الكيلاني أن تعترف بريطانيا بحكومته . وقد عرض تنازلات بعيدة المدى للسفير البريطاني، خلال المساعي الودية التي قام بها إدmondز C.J. Edmonds وجميل مردم ، في نظير الاعتراف . وكان رشيد عالي على استعداد لأن ينكر علناً وجود اتصالات بينه وبين ألمانيا ، ووعده باتخاذ خطوات نحو قطع العلاقات مع إيطاليا ، وبأن يقبل الأوضاع القائمة في فلسطين وسوريا إلى أن تنتهي الحرب . ولكن كورنوليس لم يقبل المقترحات ، ربما لأنه اكتشف أن الكيلاني لا يريد سوى كسب الوقت ، (ناييشو إلى وزير الخارجية - بغداد في ٢ و ٧ و ١٠ إبريل ١٩٤١) وبزويد الصباغ هذا بشكل غير مباشر وجيزنى . الصباغ : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ - ٢٨ .

(٢) يأخذ حداد نص هذا التصريح الذي أدلى به الكيلاني في خطاب وجهه إلى الشعب (المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ٤) عن العراق قائم - عدد ٤ إبريل ١٩٤١ . وفي هذا التصريح حدد رشيد عالي برنامج الحكومة على الوجه التالي : محاولة تجنب البلاد ويلات الحرب - تحقيق رسالة المراق القوية - الالتزام بكل الالتزامات الدولية - مواصلة علاقات الصداقة مع الدول العربية المجاورة .

ناجحة جداً - ولهذا بحث عن حل وسط . وقرر كورنوليس أن يفيد من الموقف ، وبموافقة حكومته طالب في ١٦ إبريل بأن يؤذن للوحدات الإمبراطورية الإضافية بالتحرك إلى داخل العراق . ثم بلغ كورنوليس الكيلاني بأنه ما أن تتأني إنجلترا موافقة غير مشروطة على إقامة خطط مواصلات عبر العراق ، حتى تقيم مع حكومة الكيلاني علاقات غير رسمية ، ثم تعترف بها رسمياً بعد مرور بض الوقت ؛ وبلغت وزارة الخارجية البريطانية سفارتها في واشنطن ، بصدد المحادثة التي تمت بين كورنوليس ورشيد عالي في ١٦ إبريل ، بأنها على أي حال ستعتبر وجود القوات الإمبراطورية في العراق من عوامل استقرار الموقف .

وليس من المعروف ما إذا كان الكيلاني قد واثق تماماً على طلب السفير البريطاني . وإذا ما أخذنا بالروايات البريطانية نجد من المرجح أنه واثق^(١) .

ولكن المصادر الألمانية والإيطالية (التي تستند إلى محادثات ممثلي العراق مع مندوبي المحور في بغداد وأنقرة) تذهب إلى أن الكيلاني جادل اتفاقياته شبر ملزمة حين ضمنها عدداً من التحفظات والشروط^(٢) . وهكذا ذهب العراقيون إلى أن رشيد عالي تمسك باتفاقية ٢٠ يولييه ١٩٤٠ التي نصت على حق إنزال القوات ، ولكنه حرم عليها أن تقيم في العراق ، كما حرم إقامة معسكرات حربية بريطانية^(٣) .

(١) وزارة الخارجية البريطانية إلى سفارتها في واشنطن ، لندن في ١٧ إبريل ١٩٤١ - كما يذهب خضوري (مرجه السابق ، ص ٢١٩) - التي قرأ رسائل كورنوليس أيضاً - إلى أن رشيد عالي قبل مطالب بريطانيا المقدمة في ١٦ إبريل ، ولكنه عدل موقفه بعد ذلك تحت ضغط الجيش . ويتضح نفس السياق من رسالة وزارة الخارجية البريطانية وما يذكره خضوري : أي أن رشيد عالي قبل الطلب الخاص بفتح طريق عبر العراق ، طبقاً لنصوص المعاهدة الإنجليزية - العراقية - وحول هذه النقطة فسرت المعاهدة تفسيراً مخالفاً في لندن وبغداد .

(٢) بسمارك إلى وزارة الخارجية الألمانية ، ١٩ إبريل ١٩٤١ . أيضاً مذكرات من السفارة الإيطالية في برلين بتاريخ ١٩ إبريل ١٩٤١ ، كرول إلى رينتروب ، أنقرة في ٢١ إبريل ١٩٤١ . على أننا يجب أن نلاحظ أن كل هذه المذكرات لم تكتب قبل ١٩ إبريل ، كما ظهرت الروايات المتناقضة حول موقف الحكومة العراقية في الصحف (رويت : ١٩ إبريل ١٩٤١ - فرانكفورت تسايونج ، ٢٣ إبريل ٤١) .

(٣) ينكر جورج كيرك - في كتابه *The Middle East in the War* ، ص ٦٨-٥٩ أن مثل هذا التفاهم قد وجد . وهو يذهب إلى أن الحكومة العراقية قررت في مذكرة بتاريخ ١ يولييه ١٩٤٠ أن تنقض من طرف واحد بعض الالتزامات التي كانت تفرضها المعاهدة الإنجليزية - العراقية .

وبالإضافة إلى ذلك فقد قيل إن الكيلاني اشترط ألا يزيد عدد القوات البريطانية المعسكرة في البلاد على ٣,٠٠٠ جندي في وقت واحد^(١) . ويذكر نفس المصدر أن السفير البريطاني أبدى عدم رضاه ، ولكن لندن قبلت في النهاية الشروط السابقة في ١٨ إبريل .

على أنه مما لا شك فيه أن الحكومة العراقية وافقت في مذكرتها المؤرخة ١٩ إبريل على نزول قوات بريطانية في البصرة ، ولكن وفقاً للشرط الخاص بوجوب انتقالها بأسرع ما يمكن إلى الرطبة ، وأن تصرح الحكومة البريطانية مقدماً بأنها لا تنوي مطلقاً أن تنقل قوات أخرى . كما طالبت الحكومة العراقية بالألا يزيد العدد الكلي للقوات البريطانية - في وقت واحد - عن كتيبة مختلطة وألا تنزل وحدات أخرى في البصرة طالما لا تزال بعض القوات البريطانية في البلاد .

وفي تلك الأثناء نزلت قوات بريطانية في البصرة في ١٧ و ١٨ إبريل . وتشياً مع التعليمات التي أصدرها تشرشل لم يخبر الإنجليز السلطات العراقية بعدد القوات وتحركاتها . وما يجدر ذكره أن برلين كانت تعوزها أخبار هذه القوات . وفي ٢٣ إبريل ١٩٤١ قدر عدد القوات البريطانية في العراق بما يتراوح بين ٦,٠٠٠ و ٧,٠٠٠ . وقد أورد قسم الجيش الأجنبي التابع للأركان العامة لوزارة الدفاع الألمانية أنه قد وصلت إلى العراق في نهاية إبريل فرقتان هندية كل منهما ١٤,٠٠٠ جندي ، وأنه كان من المتوخى أن تليهما فرقتان أخريان . وقدر الألمان القوات الجوية البريطانية بحوالي ١٦٠ طائرة، وعلى أي حال فقد كان ثمة شيء واضح هو أن عدد القوات البريطانية زاد على الحد الذي نصت عليه الحكومة العراقية وأن قوات أخرى كانت في طريقها إلى البصرة .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يبدو أن بريطانيا أخذت بالتدريج تعديل نواياها بالنسبة إلى العراق بسبب تفاقم موقفها الحربي في شرق البحر المتوسط . ففي

(١) يصور نابيشو المسألة تصويراً مخالفاً حين يذكر (رسالة إلى وزير الخارجية - بغداد في ٢٩ إبريل) أن الكيلاني لم يكن يرغب في زيادة عدد القوات الموجودة في البلاد على ٨,٠٠٠ ولكن لا يوجد تأكيد لرسالة أنقرة (التي ربما كانت تستند إلى ما أدلى به وزير العراق المفروض هناك) بخصوص مرور القوات البريطانية بدون أسلحة .

البداية لم تكن التعليمات المرسلة إلى كورنوليس تتصل إلا بالقوات المارة بالعراق لا بالقوات العسكرية فيه . وفي ٢٠ إبريل أصدر تشرشل أمره بإبلاغ السفير البريطاني في بغداد بأن الحكومة البريطانية تود أن تحشد قوات كبيرة في البصرة ، ولكنها لا تهتم بدخول البلاد ، باستثناء الحبانية . ولكن قيل إن إيدن صرح في ٢٣ إبريل بأن على القوات البريطانية أن تدافع عن مخزون البترول في أقصى شمالي العراق . وفي ٢٨ إبريل طلبت السفارة البريطانية إذناً بإنزال قوة أخرى تعدادها ٣,٥٠٠ جندي في البصرة ، رغم أن القوات التي سبق نزولها لم تبارح البلاد . وبرز السفير طلبه هذا بالحاجة إلى حراسة خطوط المواصلات الإمبراطورية المارة بالعراق . وهكذا بلغ البريطانيون الكيلاني بأنهم يهدفون إلى إعداد طريق حربي دائم عبر العراق . ومعنى كل هذا أن لندن قررت ألا تكثر بالشروط التي قدمها العراق .

المحور ومطالب العراق

أكدت بغداد للألمان حوالي ٢٠ إبريل أن القوات البريطانية لن تبقى في البلاد . ومن المحتمل أن رشيد عالي وأنصاره أدركوا أنه لا توجد فرصة للحصول على مساعدة من المحور إذا ما اقنعت دولته بأن العراق بلد مختل بالفعل . ولكن المسؤولين الأتراك والبعثة الإيطالية في بغداد أعطوا الألمان فكرة مختلفة تماماً عن المسألة .

حينئذ قررت دولتا المحور اتخاذ موقف رسمي من التطورات التي جرت في العراق . وقد أعدت الحكومة الإيطالية مسودة مذكرة كان من المتوخى أن يقدمها جابر يبيلى إلى الحكومة العراقية - وقد انتقدتها الألمان باعتبارها مخيفة جداً . ثم قبل الإيطاليون نص فورمان الذي كان على جابريبيلى أن يبلغ الكيلاني طبقاً له - باسم الحكومتين - أنهما تتبعان أعماله بعطف ، ولكنهما تنصحانه بمقاومة بريطانيا بالسلاح حين يوفر توازن القوى فرصة للنجاح . وقد جاء في المذكرة أن دولتي المحور تعدان المساعدة الفعالة بالأسلحة والذخيرة والأموال ،

وأتهما تأملان أن تتغلبا على صعاب النقل . وفي الواقع أن الألمان كانوا في ذلك الوقت يجدون في البحث عن احتمالات شحن الأسلحة ، وحصل رييتروب على وعد من هتلر بأن يضع تحت تصرف العراق أنواعاً مختلفة من الأسلحة .

ورحبت الحكومة العراقية بمذكرة المحور وقبلت عرض الأسلحة والمساعدة المالية . وحين نزلت القوات البريطانية في البصرة ، قدم رشيد عالي إلى وزير إيطاليا المفوض الأسئلة الآتية : هل باستطاعة العراق أن يعول على المساعدة المباشرة من جانب قوات المحور الجوية ؟ هل باستطاعة المحور أن يبعث بالأسلحة جواً بالشكل الذي حدث في الترويج ؟ هل باستطاعة العراق أن يعول على المساعدة المالية المباشرة ؟ وبعد عدة أيام تساءلت الحكومة العراقية وقادة الجيش من جديد عن موقف المحور ، ربما تحت تأثير الأخبار الخاصة بأن مزيداً من القوات البريطانية ستصل إلى البصرة ، وأعلنوا أنهم يرون أن إنجلترا كانت تستعد لاحتلال البلاد .

وكانت كل هذه نداءات صريحة إلى المحور بأن يقدم مساعدته ، بما في ذلك المساعدة الحربية^(١) . وفي معاهدة جرت في ٢٣ إبريل بين وزير إيطاليا المفوض وبين رشيد عالي والمفتي ، عبر الأخير عن أملهما لعدم تلقيهما المساعدة من قوات المحور الجوية . وهكذا يكون الكيلاني قد طالب بمساعدة المحور حتى قبل ٢٨ إبريل - أي قبل أن تسفر بريطانيا عن رغبتها في احتلال البلاد . ومن العوامل التي دفعت بريطانيا إلى اتخاذ موقف متشدد من الحكومة العراقية أنها كانت على علم بالروابط القائمة بين رشيد عالي والمحور - فقد عرفت المخابرات البريطانية سر الشفرة التي كانت تكتب بها تلغرافات جابرييلي من بغداد^(٢) . ولم يعد من

(١) تنقل معلوماتنا المستقاة من وزارة الخارجية الألمانية ما يذهب إليه مجيد خضوري في كتابه (لندن ١٩٥١) ص ١٩٥ ، من أن رشيد عالي كلف ناجي شوكت بطلب المساعدة العسكرية من ألمانيا حين زار أفقره في مايو . وربما يكون خضوري قد حصل على هذه المعلومات من ناجي شوكت . وتنقل الوثائق الألمانية معلومات أخرى حصل عليها خضوري من هذا المصدر . وفي الطبعة الثانية من كتاب خضوري نجده يقدم رواية مخالفة لهذا الخبر (ص ٢٢٩) : «حين حطم السلاح الجوي الملكي قوة رشيد عالي الجوية ، وحين فشل في إقناع الصاغات الأربعة بقبول الوساطة ، طلب المساعدة الحربية من ألمانيا »

(٢) فك الألمان شفرة بلد ثالث ، مما أوضح أن الإنجليز كانوا يقرمون رسائل وزير إيطاليا المفوض في بغداد .

الممكن بالنسبة إلى الحكومة البريطانية أن ترى أن مرجع معارضة العراق لإنزال القوات البريطانية هو مجرد مراعاة سيادة الدولة الفتية . كما لم يكن بإمكانها أن تعتبر العلاقة بين الدولتين صراعاً بين الإمبريالية والمشاعر الوطنية في البلاد :

وفي ٢٨ إبريل قدم وزير إيطاليا المفوض إلى حكومته قائمة مفصلة بمطالب العراق المالية والحربية التي وصلت ٣ ملايين دينار في الشهر - إذ في حالة دخول العراق في حرب مع إنجلترا كان على العراق أن يفقد دخل الجمارك وحصته من البترول ، في نفس الوقت الذي يتفق فيه مبالغ كبيرة على العمليات الحربية واستمالة القبائل - وقد اقترح الكيلاني أن تضرب طائرات المحور الوحدات البحرية البريطانية في الخليج العربي وقاعدتي الحبابية والشعبية . وكان بإمكانها أن تستخدم مطارات الموصل وبغداد ومقدادية والبترول المفروض أنه مخزون في العراق . كما طلب من المحور أسراباً من الطائرات و ٥٠ سيارة مصفحة خفيفة و ٤٠٠ مدفع مخترق للدروع من عيار ٥٠٠ مصحوبة بـ ٨٠,٠٠٠ خرطوشة و ٦٠ مدفعاً مخترقاً للدروع من عيار ٤٦ ومعه ٦٠,٠٠٠ قنبلة و ١٠,٠٠٠ قنبلة يدوية و ٦٠٠ مدفع رشاش خفيف من طرازب ٨٠ عيار ٣٠٣ و ٨٤ مدفع آلياً ثقيلًا من طراز فيكرز عيار ٣٠٣ و ٣ ملايين طلقة . وفي هذه المرة لم يطالب الزعماء العرب بأى تصريح من المحور حول مستقبل البادان العربية ، برغم أن أمانى الوحدة العربية لعبت دوراً هاماً في الانقلاب العراقي^{١٧}.

وقد سبق أن أوضحنا أن الألمان لم تكن لديهم ، حين تم الانقلاب ، خطط تفصيلية سياسية كانت أم عسكرية بصدد العراق . حيث إن كانت المسألة مقصورة على الخطط العسكرية - إذ أن الوعود السياسية لم يكن لها وزن كبير منذ انقلاب أول إبريل ١٩٤١ . وبدلاً من أن يلعب رشيد عالي والحسيني دور البائعين الذين لديهم ما يعرضونه ، نجدهما في هذه المناسبة يتحولان إلى شحاذين يطلبان الإحسان . على أن دولتي المحور - وبخاصة ألمانيا - كانتا مشغولتين في ذلك الوقت في أماكن أخرى . فالقوات التي غزت يوغوسلافيا واليونان لم تستطع أن تتقدم كثيراً صوب الجنوب أو الجنوب الشرقي لأنها كانت محتشدة على الحدود السوفيتية . وهذا يوضح

إلى حد ما سبب بطء الألمان الشديد في العمل في العراق خلال الأسابيع الأولى التي تلت الانقلاب .

متزودنا يوميات هالدور بفكرة عن الصعاب الكبرى التي كانت تواجهها القيادة الألمانية فيما يتعلق بتخصيص قوات ولو صغيرة لليبيا في ذلك الوقت . وبرغم ذلك فمن الغريب أن بعض القادة الألمان كان لا يزال يراودهم الأمل في نهاية إبريل في أن تستطيع الحكومة العراقية تأجيل الاصطدام بإنجلترا إلى أن تتلقى مساعدة كافية من المحور . ومن الواضح أن الألمان كانوا على بينة من أن إنجلترا كانت على علم بعلاقات الكيلاني بالمحور . وربما كان مرجع التأخر في تقديم المساعدة إلى حد ما هو الخوف من احتمال استسلام الحكومة العراقية ، أو أنها قد تأخرت جداً بسبب تفوق القوات البريطانية في العراق^(١) .

على أن من المعروف أن وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الألمانيتين لم تتوفقا عن دراسة المشكلات العربية ، مما يوضح دون شك أن ألمانيا كانت تهدف إلى أن تستغل جزءاً من صعاب بريطانيا في البلدان العربية .

مشكلة تزويد العراق بالأسلحة

وظل تزويد العراق بالأسلحة يمثل أكبر مشكلة . وقد سبق أن بينا أن ريبنتروب تقلب على الصعاب السابقة وحصل على موافقة هتلر على تزويد العراق بكل أنواع الأسلحة . وقد وافق كاينل في الواقع على صفقات الأسلحة المخصصة للعراق^(٢) ، كما وافق على تخصيص أسلحة وزارة اندفاع لفلسطين^(٣) .

(١) مذكرات فورمان ، برلين في ٢ إبريل ١٩٤١ ، بلغه الكولونيل برنكمان Brinkmann - وكان من موظفي القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية - أن هذا هو رأي هتلر .

(٢) مذكرات ريبكن ، برلين في ١٧ إبريل ١٩٤١ ، وكان تفصيلها كالآتي : - ١٥٠,٠٠٠ بندقية مشاة عيار ٦,٦ ملليمتر ، إنتاج هولندي مع ٥ ملايين طلقة ، ٦٠٠ مدفع رشاش خفيف عيار ٦,٥ ملليمتر ، إنتاج هولندي مع ٦ ملايين قطعة من الذخيرة ، ٢٠٠ مدفع رشاش ثقيل عيار ٨,٠ ملليمتر مع ٢ مليون خرطوشة ، و ٥٠ مدفعاً ثقيلًا قاذفًا للمقابل عيار ٨١ ملليمتر ، إنتاج فرنسي مع ٢٥٠,٠٠٠ قذبة ، ١١٠ مدفع خفيف تاذف للقنابل ، إنتاج فرنسي من عيار ٥٠ مم مع ٧٥,٠٠٠ طلقة .

(٣) مذكرات ريبكن ، ملحوظات ديفدنس ، برلين في ١٩ إبريل ١٩٤١ . تفصيلها كالآتي =

فاعتبارات الهيبة والحاجة إلى مواصلة الحرب ضد بريطانيا جعلت سياسة تقوم على السلبية التامة في البلدان العربية أمراً غير مرغوب فيه، برغم أن النازيين شعروا بالحاجة إلى حشد كل إمكانياتهم على الجبهة السوفيتية خلال الشهور القليلة القادمة.

ولم تكن بعد قد حسمت مسألة الطريق الواجب استعماله لتزويد العراق بالأسلحة. وبهذا انصدد كان الموقف لا يزال كما هو إلى حد كبير منذ بداية مارس. حقيقة أن سالونيك كانت حينئذ في أيدي الألمان، إلا أن الميناء لم يكن صالحاً للاستعمال حتى النصف الثاني من مايو أو ما بعد ذلك. وكان من الصعب، حتى في ذلك الوقت، العثور على السفن اللازمة لنقل الأسلحة إلى البلدان العربية. واقترحت وزارة الدفاع الألمانية تهريب الأسلحة من الموانئ الإيطالية إلى سواحل سوريا ولبنان ونقل شحناتها من هناك باللوريات عبر سوريا إلى العراق. ولكن أصبح من الصعب بعد ذلك بتقليل أن ترسل سفينة صغيرة حمولتها ١٦٠ طناً من سالونيك إلى سوريا. وهناك كان على ممثل وزارة الدفاع الألمانية روزر أن يبحث مع شكري القوتلي - زعيم الوطنيين المحليين - احتمال إنزال الأسلحة سرّاً وتهريبها إلى فلسطين.

وفي نفس الوقت واصل العراق جهوده للحصول على أسلحة يابانية. وقد أثار المسؤولون الألمان هذه المسألة مع السفير الياباني في برلين - أوشيا - ومع وزير الخارجية - ماتسوكا - خلال زيارته إلى برلين. ولكن نقل الأسلحة من اليابان القاصية كان يستغرق شهرين. وكانت البصرة - الميناء الوحيد للعراق - في أيدي الإنجليز. كما أن النقل عبر تركيا، تحت ستار شحنات بضائع وجهتها أفغانستان

=: ١٥,٠٠٠ بندقية ٨٦ - ٩٣ طراز فرنسي عيار ٨ مم مع ١٥ مليون خرطوشة، ٢٠٠ مدفع رشاش خفيف من المدافع التي استولى عليها الألمان طراز ٢٤-٢٩ عيار ٧,٥ مم ٨٠٠,٠٠٠ طلقة و ٣٠٠ مدفعاً قاذفاً للقنابل طراز فرنسي عيار ٥٠ مم مع ١٥,٠٠٠ قنبلة و ٣٠٠ مدفع أوتوماتيكي ١٨ - ١ طراز ألماني عيار ٨ مم و ٦٠٠,٠٠٠ رصاصة عيار ٩، و ٢٠,٠٠٠ قنبلة يدوية نرويجية، ٢٠٠ مدفع للجيب من المدفعات التي استولى عليها الألمان مع ١٠,٠٠٠ طلقة، و ٥٠ منظار ميدان من التي استولى عليها الألمان و ١٠٠ بوصة. وكان طلب وزارة الدفاع الألمانية الأصل الخاص بفلسطين يزيد على ذلك بعض الشيء وكان يشمل على أسلحة مخترقة للدروع.

أو إيران ، كان يتطلب أيضاً حوالى شهرين ، كما كان يتطلب تعاون السلطات الأفغانية أو الإيرانية . وقد دعا وزير الاقتصاد الأفغانى — عبد المجيد خان — إلى بودابست ليتباحث معه حول هذه المسألة ، ولكنه حذره من أن ملكه يجب أن يبلغ بأى خطط لنقل شحنات إلى العراق وجهتها أفغانستان .

وطبقاً لأوامر محددة صدرت عن هتلر و ريبنروب ، ركزت الجهود حينئذ على تزويد العراق بشحنات وجهتها إيران فى الظاهر^(١) . وكان من المتوخى إرسال ثلاث شحنات من الأسلحة إلى إيران ، كل منها تحتوى على أجزاء لا على قطع كاملة . وكان من المتوخى بهذا الإجراء أن يتم الاحتياط ضد الاستيلاء عليها واستعمال إحدى الدول الأخرى لها . ولم يكن بالإمكان الإيرانيين أن يجهزوا أسلحة صالحة للاستعمال إلا بعد استلام الشحنات الثلاث جميعاً . وقد وصلت الشحنة الأولى ، وبقيت الشحنة الثانية فى جالاتى Jalati لينم إرسالها إلى إيران ، على حين كان من المتوخى أن تبارح الثالثة ألمانيا خلال بضعة أيام . وكان من المتوخى أن تبقى الثالثة (شحنة ٣ سيارات زنتا ٣٠٠ طن) فى العراق . وبطبيعة الحال كان من المتوخى أن توضع معاً بطريقة مخالفة وأن تشحن من ألمانيا فى قطع كاملة . ولم يعد بالإمكان تغيير الشحنة الثانية ، لأن الإيرانيين كانوا يعلمون فحواها ، وكانوا باستمرار موجودين على مسرح الأحداث . وطرأت صعوبة جديدة حين وافقت السلطات الإيرانية ، وفقاً لأطاب مكتب اقتصاديات الأسلحة ، على عدم وجوب إرسال الشحنتين الثانية والثالثة بالسكة الحديدية عبر تركيا والعراق ، بل بالسفن إلى طرابيزون ، ومن هناك باللوربات إلى إيران . وكان الألمان يرغبون قبل كل شئ فى أن يبقوا خططهم سرّاً عن الإيرانيين . وبهذا الصدد تحدث الملازم لىنجر Lengner — أحد رجال مكتب اقتصاديات الأسلحة — فى ٢٣ إبريل ١٩٤١ مع همايون أحد أعضاء البعثة الدبلوماسية الإيرانية فى برلين ، ووعد بإرسال شحنة الأسلحة الثالثة والأخيرة على جتّح

(١) وردت فى مذكرات فورمان الملحوظة الآتية التى كتبها ريبنروب (برلين ، ٢١ إبريل ١٩٤١) :

« شاهد الفوهرر المذكرات ، أخبرت فورمان . تليفونياً بأن الاقتراح رقم ١ (النقل إلى إيران — له) يجب أن ينفذ فى الحال » .

السرعة . ووعدهما همايون بدوره بأن يعرض على رؤسائه في طهران مسألة تغيير الطريق المتفق عليه . وربما تم الاتفاق في النهاية على استحالة إبقاء هذه الخطط سرّاً بالنسبة إلى الإيرانيين . وحاول إيتل - Eitel - وزير الريخ المفوض في طهران - الحصول على موافقة إيران على الخطة أو إغرائها بتزويد العراق بالأسلحة بطريقة أخرى . ولكن إيتل لم يتوقع تدبير المسألة بصورة كافية . وأهم من هذا أن الألمان كانوا على يقين من بقاء هذه الطريقة فيما يتعلق بشحن الأسلحة إلى العراق في النهاية .

وأخيراً تقرر نقل الأسلحة جواً وفق ما اقترحه رشيد عالي - إذ فهم الألمان أن باستطاعتهم أن يقدموا المساعدة السريعة عن طريق الجو . ورغم ذلك كان رينتروب يريد إعداد صفقة الأسلحة دون إحاطة القيادة العسكرية ، لأن الجيش لم يبد حماساً كبيرة للقتال في العراق ، على أن يراجع التفاصيل مع ممثلي القوات المسلحة الألمانية خلال المرحلة الأخيرة . وحاول كبار المشولين بوزارة الخارجية أن يقنعوا هتلر بأن تشكك الدوائر العسكرية إزاء العمل في العراق في المستقبل يستند إلى أساس (١) .

وحين سئل جنرال الطيران جشونك Geschonnek عن احتمال مساعدة العراق ، رد بإجابة تتضمن نوعاً من التهرب ، فقال إن مساعدة العراق بأسراب من الطيران الألماني لا محل لها ، لأن المسافة تزيد على مدى طيران الطائرات الألمانية - إذ كان من الممكن استعمال طائرات اليونكرز لنقل الأسلحة ولكن بشرط أن تنزل في سوريا . فالمدفع من عيار ٤٧، مم كان أثقل سلاح من الممكن شحنه بهذه الطريقة . ومن ثم كان بالإمكان تزويد العراق بمدافع خارقة للدروع . ولكن قيادة الطيران الألماني تحفظت بقولها إن لديها قليلاً من الطائرات المستعدة للقيام بمثل هذه المهمة . وحين نضع في عين الاعتبار تردد السلطات الألمانية في استعمال المطارات السورية ، فبإمكاننا أن نعتبر هذه الإجابة سلبية أكثر منها إيجابية .

(١) في المذكرات المرفوعة إلى الفوهرر - على سبيل المثال - اعترض رينتروب على معلومات القيادة العسكرية الخاصة بمدد القوات البريطانية في العراق .

ولكى يحرك رينتروب المسألة كتب إلى جورنيج القائد العام للطيران^(١) . ومن المحتمل أن الرسالة أرسلت في أواخر إبريل .

ونتيجة لكل هذه الجهود عقد مؤتمر في ٢٤ إبريل جرت فيه مناقشة توقع العمل في العراق مع قيادة القوات الجوية الألمانية . وقد تم الاتفاق على وجوب تسليم الأسلحة المخصصة للعراق للقيادة الجوية الألمانية في سالونيك ولكن لم يحدد تاريخ فعلي لتنفيذ ذلك . كما تقرر أن يتم الطيران على طريق سالونيك - العراق دون النزول في سوريا ، وكان من المتوخى جمع المعلومات عن المطارات العراقية وموئ الوقود المتوفرة في أنقرة . وكانت عمليات الشحن تتضمن ١٠٠ طن من الأسلحة يتم نقلها بخمس طائرات تقوم كل منها بعشر عمليات طيران .

وعند هذه المرحلة كان من الواجب عرض الخطة على هتلر للحصول على موافقته . كما أن وزارة الخارجية كانت تود من العسكريين أن يستشيروا هتلر بصدد هذه المسألة ، خاصة بعد أن يقدم كايثل تقريراً . وتدل المكالمات التليفونية التي قام بها المبعوث هيويل Hewell وهيئة أركان الفوهرر^(٢) على أن هتلر ذاته كان مهتماً بمساعدة العراق . وقد زود وزير الخارجية هتلر في ٢٧ إبريل بمذكرة مستفيضة عن أحداث العراق ، أكد فيها أن تحرك القوات البريطانية على أرض العراق ربما كان الغرض منه الاستحواذ على نقطة وثوب ضد سوريا ومباشرة الضغط على تركيا . وكان من السهل إدراك أن النجاح النهائي للسياسة البريطانية في تركيا قد لا يكون له أثر قليل على وضع القوات الألمانية التي تحارب الجيش الأحمر . كما بحث الأركان العامة الإيطالية مسألة مساعدة العراق ، وبخاصة من الناحية العسكرية .

(١) لم يمكن العثور على الخطاب سواء في وثائق وزارة الخارجية الألمانية التي استولى عليها الحلفاء أو في الوثائق التي سلمها الاتحاد السوفيتي لحكومة ألمانيا الشرقية . وقد أشارت إليها مذكرات كرامارز Kramarz (برلين في ١٦ مايو ١٩٤١) . ووفقاً لما جاء في هذه المذكرات أدركت القيادة الجوية الألمانية أهمية مساعدة العراق ، رغم أن الموالين للفاشية في العراق لم يقيض لهم النجاح المستمر . وقد كتب كرامارز ما يلي : كان الحدث الحاسم بهذا الصدد هو الرسالة الخاصة التي وجهها وزير الخارجية إلى مرشال الريخ (جورنيج) .

(٢) تقرير إلى الفوهرر (فيينا بتاريخ ٢١ إبريل ١٩٤١) . كان هيويل ضابط الاتصال بين مركز قيادة هتلر ووزارة الخارجية .

قرار مساعدة العراق

في ٣ مايو وافق هتلر على اقتراح ريبنتروب وعبر عن رغبته في عمل كل ما يمكن لمد حكومة الكيلاني بالمساعدة الحربية . كما وافق على نقل بعض الطائرات إلى العراق ، ولكن بشرط أن يتوافر هناك الوقود الكافي لتكيتها من العودة إلى قواعدها^(١) . وقد سبقت هذه القرارات قرارات أخرى تتصل باستخدام المطارات السورية كنقطة توقف لعمليات الطيران القاصدة إلى العراق . وحتى ذلك الوقت لم يكن ثمة ميل إلى استخدام المطارات السورية ، لأن هذا كان يتضمن موافقة فيشي وإيطاليا . وبرغم ذلك فإن وزارة الخارجية الألمانية عادت من جديد إلى هذه الفكرة على أثر رد الجنرال جشونك . وبالإضافة إلى ذلك فإن إدارة وزارة الخارجية وضعت خطة لتخصيص أسلحة جيش فيجان السابق (وقد تم تخزين هذه الأسلحة في سوريا تحت إشراف اللجنة الإيطالية الخاصة بالإشراف على الهدنة) للحكومة العراقية ولاحتمال قدوم القوات الألمانية لمساعدة العراق . عبر سوريا . وقد قرر الألمان استخدام سوريا كقاعدة لعملياتهم لأن الموقف كان يستدعي العمل السريع ، ولأن الحاول الأخرى كانت تتضمن صعوبات فنية .

وفي ٢٨ إبريل وجه ريبنتروب رسالة إلى القائد العام للقوات المسلحة الألمانية — فيلد مرشال كاينل — اقترح فيها أن تمنح فيشي إذناً باستخدام سبع سفن طوربيد فرنسية وست مدمرات . وفي مقابل ذلك تلتزم فيشي بأن تمنح سراً الغواصات الألمانية وبعض السفن التجارية وبأن تنقل الموظفين الفرنسيين في سوريا والجزائر ومراكش وغربي إفريقيا الفرنسية الذين لم يكونوا موضع قبول لدى الألمان وأن تحول إلى العراق أسلحة من مخازن لجنة الهدنة الإيطالية في سوريا ، وأن تبذل مساعدتها فيما يتعلق بتزويد العراق بالأسلحة والسماح بنزول الطائرات الألمانية في طريقها إلى العراق . وكان ريبنتروب يرغب في أن يسوى آبنز هذه المسائل مع دارلان مباشرة في باريس . وكان من الممكن أن تنسرب الأخبار في فسادن إلى الأدميرال

(١) مذكرة إلى وزير الخارجية ، برلين بتاريخ ٣ مايو ١٩٤١ . طالب هيوبل في هذه المذكرة بأن يسمح له بالاشتراك في المناقشات الخاصة بشئون العراق .

ليهى Leahy — سفير الولايات المتحدة — إلى فيشي (وكانت فسادن مقر لجنة الهدنة الألمانية) . واعتقد الألمان ، ليس دون أساس ، أن تسرب الأخبار كان مرجعه عدم سرية المندوبين الفرنسيين في لجنة الهدنة الألمانية . كما أن رينتروب اقترح بهذا الصدد أن يرسل كابتل مندوباً من القيادة الألمانية العليا إلى باريس . ووافق كابتل في ٣ مايو ، أى في نفس يوم موافقة هتلر على اقتراح وزير خارجيته ، وأخبر رينتروب بأنه خصص الجنرال فوجل Vogl للقيام بهذه المهمة .

وهكذا تقرر مد العراق بالمساعدة ، برغم تحفظات كبار موظفي وزارة الخارجية الألمانية وشكوك الدوائر العسكرية . ويتضح لنا من وثائق كثيرة أن رينتروب كان يود استخدام البلدان العربية كمجال للمنافسة بين وزارة الخارجية وبين العسكريين وبخاصة دوائر وزارة الدفاع الألمانية ، بل وصل به الأمر إلى التفكير في إنشاء هيئة مختبرات سياسية تختص بوزارة الخارجية . ووافق هتلر على مقترحات وزرائه مع بعض التحفظات ، ويجب أن نضع في عين الاعتبار أن القرار الخاص بمساعدة العراق قد اتخذ بعد نشوب القتال هناك .

وهناك عامل حاسم فيما يتعلق بقرار النازي الخاص بمساعدة العراق ، هو تصميم الألمان على فتح جبهة في البحر المتوسط برغم الحرب ضد الاتحاد السوفيتي . وكان من اللازم فتح جبهة ثانوية ، لأن فقدان إيطاليا لشمال إفريقيا كان ينذر بتغير الشعور الجماهيري إزاء أكبر حلفاء ألمانيا . وكان يبدو أنه لا يمكن تحقيق الهدف الذي سبق لهتلر أن قرره ، وهو شل القوات البريطانية في الشرق الأوسط . ولكن لم يكن من الممكن إلا انسحاب من شمال إفريقيا دون تعريض خطة هتلر الخاصة « بالدفاع عن أوروبا Festung Europa » للهجوم من ناحية الجنوب . فمن ناحية كان الألمان يخشون إرسال قوات أكبر إلى الشرق الأوسط ، لأنهم كانوا بحاجة إلى حشد كل إمكانياتهم على الجبهات السوفيتية ، وفي ظل هذه الظروف كان من الممكن أن يكون هناك مجال للقيام بأعمال تخريبية في العراق ، إن لم يكن الاستحواذ على السيطرة في تلك البلاد ، أهمية كبرى .

وبالإضافة إلى ذلك كان من شأن مساعدة العراق أن يكون لها أثر هام في التوسع في العلاقات مع القومية العربية بحيث تشمل بلداناً عربية أخرى كذلك .

وكان من رأى بعض المسؤولين الألمان - من أمثال إيتل الوزير المفوض في طهران- أن تقديم المساعدة إلى العراق من شأنه أن يثير ثورة عامة ضد السيطرة البريطانية في الشرق . وقد جرت ألمانيا وراء الوهم الخاص بأن الثورات ستنبش في فلسطين وشرق الأردن . وبرغم ذلك فالواقع أن أحداث العراق كان لها أثر كبير في بلدان عربية أخرى . فمثلا قام الزعماء المصريون بمحاولات للاتصال بالمحور نتيجة لهذه الأحداث والانتصارات روميل . وقدم الملك فاروق لفتلر عرضاً بالتعاون بوساطة صهره ذى الفقار بإشاسفير . مصر في طهران . وواصلت وزارة الدفاع الألمانية الاتصالات مع « المهندس » عزيز على المصرى الذى صدرت له الأوامر بالانتقال من مصر إلى بلد يقع تحت سيطرة المحور . وفى العربية السعودية كان من رأى مستشارى ابن سعود أن من الضرورى إقامة علاقات تربط البلاد بالمحور . وكان من الواضح أن تجاهل طلب العراق للمساعدة مما يضعف هيئة ألمانيا في الشرق . كما أن تقديم مساعدة غير كافية لهزيمة العدو كان بمثابة مضیعة للجهد لن تفيد منها إلا إنجلترا في الوقت الذى تواجه فيه هيبتها في هذا الجزء من العالم تهديداً بمثل هذه الخطورة .. وكان الألمان يواجهون في العراق نفس مشكلة الاختيار التى سبق أن واجهها البريطانيون قبل ذلك بقليل في اليونان . ولهذا فليس ثمة عجب في أن يشترط الألمان منذ البداية ، حين وعدوا بمساعدة العراق ، أن تبقى كل العملية سرّاً مكنوناً . ومعنى هذا أنهم كانوا مترددين في القيام بمثل هذه المهمة غير المؤكدة .

وفى ١٣ مايو ناقش موسولینى وريبنتروب مسألة العراق في قصر البندقية بحضور الكونت شيانو . وكان ريبنتروب يرغب في الحصول على موافقة الدوتشى على التعاون مع حكومة فيشى في سوريا وشمال إفريقيا . وأشار إلى أهمية ثورة العراق بالنسبة إلى دولتى المحور « إذا ما وصلت إلى العراق شحنة كبيرة من الأسلحة ، يصبح بالإمكان أن ترسل إلى المنطقة قوات جوية تستطيع حينئذ بالعتاد الموجود أن تهاجم الإنجليز ، كما تستطيع في أحوال خاصة أن تهاجم مصر من الشرق من جهة العراق » .

وقد وافق موسولینى على الحاجة إلى مساعدة العراق ، إذ كان من رأيه أن

فتح جبهة جديدة ضد بريطانيا ، في الوقت الذي يثار فيه روح العداء للإنجليز بين العرب والمسلمين بوجه عام ، من شأنه أن يعود بالفائدة على المحور . وقد صرح في المناقشة بأن لدى إيطاليا - على قيد الاستعداد - ٥ طائرات محملة بالأسلحة و ٤٠٠ مدفع رشاش و ٢٠ مدفعاً مضاداً للدبابات ، بالإضافة إلى ١٢ طائرة مقاتلة صدرت إليها الأوامر بالتوجه إلى العراق . على أنه كان من رأى موسوليني أن مساعدة العراق لن تثقأ أكلها إلا إذا تم احتلال قبرص وكريت في البداية وسمح الفرنسيون للطائرات والقوات بأن تنزل في سوريا . كما ساند فكرة مهاجمة مصر وأشار إلى احتمال إعداد هجوم عبر تركيا أو حتى عن طريق سوريا لا عبر العراق . ويبدو أن موسوليني كان يفكر في أهداف في الشرق الأوسط أكثر أهمية بكثير وأقرب إليه من العراق ، ورغم موافقته على مساندة حكومة رشيد عالي . وحين سأل ريبنتروب الدوتشي عن الوقت الذي يستطيع فيه الجيش العراقي التصدي لإنجلترا ، أجاب بأن رشيد عالي يعتقد أنه سيكون بإمكان حكومته أن تقاوم إذا ما تلقت بعض المؤن ، وإلا أخذت مقاومة العراق خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع^(١) . ومن المحتمل أن الدكتاتور الإيطالي كان يود أن يؤكد أن قيام المحور بعمل في الشرق الأوسط أمر لا غنى عنه .

وما له دلالة بالنسبة إلى هذه المناقشة أن ريبنتروب لم يقتصر فقط على عدم الإشارة إلى الاستعدادات لغزو الاتحاد السوفيتي ، بل إنه أكد أيضاً بالفعل لإيطاليا أن « الفوهرر ... لم يصل إلى أى قرار بأي شكل بصدد المسألة ، وأن القوات الألمانية كان يجري حشد لها على الحدود السوفيتية كمجرد إجراء مضاد لتقوية الجيش الأحمر » . ومن المحتمل أن موسوليني لم يقتنع - إذ أنه أشار بمنتهى الحذر إلى الرغبة في التعاون مع الاتحاد السوفيتي ، وحذر من أن دخول الولايات المتحدة ضد المحور سيكون أمراً غير مرغوب فيه .

وقد لاحظ شيانو في يومياته ، بتاريخ ٦ مايو ، أن موسوليني لم يكن على

(١) ثبت أن تصريح موسوليني الخاص بأن الطائرات الإيطالية على استعداد لمساعدة العراق مجرد كلمات جوفاء . (مذكرات شيانو ، ١٩٣٩ - ٤٣ - لندن ، ١٩٤٧ ، ملحوظات بتاريخ ٣٠ مايو ١٩٤١) .

تفاوضه السابق بخصوص إنهاء الحرب بعد وقت قصير . وعلى العكس كان من رأى شيانو أن الدوتشى سيكون على استعداد لقبول الصلح على أساس حل وسط ، وبخاصة إذا ما وثق من نصيبه من الأسلاب . وعلى أى حال فبإمكاننا أن نستنتج من محادثة جرت بين شيانو وريينتروب في ١٣ مايو أن ريينتروب كان يفضل أن يقنع المحور بالأراضى التى وعدت بها إيطاليا فى شرقى البحر المتوسط ، وأن يتجنب خلق أعداء جدد .

القتال فى العراق

وسرعان ما انجلي الموقف فى العراق . فبعد أن اقتنعت حكومة رشيد على اقتناعاً كاملاً بأن البريطانيين يودون احتلال البلاد ، قررت اللجوء إلى المقاومة المسلحة . وفى الأسبوع الأخير من إبريل حاول الجيش العراقى منع نزول القوات البريطانية ، ولكنه لم ينجح ، وفى ٢٩ إبريل أرسلت مذكرة إلى بريطانيا تتضمن رفض مطالبها والاحتجاج على أى إنزال جديد للقوات البريطانية . وفى الوقت نفسه صدرت الأوامر إلى القوات العراقية المحتشدة فى معسكر الرشيد جنوبى بغداد بتطويق القاعدة الجوية البريطانية فى الحبانية^(١) . وقد نفذ هذا الأمر ٩,٠٠٠ جندي مجهزون بكمية ضخمة من المدفعية^(٢) . وفى ٣٠ إبريل أصدر المحاصرون أوامره إلى البريطانيين بإيقاف كل عمليات الطيران وهددوا بإسقاط كل الطائرات التى لن تنصاع لذلك الأمر . ورفض القائد البريطانى - فيس مارشال الجو سمارت - الإنذار ، وأعلن أن التدريبات الجوية ستستمر ، وأن كل محاولة للتدخل ستعتبر عملاً غير ودى . وبحلول ذلك

(١) بإمكاننا أن نستنتج من مذكرات حداد (ص ١١٠) أن الخلاف قد دب بين زعماء الثورة المسلحة حول محاصرة قاعدة الحبانية واحتلالها . ويؤكد الصباغ هذه الحقيقة (ص ٢٢٥) . وفقاً لما يذهب إليه بعض المؤرخين الإيطاليين كان من شأن احتلال العراق للحبانية أن يسيء إلى وضع القوات البريطانية فى العراق إلى حد كبير .

(٢) يذكر الصباغ (ص ٢٢٥) أن نسبة قوات فهمى - قائد الحبانية العراقى - إلى القوات البريطانية بلغت ١٠ إلى ١ - بما فى ذلك الطائرات . أما نسبة قوات المدفعية فكانت ١ إلى صفر .

الوقت كان قد تم حشد النساء والأطفال البريطانيين في الحبانية بعد إجلائهم عن بغداد تلبية لأوامر الدفبر، على حين صدرت التعليمات إلى الرجال بالتجمع في السفارة البريطانية والمفوضية الأمريكية^(١).

وفي الساعة الخامسة من صبيحة ٢ مايو بدأت الطائرات البريطانية المقاعة من قاعدة الحبانية ضرب المواقع العراقية، ورد العراقيون على النار بالمثل. وهكذا بدأت الحرب دون أن يصدر عن أى من الطرفين أى إعلان رسمى. واقتصر الأمر على إعلان رجال الدين المسلمين، بتأثير من الحاج أمين الحسينى، الجهاد في نداء خاص وجهوه إلى الشعب.

ومنذ أواخر أبريل كان التوتر قد ساد منطقة البصرة. وقامت قوات بريطانية باحتلال الميناء ومحطة الكهرباء. وانسحبت القوات العراقية صوب الشمال. ولما كان الوقت حيثئذ موسم فيضان نهري دجلة والفرات، فإن ذلك حال دون قيام البريطانيين بالتقدم نحو الشمال. وكان خط حديد البصرة - بغداد تحت السيطرة العراقية. وقد قام العراقيون بنقل القاطرات والسفن النهرية إلى الشمال كما قاموا بتدمير الطرق الحديدية وخطوط البرق.

وأرسل رشيد على رسالة إلى وزير إيطاليا المفوض في بغداد بصدده هذه الأحداث موجهة إلى دولتي المحور. وقد جاء في الرسالة أن الحكومة العراقية اتخذت موقفاً حاسماً من مطالب بريطانيا، معتمدة في ذلك على مساعدة المحور ووعود إيطاليا وألمانيا. وفي طلب رسمى للمساعدة، طالب رشيد على بوجه خاص بشحن الطائرات مباشرة وتقديم المعونة المالية وإرسال بعثة عسكرية محورية. وطالب برد عاجل، وأوضح أنه سيتخذ موقفاً أميل إلى مصالحة بريطانيا إذا لم تصل المساعدة دون تأخير. ولكنه عبر عن شكه الكبير في نجاح هذه المناورة: إذ كان يبدو أن البريطانيين يرغبون في تعقيد الموقف لكي يتسنى لهم احتلال البلاد. وقد أضاف مفتى القدس الذى حضر المحادثة التى جرت مع وزير إيطاليا المفوض: أن مساعدة المحور للعراق سيساعدها على القيام بعمليات تخريبية في فلسطين وشرق

(١) عن وصف شاهد عيان لحاصرة السفارة البريطانية في بغداد انظر كتاب فرايا ستارك الذى سبق الإشارة إليه. وقد وصلت فرايا ستارك إلى بغداد قبيل عزل السفارة عن المدينة.

الأردن . وقبل يومين كان رشيد عالي قد طلب إرسال ضابط اتصال إيطالي إلى العراق ، ولكن الألمان أقنعوا الحكومة الإيطالية برفض هذا الطلب . ويبدو أن الزعماء العراقيين كانوا على بينة من تحفظات ألمانيا وترددها . ولكنهم كانوا يرون أنه بمجرد التأثير على الألمان لكي يقوموا بعمل ما ، فإن الاعتبارات المتعلقة بيهبتهم ستزج بهم بشكل متزايد وأعمق في النضال الناشب في العراق . وقد أدى تطور العمليات في البلقان إلى ازدياد آمالهم في انغمار الألمان بشكل خطير في شرق البحر المتوسط وإرسالهم قوات كبيرة إلى سوريا ^(١) . وكان كل شيء يتوقف على اقدرة العراق على الصمود ، فكلما طالت المقاومة ، ازدادت فرص المساعدة المحورية الجدية .

توسط تركيا

وحتى بعد بدء القتال ، حاول رشيد عالي إضعاف عزيمة بريطانيا بالقيام بمناورات دبلوماسية — ومن ثم موافقته على عرض التوسط الذي تقدمت به تركيا .

وكانت الحكومة البريطانية قد طلبت من تركيا التوسط في أمر نزاعها مع العراق بعد بدء الانقلاب مباشرة ^(٢) . ولما لم تكن لدينا معلومات بريطانية عن هذه المسألة ، فإن الدافع من وراء هذا الطلب ليس واضحاً تماماً . فنحن لا نعرف على سبيل المثال ما إذا كان يعكس اختلافاً بين أنصار الاتفاق مع الحكومة العراقية وبين أولئك الذين كانوا يدعون إلى التدخل المسلح أو ما إذا كان مناورة القصد منها تأجيل الاصطدام المسلح . وعلى أى حال فإن خطوات التوسط الأولى جاءت من جانب الحكومة التركية ، ولكنها لم تأت إلا بعد بدء الأعمال الحربية في ٢ مايو ١٩٤١ . وفي هذه الحالة كانت الحكومة التركية تهتم أولاً وقبل كل شيء

(١) على أن « حداد » (ص ١٢٠ - ١) يذكر أن رشيد عالي كان ينظر إلى هذه المفاهيم بحذر ، وأن وجهة النظر هذه قد أثارت جدلاً حاداً بينه وبين صلاح الدين الصباغ .

(٢) يبدو من رسالة فون بابن (أنقرة في ١١ أبريل ١٩٤١) أنه كان من المفروض أن تطلب الحكومة البريطانية من تركيا أن تقوم بالتوسط قبل مرور أربعة أيام .

بمصلحتها التي كانت تهددها تطورات الأحداث في العراق . ولم يكن الإنذار
يهتمون فقط بالمؤن الهامة التي يتم الحصول عليها عبر الخليج (الربيع) والعراق ،
بل لأنهم كانوا يخشون كذلك تطويق قوات المحور لهم . وفي بيان أدلى به إيدن
في مجلس العموم في ٦ مايو^(١) ، صرح بقبوله الرسمي للعرض التركي ، ولكنه
لم يسحب أيّاً من المطالب المقدمة إلى العراق . ومن المؤكد أن هذا الإجراء الذي
تم في ذلك الوقت كان مجرد مناورة ، لأن تشرشل كان قد أبقى منذ يومين إلى ويقل
ليخبره بأن لا مجال لقبول الوساطة التركية^(٢).

كما كان قبول العراق لوساطة تركيا مناورة . وفي يوم ٨ مايو ، حين وصل
ناجي شوكت إلى أنقرة ، نجده يتصل بممثل ألمانيا هانز كرول^(٣) في أثناء غياب
فون باين . كما أجرى شوكت ثلاث محادثات موسعة مع وزير الخارجية التركي
سراج أوغلو . وبسبب المقتى والمربع الذهبي لم يستطع شوكت ، أو لم يرد ،
إلغاء طلب تحديد عدد القوات البريطانية المارة عبر العراق وتحريم إقامتها في البلاد .
وقد بلغ كرول بأن أي اتفاق مع إنجلترا في المستقبل ان يكون سوى هدنة من الممكن
استغلالها لتنظيم التعاون السياسي والحربي مع ألمانيا^(٤) إلى أن يتم استئناف النضال
ضد إنجلترا طبقاً لإشارة من براين . كما تحدث ناجي شوكت عن إقامة علاقات
دبلوماسية مع الريخ ، ووعد بعدم قطعها حتى ولو ضرب سلاح الطيران الألماني
المنشآت البريطانية في العراق . ولم يطلب إلا عدم إنزال ألمانيا أي طائرات في
مطارات العراق خلال اليومين التاليين - أي خلال الفترة التي كانوا يتوقعون
أن يتأكدوا فيها مما إذا كان الوصول إلى اتفاق مع إنجلترا أمراً ممكناً^(٥) . ويتضح

(١) Parliamentary Debates, House of Commons, 5th Series, Vol. 371, Col. 737.

قدم رشيد عال نفس المعلومات إلى جروبوا (رسالة جركة ، بغداد في ١٢ مايو ١٩٤١) .

(٢) Longrigg: op. cit., p. 293. Church: III, The Second World War, III, p. 227.

رفضت الحكومة البريطانية في الحال عرضاً بالتوسط تقدمت به تركيا في ٤ مايو .

(٣) رسالة كرول ، أنقرة في ٨ مايو ١٩٤١ . أثناء تأليف هذا الكتاب في عام ١٩٦٢ كان كرول
سفيراً لألمانيا الغربية في موسكو . وقد كتب حداد (المرجع السابق ، ص ١١٩) : أرسلت الحكومة
العراقية ناجي شوكت إلى أنقرة حوالي يوم ١٠ مايو لبحث الموقف مع السفير الألماني ولدفع الحكومة التركية
للتوسط حين يقتضي الأمر .

(٤) رسالة كرول ، أنقرة في ١٠ مايو ١٩٤١ . بلغ ناجي شوكت خضوري بأنه اتصل بفون باين
حين فشل في الوصول إلى اتفاق (مجيد خضوري ، المرجع السابق ، ص ٢٢٩ - هاش ٢) .

من هذا كله أن الحكومة العراقية كانت ترحب بتأجيل الصراع ، ولكنها لم تفكر في تغيير اتجاهها السياسي .

وفي ظل هذه الظروف كان مقضيًّا على التوسط التركي بالفشل . ولم يكن من شأن رد برلين أن يجعل العراقيين يتخلون عن الوضع الذي احتلوه حين بدأت المفاوضات - فقد وعد الألمان بتقديم المساعدة المستمرة بشرط أن يحافظ العراقيون على المطارات . وقد صرح ممثلو الريخ بأن كل شيء يتوقف على صمود العراق بقواه الخاصة حوالي أسبوعين . وفي ١٣ مايو وعد فون باين - الذي كان قد عاد من برلين منذ وقت قصير - شوكت بالمساعدة ، ونصح بعدم التسليم للبريطانيين . ولكنه حذو مواصلة الجهود الخاصة بالتوسط كسباً للوقت^(١) . وربما تكون هذه النصيحة هي التي أدت إلى انتصار المتطرفين : الحاج أمين الحسيني والمجموعة العسكرية ويونس السبعاءي . ورفضت الحكومة العراقية توسط الأتراك . كما لم يكن لنصيحة الحكومة المصرية الخاصة بقبول المطالب البريطانية^(٢) أثر أكبر لدى حكومة رشيد عالي .

كما كانت لوزير العراق المفوض في أنقرة اتصالات مع السفارة السوفيتية . وطبقاً للتعليمات التي أصدرتها له حكومته حاول ضمان مساندة السوفييت للمطالب القومية العربية ، وجعل منها شرطاً لقيام العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . ولكن الحكومة السوفيتية لم تقبل هذا الشرط . وفي مايو ١٩٤١ سحب رشيد عالي الشرط الذي وضعه ، واعترف الاتحاد السوفيتي بحكومته في الثاني عشر من ذلك الشهر . وما له دلالة أن كلا من ألمانيا وبريطانيا عارضت قيام علاقات دبلوماسية بين العراق والاتحاد السوفيتي .

(١) فون باين، إلى ريبنتروب، أنقرة في ١٣-١٤ مايو ١٩٤١ - باين إلى ريبنتروب في ١٣-١٤ مايو ١٩٤١ . ولكن ناجي شوكت نما إلى خضوري أن فون باين أخبره بأن الثورة العراقية سابقة لأوانها ، وأنه يشك في المساعدة الألمانية . ويقدم فون باين رواية مشابهة في كتابه *Der Wahrheit eine Gasse* (ظهرت الحقيقة) ميونخ ١٩٥٢ ، ص ٥٣٩ .

(٢) كما يشير خضوري (ص ٢٢٨) إلى نصيحة الحكومة المصرية وملك العربية السعودية بوجود اتفاق رشيد عالي مع بريطانيا . وقد أشار إيدن في مجلس العموم في مايو ١٩٤١ إلى عرض مصر للتوسط بين العراق وإنجلترا .

بعثة جروبا

حاولت برلين إقامة اتصال منتظم الهدف منه مساعدة العراق، وكانت حتى ذلك الوقت تعتمد على اتصالات غير دائمة أو تعمل عن طريق الإيطاليين . وقد اقترح إما أن تعطى الحكومة العراقية لبعثتها الدبلوماسية في أنقرة صلاحيات التفويض الضرورية ، أو أن ترسل بعثة إلى بوخارست وإلى أنقرة بقصد إجراء مفاوضات مع ممثلي ألمانيا . وتم اقتراح إرسال فرنز جروبا بصفته ممثلاً لألمانيا وطلب العراق إرساله ليقوم بالاتصال . فقد اعترضت بغداد على إجراء المفاوضات خارج العراق ، واعتبرت أنقرة غير صالحة لهذا الغرض بوجه خاص بحكم أنه كان من المستحيل تجنب الجاسوسية البريطانية هناك . وحين نشب الصراع المسلح قامت بغداد بجهود يائسة للاتصال مباشرة بألمانيا عن طريق دوائر عراقية في بلدان لها علاقات ببرلين . كما كان هتلر مهتماً بأن يكون له شخص على مسرح الأحداث ، وأكد ممثلو ألمانيا في دول مجاورة للعراق الحاجة إلى مثل هذا التمثيل .

وفي ٣ مايو اقترح ريبنروب على هتلر وجوب إرسال جروبا ومعه هيئة من الرجال إلى بغداد . وكان اقترح ريبنروب ينصب على وجوب إقامة جروبا مركزاً هناك يستطيع أن يكتل كل العالم العربي للقيام بالثورة . كما أنه طالب بالمساعدة الجوية للعراق . وطلب من هتلر أن يصدر الأوامر اللازمة . وقد أشار ريبنروب إلى أن العمل بالعراق وقيام ثورة عربية عامة من شأنهما أن يقدمتا خدمة كبرى للزحف الألماني على مصر . وقد كتب وزير خارجية النازي الكلمات المشجعة الآتية على مسودة الرسالة الموجهة إلى زعيمه : « توضح الأرقام الخاصة بالبريطانيين في العراق من جديد أنه من الواضح أن وضع إنجلترا اليوم في قناة السويس لا يزال ضعيفاً » . . وبرغم ذلك فإنه اقترح ألا تحاط بعثة جروبا إلى بغداد بالعلنية . وفي الواقع أنه أصدر الأوامر بأن تبقى سرية ، وأوصى جروبا

بأن يستخدم الاسم المستعار جرعة Cehrecke^(١) إلى أن تصله تعليمات أخرى . وتقرر أن تحمل الطائرات الألمانية في العراق وسوريا شعارات عراقية : وكان من الواضح أن المقصود من هذا الإجراء أن لا يتعرف أحد على الأسلحة الألمانية لكي تتوفر فرص النجاح بصورة مناسبة . وفي ٣ مايو طلب جروباً الأشخاص اللازمين^(٢) واقترح فورمان أن يقدم له مبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه استرليني ذهباً^(٣) . وبارح جروباً برلين في ٧ مايو ، ووصل إلى حلب في ٩ مايو بعد أن قطع الطريق عبر فوجيا ورودرس . وفي ١٠ مايو وصل إلى الموصل وفي اليوم التالي وصل إلى بغداد ومعه طائرتان مقاتلتان .

وتبعته بعثة جوية معها ثلاث مقاتلات ، وكان يرأسها ابن الفيلد مرشال ، الميجر فون بلومبرج ، الذي قتله على أي حال رصاصة عراقية أثناء نزوله في بغداد . وكان من المفروض أن يلي البعثة الجوية سرب جوي ألماني يتكون من ٢٠ طائرة . أما فيما يتعلق بالطيران عبر سوريا ، فقد خصصت بعثة خاصة هناك يرأسها الميجر هانسن من رجال القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية .

كما أرسل إلى سوريا رودلف ران ، وهو موظف بسفارة الريخ في باريس ، وكان من المعتقد أن الانقلاب القومي العربي الذي تم في العراق قد تلقى المساعدة من سوريا بموافقة الحكومة الفرنسية وتعاونها ، وكانت هذه الحكومة باستمرار خصماً قوياً للقومية العربية وللوحدة العربية بنزجه خاص . وكانت المفاوضات الخاصة بهذه المسألة قد جرت من قبل بين فيشني وحكومة الريخ فيما كان يسجل أقصى تعاون لبتان مع النازيين .

(١) مذكرات فورمان ، برلين في ٧ مايو ١٩٤١ وبسبب خطأ ربما تم في محادثة تليفونية ، يعطى فورمان جروباً الاسم المستعار إيركة Ihrcke .

(٢) طلب جروباً أن يرسل معه دكتور ألنخ جرانوف Granow وإيرك هوربنجر - و.ج. ستيفن (الممثل السابق لمؤسسة أوتو وولف في العراق) بالإضافة إلى بروفيسور آدم فالكينشتين (أستاذ الدراسات الاشتورية) - وفنيان في الإذاعة هما إيمده Emde وهونتش Honsch ، وألماني فلسطيني من فرقة براندنبورج التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية بصفته سكرتيراً خاصاً له . ويتضح لنا من الوثائق أن جرانوف وستيفن قد ذهباً بالفعل ، على حين تحول هوربنجر وهونتش إلى المندوب الألماني في سوريا : ران .

(٣) مذكرات فورمان ، برلين في ٣ مايو ١٩٤١ ، انظر حداد : المرجع السابق ، ص ١١٥ حيث يذكر أرقاماً خرافية (٢٠٠ ألف جنيه ذهباً) .

بروتوكولات باريس

كانت المحادثات قد تقدمت بعض الوقت بصدد مسألة المساعدة الفرنسية المادية لفيالق إفريقيا. وفي أواخر إبريل وأوائل مايو طابت برابن موافقة فيشي على استعمال القواعد الجوية السورية ، وأن ترسل إلى العراق الأسلحة المخزونة في سوريا ولبنان . ولما كان لا بد أن تؤدي موافقة فرنسا إلى سوء علاقاتها بإنجلترا والولايات المتحدة ، فقد علقت دوائر معينة في ألمانيا وفرنسا آمالاً قوية على أن تؤدي هذه المحادثات إلى تقوية التعاون بين فيشي والمحور وتعديل وضع فرنسا السياسي من دولة مهزومة ومحتلة جزئياً إلى حليف . ويجب أن نذكر أن هذه الفترة شهدت انتصارات سريعة للمحور في البلقان، كما شهدت نجاحات هامة لروميل في شمال إفريقيا .

وفي ٣ مايو - أي في اليوم الذي وافق فيه هتلر على إرسال طائرات إلى العراق ، بعث ريبنتروب تعليمات إلى آبتز . وفي نفس اليوم بلغ ريبنتروب الأميرال دارلان بأن هتلر سيقابله ، وأن ألمانيا على استعداد لتقديم تنازلات إذا ما وافقت حكومة فيشي على أن تخصص للجيش العراقي الأسلحة المخزونة في سوريا وأن تستعمل الطائرات الألمانية المطارات السورية في طريقها إلى العراق . وأكد آبتز أن التعاون بين فرنسا وألمانيا في المستقبل سيتوقف على موقف فرنسا من النقاط السابقة ، وأن هتلر تهمه الأعمال لا الأقوال . وأشار دارلان إلى الصعوبات الكامنة في اتباع مثل هذه السياسة ، وطالب بتنازلات حقيقية وكبيرة في مقابل أن ترتبط حكومته بألمانيا بمثل هذا الشكل العميق . وبعد مشاورات تمت في فيشي رجع دارلان إلى باريس في ٥ مايو بموافقة بيجان والوزراء المختصين على الخطط الألمانية ، وأرسلت الأوامر الضرورية فوراً إلى المندوب السامي الفرنسي في سوريا ، جنرال دنتز ، فيما يتعلق بنزول الطائرات الألمانية^(١) . وبسبب الحاجة إلى المحافظة على

(١) في ٦ مايو أرسلت هذه الأوامر من فيشي بالشفرة البحرية . وقد أشار دارلان في رسالته إلى مناقشة عامة مع ألمانيا، وركز على أن نجاح المحادثات كان يتوقف إلى درجة كبيرة على ما إذا كان دنتز سيسلهل طيران الطائرات الألمانية التي تتوقف في سوريا. وقد تلقى دنتز تعليمات من وزير الحربية ، ولكنها لم تكن بعيدة المدى .

السرية ، اقترح دارلان أن يطير المفوضون الألمان والفرنسيون إلى سوريا . وكان عليهم أن ينقلوا إلى الجنرال دنتز ورئيس لجنة الإشراف الإيطالية الجنرال دى جورجيس Giorgis موافقة باريس على تحويل الأسلحة الفرنسية إلى العراق وأن ترسل من سوريا شحنات أخرى إلى العراق ، والسماح للطائرات الألمانية بالنزول هناك في طريقها إلى العراق . وكان من المتوخى أن يمر المفوضون بصفهم تجار أسلحة . وقد وعد دارلان آبز بأن يرسل إلى دنتز الأوامر اللازمة ، ولكنه طالب بأن يشرف موظفون فرنسيون على إخراج الأسلحة من المخازن حتى لا تقع في أيدي الوطنيين السوريين . كما قدم دارلان الشروط الآتية : أن يتظاهر الألمان بأن على الطائرات أن تنزل اضطرارياً في سوريا ، وأن يكون النزول في مطار حديث البناء جنوب شرق الفرات ، وأن يمكن إغلاقه في وجه المراقبين الأجانب ، وجوب كون الطائرات دون علامات مميزة ، وعلى الألمان أن يوفرُوا شحنات البترول . ومن الواضح أن دارلان كان يريد إبقاء المسألة سرّاً بالنسبة إلى بريطانيا وأن يخفى مسؤولية الفرنسيين عن العمليات الجوية الألمانية في سوريا . ولكن ثبت أن المطار الذي اقترحه دارلان على الفرات بعيد عن مدى طيران الطائرات المخصصة ، إذ كان يقع على بعد ١,٢٠٠ كيلومتر من جزيرة رودس . لذا قام الألمان بعمليات النزول في مطارات أخرى أيضاً — منها دمشق على سبيل المثال .

ووافق دارلان على تزويد العراق بطائرات استطلاع وطائرات مقاتلة وقاذفات للقنابل وقنابل جوية (من العناد الحربي الذي تركته اتفاقية الهدنة تحت تصرف فرنسا) ، بشرط أن تفرج ألمانيا عن عدد مماثل من الطائرات والقنابل المحجوزة في فرنسا . كما وعد بأن يستبعد الموظفين غير الموثوق بهم من سوريا وتونس والجزائر وغربي إفريقيا الفرنسية . وإلى جانب إعادة سيع سفن طوربيد للخدمة ، طالبت فرنسا بتنازلات سياسية : على سبيل المثال خفض تكاليف الاحتلال وتسهيل الانتقال عبر خط التقسيم . وأكد دارلان أن تنفيذ رغبات برلين لم يكن يستلزم جهداً قليلاً ، وذلك بسبب معارضة بعض وزراء فيشي ، وأشار إلى الحاجة إلى تهدئة الرأي العام الفرنسى . ووافق الألمان على تخفيف قيود الاتصال بين أجزاء

فرنسا المحتلة وأجزائها غير المحتلة^(١) . ووعده بالدخول في مفاوضات حول تخفيف نفقات الاحتلال المتوقعة على عدد من العوامل الاقتصادية. ولكن اعترضت الصعوبات تنفيذ هذا الوعد^(٢) كما وافقوا على إدخال تحسينات على تسليم القوات الفرنسية .

وفي ١١ و ١٢ مايو أجرى دارلان محادثات مع هتلر وريبنتروب في برختشجاردن وفوشل ، ولكن جرت بعد ذلك في باريس مناقشة على مدى أكثر تحديداً بخصوص التعاون العسكري . ولم تتجاوز المناقشات مستوى المسائل العسكرية الصرف على غير رغبة مساندى التعاون الأوسع . ولم يتم بحث المسائل السياسية . وتتضمن ما يسمى ببروتوكولات باريس الاتفاق الفرنسي الألماني النهائي . وقد تمت صياغة البروتوكول المتصل بسوريا والعراق في أمسية ٢٣ مايو ، وفيه التزمت حكومة فيشي بمايلي :

- ١ - أن تتحول إلى العراق ٣ المواد الحربية المخزونة في سوريا .
- ٢ - الموافقة على نزول الطائرات الألمانية والإيطالية وتزويدها بالوقود ، وأن توضع تحت تصرف سلاح الطيران الألماني قاعدة خاصة في حلب .
- ٣ - أن تسمح باستعمال الموانئ والطرق والسكك الحديدية لعمليات النقل في العراق .

- ٤ - أن تدرب في سوريا جنوداً عراقيين مسلحين بأسلحة فرنسية .
- ٥ - أن توفر للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية كل المعلومات الخاصة بقوة بريطانيا وخططها في الشرق الأوسط ، مما يتوفر لدى المخابرات الفرنسية .
- ٦ - أن تدافع عن سوريا ولبنان بكل ما يمكنها من قوة . وفي مقابل ذلك وافقت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية على تعزيز القوات الفرنسية المرباطة في سوريا خارج نطاق الحدود التي وضعها اتفاقية الهدنة . وبشكل محدد كان هذا

(١) كان يدخل في ذلك السماح للشعب الفرنسي بالقيام بمراسلات بين منطقتي فرنسا على بطاقات بريديّة (وكان لا يسمح قبل ذلك إلا ببطاقات عليها نص مطبوع وثلاثة سطور خالية) . كما نوقشت مسألة إصدار بطاقات المرور للشاة ورجال الطيران بنفس العدد الذي كان يسمح به لرجال البحرية ، وتوفير بطاقات المرور في حالة المرض الخطير أو وفاة الأهل . وقد طالب الفرنسيون بفتح خط التقسيم على مصراعيه أمام البضائع وتبادل العملة .

(٢) من الشروط التي قبلتها حكومة فيشي في مقابل خفض نفقات الاحتلال تسليم الذهب البولندي المخزون في أفريقيا .

يعنى : أن تأخذ فرنسا ربع المواد الحربية المخزونة في سوريا، وأن تنقل إلى سوريا ولبنان ثلاث بطاريات ثقيلة مضادة للطائرات ومعها الذخيرة والطاقم و ٢٤ مدفعاً مخترقاً للدروع عيار ٢٥ مع الذخيرة ، و ٢٤ مدفعاً عيار ٧٥ مع الذخيرة ، وأن ترسل إلى سوريا من شمال إفريقيا وحدة من الطائرات المقاتلة بعد أن يتم تعزيزها بالرجال والعتاد ، و ٨٠ طناً من قطع غيار الطائرات .

وتم الاتفاق على أن تساعد فرنسا في نقل هذا العتاد . وكانت هذه التنازلات تتطلب موافقة إيطاليا المسبقة ، وهو ما تم قبل انتهاء المفاوضات الفرنسية - الألمانية . ويمكننا أن نتبين بالفعل ، إلى جانب مسألة المواصلات عبر خط التقسيم ، أن الألمان قاموا في البداية بعرض المساعدة على فرنسا وهي المساعدة التي مكنتها من محاربة أعداء الريخ ، وذلك في مقابل المساعدة الكبيرة التي قدمتها فيشي .

ولم تقتصر بروتوكولات باريس على التعاون الفرنسي - الألماني في سوريا ولبنان . فقد كانت تنقسم إلى أربعة أقسام كان أحدها يتعلق بمشاكل الشرق الأوسط ، وكان الآخر خاصاً بالتعاون في إفريقيا : تونس حيث كانت توجد القاعدة العسكرية العامة بنزرت وإفريقيا الغربية الفرنسية (داكار) وإفريقيا الاستوائية . وهكذا كانت أحداث العراق هي السبب المباشر لوضع برنامج واسع النطاق للتعاون الفرنسي - الألماني . على أنه لم ينفذ من بروتوكولات باريس على طول المدى سوى القسم المتصل بسوريا ولبنان .

بعثة ران

في ٦ مايو بعد انتهاء المحادثات مع دارلان (في الساعة العاشرة مساء) - أمر آبتز ران بأن يطير بأسرع ما يمكن إلى سوريا للإعداد لتزويد العراق بأسلحة فرنسية . وقد تلقى ران صلاحيات تفويض من آبتز باسم وزير خارجية الريخ ومن الجنرال فوجل باسم لجنة الهدنة الألمانية . وقد عين دارلان جاك جرار Guérard ممثلاً له وزوده بالتعليمات اللازمة للجنرال نتر والقادة العسكريين الفرنسيين في سوريا ولبنان . وكان يصحب ران إيتل - فردريش مولهاوزن Eitel-Friedrich Mollhausen

— وكان من موظفي سفارة باريس — بصفته سكرتيراً . وقد طار ران إلى سوريا في طائرة ريبنثروب (هنكل ١١١) عن طريق برلين وأثينا ورودس حيث قابل جروب . وفي ١٠ مايو وصل إلى حلب ثم توجه إلى بيروت ^(١) . وقد خصص لبعثته مبلغ نصف مليون مارك نصفها عملة ذهبية والنصف الآخر بالفرنكات الفرنسية .

وكان على الألمان أن يتخلوا عن فكرة إرسال فون هنتج إلى سوريا لبرأس بعثة الاتصال في لجنة الإشراف الإيطالية في بيروت . وكان هتار قد أخطر بذلك بالفعل . ولكن لما كانت السلطات الفرنسية تشك في كون فون هنتج من وراء قلائل مارس وأبريل التي نشبت في سوريا ، فقد اعتبرت آهنز غير مناسب ، واقترح أن يرافق دارلان في رحلته لمقابلة هتار . وترتب على ذلك أن اضطلع العسكريون بمهام بعثة الاتصال الألمانية : الميجر هانسن من الجيش والكولونل رودجر فون مانتوفل Rodiger von Manteuffell من القوات الجوية ^(٢) . وكانت مهام البعثة تتضمن الاتصال بلجنة الإشراف الإيطالية . وقد اتخذ مانتوفل قرارات خاصة بطيران الطائرات الألمانية إلى العراق ، على حين أشرف ران وولهاوزن على تقديم الأسلحة وعلى الاتصالات مع الموظفين الفرنسيين ، وأدى هذا إلى الاصطدام بين العسكريين ومدوني وزارة الدفاع الألمانية من جهة وبين ممثلي وزارة الخارجية الألمانية من جهة أخرى ^(٣) . وكانت تتمثل في العسكريين قوة المنتصر ، فقد كانوا يشكون في الفرنسيين ، كما كانوا على استعداد لمساندة الوطنيين السوريين ، أعداء فرنسا . وكان المدنيون يمثلون مدرسة آهنز وما كان

(١) يدعى ران أنه طار إلى حلب في ليلة ١١ مايو ، وأن المحادثة مع دنتز جرت في صبيحة يوم ١٢ مايو . ويتفق مادة التقرير مع الرسائل التي بعث بها ران من سوريا والرسائل التي بعث بها جروب من العراق . لهذا نقبلها ولا نقبل المادة التي جاءت في كتان ران (حياة قلقة : Ruheloses Leben) ، دسلدورف ، ١٩٤٩ — التي يحتمل أنها تأملات كتبت من الذاكرة في معسكرى هوفن ونورمبرج . وقد ذكر دنتز أثناء محاكمته أن ران وجيرارد صلا إلى حلب في ٩ مايو .

(٢) مذكرات من السفير ريتير Ritter ، برلين في ٨ مايو ١٩٤١ . عين الفيتنانت شمالتز Schmalz — الموظف السابق بوزارة الخارجية — ليكون مساعداً له .

(٣) يتبين لنا من ملحوظات ران أن هانسن اتفق مع عملاء وزارة الخارجية الألمانية . وقد أصبح هانسن بعد ذلك — بصفته كولونل — أحد قادة وزارة الدفاع الألمانية وأعدم ريمياً بالرصاص باعتباره أحد المشتركين في مؤامرة ٢٠ يولية ١٩٤٤ .

يسمى « بالفكرة الأوروبية » أى فكرة إقامة تعاون أوثق مع فرنسا ضد إنجلترا ، وكانوا يضعون نصب أعينهم القوى الاجتماعية والأحداث والشخصيات فى سوريا .

وعكف ران على مهامه بنشاط كبير وقدرة على التصرف السريع . فى ١٠ مايو قابل دنتز فى بيروت . وحاول تنفيذ تعليمات أبنز - الذى نصح أولاً وقبل كل شئء بالتغلب على المقاومة النفسية التى كان يتطلبها التعاون مع ألمانيا - فسعى إلى استمالة دنتز بكشف الفرص العظيمة التى كان يتضمنها تعاون فرنسا وألمانيا ، وساعده فى هذا جبرار مبعوث دارلان . وبعد بعض المساومات (١) ، حدد حجم الشحنة الأولى المتوخى إرسالها إلى العراق : ١٥,٠٠٠ بندقية و ٢٠٠ مدفع رشاش معها الذخيرة الخاصة بها (٦ ملايين خرطوشة و ٨٠٠ حزام من الرصاص) و ٤ مدافع ميدان عيار ٧,٥ و ١٠,٠٠٠ قنبلة - وكل ذلك مع العتاد الاحتياطى الضرورى وقطع الغيار .

وقد نجح ران فى تجميع كل الشحنات فى وقت قياسي . وكان مبعث استعجال الموظفين الفرنسيين هو حاجتهم إلى تقوية قوة حراسهم فى القطاع الشمالى من الحدود العراقية - ولهذا حصلوا على إذن من تركيا بمرور قطارين بعد ساعات قليلة (٢) . وقد وصلت الشحنة التى كان يرافقها ران من الحدود العراقية ، إلى الموصل بعد ظهر يوم ١٣ مايو . وفى رحلة العودة شحنت العربات بمواد غذائية إلى سوريا .

وقد اتفق ران مع دنتز على وجوب مبارحة القطارات التالية المحملة بالأسلحة فى ٢٦ و ٢٩ مايو وفى ٣ و ١٠ يونيه . ولم تصل إلى العراق سوى الشحنتين الأولىين اللتين أرسلهما موهاوزن . وكانت تشبه القطارات الأولى فى كونها تحمل شحنات طعام خلال رحلة العودة إلى سوريا ، مما مكن السلطات الفرنسية من توجيه ضربة إلى السوق السوداء وزيادة احتياطيات الحكومة .

(١) حاول دنتز أن يقلل المؤن المرسلة إلى العراق إلى أقصى درجة ممكنة . ومن المحتمل أنه كانت لدى ران قائمة بالأسلحة المخزونة تحت إشراف لجنة الإشراف الإيطالية . ولكن يحتمل أن القائمة كانت غير دقيقة .

(٢) يخترق خط حديد بغداد الحدود السورية - التركية شمال حلب ويمتد على الجانب التركى موازياً لخط الحدود حتى مدينة القامشلى ، وعندئذ يعود مرة أخرى إلى الأراضى السورية . وعند مدينة تل كوجوك يخترق الحدود العراقية - التركية ، ومن ثم يتجه الخط الحديدى إلى الموصل وبغداد .

وقد تلقى العراق الكمية التالية من الأسلحة عن طريق سوريا : ١٥,٠٠٠ بندقية ؛ ٤ مدافع عيار ٧٥ مم و ٨ مدافع من عيار ١٥٥، طراز ١٧ ، و ٢٠ مدفع رشاش (سبعة منها من طراز ١٩٠٧ وبها روافع) ٣٥٤ مسدساً أوتوماتيكياً الذخيرة : حوالى خمسة ملايين خرطوشة بئادق ومدافع رشاشة ، و ٦٥٧ حزاماً بكل منها ٢٤ طلقة ، ٩,٩٩٩ قنبلة عيار ٧٥ مم ، و ٦,٠٠٠ قنبلة (١٥٥ مم) و ٣٠,٠٠٠ قنبلة يدوية مازكة و ف ، ٦,٠٠٠ قنبلة زمنية و ٨,٨٥٠ مخزن للمسدسات الآلية وأنواع مختلفة من أجهزة تفجير القنابل ، و ٤ عربات ذخيرة ، و ١٢ تليفوناً و ١٠ كيلومترات من الكابلات ، و ٣٠ بطارية بها شحنات احتياطية . وبقي عدد كبير من هذه المواد في الموصل ، ولكن لم توجد أى دبابة وكانت الحاجة ماسة جداً إلى وجود دبابات . وطبقاً لشواهد فرنسية كان العناد من نوع ردىء . وقد شكّا رشيد على بمرارة من أن الأسلحة لا جدوى منها ، لكن لا يمكن أن نستبعد أن الجيش العراقي المدرب على أسلحة إنجليزية لم يستطع باستمرار أن يتوصل إلى كيفية استعمال الأسلحة الفرنسية . هذا هو السبب الذى من أجله طلب العراق مدرّبين تونسيين ، إذا لم يكن بالإمكان توفير المدرّبين الفرنسيين .

المعونة الألمانية

وبالإضافة إلى الأسلحة نجد أن الطائرات لعبت دوراً هاماً فى القتال الذى كانت تدور رحاه فى العراق . وفى عمليات الطيران الأولى إلى سوريا أرسل سلاح الطيران الألمانى سرباً يتكون من ثلاث طائرات استطلاع يقوده الميجرفون بلومبرج . ولاشك أن مقبله فوق بغداد برصاصة عراقية — وهو ما سبق أن أشرنا إليه — قد جعل الاتصال بالعراق أصعب ، لأن طريق المواصلات بين سوريا والعراق وكيفية عبوره كان قد تم ترتيبها مع فون بلومبرج وحده. وحينئذ تم تعيين الكولونيل يونك قائداً لعمليات سلاح الطيران الألمانى فى العراق — وكان قد زار بغداد فى ١٦ مايو وأجرى محادثات مع رشيد على ، ورئيس الأركان الجنرال أمين زكى ومدير العمليات الكولونل نور الدين محمود ومحمود سلمان وقائد القوات الجوية

وأحد أعضاء المربع الذهبي . وكان مركز قيادة الكولونل يونك في رودس . وكانت تخضع لأوامره الهيئة التي كانت تضم ٣٣ عضواً والتابعة للكولونل و . فون مانتوفل وقاعدتها مطار حلب - وكانت مهمتها تنظيم عمليات الطيران ونقل العتاد . وكانت هيئة مانتوفل تعمل مستترة وراء هيئة الاتصال الألمانية في لجنة الإشراف الإيطالية . وكان من المتوخى أن يكون تحت تصرف قائد عمليات الطيران الخاصة بالعراق سرب من طائرات مسر شمت ١١٠ وسرب من طائرات هاينكل ١١١ - وكان كل سرب يتكون من ١٢ طائرة ، بالإضافة إلى طائرات يونكرز ٥٢ و ٩٠ الخاصة بالتموين . وكانت هذه الطائرات الأخيرة تحمل قنابل ومدافع مضادة للطائرات وأدوات تشحيم بالبنترول أيضاً إذ لم يكن الألمان في وضع يمكنهم من إنتاج وقود الطائرات محلياً . وفي الواقع لقد اشتركت في العمليات طائرات أقل مما كان مقرراً إذ يحتمل أن الطائرات المخصصة للكولونل يونك كانت من نوع أقل ، وقد كان كثير منها في المطارات السورية^(١) . وسنرى فيما بعد كيف كان استهلاك الطائرات المقاتلة مرتفعاً جداً في العراق . وكانت إيطاليا قد وعدت ببيع عشرات من الطائرات ، وبرغم ذلك فلم تساعدتها كانت محدودة جداً^(٢) . وقد تسبب نزول الطائرات الألمانية في المطارات السورية في عدد كبير من المصادمات - فالفرنسيون كانوا متشددين في عدم تزويدها إلا بالكمية الضرورية من البنترول وضرورة مبارحتها بأسرع ما يمكن^(٣) - كما كانت الاصطدامات راجعة إلى الصلف التقليدي المعروف عن الضباط الألمان .

وبدا أن المساعدة الألمانية للعراق آخذة في الازدياد . فقد تسلم رشيد عالي من جروبيا ، لدى وصوله إلى بغداد في ١١ مايو ، عشرة آلاف جنيه ذهباً (أو ٢٦٤,٦٠٠ مارك وفقاً للسعر الرسمي) كما تسلم المفتي ١٥,٠٠٠ دولار على شكل سندات أو ٦٢,٥٠٠ مارك . وفي ٢١ مايو ، بعد وصول جرانوف ،

(١) يبدو أنه لم يصل من طائرات بلومبرج الثلاث إلى بغداد سوى طائرة واحدة .

(٢) يذكر دي تشير (S. de Chair : The Golden Carpet, p. 132) أن سرباً واحداً من المقاتلات الإيطالية كان يعمل في العراق .

(٣) كان على الفرنسيين أن يشحنوا البنترول إلى سوريا من أوروبا . فقد أوقف البريطانيون تدفق البنترول من كركوك إلى طرابلس بعد سقوط فرنسا .

سلم جروبيا إلى رئيس الوزراء ١٠,٠٠٠ جنيهه ذهباً ، وإلى الحاج أمين ١٠,٠٠٠ دولار . وطالب رشيد عالي بأن يعطى ٨٠,٠٠٠ جنيهه آخر من الذهب ، مما جعل المبلغ يزيد بالفعل على المليون مارك التي حددتها ريبنتروب . وقد شحن هذا المبلغ - الذي كانت زنته ٦٤٠ كيلو جراماً من الذهب - بالطائرة من برلين . ولكنه لم يصل إلا إلى أثينا ، لأن الثورة العراقية في ذلك الوقت كانت قد انهارت . وقد خصصت الحكومة الإيطالية ١٠ ملايين ليرة للعراق ، وفي ٢٩ مايو وافقت لجنة التجارة الخارجية على اقتراح عقد اتفاقية مع العراق حول تسليمه مبلغ مليون جنيهه ذهباً يتم دفعه فيما بعد - ولكن لم يعد من الممكن تنفيذ هذه المعاهدة هي الأخرى .

ولم يكن ثمة اتجاه إلى تخفيف النشاط النازي في البحر المتوسط ، برغم أن عدداً متزايداً من القوات الألمانية كان منهمكاً بشدة في شرق أوروبا . وفي ٢٠ مايو احتل المظليون التابعون للجنرال ستودنت Student جزيرة كريت . وقد اشترك في هذه العملية قسم كبير من القوات الألمانية والقوات التي نقلت جواً ، في نفس المرحلة الحرجة التي كانت تمر بها المعركة الدائرة في سبيل العراق . ورغم ذلك فقد أصدر هتلر أوامره بإرسال بعثة عسكرية إلى العراق يقودها جنرال القوات الجوية فلمي Felmy وكانت تتكون من الكولونل نيدرماير Niedermayer والكابتن كولاس من رجال وزارة الدفاع الألمانية (الذي كان موجوداً بالفعل في العراق) وآخرين . وكان من المتوخى أن تضم البعثة ضابطاً وصف ضابطين وجنديين من كل من الأسلحة التالية : المدفعية المحترقة للدروع والطلائع والكشافات ، والمدفعية الثقيلة والخفيفة المضادة للطائرات والاستطلاع الجوي . كما كان من المتوخى أن ترسل إلى العراق قوة من كتيبة براندنبورج المكافئة بمهمة خاصة والتابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية . وكان من المتوخى أن تعمل البعثة بصفتها هيئة استشارية لجيش العراق ، وأن تقيم علاقات في المستقبل مع القوات المسلحة المعادية لبريطانيا خارج العراق ، بالإضافة إلى جمع المعلومات والحصول على خبرة في هذه المنطقة . وفي ٢٣ مايو أصدر هتلر تعليماته رقم ٣٠ الخاصة بمساعدة العراق . وقد جاء في مقدمة هذه التعليمات مايلي :

« إن حركة التحرير العربية في الشرق الأوسط حليفنا الطبيعي ضد بريطانيا

العظمى - ولهذا فإن لثورة العراق أهمية خاصة : فهي تعزز - خارج حدود العراق - القوى المعادية لإنجلترا في الشرق الأوسط وتوقع الاضطراب بالمواصلات الإنجليزية وتشغل قوات بريطانية ومجالاً للملاحاة البريطانية على حساب مسارح أخرى للحرب . لهذا قررت حفز التطورات في الشرق الأوسط عن طريق تقديم المساعدة للعراق . ولن يتقرر إلا بعد بربروسا ما إذا كانت ستحل الهزيمة النهائية بوضع إنجلترا بين المتوسط والخليج (العربي) ، فيما يتعاقب بشن هجوم على قناة السويس ، وكيف تتحقق هذه الهزيمة » .

ولم تضع هذه التعليمات سوى مهام محددة أمام القوات الألمانية ، مؤجلة القرار النهائي في الشرق الأوسط ، ولكنها تدل على أن ألمانيا لم تكن تنوى وقف نشاطها في تلك المنطقة . وأثناء توجه فلمي إلى العراق توقف في حلب في ٣١ مايو ، ولكن ما حل هذا الوقت حتى كان متأخراً جداً . وتقرر في نفس اليوم مد يد المعونة إلى العراق .

العمليات الحربية

لم تنجح ألمانيا في مد العراق بالمساعدة الحربية ، ومن ثم لم يكن لها سوى الحد الأدنى من التأثير على الحرب في العراق حيث كان جيشان يواجه كل منهما الآخر : الجيش العراقي الذي وصل تعدادده إلى ٦٠,٠٠٠ جندي (طبقاً للرقم الذي أعطاه الكيلاني لوزير اليابان المفوض)^(١) وجيش بريطاني . وكان الجيش العراقي يضم أربع فرق إحداها كانت بالشمال في منطقة الموصل ، والأخرى في الجنوب في منطقة البصرة واثنتان حول بغداد وكركوك . وكانت لدى العراق تشكيلة من الدبابات الخفيفة الإيطالية الصنع (فيات) وتشكيلة من الدبابات البريطانية ماركة كروسل وحوالي ٦٥ طائرة تضمها ٦ أسراب منها سربان من إنتاج

(١) رسالة إيتل ، طهران في ٢ مايو ١٩٤١ - تتشى المعلومات البريطانية في خريف عام ١٩٤٠ مع هذا الرقم فيما يتعلق بقوة الجيش العراقي . وكان هذا الرقم كالألق : ١٩٠٠ ضابط و ٤٣,٠٠٠ جندي - قوات البوليس : ١٣٠ ضابطاً و ١٠,٠٠٠ جندي - القوات الاحتياطية : ٣٠٠ ضابط و ٣٢,٠٠٠ جندي .

بريطاني وآخرون من إنتاج إيطالي .

وبقي الوضع العسكري في الواقع دون تغيير منذ أن نزلت القوات البريطانية في البصرة . ولم يستبعد حينئذ سوى احتمال وصول الإمدادات عن طريق البحر وبأقل كمية ممكنة على أي حال - ووضعت كتيبة عراقية في الموقع المناسب . وقد أغرق العراقيون المناطق المجاورة للمدينة ، بحيث وضعت العراقيين أمام تحركات القوات البريطانية ولو بصفة مؤقتة على الأقل . ويجب أن نذكر أن القوات البريطانية قد استلزمتهما ٣ سنوات للوصول من البصرة إلى بغداد خلال الحرب العالمية الأولى . وقد أصدر القائد العام للقوات البريطانية في الهند - الذي كانت قوات البصرة تابعة له حتى ٨ مايو ١٩٤١ - أوامره بالقيام بهجمات عنيفة : ولكن حين تولى الجنرال ويفل القيادة لم يحدد لها سوى مهام محلية . وفي الواقع أنه لا القاعدة البريطانية في الحبانية ، التي كانت تحاصرها قوات عراقية تفوقها عدداً ، ولا الرعايا الإنجليز المحاصرون في بغداد في السفارة البريطانية أو المعتصمون بالمفوضية الأمريكية ، كان باستطاعتهم أن يعولوا على مساعدة الحامية البريطانية في البصرة . ولم يستطع الجيش العراقي أن يستغل إمكانياته في الحبانية ^(١) . وفي ٢ مايو بدأ البريطانيون قصفاً جويًا للمواقع العراقية . وفي ٦ مايو أخلى العراقيون جزءاً من المرتفعات المشرفة على القاعدة البريطانية ، تاركين كمية كبيرة من الأسلحة والذخيرة والعتاد . وتذكر التقارير الإيطالية والألمانية ، كما تذكر القرائن البريطانية والعربية ، أن الهجوم الجوي أثار رعباً شديداً لدى الجنود العراقيين ، خاصة وأنهم لم تكن تتوفر لهم الحماية القائمة على المدافع المضادة للطائرات ^(٢) . وفي ٧ مايو قامت الحامية البريطانية في الحبانية بهجوم مضاد وطردت الجيش العراقي من مواقعه

(١) طبقاً لتقارير وزير إيطاليا المفوض في بغداد (٥ مايو ١٩٤١) ، لم تكن لدى العراقيين عربات مصفحة ، ولم يكن باستطاعتهم اختراق خط الأسلاك الشائكة المكهرب المحيط بالمسكن البريطاني في الحبانية وكان على القوات الجوية أن توفر قنابلها . ويذكر هـ.م. ولون : Eight years Overseas, p. 105 . أن الجيش العراقي لم يبد كثيراً من المبادرة واقتصر على قصف المسكن بطريقة عشوائية من الجو وبمدفعية الميدان . ويلفت الصباغ (ص ٥٥) النظر إلى عدم كفاءة الجيش العراقي .

(٢) أبرق جروبا مايل : لا يمكن إرغام الجيش العراقي على القيام بنشاط طالما أن القوات الجوية الألمانية لا تسيطر على الجو ، وأن الجنود العراقيين لا يستطيعون التصدي للغارات الجوية . ويذهب تشرشل والصباغ هذا المذهب ويبدو من عرض حداد أن الغارات الجوية قد ضعفت كذلك معنويات قادة الجيش العراقي .

على منحدرات التلال المحيطة بالقاعدة البريطانية ، وبذلك أنهت حصار الحبانية . ثم بدأت الطائرات المحتشدة هناك قصفاً منتظماً للمطارات العراقية ، تساعدها القوات الجوية التابعة لقاعدة الشعبية . وقد منيت القوات الجوية العراقية بخسائر فادحة في الأسبوع الأول ، وتم تدميرها تماماً في الأسبوع الثاني . لهذا ليس عجباً أن يطالب الزعماء العراقيون بالإصرار ، منذ البداية ، بالمساعدة الجوية المحورية ملمحين إلى ما قاساه الشعب بسبب الغارات الجوية البريطانية المستمرة . ومنذ ٦ مايو حثت الحكومة العراقية ألمانيا على إرسال طائراتها في الحال « لإنقاذ الموقف » .

ولما كانت القوات الإمبراطورية مشغولة في البصرة ، فقد رأى الإنجليز طريقة أخرى لاستعادة سيطرتهم على العراق . وكان الجانب السياسي من خطتهم يقوم على إرسال جلوب باشا إلى العراق بهدف إغراء أعداء رشيد عالي بالقيام بنضال فعال ضد حكومته ، ولكن لم يكن من المتوقع أن يؤدي هذا إلى نتائج سريعة . ولما كان عدم التأكد من نوايا بزلين - العامل الرئيسي في الموقف - يملئ القيام بإجراء سريع ، فقد تقرر إرسال طابور بريطاني من فلسطين بقيادة الجنرال جورج كلارك . وكان من المتوقع أن تقطع هذه القوة الميكانيكية مسافة التسعمائة كيلومتر الممتدة بين حيفا والحبانية في أقصر وقت ممكن . وكان الطابور يحتوي على وحدتين عربيتين : الفرقة العربية التي كان يقودها ج . ب . جلوب وقوة الحدود الأردنية التي رؤى سحبها فيما بعد لأن الجنود تمردوا عند نقطة ضخ البترول رقم ٥ - ٣ الواقعة على خط حيفا - كركوك . وفي ١٠ مايو عبرت طلائع قوات الحرس التابعة لقوات كلارك - وكانت جزءاً من طابور كنجستون الطائر^(١) - الحدود الواقعة بين العراق وشرق الأردن ، وبعد يومين تلتها القوات الرئيسية . وبرغم ارتفاع مياه نهر الفرات وإغراق مساحات شاسعة من الأراضي فقد وصل طابور كنجستون إلى الحبانية في ٨ مايو ، ومن هناك تقدم صوب الفالوجة وبغداد^(٢) فوق أراض تعلوها المياه وعلى جسور محطمة ، متغلباً على

(١) يصف أحد المشتركين في حملة كنجستون ما قامت به وصفاً براقاً :

Somerses de Chair: The Golden Carpet.

(٢) أبرق جروبا في ١٩ مايو من بغداد «ضرب السلاح الجوي البريطاني الفالوجة اليوم لمدة ساعات وقد أدى هذا إلى ضعفة روح حامية الفالوجة المنوية » .

مراكز المقاومة العراقية أو متفادياً لها .

وفي ٣٠ مايو وصل الطابور إلى بغداد ، وفي اليوم التالي سلمت المدينة دون مقاومة ، برغم أن أعداد الجيش العراقي كانت تفرق أعداد القوات البريطانية بكثير^(١) . وبرغم أنه كان باستطاعة العراق أن يواصل النضال في الشمال ، فقد فقدت حكومة الكيلاني أعصابها . وفي ٢١ مايو توجه وزير الخارجية موسى شهبندر إلى طهران . وكان على ناجي شوكت أن يمضي إلى أنقرة ، وأسرع وزير المواصلات محمد علي محمود لينتقل وظيفة دبا وبناسية في طهران . وقد سجل القنصل الفرنسي من بغداد في ٢٣ مايو أن موقف الدوائر العراقية الحاكمة قد تدهور ، وأن مجلس الوزراء كان يقوم باستعدادات للفرار . وطبقاً لهذا المصدر كانت أسرتا رشيد عالي وناجي شوكت في تركيا بالفعل ، على حين هرب وزير المالية ناجي السويدي ووزير الخارجية شهبندر إلى طهران . وكتب إيتل من طهران تقريراً مشابهاً حول مركز الحكومة العراقية ، وقد أخبر مفتي القدس وزير إيطاليا المفوض بأن عدداً كبيراً من الناس في العراق كانوا على استعداد للتفاوض مع الإنجليز . وما حل ٢٩ مايو حتى كان كثير من كبار المسؤولين العراقيين قد وصلوا إلى طهران ومن بينهم المدير العام للجمارك ومدير الاحتكارات الحكومية ومدير البنك الوطني - وكانوا كلهم مصحوبين بأسراتهم . وفي اليوم التالي عبر الحدود كل من الكيلاني والحاج أمين الحسيني والشريف شرف ورئيس هيئة الأركان وغيرهم . وهرب من بغداد إلى سوريا عدد كبير من الناس ، معظمهم من السوريين والفلسطينيين واللبنانيين .

وقد أوضح القتال الذي لم يستمر طويلاً أن جيش العراق عاجز عن الصمود أمام الأسلحة الحديثة ، وأنه كان بحاجة شديدة إلى الإمدادات الألمانية ، وبخاصة ما يكفي من القوات الجوية . ولكن يبدو أن الألمان قد تنبهوا لذلك بعد فوات الأوان بقليل . وتدل التقارير الألمانية الواردة من العراق على أنهم أخطئوا تماماً في تقدير الموقف . وهكذا نجد أن ممثلي الريخ يؤكدون إبرازين قبل يوم فقط من

(١) وصف الجنرال كلارك موقف بريطانيا العسكرية في العراق في نهاية مايو بأنه سيء تماماً - ونحن وصلته أنباء سقوط حكومة رشيد عالي ، تقبل الخبر بارتياح شديد .

سقوط الفالوجة أنه لا يمكن الاستيلاء عليها. وفي ٢٦ مايو كتب مكتب الاستعلامات الألماني رقم ٣ إلى فايز ساكر رأى مثليه الخاص بأن الموقف في العاصمة لم يكن خطيراً. وفي ٣٠ مايو كتب جروبا أن الموقف العسكري قد تحسن نتيجة للهجمات التي قام بها العراقيون وبسبب إغراق الأراضي. ويبدو أن الألمان بالغوا في تقدير اتجاه البلد وتفسير تعاونهم. وفيما بعد كتب ضابط وزارة الدفاع الألمانية ليفركون Leverkusen الذي كان مقيماً في إستنبول في ذلك الوقت مايلي : « بالغت ألمانيا في تقدير قدرة الجيش العراقي على القتال ، بشكل يفوق الواقع بكثير ، على حين بالغ رشيد عالي والفتي في تصوير احتمال المساعدة التي كان وضع الألمان يسمح لهم بتقديمها » .

أما الروايات العربية فتمتلي بالنقد الشديد الموجه إلى مجرى الحرب في العراق . فقد تعنى صلاح الدين الصباغ^١ هبوط الروح المعنوية في الجيش وفوضى بعض العناصر وخيانتها ، ولكنه نقد كذلك مجرى العمليات الحربية ، ووجه حداد نقداً شديداً للقيادة العليا العراقية ، وأشار إلى عدم وجود العدد الكافي من الضباط الأكفاء ، وأكد أن وجود الطائرات الألمانية هو وحده الذي قوى روح المحاربين المعنوية بعض الوقت .

والواقع أن الطيران الألماني قد أصيب بالشلل خلال الأيام الأخيرة من الحرب بسبب الحاجة إلى الإصلاحات والاختبارات ولعدم وجود العدد الكافي من القنابل . ولم تشرك الطائرات الإيطالية إلا بأعداد قليلة جداً وفي الأيام الأخيرة فقط . وكان الوقود شحيحاً طيلة فترة القتال ، وكان البدء بإنتاج البترول الذي لا يشتغل بسرعة أمراً شديداً الصعوبة. ولم يمكن إقناع إيران ببيع البترول والشحومات للعراق ، سواء أكان ذلك من بترولها أو من الكميات التي اشترتها من الاتحاد السوفيتي^(١). وقد أكد رئيس وزراء إيران لا ينل أن إنجلترا لا بد أن تعتبر هذه الصفقة عملاً

(١) كتب ريتير أن الألمان لم يكونوا يرغبون في أن يقوموا هم أنفسهم بالاتصال بالاتحاد السوفيتي بصدد هذه المسألة لأسباب سياسية . واقترحوا أن تقوم إيران بذلك . وكان من التواخي أن تتحمل حكومة الريخ كل النفقات .

عدائياً ، وأنها قد تؤدي إلى غزو القوات البريطانية أو السوفيتية لإيران^(١) وقد صرح متين دفتری بأن على إيران أن تحافظ على حيادها التام إزاء بريطانيا والاتحاد السوفيتي ، طالما أن تركيا لم تنضم إلى المحور بصفة قاطعة . وكان من رأيه أن الكيلاني قد تسرع - إذ أنه لم يكن مستعداً للحرب التي لم تكن إيران مقتنعة تماماً بأنها ستنهي في صالح العراق .

وكان من السهل تنظيم نقل البترول والشحومات والمواد الحربية عبر تركيا . وكانت هذه المشكلة ترتبط بمعقد معاهدة بين ألمانيا وتركيا ، تم توقيعها غداة الهجوم النازي على الاتحاد السوفيتي في ١٨ يونيو ١٩٤١ . وكان الألمان يريدون أن يلحقوا بهذه المعاهدة اتفاقاً سريعاً يحتفظون فيه لأنفسهم بحق الشحن غير المحدود للأسلحة وغيرها من المواد الحربية عبر الأراضي التركية ، بالإضافة إلى نقل عدد محدود من القوات . وكان ذلك شديد الأهمية بالنسبة إلى ألمانيا بسبب الموقف في العراق . كما أن المحادثات الفرنسية - الألمانية الخاصة بالتعاون العسكري جعلت نقل الأسلحة الألمانية والفرنسية إلى سوريا والعراق أمراً ضرورياً . وفي أواخر مايو كانت مشكلة نقل البترول والشحومات إلى العراق ملحة بوجه خاص .

ومنذ البداية رفضت الحكومة التركية الموافقة على نقل الهيئة الألمانية عبر تركيا . وكان فون بابن يعتقد أن من المؤكد أن توافق تركيا على نقل الوقود والمواد الحربية إلى العراق . ولكن لم يحدث حتى أول يونيو أن وصلت شحنة من البترول إلى حيدر باشا على الشاطئ الآسيوي للبحر الأسود^(٢) ، وقد وصلت هذه الشحنة إلى سوريا بعد

(١) كتبت المخابرات البريطانية تقارير مستمرة في ذلك الوقت عن إزماع القوات السوفيتية عبور حدود إيران ، واعتبر سومرست دي شير (المرجع المذكور ، ص ١٥٣ - ٤) هذه التقارير مناقضة للأخبار الخاصة بقرب غزو الألمان للاتحاد السوفيتي . فقد كانت الحكومة السوفيتية تخشى تقدم الألمان في البلقان ومن المحتمل أيضاً أنها كانت تخشى الخطوات التي كانوا يقومون بها في العراق . وفي ٢٤ مايو جرت محادثات بين داكوتوزوف - سفير روسيا في برلين - وبين فايز ساكر حول أحداث العراق ، وفي ١٦ مايو نقلت الصحافة السوفيتية خبراً عن وكالة تاس ينكر ما ذهبت إليه وكالة هافاس وتقارير مراسل اليونانية دبس من بيروت عن سماح الحكومة السوفيتية بجمع المتطوعين من الطيارين السوفيت لتعزيز القوات الجوية العراقية . وكانت الرسالة تستمد من راديو بغداد (انظر أيضاً رسالة شولنبرج - موسكو ، في ١٧ مايو ١٩٤١) .

(٢) إن ما يذكره سير هيوناث شبل - هوجسن من أن ألمانيا لم تطلب إلا مرة واحدة نقل القوات والأسلحة عبر تركيا التي رفضت لا يلتزم الدقة .

أن تأخرت طويلاً ، كما قام الألمان بعد ذلك بعدة محاولات للحصول على موافقة تركيا على نقل الأسلحة والوقود إلى سوريا — ولكننا سنناقش هذه المسألة في موضع آخر .

هزيمة رشيد عالي

شهدت أواخر مايو نهاية الحكم الوطني في العراق ، كما شهدت نهاية التدخل الألماني في البلاد . ففي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٢٩ مايو وصل خبر كاذب عن اقتراب الدبابات البريطانية من بغداد ، مما جعل العسكريين الألمان يفرون من الموصل وكرارك إلى سوريا . وفي اليوم التالي بارح جروبيا بغداد إلى الموصل . كما كانت الحكومة العراقية تود أن تنتقل إلى الموصل بعد أن عينت لجنة للأمن العام كان من المتوخى أن تبقى في بغداد . وفي هذه الحالة أيضاً أدى الخبر الكاذب الخاص باستيلاء البريطانيين على كوبرى ييجى إلى عبور رشيد عالي الحدود العراقية إلى إيران . وبوجه عام فإن المعلومات الكاذبة بخصوص قوة الجيوش البريطانية لعبت دوراً كبيراً في انهيار الثورة (١) .

وشهدت هذه الفترة نشاطاً محمومًا في الأركان والوزارات الألمانية ، حيث كان قد صدر قرار بزيادة المساعدة للعراق . وقد سبق أن ذكرنا أن الذهب المخصص للعراق قد أرسل إلى أثينا ، على حين كان الجنرال فلمي والكولونل يونك في حلب في طريقهما إلى العراق . وفي ٣٠ مايو أرسلت وحدات جوية جديدة ، وقد ذكر ريبنتروب لجروبيا أنه كان من المتوقع أن تصل إلى العراق يوم الأحد أول يونيو . ولكن ثبت استحالة نزول الطائرات المحورية في الموصل في ذلك اليوم . وبارح جروبيا المدينة يوم ٣١ مايو في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، برغم الأمر الصادر من ريبنتروب بتأجيل رحيله لأن مزيداً من المساعدة كان في طور الإعداد . وقد هرب من الموصل حاملاً خبراً باقتراب الإنجليز ، رغم أنه لم يتم الاستيلاء على الموصل إلا في يوم ١٣ يونيو .

(١) يذكر حداد (ص ١٢٥) أن تن هذه المعلومات كانت كاذبة وأنه لا يدري المصدر الذي زود بها القادة .

وهكذا انتهت العمليات الألمانية في العراق . وكانت للفشل أسباب كثيرة في مقدمتها أن الهجوم المتوخى شنه على الاتحاد السوفيتي قد منع ريخ هتلر من الاهتمام الكافي بالبحر المتوسط . وكانت القوات الألمانية ، وبخاصة السلاح الجوي ، منهكة في اليونان في البداية ، ثم كانت مشغولة بعد ذلك تماماً في كريت خلال الأيام العصيبة من الحرب الدائرة رحاها في العراق . ورغم ذلك فإن الوثائق تشهد على أن إدارة وزارة الخارجية الألمانية كانت تضغط لكي تزج ألمانيا بنفسها في العراق . ولكن حين نشط النازيون بالفعل في هذه البلاد كان يبدو أن عوامل كثيرة تقضي على المهمة بالفشل : منها ضعف قدرة الجيش العراقي على القتال - فلم يستطع المقاومة حتى لفترة الشهرين التي قدر أنه سيصمد خلالها ، وذلك رغم قلة أعداد الخصم . والعامل الثاني من عوامل الضعف هو بطء المساعدة الألمانية - إذ أن مساعدة ولو قليلة كان بإمكانها أن تغير موازين الأحداث في العراق . وثمة عامل مساعد هو برود الفرنسيين والأتراك لزاء خطط ألمانيا في الشرق الأوسط . وبإمكاننا أيضاً أن نضيف أن تقارير ممثلي ألمانيا في العراق - مدنيين وعسكريين - التي لم تنتبه إلى ضعف الجيش العراقي ولم تحذر القيادة في برلين ، قد ساهمت إلى حد كبير في إصابتها كل نشاط ألمانيا بالفشل . وفي الواقع أن هتلر قد « فاته الأوتوبيس »^(١) ، فخسر فرصة مواتية للنصر والمكاسب المحزنة في الشرق الأوسط . وحين نضع نصب أعيننا أن سياسة تشرشل واستراتيجيته - في لندن - قد انتصرتا على سياسة واستراتيجية الجنرال ويفل الرجل العامل في ذلك الموقع ، نجد أن البريطانيين قد تميزوا بالمبادرة ، وقاموا بعملهم بعزم وتصميم . واعتبر المؤرخ الرسمي البريطاني للحرب ذلك تجربة جديدة لألمانيا .

وتوضح رسالة ريبنتروب إلى جروبا بتاريخ ٢١ مايو حول إعداد مزيد من المساعدة لرشيد على أن الانهيار السريع الذي أصاب الحركة المعادية لبريطانيا في العراق كان يشكل في ظل هذه الظروف نجاحاً هاماً لخصوم النازية والفاشية في كل مكان .

(١) طبقاً للاصطلاح الذي استعمله تشامبرلن في خطبة أدلى بها قبيل الهجوم الألماني على الجبهة الغربية

الفصل التاسع

ألمانيا ومعارك سوريا

بعد أن انهارت حكومة رشيد عالي، سحب الألمان طائراتهم وبعثتهم العسكرية، وأوقفوا كل تدخل لهم في العراق. وفي ظل هذه الظروف استمرت بعض محاولات المقاومة بعض الوقت بصورة متقطعة. ولكن معظمها كان ذا أهمية محلية ومقتضياً عليه بالإخفاق. على أن النازيين لم ينفضوا أيديهم تماماً من النشاط العسكري—ومنه مثلاً النشاط الذي استمر دون انقطاع في جبهة شمالى إفريقيا—أو من النشاط السياسى التقييى الذى كان يتم بمساعدة بعض الدوائر العربية. ولم تنحل البعثة العسكرية التى أرسلت إلى العراق، ولكنها بقيت تحت اسم سوندرستابف، وكانت تعمل في أثينا تحت رئاسة الجنرال فلمى، وبمرور الزمن تناولت مسائل شرقية أخرى إلى جانب الشؤون العربية.

وتقرر في البداية أن تترك هيئة اتصال مانوفل في سوريا، بالرغم من اعتراضات فيشى. ويجب أن نذكر أن المحور كان أمامه—بعد هزيمة العراق—احتمال ما لاستعمال سوريا التى كانت تحت حكم فيشى، وإن لم تكن خاضعة تماماً للمحور. وواصلت لجنة الإشراف الإيطالية عملها هناك، بما في ذلك تمثيل ألمانيا فيها—وقد أضيف إلى اللجنة الألمانية في أواسط يونيه الميجر ماير—ركنس Meyer-Ricks العضو بهيئة أركان الجنرال فلمى الذى قام بدور الملحق العسكرى.

ألمانيا وفيشى

بعد بروتوكولات باريس

لم يعتمد احتمال النشاط النازى في سوريا ولبنان—على سياسة ألمانيا العربية—قدر اعتماده على العلاقات الفرنسية—الألمانية. ولكن الموقف لم يتطور في صالح الريخ بعد الأخذ ببروتوكولات باريس.

ويجب أن نتذكر أن ألمانيا عرضت في البداية أن تخفف النصوص العسكرية في اتفاقية الهدنة في مقابل التنازلات التي قدمتها فيشي . وقد أشار الفرنسيون بصدق إلى أن هذه التنازلات كانت في مصلحة ألمانيا وحدها ، لأن التعاون العسكري بين فرنسا وألمانيا كان لا يمكن أن يؤدي إلى سوء علاقات فيشي ببريطانيا . حقيقة أن بروتوكول معاهدة دارلان - آبنر ، الموقع في باريس قد أشار إلى الحاجة إلى تقديم تنازلات سياسية كبيرة ، ولكن لم يتم شيء من ذلك أثناء نشوب القتال في العراق . وكان ثمة ما يقطع بأن هتلر وأقرب معاونيه لم يكونوا على استعداد لتقديم تنازلات جوهرية لفرنسا .

وعارضت مجموعة ذات نفوذ كبير في حكومة فيشي التعاون العسكري مع ألمانيا على مدى واسع . وقد جرت جلسة مغلقة لمجلس وزراء فيشي في ٣ يونية اشترك فيها الجنرال فيجان الذي كان يحكم الجزائر ويتمتع باستقلال كبير . وفي اليوم التالي وصل (بواسون Boisson دكار) أحد الحكام الفرنسيين في إفريقيا . وقدم دارلان تقريراً عن بروتوكولات باريس ، واحتدمت المناقشة إلى حد كبير جداً^(١) وهدد فيجان بالاستقالة . وفي النهاية تقرر في ٦ يونية أن يطالب الألمان بتقديم ضمانات كتابية لتقديم تنازلات سياسية . ثم أرسلت المذكورة إلى حكومة الريخ متضمنة المطالب الآتية : (١) إعادة سيادة الدولة الفرنسية على كل البلاد على ألا يتضمن خط التقسيم سوى حدود تجمع القوات الألمانية على الأراضي الفرنسية ، (٢) تخصيص وضع خاص للألزاس واللورين إلى أن يتم عقد معاهدة صلح ، (٣) الإفراج بالتدريج عن أسرى الحرب ، (٤) تخفيض نفقات الاحتلال ، (٥) تصريح علني عن المطالب الألمانية في الأراضي السورية وفي شمالي إفريقيا وغربها ، (٦) إلغاء بلحان الإشراف في إفريقيا أو إضعاف اختصاصاتها . وفي ١١ مايو لمح هتلر لدارلان بأن أي تنازلات تقدم لفرنسا يجب

(١) اعترف دنتز أثناء محاكمته التي جرت في ليون في عام ١٩٤٥ بأن دارلان أخبره في أول يونية ١٩٤١ بأنه لم يكن يتوقع أي مزيد من التعاون بين فيشي وألمانيا ضد إنجلترا ، إلى جانب الخطوط التي كانت تتخذ بصدد الوضع القائم في العراق .

ألا تضعف وضع ألمانيا تحت أى ظرف من الظروف . وكان تسهيل المواصلات على خط التقسيم وإطلاق سراح أسرى الحرب الفرنسيين يعتبران من هذا القبيل . وكان يمكن التنبؤ بأن مصير هذه المطالب هو الرفض . وفى الواقع لقد طال أمد المفاوضات طيلة شهر يونية والنصف الأول من يولية^(١) خلال القتال الذى نشب فى سوريا ولبنان — إذ أن القوات الإمبراطورية البريطانية وقوات فرنسا الحرة قامت فى ٨ يونية بعبور حدود المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسى .

وفى ظل هذا الموقف أوقفت فيشى تطبيق بنود بروتوكولات باريس الخاصة بأمالك فرنسا فى إفريقيا . حقيقة أن البروتوكولات لم يتم إلغاؤها ، لأن الاتفاقية الخاصة بمساعدة العراق عن طريق سوريا لم تكن بمثابة أمر واقع . كما أن حكومة فيشى لم تكن ترغب فى اطراح احتمال التعاون فى المستقبل مع ألمانيا فى شمالى إفريقيا وغربها . إلا أن ألمانيا لم تعد فى وضع يسمح لها بالقيام بمزيد من المبادرة فى سوريا بسبب الجمود الذى طرأ على العلاقات الفرنسية — الألمانية .

ولم يشعر النازيون بضرورة كسر هذا الجمود . ولما كانت تحركهم مفاهيم شوفينية وعرقية (جنسية) ، فقد بدا من سلوكهم أنهم يثقون فى فيشى ، وأنهم يمتثلونها . وبالإضافة إلى هذا فإن التحالف مع إيطاليا — التى كان من المعروف أن لها ادعاءات بعيدة المدى إزاء فرنسا — كان عقبة كأداء فى طريق اتفاق ألمانيا مع فرنسا . هذا إلى أن النازيين لم يعتقدوا أن النزاع بين فرنسا وإنجلترا ، وهو النزاع الذى كان بالذات هدف تعاون ألمانيا مع فرنسا ، سيحدث على الإطلاق . وكان الهناريون يعتقدون أن الهجوم على الاتحاد السوفيتى سيجعل كل مشاكلهم دون أى حاجة إلى تنازلات أو حلول وسطى . وفى الواقع أن الألمان كانوا يرغبون فى الانسحاب من سوريا بعد سقوط رشيد على حتى لا يعطوا إنجلترا حجة لاحتلال تلك البلاد . هذه هى الأسس العامة للسياسة الألمانية فى أواخر ربيع وأوائل صيف عام ١٩٤١ . وبرغم ذلك بقيت مشكلة سوريا ، لأن كل حركة تقريباً من جانب الفرنسيين يشتم منها إبقاء سوريا كانت تتطلب مساعدة الألمان

(١) انتهت هذه السلسلة من المحادثات الفرنسية — الألمانية بالمذكرة الفرنسية المؤرخة ١٤ يولية ١٩٤١ . وتجددت المحادثات فى أكتوبر ١٩٤١ .

أو موافقتهم . وكان من الصعب التنبؤ بنتائج هذا التعاون الفرنسي - الألماني ، إذ كان يكمن في كل المواقف السياسية أو العسكرية القلقة احتمال التطور البرجماسي الذي لا ينطبق دائماً على الأهداف المرسومة .

وقد جعل الفشل في العراق برلين شديدة الحرص بصدد أى نشاط في سوريا . وأصدر كايتهل أمره بالحيلة المطلقة ، طالما أن المسائل لم توضح مع فيشي ، على حين أمر ريبنتروب الطائرات الألمانية في سوريا بالامتناع عن مهاجمة القوات البريطانية ، وارتدى الضباط الألمان الملابس المدنية في شوارع بيروت . وفي أوائل يونية على الأقل اعتقد بعض الساسة والعسكريين الألمان أن البريطانيين سيمنعون عن استعمال القوات المسلحة وسيحتلون سوريا باجتذاب القوات الفرنسية المعسكرة هناك إلى جانب ديجول . وكان هذا الاستنتاج يستند إلى أن أغلبية الحاميات السورية كانت في عام ١٩٤٠ - بعد سقوط فرنسا - تحبذ مواصلة الحرب ضد ألمانيا . والذي أبرز وجهة النظر هذه اعتقاد الحكومة الفرنسية والمخابرات الألمانية أن القوات السورية لايعتمد عليها وذلك بسبب ميولها الدييخوية الواضحة . وقد شاركت دوائر بريطانية هامة في هذا الفهم للموقف في سوريا ، ورغم أن كثيراً من القادة السياسيين والعسكريين لم يوافقوا على ذلك . وكان لهذا الرأي الأخير بعض التسويغ ، ولكن فقدت كل الخلافات في معسكر الحلفاء بصدد موقف القوات الفرنسية في سوريا مغزاها ، وذلك بسبب الخوف العام الذي ساد سوريا ولبنان من السيطرة الألمانية .

وكان هذا صحيحاً بوجه خاص بعد احتلال كريت مباشرة ، لأن البريطانيين لم يتبينوا أن الألمان لم يعد باستطاعتهم القيام بعمليات جوية كبيرة بسبب جسامه خسائره في كريت . حقيقة أن القادة البريطانيين توقعوا أن يستهلك النازيون قواهم في الاتحاد السوفيتي ، إلا أنهم لم يكونوا متأكدين من ذلك تماماً . واشتد الخوف من السيطرة الألمانية في سوريا ولبنان ، وذلك بسبب المعلومات التي أدلى بها فان إنجرت Van Engert قنصل الولايات المتحدة العام في بيروت . وكان هذا القلق هو السبب الرئيسي لعملية إكسبورتر التي قام بها البريطانيون وقوات فرنسا الحرة في ٨ يونية .

مشكلة المساعدة الألمانية

حين اجتازت القوات البريطانية والديجولية الحدود السورية سحبت هيئة اتصال فون مانتوفل - وقد تم هذا بناء على رغبة دنتر ودارلان - ولكن لم يصدر اعتراض من وزارة الخارجية الألمانية والقيادة العسكرية وهتار نفسه . وفي نفس اليوم رتب ران وممثل وزارة الدفاع الألمانية رحيل الرعايا الألمان من سوريا ولبنان . ولم يعتقد القادة النازيون - بما فيهم هتار - أن بإمكان الفرنسيين الاحتفاظ بسوريا ، ولو لفترة قصيرة . وكانت وزارة الخارجية الألمانية والدوائر العسكرية في برلين ترى أن ألمانيا لن تستطيع تقديم مساعدة عسكرية كبيرة ، على حين كان من شأن المساعدة على مدى قليل أن تنقل كاهل فرنسا سياسياً ، وألا تكون لها سوى ميزة قليلة في الحرب ضد إنجلترا . كما كان يخشى أن يكون أثر المساعدة الألمانية سلبياً بالنسبة إلى روح القوات الفرنسية المعنوية - وقد انزعج الفرنسيون من احتمال أن يؤدي النشاط الألماني إلى هجوم بريطانيا على مراكش وأمالك فرنسا الأخرى في شمال إفريقيا . وحين كان القتال ناشئاً تلقى ران تعليمات من القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية بالامتناع عن تقديم مقترحات للضباط أو الموظفين الفرنسيين حول مجرى الحرب . ومن الواضح أن الألمان لم يريدوا أن يراجوا بأنفسهم في صراع بين بنان وبريطانيا ، وكانوا يرغبون في أن يؤكدوا أنهم لن يتحملوا مسئوليته .

ومما لاشك فيه أن النازيين كانوا يهتدون بأن تقاوم قوات فيشي لأطول فترة ممكنة ، برغم أنهم لم يعودوا يعدون الحرب في سوريا جزءاً من خططهم الخاصة بالنزول والهجوم المركز على مراكز بريطانيا في الشرق الأوسط . وقد صرح ناطق باسم وزارة الخارجية الألمانية قبيل الغزو بأنها مسألة لا تخص إلا إنجلترا وفرنسا . ولكن كان يبدو من ملحوظاته أيضاً أن برلين كانت تتوقع من فيشي أن تدافع عن إمبراطوريتها . وخلال القتال باشر الألمان ضغطاً مستمراً على حكومة فيشي لكي توفر دفاعاً فعالاً . كان الحكام الفرنسيون في سوريا يتحرقون لأن يبدووا للمحور اهتمامهم الشديد بالحرب ضد بريطانيا والقوات الديجولية - إذ من الواضح أنهم كانوا يخشون أن يؤدي استسلامهم في سوريا إلى ازدياد شك ألمانيا

وإعطاء النازيين حجة للقيام بمزيد من القمع في فرنسا نفسها . وفي محادثات جرت بين ممثلي ألمانيا وبين فيشي أكدت فيشي أن جيش سوريا ولبنان على استعداد للتضحية بنفسه في نضال ضد الهجمات الإنجليزية^(١)، وذلك برغم احتمال أن يكون ذلك جهداً يائساً، لأنها بإبداء الولاء بهذا الشكل لألمانيا تستطيع أن تحسن وضع فرنسا نفسها وبقيّة إمبراطوريّتها الاستعمارية طوال مدة معاهدة الهدنة وفي معاهدة الصلح . وبمعنى آخر كانت فيشي مصممة على مقاومة الغزو البريطاني لسوريا ، وكانت تعمل أن يكافئها الألمان على ذلك .

وفي الوقت نفسه كانت توجد أسباب داخلية لها وزنها أقنعت حكومة فيشي بالمقاومة . فقد كانت سياسة بتان برمتها تقوم على مبدأ الدفاع عن الإمبراطورية . وكان مجرى القتال في سوريا يدل على رغبة القوات الفرنسية في المقاومة وهي الرغبة التي ربما قواها الديجوليون الذين كانوا يعملون إلى جانب بريطانيا — فقد كانت فيشي ترى أن الاحتلال البريطاني لأراض فرنسية من شأنه أن يدعم قوة الحركة الديجولية وهو ما كانت فيشي شديدة الرغبة في تجنبه بوجه خاص .

وعلى أي حال فقد تجددت المحادثات الفرنسية — الألمانية حين بدأ القتال في سوريا . وعين الأميرال دارلان الرير — أميرال مارزان Marzin القائد السابق للسفينة الحربية ريشيليو — ممثلاً خاصاً له في المباحثات المتعلقة بغزو بريطانيا لسوريا ولبنان . وقد أجريت المحادثات في باريس ، لأن الألمان كانوا لا يثقون في الجنرال دويان Doyen والكولونل لوربير Lorbeer^(١) ، ممثلي فرنسا في لجنة الهدنة في فيسبادن . وقد توجه إلى باريس هذا الغرض كل من الجنرال فوجل ، الذي سبقت الإشارة إليه ، والكولونيل بوهم Bohm والميجريير كنر Burkner . وفي الوقت الذي بدأت فيه المباحثات حول بروتوكولات باريس ، أوقف الألمان رفض التصريح بتعزيز القوات الفرنسية المراقبة في سوريا .

وفي مباحثات باريس تقدم الفرنسيون بالمطالب الآتية : تعويض الخسائر في الرجال والعتاد الحربي ، مما يترتب على القتال ، توفير الإمدادات اللازمة

(١) وفقاً لقرار حكومة فيشي الصادر في أوائل يولية (ربما في الثالث من ذلك الشهر) استقال الجنرال دويان في ١٨ يولية بصفته رئيساً للوفد الفرنسي في لجنة الهدنة الألمانية .

للقوات الجوية في سوريا ، إصدار أمر بأن تعود إلى العمل مدمرة أخرى من المدمرات الموجودة في طولون ، توفير الذخيرة للسلاح البحري الفرنسي ، استعمال طائرات النقل لتوفير الإمدادات الضرورية جداً من الرجال والذخيرة . كما طالبوا بمساعدة مباشرة : هجوم السلاح الجوي الألماني على حيفا في فلسطين وعلى السفن الحربية البريطانية العاملة قريباً من سواحل سوريا ولبنان أو التي كان عليها أن تعمل في هذا الاتجاه . وطالبت السلطات الفرنسية في سوريا الألمان بضرب تجمعات القوات في شمالي فلسطين وقاعدة الإسكندرية البحرية ومخازن الذخيرة - إذ أن السفن الحربية البريطانية العاملة في سواحل سوريا ولبنان قدمت مساعدات كبيرة للقوات البرية وتسببت في إلحاق خسائر جسيمة بالقوات الفرنسية .

وقد وافق الألمان باختيارهم على المطالب الفرنسية مالم تمس مخازنهم الخاصة أو المواد الحربية التي استولوا عليها ، وتعهدوا بضرب ميناء حيفا والسفن البريطانية ، وبعد ذلك وافق جورنجن على توفير غطاء جوي للسفن الفرنسية أثناء توجيهها إلى سوريا .

وهكذا كان على القوات الجوية الألمانية أن تقوم بدور مساعد معين في القتال في سوريا ، ولكنهما فضلت عدم قصر نشاطها على البحر والشاطئ . ويبدو أن الألمان كانوا يتوقعون في البداية أن يتقدم الفرنسيون بهذا الطلب^(١) ، وحين لم يتقدموا به ، ولم تطالب فيشي بمزيد من الطائرات^(٢) ، اقترح الألمان أنفسهم أن يتدخل السلاح الجوي الألماني وأن يطالب بمطارات تنزل فيها الطائرات الألمانية في سوريا ولبنان . وقد قدم موعد هذا الاقتراح بحيث لا يتعدى ١١ يونيو ، ثم تكرر بعد أيام قليلة .

وبما له مغزاه أن الألمان قد تقدموا بهذا الاقتراح قبل عشرة أيام من هجومهم على الاتحاد السوفيتي ، حين كان هتلر لا يعمل على مقاومة الفرنسيين في سوريا

(١) ذكر الجنرال يودل لريتر خلال محادثتهما الخاصة بحسب القوات الألمانية من سوريا : « ظالماً أن الفرنسيين لا يأتون بعد أسبوع ويطلبون منا أن نشارك قواتنا من جديد » - مذكرات ريتير - سالزبورج ، ٨ يونيو ١٩٤١ .
(٢) برغم التوقعات وفق ما ذكره فون جروت في مذكراته (برلين ، ١١ يونيو ١٩٤١) .

لأية فترة . ولا نستبعد أن مرجع الاقتراح هو تأثير إيطاليا . وفي ٩ يونية وضع الجنرال جورجيس - وهو من رجال لجنة الإشراف الإيطالية في بيروت - خطة خاصة بتدخل الطائرات الألمانية والإيطالية التي قدمتها روما لبرلين . ومن المحتمل أيضاً أن العرض الألماني كان يعكس وجهات نظر جورنج ورايدر Räder . وكان هذان الزعميان النازيان يريان أن فرصة النصر متاحة في البحر المتوسط ، ولم يكونا متأكدين من نجاح الهجوم على الاتحاد السوفيتي . وربما كان الألمان حين تقدموا بعرضهم يرغبون في إقناع القادة الفرنسيين بأن يقاوموا إنجليترا مقاومة فعالة . وكان من رأى عملاء ألمانيا في سوريا أن طول أمد المقاومة الفرنسية من شأنه أن يمكن ويفل من تدبير هجوم ضد روميل في الصحراء الغربية . وبرغم ذلك فقد نفذت هذه العملية التي أطلق عليها اسم عملية « باتلاكس » ، ثم انهارت في أواسط يونية . واستبعد احتمال شن هجوم على القوات المحورية في شمال إفريقيا خلال وقت قصير .

وما لا شك فيه أن فيشي ومثليها في سوريا كانوا يرغبون في تقديم المساعدة، ولكنهم كانوا يخشون أن يصبحوا موضع شك فيما لو عرف أنهم وافقوا على التدخل الألماني . وكان من المحتمل أن يكون لتسرب هذا الخبر أثر سلبي على الجنود والضباط الألمان وعلى فرص الاتفاق مع بريطانيا حول سوريا ولبنان . كما كانت فيشي تخشى إغضاب حكومة الولايات المتحدة التي صرحت علناً بأنها تعتبر محاربة البريطانيين في سوريا خدمة لهتلر . وكانت حكومة بتان شديدة الاهتمام بأثر ذلك على الولايات المتحدة التي أرسلت إلى فرنسا وأملاكها الإفريقية الطعام وسلعاً أخرى لاغنى عنها .

لهذا رفض دارلان عرض ألمانيا الذي قدم عدة مرات ، وفاخر بذلك أمام الأميرال ليهي سفير الولايات المتحدة . وفي ١٤ يونية قدم الجنرال جيفريه De Geffrier إلى الألمان من جديد رد فيشي السلبي على مسألة تخصيص مطار خاص في سوريا للسلاح الجوي الألماني . وحين سأل رئيس هيئة سلاح الطيران الألماني في لجنة الهدنة الألمانية الجنرال دويان عما إذا كان الفرنسيون على الأثر سيخصصون طياراً معيناً للطائرات الألمانية التي ترغب على النزول الاضطراري في

سوريا ، أجاب (في مذكرة بتاريخ ١٥ يونية) بأن « الحكومة الفرنسية تأمل أن يقصر السلاح الجوي الألماني تدخله على أعمال لا تتضمن المجازفة بالنزول في سوريا ، وذلك لقلّة الوقود » . وأضافت المذكرة أن بإمكان الطائرات التي لنقّ بها التدمير وتلك التي تعترضها حوادث أن تنزل وتحصل على المساعدة ، وأن اتفاقاً خاصاً ليس ضرورياً بالنسبة إلى ذلك . وبزعم ذلك ترك دارلان لنفسه منفذاً للتراجع إذا مادعت الحاجة . ذلك أن بنان فيشي الذي قبلت فيه مساعدة ألمانيا الجوية ورفضت تخصيص مطار ، احتوى على فقرة مضمونها أنه سيسمح بالتدخل المباشر من جانب السلاح الجوي الألماني في منطقة القتال حين يطلب دنتز ذلك ، ووفقاً للمذكرة ١٤ يونية كان على وزير الطيران في حكومة فيشي — الجنرال برجرية Bergeret — أن يتوجه إلى سوريا لبحث الموقف هناك . وكان من الممكن أن يفهم الألمان هذا على أنه يعنى أن الفرنسيين قد يعدلون موقفهم . وقد تردد الجنرال دنتز نفسه بسبب الموقف في الجبهة وكان الأميرال جوتون Gouton شديد الاستعداد للتعاون مع الألمان ، وبإشراف الضغط على دنتز لكي يسير في هذا الاتجاه .

وفي ١٧ يونية وصل برجرية إلى سوريا ، وفي الحال صرح بأن فيشي تأمل أن تنقلب على إنجلترا بقواتها الخاصة . وكان من رأيه أن إرسال تعزيزات إلى القوات السورية أمر حاسم بالنسبة إلى نجاح المقاومة الفرنسية . وكان ذلك يطابق التعليمات التي تلقاها من بنان الذي أخبره هو والجنرال هونتزيجر Huntziger أنه يعارض التعاون العسكري مع ألمانياً — أيا كان الثمن . ولكن موقف فيشي لم يحدد بهذا الشكل بصورة قاطعة خلال المحادثات التي جرت مع الألمان^(١) ، وبخاصة مع آبنز ، ربما لأن دارلان ومعاونيه لم يكونوا يرغبون في أن يؤثر ذلك تأثيراً سيئاً على مسألة المساعدة العسكرية الألمانية في المستقبل .

وحين تدهور وضع فيشي العسكري في سوريا بحلول نهاية يونية ، طالبت

(١) وهكذا صرح آبنز بأن نتائج محادثاته مع حكومة فيشي كانت كالآتي : «تطالب الحكومة الفرنسية بأن يتخذ السلاح الجوي الألماني كل الاستعدادات للقيام بمثل هذا العمل في سوريا . ولكن الحكومة الفرنسية لاعتبارات خاصة بالدعاية لا ترغب في اللجوء إلى هذا الاحتمال إلا في حالة الضرورة القصوى» (رسالة آبنز - باريس في ١٦ يونية ١٩٤١) .

بتدخل السلاح الجوي الألماني ، برغم أن رجال فيشي كانوا لا يزالون غير مبالين إلى السماح للطيران الألماني بحرية الحركة في المطارات السورية . وفي ظل هذه الظروف رفض السلاح الجوي الألماني أن يعجل ضد القوات الجوية البريطانية في سوريا وفلسطين وشرق الأردن . ولم يستبعد حتى الآن أن الطلاب الفرنسي ، الذي قدم هذه المرة خلال المرحلة الأخيرة من الحرب في سوريا ، لم يكن له سوى أهمية تكتيكية . فنذ يوم ٢٢ يونية ١٩٤١ - أي منذ بدء القتال على الجبهة السوفيتية - لم يعد الفرنسيون يعتمدون على مساعدة ألمانيا . وحتى ذلك الوقت لم تتدخل السلطات الفرنسية في فيشي وبيروت نهائياً عن احتمال الإفادة من المساعدة الألمانية الجوية على نطاق واسع وبخاصة طائرات ستوكا العاملة في الجبهة .

وقد سبق أن أوضحنا أن فيشي اتخذت موقفاً سلبياً في جوهره من اشتراك السلاح الجوي الألماني اشتراكاً مباشراً ، لأنها كانت تخشى رد الفعل لدى القوات الفرنسية في سوريا والولايات المتحدة الأمريكية . وكان التدخل الألماني وتسليم سوريا للنازيين من الخطوط الدعائية الرئيسية التي كان يلجأ إليها الديجوليون والبريطانيون . وكانت فيشي تخشى أثر هذه الدعاية على القوات الفرنسية التي حاربت بعنف في ظل ظروف غير مواتية بمحض شجاعتها في القتال وحسن قيادتها^(١) . وربما كانت فيشي أكثر فهماً للحقيقة الخاصة بأن اشتراك القوات الألمانية قد يدفع البريطانيين إلى مهاجمة أملاك فرنسا في غربي إفريقيا ومراكش . ولهذا السبب امتنعت فرنسا عن أخذ ثأرها بمهاجمة القواعد البريطانية في جبل طارق وفريتون وبانرست .

وقد أدت المفاوضات وحدها إلى اتفاق هاليفاكس - شيفالبيه في ديسمبر ١٩٤٠^(٢) ، مما أقنع زعماء فيشي دون موارد بأن بريطانيا ستستخدم كل حجة وكل الإمكانيات لتوسيع الأراضي التي يسيطر عليها الديجوليون . ولا يمكننا أن

(١) ينهب الجنرال كاترو في كتابه Dans la bataille de la Méditerranée, pp. 142-3. إلى أن دنتز لم يستطع استغلال عدد من الاحتمالات خلال القتال ، ولكننا على الأقل نجد أن ثمة شكاً فيما إذا كان بإمكانه - بقدراته المحدودة - أن ينفذ كل العمليات التي أشار إليها كاترو .
(٢) وطبقاً لهذا الاتفاق لم تتعرض البحرية البريطانية لنقل المؤن بجرأ إلى فرنسا غير المحتلة وإلى أملاك فرنسا في شمال إفريقيا .

نتجاهل المنافسات التقليدية بين إنجلترا وفرنسا ، وهي المنافسات التي كان لها مثل هذا الأثر على تفكير بتان ودارلان ودنتز وآخرين . . .

وقد ذهب دارلان - وهو ما ذهب إليه فيما بعد المدافعون عن المتعاونين الفرنسيين - إلى أن الخوف من قيام ألمانيا بعمل ضد ممتلكات فرنسا الإفريقية هو الذي أدى إلى التعاون مع ألمانيا . ولكن يتضح لنا من الوثائق الألمانية أن موقف فيشي السلمي من التدخل الألماني المباشر في سوريا كان مرجعه الخوف من قيام بريطانيا بعمل عسكري انتقامي ضد الأملاك الفرنسية ، وعدم استعداد ألمانيا لتقديم تنازلات مناسبة في مقابل تعاون أقوى . وبعد سقوط نظام فيشي في سوريا ولبنان حملت نفس العوامل الدوائر الحاكمة في فرنسا غير المحتلة على الميل إلى اتخاذ موقف حذر فيما يتعلق بنسج نطاق التعاون مع الريح .

تركيا والحرب في سوريا

لم تقتصر علاقات فيشي بالحكام النازيين على مساعدة السلاح الجوي الألماني ، أو على « مسألة طائرات ستوكا » ، وهو الاصطلاح الذي يرد في المؤلفات الفرنسية . بل إنها طالبت الريح بأن يقدم لها المساعدة الدبلوماسية أيضاً .

وكان احتمال مقاومة فيشي مقاومة فعالة في سوريا بتوقف إلى حد كبير على تركيا . وكان ضمان الفرنسيين أنهم بمنجوة من أي مفاجئات من ناحية تركيا مما يمكنهم من تحويل قواتهم من شامى سوريا إلى الجنوب ، وبذلك يتسنى تعزيز القوات المشتبكة مع الغزاة البريطانيين والديجوليين . وقد سأل الجنرال دنتز السلطات الألمانية عدة مرات عن مسألة تركيا - فقد كان غير متأكد مما ستفعله الحكومة التركية في حالة حدوث ارتباطات على حدود فلسطين وشرق الأردن . وقد وصلته هو واران أنباء خاصة بأن الحكومة التركية كانت تحت البريطانيين على احتلال سوريا وقد أفضى دنتز إلى ران بشكوكه الخاصة بأطماع تركيا في حلب والجزيرة . وأكد الألمان لدنتز في البداية أن لا أساس للخوف من تركيا . ولكن قبيل نشوب القتال لم تعد وزارة الخارجية الألمانية على بينة من مقاصد أنقرة .

ومن المعروف الآن أن البريطانيين كانوا - في نهاية يونية - يرغبون رغبة حقيقية في دفع تركيا إلى احتلال المطارات الواقعة في شمالي سوريا ، وبخاصة في حلب ، ولكن الأتراك رفضوا ذلك في ٢ يونية . وفي محادثات جرت بين الملحق العسكري الألماني في أنقرة وبين رئيس الأركان التركي ، رفض الأخير بشكل قاطع فكرة إرسال القوات التركية إلى شمالي سوريا . ولكن ليس من المعروف أبدًا هذا الرد شكوك ألمانيا في نيات تركيا أم لم يبددها . ومن الواضح الآن أن الأتراك كانوا سيرحبون باحتلال شمالي سوريا ولكن ليس قبل الاتفاق مع كلا الطرفين المتحاربين . وكان معنى التساؤلات الألمانية فيما يتعلق بموقف تركيا في حالة نشوب القتال في سوريا - وكانت لدى الأتراك أسباب تدعوهم إلى الاعتقاد بأنه سينشب قريباً - أن برلين لم تكن ترغب في أن تقوم تركيا بأى إجراء ، وكان الأتراك يودون تجنب نشوب أزمة مع ألمانيا التي كانت قواتها على حدودهم .

وكانت مشاكل التعزيزات والإمدادات ذات أهمية ضخمة في حالة مواصلة جيش سوريا ولبنان النضال بمساعدة قليلة من جانب ألمانيا . وكان هذا ينطبق بوجه خاص على توفير وقود الطائرات الذي كان يستهلك منه ٢٠٠,٠٠٠ لتر يومياً في القتال .

وحتى قبل بدء القتال طلب الجنرال دنتر من حكومته أن توفر الإمدادات لطيرانه ، وكذلك أسلحة مضادة للطائرات وأسلحة مضادة للمدرعات . وقد احتل وضع تركيا دوراً كبيراً بهذا الصدد . فالتبرول الألماني كان مخزوناً في تركيا منذ أوائل يونية - وفي مايو وافقت الحكومة التركية على نقله ، ولم يسحب هذا الإذن بعد نشوب الحرب . وكان من المتوخى أن تعبر حمولة تسعة قطارات تحمل أسلحة مضادة للطائرات وأخرى مضادة للمدرعات ، قارة أوروبا إلى سالونيك وأن تنوجه من هناك بحراً وعبر تركيا إلى سوريا . وقد بدأت هذه الشحنات عبور خط التقسيم في فرنسا في ١١ يونية . ووصلت الدفعة الأولى إلى سالونيك في ١٧ يونية . ولكن لم تكن توجد اتفاقية مع تركيا حول نقل المواد الحربية والرجال الذين يستعملونها . وقد رفضت أنقرة طلب القائم الفرنسي بالأعمال الخاص بتمكين القطارات السبعة وهيئة تتكون من ٧٥٠ رجلاً من عبور تركيا . وكان من المتوخى شحن الإمدادات

الفرنسية بحراً — وبعد الهجوم على الاتحاد السوفييتي لم يكن باستطاعة الألمان توفير طائرات النقل — ولهذا كانوا معرضين للهجوم الجوى والبحرى من جانب البريطانيين . وكان ثمة تأخير أيضاً في نقل البترول المخزون في تركيا الذي كانت توجد اتفاقية رسمية بصدده^(١) . وقد طلب الفرنسيون من الألمان أن يتدخلوا لدى الحكومة التركية بشأن مسألتى البترول والإمدادات . وساندت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية الطلب ، وبوصول الجنرال برجرية أصبحت مسألة التعزيزات موضوعاً للتفاوض بين فرنسا وألمانيا . وفي ٢٠ يونية طلبت فيشى من لجنة الهدنة الألمانية أن تمكنها من أن تنقل ، عن طريق سالونيك ، ست كتائب مشاة وفصيلة واحدة من الخيالة وأخرى من المدفعية المصفحة ، وأن تتدخل لدى أنقرة لنقلها عبر الأراضي التركية . كما طالبوا بأن تزود بإمدادات ماركسة سوموا Somua اللازمة لجيش سوريا ولبنان . ورأت لجنة الهدنة أن الطلب ما يسوغه ولكنهم لم تستعجل إرسال الدبالات . حيثئذ اقترحت فيشى إرسال أربع كتائب من بلنزرز إلى سوريا عن طريق البحر ، وطلبت إذن ألمانيا بأن تحرسها سفن حربية فرنسية تقلع من طولون ، بحكم أنها كانت تتوقع صداماً في البحر المتوسط . وقدم الألمان من ناحيتهم مساعدة كبيرة في نقل القوات الفرنسية بحراً — وقد تعهدوا — وفقاً للبروتوكولات — بحراسة السفن الفرنسية من سالونيك إلى كاستلورزو القريبة من شاطئ الأناضول ، وكان على الأسطول الفرنسي أن يقوم بالعمل ابتداء من هذه النقطة . وقد سبق أن أوضحنا أنه قد ترتبت على محاولة إرسال الإمدادات إلى جيش سوريا ولبنان عن طريق البحر خسائر ضخمة ، ولكنه لم يبدأ على أى حال إلا حوالى نهاية الحرب في سوريا .

كما طلبت فيشى من برلين أن تقدم لها المساعدة الدبلوماسية في الحصول على إذن أنقرة بيطيران طائرات نقل فوق تركيا على طريق سالونيك — حلب ، إذا أمكن دون أن تعلن عن نفسها أو تبلغ عن مواقعها . وقدم طلب مماثل إلى إيطاليا . وكانت فيشى تود من الإيطاليين أن يساعدوا جهودها الخاصة بالحصول

(١) اتهم ران الأتراك بالتخريب بسبب هذا التأخير . وكان من رأى فون بابن أن النقل في ذلك الوقت كان يتطلب وقتاً طويلاً . واعتبر فون بابن الاتهام الخاص بالتخريب غير صحيح . ويرغم ذلك وصل البترول إلى سوريا بعد أن قام ران ببعض الخطوات الجذرية .

على طائرات نقل في تركيا وأن تحصل على مزيد من الوقود هناك . وكان رد لجنة الهدنة الألمانية سلبياً - ولقد سوغت موقفها باعتبارات عملية . على أننا لانتبعد أن يكون السبب الحقيقي للرفض هو المنافسة الصامتة بين ألمانيا وإيطاليا . وكانت أوامر هتلر الخاصة بمساعدة العراق والصادرة في ٢٣ مايو تعكس بوضوح الرغبة في وضع إيطاليا في موضع أدنى في الشرق الأوسط . كما أن عملاء الريخ أشاروا إلى وجود دعاية معادية لألمانيا في سوريا ولبنان تمولها إيطاليا وتم بالاتفاق مع لجنة الرقابة الإيطالية . وبسبب وفاة جيل هنرى - سفير فرنسا في أنقرة - عهدت المفاوضات الجارية مع تركيا إلى بنوامشان Benoist - Méchin الوزير في وكالة رئاسة مجلس الوزراء الذى قدم إلى أنقرة عن طريق أثينا وحلب في ٢٤ يونية يرافقه ديفير Dufeur ومدير مكتبه لومبارد . وكان بنوامشان يحمل رسالة شخصية من بتان إلى رئيس جمهورية تركيا عصمت إينونو . وكان الهدف من رحلته هو لإجراء محادثات سياسية عامة ، والحصول على اتفاق بشأن مرور البترول والإمدادات إلى جيش سوريا ولبنان ، والمطالبة بثمان جزء من الأسلحة التى باعها فرنسا لتركيا فى عام ١٩٣٩ لم يكن قد تم دفعه يعد . وبصورة أدق كان الفرنسيون يودون من الأتراك أن يعيدوا ٤٠ دبابة أخذوها من مخازن جيش بتان السورية^(١) ، وبعض الأسلحة المضادة للمدرعات . ونفذ بنوامشان التعليمات الصادرة إليه بخصوص العمل بالتعاون مع فون بابن الذى شجعه على أن يعد الأتراك بتنازلات فى شمالى سوريا فى مقابل الدبابات وغير ذلك مما كان الألمان قد قاموا بتسليمه . وبزعم أن تركيا كانت قد وقعت بالفعل معاهدة صداقة مع ألمانيا (فى ١٨ يونية) ، فإنها رفضت الخروج عن نطاق الحياد التام بصدد هذه المسألة - ولم تتم الاستجابة لأى من الطلبات التى تقدمت بها فرنسا باستثناء تسليم البترول ، وهو ما كازت تركيا قد وافقت عليه قبل ذلك بوقت طويل . وبارح بنوامشان تركيا فى ٢ يوليه . وكان من رأى فون بابن أن الانتصارات الألمانية فى الاتحاد السوفييتى من شأنها أن تؤدى إلى تعديل موقف تركيا فيما لو استطاع

(١) وصل ران إلى حلب على طائرة بنوامشان . وترد فى مذكرات ران ملحوظة بخط يد كرول بصدد طلب بنوامشان لثمان الدبابات : « اعتبره نعمان (منجى أوغلو) غير جاد بهذا السبب » .

دنتر الصمود لمدة أسبوعين آخرين ، أى طالما توفر الوقود لطائراته . ولكن هذا التوقع كان مصدره الغرور ، فلم تصل إلى سوريا سوى تعزيزات قليلة وصلت متأخرة : ثلث فصيلة من قوات المستعمرات و ٣٥٠ جندياً وضابطاً من وحدات مختلفة مضادة للطائرات وعشرة أطنان من الذخيرة .

النشاط الألماني لدى العرب

وبينما كان معظم نشاط ألمانيا في الحرب الدائرة في سوريا منصباً على علاقاتها مع فيشي وعلى الاتصالات الدبلوماسية مع تركيا ، فإن اتصالاتها بالعرب لم تنقطع .

ولقد أصبح للشئون العربية مغزى عملي معين من الناحيتين العسكرية والدعائية أثناء الحملة السورية . وكان الألمان قبل ذلك قد قصروا معظم علاقاتهم مع الدوائر الوطنية السورية على محاولة إشعال الثورة في فلسطين بمساعدة الأسلحة الواردة من سوريا — وبعد سقوط رشيد عالي في العراق فكروا في استعمال العرب في القيام بنشاط تخريبي في أنابيب البترول وتدمير محطات الضخ . وفي أثناء القتال الذي اشتركت فيه القوات الإنجليزية مع القوات الدييولية كان الألمان مهتمين باستمالة السكان المحليين وزج العرب في الحرب .

ولم يخف الزعماء العرب كرههم لفرنسا وعدم ثقتهم بإنجلترا وتفضيلهم لألمانيا ، حتى خلال محادثاتهم مع قنصل الولايات المتحدة العام . فهم لم يعتبروا الحرب في أوروبا كارثة ، إذ أنهم ينو آملهم على إضعاف الدول الغربية . ولقد ضعفت هيبة بريطانيا ضعفاً شديداً بسبب الهزائم التي حلت بها في جبهات القتال والأعمال التي قامت بها العراق . وفي الواقع أن فترة الحرب في العراق قد سادتها مظاهرات ضخمة معادية لبريطانيا . حقيقة أن بعض الشخصيات السورية ، واللبنانية بوجه خاص ، كانت لها وجهة نظر مخالفة ، إلا أنها كانت معزولة إلى حد ما في الدوائر الإسلامية .

ولكن التعاون بين ألمانيا والوطنيين السوريين لم يخل من الصعاب ، بحكم

أن مصالح فرنسا - بصفتها الدولة المنتدبة - كانت تتعارض مع آمال العرب. وكان زعيم الوطنيين السوريين شكرى القوتلى الذى عهد إليه المفتى بالاتصال الرئيسى بمندوبى وزارة الدفاع الألمانية فى سوريا ، يرغب فى أن ينظم تزويد فلسطين بالأسلحة بمساعدة ألمانيا وحدها ودون أى إشراف فرنسى . وكان الوطنيون يأملون بذلك أن يحصلوا على قدر من الأسلحة يمكنهم استعماله فى الوقت المناسب ضد الفرنسيين . وكان الفرنسيون بدورهم يودون أن يتجنبوا مثل هذا الاحتمال - ولما لم يكن ثمة مجال لشحن الأسلحة وراء ظهر فرنسا وبدون علمها وتعاونها ، فقد كان على الألمان فى البداية أن يتخلوا عن فكرة إرسال الأسلحة إلى فلسطين. وبعد نشوب القتال واصل الألمان جهودهم لشحن الأسلحة إلى فلسطين ، وكانوا يتوقعون أن تكون فيشى أكثر ميلا إلى مساندة هذه المهمة . ولكن ماحل ذلك الوقت حتى كان تهريب الأسلحة عبر خطوط الجبهة قد أصبح مهمة صعبة ، وعلى أى حال فقد كان مقصداً على الخطة بالإخفاق فى أحسن الاحتمالات . فلم يلبد كبير كان من قبيل أضغاث الأحلام توقع أن يؤدى إرسال كميات من الأسلحة إلى عرب فلسطين إلى إقناعهم بالقيام بالثورة فى الوقت الذى تمتلئ فيه البلاد بالقوات البريطانية .

وكانت برلين أكثر نجاحاً فى تخريب خطوط الأنابيب ومحطات الضخ ، ورغم أن إصلاح التخريب الذى كانت تقوم به العصابات العربية المسلحة لم يكن أمراً صعباً .

وأهم ما قام به الألمان بالنسبة إلى العرب فى سوريا هو تنظيم وحدات عربية مقاتلة ، وهو ما تم بموافقة السلطات الفرنسية . وقد تم الاتصال لهذا الغرض بقائد العصابات المشهور فوزى القاوقجى الذى كان قد اشترك فى الثورة العراقية . وبعد هزيمة رشيد على كان فوزى يخشى الهرب إلى سوريا حيث كان ينتظره حكم بالإعدام^(١). وفى الوقت الذى كان يريد فيه أن يسلم مع رجاله للبريطانيين

(١) كان فوزى القاوقجى يحمل رتبة كابتن فى القوات السرية المساعدة (الأجنبية) فى أوائل العشرينات . وقد ترك هذه القوات وانضم إلى ثورة الدروز (١٩٢٥ - ١٩٢٧) . انظر :

S.H. Longrigg: Syria and Lebanon under the French Mandate, London, 1958, pp. 165-8.

Playfair: op. cit., II, p. 204.

أخبره ضابط فرنسي - بطلب من ران - بإلغاء الحكم بالإعدام ، وأقام معه اتصالات دائمة . ومنذ ذلك الوقت عمل فوزى في شمال شرق سوريا إلى أن أصابه جرح خطير في ٢٤ يولية - وبعد ذلك حملته طائرة ألمانية إلى أئينا ، ثم تشتتت جماعته ، وفي أوائل يولية قرب انتهاء الحرب ، تمت إعادة تنظيم رجال فوزى الذين كانوا يعملون في حلب في عصابة سرقة تحت قيادة عارف عبد الرزاق (رفاق قائد العصابات في السلاح أثناء الثورة الفلسطينية) وسبعة ألمان من رجال الفرقة الأجنبية . وفي ٦ يولية أعلن ران انضمام أعضاء العصابة الذين أدلوا بقسم الانضمام تحت الراية العربية في وسط حماس ضخمة من جانب الجماهير . وكان هناك متطوعون كثيرون للجماعة التي حاربت في منطقة حلب . وهكذا ظهر ممثل ألماني ظهوراً قوياً في مثل هذه المظاهرات المناصرة للعرب باعتباره قائماً بجمع وحدات محاربة تحت الراية العربية في الأسبوع الأخير فقط من المقاومة الفرنسية في سوريا . وليس من المعروف أكان ران قد قام بذلك بموافقة برلين . وقد ذكرت التقارير البريطانية أن البريطانيين كانت تدهقهم العصابات العربية على طول خطوط مواصلات الصحراء .

حقيقة أن ممثلي ألمانيا كانوا يريدون من القادة العرب وأتباعهم أن يتعاونوا مع الفرنسيين . ولكن لم يكن مقبضاً لهذا الهدف أن يلتقي تجاوباً واسع النطاق . ولم يكن ران من ناحيته يعطف على الحركة القومية العربية قبل قدومه إلى سوريا ، وتدعمت وجهات نظره حين رأى إلى أى حد كان العرب لا يريدون مساندة جهود فرنسا الحربية . وفي الواقع أن كثيراً من الزعماء العرب ، بما فيهم مفتي القدس ، كانوا يرحبون بطرد الفرنسيين من سوريا .

وقد كتب ران تقريراً إلى رينتروب ذكر فيه بوضوح أنه لا توجد حركة وطنية في سوريا . وذهب إلى أن « العناصر التي لها أكبر قيمة من الناحية الجنسية » - أي البدو - لم يكن لديهم شعور وطني ، على حين يشكل الآخرون خليطاً من الجنسيات والقوميات بأنفسهم من يؤمنون بمبادئ الاشتراكية الوطنية . وأشار إلى عدم وجود أى ارتباطات بين أهم الدوائر ، وذهب إلى أنه لم يجد في سوريا أى عناصر مستعدة للقتال ، وأكد أنهم لا يلد أن يشتبوا خيانتهم في ساعات الخطر

— فيهربون أو ينضمون إلى إنجلترا . وشكا من أنه لم تبق سوى « مجموعتين من المجرمين المحترفين والمهربين واللصوص الذين كان يلجأ إليهم الثوار الحقيقيون من أمثال فوزى القاوقجي الذى هو نصف مغامر ونصف بطل قومى » . وكتب ران أنه لا يستطيع أن يتعاون إلا مع أمثال هؤلاء الناس . « وبعد محاولات عديدة وصعبة كان على أن أتخلى عن التعاون مع المنظمات الوطنية القديمة » . وأهم وسيلة اتبعها ران مع زعماء هذه المنظمات ومشايخ البدو هى اللجوء إلى التهديدات — فقد هدد كل من يعارض السلطات أو يساعد إنجلترا بإزالة العقاب الشديد به فى المستقبل .

وقد ذهب ران فى تقريره إلى أن أعظم ما قام به هو أن الناس ظلوا هادئين ومنظمين ، بمعنى أنهم لم يثوروا ضد السلطات والقوات الفرنسية . ولكن هذا لم يكن مرجعه ران — إذ أن العرب كانوا لا يبعدون أن يكونوا مترددين فى الالتزام بشئ فى مثل هذا الموقف الغامض . فهم كانوا يكرهون الفرنسيين فى الوقت الذى تساورهم فيه الشكوك فى إنجلترا ووعود ديجول — وكانوا يخشون ، فوق كل ذلك ، ما قد تلحقه بهم الحرب من دمار^(١) . فقد كان ثمة أمل كبير إلى حد ما فى أن يؤدى انتصار المحور إلى تحسين الموقف ، ولكن هذا كان يوازنه الوعد الذى بذلته إنجلترا بربط سوريا ولبنان بمنطقة الإستراتيجية ، الأمر الذى كان من شأنه أن يجتهد حلاً فورياً لمشكلة الطعام والأحوال الاقتصادية بوجه عام .

ولم تبد الدوائر الوطنية رضاها عن نشاط ران . فقد حذر عادل أرسلان — أحد الزعماء الوطنيين فى سوريا ولبنان — فى رسالة بعث بها إلى فون بابن من وجهات النظر الزائفة التى كان يروجها ممثلو الريخ فى سوريا تحت تأثير الفرنسيين . وكان بوجه خاص ينتقد ران الذى لم يعد أمره فى مثل هذه الحالة أن يكون منفذاً للمصالح الألمانية . وبطبيعة الحال كان ران مهتماً بالتعاون مع السلطات الفرنسية ، لأنه كان يعدها أكبر قوة تتصدى لأعداء الريخ .

ولم يكن الأمر يتعلق بإقامة حكومات وطنية فى سوريا أو فى لبنان ، لأن

(١) أدى الخوف من التخريب الذى تسبب فيه الحرب إلى مطالبة بعض فئات من الطبقات المالكة العربية بإعلان بيروت مدينة مفتوحة ، وبأن تجرى المفاوضات بسرعة بشأن الهدنة . وقد تم التعبير عن وجهات النظر هذه فى لبنان بصورة أوضح منها فى أى بلد عربى آخر .

هذا كان لا بد أن يتعارض مع السياسة الألمانية وأن يكون له أثر سيئ جداً على مجرى الحرب في سوريا . بل إن الوعد بالاستقلال كان مستحيلاً ، لأن التعليقات رقم ٣٠ - التي حددت الخط العام للدعاية الألمانية في البلدان العربية - أوضحت ضرورة عدم مهاجمة الحكم الفرنسي في سوريا ولبنان . وفي ضوء السياسة الألمانية العامة لم يكن بإمكان ران إلا أن يؤكد للعرب عطف المحور على نضالهم في سبيل الحرية . وحين جمع ران متطوعين ليشتركوا مع فيشي في محاربة البريطانيين ، أكد للعرب أن ألمانيا ستكافئ الفرنسيين على دفاعهم عن سوريا ، ولكن ليس على حساب العرب . وأضاف أن المناضلين النشطين هم وحدهم الذين سيكون لهم صوت في إقامة النظام الجديد في المشرق العربي ؛ ولم يكن ران في وضع يمكنه من بذل وعود محددة حول مستقبل سوريا ولبنان .

وفي ذلك الوقت أعلن الجنرال كاترو - بإسم الفرنسيين الأحرار - استقلال سوريا ولبنان ، وضمنت الحكومة البريطانية تنفيذ ذلك . وتلا ذلك تصريح أنطوني إيدن الخاص بمساندة لندن لآمال سوريا في الاستقلال ، وعطفها الشديد ، بالإضافة إلى ذلك ، على اتجاه الوحدة العربية . حقيقة إن هذا التصريح تضمن كثيراً من التعبيرات التفاضية والتحفظات بحيث أن العرب لم يثقوا كثيراً فيه ، إلا أنهم لم يحصلوا في ذلك الوقت على شيء على الإطلاق من ألمانيا . وبقى الحقيقة الخاصة بأن حكومات وطنية قامت في سوريا ولبنان في خريف عام ١٩٤١ ، وأنها اضطلعت بعد سنتين بالسلطات الحقيقية - وكان من وراء ذلك ضغط إنجلترا . وأهم من هذا أن العرب كانوا يتوقعون أن تحتل القوات البريطانية البلاد . ومن المشكوك فيه أميناً شأن الوعود الألمانية أن تعي العرب للقتال ؟ وحتى لو تم ذلك فإن أثره على الروح المعنوية الفرنسية لا بد أن يكون سلبياً . ولهذا لم تقطع مثل هذه الوعود . ومن الأسلم أن نعتقد أن الحكومة الألمانية كان لا بد أن تعد فيشي بالمحافظة على الأحوال القائمة لو شعرت بأنها مدفوعة إلى اتخاذ موقف عام بصدد سوريا - ولو تم ذلك لاصطدم بآمال العرب .

وقد اتضح بالفعل خلال مفاوضات مايو ١٩٤١ أن ألمانيا لم تكن تنوى - على الأقل في ذلك الوقت - أن تمس حق فرنسا في سوريا ولبنان . وكان مرجع

هذا القرار موقف ألمانيا الأساسي الذي كان يقضى بالخيولة دون أن تصبح الأملاك الفرنسية مجالاً للمساومة ما دامت الحرب مستمرة . وقد أثارت فيشى السؤال التالي خلال المفاوضات بصدد المساعدة الألمانية لجيش المشرق : « في حالة طلب فرنسا للمساعدة . . . هل بإمكان الرد الألماني أن يتضمن تصريحاً عرضة للنشر بصدد عدم مساس الريخ بحق فرنسا في سوريا ، بعكس إنجلترا ؟ » . ويجب أن نذكر أن الأمر لم يصل إلى مثل هذا الطلب الرسمي للتدخل الألماني المسلح - ولكن رأى برلين الخاص بالرد على هذا السؤال يكشف لنا أشياء كثيرة . وقد أعلن وكيل الوزارة - فورمان - ومدير القسم السياسي بوزارة الخارجية الألمانية أن السياسة الألمانية لا تتطلب تصريحاً يفسر على أن يبقى عرب سوريا تحت الحكم الفرنسي لأجل غير مسمى . ولكنه اقترح تصريحاً بهذا المعنى يجرى فيه : « يعترف الريخ الألماني ، كما تعترف فرنسا ، بحق شعب سوريا في الاستقلال ، ولكنه يشبه فرنسا في اقتناعه بعدم إمكان تحقيق الهدف في الوقت الحاضر ، ولهذا فإن ألمانيا - بعكس إنجلترا - لا تهتم بحقوق فرنسا في سوريا »^(١) . وكان من شأن مثل هذا التصريح أن يتمشى مع موقف فرنسا ، على اعتبار أنه قد نص رسمياً على اعتبار الاستقلال هدف انتدابات الدرجة الأولى . وفي الواقع أن الجنرال دننز أعلن في ٢ إبريل ١٩٤١ في خطاب موجه بالراديو أن فرنسا تواصل الاعتراف بالهدف من الانتداب ، ولكنها ترى استحالة تطبيقه في ظل الموقف الدولي القائم .

ولم يقيض للتصريح الذي سبقت الإشارة إليه أن ينشر على الإطلاق . ولكنه يعكس موقف حكام ألمانيا . وسنرى أن وجهة النظر هذه ظلت لها فاعليتها بعد هزيمة فرنسا في المشرق . ولا شك أنها كان لها مغزاها إبان القتال ، لأن القوة الوحيدة في سوريا التي كان بإمكانها مقاومة الغزو البريطاني هي جيش المشرق التابع لحكومة فيشى . وبالإضافة إلى ذلك فإن القتال في سوريا قوى آمال ألمانيا في أن ينشب صراع عام بين فرنسا وبريطانيا - وهو أمل كان باستمرار يراود السياسة الألمانية الخاصة بفيشى .

(١) مذكرات فورمان، برلين في ٢٥ يونيو ١٩٤١ . لم تقدم المذكرات لرينتروب مباشرة ، بل إنها سلمت لآبتر لكي يستعملها في محادثاته مع رينتروب .

القتال والهدنة

كان لابد للقتال في سوريا ، في ظل الظروف القائمة ، أن يتمخض عن هزيمة فيشي . وقبل أن يبدأ القتال كانت قوات الجنرال دنتر البرية تبلغ ١٢٥٠ ١٨٠٠٠ جندياً و ٣٢٠٠٠ صف ضابط وجندي فيما يتعلق بالوحدات الفرنسية ، و ١٨٠٠٠ جندي من أهل البلاد يقودهم ١٤٠ ضابطاً فرنسياً و ٣٠٠ صف ضابط فرنسي ، بالإضافة إلى ٢٨٠ صف ضابط من أبناء البلاد ، وكانت لدى الجيش البري مدفعية ضعيفة وما يتراوح بين ٩٠ و ١٠٠ دبابة من نوع رديء . ولم تكن لدى هذه القوات أسلحة ميكانيكية كافية ، وكانت تحركاتها محدودة جداً^(١) كما كانت تعاني نقصاً في الأدوات الحربية والاحتياطي . وكان لدى القوة الجوية حوالي ٥٠ طائرة حديثة : سرب من قاذفات القنابل ، وآخر من المقاتلات ، وثالث من طائرات الاستطلاع^(٢) . وكانت قوة فيشي البحرية ضعيفة إلى أقصى حد ، وكان البريطانيون يتمتعون في هذا المجال بتفوق لاشك فيه^(٣) . وكانت هذه القوة تتألف من ٣ مدمرات و ٣ غواصات و ٤ سفن صغيرة كاسحة للألغام وخمس طائرات .

وكانت القوات البريطانية والديجولية تتألف من وحدات استرالية وهندية وفرنسية ، وأخرى فرنسية من المستعمرات . وكان عددها ١٥ كتيبة . ومن المحتمل أنها كانت أضعف من قوات فيشي من الناحية العددية ، كما كان لديها عدد قليل من الدبابات . ولكنها كانت تتمتع بالقدرة على الحركة ، كما كان لديها

(١) نصح ران بالاستيلاء على السيارات الخاصة بقصد « مكينة » الجيش - ولكن هذا الاقتراح لم ينفذ .

(٢) وفقاً لما ذكره دنتر لران (رسالة ران بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٤١) . وفقاً لما يذكره بلايفير (المراجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٦) كانت قوات فيشي الجوية في سوريا تتكون في البداية من ٦٠ مقاتلة و ٣٠ قاذفة قنابل - ولكن قضايف عددها في الواقع أثناء القتال بالإمدادات التي أتت من شمال إفريقيا .

(٣) عرض الأميرال جوتون على ران وثيقة تتضمن قوة الأسطول الفرنسي في سوريا (يوجد النص في رسالة ران المؤرخة ٢٩ مايو ١٩٤١) .

احتياطي أكبر^(١). وحين أوقفت قوات فيشي تقدمها على حدود سوريا ولبنان الجنوبية أحضر البريطانيون قوات من العراق كانت تتكون مما كان يسمى بالوحدات الميكانيكية (هاليفورس) التي كانت قد أتت من فلسطين منذ أنشؤعين ، ومن فرقة الجنرال سليم Slim الهندية التي هاجمت سوريا من الشرق محملة تدمير ودير الزور . وكانت القوات البحرية البريطانية تتألف من ثمانى سفن حربية : طرادات ومدمرات ، بالإضافة إلى الوحدات الصغيرة . وقد عززت هذه القوة بحيث أصبحت تتكون من ٥ طرادات و ٨ مدمرات . وكان الفرنسيون يكادون يكونون عاجزين أمام قوة الأسطول البريطاني . وكانت قوة بريطانية الجوية التي عدها رؤساء الأركان في الشرق الأوسط حاسمة بالنسبة إلى العملية لإكسبورتر (الاسم الذي أطلق على عملية المشرق) تتكون في البداية من سرب من قاذفات القنابل المتوسطة وآخر من المقاتلات وقوات مشاة مساعدة . وقد ألحق بها فيما بعد سرب من طائرات التوماهوك .

وقام الفرنسيون بعدة هجمات مضادة ، وكان القتال شديداً . وفي خلال المرحلة الأولى (٨ - ١٦ يونية) سجلت القوات - التي كانت تقوم بالهجوم بثلاثة طوابير باتجاه دمشق والرياق وببيروت - بعض النجاح . وفي المرحلة الثانية (١٤ - ٢٢ يونية) شن الجنرال دنتر هجوماً مضاداً وأوقف قوات الحلفاء في كل مكان باستثناء جبهة دمشق . وما حل ذلك الوقت حتى كانت عملية باتلاكس الموجهة ضد روميل قد انهارت ، مما مكن البريطانيين من تعزيز قواتهم في سوريا إلى حد كبير . وحينئذ وجهت قوة هاليفورس ضربتها من العراق . وشهدت المرحلة الثالثة (٢٣ يونية - ١٥ يولية) انتصارات بريطانية أنهت القتال. ففي ٢١ يونيه سقطت دمشق ، وبعد معركة استمرت بضعة أيام تراوحت فيها مقاليد النصر والهزيمة سلمت تدمر في ٢٣ يولية . وفي اليوم نفسه سقطت عاصمة منطقة الجزيرة واقتربت القوات البريطانية من بيروت وحلب .

(١) لم يكن لدى بريطانييحين بدأ القتال في سوريا سوى احتياطي صغير ، ولكن تغير هذا الموقف بعد إخفاق عملية باتلاكس في الصحراء الغربية في ١٥-١٧ يونية ١٩٤١ . وكانت قيادة فيشي طيلة مراحل القتال مقتنعة بتفوق بريطانيا الضخم ، وهذا دون شك أثر في مجرى الحملة ، وتقدم المطبوعات البريطانية الرسمية عدد الوحدات التي اشتركت في القتال ، دون أن تقدم عدد الرجال . Playfair: op. cit., II, p. 204.

وفي ١٨ يونية اتصل كوني - رئيس القسم السياسي بدار المندوب السامي الفرنسي - رسمياً بقنصل الولايات المتحدة فان إنجلترا ، وطلب منه أن يحسم نبض بريطانيا حول شروطها لوقف القتال^(١) . وفي ١٨ يونية رد البريطانيون عن طريق وزارة الخارجية الأمريكية ، ووعدوا قوات فيشي بأن تحظى بكل المراسيم الحربية ، ولكنهم وضعوا شروطاً متشددة للهدنة . وفي ٢١ يونية قدمت لدنتز الشروط الرئيسية - ولكن في يوم ٢٥ بلغ كوني إجبرت أن الحكومة الفرنسية لاترى أن الوقت قد حان لإجراء المفاوضات . وفي ٢٦ يونية اتصل دنتز بحكومته وأوضح لها سوء الموقف العسكري ، واقترح عليها طلب الهدنة . كما أرسل رئيس مجلس وزرائه كابتن تيزيه Tézé ومساعد برجرية كابتن جودليير Gaudillière باعتبارهما مبعوثين خاصين يحملان رسالة تتضمن مسودة المقترحات التي رأى أن تعرض على البريطانيين في المفاوضات . وفي ٢٨ يونية قدم مبعوثا دنتز تقريرهما إلى بتان ودارلان . وكان أهم ما يشغل فيشي مسألة إرسال الإمدادات إلى جيش المشرق^(٢) . وكانت لاتزال تنتظر نتائج بعثة بنوا مشان . ولهذا تقرر إبلاغ السفير الأمريكي بأن فيشي على استعداد لإيقاف إطلاق النار مؤقتاً على الجبهات القائمة التي يجب أن تتحول إلى خط وقف إطلاق النار الفاصل بين الفريقين المتحاربين . وقدمت مذكرة بهذا الصدد إلى الأميرال ليهي في ٣٠ يونية . وما يجب ملاحظته أن دنتز اقترح كذلك ، عن طريق مبعوثيه ، أن تحتفظ حكومة فيشي بسيادتها على جزء من الأراضي التي انتدبت عليها فرنسا - أي لبنان^(٣) .

ومن الواضح أنه كان يهدف إلى أن يسلم للبريطانيين ما كان يعتبره مناطق استراتيجية - بمعنى المناطق المناخة للعراق ذات الأهمية في الدفاع عن قبرص وفي الاتصال بتركيا . ولا يمكن أن نقطع إلى أي حد كانت حكومة بتان ، حين اتخذت هذا القرار ، يراودها الأمل في إنقاذ شيء ما في المشرق .

كما أنه ليس من المؤكد لأى درجة كانت فيشي متأثرة بالخوف من رد فعل

(١) قدم دنتز أثناء محاكمته بيانات مغالطة لذلك .

(٢) في الشهادة التي أدلى بها جودليير أثناء محاكمة دنتز ذكر أن بتان كان يميل إلى إجراء الصلح ، ولكن دارلان كان يعارض في ذلك .

(٣) يبدو أن القيادة الفرنسية قبل غزو سوريا لم تضع إلا خطة للدفاع عن لبنان وحده . ولكنها غير رأيا - ومن المحتمل جداً أن مرجع ذلك هو تأثير ألمانيا - وفضلت خطة الدفاع عن سوريا كلها .

النازيين لإزاء عقد هدنة في سوريا .^(١) وفي ٧ يولية رفض البريطانيون شروط فيشي ، ولكن دنتز تلقى في مساء ذلك اليوم تفويضاً ببدء المفاوضات . وفي ١١ يولية رفضت فيشي المقترحات البريطانية المضادة ، وبخاصة البند الخاص بالاعتراف باستقلال سوريا ولبنان . وفي نفس الوقت خول دنتز تنظيم كل المسائل المترتبة على الموقف القائم دون إثارة مشكلات سياسية . وأخيراً أرغم الموقف العسكري دنتز على إرسال ممثل عنه إلى عكا لنجح في إبعاد الديجوليين عن المفاوضات وعدم الاكتراث بويلسون والديجوليين والحصول على شروط في مصلحة فيشي بخصوص إعادة الفرنسيين من سوريا إلى وطنهم.^(٢) وفي ١٤ يولية وقع ولسون والجنرال فريديهاك Verdhac اتفاقية للهدنة لم تتمتع الشؤون ذات الصلة العسكرية المحضة وتحويل إدارات سوريا ولبنان .

ولم يعترض الألمان على أن تعقد فيشي هذا الاتفاق . ولكن يجب أن نغزو تأخيراً في الموافقة على مفاوضات وقف إطلاق النار إلى رد فعل ألمانيا . وحين سألت فيشي وزارة الخارجية الألمانية عن رأيها بصدد مسألة الهدنة ، حذرتها من غدر البريطانيين ، وإن تكن قد تركت للفرنسيين القرار النهائي . وقد ألفت التوجيهات الصادرة إلى ران بصدد مسألة الهدنة مزيداً من الأضواء على مقاصد ألمانيا - فقد كان عليه أن يقتصر على تزويد دنتز بنصيحة عامة بصدد مسألتين : (أ) في تلك الظروف لا يمكن الوصول في المفاوضات إلى اتفاق « يتمشى مع شرف فرنسا » - ولهذا كان من الضروري اقتراح التسليم دون قيد أو شرط دون تقديم أى التزام سياسى ، (ب) من الضروري تجنب تقديم أى تنازلات للديجوليين أو الاعتراف بهم . وكانت هذه النصيحة تتمشى مع وجهة نظر فيشي .

وقد أوضحت التعليقات أن ألمانيا ترغب في تجنب قيام سوابق سياسية في سوريا ولبنان من شأنها أن تعود بالفائدة ، ليس فقط على البريطانيين والديجوليين ،

(١) اعترف بنوامشان أثناء محاكمته (٣ يونيو ١٩٤٧) بأن الدفاع عن سوريا كان بالنسبة إلى ألمانيا بمثابة الحكم الجدى لعزم فرنسا على المحافظة على بقية إمبراطورياتها .

Aujol : Le Procès de Benoist- Méchin, p. 243.

(٢) أدى هذا إلى إثارة غضب ديغول وسوء علاقاته بالحكومة البريطانية .

Charles de Gaulle : Mémoires de Guerre. L'appel : 1940-42, 1954, pp. 163-75.

بل على العرب أيضاً . وعلينا أن نذكر أن التصريح البريطاني الديجولي المشترك قد أوجد مثل هذه السابقة في مصلحة العرب الذين أجروا تغييرات هامة في نظم سوريا ولبنان الداخلية في الوقت الذي كانت فيه الحرب دائرة .

كما وقف الألمان موقفاً سلبياً من طلب تركيا الخاص باحتلال شمالي سوريا إلى خط أبوكال - طرابلس . وكان رد رينتروب كما يلي : « إننا نجد أن من دواعي الوفاء من ناحيتنا ألا نقف ضد مصالح فرنسا في المسألة السورية . ولهذا فلا يمكننا أن نرحب بطلب تركيا الخاص باحتلال شمالي سوريا » .

وعاد الجنود الفرنسيون إلى بلادهم . ومن بين العدد البالغ ٣٧٧٣٦ ضابطاً وجندياً أعلن ٦٦٨ ره انضمامهم إلى الديجوليين . وقد فقد جيش المشرق حوالي ١٠٠٠ قتيل على حين جرح حوالي ٥٠٠٠ ، ومنى الجانب البريطاني - الديجولي بخسائر مماثلة . حقيقة أن المحور ضاعت منه فرصة استعمال سوريا ، ولكن مما يجدر ذكره أن الألمان لم يبذلوا كل ما في وسعهم للاحتفاظاً بهذا الموقع . والسبب الحقيقي لذلك هو الحملة الروسية وبغض النازيين لفرنسا . حينئذ نشبت أزمة جديدة في العلاقات الفرنسية - الألمانية على أثر سقوط نظام فيشي في المشرق . فالحرب مع الاتحاد السوفييتي لم تضع ألمانيا في موضع يمكنها من مساعدة الفرنسيين في سوريا حتى بالدرجة التي تسمح بها الظروف السياسية والفنية . فقد رفضت لجنة الهدنة الألمانية أن تقدم لفرنسا دبابات سوموا وطائرات نقل^(١) .

ومن المحتمل أيضاً أن الهجوم على الاتحاد السوفييتي قد أثر كثيراً في العلاقات الألمانية - التركية أثناء الحملة السورية . فالألمان كانوا ينتظرون إحراز نصر حاسم على الاتحاد السوفييتي حتى يضغطوا على تركيا لكي تنضم إلى المحور بصفة

(١) في ٧ يولية ١٩٤١ كتب الكولونيل لوريو - أحد أعضاء البعثة الفرنسية في لجنة الهدنة الألمانية - ما يلي : « . لا يصل حسن نية لجنة الهدنة الألمانية إلى حد الإفراج عن قسط من المادة التي لا غنى لنا عنها . وليس من الصعب علينا أن نفهم هذا الموقف إذا ما وضعنا نصب أعيننا - بين أشياء أخرى - مدى ضراوة المعارك التي تدور حاليها الآن في روسيا »

نهائية . وقد عبرت التعليمات رقم ٣٠ عن الموقف العام للزعماء الألمان : « لن يتقرر إلا بعد بربروسا هل يتأثر مركز إنجلترا في المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط والخليج الفارسي - فيما يتعلق بالهجوم على قناة السويس - وبينها نهائياً في المستقبل .: وينطبق هذا أيضاً على كيفية هذا الانسحاب » .:

الفصل العاشر

اتساع نطاق الحرب

وسياسة النازى العربية

فى ٢٢ يونية ١٩٤١ ، كما هو معروف ، شنت ألمانيا النازية هجومها على الاتحاد السوفييتى بعد أن استغرق الإعداد له عدة أشهر . وفى ديسمبر ، أى بعد أقل من ستة أشهر ، ضربت الطائرات اليابانية القاعدة الأمريكية فى بيرل هاربور وبدأت الحرب فى الشرق الأقصى .

وقد غير غزو هتلر للاتحاد السوفييتى مجرى الحرب العالمية الثانية تغييراً تاماً . وعلى طول المدى حددت المعارك الدائرة على الجبهات السوفيتية مصير المعارك فى شمالى إفريقيا . فقد واجهت القوات المحورية مقاومة قوية فى الاتحاد السوفييتى ، وبرغم الانتصارات التى أحرزتها فى البداية ، أصيبت بهزيمة كبرى فى موسكو فى ديسمبر ١٩٤١ وأوقفت تماماً على نهر الفولجا فى نوفمبر ١٩٤٢ . وما حل خريف عام ١٩٤٢ حتى كانت قوات المحور قد فقدت المبادرة سواء فى الجبهات السوفيتية أو فى جبهات شمالى إفريقيا . ومنذ ذلك الوقت أرغمها الضغط السوفييتى والبريطانى والأمريكى على التراجع على طول الخط . وقد أدى التحالف بين هذه الدول الثلاث فى النهاية إلى حلول الكارثة بالمحور .

الموقف العسكرى والسياسى

قبل أن تنشب الحرب الألمانية - السوفيتية كانت بريطانيا فى موقف صعب جداً . وقبل أن يتأكد القادة الإنجليز من الهجوم على الاتحاد السوفييتى كانوا يحشون غزو ألمانيا للجزر البريطانية . كما كانوا يخشون مزيداً من العمليات النازية من البلقان صوب الجنوب الشرقى . وفى ٢٧ مايو أنحلت البريطانىون كريت ، وكانت

الدلالات تشير إلى أن قبرص سيتم احتلالها بعد ذلك ، وإلى أن سوريا ولبنان ستتعرضان لغزوات أكبر . وكان يبدو أن خطراً عظيماً يهدد قناة السويس وبلدان الشرق الأوسط .^١ ولكن الموقف بأسره تعدل حين حشد هتلر قواته في شرق أوروبا .

وبعد الاستيلاء على كريت تحولت القوات الجوية الألمانية صوب الشمال لتعزيز عملية « يرباروسا » . وظلت وحدة الطيران رقم ١٠ لعدة أشهر هي التشكيل الوحيد للقوات الجوية الألمانية في البحر المتوسط — وقد انتقل مركز قيادتها من صقلية إلى بلاد اليونان ، ونوزعت على منطقة واسعة تضم شمالي إفريقيا وبحر إيجه . ولما كانت بعيدة عن الجبهة الرئيسية — روسيا — فإن القيادة لم تزودها بالموارد الكافية . وهكذا كانت تحتوي على حوالي ٢٥٠ طائرة صالحة للعمل في أى وقت من مجموع طائراتها البالغ ٤٥٠ . على أننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن القوات الجوية الإيطالية كانت تعمل في هذه المنطقة ، ولكن يبدو أنها كانت أضعف من السلاح الجوي الألماني .

كما سحب الألمان بعض الوحدات من إفريقيا واليونان ، واستبدلوا بها بعض القوات التي أحضروها من صقلية ، مما حسن وضع القاعدة البريطانية في مالطة . وسنرى أن تعزيز القوات الموجودة في شمالي إفريقيا قد تأجل دون أن يوقف . وقد أثر حشد القسم الأكبر من القوات الجوية الألمانية على الجبهات الشرقية تأثيراً عكسياً على وضع قوات المحور في شمالي إفريقيا . فبعد يناير ١٩٤١ ، حين بدأ السلاح الجوي الألماني عملياته في البحر المتوسط ، وجد البريطانيون صعوبة كبرى في تموين قواتهم في تلك المنطقة وأرغموا على إرسال القوافل بحراً حول رأس الرجاء الصالح وجواً عن طريق تاكورادي Takoradi على ساحل إفريقيا الواقع على المحيط الأطلسي . ولما كانت قوة ألمانيا في البحر المتوسط قد ضعفت نتيجة لغزو الاتحاد السوفيتي ، فقد أرسل البريطانيون ثلاث قوافل إلى مالطة لمبيت دوراً حاسماً في عمليات القتال التالية . كما تحسن الموقف بالنسبة إلى القاعدة البريطانية في مصر ، إذ أصبح باستطاعتها أن تحصل على المؤن والإمدادات بصورة أسهل . وفي الوقت نفسه أصبحت القوافل المحورية التي تحمل المؤن إلى قوات ألمانيا المحتلة

المحور في شمال إفريقيا أكثر عرضة لهجمات القوات البحرية والجوية البريطانية ،
 في الفترة الممتدة بين يونية وأكتوبر ١٩٤١ تم إغراق قدر ضخم من المؤن المرسلة
 إلى شمال إفريقيا ، مما جعل من الصعب بالنسبة إلى روميل أن يقوم بهجوم في ذلك
 الوقت . بل إن سيركلود أوكنلك - الذي تولى القيادة العامة في الشرق الأوسط بدلا
 من ويقل (٣٠ يونية ١٩٤١) - قام بالهجوم في ١٨ نوفمبر . ورغم الضغط الذي
 كان يباشره تشرشل ومجلس وزراء الحرب في لندن ، تأجل قرار القيام بالهجوم -
 وربما كان هذا هو السبب في أن البريطانيين لم يستغلوا الفرصة في الجبهة الغربية ،
 وهي الفرصة التي وفرها حشد القوات الألمانية في الاتحاد السوفيتي . ويجب أن
 نضيف هنا أن الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا في عام ١٩٤١ تقدمان مساعدة
 قليلة للاتحاد السوفيتي ، لأن دوائرها الحاكمة كانتا تتوقع نصراً ألمانيا سريعا
 رغم الاتحاد السوفيتي على التفهق شرقاً إلى مسافة بعيدة ويستبعده باعتباره عاملا
 له أهمية عسكرية .

ولهذا في الفترة التي أمكن لبريطانيا فيها أن تسترد أنفاسها ، وهي الفترة التي
 استمرت ستة أشهر ، استطاعت أن تركز قواتها وتستفيد من المساعدة الأمريكية
 في جبهة شمال إفريقيا .

ويرجع نجاح بريطانيا في تدعيم مراكزها العسكرية والسياسية في الشرق
 الأوسط إلى حد كبير إلى التغير الأساسي الذي طرأ على توجيه الهجوم الألماني -
 فقبل عام ١٩٤١ كان الهدف الرئيسي للنازيين هو احتلال إنجلترا ، ومنذ ذلك
 الوقت أصبح هذا الهدف هو إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفيتي . وبعد القضاء على
 الثورة الوطنية في العراق وتصفية نظام فيشي في سوريا ولبنان جاء دور إيران .
 في نهاية أغسطس ١٩٤١ دخلت القوات البريطانية إيران من الجنوب ودخلتها
 القوات السوفيتية من الشمال . وكان الهدف من هذه الخطوة هو القضاء على خطر
 التخريب الألماني في إيران وتسهيل إيصال المؤن إلى الاتحاد السوفيتي من الولايات
 المتحدة وإنجلترا . وكان قرار بريطانيا الخاص باحتلال إيران - وفقاً لما كتبه
 تشرشل فيما بعد - راجعاً في أساسه إلى الخوف من هجوم الألمان على الشرق الأوسط
 من ناحية القوقاز . هذا بالإضافة إلى أن المملكة المتحدة كانت ترغب في السيطرة
 على كل المنطقة الممتدة بين المحيط الهندي والبحر المتوسط .

ولم يلعب التغيير الذى طرأ على الموقف السياسى بعد غزو ألمانيا للاتحاد السوفيتى وقيام تحالف مناهض للفاشية دوراً هيناً فى تطور الموقف السياسى فى بلدان البحر المتوسط .

حقيقة أن القوميين العرب ، وبخاصة جناح أقصى اليمين ، قد حصلوا حينئذ على حجة جديدة ضد بريطانيا : تحالفها مع « السوفييت اللادينيين » الذين كان المحور يحاربهم بشجاعة . وكان موقف قسم كبير من طبقة الملاك العرب ممن كانوا يثقون فى انتصار المحور يتميز بالفتور ، إن لم يكن بالعداء . من التحالف الإنجليزى - السوفيتى . أما الجناح اليسارى الذى كان قبل ذلك يقلل من شأن مدى علاقات اليمينين بالمحور ، فقد ساند بريطانيا بوضوح فى ذلك الوقت . ولم تكن هذه المساندة قليلة الأهمية بالنسبة إلى فلسطين ومصر وكذلك سوريا ولبنان . فقد أثرت بوجه خاص فى سياسة ونشاطات الاتحادات العمالية التى نمت بسرعة بنمو الطبقة العاملة . فكثير من العرب وجدوا عملاً فى المعسكرات الحربية وفى ورش التصليح وغير ذلك من الخدمات الخاصة بالقوات المسلحة - ولهذا فما لا يتطرق إليه الشك أن القوميين العرب لم ينفصوا عن دول المحور بصورة جماعية إلا فى عام ١٩٤٣ .

وأخذت الدعاية لمصلحة الحلفاء تزداد تحت تأثير الجناح اليسارى وقيادة الشيوعيين . وأخذت تظهر عصابات هدفها مساعدة الاتحاد السوفيتى ، على حين ازدياد نشاط اتحادات العمال العربية ونوادر المثقفين التقدمية المعادية للفاشية والمحور^(١) .

(١) لا يوجد حتى الآن كتاب علمى يناقش باستفاضة الدور الذى لعبه اليسار والشيوعيون فى النضال ضد الفاشية فى الشرق الأوسط . ويخصص وولتر لاكبير لهذا الموضوع بعض الصفحات فى كتابه : Communism and Nationalism in the Middle East

الفصول الثالث والثامن والحادى عشر والرابع عشر .

مغزى للنضال الدائر في البحر المتوسط

هذه هي النتائج المباشرة لهجوم هتلر على الاتحاد السوفيتي . ولكن الآثار الباقية لحشد الجيش الألماني في شرق أوروبا لم تتضح إلا فيما بعد - في صيف وخريف عام ١٩٤٢ . على أن الموقف في البحر المتوسط كان قبل ذلك قد أصبح شديد التعقيد . وكان على البريطانيين أن يواجهوا أخطاراً جديدة ، إذ كانت تنتظرهم هناك نكسات وهزائم جديدة . ولم يكن باستطاعة واضعي استراتيجية هتلر أن يتجاهلوا البحر المتوسط طالما كانت توجد بحيرة إفريقية تشغل قسماً كبيراً من القوات الألمانية . وكان الجنرال روميل ، القائد العام لهذه القوات ، يتمتع بتأثير على حاشية هتلر ، وقد أبدى الفوهرر اهتماماً خاصاً به ، وحتى لو رغب الألمان في تجميد هذه الجبهة ، فإنهم كانت تعوزهم حرية اتخاذ القرارات في مواجهة أعدائهم ، ولم يكن ثمة أى شك في أن فشل هذه الجبهة كان لا بد أن يكون له أثر سيئ على روح الإيطاليين المعنوية وكذلك على موقف تركيا وفرنسا . وبالإضافة إلى ذلك فإن طرد قوات المحور من شمال إفريقيا كان يعنى أن خطة هتلر الخاصة بالدفاع عن أوروبا ستعرض لتهديد مباشر من ناحية الجنوب .

وحين قرر هتلر مهاجمة الاتحاد السوفيتي كان يأمل أن تستطيع قوات المحور في غرب أوروبا وشمال إفريقيا الاقتصار على الدفاع في أثناء القتال الدائر مع الجيش الأحمر^(١) . كما كانت القيادة الألمانية تعول على تقديم إيطاليا القوات المسلحة اللازمة وجزءاً كبيراً من العناد . كما كان يتوقع من الإيطاليين أن يعزوا بالدفاع عن القوافل البحرية المتجهة إلى شمال إفريقيا ، وكان ذلك من الأسباب

(١) ورد في الرسالة التي بعث بها هتلر إلى موسوليني في ٢١ يونيو ١٩٤١ مايل : « إننا لا نلكر بأى شكل في شن هجوم على مصر قبل الخريف » . و « فيما يتعلق بالحرب الجوية ضد إنجلترا سنلتزم بالدفاع بعض الوقت »

التي جعلت هتلر يثني موسوليني عن إرسال قوات كبيرة إلى الجبهات السوفيتية ، ولكن الفوهرر عدل رأيه حين ساء وضع قواته هناك إلى حد كبير .

ولم يكن باستطاعة الإنجليز ، حتى لو شاءوا ، أن يجمدوا جبهة البحر المتوسط في غضون الموقف الجدي الذي ظهر . فقد كانت هذه الجبهة هي الوحيدة التي كانت القوات البريطانية تواجه فيها العدو ، هذا بالإضافة إلى النشاط الجوي فوق ألمانيا . وكان تشرشل ومعاونوه يودون الإفادة من انشغال القسم الأكبر من القوات الألمانية في الاتحاد السوفيتي لكي يحسنوا وضع بريطانيا في شمال إفريقيا إلى أقصى درجة ممكنة . كما كانت ثمة اعتبارات سياسية هامة تملئ تحريم هذه الجبهة ، في الوقت الذي طالب فيه الرأي العام باستخدام كل الإمكانيات لمساعدة الاتحاد السوفيتي . فلم يكن من المناسب أن يهزم الجيش السوفيتي الألمان دون أن تشارك القوات البريطانية في ذلك ، على حين أن هزيمة الجيش السوفيتي كانت تعني فقدان إنجلترا فرصة مهاجمة العدو في أنسب وقت — وحينئذ تتعرض الحكومة للهجوم الخاص بأنها لم تعمل شيئاً لمساعدة الاتحاد السوفيتي . ولكل هذه الأسباب ظلت الحكومة البريطانية تضغط على أوكنك لكي يشن هجوماً ، وفي النهاية قام أوكنك بهجومه في ١٨ نوفمبر ١٩٤١ . وقد أوقعت عملية كروسيدير هزائم شديدة بقوات المحور ، وبحلول أول يناير ١٩٤٢ لم تقم قوات أوكنك فقط برفع الحصار المفروض على طبرق ، بل لأنها تقدمت إلى العجيلة — أي إلى الموقع الذي انتزعه روميل من البريطانيين في ربيع عام ١٩٤١ . ومن أهم أسباب الهزائم الخسائر الجسيمة التي حلت بقوافل نقل المحور المتجهة إلى شمال إفريقيا .

وهكذا قيص للبحر المتوسط أن يلعب دوراً هاماً في استراتيجية ألمانيا باعتبارها دولة معادية لبريطانيا وتحالفة مع إيطاليا .

وفي الرسالة التي بعث بها هتلر إلى موسوليني في ٢٠ نوفمبر ١٩٤٠ ، اعتبر العمليات الحربية في البحر المتوسط ومحاربة الاتحاد السوفيتي مرحلتين متتاليتين من الحرب ، كما سبق أن أوضحنا — وفي المؤتمر الذي عقده هتلر مع قادته العسكريين (في ٣ فبراير ١٩٤١ — وقد سبقت الإشارة إليه) أشار إلى جبهة البحر المتوسط باعتبارها جبهة ثانوية تعرقل حشد كل القوات في شرق

أوروبا . وتعتبر التعليمات رقم ٣٠ الصادرة بتاريخ ٢٣ مايو ١٩٤١ بصدده مساعدة العراق (وقد صدرت في وقت كان من الواضح فيه أن الهجوم على الاتحاد السوفيتي قد تأجل نتيجة للقتال في البلقان) - الأحداث في ذلك البلد مسألة محلية . ويتضح من رسالة هتار إلى موسوليني المؤرخة ٢٠ نوفمبر ١٩٤٠ أن هتار كان يود شل القوات البريطانية في البحر المتوسط قبل مهاجمة الاتحاد السوفيتي . في حين أنه أشار إلى تأجيل الفسربة القاضية واحتلال بلدان الشرق الأوسط حتى خريف ١٩٤١ - أي حتى الموعد الذي حدده لإنهاء الحرب ضد الاتحاد السوفيتي . وقد ورد ذكر هذه الخطة من جديد في التعليمات رقم ٣٠ .

الخطط الاستراتيجية

التي تلت بربروسا

وهكذا كانت الاعتبارات الاستراتيجية لدى القيادة العليا فيما يتعلق بحشد القوات الألمانية وقوات الدول الدائرة في فلكها في الجبهات الشرقية هي التي أدت إلى إضعاف القوات النازية مؤقتاً في الشرق الأوسط وإلى القرار الخاص بتجنب التوسع في النشاط في تلك المنطقة . ولكن كان من المتوخى طبقاً لهذه الخطط أن تستغرق عملية بربروسا وقتاً قصيراً . وكان هتار في البداية يتوقع أن تستغرق عملية بربروسا ثلاثة أشهر . وكان من المتوقع بانتهاء هذه الفترة أن تحل الهزيمة بالجيش السوفيتي ويطرده عبر نهر الفولجا وتنهي خطورته - وكان من المتوخى أن يتم كل ذلك بحلول خريف عام ١٩٤١ . وكان من المتوخى أن تبقى قوات احتلال كبيرة في الاتحاد السوفيتي ، على أن توجه القوات الرئيسية للعمل ضد إنجلترا . وكان من الواجب في هذه المرة ، ربما تحت تأثير تجارب معركة كريت ، ألا تركز الاستراتيجية النازية على القيام بغزو مباشر للجزر البريطانية ، بل كان عليها أن تقوم بهجوم غير مباشر لإنجلترا على التسليم قبل أن يحشد الأمريكان كل قواتهم .

وكانت الخطط تعد خلال شتاء عام ١٩٤١ لمتابعة عملية بربروسا .

وقد كشف هالدور في يوميات الحرب التي كتبها أن هتلر أصدر أوامره في أواخر فبراير بإعداد خطط لغزو أفغانستان وإيران والهند ، على أن يسبق ذلك الاستيلاء على الاتحاد السوفييتي . كما أنه فكر في متابعة بربروسا بالاستيلاء على جبل طارق ومالطة وشمال إفريقيا الفرنسية ، ثم بمهاجمة مصر بلوائين مصفحين . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من المتوخى أن يعاد تنظيم القوات المسلحة على نطاق واسع بعد بربروسا . وكان من المتوخى إنشاء كثير من الكتائب المدربة تدريباً خاصاً والمصفحة والممكنة ، سواء أكانت من المشاة أم من القوات الجبلية ، على أن تزود بعناد مدارى . بل لقد قدم اقتراح بتخصيص قوات ميدان لمراكش الإسبانية وشمالي إفريقيا ، بما فيه مصر ، والأناضول وأفغانستان^(١) .

وقد صدرت التعليمات الخاصة رقم ٣٢ بخصوص مجرى الحرب في المستقبل عشية الحملة الروسية - ١١ يونيو ١٩٤١ . وكان أساس هذه الوثيقة افتراض سيطرة الجيوش الألمانية والإيطالية على كل القارة الأوروبية بعد أن يتم تحطيم قوات الاتحاد السوفييتي المسلحة ، حينئذ يكون من الممكن استدراج إسبانيا وتركيا وإيران إلى الحرب في صف المحور . وكان القضاء على كل خطر كبير من الناحية البرية كفيلاً بتمكين ألمانيا من تخفيض قواتها البرية ونقل مركز الثقل إلى القوات البحرية والجوية التي كان من المتوخى أن تلعب دوراً حاسماً في معركة إنجلترا . وبهذا الصدد كانت التعليمات رقم ٢١ التي كانت تحتوى على التوجيهات الرئيسية الخاصة بعملية بربروسا توقع أن يكون الأسطول هو السلاح الأول في محاربة إنجلترا ، برغم معارك شرق أوروبا . ووفقاً للتعليمات رقم ٣٢ كانت المهام الاستراتيجية الواجب على الجيش الألماني أن يقوم بها في أواخر خريف عام ١٩٤١ وفي شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ كالاتي :

(١) تنظيم واستغلال البلدان التي تم الاستيلاء عليها وشيكاً في الشرق - (٦٠ فرقة) وأن يعهد بذلك إلى القوات المسلحة والجوية التابعة لدول الحلفاء والدول الصديقة .

(٢) مواصلة الحرب ضد إنجلترا في البحر المتوسط والشرق الأدنى .

(١) هالدور ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ (مذكرات ٧ إبريل الخاصة باجتماع مع هويسنجر Heusinger الذي يبدو أنه كان مسئولاً عن هذه المسائل) .

(٣) الاستيلاء على جبل طارق وإغلاق البحر المتوسط من ناحية الغرب .
 (٤) متابعة « حصار إنجلترا » حصاراً تاماً بالأسطول الألماني والقوات
 الجوية الألمانية ، لشغل القوات البريطانية في بريطانيا ذاتها والانهاء بعمليات
 إنزال في بريطانيا حين تكون على وشك التفكك والانهيار .

وقد استفاضت التعليقات رقم ٣٢ في تناول شئون الشرق الأوسط . وكان
 واضعو الاستراتيجية الألمانية يتوقعون « هجوماً مركزاً من ليبيا عبر مصر ، ومن
 بلغاريا عبر تركيا ، وربما من القوقاز عبر إيران » . وحتى يتم تنفيذ هذه الخطة
 كانوا يهدفون إلى : (١) الاستيلاء على طبرق وتوفير قاعدة للقيام بهجوم على
 قناة السويس (ب) حشد قوة كبيرة في بلغاريا في أسرع وقت ممكن لإجبار
 تركيا على الاستسلام ولتنظيم هجوم على قناة السويس عبر تركيا وسوريا وفلسطين
 (وقد بنى مؤلفو هذه التوجيهات الحاجة إلى مثل هذه الحملة على افتراض أن
 من المحتمل أن يحشد البريطانيون احتياطيات حربية في منطقة القناة) ، (ح) فيما
 يتصل بالعملية التي تتناولها الفقرة (ب) يتم إعداد قوة ميكانيكية لإرسالها من
 القوقاز إلى العراق ، (د) استغلال حركة التحرير العربية . وقد شكوا واضعو
 هذه التوجيهات من عدم إمكان تحديد تاريخ في المستقبل القريب لبدء العمليات
 الحربية في البحر المتوسط والشرق الأوسط . ولكنهم رأوا أنه سيتم الحصول على
 أحسن النتائج من القيام في نفس الوقت بهجوم على « جبل طارق ومصر وفلسطين »
 وأن التنسيق المطلوب للعمليات الحربية يتوقف أولاً على قوة سلاح الطيران الألماني .
 واقترح شهر نوفمبر لتنفيذ العملية التي تتضمنها الفقرة (ب) - أي الاستيلاء على
 طبرق والإعداد للهجوم على قناة السويس . ولهذا نستنتج أنه كان من المتوخى
 أن تنفذ الخطة برمتها بعد أشهر قليلة .

وكانت هذه الخطة هي سر النشاط الهجوم الذي كان يقوم به الأركان
 الألمان الذين كانوا يعدون خطط الحرب في المستقبل . وبإمكاننا أن نذكر أن
 هذه الخطط لم تكن جديدة تماماً : فقد سبق لبراوشتش وهالدر وباولوس أن
 عبروا عنها في خريف عام ١٩٤٠ بعد انهيار خطة « سبع البحر » . ولكنها في
 ذلك الوقت كانت تقوم على أساس جديد تماماً : أي إحراز النصر على الاتحاد

السوفييتي ، لا الاستغلال الأشمل للتحالف مع إيطاليا للقيام بعمليات أوسع في البحر المتوسط .

وقد نصت خطة يولييه ١٩٤١ التي وضعها الأركان العامة الألمانية على الانتهاء من عملية بارباروسا في الحريف ، وحينئذ يأتي دور الهجوم على إيران في شتاء ١٩٤١ - ٥٢ . وفي نفس الوقت كان على عشر فرق - خمس منها مصفحة وميكانيكية - أن تزحف بموافقة تركيا على سوريا والعراق عبر الأناضول . ولكن في حالة مقاومة تركيا ، برغم انتصار النازيين على الاتحاد السوفييتي ، كان الأمر يستلزم ٢٠ فرقة ، وكان لا يمكن تنفيذ الخطة إلا بحلول ربيع عام ١٩٤٢ .

وبشكل أو آخر كانت خطط مماثلة توجه وضع الاستراتيجية البحرية فيما يتعلق بالحرب . وقد تضمنت خطة ٨ أغسطس ١٩٤١ تعزيز قوات المحور في شمال إفريقيا بقصد الاستيلاء على طبرق التي كانت تشكل عقبة في طريق الهجوم على مصر . وبالإضافة إلى ذلك كان من المتوخى أن يحتل الألمان جبل طارق بالاشتراك مع إسبانيا (العملية فليث) - وكان موعد تنفيذها هو عام ١٩٤١ . وبالإضافة إلى ذلك اقترحت القيادة البحرية القيام بهجوم على سوريا وفلسطين في اتجاه مصر عبر تركيا ، بالإضافة إلى الهجوم على مصر من ليبيا في أواخر عام ١٩٤١ وأوائل عام ١٩٤٢ . أما فيما يتعلق بربيع عام ١٩٤٢ فقد وضعت خطط القيام بهجوم من القوقاز في اتجاه الخليج (العربي) وكذلك العراق وسوريا ومصر . وكان من المتوخى أن تنفذ هذا الهجوم قوة ميكانيكية . وكانت الخطط مبنية على افتراض أن تركيا ستنضم إلى المحور بعد اندحار الاتحاد السوفييتي . ولكن كان يجب تأجيل الهجوم على سوريا عبر الأناضول حتى ربيع عام ١٩٤٢ في حالة عدم قيام تركيا بذلك . وقد توقع واضعو استراتيجية هتلر أنهم سيحققون أهدافهم في ٨٥ يوماً إذا ما وافقت تركيا ، وفي ١٤٥ يوماً إذا لم توافق . وكان من رأى القيادة البحرية أن تنفيذ الخطط يتطلب ليس فقط تعاون تركيا . بل أيضاً تعاون فرنسا - إذ أن تنظيم النقل وإعداد قوات المحور لإعداداً كافياً كان يتضمن استخدام الأملاك الفرنسية في إفريقيا .

ولم تشغل البلدان العربية مكاناً ضئيلاً في هذه الخطط . فالتعليقات رقم ٣٢

كانت توقع زعزعة مركز إنجلترا في الشرق الأوسط إلى حد كبير إذا ما نشبت القلاقل هناك في الوقت المناسب^(١) ودعت إلى تنسيق النشاط الحربي والسياسي والدعائي الذي كان الهدف منه إثارة القلاقل في البلدان العربية . وكان من المتوخى أن تكون سوندرستاب ف محور هذا النشاط .

وفي ٢١ يونيو ١٩٤١ صدرت تعليمات خاصة بالعمليات إلى سوندرستاب ف ، وقع عليها القائد العام للقوات المسلحة الألمانية كاينل . وقد وضعت الخطوط العريضة للمهام الآتية : (أ) الاتصال بالقوى المعادية للبريطانيين في الشرق الأوسط ودفعها إلى اتخاذ إجراءات في الوقت المناسب لمساندة العمليات الحربية الألمانية (ب) تزويد الجيش الألماني بمعلومات عن كل بلد في الشرق الأوسط ، (ج) تنظيم تزويد هذه البلدان بالأسلحة ، (د) تدريب قادة وعلماء للقيام بعمليات سرية معادية لبريطانيا ، ونحصر للجنتال فلمي خبراء وعلماء مدربين ووضعت خطة لإنشاء وحدة خاصة تتكون من فصيلة مجهزة بأنواع مختلفة من الأسلحة . وكان من المتوخى أن ترسل سوندرستاب ف . هيئة اتصال إلى سوريا^(٢) حيث كان القتال لايزال دائراً حين صدرت التعليمات وكان عليها أن تقيم اتصلاً بالمحققين العسكريين الألمان في أنقرة وطهران . وكان من المتوخى أن يعمل جروباً بصفته أداة اتصال لحساب وزارة الخارجية الألمانية^(٣) .

وقد ظهرت هذه الخطط في وقت كان فيه القادة السياسيون والعسكريون في ألمانيا الاستعمارية قد أثماتهم أنتصاراتهم في بولندة وفرنسا والبلقان بحيث فقدوا كل تقدير لإمكاناتهم الحقيقية . ولم يقيض إلا لقليل من هذه الخطط أن يرى النور . ويقتصر أمرها على أنها تذلل على الأهداف التي يبتها النازيون للبلدان العربية - وسرى أن إجراءاتهم السياسية كانت تعتمد على هذه الخطط ، وما يحذر ذكره بهذا الصدد أن خطر الهجوم على الشرق الأوسط من ناحية الشمال

(١) بإمكاننا أن نستنتج أن الدرس الذي تلقته واضعو التعليمات من الثورة العراقية جعلهم يؤكدون الحاجة إلى تنسيق الخطوات المحلية مع العمليات الحربية الألمانية .
(٢) سبق أن ذكرنا أن الكولونل ماير - ركس ، أحد رجال سوندرتاب ف ، وصل إلى سوريا في أواسط يونيو .

(٣) لم يكن توزيع المسؤولية بين سوندرستاب ف ووزارة الخارجية الألمانية يتميز بالوضوح ، حيث تسبب في صراعات مغلها ذو طبيعة تتصل بالهوية الشخصية .

كان يمثل كابوساً حقيقياً بالنسبة إلى القيادة البريطانية خلال النصف الثاني من عام ١٩٤١ وقسط كبير من عام ١٩٤٢ . وقد كتب مؤرخ إنجلترا الرسمي ما يلي : « ولكن كانت المسألة إلى أى مدى ستقاوم روسيا ؟ فى حالة انهيارها ستوفر قوات كبيرة صالحة للاستعمال فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وسيصبح الشرق الأوسط عرضة للهجوم من اتجاه جديد » . وكان الخطر يتمثل فى أذهان القادة العاملين باستمرار لفترة تزيد على عام . وإن يكون بإمكاننا أن نفهم كثيراً من قراراتهم فهما سلباً إلا فى حالة تحقق هذا الاحتمال . ونحن نعرف الآن أن التهديد لم يخرج إلى حيز التنفيذ ، ولكن لم يكن من المأمون بالنسبة إليهم أن يعتقدوا أنه لم يخرج إلى حيز التنفيذ ، ولم يكن باستطاعة البريطانيين أن يقوموا بالكثير فى التصدى لمثل هذا الهجوم القادم من الشمال . وفى عام ١٩٤٢ كانوا لا يزالون يعملون حساباً لاحتمال أن تجددهم هجوم ألمانيا على الجبهة السوفيتية سينتلهو هجوم على إيران لم يكن باستطاعتهم أن يقوموا بالكثير لمنع وقوعه . وقد كتب القادة العامون لقوات الشرق الأوسط فى يناير ١٩٤٢ ، معبرين عن رأيهم الخاص بالموقف الذى أوجده ظهور جبهة جديدة فى الشرط الأوسط مايلي : « نحن فى الواقع نعتمد على حدوث هذا الهجوم » . ونحن نعلم أن الهجوم المتوقع لم يحدث ، لأن القوات السوفيتية أوقفت الغزاة برغم آمال المحور ومخاوف الحلفاء .

فشل بربار وسا

والهجوم لليابانى على بيرل هاربر

ونتيجة للمقاومة الصلبة التى أبدتها الجيش الأحمر ، لم تستطع ألمانيا النازية أن تحقق الأهداف التى علقها على الهجوم على الاتحاد السوفيتى ، فانهارت خطة الهجوم على بلدان الشرق الأوسط من الشمال والشرق . ولكن فشل بربار وسا كان له أثر مخالف فى الشرق الأوسط : فقد أبرز مسألة البلدان العربية من جديد ، قبل الانتصار النازى فى روسيا .

وبموافقة هتلر صدرت مذكرة فى ٢٨ أغسطس ١٩٤١ كان من المتوخى أن توزع على نطاق محدود جداً ، جاء فيها لأول مرة أن الجيش الألمانى قد لا يحقق

خلال ذلك العام أهدافه في الاتحاد السوفييتي - أي الاستيلاء على آبار البترول في القوقاز وعلى القوقاز وأركانجل ومورمانسك . ومضت المذكرة تقول إن القتال سيستمر في هذه الحالة خلال عام ١٩٤٢ ، وأن نتائج خطيرة ستمتخض عن ذلك وبوجه خاص بالنسبة إلى الشرق الأوسط . وتوقع واضعو المذكرة فيما توقعوه أن الاتحاد السوفييتي والمملكة المتحدة سيقومان بإجراءات مباشرة في إيران (وبالفعل عبرت قوات سوفيتية وبريطانية الحدود الإيرانية في ٢٥ أغسطس) . وكان من المتوقع أن يتأخر الاصطدام بين اليابان وروسيا ، وكان من المحتمل أن لا تدخل تركيا وإسبانيا إلى جانب المحور وأن تواصل فرنسا سياستها القائمة على التقرب الحذر وتحسين وضعها الخاص . ومن ناحية أخرى كان من المتوقع أن تقوى إنجلترا وضعها في الشرق الأوسط ، فيمكنها بوجه خاص أن تدعم قواتها في مصر وتستغل مساعدة الولايات المتحدة دون عوائق . وفي حالة عدم قيام ألمانيا بعمل مضاد تقوم إنجلترا بطرد المحور من شمالي إفريقيا وتتحكم في البحر المتوسط دون منازع . وقد توصل واضعو المذكرة من التحليل السابق إلى النتائج الآتية : لا تزال مهمة ألمانيا الرئيسية هي إنزال الهزيمة بالروس ومن واجبها ألا تقوم بمواجهة بريطانيا إلا بعد دحر الاتحاد السوفييتي . ولكن كان لابد قبل ذلك من تحويل غواصات وكاسحات ألغام وزوارق طوربيد إلى البحر المتوسط ، وكذلك مواصلة «حصار إنجلترا» بكل الوسائل الممكنة . وكان يستحسن لو استطاع الألمان استغلال القواعد الفرنسية والإسبانية - ولكن هذا كان لا يمكن أن يتم إلا بموافقة بتان وفرانكو . وذهب واضعو المذكرة إلى ضرورة توثيق العلاقات السياسية والعسكرية مع فرنسا وإسبانيا ، ولكن على ألا تدخل الحرب ، لأن ألمانيا لم تكن لديها القوات الكافية لمساعدتهما . ومن ناحية أخرى ستكون لدخول تركيا الحرب ميزة عسكرية كبرى في أي وقت - وكلما كان مبكراً كان أحسن . وكان من رأى واضعي المذكرة أن اشترك تركيا في الحرب سيشتغل قوات سوفيتية وبريطانية كبيرة ، ويسمح بسرعة الاستيلاء على منطقة البترول في القوقاز ، ويضع الألمان في موضع يمكنهم من مهاجمة مصر عن طريق شرق الأردن في عام ١٩٤٢ . وفي بداية سبتمبر حددت هيئة الأركان الألمانية والإيطالية أوائل نوفمبر ١٩٤١ باعتبارها موعد الاستيلاء على طبرق . ولكن ثبت استحالة ذلك بسبب الخسائر

الجسيمة التي منيت بها قوافل المحور في البحر المتوسط . وفي ظل هذا الموقف صدرت الأوامر إلى الفرقة الجوية رقم ١٠ بأن تقوم بحماية القوافل . وبالتدريج تحولت الغواصات الألمانية إلى البحر المتوسط ، وبحلول أواخر ديسمبر بلغ عددها ٢١ غواصة . كما تقرر تحويل الفرقة الجوية رقم ٢ من الجبهة الشرقية والأسطول الجوي رقم ٢ - ولكن هذا لم يتحقق بحلول خريف تلك السنة . وعين كسلرنج قائداً عاماً للجبهة الجنوبية ، ووصل إلى روما في ٢٨ نوفمبر . وطبقاً للتعليمات رقم ٣٨ الصادرة في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤١ كانت مهمته إحراز التفوق البحري والجوى في المنطقة الممتدة بين جنوبي إيطاليا وشمال إفريقيا ، وبذلك يؤمن مواصلات المحور . كما كان من المتوخى أن يتعاون كسلرنج مع القوات الإيطالية في شمال إفريقيا ، وأن يقطع مواصلات بريطانيا في البحر المتوسط . وقد وجه اهتماماً خاصاً إلى الحاجة إلى شل القاعدة البريطانية في مالطة .

وطبقاً لما نصت عليه التعليمات رقم ٣٢ تلقت قوات المحور في شمال إفريقيا بعض التعزيزات في صيف وخريف ١٩٤١ : فرقة ألمانية أعدت خصيصاً للخدمة في إفريقيا ، وفرقة إيطالية ميكانيكية ووحدات مدفعية . ولكن لم ترسل دبابات جديدة . ويجب أن نعزو زيادة عددها من ١٨٠ إلى ٢٥٠ إلى إصلاح ما عطب منها . وكان تعيين كسلرنج تنويعاً لسلسلة من الإجراءات العسكرية التي ضمنت دور ألمانيا في البحر المتوسط وحددت حرية إيطاليا في العمل بشكل خطير . وقد أشارت التعليمات رقم ٣٨ بوضوح إلى توسيع وضمان وضع ألمانيا الخاص في البحر المتوسط وحصول الريخ على نفوذ كبير فيما يتعلق بالمزيد من تحريك الموقف في تلك المنطقة .

وقد تمخضت الإجراءات التي اتخذت على الجبهة الجنوبية ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه ، عن أثر مخالف بالنسبة إلى وضع بريطانيا في شمال إفريقيا . وبحلول نهاية عام ١٩٤١ برزت أحداث أخرى كان لها تأثير كبير على الموقف في الشرق الأوسط .

ففي ٧ ديسمبر ١٩٤١ هاجمت اليابان القاعدة الأمريكية في بيرل هاربر ، واستغل اليابانيون تفوقهم الجوي والبحري نتيجة لتحطيم الأسطول الأمريكي والسفن الحربية البريطانية قرب الشاطئ الهندي (١٠ ديسمبر ١٩٤١) واحتلوا الفلبين

والملايو وبورما والهند الشرقية البريطانية في وقت قصير . وبحلول إبريل ١٩٤٢ كان اليابانيون قد وصلوا إلى الحدود الشمالية الشرقية للهند البريطانية . ولمواجهة هذا الموقف أرسل البريطانيون إلى الشرق الأقصى تعزيزات كانت مخصصة في الأصل للجبهة الإفريقية .^١ ونقل إلى هناك عدد قليل من الوحدات من الشرق الأوسط . وبازياد تقدم اليابان في المحيط الهادئ ، ازداد أيضاً ضغط أستراليا ونيوزيلندا على مجلس الوزراء البريطاني لكي يسمح بعودة قواتهما الحربية التي كانت تشكل جزءاً كبيراً من الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط . وفي النهاية وافقت لندن على ذلك .

عام ١٩٤٢

شهد قسط كبير من عام ١٩٤٢ انتصارات محورية على كل الجبهات . وكان الألمان يعدون لهجوم جديد في اتجاه قناة السويس ، في الوقت الذي كانت فيه وكالاتهم العسكرية والسياسية منهمكة في القيام بنشاط دعائي . وبالإضافة إلى ذلك فقد حفزت الحملة الروسية التوسع في أوجه النشاط هذه ، ليس فقط فيما يتعلق بالدعاية المعادية للشيوعية ، بل أيضاً فيما يتعلق بالسكان المسلمين . كما أقام الألمان صلات مع الزعيم الوطني الهندي سبهاش شاندرابوس Subhas Chandra Bose وكانت هيئة سوندرستاب ف ، في الأصل مهمة بالشئون العربية ، ولكنها ما لبثت أن وسعت مجال عملها بحيث شمل الهند . وكانت توجد خطة تقضي بضم وحدات عربية وهندية - معظمها من أسرى الحرب - إلى القوات الألمانية العاملة في الشرق الأوسط . وبسبب ازدياد عدد الوكالات المهمة بمشكلات الشرق الأوسط جرى توزيع العمل في وزارة الخارجية الألمانية - فوكلت الإدارة العامة للشئون الشرقية إلى إرنست فودمان - وكيل الوزارة ومدير القسم السياسي - وتم تعيين سفير ألمانيا في نيودلهي في فترة ما بعد الحرب - ملشرز - مديراً لمكتبه ، كما عين موظف آخر من القسم السياسي السليح - واسمه شلوبيز Schlobies - مساعداً له . وكان علي وكيل الوزارة كبلر Keppler ، يساعده كاپ Kapp ودكتور تروت زوسولتز Trott zu Solz - المسئول عن

الشئون الهندية والفرقة الهندية - أن يقيم اتصالات مع بوس . وعهدت شئون العراق إلى دكتور فرتز جروبا يساعده فون فالكنتشتاين ، كما كان عليه أن يراقب انتظام الاتصالات مع سوندرستاب ف والزعماء العرب : الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني وفوزي القاوقجي - وكانوا قد وصلوا إلى أوريا . وكان على فون هنتج^(١) أن يهتم بحركة الجامعة الطورانية وبالاتصال بالوطنيين الإيرانيين وخديو مصر السابق عباس حلمي .

وبرغم وجود جبهة في شمالي إفريقيا، فإن برلين جعلت القيام بمزيد من النشاط في العالم العربي متوقفاً على الحملة السوفيتية - أي على القطاع الجنوبي من الجبهة . وقد صرح هتلر في مقابلة تمت بينه وبين المفتي في ٢٨ نوفمبر بما يلي : « . . سنصل في قتالنا . . . إلى جنوبي القوقاز . . . ثم سندق ساعة تحرير العرب . » ويتفق هذا مع تقدير براوشتش للاحتمالات العسكرية . وكان من المعتقد أن ليبيا لا يمكنها إلا أن تكون مسرحاً ثانوياً للحرب ، لأن قدرة بريطانيا على حشد التعزيزات والمؤن هناك كانت تفوق قدرة ألمانيا - ولهذا أكد وجوب بناء استراتيجية الريخ على مهاجمة مصر من اتجاهين : الغرب والشمال . ومن النقاط التي وضعت ليسترشد بها هجوم الصيف أن الاستيلاء على تفليس كان يجب أن يسجل نقطة تحول في سياسة الريخ العربية . فالبحر كان يود أن يعلن من عاصمة جورجيا قيام حكومة عراقية جديدة ، وأخرى لسوريا الكبرى وإيران ، ويدعو العرب إلى رفع لواء الثورة . ومن المحتمل أنه كان من المتوخى أن يكون هذا بمثابة شارة البدء بالنسبة إلى الهجوم عبر تركيا وسوريا وفلسطين .

وفي نهاية نوفمبر ١٩٤١ أخبر هتلر الكونت شيانو بأنه كان يود أن تشترك القوات الإيطالية في معارك القوقاز وما وراءها . ووعده وزير الخارجية الإيطالية بأن تكون المناطق الواقعة جنوب القوقاز جزءاً من منطقة نفوذ روما^(٢) .

(١) أصبح فون هنتج فيما بعد ممثلاً لوزارة الخارجية الألمانية لدى القوات الألمانية في القوقاز .

(٢) Ciano's Diplomatic Papers, London, 1948, p. 464.

وقد صرح هتلر بما يلي (وقد ورد ذلك في مذكرات شيانو) : « ما أن تغلب على الجبال حتى يجب أن تزداد مساهمة إيطاليا بالضرورة ، خاصة وأن المعركة ستكون حينئذ قد انتقلت إل قطاع مقيض له أن يشكل جزءاً من مجال إيطاليا الحيوي » . وكان تعليق شيانو أن هذا هو أهم تصريح أدلى به القومرر . ولكن =

ولكن كان من رأى القيادة العسكرية وإدارة وزارة الخارجية أن من المستحيل القيام بهجوم من الشمال فى اتجاه الشرق الأوسط بدون تركيا . وقد ورد فى بحث فورمان المعنون « ملحوظات عن تركيا والمسألة العربية » ما يلى : « بعد أن تم بحث المسائل العسكرية الداخلة فى هذا الموضوع ، ظهر الرأى الخاص بأن من المستحيل تنفيذ عملية " الشرق الأدنى " بدون التحالف مع تركيا » . وبعد اختبار شبكة المواصلات التى تتجه صوب الجنوب من القوقاز توصل مؤلف نازى إلى النتيجة الخاصة بأن سكك حديد القوقاز ، باستثناء خط باكو - باطوم ، غير صالحة لعمليات نقل كبيرة جداً ، على حين أن الطرق التى تربط الحدود السوفيتية بتركيا كانت أحسن من الطرق المؤدية إلى إيران وأكثر صيانة منها . ولكنه ذهب إلى أن عملية إنشاء الطرق على نطاق واسع تمت هناك بعد أن اجتازت القوات السوفيتية والبريطانية حدود إيران . كما أشار إلى أن زحف القوات السوفيتية على شمالى إيران قد أوضح أن نقل الآلات الثقيلة أمر ممكن فى الموسم المناسب ، حتى على طرق كانت عادة غير صالحة للنقل العادى .

ولما كان النازيون قد بدعوا بهذه الاعتبارات العسكرية ، فقد كان عليهم - كما سنرى - أن يصلوا إلى قرارات سياسية معينة بصدد البلدان العربية . فثلاً أصبح من الواضح ضرورة النظر إلى مطالب تركيا بعين الاعتبار لأنها كانت شديدة الاهتمام ، بصورة حيوية ، بما يجرى على حدودها الجنوبية . على أن المعروف أن القوات الألمانية لم تصل إلى تفليس على الإطلاق وأن تركيا لم تدخل الحرب إلى جانب ألمانيا .

وقد أدى دخول ألمانيا الحرب إلى إيجاد عوامل جديدة فى سياسة ألمانيا فى الشرق الأوسط . فلم تنسق القيادة العليا فى كل من الدولتين عملياتهما الحربية ، ولكن لما كان الألمان يهدفون إلى الوصول إلى الخليج (العربى) عبر القوقاز ، ولما كان اليابانيون قد وضعوا خططاً للزحف صوب الهند والقسم الغربى من الخليج (العربى) ، فقد جرى البحث حول احتمال تلاقى قواتهما فى مكان ما على الخليج (العربى) .

= لا يبدو أن هتلر كان يأخذ هذا التصريح مأخذ الجد (انظر ما يلى) . ولم يرد هذا البعد فى مذكرات شمت الخاصة بمحادثات هتلر - شيانوالى جرت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤١ .

كما أن أركان الحلفاء وضعوا هذا الاحتمال في عين الاعتبار . وبإمكاننا أن ننبئ من تقرير رايدر إلى هتلر بتاريخ ٣ فبراير ١٩٤٢ أن الألمان كانوا يتوقعون أن يعرقل الأسطول الياباني في المحيط الهندي مواصلات بريطانيا مع الهند والشرق الأوسط بصورة خطيرة .

وفي أواخر مارس وفي أبريل ١٩٤٢ نشطت البحرية اليابانية في خليج البنغال وأحرزت تفوقاً بحرياً كاملاً في هذه المنطقة . وتعرضت سيلان للهجوم في أوائل أبريل - وفي رسالة بعث بها تشرشل إلى روزفلت في ١٥ أبريل سنة ١٩٤٢ أشار إلى ضخامة أثر هذا الحدث في الشرق الأوسط :

« إلى أن نستطيع القيام بعمل بحري ، ليس ثمة ما يحول دون أن يصبح اليابانيون العامل الرئيسي في غربي المحيط الهندي . وسيترتب على كل هذا انهيار وضعنا في الشرق الأوسط برمته ، ليس فقط بسبب عرقلة قوافلنا المتجهة إلى الشرق الأوسط والهند ، بل أيضاً بسبب اعتراض المؤن التي نحصل عليها من عبادان والتي بدونها لا يمكننا أن نحافظ على مركزنا في منطقة المحيط الهندي ، سواء في البر أو في البحر . وستتوقف كذلك المؤن المتجهة إلى الاتحاد السوفيتي عبر الخليج العربي » .

وكان اليابانيون منذ فبراير قد بلغوا حلفاءهم الألمان بأنهم ينوون إنشاء قواعد في سيلان ومدغشقر . وبإمكاننا أن نستنتج أن الألمان لم يكونوا شديدي الحماسة لاحتمال وجود قاعدة في مدغشقر^(١) - إذ طبقاً لاتفاقية ١٨ يناير ١٩٤٢ كان يجب أن يمر الحد الغربي لمنطقة الحرب اليابانية على طول خط طول ٧٠° شرقاً . وبرغم ذلك فإذا بنينا حكمنا على المحادثة التي دارت بين السفير الياباني في برلين وبين ريبنتروب في ٢٣ مارس ١٩٤٢ ، كان الألمان على استعداد لإقرار هذه الخطوة ، لأنهم رأوا أنها ستسهل عملياتهم في جبهة شمالي إفريقيا إلى حد كبير . وقد نظرت برلين إلى اقتراب القوات اليابانية من الأراضي العربية بوجه عام بعين الاهتمام . وهكذا بدأ موقف اليابان يلعب دوراً معيناً في سياسة ألمانيا الخاصة

(١) بنى هذا على رد فعل هتلر إزاء تقرير قدمته القيادة العليا البحرية في ١٢ مارس ١٩٤٢ . كما يبدو من مذكرات فورمان إلى ريبنتروب أن هذا الاحتمال أثار نوعاً من القلق في الدوائر السياسية الألمانية .

بالبلدان الغربية إذ بدأت تبرز المشاكل فيما يتعلق بتقسيم مناطق النفوذ في المستقبل بين الشريكين الأوروبيين في الميثاق الثلاثي وحليفهما الآسيوي .
 وبما له مغزاه أن هذه المشكلة برزت في أوائل عام ١٩٤٢ ، ثم اختفت في نفس السنة . وكانت الأهداف الرئيسية لزحف اليابان صوب الغرب هي شن هجوم برى وبحرى في خليج البنغال ، والهجوم على ميناء ومطار كوليبو ، وبرغم النصر الذي أحرزه اليابانيون ، فلمهم منوا بخسائر فادحة في هذه العمليات ولم يستطيعوا مواصلة الهجوم — إذ يجب أن نذكر أن جزءاً كبيراً من قواتهم كان مشغولاً في الصين . لهذا لم يحتل اليابانيون سيلان ، في الوقت الذي تحصن فيه البريطانيون في مدغشقر . وظل الطريق إلى النيل عبر رأس الرجاء الصالح مفتوحاً . وكان على العملاء الألمان في لورنزوماركيز الواقعة على ساحل موزمبيق — وكانوا قد زودوا برلين بمعلومات عن تحركات السفن البريطانية — أن يواصلوا إبلاغ رؤسائهم بأن القوافل البريطانية واصلت إبحارها إلى مصر على طول ساحل إفريقيا الشرق . وبالإضافة إلى ذلك فما حلت نهاية عام ١٩٤٢ حتى كان الاندحار على الفولجا والهزيمة في شمال إفريقيا قد جعلتا النظام ينشغل بمشاكل أكثر أهمية بالقرب من الوطن .

وفي الفترة الممتدة من خريف عام ١٩٤١ إلى خريف عام ١٩٤٢ كان للنجاحات التي أحرزها الألمان على الجبهة السوفيتية أثر كبير على سياسة ألمانيا الخاصة بالعالم العربي — هذا برغم أن الهدف الرئيسي من عملية بربروسا قد انهار من أساسه في أثناء تلك الفترة . وقد اتضح هذا حتى في صيف عام ١٩٤٢ حين كان يبدو أن انتصارات روميل تنذر بالاحتلال السريع لمصر .

من طهران إلى برلين

جزت الاستعدادات المباشرة للحرب في الشرق وشن الهجوم على الاتحاد السوفيتي في وقت شهد ضعف النشاط الألماني في العالم العربي . وبعد الانقلاب الفاشل الذي جرى في العراق واستيلاء القوات البريطانية والديجيولية على سوريا ولبنان أصبح الاتصال بالعرب أكثر صعوبة .

وحتى في أثناء نشوب القتال في سوريا ، شعر النازيون بأنه لا يوجد هناك زعماء يتميزون بالصلاية والقسوة من أمثال المفتي . و برغم التطورات السيئة التي أصابت الموقف في المشرق العربي في عام ١٩٤١ ، فقد حاول الألمان الإبقاء على الاتصال بالزعماء الوطنيين . وقد أصدر فايز ساكر أوامر خاصة في أول يونيو جاء فيها أن لا مجال للاعتقاد بأن الألمان يتخلون عن أصدقائهم في وقت الهزيمة ومن الواضح أن الدافع وراء هذا هو أن مزيداً من تحريك السياسة الألمانية كان من شأنه أن يتعرض للخطر ما لم يقوموا بذلك . وقد راجعت وزارة الخارجية الألمانية احتمال فتح مجال العمل السياسي أمام زعماء الثورة العراقية ، وكانت على استعداد لتمويل القادة العرب الذين لجئوا إلى إيران . وفي ١٢ أغسطس أصدر وكيل الوزارة فورمان أمره إلى ملشرز بأن يدعو إلى برلين مفتي القدس وغيره من كبار زعماء ثورة فلسطين من العرب . ونشطت برلين في مساعدة الفلسطينيين الذين كانوا يقيمون في سوريا على الانتقال إلى تركيا التي كانوا يأملون أن ينتقلوا منها إلى بلدان واقعة تحت سيطرة المحور .

على أنه قد ثبتت صعوبة نقل الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني إلى أوزبا . فقد كان كلا الرجلين في عاصمة إيران حيث أصبح موقفهما حرجاً على أثر غزو هتلر للاتحاد السوفيتي . وحتى قبل ذلك الوقت كانا قد منعا من القيام بأي نشاط سياسي نتيجة للضغط البريطاني على الحكومة الإيرانية . وبعد غزو الاتحاد السوفيتي لم تنفك بريطانيا والاتحاد السوفيتي يثران مسألة النشاط الألماني في فارس . ولم يسر الشاه وحكومته لتعرضهم للاتهام بالسماح لأعداء بريطانيا بالقيام بنشاط في إيران . ويبدو أن السلك الدبلوماسي الألماني والإيطالي تنافسا في القيام بمحاولات بلحذب الزعيمين العربيين كل إلى بلده (إيطاليا وألمانيا) . وأصبح وضع نصيري المحور (الحسيني والكيلاني) قلقاً بسبب ضغط دول الحلفاء ، وكان عليهما أن يفكرا في كيفية مبارحة إيران على جناح السرعة . ورأت سلطات برلين أن الطريقة الوحيدة لذلك هي عبر تركيا ، كما هو الواقع . على أن الأتراك كانوا مترددين في منح تأشيرات للرجلين المشاغبين اللذين كانت آراؤهما الخاصة بالوحدة العربية لا تحظى بعطف أنقرة . وتدخل الألمان للحصول على هذه التأشيرات — وليس من المعروف مدى قوة الطلب ، ولكن من المحتمل

أن النازيين الذين كان يسكرهم توقع نصر سريع في الاتحاد السوفيتي ، لم يتبينوا الخطر الذي كان يهدد أنصارهم في إيران^(١) . وبإمكاننا أن نفترض أن البريطانيين أبلغوا الحكومة التركية اعتراضاتهم على مبارحة المفتي والكيلاني لإيران . وكانت حكومة لندن تهدف إلى القضاء على حرية حركة هذين الزعيمين العربيين ومنعهما من الوصول إلى أوروبا^(٢) . وبإمكاننا أن نشك في قيام البريطانيين بمحاولات للتدخل لدى الحكومة التركية فيما يتعلق بالمفتي تفوق ما يتعلق برئيس وزراء العراق السابق .

وفي منتصف يولية حصل الكيلاني على تأشيرة تركية ، وفي ٢٠ يولية بارح طهران وعبر الحدود الإيرانية مع فريق من أنصاره في ٢٢ يولية . ولكن لم يمنحه الأتراك تأشيرة مرور ، ثم رفضوا السماح له بمبارحة البلاد والتوجه إلى برلين . على أن الكيلاني نفسه قد ذهب إلى أنه وعد بطريقة ودية بعدم الممانعة في مبارحته البلاد سراً . وفي ظل هذه الظروف اتخذت وزارة الحرب الألمانية خطوات لإخراجه من تركيا . وقد اتخذت القرارات اللازمة في ١٧ نوفمبر في مؤتمر انعقد في أنقرة حضره فون باين وموييتش Moysich والمبعوث شمت . وفي ٢١ نوفمبر رحل الكيلاني من الآستانة في طائرة ألمانية . ويذكر لفركون Leverkühn^(٣) — من أعداء عملية الطيران هذه — أن رشيد عالي بارح تركيا بصفته عضواً في بعثة صحفية ألمانية قدمت إلى إستنبول في طائرة ريبنروب بناء على دعوة من تركيا . وقد بلغ المسؤولون الألمان الأتراك بأن البعثة ستكون من ثمانية أشخاص ، ولكن لم يصل سوى سبعة . وحين رحلت البعثة ، ضمت معها الكيلاني — الذي كان مغطي

(١) حداد : حركة رشيد على الكيلاني سنة ١٩٤١ ، ص ١٣٤ - ٦ . ونحن نستق نفس الانطباع من الرسائل التي بعث بها إيتل من طهران خلال هذه الفترة : من أواخر يولييه إلى أواخر أغسطس ١٩٤١ .

(٢) منذ الشهور الأولى من الحرب قامت الحكومة البريطانية بمحاولات لإغراء زعماء الثورة الفلسطينية بالعودة إلى البلاد .

(٣) ألف ليفركون كتاباً بعنوان «إدارة المخابرات التابعة للجيش الألماني خلال الحرب» (فرانكفورت على المين ، ١٩٥٧ ، ص ١٦٧ - ٨) جاء فيه أن الكيلاني استعمل — في أثناء ركوبه الطائرة — جواز سفر باسم فاكرناجل Wackernagel ، وتذكر وثائق وزارة الخارجية الألمانية أنه كان يحمل بطاقة تحقيق شخصية باسم هرفورتمان Worthmann .

بضمادات - بصفته العضو الثامن الذي منعه المرض من الاشتراك في الاستقبالات والرحلات التي نص عليها برنامج البعثة . وبقى وصوله إلى ألمانيا في جيز الكمان وظل معتكفاً عدة أيام . ثم أعلن بعد ذلك أنه استطاع الهرب بجهوده الخاصة من تركيا إلى بلغاريا عن طريق البحر الأسود .

وثبت أن الوضع كان أصعب بالنسبة إلى المفتي الذي كانت تحركاته مثار اهتمام أكبر . فإذا ما جاز لنا أن نصدق روايات المحيطين به ، سنجد أن الاهتمام به لم يكن مقصوراً على الألمان ، بل إنه امتد إلى الإيطاليين الذين كانوا يعدونه بالمال لفترة طويلة ، بل إلى البريطانيين أيضاً^(١) وأن كل فريق كان مهتماً باجتنابه إلى صفة . فقد وضع البريطانيون خططاً خاصة بالاستيلاء على البلاد^(٢) ، ومن المؤكد أنهم لم يرغبوا في أن يبارح المفتي وأنصاره إيران . وعلى أي حال فإن المفتي لم يحصل على تأشيرة تركية . وقد سبق أن ذكرنا أن القوات البريطانية والسوفييتية عبرت حدود إيران في ٢٥ أغسطس ودخلت العاصمة في ١٧ سبتمبر ؛ ولكنها لم تتوصل إلى مفتي القدس . وقد قبض البريطانيون على كثير من الزعماء الفلسطينيين العرب ممن هربوا معه من العراق (من بينهم ابن عمه جمال الحسيني وأمين التميمي) واعتقلتهم في روديسيا الجنوبية . كما قبض على عثمان كمال حداد - السكرتير الخاص للمفتي - وعلى الضباط العراقيين الذين قادوا الثورة . وبعد أن

(١) أخبر حداد إيتل بأن نوري السعيد - الذي كان حينئذ سفيراً للعراق في القاهرة - كان قد كتب إلى الحاج أمين الحسيني ؛ بواسطة ولي عهد مصر الأمير محمد علي ؛ مقترحاً الاتفاق مع إنجلترا . وقد زعم نوري السعيد أن إنجلترا لم تكن تستطيع بأي حال من الأحوال أن تقوم بعمل جديد إزاء المشكلة الفلسطينية وذلك بسبب اليهود الأمريكيين ، وأن الأمر لن يكون كذلك فيما بعد الحرب . ولا يمكننا أن نرفض هذا الخبر دون تمحيص إذا ما وضعنا نصب أعيننا الأساليب السياسية التي كانت تتبعها بريطانيا في إمبراطوريتها بوجه عام وفي البلدان العربية بوجه خاص - هذا ورغم أن ازدياد توتر العلاقات بين المفتي والحكومة البريطانية يجعلنا أميل إلى عدم تصديقه . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الحاج أمين يهتم بأن يظهر بمظهر الشخص الذي يخطب الجميع وده . عل أن عدم إشارة حداد إلى اقتراح رجوع المفتي إلى فلسطين ما يشهد على صدق معلوماته - إذ لم يكن من الممكن توقع تقدم الإنجليز بمثل هذا العرض في ذلك الوقت . ومن هنا فقد كان الاقتراح البريطاني المزعوم يصل إلى حد عرض بالأمان في مقابل موافقته على الاستقرار حيثما يشير عليه البريطانيون في أثناء الحرب وإلى إشارة غامضة إلى المستقبل .

(٢) أطلع السفير المصري في طهران إيتل على معلومات أرسلها إليه (الملك) فاروق فحواها أن البريطانيين قرروا احتلال إيران قبل أن يتلقوا خبر الانتصارات الألمانية العظيمة في الاتحاد السوفييتي (رسالة إيتل ، طهران في ٣ يولية ١٩٤١ - D.G.F.P., XIII, no.6. pp. 77-78)

أعيد الضباط إلى العراق لم يلبثوا أن نفذ فيهم حكم الإعدام . ولم ينج سوى صلاح الدين الصباغ الذي وصل إلى تركيا في أبريل ١٩٤٢ - ولكنه شق في بغداد بعد أن سلمه البريطانيون إلى الحكومة العراقية في أكتوبر ١٩٤٥ :

وفي البداية لجأ الحاج أمين الحسيني إلى المفوضية اليابانية^(١) ، وانقطع كل اتصال له بالعملاء الألمان . ثم هرب إلى تركيا متنكراً ، ومن هناك هرب إلى إيطاليا التي وصل إليها في أواسط أكتوبر . وقد أعدت المخابرات الإيطالية خطة هربه^(٢) . وفي ٢٧ أكتوبر استقبله موسوليني .

وهكذا فما حل نوفمبر ١٩٤١ حتى كان كبار الزعماء العرب الموالون للمحور قد استقروا في أوروبا . وقد سبق أن أوضحنا أنه كان من الواضح في ذلك الوقت أن الحرب لن تنتهي في الجبهات السوفييتية في أثناء تلك السنة ، وبالتالي كان الأمر يستلزم اتخاذ إجراءات معينة في جبهة شمالي إفريقيا . وقد سبق أن أوضحنا أيضاً أن القيادة العسكرية قررت تحريك تلك الجبهة ، ولو بصورة محدودة ، وزيادة اشتراك ألمانيا في المعركة الدائرة بصدد البحر المتوسط . كما لم يتم التخلي عن الخطط الأكثر اتساعاً بخصوص العمليات الحربية المتجهة من الشمال . وازدادت أهمية الشؤون العربية من جديد بالنسبة إلى المحور الذي كان عليه ، بحلول نهاية عام ١٩٤١ ، أن يتبع خطة جديدة فيما يتعلق بالمشرق العربي .

(١) حداد ، المرجع السابق ، ص ١٤١ - رسالة إيتل من طهران بتاريخ ٦ سبتمبر ١٩٤١ .
وفي نفس اليوم طلب الحلفاء من إيران أن تنقل المفوضيات الألمانية والإيطالية والمجرية والرومانية وأن تطرد الممثلين السياسيين لهذه البلاد .

(٢) يذكريفركون (المرجع السابق ، ص ١٦٧) أن المفتي - الذي ارتدى ملابس خادم وزير إيطاليا المفوض - باجح إيران برفقته . ثم توجه إلى روما بمساعدة ممثل إيطاليا الدبلوماسيين .

الفصل الحادى عشر

تصريحات جديدة بشأن المسائل العربية

صيف عام ١٩٤١

فى صيف عام ١٩٤١ احتلت مسألة إصدار تصريح يعترف بالمطالب القومية العربية مكان الصدارة من جديد . حيثند تناولت الوثائق الألمانية هذه القضية مع مسألة إصدار تصريح بصدد « الهند الحرة » . ويبدو من المحتمل أن العرب القاطنين فى أوروبا والمتعاونين مع أجهزة الدعاية الألمانية والإيطالية كانوا يسعون إلى استصدار مثل هذا التصريح . ومن المعروف - على سبيل المثال - أن فوزى القاوقجى حاول الحصول على مثل هذا التصريح ، كما حاول أن يلفت النظر إلى ضرورة تنسيق الدعاية الألمانية فى البلدان العربية وفقاً لهذا الهدف : وما يجدر ذكره أن فوزى أصيب بجرح خطير فى سوريا وأنه نقل إلى ألمانيا فى نهاية يونيو . وفى ذلك الوقت كان سبهاس شندرا بوس يسعى إلى استصدار تصريح يساند « الهند الحرة » - وكان بوس من زعماء الجناح الراديكالى فى المؤتمر الوطنى الهندى^(١).

وكان لهذه الجهود أثرها على المسؤولين والساسة الألمان - ولكن وجدت كذلك عوامل موضوعية من وراء اهتمام ألمانيا من جديد بإصدار التصريح . وفى أثناء نشوب القتال فى العراق وسوريا غطت مشاكل أكثر تحديداً على المسألة : تقديم الأسلحة والمساعدة المالية والاتصالات بالبلدان العربية . ومن المحتمل أن الصعاب التى كان يتضمنها إصدار تصريح علنى يساند المطالب العربية كانت قد ازدادت خلال فترات النشاط المتزايد فى البلدان العربية . ولاعتبارات تتعلق معظمها بالهيبة لم تكن ألمانيا

(١) وصل بوس إلى ألمانيا فى ٢ إبريل ١٩٤١ . وكانت خطته الأصلية تقضى بإقامة حكمة هندية فى ألمانيا على نمط حكومات المنفى القائمة فى لندن . على أن الألمان كانت لديهم اعتراضات قوية - إذ كانوا غير متحمسين لإعلان مثل الهند . ثم تلت ذلك مسألة إعلان « هند حرة » سنتناولها بمزيد من التفصيل فيما بعد . انظر :

تبدو إقحام نفسها صراحة وبشكل استعراضي بوعود لم تكن نتيجتها مؤكدة . وكانت الحاجة هي التي أملت سياسة عدم الاعتراف بالأمانى العربية ، وذلك للحصول على مساندة إيطاليا وفرنسا وتعاونهما . ولكن لم يكن باستطاعة الألمان ، بعد أن حلت بهم الهزيمة في العراق وسوريا ، أن يقوموا بما هو أكثر من مواصلة الدعاية ، لأن الشرق الأوسط كان قد أصبح منطقة للنفوذ البريطاني وحده . وفي ظل مثل هذه الظروف عادت مسألة التصريح من جديد ، فأصبحت ذات أهمية كبيرة .

وقد نستنتج أن فعالية الدعاية الألمانية كانت تعاني من عدم وجود تصريح أوسع نطاقاً من تصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠ . ذلك أن دولي المحور كانتا خلال ربيع وصيف ١٩٤١ تواجهان نشاطاً سياسياً بريطانياً في المشرق العربي . فقد اعترف الكثيرون في الدوائر البريطانية في القاهرة بالحاجة إلى تقديم تنازلات للعرب ، وبخاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين — وكانوا يكادون ينظرون إلى هذه التنازلات باعتبارها لازمة لإنقاذ الإمبراطورية البريطانية . وقد وضعت الدعاية البريطانية هذه الاعتبارات نصب أعينها ، فصرحت بأن مبادئ معينة وردت في الكتاب الأبيض الصادر في ١٧ مايو ١٩٣٩ قد نفذت بالفعل في فلسطين ، وأن العراق حافظ على سيادته برغم انتصار بريطانيا على الثوار . ولكن بريطانيا توسعت في استغلال ضمانها تنفيذ إعلان استقلال سوريا ولبنان الذي صدر عن الفرنسيين الأحرار في ٨ يونيو ١٩٤١ . كما أشارت بريطانيا إلى تنازلات معينة أخرى ترمع تقديمها إلى الوطنيين في هذه البلاد ، وأشارت إلى التصريح الذي أدلى به أنتوني إيدن في ٢٩ مايو ١٩٤١ وعبر فيه عن عطفه على أمانى العرب الخاصة بالوحدة .

وفي الواقع أن العرب لم يبدوا ثقة كبيرة بالوعود الإنجليزية ، وبخاصة الوعود التي قطعت في أثناء الحرب في الوقت الذي ساء فيه موقف بريطانيا وإمبراطوريتها . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحرب التي شنها الإنجليز في العراق والإجراءات التي اتخذها البريطانيون والسوفييت في إيران كان لابد أن تثير سخط الوطنيين .

وقرر الإنجليز وجوب الرد على الدعاية البريطانية المتزايدة بتصريح أكثر تحديداً من سابقه . ويتضح هذا من بعض التصريحات التي أدلى بها مسئولون في وزارة الخارجية الألمانية كانوا يتولون إدارة الشؤون العربية . وثمنا بهذا الصدد

المقترحات التي تقدمها فايز ساكر إلى ريبنتروب فيما يتعلق بدخول القوات البريطانية والسوفييتية إلى إيران . ولواجهة هذه المناورة اقترح فايز ساكر القيام بإجراءات دعائية قوية وإيقاف شحن الأسلحة والقيام باستعدادات لاستلام الألمان الذين أجلاوا عن إيران وتركيا . ولكن النقطة الوحيدة التي أبدى خفاسة شديدة بشأنها هي إصدار تصريح ألماني بخصوص الهند والبلدان العربية . وكان فايز ساكر يرى أن أحداث إيران قد توفر أحسن فرصة لإصدار مثل هذا التصريح .

وكان من رأى بعض المسؤولين النازيين أن ألمانيا سيتوفر لها ، بعد القضاء على نظام فيشى في سوريا ولبنان ، مزيد من حرية العمل في البلدان العربية ، وبخاصة في مجال الدعاية . وبالإضافة إلى هذا لابد أن القضاء على حكم فيشى في المشرق العربي كان يتمشى مع تأزم العلاقات الفرنسية - الألمانية ، أو أنه أدى إليه بدرجة ما .

وفي مجال العلاقات الفرنسية - الألمانية تميز صيف عام ١٩٤١ برغبة برلين في وجوب تنفيذ حكومة فيشى مانصت عليه بروتوكولات باريس فيما يتعلق بتونس - فقد كانت ألمانيا وإيطاليا مهتمتين باستخدام الموانئ التونسية لتكوين قواتهما في شمال إفريقيا . ولم توافق فيشى موافقة تامة ، مما أثار توتراً وأدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية . وقد أثر ذلك تأثيراً معيناً في سياسة الريخ العربية . وفي هذا الوقت بالذات (٢٠ يولية ١٩٤١) صدرت تعليمات إلى كل أجهزة وزارة الخارجية الألمانية المهمة بالدعاية العربية . وقد صرح ريبنتروب بما يلي : « إن الاعتبار الخاصة بالحكم الفرنسي في سوريا تملي علينا ضبط النفس بشكل ما مساندة لمطالب العرب .. وقد استبعد سبب هذا التحفظ بأنهيار المقاومة الفرنسية لإنجلترا في سوريا . ولهذا أطلب منكم أن تساندوا بقوة منذ الآن رغبة العرب في الحصول على حرية غير محدودة فيما يتعلق بتناول المسألة العربية من الناحية الدعائية . ويجب أن تستبهر هذه الدعاية بشعار " المحور يحارب من أجل حرية العرب " » . كما نصت التعليمات على أن من واجب الحكومة الألمانية أن تحاول ضمان تعارن إيطاليا في هذا المضمار .

على أنه كان يجب العدول عن وجهة النظر هذه بعد وقت قصير . وفي

الواقع لم يصدر أى تصريح حول المطالب العربية - إذ كان من الواجب مناقشة مسألة إصدار تصريح جديد مع الحكومة الإيطالية ، وأصبح من المعروف أن روما قد عبرت أحياناً عن معارضتها للوحدة العربية ، وأنها كانت تعارض حتى في قيام اتحاد فدرالى مخفف ، وأنها لم توافق على اللجوء إلى هذه الشعارات في الدعاية .

وبعد أن أدلى إيدن بخطبته في ٢٩ مايو ساد الشعور بأن تصريحاً محورياً يتجاهل المطالبة بالوحدة يضر أكثر مما ينفع . وهذا هو السبب في أن ريبنتروب لم يوافق على اقتراح فايزساكر الخاص بإصدار تصريح بصدد « الهند الحرة » والاستقلال العربى^(١) . وفي نوفمبر ١٩٤١ ، حين كان الحاج أمين الحسينى ورشيد على الكيلانى في برلين ، كانت هذه المسألة لا تزال موقوفة .

وصول المفتي ومسودة التصريح الإيطالى

وفي ٦ نوفمبر ١٩٤١ سافر المفتي من روما إلى برلين - وكان قد أجرى في إيطاليا محادثات مع مسؤولين وشيائو تمخضت عن اتفاق على إصدار تصريح بصدد المطالب العربية . وكان الإيطاليون قد أعدوا مسودة تضمنت تقديم دولتى المحور « كل مساعدة ممكنة » للبلدان العربية التى تحتلها أو تسيطر عليها إنجلترا في نضالها في سبيل الحرية ، كما تضمنت الاستعداد للاعتراف « بالسيادة الكاملة والاستقلال التام للبلدان العربية في الشرق الأدنى التى يحتلها الآن أو يسيطر عليها الإنجليز » . كما ساندت القضاء على فكرة الوطن القومى لليهود في فلسطين . وكان على دولتى المحور أن تعقدا ميثاقاً للصداقة والتعاون مع الزعماء العرب في المستقبل ، وكان من الواجب أن يتم التفاوض بصدد هذا الميثاق بأسرع ما يمكن . كما تضمنت وعداً باحترام سيادة البلدان العربية واستقلالها التى تتمتع بهذا الوضع بالفعل .

(١) في هامش مذكرات فايزساكر لمكتب وزير خارجية الريخ (برلين في ٢٥ - أغسطس ١٩٤١) هناك تعليق « نعم » على النقطة الرابعة (إيقاف تزويد إيران بالأسلحة) والنقطة السابعة (استخدام السياسة الإنجليزىة - السوفييتية إزاء إيران في الدعاية) - ولكن ليس ثمة تعليق على النقطة السادسة (صدد ر تصريح بصدد مسألى استقلال العرب والهند) .

وقد تضمن النص الإيطالي نقاطاً أساسية . فأولاً وقبل كل شيء نجد أن إيطاليا قد ميزت « البلدان العربية في الشرق الأدنى » عن البلدان العربية الأخرى . وقد فسرت روما مفهوم « البلدان العربية في الشرق الأدنى » على أنه يشمل العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، وهي البلدان التي كانت هي على استعداد للاعتراف بها . وأوضحت أن هذا المفهوم لا ينطبق على مصر والسودان . ولم يكن من قبيل الصدفة أن الإيطاليين لم يعينوا البلدان التي ينطبق عليها وعدهم ، برغم المقترحات التي تقدم بها الزعماء العرب . ولم يوضحوا بوجه خاص خططهم ونواياهم لإزاء بلدان شبه الجزيرة العربية . أما البلدان التي لا تدخل في « البلدان العربية في الشرق الأدنى » فإن الإيطاليين ساندوا « تحريرها » من إنجلترا و « استقلالها »^(١) .

وقد أشارت المسودة الإيطالية إلى تقديم كل مساعدة ممكنة للبلدان العربية دون حدود - سواء أكانت إنجلترا تحتل هذه البلدان أو تسيطر عليها . ولكن لم تستعمل كلمات « السيادة الكاملة والاستقلال التام » إلا فيما يتعلق « بالبلدان العربية في الشرق الأدنى » . وكان الوعد باحترام سيادة واستقلال البلدان العربية التي حصلت بالفعل على هذا الوضع - دون صفى كاملة وتام - ينطبق على مصر . ومن هنا لم تكن المسألة تتعلق في هذه الحالة إلا باحترام ذلك القدر من السيادة الذي كانت مصر تتمتع به بالفعل .

وقد عبر المفتي عن بعض التحفظات ، وطالب بإجراء تعديل في بعض الصيغ : بمعنى وجوب امتداد المساعدة إلى البلدان العربية ليس فقط « التي تناضل في سبيل حريتها » بل في « نضالها من أجل حريتها واستقلالها التام » . وعلى بلدان المحور أن تعترف « بالسيادة الكاملة والاستقلال التام للبلدان التي تتمتع بسيادتها واستقلالها بالفعل » .

ووجه المفتي هجوماً آخر للمسودة الإيطالية لا يقل أهمية : فاتهمها بأنها تجاهلت مسألة الوحدة العربية . فوفقاً لما صرح به المفتي كانت الوحدة هي أهم ما يتضمنه البرنامج العربي ، ولكن الإيطاليين لم يكونوا على استعداد لقطع وعود بهذا الصدد . وقد رفض شيانو في البداية مساندة حركة الجامعة العربية ، ولكنه لم يلبث أن وافق

(١) كانت هذه وجهة نظر الإيطاليين في أثناء مفاوضاتهم مع ألمانيا .

على الصيغة الآتية : « حق الشعوب العربية في الشرق الأدنى في تحقيق وحدتها وفقاً لرغبتها » - وهي صيغة غامضة بطبيعة الحال . وفي هذه الناحية أيضاً كانت التنازلات الإيطالية (على الأقل فيما يتعلق بالكلمات) تشير إلى « البلدان العربية في الشرق الأدنى » أي إلى الهلال الخصيب وحده ، وكان على الحاج أمين في النهاية أن يقبل القيود التي سبقت الإشارة إليها . حقيقة أن الإيطاليين فسروا عدم تحمسهم لمساندة فكرة الوحدة العربية بالخلافات الناشئة بين العرب أنفسهم ، ولكن الإنطباع الذي لا يمكن تجنبه هو أنهم لم يكونوا يريدون أن يرتبطوا ارتباطاً تاماً بسبب مصالحهم في بعض البلدان العربية وأهدافهم فيها .

وبطبيعة الحال كان الريح يرى أن علاقات ألمانيا بإيطاليا تفوق في أهميتها مطالب العرب القومية . ولهذا ، ففما يتعلق بالتصريح ، وافقت برلين على رغبات قصر شيغي . ولم تكن إيطاليا تود أن يفهم الزعماء العرب - وبخاصة المفتي - أن ألمانيا أكثر ميلاً منها إلى قبول المطالب العربية^(١) . لهذا فإن فايز ساكر لم يساند التحفظات العربية على المسودة الإيطالية أثناء محادثاته مع المفتي^(٢) . وهناك عدة أدلة على أن المسؤولين الألمان لم يوافقوا على وجهة نظر زملائهم الإيطاليين الخاصة بأنه لا يجب أن يحتوى تصريح المحور على أي وعد بمساندة أماني الوحدة العربية . وقد سجل فورمان أن تصريحاً خاصاً بالمسألة العربية يجب أن يتضمن وعداً باستقلال البلدان العربية ، كما هو الحال بالنسبة إلى اتحادهم الفدرالي ، ولكن كان من رأيه وجوب كون الوعود عامة واحتواء التصريح على تفاصيل خاصة بالنظام الجديد « في المجال العربي » . وكان من رأيه عدم وجوب إثارة هذه الأمور حتى توجد قوات ألمانية في الشرق الأوسط . وحينئذ فقط يصبح من الضروري توضيح مستقبل السياسة العربية لإيطاليا .

ويبدو من موقف المسؤولين الألمان من التصريح أنهم لم يكونوا يرغبون في مثل هذا التوضيح في ذلك الوقت . فالعلاقات الألمانية - الإيطالية كانت تبتعد على مبدأ أن نفوذ روما سيتفوق في البحر المتوسط ، على الأقل في جنوبيه الشرق .

(١) تقدم بوتي بمثل هذا الطلب في محادثة له مع فون بزمارك .

(٢) اتست المحادثة مع المفتي ببرود لحجتها . ورغم الوعود التي قطعها جروباً في اليوم السابق ، فإن فايز ساكر تخل بالتدريج عن طلب الحاج أمين الخاص بمقابلة رييتروب .

وكان من رأى النازيين أن الشروط اللازمة لمناقشة جديدة أكثر استغاضة للشئون العربية مع إيطاليا هي وجود قوات ألمانية « في البلدان العربية في الشرق الأدنى » . ولكن فورمان أيضاً كان يعول على اشتراك القوات الإيطالية في احتلال تلك البلدان ، فاقترح أن تستفيد ألمانيا في هذه الحالة من كراهية العرب لإيطاليا ، كما وضع فورمان في حسابه احتمال رفض إيطاليا الجلاء عن الأراضي المحتلة . لهذا لم يكن هذا الوقت مناسباً للوصول إلى اتفاق مع إيطاليا حول تفاصيل السياسة العربية . كما لم تكن ثمة دلالات على أن الاتفاق سيتمخض عن أية نتائج إيجابية من وجهة النظر الألمانية . لهذا كان الألمان قانعين بتعديل موقف إيطاليا في أثناء المباحثات واستعدادها للاعتراف بحق العرب في الوحدة .

وكان الاعتراف بذلك الحق ضرورياً لكي يتضمن نصريح المحور ما يوازن الوعود والتصرّيات البريطانية . وعلى أى حال فإن تحقيق مطالب العرب كان مسألة تتعلق بالمستقبل ، وفي ذلك الوقت لم يكن له سوى أهمية محدودة ودعائية .

الاعترافات الفرنسية والتركية

ولم تكن تكنى موافقة إيطاليا على إصدار التصريح لحل المشكلة خلا نهائياً فيما يتعلق بتوازن القوى . كما كان من الضروري عمل حساب فيشى . وكانت تعليمات ريبنتروب الصادرة في ٢٠ يولييه لاتزال نافذة من الناحية الرسمية . وكانت قد حلت محل التعليقات السابقة التي كانت تتضمن عدم اتخاذ أى خطوات ضد السيطرة الفرنسية ، ولكنها لم يعد لها أى نفع . لأن العلاقات الفرنسية - الألمانية كانت قد بدأت تتغير في خريف عام ١٩٤١ . وفي نوفمبر وافقت حكومة فيشى نهائياً على إبعاد فييجان عن منصبه في شمال إفريقيا ، واستؤنفت المحادثات العسكرية الفرنسية - الألمانية . وحين جرى الهجوم البريطاني في الصحراء الغربية (العملية كروسيدير) احتل موقف فيشى من جديد أهمية كبرى في شمال إفريقيا . وفي رسالة بعث بها آبتز من باريس أشار إلى أن إصدار تصريح في المستقبل يساند المطالب العربية سيكون له أثر سلبي في فرنسا نفسها

وعلى القوات الفرنسية التي قد يطلب منها أن تدافع عن شمالي إفريقيا وغربها. وأشار إلى ما حدث منذ عهد قريب في المشرق حيث حارب جيش فيشي الفرنسي البريطانيين . وكان من رأيه أن الدوائر الحاكمة في فرنسا كانت تضع في اعتبارها أنه سيكون من المستحيل بعد الحرب تجنب إجراء تغييرات في وضع سوريا ولبنان . وبرغم ذلك فقد كان من رأيه أن من واجب الألمان أن يستشيروا فيشي حول وضع فرنسا في المستقبل في المشرق قبل إصدار التصريح . وخلص أيتز إلى ما يلي : « وبناء على ذلك فإن مصالحنا فيما يتعلق بفرنسا ستحظى بقدر أوفر من الخدمة إذا — على الأقل — اختير تاريخ تال لإصدار التصريح الألماني — الإيطالي قيد البحث » .

وكانت وزارة الخارجية الألمانية على بينة من الصعاب التي تتضمنها أي محادثة مع فيشي بشأن المسألة . فالألمان لم يكن باستطاعتهم أن يعدوا فرنسا بشيء فيما يتعلق بسوريا ولبنان ، سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الاقتصادية . وكان من الصعب طمأنة فرنسا على أنها ستحافظ على وضعها الاقتصادي والمالي السابق ، لأن هذا « سيؤثر في تسوية مسألة البترول » (أي احتفاظ الفرنسيين بحصصهم من النفط العراقي وخط أنابيب كيركوك — طراباس) . وأقصى ما كانت ألمانيا على استعداد للموافقة عليه صيغة مبهمّة يرد فيها أن مصالح فرنسا المالية والاقتصادية ستكون موضعاً للاهتمام — ولكن المسألة كانت تتعلق بموافقة فيشي والشروط التي ستضعها .

وقد أوضحت أحداث ديسمبر ويناير كيف كانت نهاية عام ١٩٤١ غير مناسبة من وجهة نظر العلاقات الفرنسية — الألمانية . وفي أول ديسمبر قابل إيتان جورنيج في سنت فلورنتين ببرجنديا . وبعد المحادثات التي تمت بين هتار وبين ريبنتروب وأيتز في ٥ يناير ١٩٤٢ ، جرت محاولة أخرى لتقريب وجهات النظر الفرنسية والألمانية . وفي مثل هذه الظروف لم يبد الزعماء الألمان رغبة في تعقيد الموقف بإصدار تصريح يساند المطالب العربية . وبغض النظر عن العوامل الأساسية التي شكلت العلاقات بين برلين وفيشي (وأهمها سيطرة فيشي على شمالي إفريقيا وال حاجة إلى أن يعهد لجيشها بالدفاع عن إفريقيا) كانت عوامل ثانوية ووقية

تفعل فعلها خلال عامي ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، مثيرة آمالا تتعلق بإيجاد تعاون أوثق .

وقد أثار موقف تركيا صعباً أخرى ، وكان من الواجب عمل حساب تركيا ، لأن تعاونها في المستقبل كان عاملاً هاماً بالنسبة إلى خطط ألمانيا العسكرية في الشرق الأوسط . وكان من رأى فون بابن أن صدور تصريح يساند المطالب العربية من شأنه أن يثير سخط تركيا إلا إذا سبقته محادثات تركية - ألمانية وفقاً لميثاق تبادل الرأى المعقود بينهما . وقد نصح بضرورة طمأنة تركيا على أن التصريح المرسوم لن يسيء إلى تسوية القضايا الإقليمية في المستقبل (وكان الأتراك يطمعون في حلب وربما الموصل أيضاً) . ولاشك أن فون بابن وضع نصب عينيه أن تركيا كان باستطاعتها أن تستغل مثل ذلك التأكيد لمساومة البريطانيين ، وأن موقفاً قد ينشأ تتنافس فيه ألمانيا وإنجلترا لكسب ود تركيا في مقابل وعود إقليمية . وكان من رأى وزارة الخارجية الألمانية أن إجراء محادثات مع تركيا حول المسألة أمر سابق لأوانه ، وعارض في قطع أى وعود . وكان من رأى الألمان أن الوقت المناسب لإجراء محادثات مع تركيا سيحل حين تمتنع عن المراوغة وتنحاز إلى ألمانيا تحت تأثير انتصارات هتلر .

لهذا فإن إصدار التصريح اعترضته صعاب هذه المرة من جانب فرنسا وتركيا أكثر مما اعترضته من جانب إيطاليا . ووصل الأمر بالإيطاليين إلى إقرار الحاجة إلى سرعة إصدار التصريح حتى لا يسبقهم الإنجليز . وفي ٢٢ نوفمبر وافقت روما على نص راجعه الألمان .

موقف هتلر

وفي ذلك الوقت تدخل هتلر شخصياً . ففي ٢٨ نوفمبر جرت محادثة لمدة ساعة ونصف بينه وبين الحاج أمين الحسيني بحضور ريبنتروب وجروبا . وربما يكون مما له مغزاه أن هذه المقابلة كانت إحدى المقابلات التي أجراها هتلر وريبنتروب في الفترة ما بين ٢٥ و ٢٩ نوفمبر مع الزعماء ذوي الميول الفاشية الذين تجمعوا

من عدة بلدان في برلين بمناسبة تجديد الميثاق المعادى للكمونترن . وتمهيداً لهذه المقابلة قدم ريبنروب هتلر مذكرة خاصة في ١٣ نوفمبر^(١) - ومن الواضح أنه قد جرى تبادل شخصي لوجهات النظر بين الفوهرر ووزير خارجيته^(٢) . كما جرت مقابلة بين ريبنروب والمفتي في ٢٨ نوفمبر ، قبيل المحادثة التي جرت مع هتلر . وفي خلال محادثات المفتي مع ريبنروب وهتلر ، أكد المفتي أن العرب والألمان أصدقاء طبيعيين بحكم أن الطرفين كانا يحاربان أعداء ثلاثة مشتركين : بريطانيا واليهود والبُلشفية . وقد عرض تجنيد فرقة عربية ، ثم وجه المحادثة إلى مسألة التصريح .

وبعد التنديد العادى باليهود الذين اعتبرهم هتلر زعماء للدول التي تقف في وجهه ، صرح للمفتي بما يلي : « . . . إن مجرد وعد لن تكون له أية قيمة . ولن تكون ثمة قيمة حقيقية إلا لليقين الذي يعتمد على القوات المسلحة المنتصرة » وأضاف بة ولة : « إن كسبنا الحرب هو وحده الذي سيؤذن بدق ساعة التحرير التي هي أيضاً ساعة تحقيق أمانى العرب » .

وهرر هتلر موقفه السلبي من إصدار التصريح أولاً بالخوف من رد الفعل في فرنسا . وطبقاً للمذكرات المفتي (ص ٢١٩) الخاصة بالمحادثة ، وهي المذكرات التي تنطبق في خطوطها العريضة على ما سجله شمت بصدد هذه النقطة ، صرح الفوهرر بما يلي :

« يبدو أن الموقف كالاتي : إننا نشن حرباً ضارية لنفتح لأنفسنا طريقاً إلى شمالي القوقاز . إن الصعاب المرتبطة بهذا تزيد على صعاب النقل المترتبة على تدمير السكك الحديدية والطرق وعلى ظروف الشتاء . فإذا ما جرؤت في ظل هذا الموقف على إصدار تصريح ينطبق على سوريا كذلك ، فسيشتد ساعد العناصر

(١) في هذه المحادثة صرح ريبنروب بما يلي : « إن أهم شيء بالنسبة إلى العالم العربي هو صدور تصريح سياسي جديد من جانب دولي المحور بصدد استقلال البلدان العربية » . وطلب من هتلر أن يستقبل المفتي واقترح إنشاء مجلس للزعماء العرب في برلين و / أو روما .

(٢) عبر هيوك Hewel عن رغبة هتلر في أن يتحدث شخصياً خلال الأيام القليلة التالية مع ريبنروب حول المشاكل التي أثيرت في مذكرته قبل الوصول إلى قرار نهائي . ويرى مؤلف الكتاب أن ريبنروب كان يميل إلى إصدار التصريح .

التي تساند دييجول في فرنسا ، مما قد يؤدي إلى نشوب الثورة . وسيقتنع هؤلاء الناس بأن من الأسهل أن ينضموا إلى بريطانيا العظمى . وسيكون انفصال سوريا نموذجاً يحتذى في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الفرنسية - ومن شأن هذا أن يقوى موقف الدييجوليين في المستعمرات . فإذا ما صدر تصريح الآن ، فستلوه صعب في غربي أوروبا بحيث يكون من الضروري سحب بعض القوات للدفاع ، مما يحول بيننا وبين حشد كل قواتنا في الشرق » .

وقد أكد هتلر للمفتي أن الحرب التي لاهوادة فيها التي تشنها ألمانيا ضد اليهود كانت تتضمن معارضة نشطة للوطن القوي لليهود في فلسطين ، وأن هدفها هو تخطيط العنصر اليهودي القاطن في البلدان العربية . ووعده بإصدار تصريح حين تصل القوات الألمانية إلى جنوبي القوقاز - وهذا في رأيه لم يكن يستلزم سوى شهرين قليلة . كما صرح هتلر للمفتي بأن الوقت سيحين حين لا يقتصر أمره (الحاج أمين) على أن يقدم للعرب تصريحاً محورياً ، بل سيكون له كذلك الرأي الحاسم في الشؤون العربية باعتباره ذا السلطة المطلقة في التحدث باسم العرب وزعيماً لهم . على أن هتلر اعترض على اقتراح المفتي الخاص بإصدار تصريح سري ، أو عقد معاهدة سرية - وقد صرح ، وفقاً لما يرد في مذكرات المفتي ، بأن تصريحاً ينمى إلى علم عدة أشخاص لن يبقى سرّاً مكنوناً . وقد سجل شمت بخصوص هذه الحادثة أن هتلر نهزب بقوله إنه قد أعطى المفتي بالضبط هذا التصريح الخاص . وفي نفس اليوم نقل رنتلن قرار هتلر الخاص بعدم إصدار تصريح إلى فورمان .

وليس من الصعب أن نتبين الدوافع التي حدث بهتلر إلى اتخاذ هذا القرار . وقد لاحظ المفتي أن كلماته كانت تعكس بوجه عام عدم استعدادة للإدلاء بتصريحات لن يتلوها عمل مباشر . وفي اليوم التالي اتخذ ريبنتروب نفس الموقف في محادثة جرت بينه وبين بومبي . وقد أكد وزير خارجية النازي أن تصريحاً لاستناده القوة اللازمة لوضعه موضع التنفيذ سيكون ضاراً ، بل إن الألمان غير متحمسين لتوسيع النشاط التنظيمي فيما يتعلق بالهند حتى يتم الاستيلاء على تغليس .

ونحن نستنتج مما سبق أن هتلر ووزرائه لم يعتقدوا أن الوقت قد حان لإصدار ألمانيا المحتلة

تصريح ، لأنهم كانوا يودون أن يسبقه نصر عسكري كبير . ولكن مثل هذه الانتصارات لم تتحقق بحلول نهاية نوفمبر . بل على العكس نجد أن الهجوم الألماني على موسكو قد فشل بصورة قاطعة في ذلك الوقت ، وكان مقيضاً للجيش السوفيتي أن يبدأ هجوماً مضاداً كبيراً بعد ذلك بوقت قصير - في ٦ ديسمبر . وكان مركز المحور صعباً في البحر المتوسط ، وتقهقرت قوات روميل في الصحراء الغربية تحت الضغط البريطاني . وبما يوضح مدى أثر هذه الأحداث في مسألة إصدار تصريح أن برلين قررت النظر إلى المسألة على ضوء جديد بعد الهجوم الياباني على بيرل هاربور .

وكان ما أدلى به هتلر في محادثته مع المفتي - من أن مثل هذا التصريح سيثير مصاعب مع فرنسا - يعكس أيضاً المخاوف الحقيقية لحكومة الريخ ، ولكن يبدو أنه استبعد وجهات نظر أخرى . فهو لم يشير إلى تركيا التي كان موقفها من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الخطط الألمانية الخاصة بمهاجمة الشرق الأوسط . على أنه كان من الممكن أن يكون من الطبيعي ألا ترد تركيا في محادثاته مع المفتي ، لأن الغرب كانوا على بينة من مطامع تركيا الإقليمية . ومن المحتمل جداً أن هتلر فضل عدم الإدلاء بشيء خاص بتركيا بصدد التصريح ، بسبب أثر ذلك شبه الختلى على الزعماء العرب . وبالإضافة إلى ذلك ، فلما كان هتلر على بينة من تصريحات بريطانيا المتعلقة بالشئون العربية ، فقد كان باستطاعته أن يفترض أن يثير التصريح الألماني تسابقاً جديداً بين العسكريين المتحاربين من أجل كسب ود العرب ، الأمر الذي لن يؤدي إلا إلى خلق مصاعب إضافية للألمان دون أن يحصلوا على ميزات محددة واضحة . وعلى أي حال فقد كان لا بد أن يتغير الموقف السلبي من التصريح حين تعبر القوات الألمانية القوقاز ، وبعد ذلك يكون عطف السكان الشديد عاملاً له مغزاه . وقد أكد هتلر للمفتي أن ذلك أنسب وقت لإعلان تصريح يساند أمان العرب .

وقد لجأ ريبنتروب إلى حجة أخرى أثناء المؤتمر الذي عقده مع المفتي - وهي الحجة التي لجأ إليها هتلر بعد ذلك في أثناء محادثاته مع الإيطاليين في إبريل ١٩٤٢ - من حيث إن التصريح سيؤدي إلى قيام أتباع المحور في البلدان العربية بعمل سابق

لأوانه ، وأن البريطانيين قد يقبضون عليهم . ومن الصعب علينا أن ننهين إلى أى حد كانت هذه الحجة تعكس مخاوف هتلر الحقيقية . ولكننا نستنتج من سجلات محادثات المفتى مع كبار القادة النازيين ومن المذكرات الألمانية أنهم كانوا يذكرون جيداً درس الانقلاب الفاشل فى العراق . على أن من الواضح أن هذه الحجة كانت نتيجة لوجهة نظر هتلر الرئيسية : إذا كان التصريح - بالنسبة إليه - عديم الجدوى ، إن لم يكن ضاراً ، ما لم يؤثر تأثيراً حقيقياً على العمليات الحربية . فقد كان بحاجة إلى تصريح يجعل العرب يقدمون المساعدة الحقيقية لجهوده الحربية ، على حين أن قيمة التصريح بالنسبة إلى المفتى كانت تكمن فى أنه يؤدى إلى توطيد مركزه بين العرب ، ويوفر ورقة رابحة فى المستقبل فى تسوية ما بعد الحرب .

ومن المحتمل أيضاً أن تحفظات ذات طابع قانونى - سياسى كان لها أثرها على موقف هتلر السلبي إزاء إصدار التصريح . كان الكيلانى « مهاجراً » وكان الاعتراف بحكومته شبيهاً باعتراف الحلفاء بالحكومة البولندية فى المنفى أو بالهولنديين أو اليوغوسلافيين أو بالبلدان الأخرى الخاضعة للاحتلال الألمانى . ولم يعترف مبدأ النازيين القانونى بحكومات المنفى التى كانت باستمرار موضعاً للسخرية . وقد أبرز إصدار تصريح خاص بالشئون العربية العامة ، الذى كان من المفروض أن يوجه إلى المفتى ، صعوبات أخرى ذات طابع قانونى . ففى مثل هذا التصريح ستعترف ألمانيا بوجود أمة عربية تضم مواطنى عدد من الدول . حقيقة أن دول الوفاق قد وسعت مثل هذا الاعتراف فى أثناء الحرب العالمية الأولى بحيث يشمل البولنديين والتشك ، إلا أن هذه السابقة لم تكن موضع قبول عام . وكان ثمة معنى آخر لمثل هذا التصريح ، هو الاعتراف بالمفتى باعتباره زعيماً لكل البلدان العربية المعنية - فى الوقت الذى تقتصر فيه إدعاءاته الرسمية على زعامة عرب فلسطين ، بحكم أنه كان لعدة سنوات رئيساً للمجلس الإسلامى الأعلى واللجنة العربية العليا .

محاولات أخرى لاستصدار تصريح

لم يضع قرار هتلر حدًا لمحاولات الزعماء العرب أو الإيطاليين للحصول على تصريح ، ولم يتدخل المسؤولون الألمان - الذين كانت تشغلهم مشاكل الشرق الأوسط - عن الفكرة . وفي نفس الوقت وصل الكيلاني إلى برلين ، وباعتباره رئيس وزراء العراق المعترف به ، طلب من ألمانيا أن تعلن موقفها بوضوح من مسألة إصدار التصريح . كما أن مؤتمر عقده كبار المنفيين العرب في تركيا في نهاية أكتوبر ١٩٤١ خوله مفاوضة الألمان . وقد تجاوزت مطالبه حدود العراق بكثير . وفي بداية ديسمبر قدم مشروع معاهدة تعقد بين ألمانيا والعراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن . وكان من المتوخى أن تشمل هذه المعاهدة فلسطين أيضاً . وقد احتوى المشروع على كل النقاط المعروفة جيداً: النضال ضد إنجلترا ، وإبعاد اليهود عن فلسطين ، والوحدة العربية ، والتعاون الاقتصادي والعسكري والفني والثقافي مع دول المحور ، وانضمام البلدان العربية إلى الميثاق الثلاثي (الذي انعقد مؤتمر فخم جداً بشأنه في برلين في أواخر نوفمبر) وإلى مؤتمر الصلح القادم . وطلب الكيلاني من المحور ما لا يقل عن الاعتراف « بالاستقلال التام والسيادة الكاملة » لمصر والعربية السعودية واليمن ودول عربية أخرى في الشرق الأدنى ، وتصريح بصدد الاستعداد لعقد معاهدات معها ، وموافقة ألمانيا على وحدة أو اتحاد بعضها أو كلها .

وما لاشك فيه أنه لم يكن ثمة مجال لموافقة الألمان على مطالب الكيلاني - إذ أنها تجاوزت كثيراً ما كان المحور على استعداد لأن يعد العرب به ، وكان هتلر قبل ذلك بقليل قد رفض إصدار تصريح للمفتي . وكان الكيلاني يقف على أرض أصلب حين طلب وثيقة خاصة بالعراق - إذ كانت لدى المحور لإزائه بعض الالتزامات الخاصة بالعراق . وبموافقة هتلر وإيطاليا حصل على رسالة رسمية من وزير خارجية الريخ تعده بأنه سيكون رئيس وزراء العراق بعد أن يتم تحريره ، وتعبير عن استعداد حكومة الريخ لبدء المفاوضات في الحال بشأن التعاون في المستقبل . وبرغم أن الرسالة لم توضح أنها ستحاط بالسرية ، فإن حكومة الريخ

لم تجد داعياً لجعل محتوياتها موضعاً لعلانية واسعة النطاق . ويحتمل أنها كانت لها بعض الأهمية السياسية العامة — وبرغم ذلك فإن تفاضيلها عن مسألة الوحدة العربية قد أضعف قيمتها الدعائية إلى حد كبير .

وقد أكدت هذه الرسالة وضع الكيلاني في ألمانيا بصفة رسمية . وكان العمل الطبيعي الذي كان يجب عليه أن يقوم به هو عقد معاهدة باسم العراق في أسرع وقت . وأكثر من هذا نجد أن هذه الرسالة قد أكدت بعكس ما سبق أن المفتي ليس له وضع رسمي . ولكن مما لاشك فيه أنه كان أقوى الشخصيتين وأنه كان يتمتع في العالم العربي بنفوذ أقوى مما كان يتمتع به الكيلاني . كما كان الحاج أمين في ذلك الوقت يرغب في الحصول على رسالة تتضمن وعداً من النازي بمساندة قيام سوريا كبرى — وكان من الواجب أن يبقى ذلك في طي الكتمان . وكان المفتي يريد أن يعترف الألمان بوضعه . باعتباره ناطقاً باسم البلدان العربية الشمالية ، وقد صرح بأنه سيحصل على مثل هذا الاعتراف من إيطاليا إذا مارفت ألمانيا — ومعنى ذلك أنه سيخدم روما وحدها^(١) . كما أوضح أنه يهدف إلى استمرار الدعاية المحورية بشرط تلقيه مثل هذا الخطاب أو التصريح . وحظيت مطالبه بموافقة ممثلي إيطاليا الذين كانوا منذ أواخر عام ١٩٤١ في صف صدور تصريح بسند مطالب العرب ، في نطاق الحدود التي سبق ذكرها دون شك . وربما كان مرجع اتخاذ الإيطاليين هذا الموقف أنهم تيقنوا من ضرورة اجتذاب الزعماء إلى صفهم ، إلى جانب الحاجة إلى القيام بنشاط دعائي بين العرب .

وكان ثمة مشروع آخر يناصر الوحدة العربية ويتصل بالتصريح المرجو : وهو دعوة مجلس للزعماء العرب . وقد برز هذا المشروع من ثنايا التحفظ على حق كل من الكيلاني والحاج أمين في التحدث باسم العرب جميعاً . وكان على الزعماء العرب الذين هربوا إلى تركيا أن يضمنوا — بأسماء بلادهم — تنفيذ أي اتفاقات يصل إليها المحور مع المفتي ورشيد عالي^(٢) . ولكن لم تتمخض هذه

(١) يشهد موقف المفتي على قبوله القيود التي وضعها المحور بصدد خطط الوحدة العربية . وما يستتبعه الانتباه أيضاً أن هذا السياسي الضليع حاول أن يستميل زعماء المحور بمثل هذه الطريقة الفجة حين تم المساس بأطماعه .

(٢) كان من المتوخى أن يكون الضامنون هم : ناجي شوكت والدكتور محمد حسن سلمان ، عن =

المحاولة هي الأخرى عن شيء ما .

وفي أواخر عام ١٩٤١ وبداية عام ١٩٤٢ ساندت اليابان فكرة إصدار تصريح . فلما كان اليابانيون يفتربون من حدود الهند : فلنهم اقترحوا أن تدلى الدول الثلاث بتصريح يتعلق بالهند والبلدان العربية . وكانت المسودة اليابانية نداء دعائياً أكثر منها وثيقة دبلوماسية ذات التزامات محددة بطريقة أو أخرى . ولكن لم يتحمس الألمان لتدخل اليابان - إذ أن إصدار مثل هذا التصريح بالاشتراك مع اليابان كان يتطلب أولاً مناقشة مستقبل الأراضي الواقعة بين المنطقة الأوربية وبين « شرق آسيا الأكبر » الياباني . ولم يتخذ الميثاق الثلاثي قراراً بشأن تحديد هذه المناطق ، وكان لكل من الشركاء خططه وآماله الخاصة بهذه البلاد^(١) . وفي أبريل ، في الوقت الذي كان من المتوخى فيه أن يتم حسم مسألة مزيد من التقدم الياباني صوب الغرب في اتجاه المياه الملازمة لشواطئ إيران وشبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا ، ألح اليابانيون في مطالبة ألمانيا باتخاذ قرار بصدد مشروع التصريح . ويبدو أن اليابان كانت تود أن يكون لها رأى فيما يتعلق بالقرارات التي تتخذ بصدد الشؤون العربية في مقابل موافقتها على اشتراك الشريكين المحوريين الآخرين في القرارات المتعلقة بالهند . وساند الإيطاليون وجهة النظر اليابانية . ويشير شيانو عدة مرات في مذكراته إلى أن موسوليني كان يهدف إلى مساندة اليابان لكي يوازن بذلك قوة ألمانيا . وربما كان ذلك من الأسباب التي جعلت المندوبين الإيطاليين يؤيدون إصدار التصريح باستمرار . كما كانوا يودون أن يتأكد مستقبلهم في البلدان العربية بعد انتصار المحور . وقد أثبتت المسألة في مقابلة جرت في سالزبورج بين هتلر وموسوليني في أواخر إبريل وأوائل مايو ١٩٤٢ : ويظهر لنا من تقرير شمت أن رينتروب كان يميل إلى صدور تصريح ألماني ياباني مشترك ، وأن هتلر عارض الفكرة - وكانت النتيجة هي أن القرار جاء

= العراق - الأمير عادل أرسلان عن سوريا - عبدالكريم السباعي عن لبنان - إسحاق درويش عن فلسطين - الدكتور أبو غنيمة عن شرق الأردن . وكان معظم هؤلاء واثق الصلة بالمفتي .

(١) مما يشير الالتفات أن برلين كانت تبحث مسألة الهند قبل دخول اليابان الحرب . كما كان يوس يقوم بدعايته في برلين بخصوص الاستقلال . وبدأ في برلين إعداد فرقة هندية من أسرى الحرب الذين وقعوا في يد المحور . ولم يتجه يوس إلى اليابان إلا في خريف عام ١٩٤٢ .

سليبياً .. وحاول موسوليني عبثاً - بعد أيام قليلة من اجتماع سالزبورج - أن يقوم بجهود جديدة بصدد إصدار التصريح .

وجرت محاولات العرب الخاصة باستصدار التصريح في الوقت الذي تمت فيه المحادثات والمساومات التي سبق أن أشرنا إليها . وفي أوائل فبراير ١٩٤٢ توجه الزعيمان العربيان إلى روما بموافقة دكتور جروبا . واستقبل الكونت شيانو الكيلاني في أول فبراير كما استقبله الملك وموسوليني في يومى ١٥ و١٨ فبراير . ولم يقابل المفتى سوى الملك يوم ١٣ فبراير . وسواء بسبب وضع الحسيني غير الواضح من الناحية القانونية الرسمية ، أو لأن الإيطاليين كانوا يودون كسب عطف الكيلاني ، فقد قوبل الحسيني ببرود . ومنذ البداية حظى الكيلاني في روما بمكانة عالية - فقد كانت الاستقبالات وحتى ركوب سيارة تحمل الأعلام العراقية من المستلزمات الظاهرية لوضعه ، مما آلم الحاج أمين . وفي أوائل مارس وصلت إلى روما كثير من الشخصيات العربية ، ومعظمها من العراقيين . وكانت المسائل المتصلة باستصدار تصريح وتوحيد العرب والقتال إلى جانب قوات المحور حية باستمرار . وتلت ذلك مشاورات جديدة مع ممثلى ألمانيا بصدد مسألة النتائج المترتبة على صدور التصريح . وفي هذه المرة تم تخطى سفير ألمانيا في تركيا بصورة أو أخرى^(١).

ولم يطرأ تغيير على رأى آبتز . وفي مذكرات تفصيلية يبدو منها غضب سفير الريخ لعدم تحقيق الوعود المبذولة لفرنسا في مايو ١٩٤١ ، أعاد عرض وجهات نظره القديمة وأضاف إليها وجهات نظر جديدة . وقد ذهب إلى أن صدور التصريح سيكون له أثر سلبي على القوى التي تدعو إلى التعاون . وكان من شأنه أن يكون له تأثير سيء على الروح المعنوية لدى فرنسا التي « سيعهد إليها يوماً ما بالدفاع عن مراكش أو داكار في وجه الهجمات الأنجلو - سكسونية » ، وأن يكون له صدى واسع النطاق لدى عرب شمال إفريقيا الذين لن يعطيهم الألمان وعداً بالاستقلال مراعاة للمصالح الإيطالية والفرنسية والإسبانية . وعاد آبتز من جديد إلى عرض

(١) لم يثر المؤلف عل رأى فون بابن بصدد مسألة التصريح ، سواء في فبراير أو في مارس ١٩٤٢ . ولا نستبعد أن الألمان كانوا في هذه الفترة يعتبرونها مسألة رسمية - فلم يرغبوا إلا في تقديم وجهات نظرهم للعرب وحدهم .

نظريته التي كانت تذهب إلى أن من الواجب خضوع المسائل العربية للمسألة العامة الخاصة بالعلاقات القائمة بين المحور وفيشي . ولكن كانت لرؤساء القنصليات الألمانية في الدار البيضاء والجزائر آراء مخالفة تماماً . وكان من رأى أحدهم أن ردود الفعل التي من شأن هذا التصريح أن يحدثها لدى عرب شمال إفريقيا لن تكون كبيرة ، وأن الرأي العام سيقهر حدودها باعتبارها مسألة تتعلق بالتكتيكات السياسية . ولكنه عبر بالفعل عن خشيته أن يثير التصريح قلقاً لدى الفرنسيين . ولم يصل الأمر بقنصل عام آخر حتى إلى الاعتقاد بأن أثر التصريح في الفرنسيين المستوطنين في الجزائر لن يختلف عنه بالنسبة إلى فيشي التي قوى مركزها في شمال إفريقيا بعد استدعاء فييجان .

ورأت وزارة الخارجية الألمانية أن الضرر المترتب على إصدار التصريح لن يكون بالغاً ، وأكثر من هذا أنها رأت أن الصعوبات ستزداد بتطور الهجوم الياباني والمبادرة السياسية اليابانية في شئون غرب آسيا وشرقي إفريقيا . ولكنها من ناحية أخرى لم تر ثمة ما يرغب ألمانيا بوجه خاص على إصدار مثل ذلك التصريح ، لأن الموقف الحربي في البحر المتوسط كان قد تحسن ، ولأن انتصارات روميل في شمال إفريقيا كانت تعلن عن نفسها . حقيقة أن الزعماء العرب طالبوا بتصريح ، إلا أنه كان من الواضح أن من الممكن اقتناعهم بوعود سرية تقدم لهم كتابة^(١).

تبادل الرسائل

وفي النهاية اتخذ قرار مطابق لروح ما سبق أن أشرنا إليه . فقد وضع اقتراح رشيد على الخاص بعقد معاهدة بين المحور والعراق موضع التنفيذ . وتم الاتفاق على حل هذه المسألة بتبادل للرسائل يحتوي على كل نقاط مشروع الكيلاني . ولم تكن لدى الإيطاليين سوى تحفظات قليلة وافق عليها الألمان . وفي ٢٥ مارس قبل الكيلاني المشروعات التي أعدتها وزارة الخارجية الإيطالية ، وفي ٣١ مارس جرى تبادل رسمي للرسائل بينه وبين الكونت شيانو .

(١) نحن نستنتج أن ريبنتروب أصدر أمراً في ٢٢ فبراير بصدد مسألة فرنسا والسياسة العربية . ولكن [المؤلف] لم يجد هذا الأمر في مجموعة الأوامر .

وقد استهل رشيد على رسالته إلى شيانو بتعبيره عن ثقته في المحور وأهدافه .
وأنتج ذلك بتصريح باسم الشعب العراقي جاء فيه أن العراقيين على استعداد لمحاربة
بريطانيا ، وأنهم يرغبون في أن يقوم تعاون وثيق ودائم بين البلدان الثلاثة المعنية .
واحتوت الرسالة على الالتزامات التالية :

(١) الاشتراك في الحرب إلى جانب المحور حتى يتحقق النصر . ولكن لم
يكن لهذا سوى أهمية ضئيلة في ذلك الوقت . فلم يكن يستطيع
دخول الفرقة العربية سوى قليل من العرب ، من أولئك الذين
يقيمون في أراض واقعة تحت سيطرة المحور . ولم تكن لدى العرب
برجوه عام ، والعراقيين بوجه خاص ، سوى فرصة ضئيلة للاشتراك
في المعارك . ولم يكن من المقيض لهذا الالتزام أن يصبح على جانب
من الأهمية إلا في حالة دخول المحور العراق .

(ب) إلغاء كل « المعاهدات والمزايا والتنازلات التي كانت تربط العراق ببريطانيا
وحلفائها في مجالات العلاقات بين الدول أو في العلاقات الخاصة . وكانت
هذه النقطة قبل كل شيء تعكس مصلحة المحور في بترول العراق .

(ج) إقامة تعاون وثيق ودائم بين العراق وألمانيا وإيطاليا . وكان المقصود
من هذه النقطة إيضاح التزام العراق بالتقدم إلى هذه الدول بطلب
تقديم المساعدة فيما يتعلق بتطوير البلاد وإعادة تنظيم وتسليح جيشها .
ومما يجدر ذكره أن العراق كان مرتبطاً بالتزامات مماثلة في المعاهدة
المعقودة بينه وبين بريطانيا .

ونقدم رشيد على ببعض المطالب التي وجهها إلى دولتي المحور فيما يتعلق
بمساندة مطالب العراق في مؤتمر الصلح القادم . وفيما يتعلق بهذه النقطة انخرفت
الرسالة عن مشروع رشيد على الذي تضمن إشارة واضحة إلى مساعدة ألمانيا
وإيطاليا للعراق في الحصول على تعويضات من بريطانيا في مقابل غزوها للعراق
في أبريل ومايو ١٩٤١ . وكان الإيطاليون يفضلون صيغة أكثر عمومية . كما رفض
بنفس الصورة طلب الكيلافي الخاص بالتزام المحور بعدم عقد أى معاهدات
تتناقض مع فحوى الاتفاق مع العراق .

وتضمن جوهر رساله شيانو - التي جاءت على شكل رد على رشيد على - تأكيداً للالتزامات السابقة . ولكنها نصت على أن الاستقلال التام والسيادة الكاملة للعراق من أهداف المحور ، وأن الحكومتين الألمانية والإيطالية توافقان عليهما موافقة تامة . وصرح شيانو بأن إيطاليا على استعداد للتعاون مع رشيد على والشعب العراقي في تحرير العراق من السيطرة البريطانية ، وتعهده « بتزويد الجيش العراقي والشعب العراقي » ، بالعتاد والأسلحة اللازمة لهذا الغرض . وأكد له شيانو أن إيطاليا على استعداد كذلك لأن تحقق - في المدى الممكن - رغبات العراق في مجالات الاستثمار والمساعدات الفنية والأسلحة . وانتهت كلتا الرسالتين بالتحذير من عدم إفشاء فحواهما دون أن يصدر قرار من كلا الطرفين بهذا الصدد .

وفي ١٨ مايو جرى تبادل للرسائل المشتركة في برلين عن طريق فورمان . وقد وقع هذه الرسائل رشيد على وفون ريبنروب .

وقد أدى هذا التبادل للرسائل ، شأنه شأن الأشكال الأخرى من الاعتراف برشيد على من جانب كل من دولتي المحور ، إلى ازدياد غضب مفتي القدس . وقد ازداد التباعد المتبادل بين الزعيمين العربيين ، ورغم أن رشيد على أثار مسألة تصريح عام باستقلال العرب يقدم للمفتي . وقد قام بذلك في محادثة له مع ريبنروب وشيانو في ٢٥ مارس ، حين تم الاتفاق نهائياً على تبادل الرسائل حول العراق . وتشهد محادثة الحاج أمين مع جرانوف Granow على مدى تأثيره بما حققه الكيلاني ؛ فقد استعمل ألفاظاً قوية بعد الاتفاق على تبادل الرسائل ، وأعلن أنه لن يواصل أوجه نشاطه الدعائي في صف المحور إلا إذا تلقى رسالة اعتراف . بل لقد وصل به الأمر إلى التهديد بالتقاعد في إسبانيا أو المغرب .

على أن غضب المفتي لم يكن يستند إلى أساس حقيقي ، لأن دولتي المحور لم ترغب في محاباة الكيلاني بأي شكل . والواقع أن المحادثات والعمل التمهيدى الخاص بمشروعات الوثائق المتصلة بالمطالب العربية العامة بدأت في أوائل أبريل وأقرت مطالب الزعماء العرب بهذا الصدد . وقد تم الاتفاق على أن يوجه كل من الزعيمين رسالتين متشابهتين إلى كل من ريبنروب وشيانو ، على أن يتلقى كل منهما إجابتين منفصلتين . وفي ٢٥ أبريل قدمت مسودتا الرسالتين - اللتين وافقت عليهما

ألمانيا وإيطاليا - إلى رشيد عالي والحاج أمين . ولم يستطع الزعيمان العربيان أن يجريا أى تعديلات فى المسودة . وفى ٢٨ أبريل جرى تبادل الرسائل بينهما وبين ريبنتروب وفى ٣ مايو ١٩٤٢ جرى تبادل الرسائل المتشابهة مع شيانو .

وقد استهلّت رسالة المفتى - الكيلانى بالتعبير عن الثقة فى المحور « وأهدافه النبيلة » ، وأكدت أن الشعب العربى على استعداد لأن يحارب العدو المشترك حتى يتحقق النصر النهائى . وكان أهم ما تضمنته مطالبة الحكومتين بأن يصدر تصريح باسم الحكومة الألمانية و/ أو الإيطالية يتضمن :

(أ) أنها على استعداد لمساعدة البلدان العربية التى كانت ترزح تحت الحكم البريطانى فى ذلك الوقت .

(ب) أنها تعترف بسيادة واستقلال البلدان العربية فى الشرق الأدنى ، وهى البلاد التى ترزح تحت نير الظلم البريطانى .

(ح) موافقتها على وحدتها إذا ما كانت هذه رغبة من يشتركون فى ذلك مستقبلا .

(د) مناداتها بتصفية الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

وقد أكدت الإجابة فحوى الرسالة . وهكذا تكون دولتا المحور فى النهاية قد أدلتا بالتصريح المرجو بخصوص المطالب العربية . ولكنه كان بياناً سرياً يحتوى على شرط ينص على عدم إفشائه ، يشبه فى ذلك ما احتوت عليه الرسالة الخاصة بمسألة العراق . كما احتوى على القيود العادية . وهكذا استعملت فقرة « بلدان الشرق الأدنى العربى » محددة المدى الإقليمى للوعود المبدولة لبلدان الهلال الحبيب . واختلفت صيغة « الاستقلال التام والسيادة الكاملة » التى احتوتها الرسالة الخاصة بالعراق عنها فى التصريح الجديد الذى استعملت فيه كلمتا « استقلال وسيادة » دون أن تقرر بهما الصفتان . وقد أثار هذا الخلاف احتمال حديث تفسير للوعود المتصلة بالتصريح العربى العام . ووفقاً لما اقترحه فورمان جعل توحيد البلدان العربية متوقفاً على موافقة المشتركين^(١) . وكان من الممكن لاصطلاح « مشترك » (Beteiligten) أن يشمل فرنسا أيضاً - ومن هنا فإن الالتزامات

(١) أبدي فورمان فى مذكراته شك فى موافقة المفتى على هذه الصيغة .

التي تعهد بها المحور لم تكن سرية فقط ، بل إنها أيضاً كانت تنصف بالنفاق . ولم يتسم بالوضوح سوى الوعد الخاص بتصفية الوطن القوي لليهود في فلسطين .

ويبدو أن المحور لم يعلق أهمية كبرى على هذا التصريح السري . ورغم أن شيانو يشير في مذكراته إلى التصريح الخاص بمسألة « البلاد العربية الحرة والهند الحرة » ، فإنه لم يشير إلى تبادل الرسائل . ومن الواضح أن المحور لم يكن يتوقع كثيراً من التصريحات . بل إن دولتيه كانتا تعتبران انتصار جيوشهما العامل الحاسم الوحيد . ومن المحتمل جداً أن التصريحات صدرت لتجنب إغضب الزعماء العرب الذين قد يحتاجون إليهم في المستقبل - ولكن التصريحات قدمت بخدمة نافعة في ذلك الوقت لأجهزة الدعاية الألمانية والإيطالية .

وكان القادة العرب على بينة من قيود وعموض الوعود التي تلقوها . ولكنهم كانوا يشبهون الشريف حسين في موقفه من بريطانيا منذ حوالي عشرين عاماً ، من حيث أنهم لم يعملوا كثيراً على الوعود بمقدار ما عملوا على الموقف الموضوعي الذي قد يترتب على انتصار المحور . فهم كانوا بحاجة إلى التصريحات كدليل على ما قاموا به ، لأغراض دعائية ، وأخيراً وليس آخراً كوثيقة تنظم وضعهم السياسي تحت سيطرة هتلر وموسوليني .

وفي ٢ مايو ١٩٤٢ أذاع الحاج أمين ورشيد عالي كلمات من راديو المحور بمناسبة مرور عام على نشوب القتال في العراق . واستغلا في هذه المناسبة الوعود التي حصلوا عليها بمقتضى الرسائل السرية . ولكن من المشكوك فيه جداً ما إذا كان لكلماتهما أى أثر خاص . وفي هذه المرة أيضاً كان القادة القوميون العرب ، لا الناطقون بلسان المحور ، هم الذين استعملوا فقرات من هذه الرسائل . وبعد شهرين كتب مسئول ألماني معلقاً على المحادثات التي جرت مع ممثلي اللاجئين العرب إلى إستنبول مايلي : « لم يفهم بوجه عام مغزى كلمات المفتي والكيلاني التي أذيعت في راديو روما في ٢ مايو »^(١).

(١) أشار سايلر Seiler في رسالة بث بها من الآستانة في أول يوليو ١٩٤٢ إلى محادثة جرت بين جروبا ومثلين يارزين للمنفيين العرب الذين أغرهم انتصارات روميل في مصر بطلب إصدار تصريح خاص باستقلال العرب .

الفصل الثاني عشر

الهجوم المحورى على مصر الموقف الحربى فى ربيع وصيف عام ١٩٤٢

فى الوقت الذى كانت تجرى فيه المفاوضات والمساومة فى برلين وروما فى أواخر عام ١٩٤١ وأوائل عام ١٩٤٢ بصدد صدور تصريح يساند المطالب العربية ، أخذ الموقف العسكرى فى البحر المتوسط يتغير لصالح المحور . حقيقة أن قوات الجنرال روميل واصلت انسحابها إلى مدينة العجيلة حتى ٧ يناير ١٩٤٢ - تحت الضغط البريطانى ، إلا أن الجبهة صمدت هناك . وفى خريف عام ١٩٤١ نقلت القيادة الألمانية عدداً كبيراً من الوحدات البحرية من المحيط الأطلنطى إلى البحر المتوسط ، ثم قامت بعد ذلك بنقل بعض الوحدات الجوية من الجبهة الشرقية . ومنذ ذلك الوقت مكنت هذه الإجراءات ، بالإضافة إلى تعيين الفيلد مرشال كسلرنج قائداً للجبهة الجنوبية ، الألمان من مباشرة تأثير أقوى على العمليات الحربية فى البحر المتوسط .

وما حلت أواخر عام ١٩٤١ حتى أصبح بالإمكان الإحساس بالنتائج ، وذلك حين حدث فى الوقت الذى شهد انتصارات بريطانيا البرية فى الصحراء الغربية أن حلت بها هزائم بحرية خطيرة . فقد أغرقت البحرية الإيطالية كثيراً من وحدات العدو : مثل حاملات الطائرات آر ك رويال والسفن الحربية بارهام وفاليانت وكوين إليزابيث - وقد تم إغراق القطعتين الأخيرتين فى ميناء الإسكندرية بطوربيدات بشرية . وفى الوقت ذاته (١٠ ديسمبر) منى الأسطول البريطانى بهزيمة مرة فى الشرق الأقصى . وفى ١٨ ديسمبر وه يناير أرسلت القيادة البحرية الإيطالية وحدات قوية لحراسة القوافل المتجهة إلى شمالى إفريقيا ، مما عزز مركز المحور هناك إلى حد كبير ، ولكن لم يكن بالإمكان مواصلة القيام بذلك نظراً لقلة الوقود . وحينئذ أصبحت مسألة استخدام الموانئ التونسية لإمداد القوات الإفريقية على جانب من

الأهمية . وفي ٢٩ ديسمبر ١٩٤١ بعث موسوليني إلى هتلر برسالة أشارت إلى أن قوافل النقل المتوجهة إلى أفريقيا تستلزم كثيراً من البترول ، بحيث أصبح من المستحيل توفير هذا الوقود للجبهة الإفريقية حتى بالكميات التي لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة إلى العمليات الدفاعية . وقد أكد أن من المستحيل وضع خطة للهجوم دون تأمين قواعد في تونس . وكان من رأى الدوتشي أن من الواجب الحصول على هذه القوافل بالاتفاق مع فيشي أو بالقوة . ورفض هتلر فكرة إجراء اتفاق مع فيشي ، لأنه لم يكن يرغب في قبول الشروط التي كان مقيضاً لبتان أن يقدمها ، وعارض في استخدام القوة خوفاً من ردود الفعل في إفريقيا الفرنسية .

وفي ٢١ يناير شن روميل هجوماً مضاداً ، وفي خلال أيام قلائل استعاد قسماً كبيراً من الأراضي التي انتزعها البريطانيون منه . ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى طبرق . وفي ٥ فبراير استولى على نخيلي وتميحي ودعمت الجبهة على هذا الخط حتى أواخر مايو ١٩٤٢ .

وكان الموقف العسكري على هذا المنوال حين مضت الأركان الألمانية والإيطالية تراجع الخطط الخاصة بالعمليات الحربية في البحر المتوسط في المستقبل . وبدأ في المناقشات رأيان مختلفان: فقد كان من رأى القيادة الإيطالية العليا أن الاستيلاء على مالطة هو شرط النجاح في شمال إفريقيا ، وأن إزالة هذه العقبة التي تعترض الطريق ستؤدي إلى جعل إمداد القوات أكثر انتظاماً وأمناً . ولكن القيادة الألمانية كانت ترى أنه لا يمكن شل مالطة إلا بالقيام بنشاط جوى . وفي النهاية وافقت القيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة على مساعدة إيطاليا في غزو مالطة ، وفي ٢٢ أبريل حصل كسلرنج على موافقة هتلر . وبمحت مسألة مالطة من جديد في اجتماع بين القيادتين العليين الألمانية والإيطالية عقد في أوبرسالزبورج في ٢٩ - ٣٠ أبريل . واستقر الرأي على خطة وسط كان قد دافع عنها كسلرنج . وكانت هذه الخطة تستند إلى آراء روميل الاستراتيجية . فقد كان من الواجب تأجيل النزول في مالطة حتى تم هزيمة البريطانيين في الصحراء الغربية ، وذلك للحيلولة دون شن هجوم مضاد بقصد مساعدة المدافعين عن الجزيرة . وفي اجتماع انعقد في برختسجادن (أول مايو) اتخذ قرار بأن يشن روميل

هجوماً في نهاية الشهر ، ويستولى على طبرق ثم يزحف شرقاً ولكن دون أن يتخطى الحدود المصرية . وحينئذ يقتصر على الدفاع ، على حين تنصب معظم جهود المحور على الاستيلاء على مالطة (العملية هرقل) . وكان على قوات روميل ألا تقوم بغزو مصر إلا بعد الاستيلاء على مالطة وتأمين خطوط الاتصال . وكان من الواجب بدء عملية هرقل في يولية ١٩٤٢ ، ولكن تقرر تعديل هذا القرار . وفي الوقت نفسه كانت مالطة هدفاً مستمراً للغارات الجوية التي شنها المحور .

وأدى الهجوم المتواصل على مالطة في أبريل ومايو إلى تسهيل عمليات النقل الحربى المحورى إلى شمالى إفريقيا . ولكن لم يكن ثمة مجال لحشد قدر أكبر من المؤن ، إذ أن فيلق إفريقيا الألمانى كان وحده يتطلب ٤٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ طن من العتاد شهرياً . وفي ٢٦ مايو استأنف روميل هجومه وسجل كثيراً من الانتصارات السريعة : في بير حكيم في ١٠ يونيه ، وفي اشتباك مع الدبابات البريطانية في العظمة في ١٢ - ١٣ يونيه ، والاستيلاء على سيدى رزق في ١٧ يونيه وعلى طبرق في ٢١ يونيه . وكانت مالطة في ذلك الوقت على وشك أن تتعرض للغزو .

وفي ٢٢ يونيه صرح الفيلد مارشال الجديد (وكان روميل قد تلقى عصى المشالية بعد الاستيلاء على طبرق) لقون رنتلن بأنه كان ضد إيقاف الهجوم^(١) وطلب منه أن يبلغ موسوليني والقيادة العليا للقوات الألمانية المسلحة بذلك . وأكد له أن أهم شيء ليس عدم السماح للبريطانيين بخلق جبهة جديدة . وكان روميل مقتنعاً بمفوفه الكبير على البريطانيين وبأن روح قواته المعنوية ممتازة . وفي طبرق استولى الألمان على قدر كبير من العتاد الحربى ، مما جعل روميل يتحرق لتعقب البريطانيين داخل الحدود المصرية وفتح الطريق إلى الإسكندرية وقناة السويس ، وطلب من هتلر أن يوافق على تحقيق هذا الهدف .

وعلى أية حال فقد اتسم موقف هتلر من عملية هرقل بالبرود - وفي رسالة بعث بها إلى موسوليني في ٢٣ يونيه ساند طلب روميل الخاص بإجوب إلغاء الدوتشي

(١) كتب روميل بعد ذلك : Krieg ohne Hass (حرب بدون كراهية) - مايد نهايم ، ١٩٥١ ، ص ١٢٦ : « قبل بدء الهجوم كان من الواجب . . . الاستيلاء على مالطة ، ولكن سلطانتنا العليا تخلت عن هذا الهدف لسبب غير مفهوم » .

الأمر الخاص بعدم اجتياز الحدود المصرية . وفي الواقع أن فكرة الوصول إلى قناة السويس كانت شديدة الإغراء بالنسبة إلى موسوليني . وبرغم اختلاف وجهات نظر مستشاريه ، فإنه وافق على رغبة روميل ، وتوجه إلى إفريقيا يوم ٢٩ يونية . وشحن بالطائرة الحصان الأبيض الذي كان من المتوقع أن يمتطيه لدى دخوله العاصمة المصرية . وفي نفس اليوم سقطت مرسى مطروح ، ووصل روميل إلى العلمين في أول يولييه .

ولكن جيش روميل لم يلبث أن صادف مقاومة بريطانية - بل لقد وصل الأمر بالإنجليز إلى درجة القيام بهجوم مضاد واحتلال بعض الأراضي . على أن الهجوم على الموقع الرئيسي للمحور في ٢١ - ٢٦ يولييه منى بالفشل . وهكذا واجهت القوات بعضها بعضاً في العلمين استعداداً للهجوم الذي كان مقيضاً له أن يقرر مصير مصر والبلدان العربية والشرق الأوسط برمته .

وكان مقيضاً للانتصار المحوري في شتاء إفريقيا أن يكون له أثر ضخم في مجرى الحرب . فلو تحقق هذا النصر لسيطر المحور على البحر المتوسط وقناة السويس ولأمكنه الحصول على كميات البترول الضخمة الموجودة في الشرق الأوسط . وهذا بالضبط ما كانت تفكر فيه بعض الدوائر الألمانية ، ومنها - على سبيل المثال - أركان روميل ، حين رسمت خطة الهجوم على مصر .

وفي الوقت نفسه قام الألمان بهجوم على مسافة تبعد عن مصر شمالاً مسافة تقرب من ٢,٠٠٠ كيلومتر في القطاع الجنوبي من الجبهة السوفيتية . وكان مقيضاً لما جرى على هذه الجبهة أن يقرر مصير الحرب العالمية الثانية . وقد سبق أن أوضحنا أن الحكام النازيين ربطوا بين خططهم في الشرق الأوسط وبين المعارك التي كانت تجرى على تلك الجبهة السوفيتية .

وقد تطور الهجوم على الجبهة الشرقية في اتجاهين رئيسيين : الشرق والجنوب . وكان هذا الاتجاه الأخير حاسماً بالنسبة إلى خطط ألمانيا الخاصة بغزو إيران والبلدان العربية . وتكرر ما حدث في عام ١٩٤١ ، من حيث تقدم الألمان في البداية في وجه مقاومة الجيش السوفيتي . ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ خططهم المرسومة . ففي ٢٣ يولييه سقطت روستوف ، وفي ٢٤ أغسطس تم الاستيلاء على ما يكوب .

وفى ٨ أغسطس دخلت القوات الألمانية مزدوك ، وفى ١٠ سبتمبر وصلت إلى نوفروريسيسك . أما سوندرستاب ف التى كانت معززة بكثير من الوحدات من مختلف الأسلحة ، فقد دخلت مدينة بوديونفسكايا على نهر كوما . وفى ٢٥ أغسطس وصل الألمان إلى نهر الفولجا .

وكان يبدو أن السياسة النازية الخاصة بالبلدان العربية تقترب من لحظتها الحاسمة . ففي إفريقيا كانت قوات المحور تقف على أبواب الإسكندرية . وكان يبدو أن الاستيلاء على مصر قد أصبح وشيكاً - بكل ماله من دلالات سياسية واضحة . ولما كانت مصر موضعاً لاهتمام الإيطاليين ، فلنما أصبحت مسرحاً إيطالياً للحرب ، وكان من واجب القيادة الإيطالية أن تتولى توجيه الاستيلاء عليها . على أن القوات الألمانية لعبت دوراً أكبر فى هذه العملية ، وكانت القيادة الألمانية فى سبيلها إلى الحصول على نفوذ متزايد هناك . ولكن الألمان اعترفوا رسمياً ببلدان البحر المتوسط - ومنها مصر - باعتبارها واقعة فى منطقة النفوذ الإيطالى . وقد أوضحت المفاوضات الخاصة بإصدار تصريح موجه للعرب أن الإيطاليين أبدوا ضبطاً للنفس فى كل ما يتعلق بمصر يفوق ما أبدوه لزاء البلدان العربية الشمالية ، وكان على النازيين أن يعملوا حساباً لكل هذا فى سياساتهم .

الانقلاب فى مصر

سبق أن أوضحنا أن الدوائر الحاكمة فى مصر سعت إلى إقامة اتصالات بألمانيا . وتدل وثائق وزارة الخارجية الألمانية على أن القائم المصرى بالأعمال فى برن - عسل بك - والبرنس محمد إبراهيم والقنصل المصرى العام فى استنبول ، حافظ عمرو ، والسفير المصرى فى طهران (يوسف) ذو الفقار باشا صهر الملك فاروق وآخرين اتصلوا بالهيئات الدبلوماسية الألمانية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر حتى قبل الهجوم على الاتحاد السوفيتى . وجرت اتصالات أخرى فى أكتوبر فى طرابيه حين زار الدكتور سمير ذو الفقار (بك) فون بابن ، وفى نوفمبر ١٩٤١ حين تمت الاتصالات بين وزير مصر المفوض إلى حكومة فيشى ومسؤولين آخرين فى المفوضية وبين بعض المسؤولين الألمان . وكانت أهم هذه الاتصالات تلك التى ألمانيا النازية

أجراها ذو الفقار (باشا) الذى اتصل - فى أبريل ١٩٤١ - بإيتل وزير ألمانيا المفوض فى طهران ، باسم (الملك) فاروق وبتعليمات خاصة منه. وقد أشار ذو الفقار (باشا) إلى الموقف الذى وضع فيه الضغط البريطانى المستمر الملك . وعبر عن عطف فاروق على هتلر واحترامه له ولألمانيا ، وعن أطيب تمنياته بالانتصار على بريطانيا . وقد صرح بأن الملك وشعبه يودان مشاهدة قوات التحرير الألمانية فى مصر فى أسرع وقت ممكن . ورداً على سؤال إيتل الخاص بموقف مصر من إيطاليا كان رد (ذو الفقار باشا) أن المصريين فى الوقت الذى يحارب فيه الجنود الألمان أيضاً فى شمالى إفريقيا ، قد أيقنوا أن الألمان قد أتوا كمحررين لا كطغاة جدد مثل الإيطاليين .

وفى ٣٠ إبريل ١٩٤١ تلقى إيتل مذكرة موجهة إلى السفير المصرى ردّاً على رسالة من الملك فاروق . وقد أكد ريبنتروب للملك - باسم هتلر - أن حرب ألمانيا ليست موجهة ضد مصر أو فى الواقع ضد أى بلد عربى ، بل ضد إنجلترا وحدها . وجاء فى المذكرة أن دولتى المحور تريدان طرد بريطانيا من أوروبا والشرق الأدنى إلى غير رجعة ، وإقامة نظام جديد يقوم على مبدأ المصالح المشروعة لكل الشعوب . وأكد ريبنتروب أن ألمانيا ليست لها أطماع إقليمية فى البلدان العربية ، على حين أن موسوليني وهتلر يرغبان فى أن يتحقق استقلال مصر وكنل العالم العربى . وصدرت التعليمات إلى إيتل بأن يطلب من السفير أن يقدم هذا التصريح إلى الملك وأن يبلغه باستعداد ألمانيا لإقامة روابط وتعاون أوثق مع مصر . ولم ينفذ اقتراح ريبنتروب الخاص بالقيام بالاتصالات اللازمة فى بوخارست أو أنقرة ، لأن ذو الفقار (باشا) كان يريد أن يكون هو الوسيط فى المفاوضات والمحادثات . وطيلة عام ١٩٤١ أجرى فاروق اتصالات مع الألمان^(١) . وفى نفس الوقت كان الريخ يبدى بعض الثقة بالوفد الذى كان حينئذ يعارض وزارة حسين سرى باشا المالية لبريطانيا . وحين وصل الوفد بعد ذلك إلى الحكم فى عام ١٩٤٢ سعى

(١) فعل سبيل المثال حذر الملك الألمان - فى رسالة بتاريخ ٢٩ يوليه - من الخطة القاضية باستيلاء القوات البريطانية على حقول البترول فى إيران (رسالة إيتل - طهران فى ٣ يوليه ١٩٤١) -
(DGFP, XIII, no. 66, pp. 77-78).

الألمان إلى إجراء اتصالات معه بصفته أقوى الأحزاب المصرية . وبإمكاننا أن نستشف من محادثة جرت بين إيتل وذو الفقار (باشا) في ٢ يولية ١٩٤١ ، يطلب من إدارة وزارة الخارجية الألمانية طبقاً لتعليمات خاصة ^(١) ، أن الحكومة النازية كانت مهتمة بمصير عزيز على المصرى وعزام باشا وعلى ماهر باشا ^(٢)

وفي أكتوبر ١٩٤١ ، اتصل أخو ذو الفقار (باشا) ، دكتور سمير ذو الفقار (بك) ، بفون باهن في طرابية . وقد قدم نفسه باعتباره مبعوثاً بأمر الملك فاروق كذلك باسم ثلاثة أحزاب مصرية : الوفد والحزب الوطنى والأحرار الدستوريين . وباسم هذا التحالف الغربى طالب بالاستقلال التام لمصر وبتأكيد ألا تقع مصر في منطقة النفوذ الإيطالى . وطالب بإيقاف قذف القاهرة بالقنابل ، وقدم بعض المعلومات عن مواقع القوات والمنشآت البريطانية في مصر ، وصرح بأن رئيسه يرغب في إيجاد الجوى المناسب لاحتلال المحور للبلاد ، وأنه سيصل به الأمر إلى العمل على مساعدة قوات المحور إذا ما كان ذلك ممكناً ^(٣) . على أن الألمان لم يكونوا على استعداد لقطع وعود سواء بخصوص استقلال مصر التام أو بخصوص عدم قذف القاهرة بالقنابل .

كما واصلت دولتا المحور الاتصال بالمصريين المقيمين في أوروبا . فثلاثا كانت توجد الجمعية الوطنية المصرية في أوروبا ، وهى الجمعية التى كانت تساندها الحكومة الإيطالية . وكان يرأسها الطيب ناصر . ولكن كانت أهم شخصية مصرية في أوروبا المحتلة في ذلك الوقت هى خديو مصر السابق ، عباس حلمى الثانى الذى خلعه الإنجليز في عام ١٩١٤ . وقد ولد عباس في عام ١٨٧٤ وتلقى

(١) كشفت هذه التعليمات أن الخطة القاضية بإرسال هنتج بصفته مبعوثاً خاصاً لإجراء المحادثات مع ذو الفقار باشا قد أُلغيت ، وأنه كانت تسود بدلا من ذلك محاولة حذرة لتقوية الاتصالات مع مصر ، نسبة إلى التطورات السريعة التى جرت في إيران .

(٢) كان عبد الرحمن عزام أحد أعضاء وزارة على ماهر (باشا) ومن أوثق المتعاونين معه . وقد أقيمت من منصبه باعتباره قائداً للجيش المرافق في مايو ١٩٤١ وفى عام ١٩٤٥ أصبح أول سكرتير عام للجامعة العربية . وهو يشبه على ماهر في أنه كان من أنصار الملك في أوائل الحرب .

(٣) كان الوفد يمارس البلاط والوزارة المصرية القائمة التى لعب فيها الأحرار الدستوريون دوراً هاماً . وكان الحزب الوطنى في ذلك الوقت يشكل هيئة صغيرة معادية لبريطانيا ، كان أهم ما تقوم به هو منافسة أكبر الأحزاب المصرية (الوفد) .

تعليمه في فينا ، وعاش في ألمانيا وقتاً طويلاً ، وكان صديقاً قديماً لألمانيا ولسلطان تركيا . وكان عباس حلمي الثاني على علاقات وثيقة بكثير من الألمان الذين كانوا يعملون في تركيا قبل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها . وكان واسع الثراء وعلى علاقات طيبة برجال الصناعة الألمان ، كما كانت له صلات متعددة بالطبقات الراقية الأوروبية وصداقات واسعة في تركيا^(١) . وقد ساند كثيراً من القادة العرب^(٢) . وكانت آراؤه تمثل خليطاً من الواقعية السياسية والاستعراض الأرستقراطي . ولم يكن يهمهم بحركة الوحدة العربية بل كان يراها وهماً ، وينكر قدرة العرب على تكوين دولة أو على التنظيم والدبلوماسية . وقد أقام عباس حلمي الثاني اتصالات مع وزارة الدفاع ووزارة الخارجية الألمانية . ومن المحتمل أن مصالحه المالية في أوروبا لعبت دوراً كبيراً في علاقاته الودية بالسلطات النازية . وقد تنازل عن العرش المصري وأصدر تصريحاً بهذا الخصوص في لوزان (١٢ مايو ١٩٣١) ، ولكنه أوضح فيها بعد أنه يطالب بالعرش لابنه . وكان وجود عباس حلمي في أوروبا من العوامل الهامة التي حملت فاروقاً على السعي إلى إقامة اتصالات بالألمان لكي يؤمن حقوقه العائلية في حالة انتصار المحور .

وكانت مخاوف فاروق تستند إلى أساس ما - إذ من المؤكد أن عباس حلمي حاول بالفعل أن يحرز ثقة الألمان . وفي أواسط أبريل عبر عن رغبته في مقابلة ريبنتروب أو أحد الرجال الآخرين في الدوائر العليا - ولكن ذلك لم يتمخض عن أى شيء في ذلك الوقت . على أن فون هنتج قدم إلى باريس حوالى آخر يونيو ، وهناك تلقى معلومات معينة من الخديو ، كما تلقى منه عرضاً بالتعاون .

ولم تكن وزارة الخارجية الألمانية منذ البداية تنوى مساندة ادعاءات عباس حلمي الأسرية ، ولكنها رأت أن من المستحسن استغلال اتصالاته الواسعة في الخارج . ولهذا كلفت باريس بمواصلة اتصالاتها به . وظلت هذه العلاقات دون تغيير بعد زيارة عباس حلمي لبرلين (٢٥ - ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٤١) . ويبدو أن أخبار اتصال عباس حلمي بالألمان ، وربما أيضاً أخبار زيارته

(١) وبطبيعة الحال كان أصدقاء عباس حلمي الأتراك من معارضي النظام الكمال .

(٢) فمثلاً كان شكيب أرسلان يثقل منه أموالاً .

لبرلين ، قد أثارت قلقاً في البلاط الملكي المصرى . وفى ٣٠ يناير ١٩٤٢ طلب سرى عامر (بك) موضع ثقة الملك فاروق - وكانت له ميول محورية - من وزير بلغاريا المفوض أن يدلى بتصريح للألمان فحواه أن الملك وأنصاره ينفون في صف المحور ، وأنهم لا ينكرون ذلك . كما أكد التصريح أن الألمان قد أبلغوا بأن فاروقاً على علم بمؤامرات عباس حلمى الهادفة إلى إضعاف ثقة برلين به وإلى خلعته حين ينتصر المحور في الحرب ^(١) . وكان السبب المباشر لهذه الزيارة التى قام بها سرى عامر لوزير بلغاريا المفوض هو قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفيشى . وقد عارض الملك فاروق قطع العلاقات خوفاً من أن يؤثر ذلك على موقفه إزاء الألمان .

ونتيجة لتدخل فاروق ، نصح ريبنتروب بعدم الاتصال بالخدو السابق . حقيقة أن قوى معينة في وزارتي الخارجية والدفاع الألمانيتين ألغت هذا القرار بعد وقت قصير ، إلا أن عباس حلمى ظل يلقى صعوبات في محاولاته إجراء اتصالات سياسية ^(٢) . وهكذا قرر الألمان ، قبيل الهجوم على مصر ، أن يتعاونوا مع فاروق ، وأن يمتنعوا على أى حال عن تعيين أى مرشح جديد لعرش مصر . كما قررت الحكومة الإيطالية عدم الاتصال بعباس حلمى بصدد الشؤون العربية لعلاقتها الودية بفاروق .

وقد سبق أن ذكرنا أن الحكومة الألمانية تمسكت بوجه عام بالمبدأ الخاص بأن الوقت لم يحن بعد لمناقشة مستقبل الأراضي التى تعتبر داخلية في منطقة النفوذ الإيطالى . وإن عدم وجود أى أثر في الوثائق الألمانية لمحادثات مع إيطاليا حول مستقبل مصر لأمر يستحق الالتفات بوجه خاص . ووجدت السياسة الألمانية الخاصة بتأجيل كل القرارات حتى يحين الوقت الذى يسمح بمناقشة صريحة مع

(١) ظلت مفوضيات الدول التابعة للمحور في البلقان تعمل في القاهرة وقتاً طويلاً ، ولكن أوقف حقها في إرسال رسائل بالشفرة في أبريل ١٩٤١ . وقد بارح وزير بلغاريا المفوض مصر في مارس ١٩٤٢ ، وحينئذ فقط وصلت إلى الألمان أخبار هذه الشفرة .

(٢) حرم على عباس حلمى أن يرحل إلى إستنبول ، على وجه المثال ، لمقابلة (ابنه) الأمير عبد المنعم الذى قدم من القاهرة - وكانت وزارة الدفاع الألمانية قد زودته بسلسلة واسعة من الاستفسارات ليدلى بها خلال هذه المقابلة .

إيطاليا تعبيراً عنها في كثير من الخطوات السياسية التي اتخذت في عام ١٩٤٢ .
على أن الموقف أحياناً ما كان يتطلب قراراً سياسياً مباشراً ، كما حدث بالنسبة إلى
العلاقات مع الحديو السابق - ولكن في أغلب الأحوال كانت مسائل ثانوية هي
التي تستحق البحث .

الانقلاب في مصر

وفي الوقت نفسه تعرضت مصر لأحداث سياسية هامة . فحين قطعت وزارة
حسين سرى (باشا) العلاقات الدبلوماسية مع فيشي ، طلب الملك فاروق - الذي
كان في ذلك الوقت يبدى استياءه من إنجلترا بصورة أو أخرى - إقالة وزير
الخارجية القبطي صليب سامى (باشا). وسوغ فاروق طلبه بأنه كان خارج
القاهرة حين جرى قطع العلاقات مع فيشي وأنه لم يستشر . وكان على ماهر
وأصدقائه هم القوة التي تسند العرش ، وقام الطلبة بمظاهرات في القاهرة حين
ساند حسين سرى زميله وزير الخارجية . وكان السخط متفشياً في البلاد
في ذلك الوقت بسبب نقص المواد التموينية . وفي الوقت نفسه كان للانتصارات
الألمانية في برقة والحزائم البريطانية والأمريكية في الشرق الأقصى أثر ضخم على
الرأى العام في المدن . وفي ٢ فبراير استقالت وزارة حسين سرى .

وفي اليوم التالى زار السفير البريطانى ، سير مايلز لامبسون ، الملك قبل أن
يجرى مشاورات مع الأحزاب السياسية . وفي ذلك الوقت انتقد السفير البريطانى
حسين سرى ، مناقضاً بذلك الرأى الذى كان قد أبداه قبل أيام قليلة وفحواه
أن حسين سرى سيستمر في الحكم . وقد شكوا السفير من عجز مجلس الوزراء ،
وأفهم الملك أنه يلوم بلاطه على النتائج غير المرضية للسياسة التي كان ينتهجها
حسين سرى . وأهم من هذا أنه طلب من الملك أن يعين وزارة بإمكانها أن تستند
إلى التأييد الشعبي - أى وزارة يرأسها مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد . وكان
معنى ذلك أن تتألف وزارة وفدية ، لأن السفير البريطانى كان على علم بأن الوفد
يعترض اعتراضاً تاماً على تشكيل أى وزارة ائتلافية . وما يجدر ذكره أن الوفد كان

يساند طلب إعلان القاهرة مدينة مفتوحة ، وكان نقده للسياسة البريطانية في مصر أخذاً في الازدياد . ولهذا لا يمكننا أن نخاطر ببناء افتراض حول الأسباب التي دعت إلى تعديل السياسة البريطانية إزاء الحزب . وثمة افتراض منطقي هو أن الإنجليز كانوا يفضلون أن يستبدلوا مجلس الوزراء العاجز القائم على شلة من الباشوات بمجلس آخر يشكله حزب يتمتع بمساندة الجماهير — إذ أن مثل هذه الوزارة كان لا بد أن تكون معادية لإيطاليا . واعتبر البريطانيون موافقتهم على رجوع الوفد إلى الحكم ورقة رابحة بإمكانهم أن يلعبوا بها إلى أقصى حد . وبعد وقت قصير حلت هذه اللحظة . ومن المحتمل أن لندن كانت تود أن تسد الطريق ، بأنجح وسيلة ممكنة ، أمام تشكيل وزارة يسيطر عليها الملك وعلى ماهر باشا اللذان كانا يعتبران بحق أكبر أنصار المحور في مصر ، وأن تسعى في الوقت نفسه إلى تهدئة الموقف بتشكيل حكومة وفدية .

وكان رد الملك على احتجاجات السفير البريطاني أنه كان يتشاور مع الزعماء والأحزاب السياسية ، بما فيها الوفد ، لأنه يرغب في تشكيل وزارة ائتلافية ^(١) . وبعد ظهر يوم ٤ فبراير حذر السفير فاروقاً مرة أخرى — وجاء تحذيره هذه المرة على شكل إنذار بأنه سيتحمل مسؤولية ما يحدث إذا لم يكلف النحاس حتى الساعة السادسة من ذلك المساء بتشكيل وزارة . رحين لم يمثل فاروق للطلب بحلول الوقت المحدد ، قدم السفير إلى قصر عابدين في الساعة التاسعة يرافقه القائد العام للقوات البريطانية في مصر — الجنرال ستون R. G. W. H. Stone — الذي اصطحبته قوة مشاة وثلاث دبابات خفيفة . وبعد ساعة بلغ الملك الأحزاب السياسية بقراره الخاص بتكليف النحاس بتشكيل وزارة . ويمكننا أن نستشف من التقارير التي في أيدينا عن هذه الأحداث أن قادة التشكيلات السياسية الموالية لبريطانيا لم يساندوا مطالب السفير البريطاني بأي شكل .

وقد قدمت وزارة الوفد لبريطانيا كل ما كان يمكن توقعه منها في مصر في ربيع وصيف عام ١٩٤٢ حين كان موقف الحلفاء سيئاً للغاية ، وفي الوقت الذي

(١) عقد الملك مؤتمراً لزعماء الأحزاب السياسية لم يتخض عن أي نتائج — انظر :

كان فيه الجميع يكادون يتوقعون انتصار المحور. وبما لا شك فيه أن المسألة لم تكن تتعلق باشتراك مصر في الحرب اشتراكاً مباشراً.

ما هو موقف دول المحور إزاء هذه الأحداث ؟ لما كانت إيطاليا عدواً قديماً للوفد الذي ارتبط في عام ١٩٣٦ بتوقيع معاهدة مع بريطانيا خوفاً من قيام موسوليني بأعمال عدوانية في إفريقيا ، فقد وقفت من الوزارة الجديدة موقف العداء . وكانت تصل القادة الإيطاليين أخبار تعطيهم صورة ممتازة عن أحداث مصر . ففي ١١ فبراير نشرت وكالة ستيفاني خبراً ذكرت أنها استقته من أحد مراسليها في لشبونة^(١) عن أحداث ٣ و٤ فبراير . وكان الإيطاليون يعلمون أن الملك لا يرضى بقيام حكومة وفدية ، إذ أن العداء بين القصر والوفد كان معروفاً جيداً .

ويمكننا أن نستشف من وثائق وزارة الخارجية الألمانية أن الألمان لم تكن لديهم فكرة عما كان يجري في مصر ، لأن كل الاتصالات الهامة كانت قد قطعت^(٢) . وكان تفسير برلين بسيطاً : أزيحت وزارة موالية لبريطانيا وتشكلت وزارة وطنية في مصر على يد حزب كان قد اصطدم أحياناً ببريطانيا . . وتمسكت وزارة الخارجية الألمانية بموقفها الخاص بعدم مهاجمة النحاس حتى بعد نشر الخبر الذي نقلته وكالة ستيفاني . وتم التعبير عن هذا الاتجاه في التقارير التي نشرتها الصحافة الألمانية بصدد أحداث مصر .

وقد نشرت الصحافة الألمانية^١ سواء قبل الانقلاب البريطاني في مصر أو بعده ، أخباراً ومقالات تميل إلى الوفد . وكان عنوان التغيير الوزاري في مصر في صحيفة فرانكفورتر تسايتونج له مغزاه : « مصر تريد تقرير المصير . ما وراء كواليس التغيير الوزاري » .

(١) يهدف إخفاء المصدر الحقيقي . وقد نجحت هذه الخطة . انظر :

S. Kirk : The Middle East and the War, p. 208, n. 3.

(٢) قيم ملشرفي مذكرة له بتاريخ ٥ فبراير وزارة الوفد تقييماً حذراً . فكتب ما يلي « لا يجب أن نستنتج من ذلك أن الطريق كان مفتوحاً أمام تشكيل وزارة تميل إلى المحور . وقد أوضح الساسة الوفديون أيضاً أنهم يميلون تماماً ، في ظروف معينة ، إلى التعاون مع إنجلترا » ولكن الزعماء الألمان لم يشاركوا وجهة النظر هذه بالضرورة .

وفي ١٢ من فبراير بلغ مدير مكتب الكونت شيانو السفير الألماني فون ماكنزن بأن الأخبار التي تنشرها الصحف الإيطالية عن أحداث مصر كانت مبنية على تقارير مستقاة من مصادر موثوق بها محفوظة في ملفات وزارة الخارجية . وطلب المركز داجيتا d' Ajeta — أحد مرعوسى شيانو — من الألمان أن يستعملوا هذه المادة . ولكن الصحافة الألمانية تمسكت بالاتجاه السابق الذى اتبعته . وفي محادثة جرت في ١٥ فبراير بين داجيتا والبرنس بزمارك ، اتهم داجيتا الألمان برفضهم نشر المادة الإيطالية . وقدم ثلاث رسائل لبرزمارك حصل عليها الإيطاليون وفكوا شفرتها : رسالة وزير تركيا المفوض في القاهرة إلى وزارة الخارجية في أنقرة ، بتاريخ ٣ فبراير ، والرسالة الشخصية التي بعث بها الملك فاروق إلى وزير مصر المفوض في واشنطن بتاريخ ٦ فبراير ، والبرقية التي أرسلها الملحق العسكرى الأمريكى في القاهرة — كولونل فلرز B. F. Fellers — إلى وزارة الحربية بتاريخ ٧ فبراير ١٩٤٢ .

ومن الواضح أن إيطاليا كانت شديدة الاهتمام بأن تقف ألمانيا موقفاً مشابهاً لموقفها بصدد أحداث مصر ، وأن تتخذ برلين موقفاً معادياً للوفد . وحين لم تقم ألمانيا بذلك برغم طلب ماكنزن ، شكك الإيطاليون من رفض نشر المادة التي تنتقد الوفد برغم عدائه المعروف للمحور . حقيقة إن الحكومة الألمانية قدرت موقف الإيطاليين في نهاية الأمر ، إلا أنها ظلت تسعى إلى إقامة اتصالات مع الوفد . وفي التعليقات السياسية التي أرسلها فايز ساكر في ٢٦ يونية إلى فون نيوراث الأصغر — ممثل وزارة الخارجية الألمانية في أركان روميل — وضعت صياغة تنصف بالحذر بخصوص موقف ألمانيا من الوفد .

ومن المحتمل أن الحادثة السابق ذكرها جعلت الحلفاء يكتشفون في النهاية أن المحور أمكنه فك الشفرة الأمريكية التي سجل بها من القاهرة وضع القوات البريطانية وأعدادها وفعاليتها وتحركاتها . ووقعت أوراق الكولونيل فلرز بطريقة ما في أيدي الخلايا الشيوعية السرية في برلين ، وهي الخلايا التي أفشها من إذاعة لها من محطة إذاعة برلين تحت عنوان (وراء كواليس السياسة العالمية) . وكان المحتوى المثير لهذه الإذاعة هو كفاح مراكز التجسس في الشرق الأوسط . وتم

العمل في القاهرة ونقلت المحادثة مقتبسات بالنص من تقارير فللرز إلى وزارة الحربية الأمريكية . وبعد يومين تغيرت الشفرة وفصل فللرز^(١) .

وتلقى حساسية الإيطاليين الكبيرة إزاء الشئون الإفريقية ضوءاً على مسلكهم ، إذ أنهم قرروا - باتصالهم بسفارة الريخ - أن يكتشفوا تفاصيل الوثائق السرية لخباياهم . ومن المعروف جداً ما كان من أثر فقدان الحبشة وهزائم شمالى إفريقيا على الرأي العام . ولما كان موسوليني يرغب في الاحتفاظ بهذه المنطقة باعتبارها منطقة نفوذ له وحده ، فإنه عارض لفترة طويلة اشتراك قوات الريخ في القتال في إفريقيا . وحين بدأت القوات الألمانية في عام ١٩٤٢ تلعب دوراً كبيراً متزايداً في الجبهة الإيطالية ازدادت مخاوف إيطاليا بشكل له ما يبرره . ولهذا كان عدم حماسة برلين لاتخاذ موقف ضد الوفد والنحاس باشا موضع شك لدى الإيطاليين - الذين ازدادت مخاوفهم نتيجة لذلك - من أن هتلر قد تكون له خطط سياسية بخصوص مصر . فالنزاع المستمر بين الجنود الألمان والإيطاليين من مختلف الرتب ، والتقليل من شأن دور إيطاليا في الحرب ، ومسلك روميل الوحشى إزاء الضباط الإيطاليين ، والسخرية من شجاعة الجنود الإيطاليين - كل هذا أثار الزعماء الإيطاليين دون شك وخلق جوّاً ينمو فيه عدم الثقة وكل أنواع الشكوك .

الألمان ومصر

وبرغم ذلك فإن الألمان أبدوا كثيراً من ضبط النفس في كل ما يتعلق بمصر . وقد أكد هتلر عدة مرات في تصريحاته وجوب كون مصر وقناة السويس من نصيب إيطاليا^(٢) . وعلى هذا الأساس تم الاتفاق على أن تكون روما مركز الدعاية

(١) يذهب إبلر Eppler في كتابه (روميل ينادى القاهرة : Rommel ruft Kairo, p. 48) إلى أن وزارة الدفاع الألمانية كانت قد حصلت على الشفرة الأمريكية منذ يولية ١٩٤١ . ويدوأن اقتراض أن الإذاعة كانت مهمة المخابرات السوفيتية (نفس الكتاب ص ٢٩٤) إنما هو اقتراض خاطئ . بسبب الطريقة التي عرضت بها المادة .

(٢) على أن هذه التصريحات قد تم الإدلاء بها أمام جمهور كبير نسبياً .

الموجهة إلى مصر والبلدان العربية بوجه عام . ووضع المسئولون الألمان مطالب إيطاليا نصب أعينهم حين كانوا يصعدون تعليماتهم . ومن هنا نجد ، على سبيل المثال ، أن ريبنتروب في تعليماته الخاصة بالدعاية الإذاعية الموجهة إلى مصر ، يدعو إلى استعمال مادة قوية ضد البريطانيين وإبراز دور روميل وجيشه . ولكنه تجاهل مسألة استقلال مصر . كما أن تعليمات فايز ساكر إلى فون نيوراث الأصغر صيغت صياغة تتسم بالخطر الشديد . فقد كتب أن بإمكان الألمان ، بالنسبة إلى مصر ، أن يعملوا أولاً وقبل كل شيء على الملك الذى كان مقيضاً له أن يلعب دوراً هاماً في تطور الأحداث في البلاد . كما أن من المعروف أن هتلر زود وزارة الخارجية الألمانية بتعليمات خاصة لإقامة اتصالات مع فاروق للحيلولة دون اختطافه بعيداً عن مصر في حالة هزيمة البريطانيين .

كذلك نجد ، فيما يتعلق بموقف ألمانيا من الوفد ، أن تعليمات فايز ساكر كانت متحفظة بشكل مائل ، وإن لم تكن متمشية تماماً مع موقف إيطاليا . وقد صرح وزير دولة هتلر بأن النحاس (باشا) وحزب الوفد كانا يعارضان الدوائر التقليدية والبلاط ، وأشار إلى العداء القائم بين الوفد وإيطاليا . كما أشار إلى أن الوفد ، ورغم وطنيته ، كان عليه أن يضع في عين الاعتبار قوة بريطانيا في مصر . واستطرد فايز ساكر قائلاً إنه طالما كان القتال مستمراً يكون من دواعي العقل بالنسبة إلى الألمان أن يتوقعوا بقاء موقف الجيش المصرى والقوى السياسية سليماً . وأكد فايز ساكر أن ألمانيا لم تهاجم النحاس (باشا) في دعايتها . ومن هنا يبدو أن التعليمات دعت إلى تقدير موقف إيطاليا في ذلك الوقت ، ولكن دون أن يؤدي ذلك إلى تعريض حرية ألمانيا في العمل مستقبلاً للخطر بأى شكل من الأشكال .

وبرغم ذلك كان يجب أن يبتى موقف إيطاليا على ما هو عليه على الأقل من الناحية الظاهرية . بل لقد وصل الأمر بالألمان إلى الموافقة على اقتباس المقالات التى كتبها جايدا V. Gayda لصوت إيطاليا في نشراتهم الدعائية وفى إذاعاتهم . وما يسترعى الانتباه ما نلاحظه من أن المنشورات الإيطالية التى أُلقيت على مصر في ذلك الوقت حملت شعار « البحر المتوسط لشعوب البحر المتوسط » كما حملت مقالات فرجينيو جايدا الدعائية شعار « مصر للمصريين » جنباً إلى جنب مع

شعارات خاصة بصداقة إيطاليا ومصر طيلة ألقى عام .

وقبل الزعماء النازيون دون تحفظ المسودة التي وضعها موسوليني لتصريح محوري خاص بمصر . وفي ٢ يولية قدم الإيطاليون هذا التصريح إلى الألمان وطلبوا منهم أن يبدوا رأيهم بأسرع وقت ممكن . وفي اليوم التالي نشر التصريح دون أن تجرى فيه أية تعديلات - وكان كالآتي :

« في الوقت الذي تتقدم فيه قوات دولتي المحور المسلحة عبر مصر ، تؤكدان من جديد تصميمهما على احترام وتأكيد استقلال مصر وسيادتها . إن قوات المحور المسلحة تدخل مصر لا باعتبارها بلداً معادياً ، بل لطرد الإنجليز من الأراضي المصرية ومواصلة العمليات الحربية ضد إنجلترا وتحرير الشرق الأدنى من الحكم البريطاني . وتستلهم سياسة دولتي المحور مبدأ : مصر للمصريين . »
« وإن مستقبل مصر ، بعد أن تنحدر من القيود التي تربطها ببريطانيا العظمى ، وهو المستقبل الذي قاست البلاد من أجله آثار الحرب المظنية ، يستلهم احتلالها مكانها بين البلدان المستقلة ذات السيادة » .

وقد عبر التصريح عن وجهة النظر الإيطالية . فهو لم يحتو على صيغة « الاستقلال التام والسيادة الكاملة » التي وردت في الرسالة الخاصة بالعراق التي قدمت للكيلاني^(١) . كما لم يشر التصريح إلى الأمان العربية العامة أو إلى المطلب الرئيسي الذي كان ينادى به الوطنيون والملك في ذلك الوقت : أي وحدة مصر والسودان . وما له مغزاه أن تعليقات ريبنروب الخاصة بالدعاية الألمانية في مصر قد وضعت نصب عينها مطالب كل العرب .

وقد وضع حد لتراجع ألمانيا أمام وجهة النظر الإيطالية حين تم حسم مسائل محددة . وقد حاول الألمان قبل كل شيء أن يمجروا اتصالاتهم الخاصة في مصر . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه الاتصالات قد جرت مع عزيز على المصري والمجموعة المتأمرة من ضباط الجيش الوطنيين . ولكن يبدو أن هذه العلاقات انتهت بعد أن فشلت محاولة المصري الحرب من مصر في عام ١٩٤١ .

(١) ولكن الإيطاليين أصدروا بالفعل في دعايتهم الموجهة إلى مصر شعار : « المحور يحارب من أجل الاستقلال التام وحرية مصر السياسية وسيادتها » .

ولم يتمخض إنزال عميان بالباراشوت فوق النيل ، معهما جهاز إرسال ، كان عليهما أن يتصلا بالأمرة المعادية لبريطانيا في مصر - لم يتمخض عن أية نتائج^(١).

وفي أثناء تقدم قوات روميل في الصحراء الغربية ، حاولت برلين أن تتصل بالملك من جديد ، ولم يكن هذا أمراً سهلاً - وقد أمضى العملاء الألمان كل يومية على الأقل في البحث عن الطريقة التي يقدمون بها للملك تصريحاً من هتلر وريبنتروب . وكان من المتوخى لهذا التصريح أن يحذر فاروقاً من المؤامرات البريطانية ، وأن يحتوى على اقتراح خاص بمساعدته على الحرب من مصر إلى مقر قيادة روميل أو إلى جزيرة كريت . وكانوا يودون أن يضعوا طريقة مشاورة مع الملك ، واقترحوا استعمال إذاعات الراديو الموجهة إلى مصر لهذا الغرض . ومما له مغزاه أن القصد من كل هذه المسألة هو أن تنتقل سرّاً عن طريق الإيطاليين - وقد تم ذلك بالفعل . وتعاون مع الألمان في هذه العملية كل من الحاج أمين الحسيني ونائب رئيس جماعة « القمصان الخضر » المصرية (مصر الفتاة) - دكتور مصطفى الوكيل :

وفي ٣٠ يومية طأ، الدكتور مصطفى الوكيل ، الذي كان يحمل جواز سفر باسم حامل حقبة وزارة الخارجية الألمانية كورت هوفمان Kurt Hoffmann والمندوب شرينر Schreiner ووزير ألمانيا المفوض السابق في طهران - لينل - من برلين إلى صوفيا ، ومنها توجهوا بالقطار إلى إستنبول حيث وصلوا في ٢ يولية . وعملوا بنصيحة زوج أخت المفتي ، إسحق درويش ، اتصلوا بالقنصل المصري أمين زكي (بك) ، واستطاع أمين زكي (بك) ، الذي كان مزوداً برسالة توصية من السفارة البريطانية ، أن يحصل على مكان في الطائرة التي كانت تسير على خط أدنة - القاهرة . وذلك في يوم ٥ يولية ١٩٤٢ . وفي يوم ٩ يولية وصلت إلى إستنبول إشارة كان قد اتفق عليها - معناها أن الملك قد تسلم الرسالة .

(١) كان إبلر Eppler أحد العميلين - وقد اشترك فون ستيفن في ترتيب المسألة . ويشير « الرئيس » أنور السادات في كتابه Revolt on the Nile إلى اتصاله بهذين العميلين الذين كانا من رجال وزارة الدفاع الألمانية .

وفى ١٠ يولية بدأت الإذاعة الألمانية الموجهة من برلين إلى مصر ترسل الإشارات المتفق عليها فى الرسالة . وفى ١١ يولية عاد إيتل والدكتور الوكيل إلى برلين^(١) . وفى ٢٣ يولية قام إيتل برحلة أخرى إلى إستنبول ، حين عاد أمين زكى من القاهرة ومعه رد شفهى من فاروق الذى شكر هتلر على الرسالة التى بعثها إليه فى العام السابق وعلى التصريح المحورى الخاص بمصر . ولكنه لم يوافق على مبارحة البلاد . وكان على فاروق أن ينجبى فى اللحظة الحرجة التى يخبره الألمان بها . وبذلك يمنع الإنجليز من أخذه معهم بالقوة .

وفى الوقت نفسه طار ضابط طيار مصرى - اسمه أحمد سعودى حسين - فى ٦ يولية من مصر إلى مقر قيادة روميل ، ولكن أسقطت المدفعية الألمانية المضادة للطائرات طائرته فقتل . وفى اليوم التالى قام صف ضابط جوى اسمه محمد رضوان بعملية طيران مماثلة ، ونجح فى اختراق نطاق المدفعية الألمانية والبريطانية المضادة للطائرات . وقد تم نقله إلى برلين فى ٢٠ يولية ، ولكن يتبين لنا من وثائق وزارة الخارجية الألمانية أنه لم يأت معه بمعلومات حربية هامة .

وقد بلغ رضوان الألمان بأنه عضو فى تنظيم سياسى سرى يعمل فى مصر عن طريق شبكة من الخلايا الحماسية . وقد كتب أحد موظفى وزارة الخارجية الألمانية^(٢) ما يلى : « فى ملحوظات رضوان عن الموقف السياسى فى مصر ، أشار إلى الحاجة الشديدة إلى تزويد الفلاحين والعمال بوسيلة للتعبير ، وكان شديد العنف حين تكلم عن الملك فاروق الذى وصفه بأنه " تركى " لا يهتم فى الحل الأول بمصالح البلاد بل بإثراء نفسه . كما أن الوفد والمدرسة القديمة من الساسة لا يستطيعون إنقاذ البلاد التى يجب ، قبل كل شئ ، أن يقوم فيها نظام عسكري جديد » . ويبدو من التعليقات على المحادثة أن واضعها لم يوافق على وجهات نظر رضوان . ولكننا

(١) مما يلفت النظر أن أمين زكى - فى محادثة جرت بينه وبين إيتل فى ٢ يولية ١٩٤٢ - قد استفاد فى الحديث عن مسألة السودان والضمانات الإيطالية الخاصة بمياه بحيرة تانا ، وعبر عن شكه العميق فى إيطاليا .

(٢) قام المؤلف باقتباس هذه الفقرة الطويلة من المذكرة لأنها قد تلقى ضوءاً على وجهات نظر « الضباط الأحرار » المصريين فى ذلك الوقت .

لا ندهش لهذا ، لأن انجاء ألمانيا العام فى ذلك الوقت كان يقوم على التعاون مع فاروق والهيئات الحاكمة .

وتشير بعض تصريحات رضوان ، التى سجلها مسئولون ألمان ، وأيدها فيما بعد « ضباط أحرار » مصريون (نشرت بعد الانقلاب الناجح الذى قاموا به فى ٢٣ يولية ١٩٥٢) إلى أن الطيارين كانوا مبعوثين عن مؤامرة الضباط . ويلذهب أنور السادات ^(١) إلى أن الضباط الأحرار كانوا على اتصال مباشر بالقيادة الألمانية فى ليبيا ، وأنهم كانوا يعملون بالاتفاق التام مع مركز قيادة روميل . على أن الأدلة التى فى متناول أيدينا تدل على انقطاع الاتصالات بعد محاولة عزيز على المصرى الطيران ، على الأقل لعدم وجود أى اتصال خلال صيف عام ١٩٤٢ . ومن المعروف أن رضوان قد نقل من جديد بحلول أوائل أغسطس إلى إفريقيا ليقوم بمساعدة فيلق إفريقيا بمعلوماته عن الأرض والناس . ولكننا لا نعرف شيئاً عن إقامة اتصالات بين مؤامرة الضباط وبين الألمان .

على أن الصورة لا تكتمل بدون مزيد من الأدلة . فبعد أن عاد أمين زكى (بك) من القاهرة نقل رسالة فاروق الشفهية إلى إيتل . كما أخبره بأن الملك - بعد يوم من تلقى الإخطار الألمانى - أمر طيارين موثوقاً بهما (ضابط وصف ضابط) بالطيران سراً إلى ، وميل ومعهما خرائط وخطط هامة . وفى حالة وصول الضابط الطيار إلى الخطوط الألمانية ، كان من المتوخى أن يذيع راديو الريخ سورة « الإخلاص » وإذا ما نجح صف الضابط كان من المتوخى أن تذاع سورة « الفلق » . ومما له دلالة أن الألمان لم يحصلوا سواء على خرائط أو على خطط ، ومن الممكن أن تفهم شدة شكوك الألمان ، ولكن تمت إذاعة سورة الفلق فى أغسطس بعد أن تأخر ذلك عدة مرات .

ومن المشكوك فيه جداً أن الملك كان لديه ما يزيد على ما لدى هذين الطيارين . ويبقى لدينا السؤال الآتى : هل قام فاروق حقيقة بإرسال هذين الطيارين ؟ أو أن الأمر لم يكن سوى خدعة للحصول من الألمان على معلومات عن أشخاص قد يكونون غير مواليين ، بعد أن عرفت أنباء محاولات الطيران ؟

مسألة إقامة نظام احتلال

برزت في ذلك الوقت مسائل على جانب أكبر من الأهمية فيما يتعلق بالاستعدادات لاحتلال مصر . كما لم يقدم الألمان تنازلات لإيطاليا في هذا المضمار^(١) .

ولم تجر برلين محادثات مع إيطاليا حول طبيعة علاقاتهما المتبادلة في حالة احتلال مصر وحين حدوثه ، لأنها لم تكن مرغبة على القيام بذلك . فلقد كان مركز الألمان قوياً في شمالي إفريقيا حيث كانت توجد قواتهم - وكان الفيلد مارشال روميل قائداً عاماً للمعارك التي كان الهدف منها احتلال مصر . حقيقة كان من المفروض أن يخضع للقيادة الإيطالية في شمالي إفريقيا التي كان يرأسها المرشال باستيكو Rastico . ولكن هذا كله لم يتعد حدود الرسمية ، ورغم أن القيادة الإيطالية كانت تشرف على مالية قوات شمالي إفريقيا . وفي ظل الظروف القائمة كان الألمان على يقين من أنهم سيتمتعون بسلطة كبيرة وحرية كبيرة في العمل في مصر المحتلة ، ورغم أنه كان من المتوخى أن تكون منطقة نفوذ إيطالي . وكان من المتوخى أن تتولى إيطاليا الإدارة المدنية التي كان يمكن أن يتضح أنها عبء على المحتل ، لأن توفير الطعام للسكان والمحافظة على فعالية اقتصاد البلاد كانا يتطلبان أولاً وقبل كل شيء استيراد المواد الغذائية على نطاق واسع ، وكذلك الوقود والمواد الخام .

وفي النهاية أحس الإيطاليون بصعوبة موقفهم . وقد صاغ موسوليني وشبانو اقتراحاً يتعلق بمسألة إقامة نظام احتلال في مصر (في ٢ يولية) . وإذا ما وضعنا نصب أعيننا أن موسوليني كان لبعض الوقت يتوقع كل يوم أن ينتهي القتال بإحراز النصر ، فإن اقتراحه يكون قد تأخر . وقد اقترح أن يتولى روميل رئاسة جيش الاحتلال ، ولكن كان عليه أن يبقى تابعاً للقيادة الإيطالية في شمالي إفريقيا .

(١) اعتقد بعض الكتاب خطأ أن الصعوبات التي أحاطت بإيطاليا وألمانيا والخلافات الناشئة بين الطرفين في ذلك الوقت جعلت روميل يوقف الهجوم - انظر :

وكان من المتوخى أن توكل الحكومة المدنية إلى مندوب سياسى إيطالى — وكان مرشح شيانو لهذا المنصب هو الكونت سرافينو ماززولينى Serafino Mazzolini وزير إيطاليا المفوض السابق فى مصر الذى كان من المتوخى أن يكون مزوداً بمكتب زميل ألمانى مهمته ضمان الاتصال بقيادة جيش الاحتلال .

وكان موقف الألمان من المقترحات سلبياً فى البداية . فقد وافق هتلر على أن يكون روميل قائداً عاماً لجيش الاحتلال ، ولكنه رفض اتخاذ قرار بصدد المبعوث السياسى الإيطالى المقترح ومثل ألمانيا المقترح ، وذكر أن المسألة لا تستلزم العجلة . ولكن الرؤساء النازيين وافقوا فى النهاية — تحت ضغط إيطاليا — على تعيين مبعوث إيطالى سياسى . وبلغ ريبنتروب الإيطاليين بأن « مسألة ممثل مدنى ألمانى عاجلة فى الوقت الحاضر . إننا شديدو العزم على أن ننتظر مزيداً من تطور الموقف العسكرى والسياسى فى مصر » . وقد سرت روما كثيراً لموافقة برلين على تعيين مبعوث سياسى إيطالى^(١) . وبعد قيام روميل بمهمته ، كان عليه أن يعين فوت نيوراث الأصغر رئيساً لهيئة الاتصال ، ولكن الألمان لم يفصحوا للحكومة الإيطالية عن نيهم هذه . لهذا اتجه هتلر إلى جعل روميل ممثل ألمانيا الوحيد فى مصر ، مزوداً بكل الصلاحيات اللازمة . والسر فى ذلك هو أنه كان من المتوخى أن تحل المشكلات القائمة بين ألمانيا وإيطاليا فى ذلك الوقت على مستوى سياسى . بعد أن اتضح أن الألمان يتمتعون بالتفوق ، فى الوقت الذى كان فيه من الضرورى أن تراعى أولوية إيطاليا فى مصر والعالم العربى كله . وعلى أى حال فإن هذا القرار يدل على أن الألمان لم يبدوا رغبة فى إقحام أنفسهم أوضاعاً عليهم بالمسئولية عن مسائل لا تتصل بالعمليات الحربية فى الوقت الذى يستمر فيه القتال . كما يتضح منها أنهم كانوا يودون أن يكون سجلهم فى مصر واضحاً بحيث يصبح بإمكانهم أن يحسموا المشاكل بطريقتهم حين يحين الوقت — بعد إحراز النصر فى الحرب .

(١) صرح شيانولما كنزن بأن ذلك قد أدخل السرور على قلب الدوتشى (رسالة ماكنزن من روما بتاريخ ٨ يولية ١٩٤٢) .

المسائل الاقتصادية

وقد جرى التعبير عن الاتجاه السابق بشكل أوضح حين أصبح من الضروري أن تتم الموافقة على اتخاذ الإجراءات الاقتصادية خلال الاحتلال المتوقع لمصر . وكان الإيطاليون شديدي الإحساس بهذه المسائل ، لأنهم كانوا يتوقعون أن يحصلوا على غنائم ثمينة ، وبسبب التجربة التي مروا بها بعد احتلال اليونان التي تفشى فيها الجوع نتيجة للفساد الاقتصادي واستحالة استيراد أى شىء . وكانت روما تود ألا يتكرر نفس الموقف في مصر خوفاً من ردود الفعل التي قد يحدتها ذلك في العالم العربي حيث كانت سمعتها — على أى حال — سيئة جداً^(١) . وقد أخبر المركز داخيتا ماكتزن بأن من الواجب إقامة نظام نموذجي بمصر ، لأن الوضع فيها كان لابد أن يؤثر في العالم العربي بأسره .

وفي مساء يوم ٤ يولية قدمت السفارة الإيطالية في برلين إلى وزارة الخارجية الألمانية مقترحات موسوليني الخاصة بالمسألة الاقتصادية . وقد وجه دوتشى الفاشية النظر إلى أن مصر ليست بلداً معادياً . بل هي بلد محايد تقوم فيه حكومة مصرية بمهامها برغم الاحتلال ، بحيث لا يستلزم الأمر سوى إبعاد كبار الموظفين البريطانيين من عدة إدارات وهيئات حكومية . وكان موسوليني يشبه السلطات الألمانية في الاعتقاد باحتمال استعداد على ماهر (باش) لتشكيل وزارة بالاتفاق مع الملك وبمساعدة عناصر أخرى موالية للمحور . وقد أصر الدوتشى على ألا يسمح لهذه الوزارة تحت أى الظروف ، بترك الجماهير تشتري كثيراً من البضائع أو تخزينها ، بالشكل الذي يؤثر تأثيراً سيئاً في الاقتصاد العربي . وقد أشار إلى أنه لا يوجد سبب يدعو إلى إغضاب السكان . وأهم من هذا أن الحكومة الإيطالية لم تكن في وضع يسمح لها بتحمل أعباء التوطين والإنفاق على السكان الذين كان عددهم في ذلك الوقت يصل إلى ١٦ مليوناً .

وعلى أساس ما سبق ذكره اقترحت روما : ١ — أن تباشر الحكومة الإيطالية

(١) أكد المصريون أكثر من مرة تفضيلهم لإنجلترا إذا ما كان عليهم أن يختاروا بينها وبين إيطاليا . وقد ذكر الكيلاني نفس هذا الرأي لفورمان (مذكرات فورمان — برلين في ٢٠ يولية ١٩٤٢) .

الإشراف على النفقات الحربية في مصر ، ٢ - ألا تقوم سلطات المحور بأى مشتريات وألا تطلب. شراء أى بضائع تزيد على حاجة القوات العسكرية هناك ، ٣ - إقامة هيئة خاصة ألمانية - إيطالية لتولى « المشتريات » في مصر .

ولم يقطع الألمان أى وعد بشأن هذه المقترحات . وقد حول الموظفون النازيون الإيطاليين على روميل ، على اعتبار أن هذه المسائل من صميم اختصاصه ، وأن لديه الرجال المسئولين الذين يعالجونها ولكنهم رفضوا رفضاً باتاً فكرة إقامة هيئة جديدة ، وتمشوا مع تعليمات ريبنتروب ، فتباطأوا في حسم هذه المسألة .

وفي ٣ يولية أنشأ الإيطاليون هيئة أسمها « صندوق البحر المتوسط الخاص بالاعتمادات المخصصة لمصر Cassa Mediterranea di Credito par l'Egitto » هدفها الإشراف على النفقات العسكرية . وكان من المنوخى أن تكون كوبرونات هذا الصندوق إجبارية حتى تجرى الاسمعدادات في المستقبل لقيام بنك مصر بإصدار العملة . وكانت نسبة تبادل هذه الكوبرونات هي - ٧٢,٥ ليرة للجنيه المصرى و ٩,٥ مارك للجنيه . وكان من المنوخى أن يتسلم العسكريين الألمان هذه الكوبرونات بعد إعداد قائمة مبنوبة للنفقات .

وإزاء إصرار الإيطاليين وافق الألمان على عملية « صندوق البحر المتوسط » ، ولكنهم طلبوا أن تزود القوات الألمانية بكوبرونات بالكديات المطلوبة ، دون أن يلتزموا بالإفصاح عن الغرض المنوخى منها . كما وافقوا على تحديد سلطة العسكريين في القيام بمشتريات أو طلبات تموينية للجيش . ولكنهم اقترحوا وجوب ضمان الوحدات الأولى التي تصل إلى أهداف معينه للثروة التي تجدها وأن تقوم الحكومتان بعد ذلك بالبت في مسألة تقسيمها . ورفض الألمان رفضاً قاطعاً فكرة إنشاء لجنة مشتركة ألمانية - إيطالية ، واقترحوا رجوب مناقشة مسألة المشتريات في مصر في وقت لاحق .

ومن الواضح أن هذا الرد كان سلبياً بالضرورة ، ورغم موافقتهم على تنفيذ عملية « صندوق البحر المتوسط » . وكان من الممكن أن يؤدى طلب الألمان لاعتمادات ورفضهم كل إشراف إلى استفحال التضخم في وقت قصير ، في بلد كانت إيطاليا تتحمل مسئوليته ، وإلى إثقال كاهل الخزنة الإيطالية . وكان

من المتوخى أن يكون معظم « ضمان الثروة » من مهام الوحدات الألمانية التي كانت متفوقة في تحركاتها ، وكان من المتوقع أن تصل إلى أهدافها بسرعة تفوق سرعة الإيطاليين . وكانت لدى روما أسباب تدعوها إلى الشك في أن شريكها ستفيد كثيراً من ذلك . ولم يحظ اقتراح إنشاء لجنة مشتركة ألمانية - إيطالية بقبول براين ، لأن الألمان كانوا يفضلون عدم تحديد توزيع الأسلاب ، ولم تكن لديهم رغبة في الاضطلاع بالمسئولية عن الاقتصاد المصرى .

وكانت المفاوضات تجري في روما في ذلك الوقت حول مسألة غنائم الحرب التي كانت مثار خلاف بين الشريكين المحوريين ليس فقط على المستوى الرسمي ، بل بين ضباط وجنود البلدين في شمال إفريقيا . وقد اقترح الإيطاليون أن تستولى ألمانيا على غنائم الجبهة الشرقية وأن تستولى إيطاليا على غنائم مصر . وحين ووجه هتلر بهذه المشكلة كان رده أن غنائم الحرب - من حيث المبدأ - يجب أن تكون من نصيب من يستولى عليها ، وأبدت القيادة الألمانية بوجه خاص معارضتها للمطالب الإيطالية ، وكان روميل أشد الناس معارضة ، لأنه شك من إشراف روما المالى وكان يريد أن يلغيه فيما يتعلق بمصر . وكان هذا الإشراف مبنياً على الاتفاق الإيطالى - الألمانى الذى تم في ١٤ مارس بصدد المخصصات المتبادلة لمؤن القوات . وقد ذهب الإيطاليون إلى أنهم حين وافقوا على تطبيق ذلك الاتفاق على القوات الإيطالية العاملة في روسيا كانوا يتوقعون أن يكون إجبارياً بالنسبة إلى القوات الألمانية في مصر . ولكن الألمان أصروا على وجوب عدم تطبيق هذا الاتفاق على مصر .

وتمسك الإيطاليون بموقفهم ، مشيرين إلى تعليمات موسوليني الخاصة بإنفاذ مصر من الجوع والخراب الاقتصادى اللذين تعرضت لهما اليونان . وبعد أسابيع قليلة أكدوا من جديد تمسكهم بموقف ٤ يولية . وفي مذكرة بتاريخ ٤ أغسطس طلب السفير الإيطالى في برلين تطبيق اتفاق ١٤ مارس في مصر ، كما طالب بتطبيق الاتفاق السابق بين القيادات العسكرية على المحافظة على الثروة ، وطالب بإنشاء لجنة مشتركة . واقترح أن يناقش . كلوديوس Clodius وجانينى Giannini هذه المسائل في مؤتمر يتم عقده في جزيرة بريونى . ولم تنمخض هذه المناقشات -

التي جرت في أواخر أغسطس - عن أية نتائج . واقتصرت إيطاليا على الموافقة شفهيّاً على ألا ينطبق اتفاق ١٤ مارس على مصر . ولكن الخبراء الألمان اعترفوا بأن الصعاب ستعترض الوفاء بهذا الوعد . وفي التقرير الذي كتبه كلوديوس عن هذا الموضوع ذكر أن سلوك الألمان قد أصاب الوفد الإيطالي « بمرح عميق » ، وأبرقت سفارة روما أن جانيني - رئيس الوفد الإيطالي - قد رجع من بريوني شديد الاستياء بسبب موقف الألمان من مسألة مصر ، وعبر عن مخاوفه من أن لبرلين بعض النيات إزاء مصر ، وأن هذه النيات كانت تحول دون اتسام مناقشتهم بالصراحة . ثم أخبر المركز داجيتا بزمارك صراحة بأن مسلك ألمانيا قد جعل اعترافها بأولوية إيطاليا في مصر لا معنى له .

وبعد فشل هذه المحادثات رجعت حكومة روما - التي كانت مسألة مصر بالنسبة إليها ذات أهمية من الطراز الأول - من جديد إلى المسائل الاقتصادية المرتبطة بالاحتلال المتوقع . وفي ١٦ سبتمبر قدم دينو ألفييري - سفير إيطاليا في برلين - طلباً باستئناف المحادثات حول مقترحات موسوليني ، وأكد أن الدوتشي يعلق أهمية كبيرة على هذه المسائل . وبعد ذلك قدم ريبنتروب مقترحات إيطاليا إلى هتلر الذي أبدى معارضته لتشكيل لجنة إيطالية - ألمانيا مشتركة - وكان ذلك جوهر مقترحات موسوليني ^(١) . وقد وافقت السلطات الألمانية نهائياً على إقلال الإمدادات في مصر إلى الحد الأدنى المطلوب لتكوين القوات . وسوت مع الإيطاليين طريقة تمويل الجيش الألماني في مصر . وإلى جانب ذلك كان على الإيطاليين كذلك أن يقنعوا بالمحافظة على كرامتهم - ولهذا افترض أصدر الألمان التصريح التالي : « تمسباً مع المبدأ الخاص بأن لإيطاليا الحق في الأولوية السياسية في مصر ، ترك حكومة الريخ للحكومة الإيطالية أمر نسوية العلاقات الاقتصادية في مصر » . وقد عبرت حكومة موسوليني ، التي كانت بحاجة إلى انتصارات لرفع هيبتها ، والتي أقلقها موقف المندوبين الألمان في المفاوضات ، عن رضاها بالتصريح . ولم يكن باستطاعة الألمان أن يرفضوا الموافقة على اقتراح إيطاليا الخاص

(١) كتب فيل Wichi في مذكراته بتاريخ ٥ سبتمبر ١٩٤٢ ما يلي : « لن يمكننا أن نتوقع مقد اتفاق دون قبول اللجنة التي يفتحونها (الإيطاليون) » .

بالشئون المالية ، إذ كان من رأيهم أن من الضروري حسم مثل هذه المسائل قبل أن يتطور القتال على الجبهة المصرية تطوراً واسع المدى . ولكن وقعت أيضاً اتفاقية أخرى في ٢٠ أكتوبر نصت على عدم انطباق وثيقة ١٤ مارس ١٩٤٢ على مصر . وفي الصيغة النهائية لم تتعهد ألمانيا بأي التزام أبداً كان إزاء الاقتصاد المصري . وتزودنا هذه المفاوضات الإيطالية - الألمانية - بالإضافة إلى ما كان عليه الموقف في بلدان أوروبا المحتلة - بفكرة عما كانت مصر ستعرض له فيما لو احتلها المحور .

اندحار المحور في مصر

لا يمكننا أن نذهب إلى أن الاتفاقية السابقة قد وضعت حداً للنزاع الإيطالي الألماني حول مصر . وفي الحقيقة أن هذا النزاع قد انتهى حين تحولت مصائر الحرب . ولما كان روميل على علم بتزايد قوة خصومه ، فإنه واصل هجومه في ٣٠ أغسطس . ولكن لم يكن باستطاعته هذه المرة أن يعتمد على تفوق أسلحة جيشه ، لأن معظم الناقلات الألمانية المتوجهة إلى شمال إفريقيا كانت قد أغرقت . وأحس الطواير المصفحة والمدرعة بوجه خاص بنقص الوقود بصورة مزعجة . وحينئذ بدت آثار القرار الخاص بعدم غزو مالطة . فلم تحرز معركة علم الحلفاء للمحور أية مميزات - إذ أوقف الهجوم وفقد جيش المحور المبادرة على طول الخط : إذ أن موننجومرى شن هجومه بالجيش الثامن في العامين في ٢٣ أكتوبر . وتمخضت المعركة الحاسمة التي دارت في يوى ١ و ٢ نوفمبر عن تحطيم فيلق إفريقيا و ٤٥٠ من ٦٠٠ دبابة محورية . وفقد جيش المحور ١٠,٠٠٠ قتيل و ١٥,٠٠٠ جريح و ٣٠ ألف أسير . وفي ٨ نوفمبر نفذت قوات الحلفاء عملية « الشعلة Torch » في الطرف الآخر من إفريقيا ، وبدأت زحفها من العرب إلى الشرق - وكانت بداية النهاية بالنسبة إلى المحور في إفريقيا . وحينئذ لم يعد ثمة داع على الإطلاق لإخلاء مصر ، وهو ما كانت القوات والإدارات البريطانية قد استعدت له منذ صيف عام ١٩٤٢ . كما أوقف القصر الملكي ورجال

الدين المسلمون برئاسة شيخ الأزهر استعداداتهم لاستقبال روميل (طبقاً لما ذكره وزير مصر المفوض في أنقرة) بحفاوة تفوق تلك التي قوبل بها نابليون .

ومن المعروف أن الهزيمة الألمانية في إفريقيا لم تكن ظاهرة معزولة - ففي الجبهة الشرقية دارت معركة الفولجا منذ أواسط سبتمبر ، ولم يستطع الألمان أن يتغلبوا على مقاومة الجيش السوفييتي ، فتوقف هجومهم . وقد أدت المقاومة السوفييتية الصلبة وحشد قوات الريخ في ستالينجراد إلى إيقاف الزحف الألماني في القوقاز بعد الاستيلاء على نوفوروسيسك (١٠ سبتمبر ١٩٤٢) . وفي ١٩ نوفمبر شن الجيش السوفييتي هجوماً مضاداً على الفولجا . وكان معنى هذا أن المحور فقد المبادرة في كل من الجبهة الشرقية وجبهة شمالي إفريقيا . وفي هذه المرة انتقلت المبادرة نهائياً إلى التحالف المعادي للمحور .

الفصل الثالث عشر

الكتيبة العربية

والتراع بين المفتى والكيلانى

سبق أن تناولنا جهود كل من الزعيمين العربيين للحصول على تصريحات من المحور تساند المطالب العربية ، وذلك لأن الألمان ، وبخاصة العسكريين ، قاموا في ذلك الوقت بنوع مخالف تماماً من النشاط فيما يتعلق بالشئون العربية .

وحدة التدريب العربية - الألمانية

يجدر بنا أن نذكر هنا أن البعثة التي كان من المزمع إرسالها إلى العراق برئاسة الجنرال هلموث فلمي ، لم تندثر ، بل تحولت إلى رأس سونيون بالقرب من أثينا ، واتخذت لنفسها اسم سوندرستاب ف . وكان قائدها الجنرال فلمي قد خدم في عهد القيصر برتبة مساعد ملازم في فرقة المشاة رقم ٦١ في تورون Torun - ومنذ عام ١٩١٢ كان أحد رجال القوات الجوية الألمانية ، وبعد خدمة عسكرية متواصلة في عهد القيصرية والجمهورية والدكتاتورية النازية ، رقى إلى رتبة جنرال في عام ١٩٣٩ . وكان من الممكن توقع انتهاء خدمته العسكرية في ١٢ يناير ١٩٤٠ حين وجهت إليه تهمة المسئولية عن نزول ضابط اتصال مظلي اضطرارياً في بلد محايد . وكان يحمل على جسمه وثائق سرية برغم الأوامر الصادرة له . ولكن فترة إيقافه لم تستمر طويلاً - فقد أعيد إلى الخدمة الفعلية في ١٢ مايو ١٩٤١ بسبب خبرته في الطيران ، وهي الخبرة التي حصل عليها خلال تخليقه فوق شبه جزيرة سيناء في أثناء الحرب العالمية الأولى . ووكلت إليه قيادة بعثة عسكرية كان من المتوخى إرسالها إلى العراق . وفي أواسط يونيو ١٩٤١ أصبح فلمي قائداً عاماً للقوات الألمانية في جنوبي بلاد اليونان التي كانت من حيث المبدأ منطقة

احتلال إيطالية وإن تكن فيها قطاعات تحت السيطرة الألمانية . كما أصبحت كريت خاضعة لقيادته . وبعد الحرب تمخض نشاط قلبي عن محاكمته أمام محكمة حرب أمريكية ، باعتباره أحد المتهمين فيما سمي بمحاكمة البلقان .

وفي يولية ١٩٤١ أنشأت سوندرستاب ف مجموعة تدريب صغيرة كانت قد وضعت خطة لاستعمالها فيما بعد في الصحراء السورية . وكانت تتكون من عرب تلقوا دراساتهم في ألمانيا وعدد صغير من المتطوعين الذين تم نقلهم من سوريا إلى رأس سونيون بعد انهيار جيش الجنرال دنتر . وقد ساعدت سوندرستاب ف حوالي ٣٠٠ من رجال فوزى القاوقجي وعارف عبد الرزاق على الهرب من سوريا إلى تركيا - ولكنهم لم ينجحوا في الوصول إلى بلاد اليونان . وما حلت نهاية عام ١٩٤١ حتى كانت سوندرستاب ف قد قامت بتدريب ما يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ عربياً . ويبدو أن برلين لم تبلغ الإيطاليين بهذا النشاط الخاص .

وكان الوضع بهذا الشكل حين وصل الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي إلى أوروبا . ومن المؤكد أن هذين الزعيمين العربيين كانا يفضلان أن يعمل العرب المنضمون إلى جيوش المحور في وحدات منفصلة تحت أعلامهم الوطنية ، وأنهما اقترحا إنشاء فرقة عربية كان من المتوخى أن تكون لها أهمية دعائية ضخمة . وكان بإمكانها أن تلعب دوراً هاماً فيما لو قامت قوات المحور العسكرية بالعمل في البلدان العربية .

وقد قام مفتي القدس بتقديم المقترحات الخاصة بإنشاء فرقة عربية إلى موسوليني وشيانو خلال المحادثات التي أجراها معها خلال زيارته الأولى إلى روما (أكتوبر - نوفمبر ١٩٤١) . كما قدم هذه الفكرة إلى فايز ساكر ورينتروب وديتار في برلين . وقد بحثت وزارة الخارجية مسألة الفرقة العربية في ديسمبر ١٩٤١ ، وصدر بيان من مركز قيادة هتلر فحواه أن الفوهرر يرغب في إنشاء مثل هذه الفرقة فوراً . ومن الواضح أنه كان يفكر في إجراء توسع كبير في الوحدات العربية الموجودة في رأس سونيون . وفي الوقت نفسه وضعت خطط لإنشاء فرقة هندبة خلال الزيارة التي قام بها سيهاس شاندرا بوس إلى ألمانيا .

وبحلول نهاية عام ١٩٤١ كانت سوندرستاب ف قد اتصلت بالزعميين

محاولة أن توفر أساساً للتعاون بينهما وبين القيادة العامة . وعرض على الحاج أمين ورشيد على عقد اتفاقية عسكرية رسمية كان مشروعها قد نوقش في يناير ١٩٤٢ . ولكن ذلك لم يتمخض عن اتفاقية رسمية لأن ألمانيا لم تكن تريد الدخول في خلافات سياسية مع إيطاليا حول هذا الموضوع ، وإن يكن كلا الزعيمين قد وعدا ببذل تعاونهما في هذا المضمار . وكانا بأملا ، بالافتناع المباشر واصطناع الضغط الضروري ، أن يغريا العرب القاطنين في ألمانيا وفي البلدان المحتلة بالانضمام إلى « وحدة التدريب العربية الألمانية » . وبهذا الصدد كان المفتي في وضع أحسن من وضع الكيلاني ، إذ لم يكن يوجد جنود عراقيون على جبهة القتال أو في معسكرات الاعتقال ، كما كان الحال بالنسبة إلى الجنود العرب في الوحدات الفلسطينية . ولقد أرسل الكيلاني متطوعين قليلين جداً إلى رأس سونيون ، وذهب بعضهم بعد رجوعهم إلى أنهم لا يريدون سوى أن يدرسوا في ألمانيا وأنهم لا يرغبون في أن يصبحوا جنوداً . ومن ناحية أخرى قام المفتي - بالتعاون مع القيادة العليا للقيادة المسلحة الألمانية - بجمع فصيلة من أسرى الحرب السابقين . وقد شكل هؤلاء - مع صف الضباط العرب الذين قامت « سوندرستاب ف » بتدريبهم - الوحدة العربية الوحيدة حتى عام ١٩٤٢ . وفي مايو من ذلك العام كانت هذه الفصيلة تضم ١٣٠ رجلاً .

ويمكن السبب الرئيسي لهذا الوضع في السياسة العربية التي كانت تتبعها ألمانيا وإيطاليا - لأن المحور رفض كل فكرة تقضى بتجنيد العرب في المستعمرات الإيطالية والفرنسية ، الأمر الذي كان يتناقض مع رغبات المفتي . واقترح تجنيد الأسرى العرب والجزائريين والتونسيين والمراكشيين . ومن ثم نجد أن وكيل الوزارة فورمان يكتب في مذكرة خاصة بمسألة تجنيد وحدات عربية ما يلي : « نحن نفرق دائماً ، فيما يتعلق بسياسةنا العربية ، بين عرب الشرق الأدنى وعرب شمالي إفريقيا . ولا تنطبق سياستنا العربية على المنطقة الواقعة غرب مصر - فنحن لانتم بتغذية الروح القومية في شمالي إفريقيا بسبب السياسة التي نتبعها إزاء إيطاليا وفرنسا وإسبانيا » . ولما كان عرب شمالي إفريقيا لا يدخلون في هذه الخطة ، فلم يكن بالإمكان سوى اجتذاب الأسرى العرب - وكان معظمهم من الفلسطينيين - واللاجئين

من العراق أو سوريا ، ولطلبة العرب الذين بقوا في أوروبا نتيجة لاندلاع الحرب. وبحلول نهاية الحرب كان يوجد حوالي ٩,٠٠٠ عربي في الوحدات الفلسطينية التي كان يضمها الجيش البريطاني . ولهذا كان يوجد مالا يزيد على بضع مئات من الرجال الصالحين في عام ١٩٤٢ للخدمة في تشكيلات المحور العربية .

ولم يكن الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي راضيين عن كون المجموعة الموضوعة في رأس سونديون تشكيلة تدريبية ألمانية - عربية لتشكيلة تحمل اسم الوحدة العربية القومية . لهذا أطلقا عليها اسم « المفزة العربية الحرة » . وفي الوقت نفسه ازدادت المنافسة باستمرار بين الزعيمين - وكان الموقف بهذا الشكل حين اقترح المفتي من جديد على إيطاليا تشكيل فرقة عربية - وقد جرى ذلك بمناسبة رحلته من برلين إلى روما مع الكيلاني (فبراير ١٩٤٢) . ومن الناحية النظرية اتخذت الحكومة الإيطالية موقفاً إيجابياً من الاقتراح ، ولكن محك التجربة أوضح أنها لا تنوى تنفيذه . وبرغم أن الإيطاليين أقرروا فائدة المشروع ، إلا أنهم جردوه من كل مضمون عسكري . وبإمكاننا أن نفسر هذا بأن ليبيا أو جاراتها المباشرة كان . قيصراً لها أن تكون الأراضي التي تباشر فيها هذه الفرقة عمالها ، وخشيت روما صراحة أن يضعف الاتصال بفرقة عربية روح الناس المعنوية في المستعمرات الإيطالية ، على حين أنها انزعجت في الوقت نفسه من أن يشكل الألمان ، لا الإيطاليون ، وحدات عربية .

ومن الواضح أن المفتي عرف كيف يستغل هذه المنافسة ، وأنه حصل على موافقة إيطاليا على تشكيل فرقة عربية تحارب تحت أعلام عربية . وفي ٧ مايو عرض المفتي هذه المسألة على موسوليني^(١) ، وبدأ تشكيل الكتيبة العربية في إيطاليا حوالي الوقت نفسه^(٢) .

وحين استؤنفت المحادثات بين سوندرستاب ف وبين الحسيني والكيلاني في أوائل مايو ١٩٤٢ حول مسألة توسيع (وحدة التدريب العربية - الألمانية)

(١) ألقى المفتي عن الألمان والكيلاني أخبار هذه المقابلة التي جرت بينه وبين موسوليني .

(٢) نستنتج من نص الوثائق التي تحتويها مجموعة - Die indische und arabische Legion -

« الفرقة الهندية العربية » أن ذلك قد جرى قبل وقت قصير من نقل هذه الحقيقة إلى الألمان .

كان كلا الرجلين العربيين غير مستعدين للتنازل . وكان من رأى « سوندرستاب ف » وجوب حسم المسائل السياسية مع الزعيمين العربيين ، ومنها — على سبيل المثال — مشاكل القيادة والشعارات العربية القومية ونص القسم — وغير ذلك . ولكن الزعيمين العربيين أثاروا من جديد مسألة عقد ميثاق عسكرى ، وطلبا الاعتراف « بوحدة التدريب العربية — الألمانية » باعتبارها وحدة مستقلة عربية فقط وتحت قيادة عربية . كما أوضحا أنهما لن يشتركا فى المشروع إلا إذا أجيب مطالبهما . وفى النهاية وعدا بأن توفر الوحدة التى تم تشكيلها فى رأس سونيون أساساً لتكوين وحدات أخرى ، وأنها ستعمل باعتبارها تشكيلات عربية لألمانية فى اللحظة التى تدخل فيها مثل هذه الوحدات الأراضى العربية . وعلى أثر هذا التأكيد وعد كلا الزعيمين العربيين بمزيد من التعاون ، ولكن بشرط انتظارهما توقيع اتفاقية عسكرية . ولكن ثبت أن تبادل الرأى هذا لم يحل المشكلة . وظلت صعبات جديدة تلوح فى العلاقات بين الزعيمين وسوندرستاب ف . وقد أدى الخلاف الذى اتضح بين المفتى ورشيد على إلى زيادة تعقيد الموقف .

الخلافات حول الفرقة العربية

ومن أسباب الخلاف ما جرى بين ألمانيا وإيطاليا من جدل حول مسألة الوحدات العسكرية العربية .

وقد وعد الألمان بعدم تشكيل كتيبة عربية ، ووافقت كل من القبايتين العسكريتين على عدم ظهور مثل هذه الفرقة التى كان ضباطها من العرب ، والتى كانت ترفع علماً عربياً ، إلا فى إيطاليا ، وعلى تسليم أسرى الحرب العرب المعتقلين فى ألمانيا (حوالى ٢٥٠) إلى الإيطاليين ..

لهذا فإن نشاط سوندرستاب ف أثار مخاوف إيطاليا وجعلها تتدخل باستمرار . وقد أثارت روما أولويتها فيما يتعلق بالشئون العربية ، وأكدت أن على إيطاليا أن تنشئ فرقة عربية على أن تنشئ ألمانيا فرقة هندية . وذكرت الألمان بالاتفاق الضمنى بين دول المحور حول هذه المسائل ، وطلبت أن يتحول كل أسرى الحرب

العرب وكل الآخرين الصالحين للخدمة العسكرية إلى الفرقة . وفي مقابل ذلك تعهد الإيطاليون بأن يسلموا للألمان كل أسراهم الهنود . واتهموا جروباً ، الذى كان يتصل بالمفتى والكيلانى بالنيابة عن وزارة الخارجية الألمانية ، بمحاولة التأثير عليهما ليوجها كل تعاونهما إلى ألمانيا ، ويربطا خططهما بالرينغ وحده .

وفي أواخر مايو بدأ تبادل أسرى الحرب الهنود والعرب وفق ما اقترحه الإيطاليون - وقد ثبت أنها عملية مرهقة أدت إلى خلافات مستمرة بين دولتي المحور ، ولم يكن فى الإمكان غير ذلك لإزاء عمليتين متعارضتين تقومان على مادة بشرية محدودة جداً . ولما كان المفتى يريد تدعيم قوته فى إيطاليا ، فإنه طلب خمسة « من الملازمين الثوانى العرب القليلين الذين يمكن العثور عليهم » من المجموعة الأولى من صف الضباط العرب والملازمين الثوانى المدربين فى رأس سونيون . ولكنه ووجه بالمعارضة الشديدة من جانب قيادة الجيش الألمانى . وقد حاولت سوندرستاب ف فى ذلك الوقت - بعلم المفتى والكيلانى - أن تجند فى وحدة التدريب العربية - الألمانية مائة آخرين من أسرى الحرب . ولكن الإيطاليين تدخلوا فى هذه المسألة لأنهم كانوا يريدون هؤلاء الأسرى فى مقابل الهنود . وأرغمت سوندرستاب ف على إيقاف تجنيد الأسرى . وحينئذ اتجه عدد قليل من الضباط العراقيين القاطنين فى إيطاليا إلى ألمانيا سرّاً . وردّاً على تدخل إيطاليا ، أخبرها العسكريون الألمان - بموافقة ريبنتروب - بأن وحدة التدريب العربية الألمانية إنما هى وحدة عربية ألمانية . وتمت طسأنة الإيطاليين على أن أعضاء هذه الوحدة سيعملون - عن طريق القوات الألمانية - باعتبارهم إخصائيين إقليميين ، كما كان الحال أحياناً بالنسبة إلى جنود فرقة المهام الخاصة التابعة للقوات العليا للقوات المسلحة الألمانية المسماة براندنبورج . ويجب أن نضيف أن نتائج جهود الإيطاليين كانت متواضعة جداً . فلم يستطيعوا تكوين كتيبة عربية فى إيطاليا . ولم يرافق على الخدمة فى الكتيبة من الأسرى الفلسطينيين الذين سلمهم الألمان سوى ١٨ ، ولم يبق نهائياً من هؤلاء سوى ٨ . وكان العامل الرئيسى الذى يفعل فعله فى هذا المقام

(١) خصص قدر لا بأس به من المراسلات الدبلوماسية فى مجموعة Die indische und arabische Legion لهذه الخلافات .

هو الكره الذي كان يكنه العرب لإيطاليا بسبب خططها الاستعمارية المعروفة .

وعلى أى حال فقد وضعت خطة تقضى على وحدة التدريب العربية - الألمانية بأن تدخل الحرب باعتبارها جزءاً من عمليات الجيش الألماني في الشرق الأوسط - شأنها في ذلك شأن الفرقة الهندية ، وكان ذلك يتصل بمخطط سياسي خطير ، لأن القصد من وحدة التدريب العربية - الألمانية هو أن تصبح نواة جيش عراقي كان الألمان يهدفون إلى تشكيله بعد أن تم لهم السيطرة على العراق . وبالتالي فإن مسألة وحدة التدريب العربية - الألمانية كانت تتصل بخطة عمليات القطاع الجنوبي للجهة السوفيتية ، وكانت تتضمن بطريق غير مباشر تقسيم مناطق النفوذ في المستقبل بين دولتي المحور الأوربيتين .

ولهذا كان من المتوخى ألا تلعب وحدة التدريب العربية - الألمانية دوراً كبيراً إلا بعد الاستيلاء على القوقاز وغزو البلدان العربية - وبخاصة العراق - من الشمال . وقد أعد الألمان عدداً كبيراً من الإجراءات السياسية لغزو العراق بعد الاستيلاء على القوقاز - وحينئذ كان على وحدة التدريب العربية - الألمانية أن تدخل في حيز العمل . وبعد الاستيلاء على تفليس كان من المتوخى أن يوضع الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني مع مكتب جروبا Dienststelle Grobba الذي أعدته وزارة الخارجية الألمانية لتنسيق النشاط العربي . وكان من المتوخى أن يتم إعلان حكومة عراقية هناك برئاسة رشيد عالي ، وأن يصدر تصريح في تفليس حول أهداف المحو الخاصة بالعالم العربي . وبعد الاستيلاء على العراق كان من المتوخى أن يتحول أعضاء مكتب جروبا إلى هيئة المفوضية الألمانية في بغداد وأن يصبح أعضاء سوندرستاب ف مفتشين في الجيش العراقي .

ومن الواضح أن العراق لم يظهر بأى شكل في هذه الخطط باعتباره داخلاً في مناطق النفوذ الإيطالية . وكان من المتوخى أن تحتله القوات الألمانية التي تخضع للقيادة الألمانية بالفعل وبصفة رسمية . وكان الوضع مختلفاً في شمالي إفريقيا حيث كانت تعمل وحدات إيطالية كثيرة إلى جانب فيلق إفريقيا الألماني - وكان روميل من الناحية الرسمية تحت إمرة القيادة الإيطالية العليا . وكان الألمان هم الذين يهدفون إلى تنظيم الجيش العراقي - ومعنى هذا السيطرة الألمانية نظراً

للدور الاستثنائي الذي كان يقوم به الجيش والذي ظل يباشره في تلك البلاد . وفي ظل هذه الظروف كان من المتوخى أن يصبح مكتب جروباً مقيمة أكثر منه مفوضية .

ويتضح لنا من الوثائق أن وزارة الخارجية الألمانية تساءلت رسمياً عما سيكون عليه نفوذ إيطاليا في العراق في المستقبل . وكان المسئولون الألمان يميلون إلى تجنب الإفصاح عن شكوكهم مباشرة بصدد مستقبل مركز روما في بلدان عربية أخرى . ومن المفروغ منه أن قادة الريخ الثالث لم يشاركوا روما شكوكها الخاصة بتبعية العراق لمنطقة البحر المتوسط التي اعترف هتار بأنها مجال إيطاليا الحيوية .

وكان من المتوخى أن يجرى « تبادل صريح للرأي » حول هذه المسألة في « الوقت المناسب » — أي حين تكون القوات الألمانية داخل هذه المنطقة . فليس عجباً ألا تشتمل الوثائق المتصلة بالبلدان العربية على أي دليل على أن هتلر وعد شيانوف بأن تشكل كل الأراضي الواقعة جنوب القوقاز منطقة نفوذ إيطالية : أما للعراق فقد تم التسليم باحتمال ضرورة السماح للإيطاليين بالاشتراك في تسوية بعض مسأله ، ومنها — مثلاً — مسألة البترول .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الألمان بدءوا في صيف عام ١٩٤٢ بتشكيل وحدة عربية أخرى في رأس سوفيون — وكانت هذه المرة تضم عرباً من شمالي إفريقيا .

الخلافا حول استخدام وحدة التدريب العربية الألمانية

في صيف عام ١٩٤٢ كان الموقف كالاتي : في جبهة شمالي إفريقيا كانت قوات المحور تقف على أبواب مصر ، وعلى الجبهة السوفييتية كانت تقرب من القوقاز : وكان الوقت قد حان للقيام بنشاط واسع بين العرب واستخدام وحدات عربية شكلتها ألمانيا وإيطاليا . ولكن ذلك الوقت شهد اتضاح الصدام بين الشريكين بعد أن كان مستتراً من قبل . ونشبت بين الزعيمين العربيين الكبيرين منافسة عنيفة كانت أسبابها كامنة في هذه العوامل :

ودعى المفتى ورشيد على مرة أخرى إلى روما لأسباب تتعلق بالهجوم على مصر . وقبل الحاج أمين الدعوة مسروراً ، وبرغم أن رشيد على كان متشككاً إلى حد ما في البداية إلا أنه توجه إلى روما أيضاً في نهاية الأمر . وكان مرجع تردد الكيلاني موقفه من التعاون مع الإيطاليين - إذ كان العرب بوجه عام يمتنعون الاستعمار الإيطالي . وما زاد في حقد رشيد على العلاقات بين المفتى وروما . وبعد قليل بدأ رشيد على يصرح باقتناعه بأن أولوية إيطاليا فيما يتعلق بالشئون العربية - وهو ما اعترفت به الحكومة الألمانية - لا تتضمن أية مزايا تشكل خطورة بالنسبة إلى العرب . وكان من رأيه أن على العرب أن يعلقوا كل آمالهم على انتصار ألمانيا في الجبهة الشرقية وعلى زحف القوات الهتلرية في النهاية من القوقاز إلى العراق لا على انتصارات المحور في شمال إفريقيا. وهناك أسباب تدعونا إلى الاعتقاد بأن دكتور جروبا أيد الكيلاني في وجهات نظره هذه . وربما كان هذا السبب هو الذي جعله عرضة لهجوم الحكومة الإيطالية ومفتى القدس . ومن الواضح أن جروبا عبر بلهجة حادة إلى حد ما وصريحة جداً عن النوايا السرية للدوائر السياسية والاقتصادية الألمانية ذات النفوذ . وما يجدر ذكره أن هتلر هو الذي عبر لشيانو (٢٦ أكتوبر ١٩٤١) عن فكرة استعمال القوقاز بآباره البترولية كرأس حربة للتغلغل في البلدان العربية .

وعرض المفتى على إيطاليا خدماته بصدد الهجوم على مصر وعبر عن رغبته في التوجه إلى شمال إفريقيا حيث كان يريد أن يعمل لحساب المحور في أثناء الهجوم ، متوقفاً أن يؤدي ذلك إلى إحرازه أهمية في العالم العربي . ولما كان يتوقع أن يفيد من الانتصارات التي تتحقق في مصر ، فإنه كان يود اجتذاب العرب المجندين في رأس سونيون إلى هناك ، ضد رغبات الألمان . ولهذا أحضر إلى روما أحد الملازمين الثواني العرب الذي كان حبيثاً في إجازة في برلين . وكان الجنرال فلمي يخشى أن يحاول المفتى اجتذاب عدد أكبر ممن جندوا في هيئة التدريب العربية الألمانية . ومن ناحية أخرى حاول الكيلاني أن يعود إلى برلين . وكان من رأيه أن المسائل المصرية والنشاط الإيطالي في هذا المضمار ليست لها أهمية كبيرة ، وأن تقدم القوات الألمانية في القوقاز يتطلب الإسراع بالمفاوضات الخاصة بالتعاون

بين ألمانيا والعراق . وفي نهاية أغسطس توجه إلى برلين .

وفي ذلك الوقت نقلت سوندرستاب ف إلى الاتحاد السوفيتي . وبعد أن عززت وتوسعت وزودت بعناد خاص أصبح اسمها (القيادة العامة ٦٨ للقيام بمهام خاصة General-Kommando 68 Zur besonderen Verwendung) وكانت تابعة للجيش الألماني المصفح الأول . وكان مركز قيادتها في بوديونوفسكايا Budionovskaya على نهر كوما . وكان عدد فرقة القيادة العامة ٦٨/٦٠٠٠ رجل ، وكانت تشكيلة ميكانيكية تماماً ، وكانت لديها أسلحة احتياطية تكفي كمية كاملة من المتطوعين أو الهاربين العرب . وقد زودت بسبع طائرات للاتصال والمواصلات وتوزيع النشرات . ونقلت وحدة التدريب العربية - الألمانية إلى ستالينو ، وكان عليها بعد الاحتلال المتوقع لتفليس أن تتقدم صوب القوقاز وأن تتجه إلى البصرة عبر غربي إيران والعراق .

وبرغم أن المفتي عمل بالفعل مع بعض الخونة المسلمين من القوقاز والتركستان ، فإنه قدم مذكرة يعارض فيها لإرسال العرب إلى القوقاز وطلب أن يرسلوا إلى مصر وشمال إفريقيا . وفي الوقت نفسه وجه رسالة إلى مدير المخابرات الإيطالية الجنرال آميه Amé ملخصاً خططه الخاصة بنشاطه في شمال إفريقيا . وفي ١٠ سبتمبر قدمت القيادة العليا الإيطالية هذه الرسالة إلى الألمان . واقترح المفتي التوسع في الدعاية وإنشاء وحدات فدائية عربية ووحدات نظامية تتلقى أوامرها باللغة العربية وترفع علماً عربياً وترتدي ملابس خاصة ، كما اقترح إقامة اتصالات مع المنظمات المصرية وتهريب الأسلحة خلف الخطوط البريطانية . وفي البداية أنكرت السلطات الألمانية على المفتي حقه في التدخل بشأن طريقة استعمال وحدة التدريب العربية - الألمانية . ولكن إلى جانب الاعتبارات العامة نجد موقف القوة العربية قد حمل العسكريين الألمان على التفاوض مع المفتي حول المسألة . وجرت المحادثات في ١٥ سبتمبر في روما واشترك فيها الجنرال فلمي والكولونل ماير ركس والكولونل لاهوزن Lahousen والأميرال كاناريس والجنرال آميه . ووعده المفتي بإيفاد مبعوث إلى ستالينو لكي يقوم بهدئة عرب وحدة التدريب العربية - الألمانية ، ولكنه لم يغير موقفه إزاء كيفية استعمال هذه الوحدة .

أما الكيلاني فقد اتبع طريقة مخالفة تماماً كانت تساند موقف برلين بصورة ألمانيا الهتلرية

قاطعة . وبعد أن أشار الكيلاني إلى ما رآته القيادة العسكرية من أن على العسكريين أن يحددوا مسألة كيفية استخدام وحدة التدريب العربية - الألمانية ، أعلن عدم استعداده للتدخل في مثل هذه الأمور . كان يريد أن يصبح أكبر أداة في يد ألمانيا ، على الأقل في مجال التشكيلات العسكرية العربية . ومن المحتمل أنه وقع بمحض اختياره ، (في ١٢ سبتمبر ١٩٤٢) على « الاتفاق مع القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية حول استخدام لواء تحرير العرب » - وطبقاً لهذه الوثيقة جعلت الوحدات العربية خاضعة للجيش الألماني ، ولم يسمح بتجزئتها ، وكان يجب على القيادة الألمانية أن تقرر استعمالها في بلد عربي أو آخر . وكان من المتوخى لهذه الوحدات العربية - بعد وصولها إلى وجهتها - أن تسمح بانضمام متطوعين محليين ، على أساس الاتفاق مع البلد المعنى ، وإذا ما وجد جيش وطني هناك ، كان من واجب لواء التحرير العربي أن ينضم إليه . وقد تم الاعتراف في الاتفاقية بعرب شمالي إفريقيا الذين جندوا في وحدة خاصة أنشئت في رأس سونيون في صيف عام ١٩٤٢ باعتبارهم أعضاء في الجيش الألماني . وقد أدت هذه الاتفاقية إلى حد كبير إلى تعزيز العلاقات بين المفتي والكيلاني ، كما أنها أصبحت عاملاً من عوامل التضال بين الرجلين في أوساط العرب المهاجرين في أوروبا . وأصبح الصراع برمته مقلقاً لبرلين ، ومن المحتمل أن مرجع ذلك هو أن لإيطاليا كانت تساند الحاج أمين بصفة غير رسمية .

وقد تأثرت وجهات نظر الكيلاني ليس فقط ببغضه للاستعمار الإيطالي ، بل بموقفه أيضاً باعتباره زعيماً عراقياً . فلو أن فكرة الزحف على البلدان العربية عبر القوقاز خرجت إلى حيز التنفيذ ، لشغل العراق مركزاً رئيسياً في المشرق العربي . وفي الوقت نفسه فإن انتصار الهجوم المحوري في شمالي إفريقيا كان لابد أن يؤدي في البداية إلى الاستيلاء على مصر ثم على فلسطين وسوريا . وفي هذه الحالة ستكون هذه البلاد مركز اهتمام برلين وروما ، وحينئذ يكون الزعيم العربي هو الحاج أمين الحسيني لا الكيلاني . وقد أدى الخلاف بين وجهة النظر العراقية - التي كان يمثلها الكيلاني - ووجهة النظر الفلسطينية - السورية ، التي كان يعبر عنها المفتي ، إلى تناقض وجهات نظر الزعيمين تماماً فيما يتعلق بمسألة الوحدة

العربية . فقد أصبح مفنى القدس السابق أكبر أنصار الجامعة العربية ، وكان هدفه إقامة دولة عربية عظمى تضم العراق وشرق الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين . ولكنه لم يقف عند هذا الحد - إذ أن طموحه الخاص - بعد تطور الموقف - أدى به بشكل يزداد وضوحاً إلى اعتناق أكثر أشكال الجامعة العربية تطرفاً : حلم بقيام دولة عربية كبرى تمتد من الأطلنطى إلى الخليج (العربى) . ومن ناحية أخرى نجد أن الكيلانى كان فى صف قيام اتحاد فدرالى عربى ، ورأى وجوب تأجيل القرار النهائى حول المسألة إلى وقت يمكن فيه استشارة زعماء كل بلد عربى .

وربما كانت آراء الحاج أمين المنترة بشأن الجامعة العربية أكبر أسلحته فى الصراع مع الكيلانى فى أوساط المهاجرين العرب .

وبطبيعة الحال وضع المنتى فى حسابه علاقة إيطاليا الفعلية بالوحدة العربية ، وكان على بينة من موقفها ذى الوجهين من مسألة الاستقلال العربى . ولكنه كان قد ارتبط بإيطاليا لفترة طويلة . وكان متزناً فى تقدير أهمية العلاقات الإيطالية - الألمانية خلال الحرب : ومن ثم اتجاهاه إلى إقامة تعاون أوثق مع إيطاليا - برغم الاتجاه العربى السائد .

ويجدر بنا عند هذه النقطة أن ننتقل إلى الإشكالات السياسية الكامنة فى الموقف . فنحن نجد أن نصير الجامعة العربية المنترف - المفتى - لم يحتقر التعاون الوثيق مع دولة - إيطاليا - كانت عميقة الشك فى كل خطط الجامعة العربية ، على حين أن الكيلانى - الوطنى العراقى الذى ربط كل خطته بألمانيا لا بالمحور - نجح فى التأثير على إيطاليا بحيث اعترفت بادعاء العراق فى شط العرب وخوزستان^(١) الفارسية . وقد اتضح هذا لأن الإيطاليين كانوا يريدون أن يضموا إلى العراق جزءاً من إيران يحتوى على البترول - إذ كانوا يعدون العراق جزءاً من منطقة نفوذهم فى المستقبل . على أن الألمان تلتوا هذا الطلب ببرود .

(١) كان اسمها عربستان ، وقد انتزعتها إيران من الأراضى العربية وحاولت دمجها فى الكيان الإيرانى .
(المترجم)

الصراع في سبيل القيادة

هذا هو الأساس السياسي للصراع بين المفتي والكيلاي . وقد سبق أن أوضحنا أن العامل الرئيسي للصدام كان النضال في سبيل الزعامة وإرضاء طموحه الخاص وظمأه للسلطة ، واحتلال المكانة الأولى لدى الحامى الفاشسى .

وكان الموقف من الوجهة الرسمية كالاتى : كانت خطابات شيانو وريبنروب التى سبق أن أشرنا إليها والتى كانت تحتوى على وعود حكام المحور الخاصة بالمسائل العربية العامة موجهة إلى كلا الزعيمين العربيين . ومن هنا تم الاعتراف بكليهما على قدم المساواة باعتبارهما ناطقين باسم جمهرة العرب . كما تم الاعتراف بالكيلاي رئيساً للدولة العراقية . ولكن هتلر استقبل الحاج أمين الذى بقى لفترة طويلة (حتى صيف عام ١٩٤٢) العربى الوحيد الذى نال هذا الامتياز . وخلال هذه المقابلة قطع هتلر وعوداً معينة أشار إليها المفتي فيما بعد . وطبقاً لهذه الوعود كان من المتوخى أن يحتل الحاج أمين الحسينى المركز الرئيسى فى الأوساط العربية . وفى الواقع لم يكن ثمة شك فى تفوق المفتي شخصياً على الكيلاي من حيث مدى قدرته ونفوذه وجراته .

وقبل أن يتوجه المفتي إلى روما كان قد أكد بشكل قاطع جداً مسألة سلطته السياسية فى كل المسائل العربية ، خاصة فيما يتعلق بالكيلاي الذى كان قد بدأ يعمل لحسابه الخاص ولم يعمل طبقاً لرغبات الحاج أمين . وكانت وجهة نظر الكيلاي أنه - بصفته رئيساً اوزراء بلد مستقل ذى سيادة اعترف المحور به على هذا الأساس - لا يستطيع أن يجعل نفسه خاضعاً للحاج أمين .

ولكن المفتي كان لا ينحنى فى طلبه الخاص بالاعتراف به باعتباره للزعيم الأكبر للعرب ، وقد ذهب ، حتى خلال اتصالاته الأولى بالمحور فى أوائل

(١) فشلا كان عباس حلمى يرى أن المفتي « قدبر وخطير » وأن الكيلاي وطنى نزيه وإن تكن قدرته قليلة (مذكرات بروفر Prüfer - برلين فى ١٧ يوفية ١٩٤٢) .

الحرب ، إلى أنه بتكلم باسم لجنة تمثل كل العرب . وحين كان في برلين في نوفمبر ١٩٤١ ، كان قد قدم إلى جروباً تصريحاً يفخر فيه بعلو مركزه في العالم العربي . ثم جرت بينه وبين إيتل ثلاث محادثات طويلة في يونيو ١٩٤٢ عرض فيها وجهات نظره السياسية وأثار من جديد المسائل التي ناقشها مع جروباً قبل ستة شهور . وكرر نفس الشيء مرة أخرى لفاريزساكر وفورمان . ومع بعض الاختلافات في التفاصيل كانت الأشكال المختلفة لنفس القصة كالآتي : لم يوافق المفتي على تقديم أى تنازلات بصدد مسألة سلطته السياسية ، لأن كل المشكلات العربية كان يجب أن يقررها التنظيم السري المسمى « حزب الأمة العربية » . وكان هذا التنظيم - وفق قوله - مبنياً على مبدأ « الزعيم » باعتباره خلفاً « للفتاة » التي كانت قائمة قبل الحرب العالمية الأولى . وكان من المعتقد أن فيصل ملك العراق كان أول رئيس لهذا التنظيم ، وقيل إن القيادة كانت تتألف من أناس يميلون إلى بريطانيا . وذهب المفتي إلى أن الحزب بدأ يغير اتجاهه تحت قيادة فيصل - فأصبح من الضروري إبعاد أعضاء من أمثال نوري السعيد ، واكتساب أعضاء جدد بوجه عام . وفي رواية أخرى باهى المفتي بأنه هو الذى أعطى التنظيم طابعاً معادياً لبريطانيا حين أصبح زعيماً له . وقبل ذلك كان عضراً عادياً لعدة سنوات ، ثم أصبح رئيساً لفرعه في القدس ، ولم يلبث أن أصبح زعيماً له في فلسطين . كما أنه روى هذه الأحداث بأشكال تختلف اختلافات قليلة : فذهب مرة إلى أنه قد اختير زعيماً في بداية ثورة فلسطين في عام ١٩٣٦ ، ثم ادعى بعد ذلك أن الزعماء العرب قد اختاروه رئيساً في عام ١٩٣٢ أو أن فيصل منحه المنصب في نفس العام . وأصر المفتي على أن حزب الأمة العربية هو الذى كان من وراء الاتفاق وأنهى الحرب بين إمام اليمن وابن سعود في عام ١٩٣٤ وأنه هو الذى أجرى المفاوضات . كما ادعى بالإضافة إلى ذلك أن الحزب كان من وراء أحداث العراق ، وأنه هو أيضاً الذى أقنع ناجى شوكت ورشيد على والصاغات الأربعة بالحاجة إلى نضال فعال . كما أنه ذهب إلى أن هذا الحزب هو الذى عين طه الهاشمي رئيساً للوزراء ، وحين أصبح من اللازم استبداله هو (المفتي) - برغم آراء الأعضاء العراقيين في التنظيم - فرض

تعيين رشيد على الذى كان قد انضم إلى التنظيم بهذه المناسبة وأقسم يمين الدخول بناء على توصيته . ووفقاً لما ذهب إليه الحاج أمين كانت للتنظيم فروع فى كل البلدان العربية ، بما فيها العربية السعودية واليمن . وباهى أمام ما كثر بأن أغلبية المتعاونين مع الملك فى العربية السعودية كانوا تابعين للتنظيم ، وأن ابن سعود ذاته كان يرى أن مستقبل العرب يتطلب التحالف مع المحور^(١) . ولقد أصر المفتى على أنه لم يكن ثمة شك على الإطلاق فى أن رشيد على كان مرعوساً له من الناحية العسكرية السياسية وأن هذه العلاقة لم تتغير إلا فى برلين حين بدأ الكيلانى يعمل لحسابه الخاص .

وبدأ المفتى يلوم جروباً بعض الوقت فى عام ١٩٤٢ لعدم خضوع الكيلانى وعناده ، ملدحاً بذلك إلى أن منافسه متذبذب وضعيف الشخصية .

واستغل المفتى فى روايته بعض الأفكار السائدة فى أوروبا عن البلدان العربية . وهكذا نجده يستغل سمعة المنظمات السرية العربية التى نشطت فى الإمبراطورية العثمانية ، وهى السمعة التى ساهم فى إبرازها الإنجليز (خصوصاً لورنس فى كتابه أعمدة الحكمة السبعة) إلى جانب الدعائين العرب . كما أشار المفتى إلى الصورة الغربية لحركة الجامعة الإسلامية . وباهى بمركزه السامى فى العالم الإسلامى ، وصور نفسه على أنه منظم ورئيس المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى القدس فى عام ١٩٣١ . ولم يكن على الحاج أمين أن يقنع مستمعيه بأن أفكار الجامعة العربية واسعة الانتشار - فكل من كانوا على أية صلة بالشئون العربية كانوا على علم بذلك .

وسرعان ما اشتد الصراع حول من يتولى القيادة فى المشرق العربى ومن الذى يعترف به المحور باعتباره أدواته الرئيسية . فقد استمر تنديد السلطات الألمانية والإيطالية كل منهما بالأخرى . كما استمرت المؤامرات والمنازعات الصاخبة

(١) ربما كانت مناسبة هذه المحادثة الرسالة التى بعث بها ابن سعود إلى المفتى ، وهى الرسالة التى أوضح فيها الأسباب التى دعت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع دول المحور وطلب أن تبلغ صديقتاه (ألمانيا وإيطاليا) بأنه فعل ذلك ضد إرادته ، وأنه لم يكن لهما سوى أحسن التوايا . ويؤكد وتوتل أن حاشية ابن سعود كانت تقف موقفاً ودياً من ألمانيا : K.S. Twitchell, Saudi Arabia, p. 166.

بين العرب القاطنين في أوروبا وأقحمت في ذلك مؤسسات وهيئات محورية مختلفة^(١).

وحين اقترب وقت قيام المفتي برحلته إلى شمالى إفريقيا (أواخر يولية ١٩٤٢) أصبح يسعى إلى أن يتم الاعتراف به بصفته زعيم التنظيم السرى العربى الذى بيده توجيه نشاط الحركة القومية العربية . وكان يود أن يواجه المحور بالحاجة إلى اتخاذ قرار ، بالضبط كما فعل في محادثاته مع الألمان في خريف عام ١٩٤١ . وكان من المتوخى أن يكون القرار شخصياً هذه المرة ، ولكن كان من المحتمل أن يؤثر تأثيراً خطيراً في مسألة الوحدة العربية ، لأنه (المفتي) سيصبح الناطق المعترف به باسمها . ولم يكن يقتصر أمر القرار على حسم قضية في طى المستقبل - في حالة انتظار المحور على المدى البعيد - بل إنه كان من شأنه أيضاً أن يخلق عليه زعامة العرب الذين يدورون في فلك المحور ، كما سيعطيه نفوذاً حاسماً على العرب المنفيين في تركيا^(٢) ، وبوجه عام على كل من يتلقون منه أموالاً . وفي الوقت نفسه قام الحاج أمين بنشاط واسع بين المسلمين ، وبأشرك كل أنواع الاتصالات ، وحصل على اعتراف العالم الإسلامى خارج نطاق المناطق التى يتكلم أهلها اللغة العربية .

ألمانيا وإيطاليا وهطامح المفتي

وتمشياً مع سياسة الانتظار التى اتبعها الألمان فيما يتعلق بالمسائل العربية ، نجدهم يفضلون المحافظة على الحالة القائمة فيما يتعلق بزعامة أنصارهم العرب ، ويريدون أن يتبينوا ما الذى سيقدره الإيطاليون . وكان من شأن وصول الزعيمين إلى اتفاق أن يريح الألمان الذين كانوا يعاونون على أن يقوم الإيطاليون بشئء بهذا الصدد . وقد تمسكوا باستمرار بفكرة ضرورة الإبقاء على كل من

(١) تحتوى وثائق وزارة الخارجية الألمانية على كثير من التقارير الخاصة بالتنبؤات المتبادلة . وقد ذكر شيانور في مذكراته (بتاريخ ٢٦ يولية ١٩٤٢) ما يلى « إن كلا من المفتي والكيلانى يشيران منازعات صاحبة وجرويا . . يسكب الزيت على النار » .
Ciano's Diary, London, 1948.

(٢) كان كثير منهم يتلقون بانتظام أموالاً من المفتي والكيلانى اللذين حصلوا عليها من ألمانيا وإيطاليا .

المفتى والكيلاني ، وحاولوا البحث عن صيغة لمصالحة كلا الرجاين . ولكن كانت لديهم فكرة عالية عن الحاج أمين ، وبما لاشك فيه أنهم كانوا سيقرون ادعاءاته فيما إذا كان لابد من الاختيار .

ويبدو مما سبق ذكره أنه كان من مصالحة الألمان أن يساندوا الكيلاني ، وأن من مصالحة الإيطاليين أن يدافعوا عن المفتى الذى ارتبطوا به طيلة هذه الفترة الطويلة . وبالفعل اعتبر بعض المسؤولين الألمان المفتى رجلاً إيطالياً^(١) ، على حين أن آخرين - لهم نفوذهم - لم يسلّموا بإخلاص مشاعره بإزاء الإيطاليين . وذهب المفتى ذاته إلى أن ميوله إلى إيطاليا كانت من اختراع جروباً . ويحتمل أن الألمان أدركوا ، ليس فقط من اتهامات الكيلاني ، بل من شيانوا ذاته ، أن الحاج أمين كان لفترة طويلة يتلقى أموالاً من الإيطاليين . على أن براين كانت تميل إلى الرأى الخاص بأنه كان سياسياً محكماً يفهم حقائق العلاقات الإيطالية - الألمانية . وبرغم أن الكيلاني كان يوافق بشدة على مسألة وحدة التدريب العربية الألمانية ، فلم يكن باستطاعة الألمان أن يساندوه ضد المفتى بسبب علاقاتهم بإيطاليا . ولم يخف الكيلاني مقتته لإيطاليا ، ومن الواضح أنه كان يود أن يفيد من عدم اتفاق شريكى المحور على المسائل العربية ، ولكن الألمان لم يكونوا يرغبون فى إفشاء هذه الحقيقة فى ذلك الوقت . وكان المفتى خبيراً باتّامر ، فلدح للإيطاليين بمهارة إلى أن الألمان كانوا يتبعون سرّاً سياسة عربية موجهة ضد مصالح إيطاليا . حقيقة أن الألمان تظاهروا بمنح الكيلاني اعترافاً متساوياً (على سبيل المثال حين قابله هتلر فى يولييه ١٩٤٢ بعد إلحاح شديد) إلا أنه كان على المسؤولين الألمان المشتغلين بالشئون العربية أن يعترفوا بأن المفتى كان أكثر واقعية وأن أساليبه السياسية كانت أكثر تمشياً مع الاتفاقيات الإيطالية - الألمانية .

ومن المحتمل جداً أن الدوائر الألمانية صاحبة الحل والعقد كانت أميل إلى الاعتقاد بأن المفتى كان الشخص الأقوى ، وأنه أكثر تمشياً مع الفكرة النازية الخاصة بالزعيم . فقد أشاد هتلر - مثلاً - « بذكائه غير العادى » الذى جعله « يكاد يتساوى مع اليابانيين » . ومن المحتمل أيضاً أن اتصالات الحاج أمين

(١) على سبيل المثال دكتور جروباً (انظر مذكراته ، برلين فى ١٩ يوفيه ١٩٤٢) .

بقوات العاصفة والجستابو ، وبخاصة الأجهزة التي كانت تقوم بالقضاء على اليهود الأوروبيين ، قد أثرت في فكرة الزعيم الألماني عنه . كما كانت بعض الاعتبارات الجنسية تزكيه . ففي المذكرات التي قدمها لوزارة الدفاع برفسور شرومف Schrumpf - وهو ألباني الأصل باشر الطب في القاهرة فترة طويلة - ذكر أن المفتي كان يمثل جنساً شركسياً : « وكما سبق لي أن ذكرت عدة مرات ، فهو إذن ليس (عربياً) . ولكن على أساس تطبيق قانون مندل والمزايا الوراثية ، بدأ الدم الشركسي يغلب على أسرته - وهذا أمر هام من وجهة النظر السيكولوجية » . هكذا كان استنتاج بيير شرومف - الذي شعر فجأة بشعور الألماني حين رفض كرسياً في جامعة باريس إذ اعتقد أن الدم العربي الخالص لا يمكن في أساسه أن يتميز « بمثل هذا الثبات والمثابرة في النضال ضد الإنجليز واليهود . وأهم من هذا أن الدم القوقازي أو الآري يجعلنا نتوقع من المفتي أن يبدى في المستقبل لإخلاص الحليف بالصورة التي لا يتميز بها الدم العربي الخالص » .

وبما يجدر ذكره أن تقارير المبعوث الألماني قد أقرت أيضاً ملامح ذو الفقار باشا وإسحق درويش الجنسية .

ويصف هتار الحاج أمين ذا اللحية الحمراء والعينين الزرقاوين وصفاً مخالفاً إلى حد ما في تفاصيله ، ولكنه يطبق عليه نفس النظرة الجنسية . وفي أول يولية ١٩٤٢ صرح فوهرر الريخ الثالث بأن شعر المفتي الأشقر وعينيه الزرقاوين يعطيان الانطباع بأنه شخص كان في أسلافه أكثر من آري وذلك برغم ملامحه الحادة الشبيهة بالفار ، وأن من المحتمل أن هذه الآرية قد امتزجت لديه بأحسن ما ورثه عن الرومان . وهكذا فإن عطف الزعماء النازيين على المفتي كان يستند إلى أساس قوى ، فقدوته وإقدامه وكرمه العميق لليهود - كل هذه الصفات كانت موضع تقدير عظيم ، بل إن ملامحه « شبه الآرية » كانت أيضاً موضعاً للتقدير . وفي ٩ سبتمبر ١٩٤٢ نقلت وزارة الخارجية الإيطالية خبراً إلى السفارة الألمانية في روما بأن ثمة مشروعاً - ظهر في أثناء المحادثات التي كانت قد جرت قريباً مع مفتي القدس - باعتراف المحور به كتابة باعتباره زعيماً للتنظيم السري لكل العرب . وقد اقترح وجوب بحث الإيطاليين هذه المسألة أيضاً عن طريق تبادل

لِلرَّسَائِلِ بَيْنَ الْمَفْتَى وَالْحُكُومَتَيْنِ ، كَمَا هُوَ الْحَالُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى التَّصْرِيحِ الْمَسَانِدِ
لِلْمَطَالِبِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ . كَمَا بَلَّغُوا حَلِيفَهُمْ أَنَّ الْكُونْتِ فِتْنَتِي Vitetti
كَانَ يَعْدُ نَصَّ الْخُطَابَاتِ ، وَأَنَّهَا سَتَقْدَمُ إِلَى بَرَلِينَ بِمَجْرَدِ أَنْ يُوَافِقَ عَلَيْهَا
شَيَانُو .

وَقَدْ اتَّضَحَتْ الْمَقْتَرَحَاتُ السَّابِقُ ذِكْرُهَا خِلَالِ مَنَاقِشَاتٍ تَنَازَلَتْ فِيهَا الْحَاجُ
أَمِينَ عَنْ بَعْضِ مَطَالِبِهِ . كَانَ يَرِيدُ اعْتِرَافًا بِأَنَّهُ الْقَائِدُ الْأَعْلَى الْوَحِيدُ لِلشُّوْنِ الْعَرَبِيَّةِ ،
وَمِنْ ثَمَّ الزَّعِيمُ الْوَحِيدُ لِكُلِّ نَشَاطٍ مَحْوَرٍ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ . وَرَأَى الْإِيطَالِيُّونَ أَنَّ
مِنَ الصَّعْبِ قَبُولَ هَذَا الطَّلَبِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَرْغَبُونَ فِي التَّخَلُّقِ عَنْ اتِّصَالَتِهِمْ
الْأُخْرَى . فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِ تَخَاصُّ أَنْ يَعْمَلُوا حَسَابًا لِرَغْبَاتِ الزَّعَمَاءِ الْمَصْرِيِّينَ
الْمُلْتَفِّينَ حَوْلَ الْمَلِكِ فَارُوقٍ وَعَلَى مَاهِرٍ (بَاشَا) ، وَلَكِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْظُرُوا بَعَيْنَ
الْجِدِّ إِلَى تَحْذِيرِ الْمَفْتَى الْخَاصِّ بِأَنَّهُ سَيُوجَّهُ صَعَابًا كَبِيرَةً فِي شِمَالِي إِفْرِيقِيَا إِذَا لَمْ
يَحْصُلْ عَلَى الْاعْتِرَافِ الَّذِي كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ^(١) . وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَدْرَكَ أَنَّ الْإِيطَالِيِّينَ
لَمْ يَكُونُوا يَقْلُونَ عَنِ الْمَفْتَى نَفْسَهُ فِي الْإِهْتِمَامِ بِالْقَضَاءِ عَلَى جُهُودِ الْكِيلَانِي وَإِخْضَاعِهِ
لِلْحَاجِ أَمِينَ .

وَفِي ١٤ سَبْتِمْبَرٍ قَدِمَ قَصْرُ شَيْجِي إِلَى سَفَارَةِ الرِّيَخِ مَذْكُورَةً وَافَقَ مُوسُولِينِي عَلَى
مَحْتَوَيَاتِهَا . وَقَدْ اقْتَرَحَتْ الْمَذْكُورَةُ الْاعْتِرَافَ بِالْمَفْتَى بِاعْتِبَارِهِ « الزَّعِيمَ الْمَسْئُولَ
لِلْمُنْظَمَةِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمُتَّحِدَةِ بِاسْمِ الْحُرُوكَةِ الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي تُشَكِّلُ هَذِهِ الْمُنْظَمَةُ جُزْءًا
مِنْهَا فِي كُلِّ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الشَّرْقِ الْأَدْنَى » . كَمَا اقْتَرَحَ الْإِيطَالِيُّونَ أَنْ يُوَجَّهَ
الْمُنْتَهَى نَصُوصُ الْخُطَابِ إِلَى مُوسُولِينِي وَأَنْ يَصْدُرَ رَدُّ الْكُونْتِ شَيَانُو بِاسْمِ الدُّوْشِي .
وَقَدْ لَمَحَ كَلَامُ النَّصِينِ إِلَى أَنَّ الْاعْتِرَافَ بِالْحُسَيْنِيِّ بِاعْتِبَارِهِ الزَّعِيمَ الْأَكْبَرَ وَالْوَحِيدَ
لِلْمُنْظَمَةِ الْجَامِعَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَمْرٌ تَحْتَمِيهِ أَوْجُهُ نَشَاطِهِ الْمُنْتَوَقَةِ فِي مِصْرَ وَجِبَةِ شِمَالِي
إِفْرِيقِيَا .

وَلَا كَانَ رَشِيدٌ عَالِيٌّ عَلَى عِلْمٍ بِجُهُودِ الْمَفْتَى ، فَلِإِنَّهُ أَخْبَرَ الْإِيطَالِيِّينَ وَالْأَلْمَانِ
بِأَنَّ التَّنْظِيمَ مِنْ وَحْيِ خَيَالِ الْمَفْتَى . وَاقْتَرَحَ اسْتِقَاءَ مَعْلُومَاتٍ بِهَذَا الصِّدَدِ مِنْ زُعَمَاءِ

(١) رُبَّمَا كَانَ الْمَفْتَى عَلَى حَقٍّ حِينَ أَشَارَ إِلَى الصَّعُوبَاتِ ، لِأَنَّ شَعْبِيَّةَ كَانَتْ ضَعِيفَةً خَارِجَ بُلْدَانِ
الْهَلَالِ الْخَصِيبِ .

عرب آخرين ، وبخاصة عادل أرسلان وناجي شوكت . وقد أتلفت ادعاءات المفتي الكيلاني كثيراً ، فحاول أن يثبت أنه زعيم ديني وليس له أى وضع سياسى من أى نوع فى العالم العربى .

ولم يجب الألمان فى الحال على الاقتراح الخاص بالاعتراف بالمفتي باعتباره زعيماً لكل القوميين العرب . وأرسل ريبنتروب إيتل إلى روما ليتحقق من وجود المنظمة المزعومة وأمره بأن يحس نبض قصر شيجى وأن يحصل من الحاج أمين على دليل يؤكد ادعاءاته .

ولم يكن من الممكن بالنسبة إلى رحلة إيتل أن تكون لها أية نتيجة سوى تأكيد ادعاءات المفتي . وربما كان هذا هو هدفها . ولما كانت وزارة الخارجية الإيطالية قد التزمت بالفعل بصدد هذه المسألة ، فمن المؤكد أنه لم يكن يتوقع منها أن تتخلى عن وجهات نظرها أمام إيتل . ولما كان المفتي متأمراً ماكراً ، محاطاً بمجموعة من الرجال المخلصين ، ولما كان لا يتورع عن اغتيال خصومه السياسيين ، فقد كان بلاه كانه باستمرار أن يقدم دليلاً ما ، وكان إيتل ذاته من أنصار المفتي ، ومن المحتمل أن ريبنتروب وفورمان كانا على علم بذلك . ولما كان إيتل نازياً متعصباً ، فإنه لم يتميز بالقدرة على التحليل السياسى المستقل .

وجهات نظر المفتي

بقى إيتل فى روما من ١ إلى ٢ أكتوبر . وقام مع دورنباخ Dortenbach — وهو موظف كان مختصاً بالشئون العربية فى سفارة ألمانيا فى روما — بزيارة الكونت فيتى الذى أعلن اقتناع الحكومة الإيطالية بوجود التنظيم السرى العربى . وذهب إلى أن الاقتناع يستند إلى تقارير المبعوثين والقناصل الإيطاليين فى البلدان

(١) بنينا هذه الفكرة على تقارير إيتل التى كانت تحتوى على تقييم ساذج جداً للماهدة الألمانية السوفيتية والتحالف الإيطالى — الألمان . (انظر أيضاً : حداد : حركة رشيد على الكيلاني ، ص ١٣٢ .

Schultze-Hothus, Daybreak in Iran, A story of the German Intelligence Service, London.

1954, pp. 13-15 & 70-7.

العربية لعدة سنوات . وكان من رأى فيتنى أن مفتى القدس ما كان ليستطيع النضال ضد الإنجليز واليهود لمدة ٢٠ سنة ما لم تكن لديه مثل هذه المنظمة ، وأن الحكومة الإيطالية تعتقد أن من غير المناسب أن تطلب منه دليلاً على وجودها .

وفى المحادثات التى جرت بين لايتل والمفتى أعاد الحاج أمين عرض مزاعمه التى سبق أن عرضها على فايز ساكر وفورمان وجروبا ولايتل ذاته ، وأعلن أن لديه عدداً من التصريحات التى أدلى بها أعضاء فى ذلك التنظيم . وقدم خطابات من ناجى شوكت ، والدكتور فرحان الجندلى ومحمد حسن أبو السعود ومحمد عفيفى ومحمد صبحى أبو غنيمه . وكانت تصريحات أبى السعود والعفيفى متشابهة . وقد أعلن السورى - الجندلى ، والأردنى - أبو غنيمه - أنهما كانا عضوين لمدة سنوات فى التنظيم السرى وأنهما كانا يعملان وفق أوامر مفتى القدس . وأدلى ناجى شوكت بتصريح طويل (سيق أن ناقشنا فحواه فى الفصل الثامن) . وقد وصف اجتماعاً جرى مع المفتى فى بغداد فى ٢٨ فبراير ١٩٤١ ، وأقسم فيه « رشيد على على القرآن الكريم أنه يعلن انضمامه إلى التنظيم وأنه سيكون مخلصاً لبرنامج وأعضائه طيلة حياته . وأقسم كل الموجودين نفس اليمين » . وقد كتب ناجى شوكت هذا فى رد على رسالة من المفتى طاب منه فيها أن يؤكد ظروفه معينة تتصل باجتماع جرى بين سبعة زعماء فى ٢٨ فبراير ١٩٤١ .

وفى رأينا أن القسم المشترك يوضح أن كل الموجودين وافقوا على القيام بعمل مشترك . ولهذا يبدو أن اجتماع ٢٨ فبراير كان أول جلسة انعقدت بين مجموعة من المتآمرين الذين قاموا بالانقلاب فى العراق، ولم يكن اجتماعاً بين الأعضاء القدامى للتنظيم الشامل لكل العرب الذى قيل إن رشيد على قد انضم إليه بهذه المناسبة باعتباره عضواً جديداً .

كما يذكر صلاح الدين الصباغ - الذى يصف اجتماع ٢٨ فبراير - أن كلا من الحاضرين أقسم « يمينا مغلفاً » . ويعطينا وصفه الانطباع بأنه كان الاجتماع التأسيسى للمؤامرة المعادية لبريطانيا فى العراق .

وفى أحسن الحالات تدل رسالة ناجى شوكت على أنه كان يوجد فى ذلك الوقت تنظيم سرى فى بغداد - أو مؤامرة يرأسها المفتى . ولا تذكر الرسالة شيئاً

عن وجود المنظمة في بلدان أخرى . ومن المعتقد أن ذلك كان مهمة خطابات الآخرين السابق ذكرهم . وإن شهادة أبي السعود وعفيى الذين كانا لفترة طويلة من أنصار الحاج أمين على جانب كبير من الأهمية . فقد ذكرا أنهما - باعتبارهما عضوين في إدارة « حزب الأمة العربية » - كانا على علم بأن الحزب قرر إعادة تنظيم لجنته التنفيذية في العراق ، وأن المفتى اشترك في جلسة بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩٤١^(١) شهدت ظهور اللجنة التنفيذية ، وفيها أقسم أعضاؤها اليمين . وكان القصد من هذا في الوقت نفسه توضيح أن التقسم العام كان أمراً ضرورياً ، لأن لجنة تنفيذية جديدة للفرع العراقي من المنظمة العربية الشاملة قد تشكلت . وبإمكاننا أن نلاحظ بعض التناقضات بين رسالة شوكت ورسائل الفلسطينيين ، لأن الأول لا يتحدث عن إقامة لجنة تنفيذية ، بل عن انضمام رشيد على إلى المنظمة .

وبالإضافة إلى ذلك فقد جرت في الصحف العربية في عام ١٩٥٧ مناقشة بعض الوثائق الألمانية المتصلة بالصراع بين الحاج أمين ورشيد على . وفي محادثات المفتى السابق مع المراسل القاهري لجريدة الأخبار لم بشر الحاج أمين إلى وجود أى حزب سرى اسمه حزب الأمة العربية ، أو أنه قد أكد للدولى المحور أن مثل هذا التنظيم كان موجوداً . وما قاله المفتى نشك في أن التعاون بين زعماء حركة الجامعة العربية في مختلف البلدان العربية قد اتخذ شكلاً منظماً في بغداد^(٢) . وعلى ضوء المقابلة السابق ذكرها يبدو أنه لم توجد في بغداد عام ١٩٤١ (أو ربما في عام ١٩٤٠) سوى اتصالات غير وثيقة بين ساسة من سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، وأنه لم يكن تنظيمياً شاملاً لكل العرب ، بل إنه كان يقوم على المفتى

(١) (هكذا !) على أننا نعتقد أن هذا الاجتماع قد جرى في ٢٨ فبراير ١٩٤١ ، ونحن في اعتقادنا هذا نتمشى مع مذكره الصباح في مذكراته (فرسان العرب في العراق ، ص ٢١٨) ومجيد خضروى (Independent Iraq, 308) . وفي هذه الرسالة لا يعطينا ناجى شوكت التاريخ المحدد ، بل لا يذكر سوى أن الاجتماع تم « في فبراير » .

(٢) الأخبار في ٢ سبتمبر ١٩٥٧ ، رقم ١٦٠٨ ، ص ٥ - ٦ . في المقابلة التي جرت بين المفتى ومراسل هذه الصحيفة ، استعمل الحاج أمين كلمة « لجنة » ولم يستعمل مرة واحدة كلمة « حزب » . وذكر أنه لم تكن توجد في الواقع مثل هذه اللجنة التي أشارت إليها الوثائق الألمانية ، بل « مجموعة عربية متضامنة » اضطلت بمهمة تحقيق المطالب القومية العربية .

وبعض الزعماء العراقيين ، ومنهم المفتى وضباط الجيش الذين أعدوا المؤامرة في فبراير ١٩٤١ .

نتائج رحلة إيتل

بعد أن أنهى إيتل تحرياته انتقل إلى مناقشة تبادل الرسائل الذي كان من المتوخى منه أن يعترف المحور بالمفتى باعتباره زعيماً للتنظيم العربي العام . وتم الاتفاق على أن يوجه الحاج أمين رسائل شخصية إلى شيانو وفون ريبنروب لا إلى موسوليني وهتلر كما اقترح سابقاً . حينئذ كان من المتوخى أن يتلقى من كل منهما ردّاً شخصياً . وكان من المتوخى أن يكون نص الردين واحداً ، وكان قد تم بالفعل الاتفاق على نصيهما مع المفتى .

ولم نعر في الوثائق الألمانية على تأكيد بأن تبادل الرسائل قد تم . فقد حدث مرة أخرى في أواسط شهر ديسمبر أن طالب المفتى بالاعتراف ، ولكن سلطات المحور اقترحت حينئذ نص الرسالتين بسبب تغير الموقف العسكري الذي لم يشجع على اتخاذ قرارات أساسية حول المسائل العربية . وهناك أيضاً دليل ما على أن وزارة الخارجية الألمانية بدأت تقدر ضرر هذا النوع من التدخل في الشؤون العربية الداخلية .

ولهذا يجب أن نخلص إلى أن تبادل الرسائل لم يحدث على الإطلاق . وفي الواقع أن المفتى كان يحتل بالفعل المكان الأول في سياسة المحور العربية . وحين ضعفت فرص المحور في البلدان العربية ازداد نشاط المفتى في مسائل إسلامية أخرى : منها - على سبيل المثال - القيام باتصالات بأنصار المحور في القوقاز وأواسط آسيا وفي منظمات العاصفة الخاصة بمسلمي البلقان وغير ذلك . وقد كشفت سجلات محاكمات نورمبرج عن الدور الأثيم الذي قام به المفتى في التخلص من اليهود الأوروبيين ..

وقد أدى إيفاد إيتل إلى روما والقرار الذي اتخذ حينئذ إلى إبعاد دكتور جروبوا الذي كان بالفعل قد أعفى من مهامه باعتباره رجل الاتصال بالمفتى ،

دخلت هذه المهمة على إيتل الذى أرسل فى ١٧ أكتوبر ١٩٤٢ مذكرة مستفيضة إلى ريبنتروب تناولت نتائج رحلته إلى إيطاليا وما انتهى إليه . وبعد أن أوضح إيتل مهام الريخ الثالث فى المشرق العربى على ضوء العلاقات الإيطالية - الألمانية ، وصل إلى عدد من الاستنتاجات الشخصية .

وتدل مذكرات إيتل على تناقض سياسة ألمانيا العربية . فمن ناحية اتضح لإيتل أن إيطاليا لم تكن تحظى بعطف العرب ، ومن ناحية أخرى اعترفت ألمانيا - التى كان لها حينئذ أصدقاء كثيرون من العرب - بهيمنة روما فيما يتعلق بالشئون العربية . ولهذا رأى إيتل أن على ألمانيا أن تظهر بمظهر السدسار الأمين الذى يخطب وده كلا الطرفين ، وأن على الريخ أن يحتل الوضع الرئيسى وأن يتمتع بنفوذ فى الشئون العربية دون أن يمس أولوية إيطاليا . وأكد إيتل أن هذا السبب يجعل من غير الضرورى إبلاغ الشعب العربى بالوعود التى بذلتها برلين للإيطاليين فيما يتصل بالبلدان العربية . وشكا إيتل من أن الكيلانى رفض الاعتراف بهذا الموقف المربك ، على حين أن مفتى القدس اعتبر التعاون الألمانى - الإيطالى ضرورة مستقلة وعول على الوصول إلى اتفاق مع ألمانيا بعد إحراز النصر ، لأن الريخ حينئذ لن يكون مضطراً إلى الاهتمام بمصالح شريكه الإيطالى .

ويواصل إيتل سلسلة من الاتهامات ضد جروبا : أثر نشاطه السلبي على العلاقات الألمانية - الإيطالية ، وإساءته إلى علاقات ألمانيا بالمفتى ، وأنه كان من وراء الصراع الذى نشب بين المفتى والكيلانى وكذلك الصراع الداخلى الذى نشب بين العرب المنضوين تحت جناح ألمانيا . وقد كتب إيتل إلى وزيره أنه لاختطته السياسية ولا شخصيته تجعلانه صالحاً لمعالجة الشئون العربية . وكان جروبا يطمح إلى تسوية مصير البلدان العربية - باعتباره « مندوباً سامياً » - مع الكيلانى الذى كان خاضعاً له^(١) . وفى النهاية اقترح إيتل وجوب تفويض السياسة الألمانية المتعلقة بالشئون العربية إلى بروفر Prüfer الوزير المفوض السابق فى البرازيل الذى كان قد رجع وشيكاً إلى ألمانيا^(٢) .

(١) يقيم خضورى موقف جروبا تقييماً مشابهاً (ص ٢٣٩) .

(٢) دخل بروفر وزارة الخارجية الألمانية فى عام ١٩٠٧ باعتباره مترجماً ضليماً فى قنسية القاهرة . ثم حصل على درجة أستاذ محاضر متخصص فى اللغات السامية . وقد عمل فى تركيا فى الفترة ما بين =

وفي مذكرات أخرى ، ربما تكون قد كتبت في ديسمبر ١٩٤٢ ، أنهم المؤلف جروبا بأنه قد تصرف مع المفتى بطريقة تعيد إلى الأذهان أساليب الماسونية التي كان قد شغل فيها مرتبة عالية ولم يتركها إلا في عام ١٩٣٤ . وبالإضافة إلى ذلك فقد رأى إيتل أن « المشكلة العربية مرتبطة بالمسألة اليهودية ارتباطاً لا ينفصم . فاليهود هم الأعداء الألداء للعرب والألمان على حد سواء . وعلى كل من يشغل نفسه في ألمانيا بالمشاكل العربية أن يكون عدواً صلباً لليهود عن اقتناع » .

واستبعد دكتور جروبا ودكتور جرانوف من الشؤون العربية ونقلوا إلى باريس . وقد تم ذلك في نهاية عام ١٩٤٢ حين كان المحور قد هزم في العلمين ، وحين كان القتال دائراً في تونس .

= عامي ١٩١٤ و ١٩١٧ ثم عمل في سفارة الآستانة ، وفي فترة ما بين الحربين كان قنصلاً في تفليس ووزيراً مفوضاً في أديس أبابا ثم سفيراً في البرازيل .

الفصل الرابع عشر

فصل ختامي عن تونس

في نوفمبر ١٩٤٢ انصب اهتمام النازي بالبلدان العربية على تونس . فحتى خريف ذلك العام كانت قوات المحور تقوم بالهجوم . ولكن معركة العلمين (٢٣ أكتوبر) ونزول القوات البريطانية والأمريكية في شمال إفريقيا (٨ نوفمبر) وأهم من هذا الهجوم السوفييتي المضاد على القوقاز (١٩ نوفمبر) - كل ذلك كان بداية فترة جديدة من الحرب ، هي الفترة التي شهدت هزيمة المحور . وفي الوقت الذي كان الألمان يقومون فيه بالهجوم نجد أن اهتمامهم قد انصب أولاً وقبل كل شيء على البلدان العربية الواقعة في منطقة السيطرة البريطانية . وقد رفضت برلين رفضاً باتاً احتمال استغلال القومية العربية في شمال إفريقيا برغم ما رأيناه من أن هذا الموقف كان له أثر سلبي على السياسة الألمانية في بلدان آسيا العربية وفي مصر . ومنذ الوقت الذي لجأ فيه الألمان إلى الدفاع في نوفمبر ١٩٤٢ ، كان عليهم أن يهتموا بتونس ، وهي بلد عربي كانت فيشي تتولى إدارته ، وكان من المتوخى أن تكون تونس بعد النصر من أسلاب إيطاليا . ومنذ أواسط نوفمبر ١٩٤٢ كانت القوات الألمانية والإيطالية تحتل تونس .

احتلال تونس

في ٨ نوفمبر نزلت في الجزائر ومراكش قوات بريطانية وأمريكية يقودها الجنرال دوايت أيزنهاور . ولم يطل أمد مقاومة القوات الفرنسية المخلصة لفيشي . وقد استغرق القتال الذي دار على شاطئ مراكش الواقع على المحيط الأطلنطي فترة طويلة وكان أقصر ما يكون في الجزائر . وقد انضم دارلان - الذي تصادف وجوده في الجزائر لزيارة ابنه المريض - إلى الحلفاء وتلا احتلال قوات المحور لفرنسا غير المحتلة اتفاق كامل بين أنصار نظام فيشي في شمال إفريقيا وبين

القيادة الأمريكية (١٣ نوفمبر) . واستبعد مؤقتاً الجنرال دييجول الذى كان فى عام ١٩٤٠ قد نادى بمواصلة القتال ضد المحور . ولم يتم كبح جماح أنصار فيشى فى شمال إفريقيا إلا بعد مقتل دارلان (٢٤ سبتمبر ١٩٤٢) وانهقاد مؤتمر الدار البيضاء (١٤ - ٢٥ يناير ١٩٤٣) .

ولم يكن الألمان يتوقعون نزول قوات العدو فى شمال إفريقيا . فبعد أن خدعهم مخبرات الحلفاء المضادة ، سلدوا بأنه ستجرى محاولة للقيام بإزالة القوات فى جزيرة ما فى غربى البحر المتوسط . وكانت برلين تعمل لدرجة ما على المقاومة الفرنسية فى شمال إفريقيا ، ولكن هذا الوهم سرعان ما تبخر . وكان من الضرورى القيام بعمل ما ، وفى ١٠ نوفمبر أمر هتلر بإقامة رأس جسر فى تونس .

وكانت الظروف العسكرية والسياسية فى صف اتخاذ مثل هذه الخطوة . فأولاً وقبل كل شيء قام الحلفاء بالنزول فى مراكش والجزائر ، ولكنهم تركوا تونس ، ١٤ أطلال أمد القتال فى شمال إفريقيا لعدة أشهر . حقيقة إن قنصل الولايات المتحدة العام دوليتل Dolittle بلغ المقيمة الفرنسية فى تونس (الساعة الثانية من صبيحة يوم ٨ نوفمبر) برسالة الرئيس روزفلت الخاصة بنزول الحلفاء فى مراكش والجزائر ورأس بون وتونس ، إلا أن عمليات الإنزال لم تحدث فى الموضعين الأخيرين .

ومن ناحية أخرى نجد أن الإدارة الفرنسية - عسكرية ومدنية - لم تخطئ دون إقامة الألمان رأس جسر وتوسيعه . وفى نوفمبر وافقت فيشى على طيران السلاح الجوى الألمانى فوق فرنسا غير المحتلة وزودته بالمطارات . كما سمحت بنزول الطائرات الألمانية فى تونس وبوجود قوات إيطالية وألمانية فيها . وتمشياً مع أمر الحكومة الفرنسية سحب الجنرال جورج باريه Barré - القائد الفرنسى العام فى تونس - جيشه صوب الجنوب الغربى . وربما كانت قد أربكته الأوامر المتغيرة التى كانت ترد إليه باستمرار من فيشى والجزائر ، وكان متردداً فى اتخاذ قرار سابق لأوانه بصدد الانضمام إلى أى من الجانبين . وكان تعداد الجيش الفرنسى حوالى ٢٥٠٠٠ رجل فى تونس ؛ كان قسط كبير منهم من وحدات المستعمرات . وكانت قاعدة بنزرت البحرية ذات أهمية عسكرية عظيمة ، خاصة وأنها كانت

تحتوى على تحصينات ساحلية قوية وعدد من السفن الحربية . وبعد انسحاب قوات الجنرال باريه احتلت هذه القاعدة قوات بحرية فرنسية يقودها الأميرال دريان Derrien الذى كان مستعداً لأن يصدر أمراً بمحاربة الألمان فى الوقت الذى يسمع فيه بنزول قوات الحلفاء . ولكن المقيم العام الأميرال إستيفا أغراه بسحب الأمر . ومما تجدر ملاحظته أن الجنرالات الفرنسيين فى الجزائر لم يكونوا فى ذلك الوقت قد اتخذوا قراراً نهائياً بالانضمام إلى الحلفاء وفكروا فى احتمال البقاء على الحياد .

هذا هو الموقف حين وصلت الطائرات الألمانية التى يقودها الكولونل هارلنجهاوزن Harlinghausen إلى تونس فى ٩ نوفمبر فى الساعة الحادية عشرة مساء . وتلا ذلك وصول عدد آخر من الطائرات الألمانية والإيطالية بعد أيام قليلة : وجرى نقل منتظم للرجال والعتاد . ولكن تم ذلك قبل مرور شهر على أساس أن قوات المحور متفوقة على قوات فيشى .

وفى ١٥ نوفمبر وصل رودلف ران إلى تونس مصحوباً بمساعديه . وقد عينه ريبنتروب ممثلاً لوزارة الخارجية الألمانية فى شمالى إفريقيا تمشياً مع رغبة القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية وبموافقة هتلر . ولما كان توازن القوى فى غير صالح المحور ، فإن لهم ما كان يعنى « ران » فى الأيام القليلة الأولى هو الحيلولة دون وقوف قوات فيشى فى تونس ضد المحور . ولا شك أن آراءه الشخصية بهذا الصدد كانت أقل أهمية بكثير من سلطة حكومة فيشى . وتمشياً مع رغبة « ران » تدخل « لافال » عدة مرات حين ساءت العلاقات بين جيش الاحتلال والسلطات الفرنسية . لهذا كان أهم ما يهم « ران » تعزيز ولاء الموظفين المحليين للحكومة فيشى التى كانت فى تلك الأثناء قد فقدت ما تبقى لها من سيادة . وكان مهتماً بدفع السلطات الفرنسية الرئيسية فى تونس — وبخاصة الأميرال إسيثفاودوريان — إلى إعلان ولائها .

الأميرال إستيفا

ويبدو أن المبعوث الألماني لم يلق صعوبات كبيرة في مهمته هذه . فقد كان الأميرال إستيفا - المقيم الفرنسي العام في تونس منذ يولية ١٩٤٠ ، وكان قد تخطى مرحلة الشباب - رجلاً ضعيفاً يعاني من الضغط وموالياً لبنان . ورغم ذلك فقد كان لدى المحور الكثير مما يؤاخذ عليه . والواقع أن الألمان كانوا يميلون إلى التخلص منه أو على الأقل يتجهون إلى إضعاف صلاحياته في الأيام الأولى التالية لإقامة رأس الجسر^(١) - ولكنهم لم يوافقوا فيما بعد على اقتراح لافال بهذا الصدد . ونحن نستنتج من رسائل ممثلي ألمانيا في تونس ، وهو ما كشفت عنه محاكمات ليون (١٢ - ١٥ مارس ١٩٤٥) ، أن إستيفا كان محدود الأفق إلى حد كبير ، ولا يهتم كثيراً بمصير الحرب بقدر اهتمامه بالمحافظة على سلطة فرنسا في البلاد الذي كلف بمحكمه .

وبطبيعة الحال نجد أن احتلال المحور قد أثر في مركز فرنسا في تونس ، ومن ناحية أخرى نجد أن الألمان قد صمموا على المحافظة على الأحوال القائمة طالما الحرب مستمرة ، ورغم أنهم كانوا قد وعدوا مرسوليني بتونس بعد انتهاء الحرب وإحراز النصر . لهذا كان بإمكان « ران » أن يطمئن الأميرال إستيفا على عدم استمرار الحكم الفرنسي طويلاً . وفي أعلى المستويات نجد أن هتلر عرض على بنان الدفاع المشترك عن الإمبراطورية الفرنسية في شمال إفريقيا ، وبذلك استبعد احتمال حدوث تغييرات سياسية مباشرة . وكانت مثل هذه التأكيدات والوعود ضرورية لإنقاذ ولاء موظفي فرنسا في شمال إفريقيا ، وهو الولاء الذي كان في طريقه إلى الزوال ، وإضعاف المقاومة للغزو المحوري . وقد حدد هذا الاتجاه النشاط السياسي الألماني في تونس ، ورغم أن أهم مالفات النازيون نظر الموظفين الفرنسيين إليه هو خطر القمع والفرز المتزايد في فرنسا من الردع بسبب

(١) اقترح ران نذب الجنرال دنتر - الذي كان يعمل معه في سوريا - إلى تونس ، ولكن دنتر رفض ذلك .

عدم إخلاص الجهاز الاستعماري الفرنسي في إفريقيا .
 ولم يتوقع المقيم الفرنسي العام بتاناً أن تبدى القوات المحورية أى مقاومة .
 كما أنه لم يكن من بين الداسة المنادين « بالفكرة الأوروبية » من ربطاً مستقبل
 بلادهم بانتصار الريخ النازى . ومن المحتمل أن إستيفاً لم يتوقع نصراً محورياً -
 وقد كتب عنه ران ما يلى : « . . . إنه يحاول باستمرار ، بسلبيته واحتجاجاته فى
 مناسبات مختلفة ، أن يجد لنفسه مخرجاً فى حالة تقدم الأمريكان » . وقد وافق
 المقيم العام على أن يقدم بالفعل كل ما يطلبه الألمان من خدمات ، ولكنه لم
 يبد أى مبادرة ، أو على الأقل كان باستمرار لا يصل إلى مستوى المطالب النازية .
 وكان كثير من الموظفين الفرنسيين يمتنون ألمانيا ، أو كانوا يصارحون بديجوليينهم
 وأحياناً ما لجئوا إلى التخريب^(١) . وكثيراً ما تجنب إستيفاً ذاته اتخاذ قرارات
 غير مناسبة ، وفى كثير من الأحيان أغض عينيه عن اتباع الموظفين والعسكريين
 سياسة ذات وجهين . وفى ١٣ نوفمبر أطلق سراح كثير من المسجونين السياسيين
 - ديغوليين وشيوعيين - وسمح لهم بالرحيل إلى الجزائر . وكان قبل ذلك قد أمر
 بإخراج عربات السكك الحديدية والقاطرات من تونس وتدمير محطة الإذاعة .
 وقد صدرت هذه الأوامر حين وصلت إلى إستيفاً أنباء نزول الطائرات الألمانية فى
 مطار العوينة بالقرب من تونس . ويتضح من هذه الإجراءات أن إستيفاً لم يكن
 فى نيته أن يقدم للمحور مساندته التامة ، فى الوقت الذى لم يكن فيه مستعداً
 للاعتراض على احتلال البلاد .

احتلال بنزرت

كان لا يزال بالإمكان أن تبدى قوات المحور المسلحة فى تونس مقاومة لبعض
 الوقت . ونشهد على هذا على الأقل قصة بنزرت التى جعلت القيادة الألمانية تعيش
 فى قلق مستمر . فى أواخر نوفمبر ١٩٤٢ أمر الفيلد مرشال كسلانج - القائد

(١) انظر Dusseldorf, 1149 p. 205 (حياة قلقة) Rahn, Ruheloses Leben
 « يعلم من عاشوا فى فرنسا فى أثناء الحرب أن بإمكان بيروقراطية مصممة على المقاومة أن تحول الحياة إلى
 جحيم ، على حين أنهم يصطنعون منتهى اللباقة فى تحليل سلوكهم بالحاجة إلى تنفيذ مهامهم » .

العام للجبهة الجنوبية - باتخاذ إجراءات أمن في قاعدة بنزرت العسكرية للحيلولة دون انضمام القوات الفرنسية والوحدات البحرية الفرنسية المعسكرة هناك إلى الحلفاء . وكان مرجع هذا الأمر ما كان من توقع الاستيلاء بالقوة على القاعدة وبطاريات السواحل . ولكن الأميرال فايشهولد Weichhold كان لا يزال يرى استحالة القيام بذلك بسبب عدم مواتاة توازن القوى . وكان المحور يخشى أن تنفصل حامية بنزرت عن حكومة فيشي . وكان بالإمكان أن يكون مثل هذا التطور قرب آخر نوفمبر شديد الخطورة بالنسبة إلى المحور ، لأن قوات الحلفاء كانت قد وصلت إلى المناطق المجاورة لتونس مباشرة ، وكان « ران » بالفعل قد أرسل موظفيه إلى نابولي ومعهم أجهزة لإرسال ومواد شفرة . ولم تعزز قوات المحور مراكزها إلا في أوائل ديسمبر . ولكن بعض الدوائر الألمانية كانت تعتقد حتى ذلك الوقت أن بإمكانها إقناع القوات الفرنسية بإخلاء بنزرت طوعاً واختياراً في مقابل إطلاق سراح ما بين ٣٠.٠٠٠ و ٥٠.٠٠٠ أسير فرنسي^(١) . وفي هذه الحالة كان بالإمكان أن تخرج لألمانيا السفن بالحربية والتجارية الراسية في بنزرت . وبحلول ٨ ديسمبر شعر النازيون بأنهم من القوة بحيث يمكنهم توجيه إنذار إلى الجنرال دريان بوجوب تسليمهم السفن والبطاريات وكل تسهيلات الميناء والعتاد الحربي على أحسن وجه . وكان الألمان يخشون أن يواجه أسطول بنزرت نفس المصير الذي واجهه أسطول طولون الذي تركه الفرنسيون ولم يسلموه إلى الألمان .

لهذا ضمنوا الإنذار التهديد بتدمير السفن والبطاريات والمعسكرات الحربية بل بالقضاء على كل الحامية في حالة المقاومة أو إتلاف أو إغراق أى سفينة . وسلم الأميرال إدريان^(٢) . وهكذا وقعت في أيدي الألمان كل بطاريات السواحل والمدفعية والترسانة وثلاث سفن مطورريد ومدمرة وتسع غواصات وسفینتا استطلاع وسرح عشرة آلاف جندي منهم ٧.٠٠٠ من جنود المستعمرات . ولكن مما له

(١) اتخذ كسلفنج هذه الخطوة يسانده ران الذي أرسل أوثق معاونيه - موهارزن - إلى برلين ليعرض وجهة النظر هذه . وأبدى روميل معارضة شديدة للأخذ بمثل هذا الحل .

G. London, L'Amiral Estéva et le Général Dentz, . . . etc, pp. 17-18.

(٢)

وقد جاء في الاتهام الذي وجه إلى إستيفا ، أن الإنذار قد تم توجيهه يوم ٩ ديسمبر .

مغزاه أن القيادة المحورية لم يكن لديها - بعد هذا التسريح - جنود يكفون لحراسة المنشآت العسكرية في بنزرت وتونس .

مشكلة المؤخرة !

وهكذا لم يكن باستطاعة المحور سوى استكمال احتلال رأس الجسر التونسي في ٩ ديسمبر . وفي ذلك اليوم تولى القيادة العامة في تونس الجنرال إرن أرنييم بدلا من الجنرال نبرنج Nehring . وكانت ثمة نقطة ضعف هامة في وضع المحور هي عدم وجود مؤخرة منظمة . وقد سبق أن رأينا أن المقيم الفرنسي العام كان سلبياً وأن الإدارة الفرنسية أحيانا ما أبدت بعض المقاومة وأن السكان كانوا ينتظرون انتظارا سلبياً - تغييراً في الموقف الحربى من يوم إلى آخر . وبتزايد عدد قوات المحور وتسريح كل القوات الفرنسية كان مقيصاً لشكامة خدمة جيش الاحتلال أن تتطلب حلا عاجلا . فقد كان من اللازم استدامة وحراسة التشكيلات العسكرية ، وتنظيم شحن ونقل التعزيزات والمؤن وبناء منشآت عسكرية وتحصينات - إلى غير ذلك . كما كان من الضرورى جمع معلومات عن مواقع وتحركات قوات الحلفاء والتأكد من فعالية الهيئات المضادة للجاسوسية وأن يخصص للوحدات مرشدو ميدان - إلى غير ذلك . وأصبح الموقف أكثر صعوبة بسبب الدمار الذى تسبب فيه قيام الحلفاء بعمليات القذف . وهكذا فما حلت أواسط ديسمبر حتى خوف « ران » رؤساءه من خطر الفوضى الناتجة عن نقص الطعام وفرار السكان من المدن . وقد كتب أنه لا يوجد ما يكفى من الناس المدفن المرنى ورعاية الجرحى ، وأن ثمة مجاعة وخطر نفشى الأوبئة ، وأن قوات المحور من الضعف بحيث لا تستطيع إيقاف تدفق اللاجئين أو المحافظة على النظام .

ما هي القوات التى كانت فى وضع يمكنها من التعاون مع ساططات المحور لتنظيم المؤخرة وتنفيذ المهام السابق ذكرها ؟ كانت توجد فى تونس ثلاث مجموعات أساسية كان من الممكن أن تكون على جانب من الأهمية : الفرنسيون (أى الإدارة

والسكان المدنيين) والإيطاليون الذين كان بالبلاد عدد كبير منهم ، والعرب الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة والذين كانت لهم قياذتهم الخاصة المستندة إلى باى تونس ، المنتصف ، وبلاطه وحزب الدستور الجديد :

وكان أبسط وأنجح طريقة بالنسبة إلى المحور هي الاعتماد على الفرنسيين الذين كانوا يباشرون بعض السلطة وكانت لهم خبرة بحكم تونس . وكان من الممكن أن يؤدي نقل هذه السلطة إلى الإيطاليين أو العرب إلى نتائج سيئة بالنسبة إلى الألمان ليس فقط في تونس بل في فرنسا كذلك - إذ كان من شأنه أن يثير السخط لدى أنصار التعاون ، وأن يؤدي في تونس - على الأقل بصفة مؤقتة - إلى إضعاف مساندة المدنيين لرأس الحسر .

المتعاونون المتطرفون

ويوجد الألمان أن من المستحسن الإبقاء على الإدارة الفرنسية والمطالبة بالتعاون باسم « الفكرة الأوروبية » . وقد رأوا أن هذه الطريقة تمكنهم من استخدام أنصار بتان بمعنى الكلمة ، وكذلك العناصر الفاشية المتطرفة ، كما كان من الممكن توقع إبداء أنصار دوريو Doriot أو درنان Darnand حماسة للحرب وعطفاً على الألمان يفوقان ما يبدية أنصار المرشال العجوز المحافظون . كما كان بإمكان هؤلاء الأشخاص أن يقوموا بالرقابة على الإدارة التي اتهمها الألمان بالسلبية وعدم الإخلاص .

ولهذا السبب ساند الحكام النازيون تجمعات من أمثال الهيئات التالية التابعة لدوريو : « رفقاء فرنسا Compagnons de la France » ^(١) و « معامل الشباب Chantiers de la Jeunesse » ^(٢) و « هيئة حملة جوقة الشرف Service d'ordre Legionnaire » ^(٣) .

(١) منظمة شباب ترعاها فيشي .

(٢) معسكرات شباب في فرنسا التابعة لحكومة فيشي كانت تقوم مقام الخدمة العسكرية .

(٣) ساعدت « كتية الأمن العام » التابعة « لفرقة المحاربين والمتطوعين الفرنسيين » ، وهي منظمة واسعة النطاق كانت متعاونة مع الألمان ، حكومة فيشي وسلطات الاحتلال رسمياً على محاربة حركة المقاومة .

وكان المدعو جاك جلبو Gilbaud ، وهو من المتعاونين المتطرفين ، بضطلع بدور هام في تنفيذ خطط المحور بهذا الصدد - وقد أرسله إلى تونس وزير دعاية فيشي - ماريون Marion - الذي كان قد ارتد عن الشيوعية مثله في ذلك مثل دوريو وجلبو^(١) . وقد وصل إلى تونس في ٢٣ نوفمبر ، وفي الحال باشر نشاطه . ومن الأعمال التي قام بها جلبو توحيد عدد من منظمات الشباب في جبهة مشتركة تحت اسم لجنة توحيد العمل الثوري التي كان يتولى قيادتها . وقد أنشأت مجموعة المتعاونين المتطرفين قوة بوليس احتياطي تعاونت مع البوليس الرسمي الذي كانت العناصر المعادية للألمانيا تتمتع فيه بنفوذ عظيم . وقد استرل المتعاونون على محطة إذاعة صغيرة ومجلة أسبوعية « جورتال تونس » ، ووضعوا الخطط لإنشاء فرقهم الخاصة التي كان من المتوخى أن تحارب الحلفاء تحت قيادة الألمان ، كما خدم أعضاؤها الألمان في مناسبات أخرى متعددة . وبعد احتلال بنزرت قاموا بدعاية واسعة النطاق ، محاولين أن يخففوا وقع الصدمة العامة وإضعاف إرادة النضال . وحاربوا حركة المقاومة ومخابرات الحلفاء وباشروا الضغط على المقيمة العامة . وأهم من هذا كله أنهم ساعدوا الألمان على أن يطهروا جهاز الإدارة التونسية من كل الموظفين (بما فيهم كبار الموظفين) الذين لم يحوزوا رضی المحتل النازي لسبب أو آخر .

وهكذا ساعد الألمان على إنشاء مركز فرنسي - كان ينافس المقيمة - وكان الهدف من ذلك هو توفير فرصة لإثارة الخلاف والإفادة منه . وكان الألمان يريدون أن يخلعوا على هذا الموقف صفة الشرعية - وبناء على طلب « ران » ، حاولت سلطات الاحتلال في ديسمبر أن تحصل من حكومة فيشي على أوسع صلاحيات ممكنة لجلبو . وكان هذا في البداية يتضمن سلطة توجيه الصحافة والإذاعة والمنظمات السابق ذكرها ، بالإضافة إلى جعله ممثلاً مباشراً لحكومة فيشي ومسئولاً أمامها . وكان من شأن هذا أن يخلع عليه وضعاً رسمياً مستقلاً عن المقيمة . وبالفعل حصل جلبو على هذا التفويض الذي كان يتمشى مع مهمته التابعة

(١) عرض دوريو أن يساعد قوات المحور في تونس ، حيث كان يوجد تنظيم تابع له .

لوزارة الدعاية . ولكن التفويض لم يكن في الواقع كافياً بالنسبة إلى النشاط الواسع الذي توسع بحلى يد هذا الرجل ولجنة العمل الثورى الموحد التى أنشأها . وهذا هو السبب الذى دعا الألمان - بالإضافة إلى ذلك - إلى اقتراح وجوب تعيينه قوميسيراً مدنيّاً له صلاحيات الإشراف على الإدارة الفرنسية وحقّ اعتماد التقارير التى يرسلها الأميرال إستيفا إلى حكومة فيشى .

وهكذا كان يمكنهم عن طريق جلبو وأعوانه النازيين أن يحصلوا على الإشراف الكامل على الأجهزة الحكومية فى تونس التى بدون ذلك تصبح بعيدة عن متناول أيديهم . وكان الألمان مهتمين بوجه خاص بالإشراف على وسائل الاتصال بين السلطات الفرنسية فى تونس وحكومة فيشى .

ولكن لم يقيض لهذا المشروع أن يخرج إلى حيز التنفيذ . حقيقة أن لافال وافق على الفكرة الأساسية الخاصة بتعيين مندوب (قوميسير) مدنى للدولة ، إلا أنه اقترح خلع هذه الوظيفة على رجله البروفسور دفنان Devinant الذى كان من الواضح أن بإمكانه أن يخلف الأميرال إستيفا باعتباره موظفاً ذا خبرة بشئون المستعمرات . ولكن الألمان لم يوافقوا على ذلك ، لأنهم لا يرغبون فى وجود رجل من هذا النوع فى تونس . وقدم ران الاعتراض التالى :

« إننى أنصح بصورة مطلقة بعدم إرسال « دفنان » إلى تونس . فن واجبنا أن نتجنب وجود رجل نشط هنا ، يبقى فيه « لافال » وله وحده خبرة بشئون المستعمرات لأن بإمكان مثل هذا الشخص أن يدافع عن وجهة النظر الفرنسية بصلاحيات أكبر ضدنا وضد الإيطاليين بوجه خاص . . . ورغم ذكاء جلبو ونشاطه ، إلا أنه مشغول كثيراً بالأيدولوجية الأوروبية الخاصة باتباع سياسة فرنسية صرفة هنا ، وهو مالا شك سيقوم به دفنان » .

ولم يكن الألمان مهتمين بتعيين قوميسير مدنى وإنشاء مركز حكوى فرنسى إضافى ، بل بتدعيم مركز جلبو الذى كان ران يعده أداة ألمانية نافعة بإمكانها إضعاف مركز فرنسا فى تونس بشكل منتظم . فثلاثهم جلبو التلميذ الألمانى وامتنع عن التحدث عن حقوق فرنسا فى تونس . وكانت بلخته الخاصة بالعمل الثورى الموحد أكثر

خضوعاً للألمان بكثير من فيشي لافال^(١). وكانت نتيجة كل هذه المسألة عدم ندب البروفسور دفنان إلى تونس .

الإدارة الفرنسية

دفع الألمان جماهير المدنيين إلى التعاون بالمساعدة المباشرة التي قدموها للإدارة الفرنسية . وتنفيذاً لطلب الألمان جرت التعبئة في الخدمات العامة : الغاز ومستودعات المياه ومحطات توليد الكهرباء والمخابز والساحانات وغير ذلك . وأعدت خدمة عامة خاصة بمكافحة الأوبئة . وبقي الأميرال دريان في بنزرت المحتلة تلبية لطلب القيادة الألمانية التي رأت أن خدمات الميناء لا يمكن أن تستمر بصورة مرضية بدونه (وكانت هذه المسألة هامة جداً بالنسبة إلى جيش كان يصله جزء من تموينه عن طريق البحر) . وعملت مجموعة صغيرة من الضباط الموالين لحكومة لافال مع دريان .

ولعبت الإدارة الفرنسية دوراً هاماً في حشد العمال لبناء التحصينات في رأس الجسر التونسي . وبالاتفاق مع كسلرنج أصدر الجنرال نيرنج في ٦ ديسمبر أمراً بتعبئة الناس في الأراضي المحتلة لبناء التحصينات . وجرى اهتمام خاص بتعبئة اليهود للقيام بذلك العمل . فأرغم زعماء الطائفة اليهودية على إعداد مجموعات عمل : وكان من الواجب تحديد أفراد في كل مجموعة ليتولوا المشاورية عن التعاون مع السلطات الألمانية وليقوموا بتنفيذ الأوامر . وطبقاً لأمر نيرنج كان يجب أن يعامل أمثال هؤلاء الأشخاص باعتبارهم رهائن . وكان على الطوائف اليهودية أن تقوم بتقديم الطعام والأدوات لمجموعات العمل اليهودية بعكس المجموعات الأخرى التي لم يكن عليها أن تقوم بذلك . وعلى حين أن رجال المجموعات الأخرى كانوا يقبضون بعض الأجور ، إلا أن اليهود أرغموا على العمل في مقابل لا شيء . واستجابة لطلب روما أعنى اليهود من رعايا إيطاليا من هذه السخرة . كما فرض الألمان جزية خاصة على اليهود قيمتها ٥٠ مايرن فرنك بمثابة تعويض عن الغارات

(١) كتب ران مايل : « إذا ما واصلت المقيمة الادعاء بحقها في الاتصال المباشر بفيشي عن طريق الشفرة ، فن المحتمل أن تندد بمساعدة جلبوا الثمينة جداً بالنسبة إلينا » .

الجوية ، دفع معظمها للعرب .

وحين تقلص رأس الجسر التونسي بحلول أواخر مارس ١٩٤٣ ، اتجه الألمان إلى فرض العمل الإجبارى على الفرنسيين من مختلف الأعمار . وطبقاً لمرسوم أصدرته سلطات الاحتلال ، أصدر إستيفا أمره بتعبئة ثلاث مجموعات من أعمار مختلفة فى ١٢ أبريل . وكان من المتوخى أن تقوم المقيمة العامة بتمويل العمل ، وتم تجنيد وحدة صف الضباط التابعين للقوات الفرنسية الميكانيكية من هيئة حملة جوة الشرف . وكان التنفيذ الفنى تحت إشراف الجيش الألمانى ومكتب العمل ، على حين كانت لجنة وحدة العمل الثورى مسئولة عن توجيه وتنفيذ الدعاية الخاصة بالتعبئة .

تنظيم الفصائل الفرنسية

تعهدت حكومة لافال ، كما تعهد المتعاونون الفرنسيون ، بإنشاء كتائب الحلفاء . وكان الجيش الفرنسى فى فرنسا ذاتها قد تم تسريحه بعد أن احتلت القوات الألمانية المنظمة غير المحتلة . ولم تبق سوى قوة صغيرة للمحافظة على النظام . وحدث ذلك أيضاً فى تونس بعد إجلاء قوات الجنرال باريه واحتلال بنزرت . ووضعت شخطة لإنشاء طابور (فالانج) لإفريقي يتكون من فرقة واحدة ، يقوم الألمان بتجهيزه وتدريبه والإشراف عليه^(١) - وحينئذ أنشئ التشكيل المحارب الوحيد التابع لفيشى إلى جانب « الفرقة المعادية للبلشفيك » .

وفى ديسمبر ١٩٤٢ وصلت إلى تونس مجموعة من الضباط الفرنسيين الذين كان من المتوخى أن يشكلوا بعثة عسكرية فرنسية ملحقة بقيادة المحور . وقد عهدت فيشى إلى هذه البعثة من حيث المبدأ بمهام واسعة : كان على أعضائها أن يخدموا باعتبارهم ضباطاً فى وحدات موالية لفيشى ، وأن يؤثرؤا على الفصائل المتذبذبة وتلك التى انضمت إلى الحلفاء . كما كان عليهم أن يرسلوا مبعوثين إلى قوات الجنرال باريه وأن يجتذبوا إلى الوحدات المقاتلة فرنسيين وعرباً من سكان

(١) تم الاتفاق على هذه المسائل فى أثناء محادثة جرت بين لافال وهتلر فى ديسمبر ١٩٤٢ .

البلاد . ونتيجة للتسريح الذي جرى بعد احتلال بنزرت تلاشت معظم هذه المهام . ولكن كان لا يزال بالإمكان إرسال مندوبين للاتصال بأسرى الحرب الفرنسيين وإنشاء وحدات محاربة في تونس . وكان أهم ما يعنى الألمان فيما يتعلق بإعداد مثل هذه الوحدات إضعاف الروح المعنوية في الوحدات الفرنسية التي كانت تقاوم إلى جانب الحلفاء . وأصبح أحد الضباط الذين وصلوا حديثاً - واسمه جونشاي du Jonchay مديراً مؤقتاً لمكتب المقيم العام (في ٥ يناير ١٩٤٣) .

وفي البداية رأس عملية التطوع اللفتنان كولوئل كرسستوفيني Cristofini ولكن محل محله ، بعد أن جرح ، رئيس الفصيلة كورنييه Curnier . وكان هذان الضابطان على التوالي رئيسي البعثة العسكرية الفرنسية الملحقه بقيادة المحور في تونس .

ولم تتمخض عملية التجنيد إلا عن نتائج متواضعة جداً . فقد فضل معظم الأشخاص الصالحين الانضمام إلى الميليشيا المسلحة التابعة لمنظمات المتعاونين وبخاصة حين تلقت هيئة حماة جوقه الشرف إذن الجنرال فون أرنيم (في ١٢ ديسمبر) بإنشاء وحدات حرس وكتائب عمل وتزويدها بالهيئات اللازمة : فقد فضلوا حراسة المباني المختلفة والقيام بدوريات في الشوارع والإشراف على تصاريح الاتجار في التبغ أو آثروا العمل في معسكرات « معامل الشباب » . وقد أصدرت السلطات الألمانية أمراً بعدم القيام بدعاية واسعة النطاق للانضمام إلى الوحدات المحاربة .

وفي أول يناير ١٩٤٣ سمحت القيادة الألمانية بإنشاء فصيلة من المتطوعين في تونس للاشتراك في الحرب على الجبهة ، ووعدوا باحتمال سماحهم في المستقبل بتشكيل فصيلة محاربة جديدة ، بل بأن يحضروا من فرنسا وحدة متطوعة أكبر من ذلك . وفي شهر يناير أعدت فصيلة تتكون من ١٥٠ رجلاً وأرسلت إلى معسكر التدريب . وبدأ تشكيل فصيلة ثانية ، وجمعت عدة كتائب عمل للمنشآت العسكرية . وقد كتب الكولوئل جونشاي إلى لاغال أن « هؤلاء الجنود ، باستثناءات قليلة ، ويجنون من المغامرين وأخط الفئات الاجتماعية »^(١) . وحين صدرت أوامر الألمان

(١) تقرير جونشاي إل لاغال : Situation Générale en Tunisie, Feb. 3, 1943

وتحولوا إلى تشكيلات من المتطوعين العرب (١٣ فبراير ١٩٤٣) لم يبق في كل من
الفصيلتين سوى ١٠٠ من الفرنسيين . وبالتالي استلزم تشكيل فصيلة المتطوعين
الأولى وقتاً طويلاً . ولم يتم إعدادها إلا في أواسط مارس حين أقسم ٢٠٦ رجل
يمين الإخلاص لبثان ولافال ، وقد جرى ذلك بعد التعاون الوثيق الذي أبدته
المنظمات المتعاونة مع الألمان ، وبخاصة هيئة حملة جوقة الشرف . وتوجهت هذه
الفصيلة إلى الجبهة في أوائل إبريل . وحينئذ بدأت البعثة العسكرية إعداد فصيلة
أخرى ، وأتمت إعداد كتيبة من الرواد ، وقد حصلت هذه الفصائل الفرنسية على
الصليب الحديدي من الدرجة الثانية يوم عيد ميلاد هتلر .

وفي هذه المرة قدم المتعاونون خدمات لسلطات النازي التي لم تقدم لهم شيئاً
في مقابل ذلك . فمن الصعب أن نطلق على التنازلات التي قدمها الألمان اسم «الجانب
المضاد» - كتسليمهم إلى السلطات الفرنسية أشخاصاً اكتشف الفرنسيون أنهم
يعملون مع الحلفاء ، أو إطلاق سراح أسرى الحرب الفرنسيين ونقلهم إلى فرنسا^(١) .
وتخلص الألمان من الموظفين الفرنسيين الذين لم يرضوا عنهم ، بالطريقة نفسها - أي
بإرسالهم إلى فرنسا . وجاءت المبادرة في هذه التنازلات المزعومة من الألمان الذين
كانت لديهم أهداف محددة : كمكافحة أعمال الجاسوسية التي كان يقوم بها
الحلفاء ، والتأثير على الفرنسيين الذين كانوا يحاربون مع الحلفاء لكي يهربوا
أو يسلموا بصفقتهم أسرى - إلى غير ذلك^(٢) .

= (١٣٠٤/٣٤٦٣٠٥ - ٨) . لم يتوقع جوشاي أن يقع التقرير في أيدي الألمان . وقد حمل كرسطوف
مسئولية نتائج التبعية ، واتهمه باتخاذ موقف سلبي من الجنود السابقين في الجيش النظامي .
(١) استنلت صحافة فيشي في فرنسا إطلاق سراح الأسرى وإعادتهم إلى أوطانهم ، واعتبرته دليلاً على
« سموفس الفهور » .

(٢) يذكر ران (المرجع السابق ، ص ٢٠٨) أن الخطوة الأولى في مسألة إطلاق سراح أسرى
الحرب أتت من جليو ، وأنه بهذه الطريقة قدم خدمة لوطنه - بأضيق معاني الكلمة « أي فرنسا لا
الوطن الأوروبي الكبير » . وكتب ران في مذكراته : « وقد دهشت جداً حين قبلت القيادة الألمانية ذلك
الاتراح » . ورأت المحكمة الفرنسية العليا أن نداء الأميرال إستيفا إلى الفرنسيين المحاربين ، الذي ذكر
لمرة فيه الوعود الألمانية في صالح الحلفاء ، وأنه إجراء يتضمن عملاً يستحق العقاب . (لندن ، المرجع
السابق ص ٣١ - ٣٢) .

وسنرى أن خضوع الإدارة الفرنسية والمساعدة الفعالة التي قدمها المتعاونون لم يحوّلا دون ضعفة الحكم الفرنسي في تونس بصورة منتظمة ، برغم أننا يجب أن نقر أنهم التزموا في تحقيق أهدافهم بحدود معينة سبق تحديدها .

أطماع الإيطاليين في تونس

وعند هذه المرحلة نجد أن لابد من الانتقال إلى الدور الذي لعبته إيطاليا في أثناء احتلال تونس . وكما كان الحال بالنسبة إلى الفرنسيين كانت الجالية الإيطالية الكبيرة في تونس على جانب كبير من الأهمية . هذا بالإضافة إلى القوات المسلحة والممثلين السياسيين والزعماء الحكوميين . وفي فترة ما بين الحربين تم دفع الجالية الإيطالية بطرق عدة إلى الاشتراك في الحملة السياسية والدعائية الفاشستية لتقوية نفوذ نظام موسوليني في البحر المتوسط وضم تونس في نهاية الأمر .

وبعد نزول قوات المحور اقترح الجنرالات الإيطاليون القيام بتعبئة مباشرة للسكان الإيطاليين في تونس البالغ عددهم ٢٠,٠٠٠ ؛ ولكن لم يتم هذا لانعدام العتاد . على أن من المشكوك فيه ما إذا كان من الممكن القيام بذلك على أساس التطوع . فحين طلبت القيادة الألمانية من القنصل الإيطالي العام سلمباني Silimbani أن يعي الإيطاليين للعمل العسكري العاجل تقدم ما يقرب من ثمانين شخصاً . وحين اتجه الألمان إلى تعزيز البوليس الفرنسي قليل العدد الذي لم يستطع مواجهة الموقف المترتب على القذف بالقنابل وتنظيم قوة إيطالية احتياطية ، رأى القنصل العام أن القيام بذلك أمر مستحيل . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الحكومة الإيطالية ألقت العقوبات في وجه الإجراءات المعادية لليهود في تونس ، بأن طالبت بمعاملة استثنائية لرعاياها اليهود . وباستثناء بعض المظاهرات المتقطعة لا يوجد ما يدل على قيام المدنيين الإيطاليين بنشاط سياسي في تونس . ولم تصب جهود الحكومة الإيطالية في سنوات ما بين الحربين لتنشيط الجالية الإيطالية هناك وتحويلها إلى أداة لتنفيذ أطماع روما الاستعمارية نجاحاً كبيراً ، وفي أثناء الاحتلال المحوري لتونس فشلت الجالية الإيطالية في القيام بأي ضغط ، منظم أو تلقائي ، ضد الألمان بقصد مساندة المطالب الإيطالية الرسمية .

ولكن كان على الألمان أن يضعوا في اعتبارهم مطالب إيطاليا ، من الناحية الرسمية على الأقل . وكانت الرغبة في ضم تونس لفترة طويلة بنداً رئيسياً في برنامج إيطاليا التوسعي . فقد أدى فرض الحماية الفرنسية على تلك البلاد في عام ١٨٨١ إلى إغضاب الدوائر الحاكمة الإيطالية إلى حد كبير ، كما أنه لعب دوراً كبيراً في عقد التحالف بين إيطاليا وألمانيا والنمسا - المجر في عام ١٨٨٢ . واستقر في تونس عدد كبير من الإيطاليين خلال السنوات القليلة التالية . وتم الاعتراف بحقوق إيطاليا الخاصة في تلك البلاد بمقتضى اتفاق عام ١٨٩٦ واتفاقيات يناير ١٩٣٥ . حينئذ قامت فرنسا بتقديم تنازلات بعيدة المدى لإيطاليا في إفريقيا، وأعلنت أنها ليست لها مطامع في الحبشة^(١) - على سبيل المثال - في نظير وعد غامض من موسوليني بالتعاون مع فرنسا ضد ألمانيا النازية . أما فيما يتعلق بمسألة تونس فأهم ما احتوته هذه الاتفاقية نصوص تتصل برعوية الإيطاليين المقيمين هناك . وهكذا تقرر أن تبقى الإجراءات السابقة الخاصة ببقاء العلاقات بين الإيطاليين وبين وطنهم الأم فعالة حتى عام ١٩٤٥ . وكان من المتوخى أن يكون لأطفال الرعايا الإيطاليين المولودين في تونس في الفترة ما بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٦٥ حق اختيار جنسيتهم حين يصلون إلى سن الرشد ، كما كان من المتوخى أن يعترف بمن يولد لهم بعد عام ١٩٦٥ باعتبارهم مواطنين فرنسيين . وكان من المتوخى ألا تستولى سلطات التعليم الفرنسية على المدارس الإيطالية باعتبارها مدارس خاصة إلا بعد عام ١٩٥٥ . وكان من حق المواطنين والإيطاليين المسحوح لهم بممارسة

W.S. Asker, The Secret Agreement between France and Italy in Ethiopia, Jan. (١)

1985, Journal of Modern History, Vol. XXV, no. 1, pp. 47.48 & D.C. Watt, The Secret

Laval - Mussolini Agreement of 1935 on Ethiopia, Middle East Journal, 1961, pp. 69-78.

لم ينشر إلا جزء من الاتفاقية في عام ١٩٣٥ : التصريح العام ، المهادت الخاصة بالمنازعات بين فرنسا وإيطاليا في شمال إفريقيا ، بروتوكول خاص عن الأقلية الإيطالية في تونس ، واقتراح عقد ميثاق جماعي خاص بالدانوب يضم حدود النمسا المزمعة للتهديد . وقد نشره . س . وات الاتفاق الذي كان سرياً في ذلك الوقت : بروتوكول خاص بالمشاورة التي تم في حالة قيام ألمانيا من طرف واحد بإلغاء القيود التي فرضتها معاهدة فرساي على التسليح ، بروتوكول خاص بإبقاء الحالة القائمة فيما يتعلق بالتحصينات ، والمنشآت الحربية في منطقة باب المنذب والمراسلات الخاصة بمسألة النفوذ الاقتصادي في الحبشة وبسكة حديد أديس أبابا - جيبوتي ، وقد وجدت هذه الوثائق في أرشيف وزارة الخارجية الألمانية .

(Moo 3178, Moo 3183, Moo 7188, Moo 3191.3)

المهن الحرة حتى عام ١٩٤٥ أن يحافظوا على حقوقهم بقية حياتهم . وهكذا نجد أن اتفاقية ٧ يناير ١٩٣٥ أجلت لوقت طويل اندماج الأقلية الإيطالية في تونس . وكان لنجاح ألمانيا في تشيكوسلوفاكيا أثره على الإيطاليين ، فطالبوا منذ عام ١٩٣٨ بضم تونس وكورسيكا ونيس وسافوى . وقد سبق أن ذكرنا أنهم عادوا فتقدموا بهذه المطالب من جديد حين دخلوا الحرب ، فأصبحت جزءاً رسمياً من برنامج المحور الخاص بالتوسع الاستعماري . وفي نوفمبر ١٩٤٢ ظهرت قوات إيطالية في تونس ، وباشرت روما الضغط في سبيل مطالبها .

وضع إيطاليا في عامي ١٩٤٢ - ١٩٤٣

تأخر الجيش الإيطالي بضعة أيام - فقد نزلت الطائرات الألمانية الأولى في تونس في ليلة ٩ نوفمبر ، على حين وصلت القوات الإيطالية في ١٣ نوفمبر . ومن المعروف أن شمان إفريقيا كان يعتبر من الناحية الرسمية جبهة إيطالية ، ولكن كما حدث قبل ٢١ شهراً فيما يتعلق بروميل ، فكذا أصبح جنرال ألماني قائداً عاماً ، ولعبت القيادة العليا رقم - ٥ لجيش البانزر الدور الحاسم في تلك الجبهة . وكانت فعالية الفرق الإيطالية الثلاث أقل من فعالية الفرقتين المصنفتين الألمانيتين والفقة المصنفة من رجال المدفعية وفرنقي المشاة . كما كان الألمان متفوقين جواً .

وكان أحد موظفي وزارة الخارجية الألمانية هو الممثل الدبلوماسي الوحيد للمحور في تونس . ولم يكن للإيطاليين سوى ممثلين قنصليين . ولم يصل بومبييري Pombieri - الذي كان برتبة مبعوث - إلى تونس إلا في فبراير ليشغل وظيفة سلباني الذي اتهمه الألمان بالجنح . وكان على حكومة روما أن تقتصر في البداية على أن تطلب من الجنرال نيرنج أن يساعد القنصلية الإيطالية على رعاية مصالح الرعايا الإيطاليين . ويتضح من التعليقات الإيطالية أن روما كانت تتوقع من رعاياها أن يلعبوا دوراً هاماً في العمليات الحربية . وكان على سلباني أن يقيم علاقات وثيقة مع ممثلي ألمانيا ، ولم ينحول سوى صلاحيات محدودة جداً . وكان عليه أن ألمانيا المحتلة

يقنع بلور مستشار للقيادة الألمانية في المسائل الثانوية أو في حالات الضرورة ، وبالإضافة إلى ذلك كان لا يمكنه أن يعمل إلا بعد الاتفاق مع ممثلي ألمانيا . وقد واجه الإيطاليون صعوبات خطيرة في القيام باتصالات محلية بسبب الشكوك الفرنسية والعربية العميقة ، على حين رحب الألمان بالقيام بدور الوسيط ، والمحكمين في المنازعات التي كانت تنشب - مثلاً - بين الجنود الإيطاليين والمدنيين التونسيين . وهكذا لم يسيطر الألمان على تونس من الناحية العسكرية وحدها ، بل لأنهم سيطروا عليها كذلك من الناحية السياسية . وحاولت القيادة الألمانية أن تحدد حرية الإيطاليين في العمل في مسائل الإدارة الداخلية وتموينات الجيش وعمليات القبض وغير ذلك - مما أثار سخط القيادة الإيطالية بطبيعة الحال . وأحياناً ما وقف الألمان في وجه الإيطاليين والعرب دفاعاً عن الإدارة والبوليس الفرنسيين باعتبارهما القوات المحافظة على النظام في البلاد^(١) . وقد أدى عدم رضى الإيطاليين عن الأحوال في تونس إلى القيام بالتدخل الدبلوماسي عدة مرات لدى السفارة الألمانية في روما ولدى برلين^(٢) .

حينئذ تتبع القادة الألمان اتجاهات الإيطاليين السياسية بشيء من الخوف ، وخاصة ما يتعلق منها بالدوائر الحاكمة . وقد كتب موظف بسفارة برلين في مذكراته إلى السفير الإيطالي (١٦ نوفمبر) : « إنهم يدرسون هنا الموقف في إيطاليا باهتمام كبير . ويعتقد (الألمان) أن قدرة إيطاليا على المقاومة قد تضعف في اليوم الذي تتخلى فيه عن دور المركز بالنسبة إلى نظام الدفاع في حدود الريخ الجنوبية » . وكان الألمان يخشون أن يواجههم الإيطاليون بمفاجأة ما . وكان هذا الموقف يتطلب أكبر قدر من الاهتمام بالإيطاليين في تونس . وكان لدى ران تعليمات من رينتروب بهذا الصدد جاء فيها : « في كل المسائل السياسية التي تلوح في تونس لابد أن تكون الأولوية للإيطاليين ، وبدلاً من ذلك لابد أن نوجه نشاطنا السياسي الخاص

(١) حدث هذا - على سبيل المثال - بصدد حادثة وقعت في قصور الصف في ٢٣ مارس ١٩٤٣ حين أبدى الموظفون الإيطاليون رضاهم عن نشوب نزاع بين العرب والبوليس الفرنسي .

(٢) اعتقدت القيادة الإيطالية العليا وقصر شيبي أن الألمان لم يسمحوا باتخاذ قرارات بصدد المسائل السياسية في تونس . وقد صرح المركز داجيتا بذلك لقون بزمارك في ٦ و ٧ ديسمبر ١٩٤٢ . رينتروب إلى سفارة روما ، برلين في ١٤ ديسمبر ١٩٤٢ - ٩٧٥ / ٣٠٣٠٠٠ - (٢) .

إلى تطوير الموقف في الجزائر ومراكش . وصدرت من رييتروب تعليمات إلى السفارة الألمانية في روما - التي قدمت شكوى إيطاليا إلى برلين - بأن تلفت نظر الإيطاليين إلى أن ألمانيا تقوم ببحث كل رغباتهم المتعلقة بتونس .

انعقاد مؤتمر في روما

سبق أن عرضنا لما قاله رييتروب - ولكن إلى أى حد كان ذلك ينطبق على الواقع ؟ كانت روما تسعى إلى إقامة نظام احتلال إيطالي - ألماني في تونس ولهذا طلبت أن ينتزع المحور الإدارة بالتدرج . ومن هنا فلا بد أن الإيطاليين لم قد اعتبروا تعاون ران مع الهيئات الفاشية الفرنسية أمراً خطيراً ، بحكم أنهم كانوا مهتمين بضعضعة مركز فرنسا في تونس لإحلال نظام فرنسي محل آخر .

وتلبية لطلب إيطاليا عقد مؤتمر مشترك في قصر شيجي (٢ يناير ١٩٤٣) لبحث المسألة التونسية . وكان يمثل ألمانيا في هذا المؤتمر فون بزمارك ودورتنباخ نيابة عن سفارة الريخ في روما وموهاوزن باعتباره ممثلاً لران . وكان الجانب الإيطالي يضم فيتى الذى كان يرأس مجموعة من المسؤولين بوزارة الخارجية وممثلاً عن القنصلية الإيطالية العامة في تونس . ووفقاً لتعليمات فايزساكر تركت المبادرة للإيطاليين الذين اقترحوا جدول أعمال المؤتمر ، وجرت مناقشة مستفيضة جداً لمسألة علاقة المحور بالحكم الفرنسي في تونس .

وأصدر فايزساكر تعليماته بوجوب قبول موقف إيطاليا بصدد هذه المسألة وإجراء اتفاق حول ضرورة بقاء القطاعين السياسى والمدنى تحت النفوذ الألمانى - الإيطالى ، ولكن على أن يتم ذلك مع التحفظ الضرورى - ورأى ضرورة استغلال خبرة ران وسلمبانى - أى مواصلة العمل مع المنظرين من المتعاونين الفرنسيين .

وأدت هذه الروح إلى التوفيق بين وجهات النظر في مؤتمر روما . ووافق الإيطاليون على التعاون مع الفاشيين الفرنسيين ووعدوا بمساندة جلبو - وكانوا ، حتى قبل انعقاد المؤتمر ، قد وافقوا على أن يشكل ران خمس لجان فرنسية - إيطالية -

عربية^(١) يعهد إليها بالإشراف على فروع الإدارة التونسية المخصصة لكل منها . وفي خلال المحادثات تقدم الإيطاليون بالاقترح الخاص بالانفتيش على الجهاز الإداري بترقية إيطاليين إلى المناصب العليا أو بأن يحل موظفون إيطاليون على الفرنسيين جميعاً . ولكن الألمان رأوا استحالة تنفيذ ذلك ما دام الموقف العسكري لم يتغير تغييراً حاسماً لصالح المحور . لهذا بقي الجهاز الإداري كما هو . على أن الألمان قدموا تنازلات أكبر بكثير للإيطاليين فيما يتعلق بالمسائل العربية . وليس من قبيل الصدفة أن وجهات نظرهم الخاصة بهذه المسائل كانت تتشبه مع وجهات نظر الفرنسيين .

الدعاية الألمانية في المغرب

قبل أن ينزل الإنجليز والأمريكان في شمال إفريقيا لم يبد الألمان - من الوجهة العملية - أى اهتمام بعرب المغرب . وكانت حدود النشاط الألماني تقريباً تقع في نطاق دعاية تتصف بالحرص الشديد وحرصت على تجنب اللهجات القومية التي تؤدي إلى إغضاب روما ومدريد وفيشي ، وضم العملاء .. ولكن لم يكن بالإمكان استمرار هذه الخطة بعد نزول قوات الجنرال أيزنهاور ، ولما كانت الدعاية في ذلك الوقت موجهة إلى المناطق التي يدور فيها القتال أو التي تقع في المؤخرة المباشرة لقوات الحلفاء ، فقد ازداد اهتمام السلطات الألمانية - مدنية وعسكرية - في نوفمبر وديسمبر ١٩٤٢ بالدعاية الموجهة إلى المغرب إلى حد كبير . وأرسل إلى تونس « قطار » دعاية خاص يرأسه الميجر مهمنرت Mehnert . وقام الدكتور مجرى Megerle وقنصل ألمانيا في الجزائر آور Auer بوضع توجيهات دعائية جديدة . وقد تضمن هذا مجهوداً دعائياً ضخماً جديداً ، وإن بقيت طريقة التفكير كما هي . ولم تنعد الخطوط العريضة للإذاعات والنشرات القلب المعروف لهجمات النازيين على الحلفاء واليهود والباشفيك والماسونيين والجمية الشعبية . وتسرعى الحدود التي فرضها الألمان على دعايتهم الانتباه من وجهة النظر السياسية .

(١) سنتناول اللجان فيما يل .

فقد تقرر عدم القيام بدعاية بعيدة المدى وحذفت أية إشارة إلى مستقبل شمالي إفريقيا ، وأن يوضع في عين الاعتبار دائماً وقبل كل شيء الإبقاء على علاقات حسنة مع إيطاليا وعدم الإشارة إلى النزاع الإيطالي - الفرنسي . ووضعت خطة تقضى باستغلال كل تصريحات الحلفاء الخاصة بالاستقلال الوطني لبلدان المغرب في الإداعات الموجهة إلى الفرنسيين ؛ على حين كان من المتوخى أن يلفت نظر العرب إلى أنهم عرضة للخداع . وهكذا تشهد التوجيهات الإذاعية على أن الحكام الألمان لم يتخذوا أى قرارات سياسية جديدة حول مستقبل بلدان شمالي إفريقيا . وعلى أى حال فإن النازيين لم يهدفوا إلى استغلال القومية العربية في تونس والجزائر ومراكش . ولم تكذب خطط تقسيم المغرب بين إيطاليا وفرنسا تعتبر مادة مناسبة للدعاية^(١) .

وطالب العرب المتعاونون مع المحور بأن يذكر لعرب المغرب شيء إيجابي فيما يتعلق بمستقبل بلادهم . وقد أثبتت هذه المسألة في اجتماع عقده « اللجنة العربية » الخاصة بالدعاية . ولكن تقرر أن « المصالح الإقليمية لإسبانيا وفرنسا تستلزم الامتناع عن إثارة مستقبل منطقة شمالي إفريقيا السياسي » . وتوضح الحدود المربضة التي جرى اقتراحها في ذلك الاجتماع أنه كان من المتوخى أن تحل الدعاية المعادية للأمريكان دور الصدارة .

رسالة إلى الباي

بعد الاتفاق مع زعماء المحور أرسل مفتي القدس السابق : الحاج أمين الحسيني ، إلى باي تونس رسالة تنصف بالتحفظ الشديد والحذر . وقد بعث بها من روما حيث كان موجوداً في أثناء نزول الحلفاء في شمالي إفريقيا . وكانت

(١) انظر ما سبق عن ادعاءات إيطاليا في الأملاك الفرنسية في شمال إفريقيا . وفي بداية عام ١٩٤٢ وضعت وزارة الخارجية الألمانية خطة عامة لإعادة تقسيم إفريقيا بين ألمانيا وإيطاليا وفرنسا واتحد جنوب إفريقيا وإسبانيا والبرتغال - انظر :
خطة هتلر لتقسيم أفريقيا

الرسالة إلى حد ما نتيجة للمحادثة التي جرت بين المفتي وبعض المسؤولين الإيطاليين بشأن مسأله المغرب. وقد اتخذ الإيطاليون المبادرة السياسية حين طمأنوا الباي ، ليس فقط بسبب الخوف من دعاية الحلفاء ، بل لأنهم كانوا يريدون القضاء على الآمال التي يثيرها وصول القوات الألمانية لدى العرب. وقد عبر المفتي في الرسالة عن عطف المحور على العرب ، ووعد بالاعتراف بوضع الباي وحكومته من الناحيتين القانونية والسياسية . وكتب أن ألمانيا وإيطاليا فهمتا أمانى الأمة التونسية التي كانت ترغب في الحرية المدنية والدينية والتقدم الاقتصادي . وكان هذا بمثابة وعد ، جرت صياغته بحذر شديد ، بعدم تغيير أوضاع الحماية إلى أسوأ . ومن المؤكد أن الإشارة إلى الحرية المدنية والدينية والتقدم الاقتصادي لم تكن وعداً بالاستقلال. كما طلبت الرسالة المساعدة من القوات الفرنسية التي تحارب مع المحور ضد العدو الذي سيعنى انتصاره نجاحاً لليهودية والشيوعية . وبهذه الطريقة جرى تذكير الباي بالحرب الدائرة هناك . وتم تحذيره من معارضة الفرنسيين في تونس . وتدل الرسالة من جديد على موقف المحور ذي الوجهين في تونس .

وقد جرى تقديم الرسالة إلى الباي عن طريق مبعوث المفتي الخاص الذي وصل إلى المدينة حين عمها الملح بسبب تقدم قوات الحلفاء . وقد رجع إلى إيطاليا فوراً^(١).

اقترح المفتي

بارح المفتي روما إلى برلين بعد وقت قصير من نزول الحلفاء في إفريقيا. وفي ١٨ نوفمبر قدم مذكرة مستفيضة إلى القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية^(٢) ، كانت تحتوي على عدد من الاقتراحات الخاصة باستخدام عرب شمال إفريقيا لصالح المحور . وقد ذكر أن هذا لم يكن ممكناً من قبل بسبب خوف روما وبرلين

(١) لم نشر في وثائق وزارة الخارجية الألمانية إلا على المسودة الإيطالية لرسالة المفتي إلى باي تونس ، ولكن يتضح من النص الكامل أنه لم يكن باستطاعة الألمان إلا أن يجرروا تعديلات طفيفة في أحسن الأحوال .

(٢) مذكرة المفتي إلى القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٤٢ - ١٩٧٥ / ٣٠٣٠٢٩ - ٣٢ . وقد وصلت هذه الوثيقة إلى وزارة الخارجية الألمانية في أول ديسمبر ١٩٤٢ .

من احتمال انضمام حكومة فيشي إلى الحلفاء .

وقد تقدم الحاج أمين بالمقترحات الآتية : (١) احتلال تونس وإقامة منطقة دفاعية فيها ، (٢) تشكيل جيش تحرير مغربي من أسرى الحرب وعرب المغرب الذين يعملون في فرنسا ، ومن التونسيين وغير ذلك (وقد ذهب المفتي إلى أن هذا سيجعل بحيز الإمكان إنشاء جيش تعدادة نصف مليون) ، (٣) دعوة عرب شمالي إفريقيا العاملين في الجيش الفرنسي وكل عرب المغرب إلى الانضمام إلى جيش التحرير هذا ، (٤) إثارة ثورات القبائل في ظهر الحلفاء ، (٥) توجيه ذلك الجيش إلى جبهات أخرى بعد احتلال المغرب ، (٦) استعمال الوحدات العربية العاملة مع المحور في تونس ، (٧) إقامة مركز سرى في تطوان الإسبانية المحايدة لإقامة اتصالات مع أجزاء مختلفة من المغرب .

وصادفت المقترحات أرضاً خصبة . فلقد شعرت القيادة الألمانية بنقص خطير في الرجال ، ولكن من المشكوك فيه ما إذا كان لديها عتاد ووقت كافيان لإنشاء جيش عربي في شمالي إفريقيا . على أنه قد بدا أن القيام بمناورات تمويهية في مؤخرة قوات الحلفاء يشغل قوات بريطانية وأمريكية وفرنسية كبيرة أمر مستحب جداً . لهذا فقد كان هذا الجانب من مقترحات المفتي موضع قبول تام من جانب العسكريين الألمان . وقد ذكر كايتل - القائد العام للقوات المسلحة الألمانية - في رسالة له إلى وزارة الخارجية أن القيادة العليا ترى أن استدراج عرب شمالي إفريقيا إلى قتال القوات الأنجلو سكسونية ودفعها إلى القيام بالثورات أمر على جانب كبير من الأهمية . وفي ٨ ديسمبر اتصل كولونل وزارة الدفاع الألمانية لاهوزن شخصياً بوزارة الخارجية الألمانية بهذا الصدد . وفي اليوم التالي انعقد مؤتمر في منزل الحاج أمين الحسيني حضره الأميرال كاناريس والكولونل لاهوزن والميجر سوبيرت Seubert من رجال وزارة الدفاع الألمانية . وناقش المؤتمر مسألة الثورات العربية في المغرب . وفي ١٠ ديسمبر استقبل فايز ساكر المفتي ، وفي النهاية قدمت المقترحات لهتلر في مركز قيادته .

وقد تضمنت مقترحات المفتي دلالات سياسية هامة بالنسبة إلى وزارة الخارجية الألمانية ومركز قيادة الفوهرر . وتمشياً مع سياسة المفتي الخاصة بالظهور بمظهر

قائد كل العرب والعالم الإسلامي ، نجلده يتصل أكثر من مرة بالمحور بصدد مسائل المغرب ، وأحياناً ما كانت لديه مقترحات محددة . وذهب إلى أن المقصود من هذه المقترحات توفير الانسجام بين السياسة الألمانية والمحورية وبين حكومة فيشي ، بقصد الحصول على مساندة عرب شمال إفريقيا . ومن الواضح أنه لم يمكن تنفيذ المقترحات . وفي المذكرة التي بعث بها المفتي بتاريخ ١٨ نوفمبر ، اقترح عدداً من المطالب السياسية ، وذهب إلى أنها لاغنى عنها إذا ما كان لابد للمحور من الحصول على المزايا العسكرية الضرورية . فقد طالب مثلاً بتصريح يوضح مرامي المحور المحددة في البلدان العربية في شمال إفريقيا . وكان على المحور أن يعترف بحرية واستقلال هذه البلدان ، وأن يعقد معاهدات معها على نخط المعاهدة الإنجليزية - المصرية أو المعاهدة الإنجليزية - العراقية ، أي معاهدات تنص على سلامة القواعد العسكرية المحورية القائمة في أراضي دول المغرب . وكان من رأى الحسيني ضرورة البدء بتونس بإطلاق سراح رعاياها المسجونين في السجون الفرنسية . أما بالنسبة إلى الإيطاليين فقد اقترح المفتي إقامة علاقات مع تونس تستند إلى نفس المبادئ التي وضعها السير ستافورد كريبيس في عام ١٩٤٢ بصدد العلاقات الإنجليزية الهندية ، وهي المبادئ التي رفضها المؤتمر القومي الهندي .

وبإمكاننا أن نلاحظ بسهولة أن المفتي السابق لم يبتعد في الجوهر عن وجهة النظر التي أبداهها القوميون العرب المعتدلون في فترة ما بين الحربين ، مع الفارق الخاص بأنه كان على ألمانيا وإيطاليا الفاشيتين أن تلعبا الدور نفسه الذي لعبته الديمقراطيةان البرلمانيتان لإنجلترا وفرنسا . وكانت خططه تستوجب بقاء البلدان العربية في شمال إفريقيا غير مستقلة ، مع الاختلاف الوحيد الخاص بعدم إمكان استعمارها استعماراً كاملاً بشكل سافر مثل الجزائر وليبيا وفلسطين التي كانت تخضع حكماً مباشراً . ولكن لم يكن بإمكان المحور أن يطبق هذه الطريقة الخاصة بالحكم الاستعماري وذلك بسبب خطط إيطاليا الخاصة بتوطين رعاياها ووضع فرنسا المرتبط بمصالح مستوطنها في المغرب . على أنه كان باستطاعة إنجلترا وفرنسا اتباع طريقة الحكم غير المباشر في المشرق العربي .

وبالإضافة إلى ذلك فإن ألمانيا النازية ذاتها قد ظهرت بمظهر المناصرة

« للفكرة الأوروبية » والمطالبة بإمبراطورية استعمارية خاصة بها في أواسط إفريقيا . وكان المفتي يريد التوجه إلى شمال إفريقيا لتنظيم النشاط الذي اقترحه وذلك في حالة قبول شروطه السياسية . على أنه حين رأى أن إصدار التصريح الذي كان يرغب فيه محوط بالصعاب ، تنازل عن بعض مطالبه بحيث اقتضت على رسالة موجهة إلى باي تونس ، مع وعود غامضة بالاستقلال . بل وصل به الأمر إلى الموافقة على التوجه إلى شمال أفريقيا بدون أى وعود ، برغم أنه كان قد أشار إلى أن نتائج جهوده في هذه الحالة ستكون أقل .

ألمانيا وإيطاليا وخطط المفتي

ويبدو أن الألمان لم يكونوا على اتفاق بصدد تقييم مقترحات المفتي . فلم تبين وزارة الدفاع الألمانية أى احتمال لإشعال ثورات عربية في مؤخرة الحلفاء ، وهو ما كان الجيش الألماني شديد الرغبة في حدوثه ، دون تعاون الحسيني . لهذا فلم يشاركوا بعض وجهات نظر الحاج أمين ما دام أنه أكد قدرة عرب المغرب من الناحية العسكرية . ومن ناحية أخرى كان ران يشك في الاقتراح الخاص بتشكيل جيش منهم . وقد أبرق من تونس مايلي : « إن القيام بدعاية أنشط بين العرب ضد اليهود أو بدعاية مباشرة ضد الحلفاء أمر غير مرغوب فيه ، لأنه لن يؤدي إلى نشوب اضطرابات خطيرة — فالعرب غير أكفاء في القتال » . وأشار في مناسبة أخرى إلى أن تشكيل وحدات عربية في مناطق القواعد العسكرية المحورية ونقاط الشحن يؤدي إلى كثير من المخاطر الناتجة عن النهب والهجمات على المستوطنين الفرنسيين والإيطاليين والقلق العام .

وسواء أكانت برلين قد وافقت أم لم توافق على ما ذهب إليه ران ، فقد رثى — على أى حال — أن مجرد التصريح بتقديم تنازلات للقومية العربية قد يؤدي إلى قيام مشاكل مع الإيطاليين والفرنسيين المتعاونين مع ألمانيا . وهكذا حين جرت محادثات مع كولونل وزارة الدفاع الألمانية تبنت وزارة الخارجية الألمانية وجهة نظر شديدة الحذر ، بل سلبية إلى حد ما . ولم تبد وزارة الخارجية

الألمانية أى تحفظات حول استغلال المفتى فى تونس ، وهو ما كان الإيطاليون يرجحون به ، ووافقت على أن على السلطات العسكرية أن تقرر التوقيت المناسب لرحلته . ولكن الألمان لم يبدوا رغبة فى أن يعدوا عرب المغرب بالحرية والاستقلال ، إذ أن ذلك كان يناقض رسالة هتلر إلى بنان ، وكان مقبضاً له أن يكون له أثر سلبي فى إسبانيا^(١). ولكن فورمان قدم اقتراح المفتى الأكثر تواضعاً الخاص بإرسال خطاب سرى إلى باى تونس : وقد أرسل هذا الخطاب بسرعة إلى كاساردى Casardi ، السكرتير الأول فى السفارة الإيطالية ، مع طلب رأى حكومته . ولم تتمخض المحادثة التى جرت بين المفتى وفايز ساكر فى ١٠ ديسمبر عن أى نتائج محددة . وقد ذهب فايز ساكر إلى أن الألمان كانوا يديرون شئون تونس باتفاق تام مع الإيطاليين . وفى هذه المرة أيضاً نقلت برلين إلى روما اقتراح المفتى الخاص باستعداده للتوجه إلى تونس حتى فى حالة عدم قبول الشروط السياسية .

وفى اليوم نفسه كانت المذكرة الألمانية موضوع محادثة فى روما بين داجيتا وفيتى وبرنس فون بزمارك . وقد بدا فى هذه المناسبة أن الإيطاليين كانوا يعارضون أى نوع من الوعود التى تتضمنها رسالة سرية موجهة إلى باى تونس . ورأى الإيطاليون أن إصدار تصريح يعد كل شئامى لإفريقيا بالاستقلال يكاد يكون أمراً مستحيلاً ، وتحججوا بالتزامات المحور إزاء بنان وصرحوا بأن تونس تتضمن جزءاً من مجال إيطاليا الحيوى - وكان الأمر يتطلب إجراء مفاوضات بين ألمانيا وإيطاليا قبل أن يتسنى إصدار تصريح من أى نوع . وكانت وزارة الخارجية الإيطالية بوجه عام ترى ألا معنى لمناقشة مستقبل الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية مع المفتى . وفى اليوم التالى أخبر فون بزمارك بأن موسولبنى صرح - على أثر اطلاعه على محتويات الرسالة التى حصلت عليها السفارة الإيطالية فى برلين - بأن ذلك ليس الوقت المناسب لإصدار مثل ذلك التصريح ، بحجة وجوب تأجيل مناقشة المشاكل ذات الأهمية الكبرى بالنسبة إلى إيطاليا وفرنسا إلى وقت آخر .

(١) مذكرة فورمان إلى ريبنتروب - برلين فى ٨ ديسمبر ١٩٤٢ . (٩٧٥ / ٣٠٣٠٢٥ - ٧) .
وقد كتب سوننهول Sonnenhol فى التقرير الذى بعث به من الدار البيضاء فى ٧ أغسطس ١٩٤٢ ما يلى :
« تفوق إسبانيا فرنسا فى أن لديها فكرة ثابتة عن مسألة التدخل الألمانى فى سياساتها إزاء السكان المحليين » .

وقد استشف مركز قيادة هتلر ما سيكون عليه رد فعل إيطاليا ، وأخبر كابتل برحوب توقع نشوب إشكالات مع إيطاليا فيما لو أرسل المفتى إلى شمالى إفريقيا واحتفظ لنفسه بالقرار النهائى بصدد المسألة . وحينئذ بلغ كابتل كاناريس تليفونيًّا (فى ٩ أو ١٠ ديسمبر) بضرورة إرجاء مسألة قيام المفتى بالتمهيد لنشوب ثورات فى شمالى إفريقيا . وحين تحادث المفتى مع فايز ساكر ، انتقل فحوى هذه المكالمة التليفونية إلى وزارة الخارجية الألمانية .

فى ١٢ ديسمبر أبرق ران من تونس أن من السابق لأوانه أن يتوجه المفتى إلى شمالى إفريقيا . وقد أدرك مدى ضعف احتمالات نشوب ثورة عربية ، وأوضح أن وجود المفتى لن يساعد كثيراً .

وفى اليوم نفسه بلغ كاناريس فايز ساكر أوامر كابتل الخاصة بعدم محاولة إرسال المفتى إلى شمالى إفريقيا حتى يصدر مركز قيادة الفوهرر قراراً سياسياً بصدد هذه المسألة . وفى مذكرة بعث بها فايز ساكر إلى رييتروب نجده يعتبر الخطأ بأسرها خيالية . وكان من رأيه أن الرسالتين الصادرتين من روما فى ١٠ و ١١ ديسمبر أثبتتا استحالة إصدار تصريح محورى بخصوص تونس ، ورغم ذلك فإنه اقترح عدم التخلي عن فكرة إرسال المفتى إلى تونس ، ووافق رييتروب على ذلك . وكان من الواضح أن « قراراً سياسياً » ما سيتخذ بصدد تونس فى ظل الظروف القائمة . وقد صرح كاناريس بأن « المبادرة السياسية فى تونس بخصوص مسألة الثورة العربية يجب أن تترك للإيطاليين » . وكان من الممكن تفسير ذلك على أنه إشارة للإيطاليين ببدء العمل ، ولكن الدوائر الحاكمة فى ألمانيا لم تكد تعول على ذلك .

لهذا فإن رحلة المفتى إلى برلين لم تتمخض عن أية نتائج ، وفى ١٩ ديسمبر ١٩٤٢ طلب الإيطاليون من الألمان أن يوافقوا على عودته إلى روما .

محاولة الاتفاق مع بورقيبة

وربما كان ران على حق حين أبرق إلى رؤسائه بأن المفنى لن يستطيع تعزيز قدرة المحور على استخدام العرب المحليين - إذ كانت للعرب التونسيين مراكزهم الوطنية الخاصة، وأهمها حزب الدستور الجديد . فبعد أن قام حزب الدستور الجديد في عام ١٩٣٤ بصفته مركزاً لمعارضة تقليدية وسلبية حزب الدستور القديم (القائم منذ عام ١٩٢٠) سرعان ما احتل المركز الرئيسى في الحركة الوطنية التونسية وأحرز شعبية عظيمة .

وكان أكثر زعماء هذا الحزب شعبية - وعلى رأسهم الخبيبت بورقيبة - في سجون فرنسا . فبعد سقوط حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا وفشل حملة العصيان المدني في تونس (وهى الحملة التى بلغت قمتها في مظاهرة ٩ أبريل ١٩٣٨) ، تم القبض على زعماء الحزب وجرت محاكمتهم في محكمة عسكرية . وبعد اندلاع الحرب ، نقل الزعماء العرب إلى فرنسا وسجنوا في مرسيليا . وحين دخلت القوات القوات الألمانية الجزء غير المحتل من فرنسا في نوفمبر ١٩٤٢ ، وضعت خطة في برلين لنقل السجناء التونسيين إلى أيدي الإيطاليين الذين كان من المتوخى أن يحتلوا ذلك الجزء من فرنسا - ولكن من المعروف أن العسكريين لم يحتلوا مرسيليا على الإطلاق .

وفي ٢٦ نوفمبر طلبت روما من الألمان أن يطلقوا سراح زعماء حزب الدستور الجديد . وفي ٨ ديسمبر أرسل فورمان خطاباً إلى سفير الريخ في باريس يزكى الاتفاق مع القائد العام للجبهة الغربية (رونشتد) بشأن إطلاق سلطات الاحتلال الألمانية سراح زعماء حزب الدستور الجديد . وكان من المتوخى أن يتم الإفراج عنهم في الحال . وقبل ذلك بأسبوع كان الألمان قد أطلقوا سراح الزعماء الوطنيين من السجون التونسية ، مما أثار حماسة شديدة لدى العرب جعلت ران يصر على إطلاق سراح الوطنيين المسجونين في فرنسا في الحال ، وإرجاعهم إلى تونس .

وتمت الموافقة على طلب برلين ، ولكن زعماء حزب الدستور الجديد لم يعودوا إلى تونس ، ربما بسبب المعارضة الإيطالية . ولكنهم لم ينقلوا إلى إيطاليا . وربما كان مكتب الأمن - الذى أطلق سراح بورقيبة ورفاقه - يريد استغلالهم ، ولم يوافق على تسليمهم للإيطاليين . ولما قلقت روما لتطور الأحداث بهذا الشكل ، وجهت مذكرة فى ١٩ ديسمبر إلى وزارة الخارجية الألمانية ، مقترحة مناقشة المسائل التونسية . وقد اقترح الإيطاليون ، فيما اقترحوه ، وضع سياسة محورية لإزاء عرب شمال إفريقيا ، وأن تناقش بوجه خاص مسألة استخدام حزب الدستور الجديد . ووافق الألمان على إجراء المناقشة . وكان معنى ذلك أنهم عدلوا عن الفكرة الخاصة بأن يكونوا الوحيدين الذين يستخدمون زعماء حزب الدستور الجديد وأنهم على استعداد لتسليمهم للإيطاليين .

وبهذا نكون قد عرضنا للشكل الذى وضع به فايز ساكر المسألة فى التعليمات التى أرسلها إلى الموظفين الذين كان من المتوخى أن يمثلوا ألمانيا فى مؤتمر روما الخاص بتونس^(١) . فقد أصدر أمره بإخطار الإيطاليين بأنهم أحرار فى استخدام زعماء حزب الدستور الجديد ، لكن مع التحفظ الخاص بأن من المستحسن استغلال خبرة ران . وكان هذا الأخير خلال الأسابيع الأولى التى تلت إنشاء رأس الجسر التونسى قد عبر عن توقعه الكثير من حزب الدستور الجديد .

وبدا خلال المناقشة التى مست كل المسائل المتصلة بسياسة المحور الخاصة بتونس أن إيطاليا تعلق أهمية كبرى على العلاقات مع الوطنيين . وقد عبر مولها وزن عن اقتناعه بضرورة استغلال بورقيبة لإرضاء العرب والتغلب على ترددهم وتقريرهم من المحور . وأشار ممثلو إيطاليا بدورهم إلى المشكلات السياسية التى قد تنتج عن اتباع هذه السياسة . وأشاروا إلى تعليمات موسوليني الخاصة بعدم وعد تونس بالاستقلال أبداً كانت الظروف ، وعبر عن الرأى الخاص بأن بورقيبة سيوافق على نشاط سياسى ما ولكن بشرط الموافقة على مطالبه . وأعربوا عن

(١) تعليمات فايز ساكر إلى سفارة روما ، برلين فى ٢ يناير ١٩٤٣ - ٢٢١٣ / ٤٧٤٦٩٧ -
أن ناقشنا جزءاً آخر من هذه التعليمات .

سخطهم على عدم تسليم الزعماء الوطنيين - الذين أطلق سراحهم من السجون الفرنسية - لإيطاليا . ورد الألمان بأن استخدام هؤلاء الزعماء أمر يهم إيطاليا ، ووعدوا بإرسال بورقيبة إلى روما لإجراء المحادثات .

وبعد عدة أيام توجه زعماء حزب الدستور الجديد إلى إيطاليا حيث استقبلوا استقبالا رسمياً . ونزل بورقيبة وزميلان له - بن سليمان وبن يوسف - في قصر رسيبجي على نهر التير ، ونزل الآخرون في فندق الكونتنتال . ولكن المحادثات لم تتمخض عن أية نتائج . فقد اشترط بورقيبة - ثمناً لتعاونه - أن تنتقل السلطة إلى الباي على أن تعاونه حكومة وطنية . . ولكن كان من الواضح أن هذا المطلب يتناقض مع نيات إيطاليا في تونس على المدى القريب والبعيد على حد سواء^(١) .

ومن المشكوك فيه كثيراً ما إذا كان بورقيبة بوجه عام يرغب في التعاون مع المحور ، وما لاشك فيه أنه كان على علم بأطماع إيطاليا . وكان قبل القبض عليه قد نادى بالديمقراطية البرلمانية وأبدى معارضته للدكتاتورية الفاشية . ولم يكن الموقف في جبهات القتال في ذلك الوقت يشجع على التعاون مع المحور ، ولا يوجد هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن بورقيبة كان يؤمن بانتصار المحور في أواخر عام ١٩٤٢ وأوائل عام ١٩٤٣ . حقيقة أن الديماغوجية النازية المعادية للرأسمالية ولليهود قد وجدت استجابة لدى الوطنيين التونسيين ، وبخاصة لدى الجماهير الراديكالية من أتباع حزب الدستور الجديد وعلى رأسهم الشباب . إلا أن القوى التي بيدها الأمر ، كالباي والمحيطين به ، على سبيل المثال ، كانت تتوقع انتصار الحلفاء ، فأثرت عدم الانضمام إلى أي جانب . وبعد الحرب اتهمت بعض الدوائر الفرنسية بورقيبة بالتعاون مع المحور - وقد نشر التونسيون في ذلك الوقت رسالة بعث بها بورقيبة إلى زعيم حزب الدستور الجديد البارز - دكتور تامر - في ٨ أغسطس ١٩٤٢ . وقد جاء في رسالة بورقيبة أن انتصار الحلفاء أمر مؤكد وطالب بالوقوف إلى جانبهم دون قيد أو شرط . وبرغم أننا لا يمكننا أن نقطع بصحة تلك الرسالة ، فإن سلوك

(١) في ٢٠ يناير ١٩٤٢ بعث بورقيبة برسالة إلى المفتي يخبره فيها بمحادثاته مع الإيطاليين . وقد نشرت نصوص مختلفة لهذه الرسالة في الفيجارو والموند ولاديش تونسين . ولكن أيا ما كتب بورقيبة إلى الحاج أمين في ذلك الوقت ، فهناك شيء أكيد - فبرغم النصوص المختلفة لرسالة بورقيبة ، فإنه لم يكن بإمكانه أن يعتقد أن الإيطاليين ستهل عليهم تلبية مطالبه .

بورقية في أثناء احتلال المحور لتونس لا يدع مجالاً للاعتقاد بوجود أى تناقض بين وجهات النظر التي عبرت عنها الرسالة وتلك التي كان ينادى بها في ذلك الوقت .

ففي ذلك الوقت رفض بورقية التعاون مع المحور إلا إذا نفذت شروطه السياسية . وطالب بإرجاعه إلى تونس . وكان لابد أن يؤثر صدمت وغياب زعيم له أهميته كبورقية على الموقف ، فبدأ أتباعه يبدون تحفظاً إزاء المحور^(١) .

واتضح للإيطاليين ، بحلول نهاية فبراير ، أنهم يجانبون الصواب في علاقاتهم بالوطنيين التونسيين فبدءوا يفكرون في إرسال بورقية إلى تونس . وكان من شأن القيام بذلك ، في نهاية الأمر ، أن يتمشى مع مخططهم السياسي الخاص بعدم بدل وعود للعرب ، مع إبداء عطفهم عليهم والسماح بالنشاط الوطني الذي يضعف سلطة الإدارة الفرنسية . ولكن يتضح لنا من وثائق وزارة الخارجية الألمانية أن بعض الساسة الإيطاليين رأوا ضرورة إبقاء بورقية في روما حتى يوافق على مطالب المحور ، أو على الأقل حتى يصدر التصريح العلني المطلوب منه^(٢) .

المحور والوطنيون التونسيون

وفي تلك الأثناء ازداد التعاون في تونس بين ساطعات الاحتلال الألمانية والفرنسيين المتعاونين مع ألمانيا ، في الوقت الذي حصل فيه الوطنيون العرب على قسط من حرية العمل . ولكن لم تقطع أى التزامات محددة لأى من الفريقين . وقد أفاد الوطنيون العرب من ضعف الإدارة الفرنسية وترددتها في القيام بأعمال قمع ضدهم ، فبدءوا نشاطهم من جديد . وأثار وجود القوات الألمانية ، التي

(١) وهكذا اشتكى مولاوزن من أن ممارسة معينة كانت آخذة في النمو بين هيئة تحرير جريدة « إفريقيا الفتاة » وذلك بسبب غياب بورقية . وفي أول فبراير ١٩٤٣ أبرق ران إلى وزارة الخارجية الألمانية ما يلى « يجب أن نلقى مسئولية غيابه على الإيطاليين ، ويعتبر الجميع سكوتة دليلا على أنه سيكون من المستحيل الوصول إلى اتفاق مع إيطاليا » .

(٢) مولاوزن إلى وزارة الخارجية الألمانية ، ٢٢ فبراير ١٩٤٣ - ١٢٧٦ / ٣٤٣٢٥٢ - ٣ .
تحتوى هذه المكاتبة على تقرير عن محادثة مولاوزن مع اللغشنات كولونل سيمن Simmen : ضابط الانتصاف بالمخابرات الإيطالية بقصر شيجى .

ظهرت بمظهر أصدقاء العرب ، آمالاً جديدة ، وحين ظهر جنود عرب في تونس ، سواء من أعضاء فرقة براندنبورج للمهام الخاصة التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية ، أو من هيئة الاتصال الألمانية - العربية ، انتعش الشعور الوطني إلى حد كبير . بل إن العناصر المعتدلة التفت حول الباي الذي بدأ قصره بحث على إجراء بعض التغييرات .

وكان التغيير الوحيد الذي أجراه الألمان هو تشكيل لجان للإشراف على الإدارة الفرنسية . وكانت كل من اللجان الخمس تتألف من عضو عربي وآخر فرنسي وثالث إيطالي . ولم تحدد صلاحيات الأعضاء بدقة ، ولكن اللجان سهلت استغلال ألمانيا للتناقضات القائمة بين شتى طوائف السكان التونسيين ، مما أدى إلى تنافس زعماء كل مجموعة تومية للحصول على رضى سلطات الاحتلال^(١) . واقتصرت اللجان على أعمال الدفاع في أثناء الغارات الجوية ورعاية اللاجئين والإدارة العامة للمدينة والأشغال العامة ومؤون الطعام والمشكلات الاقتصادية والنظام العام . وقد استغلت الدعاية المحورية الحقوق المتساوية ظاهرياً التي حصل عليها الأعضاء العرب في اللجان استغلالاً واسع النطاق . وكانت المساواة شكلية - إذ كان يسمح لفنصل إيطاليا العام بالدخول مباشرة على سلطات الاحتلال الألمانية ، تماماً كمثلي القيمة العامة أو لجنة وحدة العمل الثوري . وكانت ثمة شعارات دعائية أخرى كالسياسة المعادية لليهود وتخصيص جريدة « إفريقيا الفتاة » لحزب الدستور الجديد . على أن ذلك لم تكن له قيمة كبيرة - ولكن حين حاول الألمان استغلال الشعارات الوطنية في دعايتهم على مدى أوسع ، ووجهوا بمعارضة الإيطاليين .

وبرغم أن الألمان لم يسمحوا بإجراء تغييرات دستورية في أثناء الحرب ، وبرغم أن ران كان شديد الميل إلى إعطاء أولوية للتعاون مع الفرنسيين ، فلم يتم التخلي عن فكرة استغلال الوطنيين . وقد أوضح ران للعرب ، وبخاصة للشبان المتحمسين من أعضاء حزب الدستور الجديد ، أن الاستقلال لا يقدم على طبق من فضة ، ومعنى ذلك إثارة النشاط الوطني مع عدم الالتزام بأي شيء .

(١) كتب ران في رسالته المؤرخة ٢ فبراير ١٩٤٣ ما يلي : « استطاع الألمان ، باستغلالهم الصراع الفرنسي - العربي ، أن يجعلوا كلا من الطرفين يبذل جهوداً أكبر في مجال التعاون العسكري » .

وكان هذا الاتجاه يتمشى مع جوهر السياسة الألمانية التي كانت تقوم على ضرب كل الأشخاص بعضهم ببعض . وكان من المتوخى لمطالب الباي من المقيسية أن تنكشف إلى الحد الأدنى ، ولكن القيام بذلك لم يكن أمراً صعباً ، لأن الباي ذاته لم يكن يرغب في التقدم بمطالب بعيدة المدى في ظل الوضع العسكري القائم^(١) . وكان الألمان يرغبون في أن يوجهوا نشاط الشباب الوطني المتحمس وغضبه ضد الحلفاء . وحين أشاروا إلى احتمال قيام النشاط الوطني ، نجدهم يعمقون في الوقت نفسه النضال القديم بين القصر ، الذي ادعى أنه الناطق الوحيد باسم الأمة ، وبين حزب الدستور الجديد الذي أحرز شعبية واسعة النطاق ، لأنه بوجه خاص قام بنشاطه السياسي مستقلاً عن قصر الباي . وبهذا الأسلوب كان الألمان يأملون أن يبدوا عطفهم على العرب ، لأنهم كانوا حريصين على مساندة الجماهير للمجهود الحربي - بل لأنهم جاؤوا لاستغلال سخط الناس على صمت الحبيب بورقيبة وغيابه عن تونس لخدمة مصالحهم الخاصة . وملخص الأمر أن الألمان حاولوا خالق موقف تشعر فيه كل مجموعة من السكان بضغطة المجموعات الأخرى بحيث تسعى كل مجموعة إلى الحصول على مساندة سلطات الاحتلال .

انتعاش الحركة الوطنية

وهكذا كانت استراتيجية الألمان تقوم على استغلال القومية العربية في النضال ضد العدو ، وأن يقوموا في الوقت نفسه بترك الإدارة الفرنسية في الحكم بصفتها مساندة لنظام الحكم الألماني ، وقائمة مقام الحماية الإيطالية المتوخى فرضها في المستقبل - ويرغم ذلك فقد انتعشت الحركة الوطنية . فقد ضعفت الإدارة الفرنسية ، وكان على المحور أن يعمل حساب الحالة النفسية السائدة في البلدان

Barbour , : A Survey of North Africa, p. 301.

(١) انظر على سبيل المثال :

وقد استغل الألمان ذلك الظرف - فعين وجدوا أن الباي يشترط في مطالبه ، ذهبوا إلى أن إلغاء المحور للحماية الفرنسية قد يؤدي إلى إعلان الحلفاء الحرب وضربهم مقر الباي (ران إلى وزارة الخارجية الألمانية - ٢٣ يناير ١٩٤٣) .

العربية ، وبخاصة في الجزائر ومراكش . وقد أدى هذا إلى تمكين الوطنيين التونسيين من القيام بإضرابات واسعة النطاق لتوسيع صلاحيات الباي وإقامة حكومة تونسية تتألف من أشخاص يمثلون العرب . وفي أواخر عام ١٩٤٢ قرر الباي إقالة ثلاثة وزراء وإحلال ثلاثة آخرين محلهم . وكان من المتوخى أن يمثل الثلاثة الحدود التشكيلات السياسية الكبرى في تونس . وسرعان ما ظهر المرشحون الآتية أسماؤهم : رئيس الوزراء محمد شنك - وهو من أثرياء كبار ملاك الأراضي ورئيس الغرفة التجارية في شمال إفريقيا وزعيم حزب الدستور القديم ، وزير العدل : صالح فرحات ، وهو محام وأحد كبار زعماء حزب الدستور القديم ، وزير الشؤون الداخلية : دكتور مطيرى ، وهو طبيب كان من مؤسسى حزب الدستور الجديد وأول زعيم له ، وقد استقال في عام ١٩٣٨ بسبب اختلافه مع السكرتير العام للحزب : الحبيب بورقيبة . وبعد أن أعيد تشكيل الوزارة طالب الباي بأن تخلع السلطات الحقيقية على وزير الداخلية الجديد وذلك بأن يتولى الإدارة المحلية والبوليس والشؤون الصحية . ووافق الأميرال إستيفا على إعادة تشكيل الوزارة ، كما وافق على طلب الباي الخاص بالإدارة المحلية والشؤون الصحية . ولكنه رفض - بمساندة المحور - الطلب الخاص بتفويض الأمن العام للدكتور مطيرى . وفي أواخر يناير عهد الباي إلى وزيره بإدارة الأوقاف ، دون أن يوافق على ذلك موظفو المحور . وحتى ذلك الوقت كانت المؤسسات الإسلامية في يد لجنة تضم موظفاً فرنسياً . ولم تؤد هذه الإجراءات التى تمت من أعلى إلى تعديل كبير فى التوازن الحقيقى للقوى فى البلاد - فقد ظل المحور يبدو بوجه عام بمظهر المدافع عن الأوضاع القائمة . وبرغم ذلك فلإنها أثارت رد فعل واسع النطاق لدى السكان العرب . ومنذ الوقت الذى اختار فيه الباي قليلاً من الزعماء الوطنيين ليعينهم وزراء ، كتب قائد بوليس الميدان الألمانى فى صفاقس إلى الميجر سويرت Seubert - أحد رجال وزارة الدفاع الألمانية - يخبره بأن الحركة انتعشت فى صفاقس والمناطق المجاورة لها : فقد أعاد حزب الدستور الجديد تنظيم نفسه وفتح أندية وبدأت عملية ضم أعضاء للحزب ، وجاب الشبان المتحمسون القرى لضم أعضاء جدد ، وعقدت عدة اجتماعات سمح للجماهير بحضور بعضها . وارتدى قادة الحركة ومنادوهم شعارات حمراء على أذرعهم ووضعوا على أكتافهم هلالاً أحمر أو

أزرق أو شعاعات حمراء . وقد تدخلوا في كل نواحي الشؤون الإدارية ، وبخاصة مسائل مؤن الطعام ، ولم يخفوا كرههم للسلطات التي كانوا يرغبون في أن يباشروا عليها إشرافهم وأن يمنعوا الظلم المزعوم . وكانت إجراءات تدخلهم ومظاہراتهم السياسية تتضمن إقلاقاً للأمن العام . وفي بعض الأحيان رفض العرب أن يبيعوا الطعام للفرنسيين . ومن الواضح أن البوليس الحربي الألماني لم يبد سروره للنشاط الوطني .

ولم يكن الصدام الذي نشب بين السكان العرب وبين البوليس الفرنسي في قصور الصف في ٢٠ - ٢٣ مارس ١٩٤٢ أمراً عرضياً - وكذلك الحال بالنسبة إلى سلوك الألمان والإيطاليين . قد ساند الألمان - وبخاصة قوات العاصفة - الفرنسيين ، على حين دافع الإيطاليون عن مثيري الاضطرابات بقصد ضعيفة سلطة البوليس الفرنسي والموظفين الفرنسيين . بل لقد وصل الأمر أحياناً إلى حد نشوب مصادمات مباشرة بين العرب والسلطات الألمانية ، ومن ذلك أن الموظفين العرب أضربوا في أحد المطارات ، ربما من قبيل الاحتجاج على المعاملة الخشنة التي كان يعاملهم بها العسكريون .

المحور وبلاط الباي

حاول الألمان - الذين كانوا مهتمين بإحراز عطف ، أو على الأقل حياد ، العرب الودى ، وبحسن سير الإدارة الفرنسية - أن يتجنبوا التدخل الصريح في مسائل الجدل الدستوري . فقد كان من شأن التدخل الصريح أن يؤدي إلى فشل لعبتهم السياسية الحساسة ، وأن يؤكد الشكوك الفرنسية والعربية الخاصة بربط الوعود الألمانية بإيطاليا فيما يتعلق بمسألة تونس^(١). ولهذا فحين حاول الباي في أواخر فبراير أن يفرض تعيين أربعة وزراء إضافيين من العرب ، أصبح الألمان في موقف حرج - إذ أن الباي كان في طابعه هذا يؤول على مساندة ألمانيا . وقد حاول زعماء حزب

(١) تلك هي الطريقة التي برر بها وإن معارضته للطلب الخاص بأن على ألمانيا وإيطاليا أن توافقا على كل تغيير في الإدارة والتنظيم التونسيين (رأى إلى وزارة الخارجية الألمانية ، في ٢ فبراير ١٩٤٣ - ١٢٧٦ / ٣٤٣٢٣٥ - ٧) .

الدستور الجديد والأميرال إستيفا أن يدفعوا الألمان إلى اتخاذ موقف رسمي إزاء هذه المسألة. وكان موقف الألمان من الأخير مخالفاً لموقفهم من الأول. وقد بلغ موثاق وزن المقيم العام بصفة غير رسمية رفض المحور لمطالب العرب، كما رفضها إستيفا فتراجع الباي. ووجد الباي نفسه في مركز خرج. فهو في رغبته في توسيع سلطته والإبقاء على أهم رجل في تونس العربية، كان عليه أن يضع في عين الاعتبار كل الأخطار التي كان يتضمنها وضع العرب - ومن أكبر الأخطار ادعاءات إيطاليا والتغيرات التي كان بالإمكان أن تفرضها لمصلحتها. وقد أرغم نشاط إيطاليا السياسي الباي على اللجوء إلى مساندة المقيمة الفرنسية للدرجة ما. وكان هذا هو الموقف حين وصل المبعوث بومبييري Bombieri إلى تونس في ١٧ فبراير ١٩٤٣ - بصفته ممثلاً لوزارة الخارجية الإيطالية - وكان ممثل إيطاليا السابق - القنصل العام سالمياني - قد أعفى من منصبه. ولم يكن بومبييري غريباً على تونس: فقد كان قنصلاً عاماً هناك خلال الثلاثينات حين حاول أن يمهّد الطريق أمام التوسع الإيطالي. ولهذا فإن وصوله أثار مخاوف الدوائر العربية ورأى الباي، في ظل هذه الظروف، أن من المستحسن تقوية مركزه. ولهذا ففي المحادثة التي جرت بين الباي وإستيفا في ٢٠ فبراير، برر مطالبه بأن الإيطاليين قد يواجهونه بأمر واقع - ولهذا يستحسن أن توضع الإدارة في أيدي موظفين تونسيين مسئولين.

ومن الواضح أن الأميرال لم يبد ارتياحه لوجهة النظر هذه، على اعتبار أنها قامت على افتراض وضع حد للحكم الفرنسي على أي حال. ولكن الباي أكد للإيطاليين إخلاصه لمعاهدة الحماية الفرنسية. وحين زار بومبييري الباي في ٧ مارس - دون وساطة من المقيمة الفرنسية وفق مانصت عليه المعاهدة - أكد الباي إخلاصه للمعاهدة.

وفي الواقع أن حاشية الباي لم تكن مجمعة على الموافقة على وجهة نظره - فوفقاً لتقارير ران وشهادة الأميرال إستيفا أمام محكمة ليون، كان ابن الباي - الأمير رؤوف (المتزوج من سيدة إيطالية) - شديد العطف على المحور، وكان يسمى إلى الانضمام إلى الجيش الألماني. كما أن الباي لم يقيم إلا بمحاولات ضعيفة لتقوية سلطته - على أمل أن يتجنب إصدار تصريح واضح للمحور، في الوقت الذي يحول فيه دون تحسن وضع إيطاليا. ولا شك أن الباي، منذ الوقت

الذى اعتلى فيه العرش (يونية ١٩٤٢) ، سار على سنن والده محمد الناصر باك
ذى الميل الوطنية ، كما ساند المطالب الوطنية . ويبدو أن هذا هو السبب الذى
جعل الجنرال جبرو يخلع المنصف باك حين احتل الحلفاء تونس . وكانت مهمة
التعاون التى وجهت إلى الباي فى ذلك الوقت لاتعدو أن تكون مهمة تكنيكية .
حقيقة أنه لم يفكر فى مقاومة المحور ، إلا أن البلاط لم يكن يشكل المركز الرئيسى
للتعاون فى تونس .

عودة بورقيبة

أوضحت الحادثة التالية موقف النازيين الممعن فى التناقض والتغام على محاولة
الإبقاء على عطف العرب مع تجنب مساندة مطالبهم الوطنية ، والعمل فى الواقع
على إبقاء الإدارة الفرنسية . فحين وصل الاضطراب الوطنى قمته فى أواخر يناير
١٩٤٣ : عارض ران عودة بورقيبة إلى تونس ، خشية حدوث ارتباكات داخلية .
وقد حدث هذا فى الوقت الذى كانت إيطاليا تفكر فيه — بالشكل الذى سبق
أن عرضنا له — فى عودة زعماء حزب الدستور الجديد إلى تونس . ولم تبد وزارة
الخارجية الألمانية ارتياحها لهذا الموقف المتطرف الذى وقفه الدكتور ران ، إذ
يحمل أنها كانت تنظر إلى مسألة بورقيبة على ضوء العلاقات الشاملة بين الريخ
والزعماء العرب .

واستدعى ران إلى برلين . وكانت دوائر إيطالية معينة تود اعتقال بورقيبة
فى إيطاليا لإرغامه على الموافقة على رغبات المحور مستفيدة فى ذلك من وجهة
نظر ران .

ولم يترتب على هذا سوى تأخير عودة زعماء حزب الدستور الجديد .
وفى نهاية فبراير وافقت روما وبرلين من حيث المبدأ على وجوب عودتهم ، وتوجه
ران إلى روما لإعداد المسألة . ولم تنفذ على الإطلاق خطة إرسال المفتى مع
بورقيبة ، وهى الخطة التى كان لها مغزى سياسى معين من الزاوية القومية — فلم يعد
الألمان يتوقعون الكثير من زعماء حزب الدستور الجديد ، لأن طول غياب
بورقيبة وصمته كانا بليغين جداً . وفى ظل هذه الظروف كان وجوب عودة

زعماء حزب الدستور الجديد إلى تونس مع المنفى على جانب كبير من الأهمية ، خاصة وأنه كان من المتوخى أن يؤدي دون شك إلى حملة دعائية كبيرة - وهذا بالتالى كان كفيلاً بتوجيه هجوم شديد إلى الإدارة الفرنسية وتهديد الأمن العام ، وهو ما كان الألمان شديدي الحرص على تجنبه . وقد صرح موهاوزن للكلوولل سيمن - أحد رجل المخابرات الإيطالية - بأن عوذة بورقيبة لم تكن ضرورية إلا لكي يضمن المحور على الأقل عطفاً معتدلاً من جانب السكان العرب - إذ من شأن ذلك أن يؤدي إلى مساعدة العرب القيمة من الناحية الاقتصادية وزيادة عدد العمال والمنتولين العرب في الوحدات المحورية .

وفي ٢٦ فبراير أحضرت طائرة إيطالية إلى تونس ستة من زعماء حزب الدستور الجديد : على البهلوان ومنجى سليم وسليمان بن سليمان ومحمود بورقيبة (أخا الحبيب) وبشير بن يوسف ومحمد مزنيغ . وبعد ذلك بوقت قليل عاد أحد كبار زعماء حزب الدستور الجديد : صالح بن يوسف الذي أصبح فيما بعد خصماً لبورقيبة . وقد عاد الحبيب ذاته في ٩ أبريل بعد أن أذاع من راديو روما في ٦ أبريل خطبة غير خطيرة . وفي أواخر مارس تم نقل أعضاء آخرين في حزب الدستور الجديد من جنوبي فرنسا إلى إيطاليا ، وكانوا قد أقاموا في جنوبي فرنسا بعد إطلاق سراحهم باعتبارهم أشخاصاً عاديين . وحين تم طرد قوات المحور من تونس أعلن حزب الدستور الجديد - بإيعاز من بورقيبة - انضمامه إلى الحلفاء . وحينئذ لم يتهمهم الحكام الفرنسيون بالتعاون .

الجنود العرب في القوات المسلحة الألمانية

وهناك جانب هام من السياسة الألمانية في تونس ، هو استخدام العرب في العمليات الحربية . ولكن الألمان لم يستطيعوا القيام بالكثير بهذا الصدد بسبب القرار الخاص بترك « المبادرة الخاصة بمسألة الثورات العربية » للإيطاليين . على أن هذا لم يمنع إعداد مهام أكثر تواضعاً ، وبخاصة في نطاق وزارة الدفاع الألمانية .

وبعد مضي وقت طويل على إقامة رأس الجسر التونسي أرسل إلى هناك ٦٠٠ رجل من وحدة كوزن Koenen التابعة لفرقة براندنبورج للهام الخاصة التابعة للقيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية . وكان هؤلاء الرجال « مدرّبين وعلى استعداد لتنفيذ كل المهام العسكرية الخاصة الواقعة في دائرة نشاط وزارة الدفاع الألمانية - تخريب خطوط تموين العدو ومؤخرته - ». وأُرسات وحدة خاصة من الوحدات التابعة لوزارة الدفاع إلى تونس لتوجيه الأعمال التخريبية وتحطيم روح العدو المنهوبة . كما نفذت عمليات في مؤخرة الحلفاء من قواعد في شمال إفريقيا الإسباني . وقد ساهم في هذه العمليات أعضاء عرب في الوحدات النظامية الألمانية أو عرب محليين - ولكن لم يوجد الكثيرون منهم .

وكان الألمان يهدفون إلى تشكيل وحدات نظامية عربية مهمتها القتال في شمال إفريقيا - وكان بإمكان هذه الوحدات أن تلعب دوراً سياسياً ودعائياً هاماً - وكان بإمكان مثل هذه الوحدات أن تجعل استخدام الحلفاء وحدات وطنية أمراً صعباً . - وكانت هذه الوحدات تشكل قدراً كبيراً من القوات الفرنسية التي كانت تحارب تحت قيادة أبرزهاور . كما كان بإمكان مثل هذه التشكيلات العربية أن تثير رد فعل واسم النفاق بين العرب في مؤخرة الحلفاء في الجزائر ومراكش .

ومن الناحية الفنية كان يمكن تشكيل وحدات من هذا النوع - وكان بإمكان وحدة الاتصال الألمانية - العربية التي كانت حين وقع الغزو الإنجليزي الأمريكي لإفريقيا معسكرة على الجبهة السوفيتية باعتبارها جزءاً من قوات القيادة رقم ٦٨ للهام الخاصة - أن تقدم مساعدتها بهذا الصدد . وقد تقرر انتقال وحدة الاتصال الألمانية - العربية إلى تونس لكي تشكل نواة لتجنيد المنتظرين العرب - ولكن أدى استخدامها كأداة لسياسة الريخ العربية إلى إثارة شكاوى خطيرة من جانب الإيطاليين .

وكان الإيطاليون مهتمين بتبين ما إذا كانت وحدة الاتصال الألمانية - العربية سترسل بوجه عام إلى تونس ، وفي هذه الحالة ما إذا كانت ستعمل باعتبارها وحدة عربية منفصلة أو جزءاً من الجيش الألماني . كما تساءلوا عما إذا كانت

الحكومة الألمانية. ف إلى إعلان اشتراك الوحدات العربية في الحرب التونسية ،
وعما إذا كانت تستغل ذلك في الدعاية . ومن الواضح أن فصل الوحدات
العربية وإعلان اشتراكها في القتال إلى جانب قوات المخور على نطاق واسع ،
كان من شأنه أن يكون أكثر فاعلية من وجهة النظر الألمانية . وفي الواقع أن الألمان
كانوا يريدون قبل كل شيء أن يستغلوا ذلك في دعايتهم ، وقد وضعوا خطة لإعداد
اجتماع بهيج بين المفتي ورشيد عالي ووحدة الاتصال الألمانية - العربية في
طريقهم إلى الجبهة التونسية . وكان من المفروض أن يتم هذا الاجتماع في فينا ،
وكان الزعميان العربيان يهدفان بهذه المناسبة إلى توجيه بيان إلى عرب المغرب .
وفي هذه المناسبة أيضاً كان على الألمان أن يتخلوا عن خطتهم بسبب حليفهم
إيطاليا . فقد اتضح لروما أن وحدة الاتصال الألمانية - العربية ستعمل في تونس
باعتبارها جزءاً من الجيش الألماني وأنها ستدخل هناك دون ضجة .
كما نوقشت في روما في ٢ يناير ١٩٤٣ تفاصيل نقل وحدة الاتصال
الألمانية - العربية . واشترك في المناقشات موظفون في وزارتي خارجية الدولتين
بالإضافة إلى الملحق العسكري الألماني في روما والجنرال أمية عن القيادة العليا
الإيطالية . وتم الاتفاق على أن تنتقل وحدة الاتصال الألمانية - العربية بالطائرات
خلال ثلاثة أسابيع . ووضعت خطة خاصة بهذه حملة تجنيد بين العرب التونسيين
على أثر وصول وحدة الاتصال الألمانية - العربية .

تجنيد العرب في تونس

بعد أسبوع أصدرت القيادة العامة للجيش المدرع الألماني الخامس أمراً بشأن
التحاق عرب تونس بالخدمة العسكرية . وطبقاً لهذه الوثيقة نجد أن القيادة الألمانية
كانت تريد استخدام العرب على نطاق واسع في الحرب . ولهذا اقترحت أن
تتضمن خطة عملها كل العرب الصالحين إما للقتال أو للعمل . وكان من المزمع أن
يستخدم الراغبون في العمل في بناء الاستحكامات . أما الراغبون في الانضمام إلى
القوات المحاربة فكان يجب على القيادات - بما فيها معسكرات المسجونين - أن

تخصصهم « لنقط تجمع خاصة بالجنود العرب » وهناك كان من المفروض أن تعنى بهم فصيلة من فرقة براندنبورج وأن يدربوا في قاعة الحمامات . وكان من المتوخى أن يرتدوا سترات فرنسية تم الاستيلاء عليها ، وأن يحملوا على أذرعهم شارات تحمل شعار (في خدمة الجيش الألماني Im Dienste der Deutschen wehrmacht) . وكان القصد من ذلك تمييزهم عن جنود وحدة الاتصال الألمانية - العربية الذين كانوا يرتدون حلا ألمانية ويضعون شعار (بلاد العرب الحرة Frei Arabien) . وكان من المتوخى أن يقبض الجنود ١٠ فرنكات يومياً وصف الضباط ١٥ فرنكاً والضابط ٢٠ فرنكاً . وقد بدأ التجنيد في ١٠ يناير ١٩٤٣ ونقل إلى هذه الوحدات العربية في ١٣ فبراير ١٣٢ ضابطاً وصف ضابط وجندي ، وكانت البعثة العسكرية الفرنسية قد جندتهم حين حاولت إعداد طابور إفريقي .

وتطوع قليل من العرب للعمل في الوحدات المقاتلة . وكان الألمان يعاون في البداية على ٦٠٠ رجل . ولقد لعبت هيئة الاتصال الألمانية - العربية والوحدات العربية الأخرى دوراً صغيراً في الجبهة ، ولم يكن الألمان راضين عن روحها المعنوية . وحين قتل الكولونل ماير - ركس الذي كان خبيراً بقيادة هذه الوحدات ، تقرر في الجبهة سحبهم من شمالي إفريقيا .

آمال الألمان في تونس

لا يمكننا أن نتجنب الانطباع الخاص بأن واضعي القرارات الألمانية في تونس (على الأقل في نوفمبر / ديسمبر ١٩٤٢ وجزء من يناير ١٩٤٣ حين تم تقرير الخطط) لم تكن لديهم فكرة عن مدى اقتراب المحور من الكارثة في شمالي إفريقيا - أو أنهم على الأقل قد تصرفوا كما لو لم تكن لديهم فكرة - ومن هنا عبر هتار ، في مؤتمر عقده مع القيادة العسكرية في أوائل يناير ١٩٤٣ ، عن اقتناعه بأن دولتي المحور لن تحافظا فقط على مواقعهما على رأس الجسر التونسي ، بل إنهما

ستقومان بهجوم مضاد بصوب الغرب - أى صوب الجزائر ومراكش . وقد كتب الأميرال أسمان Assmann ، ملفتاً النظر إلى وضع هتلر ، ما يلي : « بعد أن قلل من شأن قوات الأعداء ، تمسك أحياناً بالزعم الخاص بأنه سيكون باستطاعته أن يطرد العدو من الأراضي الإفريقية » . وقد اتهم روميل كسلرنج بالإسراف في التفاؤل بصدد تقدير فرص المحور في شمالي إفريقيا^(١) .

ولم تقف المسألة عند بحد الآمال والآراء . فبعد إقامة رأس الجسر التونسي ، تم حشد قوات ألمانية وإيطالية كبيرة هناك ، كانت تزود بانتظام بأخر الأسلحة . ولهذا تم نقل الرجال والعتاد بالطائرات على مدى واسع . ولقد أكد روميل بالجهد الضخم الذى بذل لتموين قوات المحور في تونس ، وذهب إلى أن تموين القوات كان يفوق بكثير ماتم خلال المعارك التى اشترك فيها فيلق إفريقيا في الصحراء الغربية . وما يوضح مدى ما كان يعلقه الزعماء الألمان من آمال على الجبهة التونسية أن القوات والعتاد كان يتم نقلها بالطائرات في الوقت الذى كانت تبذل فيه الجهود لتموين قوات فون باولوس - المحاصرة في ستالينجراد - عن طريق الجو . ويجب أن نلاحظ أن قوات المحور في تونس كانت بحلول أواسط أبريل لا تزال تعزز ، وأن قرار الانسحاب قد اتخذ في وقت متأخر جداً . وعلى أى حال فقد اتضح في ذلك الوقت استحالة إجلاء الأغلبية العظمى من الجنود . وفي ظل هذه الظروف جرت الاستعدادات لإجلاء البعثتين العسكريتين الألمانية والإيطالية - طبقاً لتعليمات ريبنتروب - في سرية بالنسبة إلى عامة الجنود^(٢) الذين كان من المتوقع أن يتركوا لمصيرهم .

Rommel: Krieg ohne Hass, p. 372

(١)

انظر أيضاً ملحوظات روميل عن محادثته مع هتلر في ١٠ مارس ١٩٤٣ (نفس الصفحة). ويذهب كسلرنج في كتابه إلى أن الحرب الإفريقية كان من الممكن أن تستمر وقتاً أطول بكثير :

Kesselring: Gedanken Zum Zweiten Weltkrieg, p. 99.

(٢) ريبنتروب إلى هنكه Hencke سوندرزوج في ٣ مايو ١٩٤٣ - ٣٠٢٩٨٩/٩٧٥ -

٩٠ . حل هنكه محل فورمان في وزارة الخارجية الألمانية .

العمليات الحربية

١. لبث عامل المفاجأة - الذى أدى إلى حد كبير إلى نجاح نزول القوات الإنجليزية - الأمريكية فى شمال إفريقيا^(١) - أن انتهى ، فحين هاجم جيش الحلفاء تونس من الجزائر كانت قوات المحور هناك بالفعل - لا فنى نهاية نوفمبر كان يوجد فى تونس من هذه القوات ١٥٠٠٠ جندي إلى جانب التفوق الجوى . وفى البداية قرر الحلفاء شن هجوم مباشر على تونس وبنزرت . وبعد بعض الإجراءات التهديدية بدأ الهجوم باتجاه الشاطئ فى ٢٥ نوفمبر ١٩٤٢ . وفى خلال أيام قليلة وصلت القوات البريطانية والفرنسية والأمريكية إلى ما يقرب من ١٢ كيلو متر من تونس بعد أن احتلت ماطر وجديدة وطابورية . وبحلول ٢٧ نوفمبر كان هجوم الحلفاء قد تم إيقافه بعدما هجم المضاد الذى شنته القوات البرية الألمانية تساندها قوات من الجو . وفى ٤ ديسمبر أوقف هجوم المحور المضاد بدوره .

حينئذ غيرت قيادة الحلفاء تكتيكاتها وحاولت الاستيلاء على تونس بالقيام بعملية التفاف من الجنوب والسيطرة على المرتفعات التى كانت تحمى مدخل السهل الساحلى . وقد تمخض القتال الذى نشب فى ديسمبر عن سيطرة الحلفاء على معظم المعابر الجبلية الهامة . وما حلت أواسط يناير ١٩٤٣ حتى كان الحلفاء قد تغافلوا فى الأراضي التونسية ، وأصبحوا يشغلون جبهة على شكل قوس متباعد فى اتجاه شرقى ، يرتكز فى الشمال على الساحل عند تامره (حوالى ٦٠ كيلو متر إلى الغرب من بنزرت) وفى الجنوب على طريق جفصه - قابس وعلى جناحه الأيمن بحيرة شط الجريد . على أن الحلفاء كانوا عاجزين عن الاستيلاء على أى هدف

(١) يذكر كافاليرو Cavallero (فى كتابه Commando Supremo ص ٢٧١ - ٧) أنه قد تم فى ٦ نوفمبر ١٩٤٢ سماع مكالمة تليفونية جرت بين جوردنج وكسلرناج يتضح منها أن الألمان لم يكونوا على يقين من المكان الذى سينزل فيه الحلفاء .

استراتيجي هام في تونس . هذا إلى أن قوات الفيلد مرشال روميل كانت تقرب من ناحية الشرق بعد أن تراجعت أمام ضغط الجيش الثامن الذي كان يقوده مونتيجومري . وهكذا واجه الحلفاء خطر انضمام قوات الجنرال أرنيث إلى قوات روميل في تونس .

وفي ١٩ يناير هاجمت قوات الجنرال أرنيث - التي كانت تضم وحدات مصفحة قوية - الحلفاء في تونس في اتجاه جنوبي وجنوبي شرقي . وبرغم المقاومة القوية التي أبدتها قوات الحلفاء ، فإنها زحزحت عن كثير من المواقع التي استولت عليها على قمم الجبال . وفي نفس الوقت نزلت ثلاث فرق ألمانية - إحداها مصفحة - في صفاقس ، برغم الغارات الجوية القوية التي شنها الحلفاء . واحتل روميل مواقع محصنة على خط مارث الذي كان يمتد بين البحر وبين هضبة متمان . وكان هذا الخط يتولى الدفاع عن مدخل تونس من الجنوب والشرق - وكان الفرنسيون قد بنوه لمواجهة احتمال شن هجوم إيطالي من ليبيا . وبعد أن احتلت قوات روميل هذا الخط ، أصبح يحمي تونس من الجيش الثامن . وكان من المتوقع حينئذ أن يسمح هذا الموقع الحصين بتعاون روميل في الجنوب مع أرنيث في الشمال ضد قوات الحلفاء التي كانت تضغط من ناحية الغرب .

وفي ٣١ يناير شنت قوات روميل هجوماً على موقع الحلفاء في ممر فايد الذي كانت تحتله قوات أمريكية لا خبرة لها بالقتال . وبعد أن عزز روميل مراكزه في هذا الممر ، قام في ١٤ فبراير بشن هجوم واسع النطاق على الوحدات الأمريكية المدرعة . وفي نفس الوقت شن فون أرنيث هجوماً القصد منه عرقلة قوات الحلفاء ، وسجل بعض المكاسب المحلية . وقد أحرز هجوم روميل للمحور مكاسب هامة (وإن تكن مؤقتة) - إذ تم دفع قوات الحلفاء بعيداً إلى الخلف في اتجاه الغرب خارج حدود الجزائر وفي الشمال إلى مدينتي تالا وسبيبه ، ولم يوقف العدو إلا الهجوم البريطاني المضاد الذي جرى في ٢١-٢٣ فبراير . وتمخضت هذه العمليات عن توسيع رأس جسر الذي أقامه المحور في تونس إلى حد كبير ، ولم يبق في أيدي الحلفاء سوى الجزء الشمالي الغربي من البلاد .

وشن روميل هجوماً جديداً في ٦ مارس ، كان هذه المرة ضد خصمه

القديم الجنرال مونتجومرى . وقد منى المحور بهزيمة نكراء من جراء هذا الهجوم ، وخسر فيه جزءاً كبيراً من دباباته - وماحت أواسط مارس حتى بدأ هجوم الحلفاء . وإلى جانب قيام قوات مونتجومرى بهجوم مباشر على خط مارث ، فإن جزءاً منها نفذ عملية تطويق هضبة ممتا من الجنوب والغرب ، على حين شن الأمريكان بالاشتراك مع الجيش الثامن ، هجوماً في اتجاه جفصة ومكناس . وكلت المرحلة الأولى من هجوم الحلفاء بالنجاح في ٢٨ مارس : فقد تم اختراق خط مارث ودخلت القوات البريطانية المدينة الساحلية قابس ، واستعاد الأمريكان المواقع التي كانوا يحتلوها قبل الهجوم الذى شنه روميل في فبراير ، بل عززوها إلى حد ما .

وأحرز الحلفاء في المرحلة التالية من الهجوم (٨ - ١٠ أبريل) مزيداً من الانتصارات . وفي خلال هذه المرحلة انضمت وحدات أمريكية وبريطانية وفرنسية تابعة لقيادة الجنرال أيزنهاور إلى الجيش الثامن . وفي الأسبوع الأخير من فبراير أصبح الجنرال البريطاني ألكسندر قائداً على كل الجبهة ، على حين كان روميل في أوربا منذ ١٠ مارس ، وتولى الجنرال فون أرنيم قيادة كل قوات المحور في تونس . واخترق الجيش الثامن المواقع الحصينة الواقعة بين بحيرة الشط والبحر (وهو ما سدى بخط عكاره) واستولى على صفاقس . وفي الغرب اتصل الجيش الثامن بالقوات الأمريكية المهاجمة في اتجاه جفصة وقابس ، وفي نفس الوقت حسنت القوات الفرنسية والبريطانية العاملة في القطاعين الأوسط والشمالى من الجبهة مواقعها في المنطقة الجبلية التي سرعان ما أصبحت قاعدة للمرحلة الثالثة من الهجوم .

وفي خلال هذه المرحلة (١٠ - ٢٠ أبريل) تم الهجوم على كل القطاعات بحيث حصرت قوات المحور في منطقة صغيرة تقع حول تونس وبنزرت .

الأيام الأخيرة من الاحتلال المحورى

وفى ظل هذه الظروف كان من المحتم أن تحتل المشاكل السياسية الكبرى دوراً ثانوياً . فلم يقيم القوميون بأى خطوات سياسية ، برغم أنهم عززوا قوتهم إلى حد كبير قبيل المرحلة الأخيرة من هجوم الحلفاء ، وذلك حين عاد بورقيبة وبقية زعماء حزب الدستور الجديد . حينئذ كانت مصلحة كل القوى السياسية تقتضى التزام الهدوء ، سواء فى ذلك حزب الدستور الجديد والبلاط وممثلو المحور والإدارة الفرنسية . ووفقاً لاقتراح المقيم أنعم الباي فى ٨ أبريل على عدد من العسكريين والممثلين الدبلوماسيين الألمان والإيطاليين برتب تونسية عالية^(١) . وقد سبق أن ذكرنا أنه أنعم بالنياشين على كتيبة منطربين فرنسيين قوامها ٢٢٠ رجلاً ، بارحت الجبهة فى أوائل أبريل .

وحق فى ظل هذا الموقف جرت أحداث يستشف منها التنافس السياسى والشك المتبادل بين ألمانيا وإيطاليا ، فعلى سبيل المثال كانت الحكومة الإيطالية شديدة القلق نتيجة لخطوة إعلان الباي ملكاً على تونس (أواسط أبريل) وإعلان نجله الأمير رءوف ولياً للعهد . ووفقاً للتقرير الذى بعثه الوزير المفوض إلى روما - بومبيري - كان يعتقد أن ران هو الذى وضع ذلك التقرير . ومن الواضح أن الإيطاليين كانوا يخشون رغبة ألمانيا فى إبداء كرمها للعرب ، طالما أنها كانت لا تخشى فقدان أى شىء فى المرحلة الأخيرة من معركة تونس . على أن هذه المخاوف لم تكن تستند إلى أساس - إذ كانت مبنية على ملحوظات أبدتها ران فى دعاية له مع بومبيري فى أثناء المحادثات التى جرت بينهما . وكما كان الحال فى الماضى ، نجد الألمان مهتمين قبل كل شىء بالتعاون مع الإدارة الفرنسية للمحافظة على النظام الداخلى ، لأن هجوم الحلفاء كان يتطلب من الريخ إمكانيات متزايدة . وقام ران فى ١٢ أبريل - بالاتفاق مع فون أرني - بتعبئة

(١) يشير ران (ص ٢١٦) إلى الإنعام على الألمان وحدهم بميداليات . وهو يعتبر هذا الإجراء

خطوة تلقائية لم يعلمها أى اعتبار على « من جانب الباي » .

السكان للعمل الإجبارى فى التحصينات . وقد عمل الجنود الألمان الذين لم يكونوا فى الجبهة مع الفرنسيين الذين تمت تعبئتهم . وبعد أن تأكد الألمان من أن إجراءات التعبئة لم تجدد قبولاً من الناس ، اعتمدوا — فى هذه الحالة أيضاً — على سلطة الأميرال إستيفا وأفادوا من مساعدة أنصار التعاون^(١) .

وفى أول إبريل ١٩٤٣ قررت السلطات الألمانية وجوب إجلاء كل الفرنسيين الذين خدموا الحلفاء إلى فرنسا وكتب ران إلى رؤسائه فى ١٧ أبريل أن أغلبية الفرنسيين والعرب الذين كان يمكن اتهامهم بالتعاون بارحوا تونس بالفعل ، وكان الألمان مهتمين قبل كل شئ بإبعاد الأميرال إستيفا — المقيم العام — عن تونس ، إذ لم يكونوا يودون أن يقع فى أيدي الحلفاء — وكانوا يخشون أن يبدأ هذا الممثل الوحيد لفيشى فى شمال إفريقيا — الذى بنى حتى النهاية مخلصاً لبثان — لعبة مختلفة تماماً بعد انتصار الحلفاء .

وفى ٢٢ أبريل بدأت المرحلة النهائية من هجوم الحلفاء . فى ٣ مايو استولى الأمريكان على بنزرت ، وفى ٧ مايو دخل الإنجليز تونس واستولى الفرنسيون على قنطرة الفحص ، وهى نقطة استراتيجية دارت بسببها معارك عنيفة فى أثناء الحرب التونسية . وفى ذلك اليوم تم ترحيل إستيفا عن تونس بالقوة ، وانتقل ران إلى مركز قيادة الجنرال أرنيم ، وفى ١١ مايو بارح ران تونس ، وأسرفون أرنيم . وكان يجب نقل الباي بسرعة إلى إيطاليا . وفى ١٣ مايو استسلمت آخر وحدات المحور ، وأسر الحلفاء ربع مليون جندي نصفهم من الألمان . وهكذا انتهت مرحلة هامة من مراحل الحرب العالمية الثانية ، وتمهد السبيل لغزو إيطاليا . وبينما الحرب تستخدم فى تونس طوق الجيش السوفييتى جيش الفيلد مرشال فون باولوس وقضى عليه (٢ فبراير ١٩٤٣) على نهر القوبلجا ، وبذلك تلقى الجيش الألمانى ضربة لم يفق منها أبداً . وبحلول صيف ١٩٤٣ انتقلت المبادرة من الألمان إلى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا التى واصلت ضمة طها فى طريق النصر .

(١) كان ران يرى وجوب إطلاق سراح أسرى الحرب أقرباء المتعاونين وذلك فى مقابل تلك الخدمات ، أو أن يسمح لهم بأن يصبحوا عمالاً « أحراراً » .

خاتمة

البلاد للعربية والمنفيون في عام ١٩٤٣

أدت الهزيمة في تونس إلى تعديل وضع ألمانيا في العالم العربي تعديلاً تاماً . وحينئذ لم يبق بلد عربي واحد داخل منطقة نفوذ الألمان أو حلفائهم أو الدائرين في فلكهم . فقد أدت قوة التحالف المعادي للفاشية إلى القضاء على احتمال بقاء القوات الألمانية بأى شكل على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية أو الجنوبية . وأرغم النازيون على الدفاع أولاً عن البلدان الأوربية المحتلة ثم عن الرايخ ذاته . كما أرغموا على تغيير شعاراتهم الدعائية . فبدلاً من « النظام الجديد » والخطط الخاصة بتقسيم الإمبراطوريات الواقعة في القارات الأخرى ، أخذوا يكتبون عن Festung Europa — الدفاع عن أوروبا التي كان يتهددها غزو « البرابرة » الآسيويين وحلفائهم الغربيين الذين دب فيهم الوهن .

وأمسكت بريطانيا بزمام المبادرة السياسية في البلدان العربية في المشرق من ليبيا إلى العراق ومن سوريا إلى عدن . وفي عام ١٩٤٢ أخذ يلوح تحالف بين قطاع هام من الحركة الصهيونية وبين الولايات المتحدة . ودعمت شركات النفط الأمريكية مراكزها في العربية السعودية ، كما كانت القوات السوفييتية تقف في إيران إلى جانب البريطانيين والأمريكان . ولم يعد الموقف في الشرق الأوسط يتشكل وفقاً للصراع بين المعسكر الفاشي وأعدائه — فقد بدأت فترة جديدة أصبحت فيها التطورات السياسية في هذه المنطقة تحكمها التناقضات الكامنة بين الدولتين الأنجلو — سكسونيتين وبين الاتحاد السوفييتي .

وفي ظل الموقف الجليد قام البريطانيون بمحاولات لإنشاء كتلة عربية موجهة ضد الاتحاد السوفييتي من الناحيتين السياسية والعسكرية وضد الولايات المتحدة من الناحية الاقتصادية . وفي لندن والقاهرة وضع الساسة البريطانيون برنامجاً متواضعاً للوحدة العربية القصد منه ضمان مساندة الدوائر العربية الحاكمة . ولكن سياسة ألمانيا المحتلة

بريطانيا العربية اختلفت هذه المرة عنها في فترة الحرب العالمية الأولى - إذ أنها لم تقتصر على بلدان الهلال الخصيب ، بل امتدت أيضاً إلى مصر . ونتيجة لهذه الجهود التي ساندتها سياسة عرب على جانب من الأهمية ، قامت الجامعة العربية في عام ١٩٤٥ .

وماحل عام ١٩٤٣ حتى وضع سياسة عرب كانوا يميلون إلى المحور حداً لسياسة الانتظار والتربص وبدعوا ينجحون إلى الحلفاء . ففي أوائل هذا العام أعلن العراق الحرب ضد المحور وتلته مصر بعد عامين . وفي فلسطين بدأ السياسة العرب المعتدلون ينظمون قواهم للتصدي لحزب الحسيني ، ورغم أن السلطات البريطانية لم تساندتهم مساندة تامة . وفي سوريا ولبنان ساند الإنجليز الهيئات والسياسة المعادين للفاشية . وكان تدخلهم في عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٥ هو الأساس الذي قام عليه إنهاء الحكم الفرنسي في هذين البلدين . وبموافقة إنجلترا عمل نوري السعيد والأمير عبد الله ثم رئيس الوزراء المصري مصطفى النحاس على إنشاء منظمة للدول العربية .

وفي الوقت نفسه فترت العلاقات بين الزعماء العرب المنفيين وبين الألمان . وفي يونيو ١٩٤٣ سجل بروفر Prufer - سفير ألمانيا السابق في البرازيل الذي اضطلع بمهمة الاتصال بالسياسة العرب في أواخر عام ١٩٤٢ وأوائل عام ١٩٤٣ - حالة الانقلاب التي خيمت على الشرقيين المقيمين في سويسرا نتيجة لهزيمة المحور في إفريقيا . وقد انتقد عباس حلمي خديو مصر السابق أمام بروفر سياسة ألمانيا في شمال إفريقيا وسوريا . وقد عبر شكيب أرسلان وعزيز عزت (باشا) - والأخير سياسي 'مصري' كان على قرابة وثيقة بالأسرة المالكة - عن رأيهما القائل بأنه لا يمكن تحصيل وضع ألمانيا إلا باتفاقها مع الاتحاد السوفيتي ضد الأنجلو سكسون . رفض عادل أرسلان أن يلبي الدعوة التي وجهت إليه في نهاية عام ١٩٤٢ لزيارة ألمانيا - وقد ذكر السفير الألماني في أنقرة أنه رفض الدعوة لسبب معارضته للنشاط الذي كان يقوم به المفتي والكيلاي^(١) ، خاصة وأنه كان

(١) أبدى الأمير عادل أرسلان وجهة النظر هذه حتى قبل ذلك (انظر رسالة الدكتور ألارت Allardt إلى جروبيا - طرابلس في ١٥ أكتوبر ١٩٤٢ - ٩٢٢ / ٣٠٤٤٣٧ - ٣٩) .

متشائماً من وضع المحور العسكري والسياسي . كما وصلت أنباء من أنقرة مفادها أن عادل أرسلان كان على اتصال بالحلفاء وأنه رأى مرات متزايدة مع أصدقائه البولنديين . وأهم من هذا أنه قابل كذلك موظفين بالقنصلية البريطانية العامة في إستنبول .

ولكن أبرز الزعماء العرب الذين كانوا يعيشون في أوروبا — الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني — كانا قد انحازا بقوة إلى ألمانيا بحيث لم يكن باستطاعتهما أن يعدلا موقفهما — كما لا يوجد دليل على أنهما كانا يرغبان في القيام بذلك . وفيما يتعلق بالمفتي السابق بإمكاننا أن نستشف من الوثائق الألمانية أنه كان يقوم بنشاط واسع النطاق في عامي ١٩٤٣-١٩٤٤ وبإمكاننا أن نستخلص أن أنصار المفتي كانوا يقومون بنشاط بين « المهاجرين » محاولين تعويض النفوذ الذي فقده زعيمهم . وفي نفس الوقت غدا موقف المنفيين العرب في البلدان المحايدة أكثر صعوبة . فحين تغير الموقف على جبهات القتال بدأت الحكومة التركية تعديل موقفها . وفي سبتمبر ١٩٤٣ اعتقل البوليس التركي إسحق درويش عميل المفتي وموضع ثقته ، وذلك مباشرة بعد نزول قوات الحلفاء في شبه جزيرة الأناضول — وفي أكتوبر صدر إليه الأمر بمبارحة البلاد . وفي ذلك الوقت طرد كثير من المهاجرين العرب الآخرين ، ولكن السلطات التركية لم تطبق مثل هذه الإجراءات على كل الأشخاص^(١) . وبدأت سويسرا تقيم العراقيين أمام شكيب أرسلان وتحدد حريته في الحركة .

وبعد الهزيمة التي حلت بالألمان في تونس اقتصرنا ، بالاتفاق مع الساسة العرب — وبخاصة المفتي — على ميدانين للنشاط : الدعاية وتنظيم وحدات عسكرية عربية . فبعد انهيار القوات الألمانية في شمالي إفريقيا كان على النازيين أن يقتنعوا بالقيام بالدعاية من بعيد : أي بالراديو وذلك بسبب صعوبة توزيع المنشورات عن طريق الجو ، ولأنه كان يستلزم استعداداً سابقاً . ولم يعد ثمة مجال لتنظيم وحدات عربية لاستعمالها في الميدان العربية ، بل خصصت لها في ذلك الوقت مهام ثانوية في نطاق الجيش الألماني .

(١) إيتل إل ملشرز ، برلين في ١٤ أكتوبر ١٩٤٣ . وهناك قائمة بالمطرودين (٩٣٠ / ٩٨٠٩٠) فتلا لم يتم الألمان صعباً في وجه الأخوين عدى وفيه العظيمة (السوريين) وعادل وأمين أرسلان (اللبنانيين) ومعين المهدي (فلسطين) .

مسألة إصدار تصريح

أثيرت من جديد مسألة إصدار تصريح يتضمن مساندة المحور للمطالب العربية ، وذلك لأسباب تتصل بالنشاط الدعائي . فقد رُئي أن مثل هذا التصريح قد يعرقل قيام مفاوضات بين البريطانيين والزعماء العرب ، وأنه قد يكون له تأثير ما على مشاعر الجماهير . وبعد أن اتفق المفتي مع رشيد عالي عاد فطالب في مارس ١٩٤٣ بإصدار التصريح ، وقدم مسودة له^(١) . وقد أصر المفتي على أن من واجب المحور أن ينهي صمته إزاء المشكلة العربية ، ويرر اقتراحه بالحاجة إلى القيام بعمل مضاد لسياسة الحلفاء وبخاصة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية التي كان لها نفوذ كبير في الدوائر العربية . وأشار إلى أن سبب عدم استعداد المحور لإصدار مثل هذا التصريح العلني في الماضي لم يعد قائماً - فقد أشار إلى أن « فرنسا كانت تريد أولاً أن تستغل ورفقتين - هما شمالي إفريقيا وأسطوطها - ضد المحور ثم فقدتهما نهائياً . وقد اقترحت المسودة أن يعلن المحور :

- (١) أن من أهدافه استقلال وحرية البلدان العربية التي تستغلها إنجلترا ،
 - (٢) استعداده لأن يقدم لهذه البلدان كل مساعدة في نضالها من أجل الحرية ،
 - وأن يعترف باستقلالها وسيادتها ، (٣) اعترافه باستقلال وسيادة البلدان الخمسة الداخلة في الهلال الخصيب (سوريا - لبنان - فلسطين - شرق الأردن - العراق) والموافقة على اتحادها ، (٤) استعداده لتصفية الوطن القوي لليهود في فلسطين .
- وقد بنيت صيغة مسودة تصريح المفتي على تصريحات سابقة علنية وسرية كان المحور قد أدلى بها .

(١) مذكرة الحاج أمين الحسيني بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٤٣ . وتلى ملاحق المذكرة ضوا على أساسها السياسى ومقاصد الاقتراح . فإلى جانب مسودة التصريح (الملحق الأول) والتصريح الياباني الخاص باستقلال البلدان العربية والهند (الملحق السابع) الحق المفتي بالمذكرة نص تصريحات إيدن التي أدلى بها في ٢٩ مايو ١٩٤١ (الملحق الثاني) وفي ٢٣ فبراير ١٩٤٣ (الملحق الثالث) ومقتطفات من المعاهدة الفرنسية - السورية الموقعة في ١٩ سبتمبر ١٩٣٦ (الملحق الرابع) وتصريح دييجول الخاص باستقلال سوريا ولبنان (الملحق الخامس) وتصريح الولايات المتحدة الخاص باستقلال لبنان (الملحق السادس) . وكان المفتي يد أن يؤثر على دولي المحور بحيث تقطعان وعدا يفوق وعده الحلفاء .

وكان الإيطاليون - من حيث المبدأ - يميلون إلى إصدار التصريح على اعتقاد أنه أمر ضروري - إذا لم يكن من الممكن القيام في البلدان العربية بما هو أكثر من الدعاية . وكان المسؤولون الإيطاليون يشبهون المفتى في إشارتهم إلى ضرورة القيام بعمل مضاد للإجراءات التي كان يتخذها الحلفاء ، مع الاختلاف - على أى حال - الخاص بأنهم كانوا يرون أن الخطر الرئيسى كامن في السياسة الإنجليزية المناصرة للوحدة العربية . وبعد مرور أسبوعين على الهزيمة التي حلت بالمحور في تونس ، اتصل الإيطاليون ببرلين بشأن إصدار تصريح في أسرع وقت ممكن . ولكنهم اقترحوا بدلا من ذلك نشر رسالة ريبنتروب وشيانو المشتركة التي وجهت إلى الحاج أمين في العام السابق حين كان المحور قد سجل انتصارات على كل الجبهات ، أو على الأقل الإشارة إلى تلك الخطابات . وبهذا كانوا يأملون أن يتجنبوا الانطباع الخاص بأن إصدار تصريح يساند المطالب العربية أمر جديد بالنسبة إلى سياسة المحور . وفي نهاية يونيو قدم الإيطاليون المسودة التي وضعوها للتصريح - ولم تشر هذه المسودة إلا إلى بلدان الهلال الخصيب مع صياغة مسألة فلسطين بصورة تختلف عما جاء في الوثائق السابقة .

وقد اقترح الإيطاليون إضافة وعد خاص بأن المحور سيرفض كل حل لمسألة فلسطين لايتماشى مع آماني الأمة العربية أو مصالحها . ولم يذكر في هذه المرة شيء عن تصفية الوطن القوي لليهود في فلسطين .

ولكن كان من رأى الألمان أن وقت الهزيمة ليس مناسباً لإصدار مثل تلك التصريحات ، واقترحوا تأجيل المسألة إلى أجل غير مسمى . ومرة أخرى نشبت الخلافات حول مدى الوعود الواجب قطعها للعرب . وقد وافق بعض المسؤولين الألمان على تحذير الكيلاني الخاص بأنه سيكون من الخطأ تضيق نطاق الوعود المبذولة لبلدان الهلال الخصيب في الوقت الذي يتسع فيه مدى النشاط الإنجليزي . ولكن هذه الصعوبات لم تكن هي السبب الذي أدى إلى عدم إصدار التصريح . فمن المؤكد أن المسألة العربية في ذلك الوقت كانت ثانوية بالنسبة إلى الألمان . وبخاصة بعد سقوط موسوليني في يولية وتسليم إيطاليا في سبتمبر ١٩٤٣ .

وبعد بضعة أيام من سقوط حكومة المارشال بادوليو اقترح الدكتور فرتز جروب - الذى كان حينئذ يعمل فى أرشيف سفارة الريخ فى باريس - على رؤسائه بوزارة الخارجية الألمانية وجوب تكريس اهتمام أكبر بالشئون العربية وصدور التصريح الذى كان الزعماء العرب باستمرار يسعون إلى الحصول عليه . واعتقد جروب أن من الممكن القيام بذلك فى ذلك الوقت لأن « خيانة إيطاليا » حررت الألمان من الالتزام الخاص بمراعاة أهدافها فى العالم العربى . ولكن لم يصدر التصريح . على أنه تم فى ٢ نوفمبر ١٩٤٣ - وهو ذكرى وعد بلفور - عقد اجتماع استنكارى فى برلين قرأ فيه المفتى ، وسط حماسة كبيرة ، رسالة بعث بها ريبنتروب . وقد صرح وزير خارجية الريخ الثالث بأن ألمانيا حليف للعرب « الآن أكثر منها فى أى وقت » وأن « إزالة الوطن القومى لليهود من على وجه الأرض » و « تحرير الأمم العربية من الطغيان والاستغلال الأجانب من المبادئ الأساسية للسياسة الألمانية » . كما قرئت فى ذلك الاجتماع رسالة بعث بها هتلر ، اقتصرت - على أى حال - على التهديد باليهود . وكانت رسالة ريبنتروب دليلاً آخر على التحفظ الكبير بصدد بذل وعود للعرب .

ولم يكن ثمة سبب خاص يدعو الألمان إلى اعتبار إصدار « تصريح للعرب » أمراً ضرورياً أو مرغوباً فيه . وقد جرت السياسة الألمانية على عدم الارتباط بمثل هذه التصريحات ، على اعتبار أن هدفها هو خلق المنازعات فى معسكر العدو دون التقدم ببرامج إيجابية . وفى الدعاية التى كان الألمان يوجهونها باللغة العربية ، اقتصروا على مهاجمة التحالف المعادى للفاشية والتحريض ضد اليهود (اقتلوا اليهود حيثما تجدوهم ، من أجل الله والتاريخ والدين) والإشادة بهتلر ، والقول بأن ألمانيا واليابان أصدقاء العرب ، والدعوة إلى رفع لواء الثورة فى فلسطين - إلى غير ذلك . وفى المناسبات الخاصة ، كالأعياد الإسلامية أو الاحتفالات السنوية أو الأحداث السياسية الهامة ، تحدث الحاج أمين فى الراديو الألمانى ، واشترك معه رشيد على فى بعض الأحيان .

وبرغم أن تجنيد فصائل عربية فى فلسطين لم يتمخض عن أى شئ ، فقد

واصل الألمان تشكيل وحدات عربية . وحينئذ استخدم عرب شمالى إفريقيا على نطاق أوسع لهذا الغرض . وفى يونيو ١٩٤٣ كانت مجموعة جديدة من وحدة الاتصال الألمانية - العربية - أغلبها من المراكشيين - تتلقى تدريباً فى اليونان . وكان ثمانون من رجال هذه المجموعة يتدربون على العمل كمظليين ، على حين أن معظم الرجال البالغ عددهم ٦٠٠ كان يتم تدريبهم على القيام بأعمال الحراسة فى اليونان . ومن الواضح أن هذا الهدف قد تحقق ، إذ كشفت « محاكمة البلقان » فى نورمبرج عن أن الحرس العربى أطلقوا القبض على مظليين بريطانيين أرسلوا إلى اليونانيين الموالين للحلفاء . كما تم إنزال مظليين عرب فى فلسطين والعراق فى أواخر عام ١٩٤٤ . وفى نهاية الحرب كان من المحتمل وجود جنود عرب على الجبهة الإيطالية أو الغربية . وقد ذكر عضو الكونجرس عمانوئيل سلر Celler فى ١٠ أبريل ١٩٤٦ أنه كان يوجد ٢,٠٠٠ جندي عربى فى معسكر أسرى الحرب فى أوبليكا Opelika بألباما . وفى أول نوفمبر ١٩٤٤ كان قد أعيد تشكيل الوحدات العربية فى الجيش الألمانى فى فصيلة عربية مستقلة - وكان قصد النازيين من هذا هو الرد على قرار الحكومة البريطانية الصادر فى ٢٠ سبتمبر ١٩٤٤ والخاص بإنشاء فصيلة مشاة يهودية منفصلة يقودها بريجادير جنرال يهودى وترتدى شعاراً يهودياً ، وذلك بعد مساومات استمرت عدة سنوات مع الوكالة اليهودية . وقد استخدم الألمان هذه الواقعة على نطاق واسع فى دعايةهم العربية .

نشاط آخر للمفتى

حينئذ لم يكن للنشاط الدعائى الذى شارك فيه الحاج أمين مشاركة فعالة أو للمكتب العربى الذى كان هو رئيساً له أهمية كبيرة ، إذ أنهما لم يهددا وضع بريطانيا فى البلدان العربية بأى شكل . ولكن فائدة المفتى السابق للألمان لم تقتصر على المجال العربى - إذ كان له نشاط فى مجالات أخرى حتى فى الوقت الذى شهد الانتصارات المحورية فى الاتحاد السوفيتى وشمالى إفريقيا . وتدل الوثائق على أنه كان وثيق الصلة بمنظمات الخونة المسلمين فى القرم وشمالى القوقاز وأذربيجان ووسط آسيا . كما

شارك في الدعاية الموالية لألمانيا والموجهة إلى الهند . ومن المحتمل جداً أن المفتى ساعد على إنشاء وحدات عسكرية من المسلمين السوفييت وقام بنشاط واسع بين مسلمي البلقان . وقد افتخرت الدعاية النازية بمساهمته في تشكيل وحدات سلاح العاصفة من مسلمي البوسنة . وتزودنا قائمة الأسئلة التي كان المفتى يرغب في طرحها على وزارة الخارجية الألمانية في مايو ١٩٤٣ بفكرة عن مدى اهتمامه ونشاطه . فإلى جانب مسألة التصريح الموجه إلى العرب كان المفتى يريد مناقشة مشاكل كرواتيا وإنشاء كتيبة من قوات العاصفة تضم المسلمين، ومشاكل السكان المسلمين في بلغاريا، والتدخل لدى ذلك البلد لمنع هجرة ٤,٥٠٠ يهودي (٤٠٠ منهم أطفال) إلى فلسطين ومسألة تحويل المساكن اليهودية السابقة في برلين إلى المعهد الإسلامي ، واقترح لإنشاء قسم عربي - إسلامي خاص في وزارة الخارجية الألمانية . وكان مجهود المفتى لإيقاف الهجرة اليهودية من أوروبا جزءاً لا يتجزأ من نشاطه في أثناء الحرب العالمية الثانية . وتحتوي الوثائق التي نشرت بعد الحرب على بعض الخطابات التي أرسلها إلى حكومات بلغاريا (٦ مايو ١٩٤٣) وإيطاليا (١٠ يونيو ١٩٤٣) - ورومانيا (٢٨ يونيو ١٩٤٣) والمجر (في نفس التاريخ) طالباً منها إلغاء السماح بالهجرة اليهودية ، والاستعاضة عن ذلك بإرسال اليهود إلى بولندا حيث يتم وضعهم تحت رقابة فعالة ، ويؤكد اعتراف أحد معاوني أَيْخمان - واسمه ديتير فسلنسني Dieter Wislicency (وقد تم شنبه في براتسلافا) كما تؤكد شهادة كازنر R. Kasztner - أحد زعماء اليهود المجرين - الدور الذي قام به المفتى في منع الهجرة اليهودية من البلدان الأوروبية التي كان يحتلها النازيون . ويتضح من الشهادة أن المفتى عمل بالتعاون مع الجهاز النازي المسئول عن القضاء على اليهود . وفي عام ١٩٤٤ اشترك الحاج أمين في تنظيم المؤتمر المعادي لليهود الذي كان من المنزحي أن ينعقد في كراكاو^(١).

وفي خلال الأشهر الأخيرة من الحرب تنقل الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني أحياناً من مكان إلى مكان - في البداية خوفاً من الغارات ، ثم بعد ذلك من

(١) PS-1752 IMT, Vol. XXVIII لم ينعقد المؤتمر . انظر :

Eisenbach: Hitlerowska Polityka Zagłady Żydów, Warsaw, 1962, p. 614.

(سياسة هتلر الخاصة بالقضاء على اليهود) .

اقتراب جيوش الحلفاء من ألمانيا من الشرق والغرب . وحين استسلمت ألمانيا توجهوا إلى الحدود السويسرية ، وحين لم يسمح للكيلافي بالدخول توجه إلى بلجيكا ثم إلى فرنسا . وفي أواسط يولية هرب من مرسيليا قاصداً إلى بيروت ، ومنها اتجه إلى دمشق ، ووصل في النهاية إلى الرياض حيث منحه الملك ابن سعود حق اللجوء السياسي . ولم يعد إلى العراق إلا في أعقاب ثورة ١٤ يوليو (٢٠وز) ١٩٥٨ . وحين حاول أن يتزعم التيار السياسي المناهض بالوحدة العربية ؛ ثم القبض عليه في عام ١٩٥٨ ، ولم يطلق سراحه إلا في ١٤ يولية ١٩٦١ مع مجموعة من رؤساء الوزراء العراقيين السابقين .

وتوجه الحاج أمين إلى برن ، ولكن لم يسمح له بالإقامة في سويسرا ، وتم القبض عليه في أثناء عبوره الحدود الفرنسية ، ووضع في فيلا بالقرب من باريس سمح له فيها بحرية الحركة بحيث كان باستطاعته أن يستقبل الماسة العرب وأن يستأنف دوره باعتباره زعيماً لعرب فلسطين . وحين أحس باحتمال اتهامه بأنه مجرم حرب هرب في مايو ١٩٤٦ بجواز سفر صدر باسم معروف الدواليبي الذي نشط فيما بعد في مجال السياسة السورية ، ووصل إلى القاهرة على متن طائرة حربية أمريكية عن طريق روما وأثينا ، وهناك حل ضيفاً على الملك فاروق . وكان لا يزال أمامه دور هام في المرحلة الأخيرة من النضال في سبيل فلسطين ، وهو النضال الذي تمخض في النهاية عن ظهور دولة إسرائيل وخروج عدة آلاف من عرب فلسطين . وفي عام ١٩٦٢ كان يعيش في بيروت وفي خلال المرحلة الأولى من الحرب الفلسطينية لعب بعض الزعماء العرب الآخرين - الذين سبق أن عرضنا لهم - دوراً هاماً ، ولكن لا يحصلون عليه - فقد كان فوزي القاوقجي - على سبيل المثال - قائداً « لجيش الإنقاذ » العربي .

السياسة الدولية والحركة القومية

لا يزال من السابق لأوانه أن نلم بتفاصيل مدلول سياسة ألمانيا النازية في البلدان العربية . وكثير ممن لعبوا دورهم لا يزالون أحياء ، وكثيراً ما شغل بعض من تشكّلت آراؤهم خلال تلك الفترة وظائف عامة ، بل مراكز رئيسية ، في البلدان العربية . ولم تنقطع الروابط التي نشأت حينئذ ، وحدثت بعض البلدان العربية حذو ألمانيا الغربية والألمانيين وأسبانيا فيما يتعلق بحماية المحرّمين النازيين ، وقد دخلت جمهورية ألمانيا الاتحادية في مجال المنافسة الإمبريالية في سبيل الاستحواذ على النفوذ في المشرق العربي . ومن الصعب أن نقيم أثر التطورات المعاصرة في توسع جمهورية بون في الحاضر والمستقبل .

على أن بإمكاننا أن نلخص الفترة التي عرضنا لها في هذا الكتاب تلخيصاً وجيزاً وأن نحدد معالمها — فهي فترة تشكّلت في خلالها أحداث الشرق الأوسط تحت تأثير ازدياد قوة المحور . فقد كان بإمكان المحور ، وبخاصة ألمانيا ، أن يستغل الحركة القومية العربية لخدمة أهدافه ، وقد استغلها بالفعل . وكانت العلاقات النازية بالقومية العربية وزعمائها عاملاً مساعداً للسياسة الألمانية لإزاء الدول العظمى الأخرى ، وعلى رأسها بريطانيا أكبر خصوم ألمانيا في البحر المتوسط وغربي أوروبا وما دامت ألمانيا كانت تسعى إلى الاتفاق مع بريطانيا ، فلنْها حددت نشاطها إلى حد كبير في المشرق العربي . حقيقة أن خطة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية هناك (١٩٣٧) قد جعلت الدوائر الألمانية الحاكمة تهتم بالشئون العربية ، إلا أن ذلك لم يؤد إلى تغيير حاسم في السياسة الألمانية .

وقد جاء التغير في العلاقات الإنجليزية — الألمانية نتيجة لازمة تشيكوسلوفاكيا ومؤتمر ميونخ — إذ أن الألمان اتخذوا حينئذ إجراءات بعيدة المدى في البلدان العربية : فزودوا ثوار فلسطين بالمال والأسلحة ، وأقاموا اتصالات

دبلوماسية مع ابن سعود ، وعقدوا اتفاقية بهدف إهدائه الأساحة وبيعها له . ولكن عوامل جديدة كانت تفرض نفسها وعرقلت نشاط ألمانيا — أهمها أن الريخ كان عليه أن يضع في عين الاعتبار مصالح إيطاليا أقرب حلفائه إليه . وقد رأى زعماء برلين أن الدول الكبرى المنافسة لإنجلترا وفرنسا تلعب في النضال ضد الدول الاستعمارية الكبرى — المساندة الكبرى للنظام الذي أوجدته تسوية فرساي — دوراً أكبر من ذلك الذي تلعبه حركات التحرر الوطني .

وفي التصريحات التي أدلى بها هتلر لخلال الأشهر الأخيرة من الحرب ، وهي التصريحات التي علق عليها مارتن بورمان ونشرت بعد الحرب باعتبارها وصية هتلر السياسية ، أشار زعيم الريخ إلى الاحتمالات الجديدة التي كانت تواجه ألمانيا على أثر الهزيمة . وذهب هتلر إلى أن أمل ألمانيا معقود على تعميق التناقضات الكامنة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، وعلى قيام التحالف بين ألمانيا وشعوب المستعمرات المستغلة في آسيا . كما أنه عبر عن أسفه لعدم استغلاله كل إمكانيات المحركات الوطنية في الممتلكات الفرنسية ، وبخاصة في سوريا وتونس . ويبدو أن هذه التصريحات كانت تعبر عن سخطه على التحالف مع إيطاليا والتعاون مع فيشي . كما أنها تعكس ظهور الاشتراكية الوطنية بمظهر شبه ثوري ، وهو ما بدت عليه في كثير من الأحيان ، وبخاصة بعد محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ يولييه ١٩٤٤ . على أن هذه التصريحات لا تعكس الاتجاه الحقيقي لهتلر ومعاونيه . وفي المؤتمر الذي انعقد في نوفمبر ١٩٣٧ (الذي تبرزنا بروتوكولات هوزباخ Hossbach المشهورة مضمونه) ، أعلن هتلر دون موارد أن « أكبر أعداء الدول الغنية ليست حركات التحرير في المستعمرات ، بل خصومها الاستعماريون » . وتلقى مذكرة ملشرز التي كتبها في ديسمبر ١٩٤٠ ضوءاً هاماً على موقف ألمانيا النازية من الحركات الوطنية في المستعمرات . وقد أشار مدير القسم السياسي السابع في ذلك الوقت — الذي أصبح بعد الحرب سفيراً لألمانيا الغربية في عمان وبغداد ونيودلهي — إلى أن الألمان لم يكن لديهم من الأسباب ما يدعوهم إلى العطف على الشعب العربي ، لأن العرب — وفقاً لقوله — كانوا معادين لأوروبا من حيث المبدأ . لهذا ذهب إلى أن على الريخ أن يساند الطالب القومية العربية بالقدر

الذى يخدم أغراضه دون أن يصل به الأمر إلى العطف عليها . ومن هنا نجد أن كره الحركات الوطنية في المستعمرات قد نما نمواً طبيعياً من ثنابا الفللفة السياسية التي كانت تعتنقها ألمانيا النازية ، دون أن يتأثر بالاعتبارات السياسية الطارئة — وكان ذلك يختلف عن الفلسفات السياسية التي كانت تعتنقها اليابان والولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الاشتراكية بطبيعة الحال .

فلسفة الأجناس (Racism)

والفكرة الأوربية

كانت الفلسفة السياسية النازية تتصل بفلسفة الأجناس وما سمي « بالفكرة الأوربية » — وقد بدت الفلسفة الجنسية النازية باستمرار في علاقات ألمانيا بالزعماء القوميين العرب . حقيقة أن المظهر الرئيسى لفلسفة الأجناس النازية — اللاسامية — كان يتجه إلى تدعيم هذه العلاقات بسبب الصراع اليهودى — العربى فى فلسطين ، وفى الواقع أن اضطهاد ألمانيا لليهود كانت له آثار سلبية بالنسبة إلى العرب الفلسطينيين . إلا أن الأمر لم يقتصر على اليهود ، بل إنه امتد كذلك إلى شعوب آسيا وإفريقيا التى كانت بوجه عام تحتل موضعاً أدنى فى سلم هتلر الخاص بالأجناس . ويتضح من كثير من التصريحات التى أدلى بها الزعماء والمستولون الألمان أن ثمة اتجاهًا إلى الغض من قيمة العرب وبغض صفاتهم وسلوكهم السياسى وعدم الاعتقاد بقدرتهم على إقامة دولة وإخلاصهم كحلفاء . ولم يستثن من ذلك سوى قليل من الساسة العرب ، وبخاصة الحاج أمين الحسينى وذلك على زعم أن بهم دماء آرية . وثباتاً كانت الوعود التى قطعت للعرب — ولم يبدل كثير من هذه الوعود — فإن الألمان لم يشكوا إطلاقاً فى أى وقت من الأوقات فى أن العرب سيظلون تابعين للسادة الأوربيين وخاضعين لهم بعد النصر النهائى للمحور .

وكانت « الفكرة الأوربية » هى الشعار الذى قصد به الألمان أن يتم التعاون بينهم وبين الدول الأوربية المقربة التى كانت تعتمد عليهم فيما يتعلق بتقسيم المستعمرات ومناطق النفوذ بين واضعى ذلك « النظام الجديد » فى أوربا . وكان

الألمان يطالبون لأنفسهم بإمبراطورية استعمارية في وسط إفريقيا تمتد بين المحيطين الهندي والأطلسي وكان من المتوخى أن تمتد إلى جنوب هذه الإمبراطورية منطقة نفوذ اتحاد جنوبي إفريقيا ، وأن تمتد إلى شمالها المنطقة الإيطالية وإلى شمالها الغربي المنطقة الفرنسية . وكان من المتوخى أن تكون مناطق هامة من نصيب إسبانيا والبرتغال . وكان من الواجب أن تدخل البلدان المجاورة الواقعة في المشرق العربي في مناطق النفوذ الأوروبية . وقد أقر الألمان من الناحية الرسمية وبجوب وقوعها تحت النفوذ الإيطالي ، ولكنهم كانوا في الواقع يقصدون أن يحتفظوا لأنفسهم بمصالح اقتصادية وسياسية كبيرة هناك . ومن المؤكد أن مطامع ألمانيا الاستعمارية واتفاقها المرتقب مع دول استعمارية أخرى قد أدت إلى تحديد تحركاتها في البلدان العربية إلى حد كبير . أما في سوريا وتونس حيث كانت أمامها فرص لإجراء بعض التغييرات الدستورية لصالح العرب ، فإنها لم تقم بشيء في هذا المضمار . وقد يكون من المفيد أن نقارن هذه السياسة الألمانية ، وبخاصة فيما يتعلق بتونس ، بالسياسة التي اتبعتها اليابان في إندونيسيا وفيتنام وبورما . ففي أثناء المراحل الأخيرة من الحرب حول اليابانيون قسماً كبيراً من الحكم إلى الوطنيين المحليين ، وبذلك ساعدوا على قيام حكومات وطنية . أما الألمان فإنهم ، على العكس من ذلك ، أبقوا على الوضع الاستعماري القائم في تونس حتى اللحظة الأخيرة — إذ أن سياسة ألمانيا النازية لإزاء العرب قامت على أسس الاستعمار القديم بالمعنى التقليدي للكلمة ، وذلك برغم كل الديماجوجية الخاصة بالاستقلال والحرية .

مقتضيات الحرب

أحياناً ما تفرض متطلبات الحرب سلوكاً يتناقض مع الفلسفة السياسية لنظام الحكم . ومن أجلنا نجد التبرير الألماني ينادى في أثناء الحرب العالمية الأولى بحفز الثورات داخل أراضي العدو ، وأن البريطانيين يساندون التتوية العربية برغم انتباهات حكومة مستعمرة الهند التابعة لهم . وقام الإنجليز في أثناء الحرب العالمية الثانية بمساندة حرب العصابات التي كان يشنها الشيوعيون في الملايو وبنوغوسلافيا ،

على حين أن متطلبات الحرب أملت على الأمريكيان أن يصرّوا على اتفاق حزب الكومنتانج مع الشيوعيين في الصين . ولكن كيف كانت متطلبات العمليات الحربية تشكل سياسة ألمانيا إزاء القومية العربية ؟

كانت مقتضيات الحرب بالنسبة إلى ألمانيا النازية تتطلب قبل كل شيء النظر بعين الاعتبار إلى مصالح الدول الأخرى التي كانت قواتها المسلحة تستطيع تسهيل انتصارها أو عرقلة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذه الدول هي إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وتركيا : الإيطاليون باعتبارهم حلفاء لألمانيا في الحرب ، وفرنسا وإسبانيا على أساس أنهما تسيطران على أراض شاسعة في شمالي إفريقيا تضم المناطق المجاورة لقوات المحور المسلحة ، وتركيا (وقبل يولييه ١٩٤١ فرنسا أيضاً) باعتبارها دولة كان تعاونها ضرورياً لتنفيذ خطط الريخ في بلدان الهلال الخصيب . وكانت مصالح كل هذه الدول تتعارض مع الأمانى العربية ، وكان على الألمان أن يحسبوا حسابها في عملياتهم في البحر المتوسط ..

وأهم من هذا أن ألمانيا لم تحاول على الإطلاق أن تحسم الحرب العالمية الثانية في الشرقين الأدنى والأوسط . وكانت الانتصارات الضخمة التي سجّلتها هناك في عامي ١٩٤١ - ١٩٤٢ ترجع قبل كل شيء إلى ضعف الحلفاء . وليس معنى هذا أن القتال الذي نشب هناك لم يلعب دوراً هاماً من زاوية مجموع العمليات الحربية . ويبدو أن فقدان شمالي إفريقيا في عامي ١٩٤٢ - ١٩٤٣ قلل بشكل خطير قدرة ألمانيا على المناورة بعد ذلك ، أي في مرحلة المزيمة النهائية . وقد عبر هتلر في وجهته السياسية عن ضيقه العميق وسخطه الشديد على تحالفه مع موسوليني : برغم أنه - كما رأينا - لم يحسن استغلال تحالفه في الشرقين الأدنى والأوسط .

بعد سقوط فرنسا كانت قوات الحلفاء في تلك المنطقة شديدة الضعف سيئة التنظيم بحيث كانت ثلاث فرق ألمانية : إحداها مصفحة واثنان من قوات المشاة ، تكفي (وفقاً لرأى لبعض الاستراتيجيين) لإحراز انتصار حاسم : الاستيلاء على قناة السويس والاتفاف حول الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي . ولكن الألمان كانوا في البداية يتوقعون أن تطالب بريطانيا بالصلح بعد سقوط فرنسا ، ثم اعتقلوا بعد ذلك أنها ستستسلم أمام خطر تعرضها للغزو ، أو أن

سلاح الطيران الألماني سيجعل هذا الغزو ممكناً . ولكن حين لم يتحقق أحد هذه الاحتمالات ، اكتسب البريطانيون وقتاً يكتفى لحشد قوات كافية في مصر وتدمير جيش جراتسياني في الصحراء الغربية . وهكذا يتضح لنا أن سياسة ألمانيا العربية لم تكن تتصف بالمبادرة العسكرية . ومن الناحية العملية لم يقم الألمان بما يزيد على شن حملة دعائية . وكانت الاتصالات التي أقاموها مع الزعماء والقوى السياسية ناتجة في جوهرها عن المبادرة العربية .

وفي الفترة التالية ، أي منذ خريف عام ١٩٤٠ ، أخذت القيادة العسكرية النازية تهتم بالشرق الأوسط . فقد ترتب على غزو موسوليني لليونان وفشله في شمال إفريقيا ، ومن المحتمل أيضاً مخططات ألمانيا في البلقان ، أن تحول اهتمام ألمانيا إلى البلدان العربية . ولاعتبارات جغرافية ، ولأن بريطانيا لم تكن لديها سوى قوات محدودة ، نجد أن البلقان والشرق الأوسط يشكلان بالنسبة إليها منطقة للعمليات . ولكن القيادة الألمانية وضعت نصب عينها في ذلك الوقت مهاماً محدودة في شمال إفريقيا . وكان أهم ما يعينها الحصول على قواعد تستطيع منها بث الألغام في قناة السويس وقذفها بالقنابل . ولم يحدث إلا بعد أن منى الإيطاليون بهزيمة خطيرة (ديسمبر ١٩٤٠ - يناير ١٩٤١) - أن أرسل هتلر روميل إلى شمال إفريقيا لأغراض دفاعية . وكان عليه أن يحول دون فقدان الإيطاليين لكل مستعمراتهم في شمال إفريقيا وأن يمنع القوات البريطانية من الاتصال بالقوات الفرنسية في المغرب . وقد أجل هتلر المواجهة النهائية في تلك المنطقة إلى أن تكتمل عملية بربروسا . وكان الإعداد لغزو الاتحاد السوفيتي - لاعمليّة شمال إفريقيا - هو شغل ألمانيا الشاغل .

وقد اتخذت القرارات الخاصة بعدد القوات الألمانية الواجب إرسالها إلى شمال إفريقيا على ضوء الفكرة السابق ذكرها . حقيقة أن ضعف إيطاليا ووجود القوات الألمانية في شمال إفريقيا قد جعل القيادة النازية تشغل بالشئون العربية بصورة أكثر فعالية ، وبخاصة حين لاحت الحركة المعادية لبريطانيا في العراق . ولكن برغم القرار الخاص بإشعال الثورة ضد البريطانيين في العراق ، وهو القرار الذي اتخذ إزاء إصرار ريبنتروب ، نجد أن اتخاذ قرارات هامة بشأن البلدان العربية قد تأخر

بشكل خطير ، على حين أن عدم الوضوح قد ساد حتى النهاية بصدد شكل النشاط الألماني ونوعيته ومداه .

ومن المحتمل أن السبب الرئيسي في ذلك هو أن كل اهتمام القادة العسكريين كان منصباً على القيام بالاستعدادات الخاصة بالهجوم على الاتحاد السوفيتي ، وأنهم لم يكونوا متحمسين للقيام بمغامرات جديدة في الشرق الأوسط .

ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا أن هتلر أرغم على تنيير تاريخ شن الهجوم على الاتحاد السوفيتي بسبب التغيرات التي طرأت على الموقف - وحدث ذلك أيضاً فيما يتعلق بالحرب في يوغوسلافيا . وما لاشك فيه أن من الممكن ربط كل الافتراضات : ما الذي كان يحدث لو استطاع الألمان إنهاء معاركهم في البلقان في وقت مبكر ، واو أن ألمانيا لم تمن بمثل هذه الخسائر الضخمة في كريت ؟ ١٠ الذي كان يمكن أن يكون عليه مصير الحرب لو فشلت الحكومة البريطانية في التغلب على مقاومة القيادة العسكرية في الشرق الأوسط ، أو لو أن لندن لم تلجأ إلى التدخل المسلح في العراق ، أو لو أن الجيش العراقي أبدى قدرة أكبر - على القتال ، أو حتى لو كانت لدى الألمان اتصالات أكثر تنظيماً ومعلومات أدق عن مجرى القتال والموقف في العراق ؟ ويتفق الاستراتيجيون على أنه كان بإمكان قوات ألمانية صغيرة أن تعدل مجرى الأحداث هناك تعديلاً جذرياً . وأيضاً كان الأمر فإن السبب الرئيسي الذي أدى إلى تصرفهم بالشكل الذي تصرفوا به - لالعكس - في البلدان العربية خلال النصف الأول من عام ١٩٤١ هو هجومهم المدبر على الاتحاد السوفيتي . وقد تم التعبير عن هذه الخطة في التعليمات رقم ٣٠ الصادرة في ٢٣ مايو ١٩٤١ التي سبقت الإشارة إليها - وفحواها وجوب تأجيل المواجهة النهائية مع بريطانيا في البحر المتوسط والخليج (العربي) إلى ما بعد براباروسا .

وكانت ألمانيا تزمع الإفادة بصورة أكبر من القومية العربية بعد إحراز النصر على الاتحاد السوفيتي - أي في خريف عام ١٩٤١ طبقاً لخطط هتلر ، وقد خصصت التعليمات رقم ٣٢ الصادرة في ١١ يونيو ١٩٤١ بصدد إعداد الخطط للعمليات الحربية التي كان من المتوخى أن تنلوا براباروسا بنشأ خاصاً باستغلال حركة التحرير العربية ، وصدرت إلى سوندرستاب ف تعليمات عمل في ملحق خاص بهذه التعليمات . وقد قامت أركان الحرب الألمانية ووزارة خارجية الريخ باستعدادات

لاستغلال الشعب العربي والدوائر السياسية العربية في الخطط الألمانية الخاصة بالثبام بهجوم مصر وتركيا وسوريا وفلسطين ، وكذلك عبر القوقاز وإيران والعراق . وقد أدى فشل هتلر في تحقيق أهدافه في الاتحاد السوفيتي إلى حسم مجرى الأحداث في جبهة شمال إفريقيا وفي الشرق الأوسط بوجه عام . وقد فشل الألمان من جديد في إرسال قوات كافية إلى هذه الجبهة ، على حين استطاعت بريطانيا أن تقوم بحشد جيش قوى مزود بأحدث الأسلحة في الشرق الأوسط . وكان يبدو في صيف وأوائل خريف عام ١٩٤٢ أن نجاح الخطط النازية في هذه المنطقة أمر وشيك الوقوع . ولكن الكارثة التي حلت بالألمان على نهر الفولجا وهزيمة المحور في العلمين قد أدبا إلى فشل كل الخطط الألمانية الخاصة بالعالم العربي . ومنذ ذلك الوقت ، وبخاصة بعد طرد قوات المحور من شمال إفريقيا ، لم تكد الشئون العربية تلعب أى دور في خطط النازيين العسكرية وسياستهم .

وقد سبق أن رأينا أن المتطرفين من الساسة العرب القوميين رأوا أن الحرب أنسب فرصة للقيام بتحرير العرب ، وهي فرصة ، « لا يعلم إلا الله متى تتكرر » . وقد سبق أن حاولنا أن نوضح أن هذه الفرصة كانت وهمية ، بحيث لم يكن من واجب أى سياسى مسئول أن يعتمد عليها . ولم ينخفض ارتباط العرب بالمحور عن إحرازهم أى مكاسب إيجابية . وفي الواقع أن بإمكانهم أن يعتبروا أنفسهم حسنى الحظ لأنهم لم يتعرضوا بشكل أو بآخر لمصير البلدان الأوروبية التي رزحت تحت السيطرة الألمانية أو الإيطالية في أثناء الحرب العالمية الثانية .

لقد كانت الحرب ، وبخاصة السنوات ١٩٣٩ - ١٩٤٢ ، فترة متأزمة بالنسبة إلى الحركة القومية العربية . ولم تظهر القوى التي خلعت على القومية العربية اتجاهها جديداً إلا بعد الحرب - وحينئذ انفسح المجال أمام النضال العربي في سبيل الحرية ، برغم أن ذلك لم يكن نتيجة لجهود برلين وروما . فقد سنحت الفرصة أمام حركة التحرير العربية بعد هزيمة « أكثر عناصر رأس المال رجعية وشوفينية وإمبريالية » ، التي كانت تمسك بزمام الحكم في برلين وروما - إذ أنها ارتبطت بانتصار التحالف المعادى للفاشية ، وظهور توازن جديد في القوى العالمية في أعقاب الحرب العالمية الثانية ،

المصادر

مادة وثائقية (أصول ، ميكرو فيلم وفوتوسنات)

١ - وثائق وزارة الخارجية الألمانية

التي استولى عليها الحلفاء الغربيون

- Ser. No. 59 Chef AD, Irak, 1937 - 1941.
 65 RAM, Iran 1939 - 1943; StS., Iran 1939 - 1944.
 70 StS., Syrien 1940 - 1944 - UstS., Telegramme Rahn 1941.
 71 StS., Saudisch Arabien, Arabien 1939 - 1944.
 72 Chef Ao, Rassengesetzgebung 1935-1937; Haavara 1938;
 Judenstaat 1937 - 1938.
 83 RAM, Iraq 1938 - 1943; StS., Irak 1939 - 1944.
 86 Botaschaft Rom (Qui), Indische und arabische Legion 1942.
 90 RAM, Palästina 1937 - 1941.
 109 StS., Krieg in Afrika 1942 - 1943.
 116 RAM, Afrika 1939 - 1941.
 266 StS. Ägypten 1939 - 1943.
 345 Hapol Wiehl, Ägypten 1942.
 467 Material der Wako Wiesbaden 1941.
 468 „ „ „ „ 1941 - 1942.
 469 „ „ „ „ 1941.
 470 „ „ „ „ „
 471 „ „ „ „ „
 540 StS., Afrika 1939 - 1943.
 541 StS. Afrika 1943 - 1944.
 647 USTS., Arabien - Syrien - Irak 1940 - 1941.
 653 Pol. II, Frankreich - Syrien 1936 - 1938.
 658 USTS., Syrien : Rahn Telegramme 1941.
 699 USTS., Irak III 1941.
 792-Irak II, 1941.
 794 USTS., Irak IV 1941 - 1942.
 826 Briefwechsel Ciano Grossmufti etc . . 1942.
 930 Büro Gesandter Ettel. Handakten.
 992 „ „ „ „
 993 „ „ „ „
 995 „ „ „ „

- Ser. No. 974 USTS., Nordafrika I.
 975 USTS., Nordafrika II.
 1000 Ägypten.
 1155 Gesandter v. Hentig. Korrespondenz.
 1225 Pol. II. Politische Beziehungen Grossbritaniens zu Palästina.
 1246 Rahn. Eingehende Telegramme 1942.
 1260 „ „ „ 1943
 1276 „ „ Ausgehende Telegramme 1942 - 1943.
 1290 „ „ Ausgänge, Weiterleitung der Telegrammen der Residence.
 1304 Rahn, Tunis, Schriftverkehr.
 1319 V. Hentig. Syrienreise 1940 - 1941.
 1428 Ettel. Ägypten.
 1442 Ritter. Ägypten 1942.
 1446 Ettel. Handakten, König Faruk.
 1473 Ettel. Handakten, Grossmufti.
 1475 Ettel. Politik und Propaganda in Arabien.
 1495 USTS., STS., Chef AO. Palästinafrage 1937-1939.
 1520 Pol.VII. Palästina, Judenfragen 1936 - 1943.
 1525 „ „ Dreiteilungsplan Palästinas 1937.
 1526 „ „ „ „ „
 1541 „ „ „ „ 1937-1938.
 1542 „ „ Politische Beziehungen Palästinas zu Deutschland 1936 - 1938.
 1560 Politische Beziehungen Syriens zur Türkei 1936.
 1581 H Pol. VII. Politische Beziehungen Syriens zur Türkei 1937 - 1938.
 Ser. No. 1582 H Pol. VII. Politische Beziehungen Syriens zur Türkei 1937 - 38.
 1605 Pol VII. Politische Beziehungen Saudisch-Arabiens zu Deutschland 1937 - 1939.
 1626 H Pol. VII. Arabien 1936 - 1939.
 1806 Ettel Weiterleitung Post für Grossmufti 1943-1944.
 1947 H Pol. VII. Judenfragen und Beziehungen Indiens und Irans 1936 - 1941.
 2029 Inl. II. A/B. Gründung eines Palästina-Staates 1937 - 1944.
 2150 H Hapol Wicbl. Irak 1932 - 1941.
 2151 H „ „ „ 1941.

- Ser. No. 2160 H Rahn, Verschiedenes 1942 - 1943.
 2207 Hapol Wiehl. Syrien 1927 - 1941.
 2212 H USTS. Syrien, Telegramme Rahn 1941.
 2213 H USTS. Nordafrika 1942 - 1943.
 2309 H RAM. Afrika 1939 - 1941.
 2826 H Chef AO. Irak 1937 - 1941.
 2827 H Pol. VII. Irak, Innere Politik, Parlaments - und Partei-
 wesen 1936 - 1939.
 3493 H Pol. VII. Arabien 1936 - 1939.
 3496 H Pol. VII. Politische Bezeinhungen Palästinas zu Deut-
 schland 1936 - 1938.
 3861 H Pol. II Politische Bezeihungen Englands zu Palästina
 1936 - 1937.
 3864 H Botschaft Ankara, Syrien.
 4513 H Inl. II A/B. Grundung eines Palästina Staates 1937 -
 1939.
 4648 H Botschaft Paris. Afrika 1940 - 1944.
 4739 H Kult Pol. (g). Material betr. Orient 1942.
 4740 H Hapol Wiehl. Irak 1932 - 1941.
 4741 H „ „ „ 1941.
 4744 Pol. VII. Nachlass v. Hentig. Länder des Vorderen Orients
 1939 - 1942.
 4756 H Hapol Wiehl, Syrien 1927 - 1941.
 4759 H Botschaft Ankara. Syrien; Italienische Waffenstillstand -
 Kommission insb. Nachrichten aus Syrien 1940 - 1941.
 5237 H Ettel. Handakten, Grossmufti.
 5774 H Inl. II A/B. Gründung eines Palästina - Staates 1938 -
 1944.
 6354 H Reichskanzlei. Berichte v. Papen, Krieg 1941 - 1944.
 6666 H Handel mit Kriegsgerät Irak 1937.
 6667 H „ „ „ „ „ „
 7057 H Pol. VII Saudisch - Arabien 1937 - 1939.
 7058 H „ „ Palästina 1937 - 1938.
 7059 H „ „ „ 1936 - 1938.
 7060 H „ „ „ 1936 - 1939.
 7061 H „ „ „ 1937
 7256 H STS Arabien 1942 - 1944.

Ser. No. 7515 H Pol. II Politische Beziehungen Englands zu Irak
1932 - 1936.

8362 H Pol. VII. Politische Beziehungen Saudi Arabiens zu
Deutschland 1937 - 1939.

K 854 Pol. VII. Politische Beziehungen Ägyptiens zu England,
Indien, Irak, Innere Politik, Parlaments und Partei-
wesen. Politische Beziehungen Irans zu Deutschland.
Politische Beziehungen Indiens zu Deutschland.

K 855 Pol. VII Orient.

K 856 „ „ „

K 857 „ „ Politische Beziehungen Palästinas zu Deutschland.

K 858 Pol. B VII Palästina, Innere Politik.

K 859 „ „ „ „ „

K 859 „ „ Palästina

K 861 „ „ „

K 862 Pol. VII. Politische Beziehungen Syriens zu Türkei.

K 863 „ „ „ „ Saudi Arabiens zu
Deutschland.

K 868 Pol. VII. Arabien.

K 869 „ „ Islam.

K 871 Pol. VII. Privata Ägypten.

K 873 „ „ „ Irak.

K 879 „ „ Aufzeichnungen Botschafter Prüfer über
Verbindungen mit prominenten in der Schweiz 1942-
1943.

K 880 Pol. VII. Dienststelle Botschafter Dr. Prüfer, Briefwechsel
mit prominenten Orientalen in der Schweiz 1942-1943.

وثائق مستقاة من الأرشيف المركزي

الألماني بپوتسدام

Deutsches Zentral Archiv Potsdam.

وثائق وزارة الخارجية الألمانية :

48004 Kulturpolitische Abt. Berichte über die Lage in Indien und
Zuweisungen und Pläne für die Indienpropaganda.

48037 Kulturpolitische Abt. Verschiedenes.

48039 „ „ „

48061 „ „ Rundfunksendungen.

48064 „ „ Berichte über die Lage in Indien und Zuweis-
ungen und Pläne für die Indienpropaganda.

48065 Kulturpolitische Abt. Berichte über die Lage in Indien und
Zuweisungen und Pläne für die Indien propaganda.

- 58510 Zeitungssammlung. Beirichte über die türkische, irakische, syrische arabische und Palastinapresse.
- 60658 Hauptreferat Presse. Graf Ciano in Berlin 1940.
- 60966 Büro RAM Aufzeichnungen über politische Gespräche.
- 60967 „ „ „ „ „
- 60968 „ „ „ „ „
- 60969 Büro RAM Aufzeichnungen des RAM über seine Gespräche mit fremden Diplomaten 1936.
- 60970 Büro RAM Aufzeichnungen des RAM über seine Gespräche mit fremden Diplomaten 1937.
- 60971 Büro RAM Aufzeichnungen des RAM über seine Gespräche mit fremden Diplomaten 1938.
- 60972 Büro RAM Aufzeichnungen über politische Gespräche.
- 68425 Kriegsgerät Ägypten.
- 68445 „ Palästina.
- 68464 „ Transjordanien. F
- 68470 „ Yemen.

وثائق وزارة الاقتصاد الألمانية :

- 5433 Luftverkehrsgesellschaft Iratra im Irak 1931 - 1932.
- 11863-11863 British Oil Development Co. Irak, Finanzierung der deutschen Beteiligung.

وثائق وزارة التربية والدعاية الألمانية :

- 1 a - h Ministerbüro Protokoll der täglichen Konferenzen des Ministers Dr. Goebbels mit den Abteilungsleitern 1939-1941.
- 43 Kolonialfrage in der Presse, 1936 - 1937.
- 110 Personalakten Dr. Karl Megerle 1933 - 1938.
- 552 Abt. IV Theater. Ägypten 1935 - 1939.
- 561 „ „ „ Irak 1936 - 1939.
- 565 „ „ „ Iran 1933 - 1935
- 646 Abt. Rundfunk. Deutsche Sendungen in maghrebinischer Sprache.
- 712 Flugblattpropaganda in arabischen Ländern 1944.
- 720 Tagung des grossen Zionistenrates in New York 1944.
- 822 Deutsche Rundfunkpropaganda zur Unterstützung von Subhas Chandra Bose (Concordia Plan H) 1941 - 1942.
- 827 Büro G. Aufbau der Deutschen Geheimsender.
- 851 Aufstellung der einzelnen Concordia Sendungen.
- 890 Internationaler Kongress "Das Weltjudentum in der Weltpolitik", Krakau Juli 1944.
- 932 Hintergründe des Irakischen Regierungsputsches 1937.
- 6969 Abt. VI. Irak.

المصادر المنشورة

(مجموعات من الوثائق والمذكرات وسجلات المحاكمات
والمنشورات الرسمية)

- Abd Allah Ibn Husein, Memoirs of King Abdallah of Transjordan, London, 1950.
 , My Memoirs Completed, Washington, 1954.
 Abetz, Otto, Das offene Problem. Ein Rückblick auf zwei Jahrzehnte deutscher Frankreichpolitik (Cologne, 1951).
 (مسألة مفتوحة - أضواء على عقدين من سياسة ألمانيا إزاء فرنسا).
 , D'Une prison, Paris, 1949.
 Alanbrooke, Lord, The Turn of the Tide, London, 1957.
 Alexander, H., The African Campaign from El-Alamein to Tunis, from 10th August 1942 to 13th May 1943. Supplement to London Gazette, February 5th, 1948.
 , The Alexander Memoirs, London, 1962.
 Les Allemands en Syrie sous le gouvernement de Vichy, London, 1942.
 Publications de la France Combattante.
 American Christian Palestine Committee, The Arab War Effort : a Document Account, New York, 1947.
 Amery, L.S., My Life, 3 Vols., London, 1955.
 The Arab Office, The Future of Palestine, Geneva, 1947.
 Assmann, K., Deutsche Schicksalsjahre Wiesbaden, 1950. (عام مصير ألمانيا)
 Auchinleck, C., Operations in the Middle East, 5th July 1941 - 31st. October 1941. Supplement to London Gazette, January 15th, 1948.
 Aujol, J - L., Le Procès Benoist - Mechin, Paris, 1948.
 Bourguiba, H., La Tunisie et la France, Paris, 1954.
 Bullard, R., The Camels must Go, London, 1961.
 Butcher, H.S., My Three Years with Eisenhower, New York, 1946.
 Butler, J.R.M., Grand Strategy, Vol. II, London, HMSO, 1957.
 Cavallero, U., Commando Supremo. Diario 1940 - 1943 del Capo di SMG, Milan, 1948.
 Catroux, G., Dans la Bataille de la Méditerranée : Egypte - Levant - Afrique du Nord 1940 - 1944, Paris, 1949.

De Chair, S., The Golden Carpet, London, 1944.

Churchill, W.S., The Second World War, Vols. III, IV, London, 1951.

(Ciano, G.) Ciano's Diary 1939 - 1943, London, 1947.

—, Ciano's Diplomatic Papers, London, 1948.

Davis, H.M., Constitutions, Electoral Laws, Treaties of States in The Near and Middle East, Durham, N.C., 1947.

Dekel, E., SHAI, The Exploits of the Hagana Intelligence, New York, 1959.

La Délégation Française Auprès de la Commission Allemande d'Armistice. Recueil de documents publiés par le Gouvernement Français, Vols. I-V, Paris, 1947 - 59.

I Documenti Diplomatici Italiani, Ottava Serie, Vols. XII - XIII; Nona Serie, Vols. I - IV, Rome, 1952 - 60.

Documents on British Foreign Policy, Ser. D., Vols. III, V, VI, VIII-XIII, London, -Washington, 1950 - 64.

Documents on International Affairs, 1936, 1937, 1938, 1939, - 1946, London, RIIA, 1938 - 51.

Dokumenty S : Materialy Kanuna vtoroi mirovoi voiny

(وثائق وواد خاصة بمقدمات الحرب العالمية الثانية) ج ١ ، ج ٢ (موسكو

. (١٩٤٨)

Dokumenty ministerstva inostrannykh del Germanii, Uypusk 1 - 3

(وثائق وزارة الخارجية الألمانية . المجموعات ١ - ٣) . موسكو ١٩٤٦ .

Eppler, J.W., Rommel ruft Kairo. Aus dem Tegebuch eines Spiones. Bielefeld, 1959.

(روميل ينادى القاهرة . من يوميات جاسوس)

Gamelin, M.G., Servir, Paris, 1946 - 7.

De Gaulle, Ch., Mémoires de Guerre 1940 - 1946, 3 Vols. Paris, 1954-9.

Die Geheimakten des französischen Generalstabes.

(السجلات السرية للأركان العامة الفرنسية ، برلين ١٩٤١) .

Gelberg, L., Prawo miedzynarodowe i historia dyplomatyczna, Wybór dokumentów

(القانون الدولى وتاريخ الدبلوماسية . مختارات من الوثائق) الجزء اثنى ،

وارسو ١٩٥٨ .

Glubb, J.B., The Story of the Arab Legion, London, 1948.

Great Britain, Admiralty, Führer Conferences on Naval Affairs, London, 1947.

—, Central Office of Information, Paiforce: the Official Story of the Persia and Iraq Command, London, 1948.

—, Foreign Office, Statements of Policy in Respect of Syria and the Lebanon, 8th June - 9th September 1941, Cmd. 6600, London, 1945.

—, Palestine Land Transfer Regulations. Letter to the Secretary General of the League of Nations, 28th February 1940, Cmd. 6180, London, 1940.

—, Palestine Partition Commission Report, Cmd. 5854, London, 1938.

—, Palestine Royal Commission Report, Cmd., 5479, London 1937.

—, Palestine Statement of Policy, Cmd. 5513, London, 1937.

—, Palestine, Statement of Policy (The White Paper of May, 1939 Cmd. 6019, London, 1939.

Guingand, F., Operation Victory, London, 1947.

Halder, F., Kriegstagebuch, Vols. 1-2, Stuttgart, 1962-3.

Von Hentig, O.W., Mein Leben. Eine Dienstreise-Göttingen, 1962.

(حياتي — رحلة خدمة)

(Hitler, Adolf), Hitler e Mussolini. Lettere e documenti;

(هتلر وموسوليني — خطابات ووثائق) ميلانو ١٩٤٦.

—, Hitlers Tischgespräche im Führerhauptquartier 1941 - 1942

(خطبة هتلر من على المنصة في مقر قيادة النهر ، ١٩٤١ - ١٩٤٢)

بون ، ١٩٥١.

(English Translation published under title Hitler's Table Talk 1941 - 1942, London 1953.)

Hitler's Lagebesprechungen. Die Protokollfragmente seiner militärischen Konferenzen 1942 - 1945.

(هتلر يناقش الموقف الحربي ، مقتطفات من مؤتمراته العسكرية ، ١٩٤٢ -

١٩٤٥) شتوتجارت ، ١٩٦٢.

Hitlers Weisungen für die Kriegsführung 1939 - 1945.

(تعليمات هتلر الخاصة بإدارة الحرب) نشرها W. Hubatsch — فرانكفورت

على المين ، ١٩٦٢.

Les Lettres secrètes échangées par Hilter et Mussolini, Paris, 1946.

—, Le Testament politique de Hitler, Notes recueillies par Martin Bormann, Paris, 1959.

Hull, C., The Memoirs of Cordell Hull, 2 Vols. New York, 1948.

Hurewitz, J.C., Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. II, 1914 - 1956, Princeton, N.J., 1956.

Jewish Agency for Palestine, Documents and Correspondence Relating to Palestine, August 1939 - March 1940, London, 1940.

—, The Jewish Case before the Anglo-American Commission of Enquiry on Palestine, Jerusalem, 1947.

Juin, A.P., Memoires, Alger, Tunis, Rome, Vol. I, Paris, 1959.

Kesselering, A., Gedanken, zum zweiten Weltkrieg.

(تأملات عن الحرب العالمية الثانية) ، بون ١٩٥٥ .

—, Soldat bis zum letzten Tag

(جندى إلى النهاية) : بون ، ١٩٥٣

Kirkbride, A.S., A Crackle of Thorns, London, 1956.

Knatchbull-Hugessen H., Diplomat in Peace and War, London, 1949.

Leverkühn, P., Der Geheime Nachrichtendienst, der deutschen Wehrmacht im Kriege.

(المخابرات السرية التابعة للجيش الألماني أثناء الحرب)

Frankfurt, a/M., 1957.

London, G. L'Amiral Estéva et le Général Dentz devant la Haute Cour de Justice, Lyons, 1945.

Long, G., Greece, Crete and Syria, Canberra, 1953.

Magen b'seter (الدرع المحبوس) Tel Aviv, 1948.

Messe, G. and Sogno, V., Operazioni Italo Tedesche in Tunisia, 11, Novembre 1942 - 13 Maggio 1943.

2 Vols. Rome, 1950, 1952.

(العمليات الإيطالية — الألمانية في تونس)

Messe, G., La mia armata in Tunisia.
Milan, 1960.

(جيشي في تونس)

Montgomery, B.L., The Memoirs of Field Marshal Viscount Montgomery of Alamein, London, 1958.

The Nation Associates, The Arab Higher Committee, Its Origin, Personnel and Purpose, New York, 1947.

The Record of Collaboration of King Farouk of Egypt with the Nazis and their Ally, The Mufti, New York, 1948.

Nazi Conspiracy and Aggression, 8 Vols. with Supplement A and B., Washington, 1964 - 7.

Nazi-Soviet Relations 1939 - 1941, Documents from the Archives of the German Foreign Office, Washington, 1948.

Palestine Government, A Survey of Palestine prepared in December 1945, for the Information of the Anglo-American Committee of Inquiry, 2 vols., Jerusalem, 1946.

Von Papen, F., Die wahrheit eine Gasse (نافذة على الحقيقة) Munich, 1952.

Peterson, M., Both Sides of the Curtain. An Autobiography. London, 1950.

Playfair, I.S.O., and others, the Mediterranean and the Middle East, Vols, 1 - 3 London, H.M.S.O., 1954 - 9.

Le Procès du Maréchal Pétain : compte rendu sténographique, 2 vols, Paris, 1945,

Prozess VII (Trial VII, the so called Balkan Trial), mimeographed.

Prozess XI (Trial XI, the so called Wilhelmstrasse trial), mimeographed.

Rahn, R., Ruheloses Leben, Aufzeichnungen und Erinnerungen

(حياة قلقه — سجلات ومذكرات) — دسلدورف ، ١٩٤٩ .

Reynaud, P., Au coeur de la mêlée, Paris, 1951.

Rintelen, E., Mussolini als Bundesgenosse (موسوليني حليفا) Tubingen and Stuttgart, 1951.

Rommel, E., Krieg ohne Hass, (حرب بدون كراهية) Heidenheim, 1950.

Roosevelt, F.D., The Roosevelt Letters, London, 1949-52.

El-Sadat, A., Revolt on the Nile, London, 1957.

As-Said, N., Arab Independence and Unity, Baghdad, 1943.

Sherwood, R.E., Roosevelt and Hopkins : An Intimate History, New York, 1948.

Simonini, L., Berlino, ambasciata d'Italia, 1939 - 43.

(سفارة إيطاليا في برلين ، ١٩٣٩ — ١٩٤٣) — روما ، ١٩٤٦ .

Soustelle, J., Envers et contre tout, Vols. 1 - 2, Paris, 1947 - 1950.

Stark, F., East is West, London, 1945.

Von Steffen, H., Salaam, Gaheimkommando zum Nil - 1942. Neckargemünd, 1960.

(سلام — قيادة النيل المصرية) .

Trial of the Major War Criminals before the International Military Tribunal, 42 vols., Nuremberg, 1947 - 9.

U.S. Department of State, Papers relating to the Foreign Relations of the United States, 1937, Vol. 2; 1938, vol. 2, 1939, Vol. 4, 1940. Vol. 3, 1941, Washington, 1954 - 1959.

Wavell; A.P., Operations in the Middle East from August 1939, to November 1940, Supplement to London Gazette, June 13th, 1946.

—, Operations in the Western Desert from December 7th, 1940 to February 7th, 1941, Supplement to London Gazette, June 26th, 1946.

—, Operations in the Middle East from 7th. February 1941, to 15th July 1941, Supplement to London Gazette, July 3rd. 1946.

—, Dispatch on operations in Iraq, East Syria and Iran from 10th April 1941, to 12th. January 1942, Supplement to London Gazette, August 8th, 1946.

Weizmann, Ch., Trial and Error, New York, 1949.

Weizsäcker, E., Erinnerungen; Munich, 1950 (English Translation entitled Memoirs, Chicago, 1951.)

Wells, S., We Need Not Fail, Boston, 1948.

Weygand, M., Mémoires, Paris, 1950.

Wilson ,H.M., Eight Years Overseas 1939 - 1947, London 1950.

—, Operations in the Middle East from 16th. February, 1943 to 8th January 1944, Supplement to London Gazette, November 12th, 1946.

Yalman, A.E., Turkey in My Time, University of Oklahoma Press, 1956.

عبد اللطيف البغدادي ، ما قبل الضباط الأحرار — هذه الثورة . القاهرة ،

١٩٥٣ .

عثمان كمال حداد ، حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ . صيدا ،

١٩٥٠ .

الحسيني ، محمد أمين ، مذكرات مفتي فلسطين . أخبار اليوم — القاهرة .

٢٨ سبتمبر ١٩٥٧

الصباغ ، صلاح الدين ، فرسان العروبة في العراق . دمشق ، ١٩٥٦ .

القاضي ، علّال ، الحركة الاستقلالية في المغرب العربي . القاهرة ، ١٩٤٨ .

مفاجأة بعد نشر الوثائق السرية . الأخبار — القاهرة : ٢ سبتمبر ١٩٥٧ .

وثائق هتلر تنير ضجة . الأخبار — القاهرة : أول سبتمبر ١٩٥٧ .

٢ - أبحاث هامة

- Antonius, G., Arab Awakening, The Story of the Arab National Movement, London, 1945.
- Aron, R., Histoire de Vichy, Paris, 1954.
- De Belot, R., La Guerre aéronaval en Méditerranée, 1939 - 1945, Paris, 1950.
- Bernotti, R., Storia della guerra nel Mediterraneo, 2nd? ed., Rome, 1960.
- De Bourbon, X., Les Accords secrets franco-anglais, Paris, 1949.
- Bragadin, M.A., Che he fatto la marina?
- (ما الذى قامت به البحرية ؟) . الطبعة الرابعة ، ميلانو ١٩٥٩ .
- Bullard, R., Britain and the Middle East, London, 1951.
- Cambon, H., Histoire de la Guerre de Tunis, Paris, 1948:
- Earle, E.M., Turkey, the Great Powers and the Baghdad Railway, New York, 1923.
- Von Eisebeck, H.G., Afrikanische Schicksalsjahre. Geschichte des Deutschen Afrika - Korps unter Rommel.
- (سنوات مصيرية في إفريقيا - تاريخ فيلق إفريقيا الألماني تحت قيادة روميل)
قايسبادن ، ١٩٤٢ .
- Falsifikatory istorii (مزيفو التاريخ) Moscow, 1948.
- Farmer, P., Vichy Political Dilemma, Columbia U.P., 1955.
- Fischer, F., Griff nach der Weltmacht, (السعى وراء السيطرة على العالم)
Dusseldorf, 1961.
- Fisher, S.N., The Middle East. A History, London, 1959.
- Fuller, J.F.C., The Second World War 1939 - 1945, London, 1948.
- Garas, F., Bourguiba et la naissance d'une nation, Paris, 1956.
- Gorlitz, W., Der Zweite Weltkrieg 1939 - 1945.
2 vols, Stuttgart, 1951.
- Great Britain and Egypt 1914 - 1951, London, RIIA, 1952.
- Hart, Liddell, The Other side of the Hill, London, 1948.
- Hinsley, F.H., Hitler's Strategy. Cambridge, 1951.
- Hourani, A.H., Syria and Lebanon, A Political Essay, London, 1946.

- Hüber, R., Arabisches Wirtschaftsleben (الاقتصاد العربي)
Heidelberg, 1943.
، Deutschland und der Wirtschaftsaufbau des Orients
(ألمانيا والتطور الاقتصادي في الشرق) Stuttgart, 1937.
- Hurewitz, J.C., The Struggle for Palestine, New York, 1950.
- Istoriya diplomatii (تاريخ الدبلوماسية) Vol. III, Moscow, 1945.
- Istoriya Velikoi Otechestvennoi voiny Sovetskogo Soyuz.
- (تاريخ الحرب الوطنية للاتحاد السوفيتي) ، الأجزاء ١ - ٣ . موسكو
١٩٦٠ - ١٩٦١ .
- Jacobsen, H.A., and Rohwer, A., Entscheidungsschlachten des zweiten Weltkrieges. Frankfurt a/M., 1960.
(المعارك الحاسمة أثناء الحرب العالمية الثانية) .
- Jones, F.C., Borton, H., and Rearn, B.R., The Far East 1942 - 1946.
(Survey of International Affairs, 1939 - 1946 Series) London, 1955.
- Kedourie, E., England and the Middle East. The Destruction of the Ottoman Empire : 1914 - 1921, London, 1956.
- Khadduri, M., Independent Iraq 1932 - 1958. A Study in Iraqi Politics, London, 1960.
- Kirk, G., The Middle East in the War (Survey of International Affairs 1939 - 1946) Series, London, 1954.
، A Short History of the Middle East from the Rise of Islam to Modern Times, London, 1948.
- Laffargue, A., Général Dentz. Paris - Syrie 1941. Paris undated.
- Langer, W.L., Our Vichy Gamble, New York, 1947.
- ، and Gleason, S.E., The Undeclared War, New York, 1947.
- Levin, I., Podgotovka voiny na arabskom Vostoke.
(الاستعدادات للحرب في المشرق العربي) . موسكو ، ١٩٣٧ .
- Longrigg, S.H., Iraq 1900 - 1950, London, 1953.
، Oil in the Middle East, 4th ed., London, 1960.
، Syria and Lebanon under the French Mandate, London, 1958.
- Lugol, J., Egypt and World War II, Cairo, 1945.
- Marinucci de Reguardati, C., Irak, 2 vols, Rome, 1955 - 6.
- Marlowe, J., Anglo Egyptian Relations 1800 - 1953, London, 1954.
، The Seat of Pilate. An account of the Palestine Mandate, London, 1959.

Mirskii, G.I., Irak w smutnoe vremya 1930 - 1941.

(عهد التلاقل في العراق) : موسكو ، ١٩٦١ .

Monroe, E., The Mediterranean in Politics, London, 1938.

Pajewski, J., 'Mitteleuropa' Studia z dziejów imperializmu nienieckiego. Poznań, 1959.

(وسط أوروبا ، دراسات عن الإمبريالية الألمانية) .

Pearlman, M., Mufti of Jerusalem, London, 1947.

Philby, H. St., Arabian Jubilee, London, 1954.

-, Saudi Arabia, London, 1955.

Piawski, K., Monachium 1938. Polityka rządów Anglii i Francji wobec faszystowskich Niemiec.

(ميونخ ١٩٣٨ . سياسة الحكومتين البريطانية والفرنسية إزاء ألمانيا الفاشية)

وارسو ١٩٥٧ .

-, Polityka europejska w okresie pomonachijskim X. 1938 - III. 1939.

(السياسة الأوروبية في أعقاب ميونخ أكتوبر ١٩٣٨ - مارس ١٩٣٩) .

وارسو ، ١٩٦٠ .

Reisner, I.M. (ed.), Noveishaya istoriya stran zarubezhnogo Vostoka Moscow, 1954 - 5.

(التاريخ الحديث للشرق غير السوفييتي)

Siebert, F., Italiens Weg in den Zweiten Weltkrieg

(كيف دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية) : فرانكفورت على المين ،

١٩٦٢ .

Temperley, H.W.V. (ed.), A History of the Peace Conference in Paris, Vol. VI. London, 1926.

Von Tappelskirch, K., Geschichte des zweiten Weltkrieges.

(تاريخ الحرب العالمية الثانية) بون ، ١٩٥١ .

Toynbee, A.J., and Toynbee, V. (ed.), Survey of International Affairs 1939 - 1946 Series :

The Eve of War, London, 1958.

Hitler's Europe, London, 1958.

Initial Triumph of the Axis, London, 1958.

The War and the Neutrals, London, 1956.

The World in March 1939, London, 1952.

- Twitchell, K.S., Saudi Arabia, Princeton, 1953.
- Vernier, B., La Politique islamique de l'Allemagne, Paris, 1939.
- Vatolina, L., Sovremennyy; Egipet (مصر المعاصرة) .
Moscow, 1949.
- Weinberg, G.L., Germany and the Soviet Union 1939 - 1941.
Leiden, 1954.
- Wiskemann, E., The Rome-Berlin Axis, London, 1949.

الفهرس

صفحة

٥	تصدير
٧	المختصرات
٩	المقدمة
١١	الفصل الأول : الدول الكبرى والمشرق العربي :
١١	توسع الدول الكبرى في الإمبراطورية العثمانية
١٣	خطط تقسيم الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى
١٧	تقسيم الأراضي العربية بعد الحرب العالمية الأولى
٢٦	إيطاليا وألمانيا في المشرق العربي
٣٦	الفصل الثاني : ألمانيا النازية وتقرير لجنة بيل :
٣٦	نشوب الثورة العربية في فلسطين
٣٩	تقرير اللجنة الملكية
٤٢	مصالح ألمانيا في فلسطين
٤٦	نذر التحول في سياسة ألمانيا
٥١	محاولة العرب ضمان مساعدة ألمانيا
٥٥	دوافع ألمانيا السياسية
٥٩	اتجاه ألمانيا
٦٤	الفصل الثالث : نتائج أزمة تشيكوسلوفاكيا :
٦٤	ازدياد توتر العلاقات الدولية والموقف في المشرق العربي
٦٩	ألمانيا والعربية السعودية
٧٤	رحلة جروبا إلى جدة
٧٨	المفاوضات حول تزويد العربية السعودية بالأسلحة
٨٦	علاقة ابن سعود بإنجلترا

صفحة

٨٩	الفصل الرابع : اندلاع الحرب :
٨٩	الحلفاء والبلدان العربية
٩١	الموقف في سوريا ولبنان
٩٢	الموقف في فلسطين
٩٤	موقف مصر
٩٦	موقف العراق
٩٧	موقف الملك ابن سعود
٩٩	ألمانيا والبلدان العربية
١٠٥	الفصل الخامس : سقوط فرنسا وتصريحها ٢٣ أكتوبر و ٥ ديسمبر ١٩٤٠ :
١٠٥	سقوط وزارة على ماهر باشا
١٠٨	قيام وزارة جديدة في العراق
١١١	زيارة ناجي شوكت لتركيا
١١٢	النشاط الدبلوماسي في بغداد
١١٥	مفاوضات حداد مع الألمان
١٢١	وجهة النظر الإيطالية وتصريح ٢٣ أكتوبر ١٩٤٠
١٢٨	التحفظات العربية
١٣٢	الفصل السادس : العراق على شفا الثورة :
١٣٢	خطط ألمانيا في البحر المتوسط
١٣٦	هزائم إيطاليا والتعليقات رقم ٢٢
١٤٠	الموقف في البلدان العربية
١٤٣	الصراع السياسي في العراق
١٤٩	مطالب رشيد عالي - رحلة حداد الثانية.
١٥٤	الفصل السابع : الألمان والثورة العراقية :
١٥٤	بعثة فون هنتج إلى سوريا
١٥٦	مسألة تزويد العراق بالأسلحة

صفحة

١٦٠	موقف إيطاليا من تنشيط العمل في العراق
١٦٤	مذكرة فومان المؤرخة ٧ مارس ١٩٤١
١٧٠	الشرق الأوسط وعملية برباروسا
١٧٣	قرار ريبنتروب - رسالة فايز ساكر إلى مفتي القدس السابق
١٧٦	قرارات أخرى : الدعاية ، وزارة الدفاع ، سوريا

الفصل الثامن : نشوب الثورة في العراق :

١٨١	انقلاب بغداد
١٨٤	الأسباب الدولية للانقلاب
١٨٨	السياسة البريطانية في العراق (أبريل ١٩٤١)
١٩٤	المحور ومطالب العراق
١٩٧	مشكلة تزويد العراق بالأسلحة
٢٠٢	قرار مساعدة العراق
٢٠٦	القتال في العراق :
٢٠٨	توسط تركيا
٢١١	بعثة جروبا.
٢١٣	بروتوكولات باريس
٢١٦	بعثة ران
٢١٩	المعونة الألمانية
٢٢٢	العمليات الحربية
٢٢٨	هزيمة رشيد على

الفصل التاسع : ألمانيا ومعارك سوريا :

٢٣٠	ألمانيا وفيشي بعد بروتوكولات باريس
٢٣٤	مشكلة المساعدة الألمانية
٢٤٠	تركيا والحرب في سوريا

صفحة

٢٤٤	• • • • •	النشاط الألماني لدى العرب
٢٥٠	• • • • •	القتال والهدنة
٢٥٦	• • • • •	الفصل العاشر : اتساع نطاق الحرب وسياسة النازي العربية :
٢٥٦	• • • • •	الموقف العسكري والسياسي بعد الهجوم على الاتحاد السوفيتي
٢٦٠	• • • • •	مغزى النضال الدائر في البحر المتوسط
٢٦٢	• • • • •	الخطط الاستراتيجية التي تلت بربروسا
٢٦٧	• • • • •	فشل بربروسا والهجوم الياباني على بيرل هاربور عام ١٩٤٢
٢٧٤	• • • • •	من طهران إلى برلين
٢٧٩	• • • • •	الفصل الحادي عشر : تصريحات جديدة بشأن المسائل العربية :
٢٧٩	• • • • •	صيف عام ١٩٤١
٢٨٢	• • • • •	وصول المفتي ومسودة التصريح الإيطالي
٢٨٥	• • • • •	الاعتراضات الفرنسية والتركية
٢٨٧	• • • • •	موقف هتلر
٢٩٢	• • • • •	محاولات أخرى لاستصدار تصريح
٢٩٦	• • • • •	تبادل الرسائل
٣٠١	• • • • •	الفصل الثاني عشر : الهجوم المحوري على مصر :
٣٠١	• • • • •	الموقف الحربي في ربيع وصيف عام ١٩٤٢
٣٠٤	• • • • •	الاتصالات الألمانية المصرية
٣١٠	• • • • •	الانقلاب في مصر
٣١٤	• • • • •	الألمان ومصر
٣٢٠	• • • • •	مسألة إقامة نظام احتلال
٣٢٢	• • • • •	المسائل الاقتصادية
٣٢٦	• • • • •	اندحار المحور في مصر

٣٢٨	الفصل الثالث عشر : الكتيبة العربية والنزاع بين المفتي والكيلاني
٣٢٨	وحدة التدريب العربية - الألمانية
٣٣٢	الخلافاً حول الفرقة العربية
٣٣٥	الخلافاً حول استخدام وحدة التدريب العربية - الألمانية
٣٤٠	الصراع في سبيل القيادة
٣٤٣	ألمانيا وإيطاليا ومطامع المفتي
٣٤٧	وجهات نظر المفتي
٣٥٠	نتائج رحلة إيتل
٣٥٣	الفصل الرابع عشر : : فصل ختامي عن تونس:
٣٥٣	احتلال تونس
٦٥٦	الأميرال إستيفا
٣٥٧	احتلال بنزرت
٣٥٨	مشكلة المؤخرة
٣٦٠	المتعاونون المتطرفون
٣٦٣	الإدارة الفرنسية
٣٦٤	تنظيم الفصائل الفرنسية
٣٦٧	أطماع الإيطاليين في تونس
٣٦٩	وضع إيطاليا في عامي ١٩٤٢ - ١٩٤٣.
٧٣١	إنعقاد مؤتمر في روما
٣٧٢	الدعاية الألمانية في المغرب
٣٧٣	رسالة إلى الباي
٣٧٤	اقتراح المفتي
٣٧٧	ألمانيا وإيطاليا وخطط المفتي
٣٨٠	محاولة الاتفاق مع بورقيبة
٣٨٣	المحور والوطنيون التونسيون :

صفحة

٣٨١	انتعاش الحركة الوطنية
٣٨١	المحور وبلاط الباي
٣٨٩	عودة بورقيبة
٣٩٠	الجنود العرب في القوات المسلحة الألمانية
٣٩٢	تجنيد العرب في تونس
٣٩٣	آمال الألمان في تونس
٣٩٥	العمليات الحربية
٣٩٨	الأيام الأخيرة من الاحتلال المحوري
٤٠١	خاتمة : البلاد العربية والمنفيون في عام ١٩٤٣ :
٤٠٤	مسألة إصدار تصريح
٤٠٧	نشاط آخر للمفتي .
٤١٠	السياسة الدولية والحركة القومية
٤١٢	فلسفة الأجناس والفكرة الأوروبية
٤١٣	مقتضيات الحرب
٤١٩	المصادر

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبيد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة